القرآن الكريم

البيان الخالد

لسان الغيب في عالم الشهادة

فتح الله كولن

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ
الْبَحْرُ
قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ
مَدَدًا﴾

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على إمام الأنبياء وقائد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن سار على دربهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وبعد:

فإن البيان الوحيد الذي كُتبَ له الخلودُ المطلق هو القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

إنه خطبة الحق ورسالة السماء إلى الأرض، وهو البيان الخالد الذي حملَ من المعاني ما تعجز عن حمله الأسفار والأساطير، وهو لسان الغيب في عالم الشهادة.

وهو الذي تأخذُ لمساته البيانيّة بألباب اللغويّين، وتترك العقلاء سكارى وما هم بسكارى، ولكن البيان القرآنيّ بديعٌ فريد.

وقد يكون الإبداعُ والتفرّدُ في الأسلوبِ سببًا في استثارة المخاطبين وتحريك نزعة الرفض والإنكار لديهم، وهذا ما نتج عن القرشيين عندما سمعوا القرآن، ولكن على الرغم من ذلك فقد استحسنوا أسلوبه البديع وعظَّموه؛ مذعنين لسلطانه المكين في أسلوبه المبين؛ إذ إنه يحلق بالمستمع في جوٍّ دافئ لطيف، ويحيط به فيأسر لبّه؛ فما أكثر من استمعوا إليه فلم يستطيعوا أن ينعتقوا من تأثيره الأخاذ، بل منهم من آمن به على جناح السرعة كالفاروق عمر ﷺ، وأما من أبى واستكبرَ فقد أذعن لعظمته وجلال قدره.

فهذا الوليد بن المغيرة -رغم عتوّه وضلاله- لما استمع إلى القرآن من فمِ رسول الله ﷺ رقَّ أيّما رقّة، وتأثّر أيّما تأثُّر، فجاءه أبو جهل منكرًا عليه تأثّره، فقال الوليد: "والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا".

وجمع قريشًا عند حضور الموسم، وقال: "إن وفود العرب ترِد، فأجمعوا فيه رأيًا، لا يكذّب بعضكم بعضًا، فقالوا: نقول كاهن! قال: والله ما هو بكاهن، ما هو بزمزمته ولا سجعه.. قالوا: مجنون! قال: ما هو بمجنون، ولا بخنقه ولا وسوسته.. قالوا: فنقول: شاعر! قال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر كله، رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه، ما هو بشاعر.. قالوا: فنقول: ساحر! قال: ما هو بساحر، ولا نفثه ولا عقده.. قالوا: فما نقول؟ قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا وأنا أعرف أنه باطل، وإن أقربَ القول أنه ساحر..

لقد سحَرَه القرآن ببيانه البديع، وأخذ بمجامع قلبه؛ إلى أن حيّره وجعله يضرب أخماسه بأسداسه معمِلًا ذهنه في التفكير لكن دون جدوى..

وإن القارئَ والمستقرئَ لهذا الكتاب سيلاحظ كيف أنَّ الكاتب يطوِّف حول عظمة البيان مصطحبًا معه القرّاء في رحلات استكشافٍ حول جزالة النظم وخلود البيان وعُمْق الاختزان.. إنه مثلًا عندما يتناول مسألة الحروف المقطعة التي صُدِّرت في أوائل بعض السور يقولُ فيُجيدُ ويُفيدُ:

> "ومن النكات البديعة للحروف القرآنية المقطعة أن زيادتها ونقصانها في سورها له نسق يطّرد مع ترتيبِ ورودها، ومن ذلك مثلًا:
>
> سورة الرعد تبدأ بـ﴿الٓمٓرۚ﴾ فترتيبها (أ، ل، م، ر)، ويتناقص عددها على هذا الترتيب أيضًا: فـ"أ" تكررت (625) مرة، و"ل" (479)، و"م" (260) مرة، و"ر" (127) مرة.
>
> وثَمَّةَ سورٌ سوى هذه يلاحظ فيها هذا التناسب الدقيق؛ منها سورة البقرة، فالحروف المقطعة فيها هي ﴿الٓمٓ﴾، وتكرارها في السورة كالتالي: تكرر حرف "أ" (4592) و"ل" (3204)، و"م" (2195)، فالانسجام في الترتيب جليّ فيها؛ وهو كذلك في سورة آل عمران، فالحروف المقطعة فيها هي: ﴿الٓمٓ﴾، وعددها في السورة مطّرد مع ترتيبها؛ فحرف "أ" تكرر في السورة (2578) مرة، و"ل" تكرر (1885)، و"م" (1251)، على التوالي، والأمرُ جارٍ في سورتي العنكبوت والروم لو عددْتَ حروفَهما.

وأما في سورة (يس) فكان العكس؛ فالحرف الأخير عدده في السورة أكثر، لأن ترتيب الحروف المقطعة فيها على خلاف ترتيبها الهجائي، بدأت بالياء وثنَّت بالسين، فجاء عدد السين أكثر من الياء". ا.هـ.

إنه يُبحرُ في هذا الميدان مبيِّنًا عظمة كتاب الله المسطور، وما فيه من جلال وجمال وكمال، ثمّ ينتقل إلى الربط والمقارنة بين المسطور والمنظور؛ فالقرآن الكريم هو كتاب الله المسطور، والكون هو كتاب الله المنظور، وإن فيما بين هذين الكتابين من الأهمّية والتضافر كما بين جناحي الطائر.. فكما يتعذّرُ الطيران بجناحٍ واحد؛ كذلك يتعذّر فهمُ الكونِ بالنسبةِ لمن أقبلَ على أحد هذين الكتابين وزهد بالآخر.

فأما الكتاب المسطور فهو منذ أن نزل على النورِ الخالدِ صلوات الله وسلامه عليه، ورغم توالي الأزمنة والعصور ثابتُ المبنى فضفاض المعنى.. وأما الكتاب المنظور فهو رحالةٌ من طورٍ إلى طور، وكما تبلى الأزمنة وتتعاقب وتتجدّد فإنّ الكون رغم ثباتِ أصوله يتطوّر ويتمدّد بفضل الإنسان، فتُضافُ إلى معالمه الأبراج العملاقة والكواكب الصناعية، والسيارات والطائرات، والهواتف النقّالة والرادارات ووسائل الاتّصال الحديثة وغيرها..

وهذا يعني بالضرورةِ عدمَ الاكتفاء بما قدمه العلماءُ والمفسّرون السابقون، حتى وإن كانوا يتدبّرون المسطورَ بعينٍ والمنظورَ بالأخرى، لأن الكتاب المنظور دائم التغيّر سريع التطوّر، وعلى رجال العلم في كل عصرٍ أن يواكبوا حركته ويجاروا تطوّرَه، وأن يُشمروا عن سواعد الجدّ والاجتهاد والحركيّة فيأخذوا العقلَ البشريَّ في سياحةٍ روحانية تدبريّة انطلاقًا من ركيزتين لا يُستغنى بإحداهما عن الأخرى؛ المسطورِ كما أُنزِلَ غضًّا طريًّا، والمنظورِ كما نراه في واقعنا وحياتنا العاديّة؛ ليُقدّموا للعالمِ قراءاتٍ في عالم القرآن الكريم من منظورٍ عصري، تستهدف إشهادَ كلِّ كتابٍ على الآخر، وتصديقَ كلٍّ منهما لِصِنْوه..

ولا نقول بأن مهمة هذه القراءات والسياحات التدبّرية إيجاد التوافق فيما بين الكتابين.. أبدًا.. فلا تعارض بينهما أصلًا، وليس من مهمّتها أيضًا أن تجبرَ القرآن وتلزمه بشمولية كلِّ اكتشافٍ

علميٍّ جديد بدعوى أنه "ما فرّطنا في الكتاب من شيء"، فتلوي عنق النصِّ لِتُطَوِّعَهُ في الدلالة على المكتشفات والحقائق العلمية الجديدة.. وإنما مهمتها إيضاح مكامن الاستشهاد وإبراز معالم الصلة الوثيقة، وبلورة التضافر المذكور.. وإرشادُ الناسِ إلى أن التدبّر ينبغي أن يكون على هذا المنوال، وعلى المتدبّر أن يقف على مسافةٍ واحدةٍ من كِلا الكتابين، آخذًا مضامينهما معًا بعين الاعتبار، مشاهدًا تأييد كلٍّ منهما للآخر وتضافره معه.

وليس من السهل على الإطلاق إجراء هذه السياحات الفكرية والجولات التدبّرية، بل إنها لتتطلّب غواصين مهرة وقامات عملاقة قادرة على الغوص تارة والتحليق تارة أخرى ضمن عمليّة معقّدة ودقيقة من الرصد والمتابعة والاستقراء والتحليل والتركيب والاستنباط، ولا يستطيع الاضطلاع بهذه المهمّة إلا بضعُ قاماتٍ طلّقوا المتع الدنيوية والهوى والنفس، واستهدفوا رفعة الأمة وإصلاحها ونهضتها، فهؤلاء هم رجال هذا العصر، فلكلّ عصرٍ دولة ورجال.

إن الكاتب ههنا عندما يشرع في رحلاته الفكرية وسياحاته التدبّرية للبيان الإلهي الخالد متحدِّثًا عن التطوّرات والحقائق العلمية؛ نراه يبتكرُ مصطلحاتٍ ومفاهيم جديدة وعصريّة، ويقرّر بأنه وفقًا للانفجار العلمي الهائل الذي نشهده في عصرنا الحالي فإنه سيتمّ وضعُ الموجودات جميعها تحت مجاهر المراقبة والرصد وأمام عدسات التجربة وقبالة تلسكوبات المشاهدة الحثيثة، وليس من الضروري ربطُ كلِّ اكتشافٍ علميٍّ جديد بالقرآن، ولكن البشرية حيثما تصل في نهاية رحلتها وخاتمة مطافها في استكشاف الكون والأنفس فستسمع كلّ شيءٍ ينادي بلسان الحال أو المقال أن: "لا إله إلا الله"، وذلك انطلاقًا من فيضِ قوله تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ (سورة فُصِّلَتْ: 53/41).

ثم يُعقّبُ على هذه الآية فيقول:

"وقد كان الخطاب في الآية وقتَ نزولها موجّهًا للصحابة، ولا ندري ما فهمه ذلك الجيل الطاهر والبريء، ولم تكن في ذلك الحين أدواتٌ تَرْصُد الآفاق، كما كان من غير الممكن التعرّف على كلّ جوانب النفس.. وأيضًا فلم تكن شعاعاتُ "إكس (X)"

قد اكتُشفت بعدُ، كما أنه لم يكن حينذاك المجهر الإلكتروني، ولكن القرآن كان يقول لهم: إننا سنجعل كلّ أحد في المستقبل يقول: "إنه الحق".. وهذا يعني أن هذه الآية كما كانت تفيد بالنسبة لهم أمورًا، فكذلك تهمس في أُذُن إنسان القرن العشرين أيضًا بعديد من الأمور.

أجل، إن إنسان هذا العصر بفضل التكنولوجيا المتقدمة يُعتبَر مُدركًا -إلى حدّ ما- لهذه البشارة الإلهية، فلقد اكتُشفت أسرارٌ كثيرة حول تشريح جسم الإنسان، وتم تمشيط جسم الإنسان بواسطة المجاهر الإلكترونية، وأجريت العديد من الأبحاث العميقة الأخرى في الآفاق والأنفس، وأصبح الوضع كأن فيه انفتاحًا على أبواب الغيب.

ومن جانب آخر يمكن الحديث في هذا السياق عن ملمح لطيف وهو: أن القرآن الكريم يَعرض الإنسانَ والكون للأنظار في آن واحد وفي نفس المستوى من الأهمية وبنفس الدقة، من دون ترجيحٍ لأحدهما على الآخر، ويريد منا فهمَ كل الوجود في تكامل تام، وفي الخطّ الممتد من أعماق الإنسان الداخلية إلى زوايا الكون الشاسعة، يؤكد على ضرورة البحث

في كل الوجود، ولزومِ بذل الجهد في اكتشاف الآيات الربانية، بأن يصرف الباحثون كلَّ ملكاتهم في هذا المجال، ويوجهُ إليهم أوامره الربانية وكأنه قائد يقول لجيشه: "انطلقوا".

فهذه النكتة الدقيقة تدل على أنه إذا كان لا بد من البحث عن الاستقامة الفكرية حتى في العلوم البحتة فإنما يمكن ذلك بفضل إجراء البحوث بمقاربة كلية، من دون التغاضي عن المناسبة بين (الإنسان-الكون-الله)، وبالانفتاح على الآفاق والأنفس معًا.

والحاصل أن القرآن الكريم حينما يقدم معلومات عن الأرضين والسماوات وكلِّ الوجود يستخدم أسلوبًا يتمتع بمستوى من قوة الإقناع بحيث يؤكد للإنسان أنه كلما

قطع شوطًا في الاكتشافات والاطلاعات والاختراعات الجديدة، فإنه سيتقاطع طريقه في مرحلة من المراحل مع حقيقة من الحقائق القرآنية، ويُذكِّره بالأيام القادمة التي سيتّضح فيها تعلُّق كل شيء بالله.

وليس من المعقول أن يكون كلامُ خالق جميع الكائنات متناقضًا مع الكون والطبيعة والعلوم؛ لذلك ليس من الممكن بتاتًا أن تكون المعلومات التي استقيناها من القرآن متناقضةً مع المعارف التي أخذناها من الكون بأي وجه من الوجوه، طبعًا إذا أخذناها بطريقة صحيحة.

وإذا رأينا تناقضًا بين العلوم وبين القرآن، فإما أننا فهمنا القرآن فهمًا خاطئًا، أو أننا ظننا بعض الفرضيات المطروحة على بساط البحث على أنها "حقيقة علمية". ا.هـ.

إننا نجدُ الكاتب يخوض غمارَ التدبّر بأدواتٍ جديدة، ويسبرُ أغوار الكون بمنطقٍ فريدٍ مفيد، ويتحدّث عن الجمود العلمي الذي سيطر على البشرية حقبةً من الزمان قبل عصرنا الحالي، وكيف أنه أنتج نظريّاتٍ لا حقيقة لها شغلت بال التاريخ ومختَلف المحافل العلميّة، وجعلتْها تتعثّر في طريقها نحو الحقيقة، ثم يُعقّب على أن العلم في انطلاقته المعاصرة التي جاءت بعد خمول طويلٍ قد دخلَ مرحلة جديدة تتّسمُ بأنها ستجعله يتجاوز نفسه ويسبقها محطِّمًا أرقامه القياسيّة ومتحرّرًا من أطره التقليدية التي لا تخرج عن عالم المادة، فإذا عاشَ العلم هذه المرحلةَ فسيهتفُ يومها قائلًا: "ربي الله".

ثمّ يجزم بأنه عند تحقق ذلك سيصل كلُّ عِلم واصلٍ ومُوصِلٍ إلى الله إلى مستوى لا نهائي، ولن يتعرض بعد ذلك لانسداد الطريق أو للتعثر بأمور أخرى، ولن يتعرض للتعارضات والتساقطات كسائر الفرضيات الأخرى.

ويُبيّنُ أنّ القرآن الكريم في هذا المضمار بالذات يضعُ لأرباب العلم هدفًا لا نهائيًا، فيخلصهم من التعثّر بنظريات ذات أحكام مسبقة تعترض طريقهم، ويرشدُهم إلى أن يُوَلُّوا وجوههم شطر النقطة النهائية التي لا يمكن الوصول إليها إلا بتطورات جديدة.. فالقرآن هو جوهر الحقيقة

وأساسها وخلاصتها، ولا مجال فيه للأخطاء والتصدعات والانكسارات، وهو كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه (أي في المستقبل) ولا من خلفه (أي من الماضي)، حيث يقول الله فيه: ﴿**وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۞ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ (سورة فصلت:41/41-42).

إنها حقًّا لمسات تصحّح المسار، وإرشاداتٌ تضع الباحثين على الطريق الصحيح، وبما أنّ خيرَ الكلام ما قلّ ودل، فلنترك الوقت للقراء الأعزاء كي يبدؤوا جولتهم التدبّرية ورحلتهم القرآنية؛ متمنّين لهم حسنَ الفهم وعمقَ النظر.. وطالبين من المولى أن يبارك في عمر وصحة المؤلف ليُتحِفَنا بكل ما هو جديد ومفيد..

سبتمبر/أيلول (2017م)

دار النيل للنشر والتوزيع

مـدخل

"الكتاب "لغةً: الجمع والضم، وإنما سُمِّيَ المؤلَّفُ كتابًا لأنه يجمع مسائل شتّى تبحث موضوعًا مَا ويؤلف بينها؛ ومثله الكون من حيث معناه ومحتواه، فهو أيضًا كتابٌ؛ فالفيزياء والكيمياء وعلومُ الفلك وآلاف العلوم الأخرى تشتبك وتتآزر في صفحات الكون؛ كيف لا، وَيَدُ "القدرة" و"الإرادة" هي التي خَطَّتْه فتَحققّتْ مفرداتُه كما سبق به القَدَر الإلهي، فالكون بحروفه وسطوره مرآةٌ لتجلياتِ الأسماء الحسنى والصفات الإلهية.

وكلمة "كتاب" إنما تتجلى بأسمى معانيها ومبانيها في القرآن الكريم:

إذ ليس كمثله كتاب جمعًا وإحاطة؛ فهو أحق بأن نسمّيَه "مَجمع البحرين"؛ ففيه يجتمع البحران، ويلتقي المحيطان.

وبه وحده انكشف للأنظار ما اجتمع في لُباب الوجود وقشوره ومظهره ومخبره

من إعجاز.

ولن تجد في الذروة كتابًا سواه يتآزر فيه اللفظ والمعنى ويجتمعان، ويوازنُ فيه بين الدنيا والآخرة بموازين القسط، وفي جمعه وتصديقه لما بين يديه من الكتب السماوية وجهٌ معجزٌ لا تراه في سواه.

وبهذه الوجوه يمثّل القرآن "مقام الجمع" في عالم البيان. أجل، إنه لكتاب عزيز جَمع "الحقائق الثابتة" و"الأعيان الثابتة"؛ ففيه اجتمع المُلك والملكوت، والشاهد والغائب من العوالم، وهو لسان عالم الغيب في عالم الشهادة، يخبر عنه على وجه لا يأتيه الباطل؛ فهو من هذا الوجه جامع مانع؛ ولهذه الخصائص صار لفظ "الكتاب" إذا أُطلق لا يتبادر منه إلى الذهن إلا القرآن.

واليوم كثيرون هم المفكرون المجمعون على أن في قابل السنين حقبةً يُقبل الناس فيها على القرآن؛ وحسبُك قليلٌ من التأمُّل لتدرك أن عصرنا هذا يغذّ السير نحو القرآن غذًّا لا تبلغه مَداركنا وتصوُّراتنا.

ولك أن تقول: إن من تدبّر القرآن -وإن على عَجَل- بوسعه أن يدركَ ما بين القرآن والكون من صلات، ويقف على صدقه في حديثه عن الكون، ولا يسعه إلا أن يقف مبهورًا أمام ما تحمِل رسائله من قوة ونور.

ومما يؤثَر عن أهل العلم والحكمة: لقد كَشَف هذا الكتاب الجليل لأنظار أولي العلم والمعرفة ما أُودِعَ في الكون من أسرار وما تكنّه روح الطبيعة من دقائق وكأنه كتاب يطالع بذوق ونهم.. إن القرآن هو الذي استقرأ جزئيات الوجود وكلياته، وبيَّنَ غايتَه ومحتواه وأُسُسَه، وعرضها للأنظار عرضًا لا يلتبس معه شيء.

وهو المعجزُ في بيانه، الذي يُنظِّم حياة القلب وما يليه من روح وفِكر، ويهديه إلى أسمى الأهداف، وما يزال به حتى يبلغها، ثم يأمره باللطف والرحمة والشفقة والعدالة في المعاملة، ويضرب بينه وبين السيئات والشرور بأسوارٍ يكاد يتعذر تَسَوُّرها.

وهو البيان الإلهي الذي ينبِّه الإنسان إلى طرق استثمار ما حباه الله من صحة وطاقة واستعدادات وقابليات وإمكانات وقدرات... ويعلِّمُه كيفية الاستفادة المُثلى من هذه النِّعم، وهو بهذا يربأ بالناس أن يتواكل أحدٌ على أحد.

هذا الكتاب هو منبع النور؛ فالذين نِيطَت قلوبهم به واتَّبَعوه تتّقد في أرواحهم جذوةُ مبادئ الحرية ومفاهيم العدالة وروحُ الأخوَّة ورغبةُ العيش من أجل الآخرين... وهكذا يُعلِّم هذا الكتاب مخلوقاتٍ من لحم ودم آدابًا تَغْدُو بها ملائكة، ويدلُّهم على سعادة الدارين، ويدَعُ أبوابها مُشْرَعةً أمامهم.

وهو الكتاب المرشد القدوة؛ يهدي عيونًا تفتَّحَتْ بفضله على الحقيقة، فيطوّف بها في العوالم الغيبية، ويسيح بالقلوب الشَّبْعى بالطمأنينة في أقاليم المهابة، ويجعل الأرواح السائحة منتشيةً بمشاعر الدهشة والإعجاب مما تلقاه، ويمدّ ذا الوجدان النزيه بنفحاتٍ جديدة في كل حين.

لقد أَنْقَذَ هذا الكتابُ الناسَ من شتى أنواع الضلال، وأرشدهم إلى سبيل الفضيلة، وبيَّن للناس أنَّ مَن أطاع أوامر الله تعالى فله من الجزاء الحَسَنِ والثواب العظيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت

ولا خطر على قلب بشر، وأنَّ مَن عصاه وضيَّع حدودَه فله من العقاب الشديد ما تَزيغ منه الأبصار، وتَبْلُغُ به القلوبُ الحناجرَ... وفي هذا التبيان توازن رائعٌ يبهر العقولَ والألباب.

وها هو ذا القرآن لم يزلْ كما نزل يوم أن شرَّف هذه البسيطة، وظلَّ الرسالةَ الإلهية الفريدةَ التي تقلَّدَت وسامَ المحافظة على أصلِها -أعني الوحي السماوي- رغم أن الجاحدين التُّعسَاء ممن دأبوا على العداوة والبغضاء بذلوا كمًّا هائلًا وهم يمارسون العدوان عليه محاولين تغييره وتحريفه.

والقرآن هو أبهى دُرّةٍ لِلَّوح المحفوظ، ويوم أن نزل لم يكن له مثيل أو نظير، وما يزال إلى اليوم مختصًّا بهذا التميز والقيمة والبيان، بل إنه لَيزداد أبّهة وروعة، وسيكون الزمنُ القادم إن شاء الله زمنَه الذي يعلو فيه بحقائقه فوق هامات الشموس.

ومنذ أن نزلَ وهو يحيط بجهات الكون شرقها وغربها وشمالها وجنوبها بأذرع نورانية، وينشر العلوم في كلّ مكان حتى غدت أنحاء المعمورة كلها من ربوع الجنان؛ وكان حَمَلة رايته يومئذ يُبَصِّرون الإنسانية بمسالك "حضارة القرآن"، ويمثّلون رسالته النورانية على أكمل وجه حتى لو أن من يُدعون أساتذة العالم اليوم كانوا

في زمنهم لَمَا صلحوا أن يكونوا من تلامذتهم المبتدِئين.

نزل القرآن المجيد برسالات نورانية أزلية وأبدية؛ لقد ربَّى أبداننا، وزكَّى قلوبَنا وأرواحَنا وعقولنا ووجداننا، وهيَّأَنَا لنكون "جيل المستقبل"، ونَصَبَ أمامنا الأهداف السامية التي تسمو على الذرى المادية والمعنوية، حتى أيقَنّا أنه سيصبح في المستقبل القريب كوثرًا ومنهلًا للأمم والدول الواعية؛ ولا ضير في عُمْيٍ لا يرون هذه الحقيقة وصمٍّ لا يسمعونها.

ولو أنّ مسلمي اليومِ ساروا على نهج القرآن وبلغوا مستوى المسلمين الأوائل في الصفاء -ولنا أن نزعم بأن ثمة جهودًا تسعى نحو هذا- لاستعادوا بحملة واحدة مكانَهم اللائقَ بهم في التوازن الدولي، ولَتَحرّروا وتخلّصوا من التسلي بتُرَّهات الآخرين في عَمَايات التقليد. نعم، إنَّ التحلي بأخلاق تلامذة القرآن الكريم الأوائل من إيمان وإخلاص وفضيلة وحركية أذهلت العالمَ وحَيَّرتْه مِن أهم ما على إنساننا اليوم تأمُّلَه بدقّة فائقة.

ومما يجدر تأمّلُه مليًّا وتقويمُه تقويمًا صائبًا، ويُعَدّ مثالًا بارزًا على المؤمنين أن يرجعُوا إليه دائمًا: ذلك الانقلاب العظيم الذي أحدَثَه في الإقليم النوراني للقرآن بضعةُ آلاف من الصحابة انبعثوا في مكة المكرمة من بين تلك الصخور الصماء، فأناروا بحَمْلة واحدةٍ شتى أصقاع المعمورة..

والقرآن منذ نزوله لم يكن ليُخَاتِل أو يُضلِّل من تعلقتْ قلوبُهم به، ولن يفعل ذلك بمن يقصدون رحابه النورانية، ولا يخذلهم ولا يخيِّب رجاءهم؛ فنحن نؤمن أنه إذا استنارت العقولُ بالحقائق العلمية وفاضت القلوب بمعرفة الحق تعالى، وخضع الوجود للبحث والتدقيق تحت مجهر العلم والحكمة، فإن كل ما يقرره العلم سيَخرج هو والقرآن من مشكاة واحدة.

والقرآن من حيث رسالته التي هي أكمل الرسالات: هو جملة القوانين الإلهية، نزل من أعلى الأعالي فبزغ في الآفاق الإنسانية، والقلبُ والروح والعقل والجسم مَرْعِيَّاتٌ له، كلٌّ بقدره.

هذا القرآن الذي لا مثيل له ولا شبيه، والذي يستطيع بمبادئه الإلهية الأبدية الثابتة أن يبلغ بالبشرية جمعاء السعادة من أقصر طريق وأقومه وأنوره؛ يتبعه نحو مليار من الناس اليوم.

وللقرآن سلطان لا تضاهيه سلطنة ما من حيث إنّه كان منبع النور لتلك الجماعة الأروع والأنور من بين من أداروا دَفّة الكرة الأرضية، واجتمع فيها ملايينُ العلماء وآلاف الفلاسفة والمفكرين.

ومنذ أن نزل القرآن كان عُرْضة لشتى أنواع الاعتراض والتحدي، لكنَّ القرآن غالبٌ فكان أن قضت كلُّ المحاكم التي نُصبت لذلك ببراءته وفوزه.

إن من آمن بالقرآن مؤمن بمحمدﷺ، ومن آمن بمحمدﷺ مؤمن بالله تعالى؛ ومن كفر بالقرآن فهو كافر بمحمدﷺ، ومن كفر بمحمدﷺ فهو كافر بالله تعالى، هذه هي أبعاد الإسلام الحقيقية.

وما القرآن إلا نورٌ يتجلّى في القلوب، ومنبعٌ للضياء يُنير الأرواح، وهو من أوله إلى منتهاه مَعْرِض للحقائق، ولن يعرفه حق المعرفة إلا الأرواح المؤمنة التي تستطيع أن ترى محاسن الكون كلها في زهرة، وأن تشاهد المحيطات في قطرة.

وأسلوب القرآن نسيجُ وحدِهِ، فما إن سمع آياتِه بلغاءُ العرب والعجم حتى خروا له ساجدين، وعندما رأى أهل النَّصَفة من الأدباء محاسنه ذَلَّت أعناقهم خاضعين بأدبٍ وتقديرٍ جمّ لسلطانه المُبين.

ولن يتحد المسلمون إلا إذا صدَّقوا القرآن تصديقًا عمليًّا، وآمنوا به إيمانًا يقينيًّا، وإلا فليسوا بمسلمين حقيقيين، ولا يمكن أن يؤسّسوا وحدة دائمة.

إن القول بأنَّ "الإيمان مسألة وجدانية" معناه أن الإيمان بالله تعالى وبرسولهﷺ وبالقرآن لا يكون باللسان فقط بل بالجَنان أيضًا، ومفهوم الإيمان هذا يجعل كل عبادة من العبادات مَظهرًا من مظاهر الارتباط.

عندما كانت الإنسانية غارقةً في ظلام الجهل والكفر والوحشية ظهر القرآن كبحرٍ لُجّي من نور يَمْخُر دياجير ذلك الظلام، إنها أول مرة في التاريخ يحدث فيها مثل هذا الانقلاب الكبير الشامل الذي لم يشهد له التاريخ مثيلًا، ولولا القرآن لما كان، وكفى بالتاريخ شهيدًا.

القرآن هو وحده الذي يعلّم الإنسان بأدق ميزانٍ معنى الإنسانية وماهيتها والحقَّ والحكمةَ وذاتَ الله تعالى وأسماءَه الحسنى وصفاتِه العليا، وليس كمثله كتاب في هذا الباب، ومن أراد أن يقف على ذلك بنفسه فحسبه أن يطالع حِكم الأصفياء والأولياء والفلاسفة الباحثين عن الحقّ.

والقرآن هو وحده الذي أمر بالعدالة الحقة والحرّية الحقيقية والمساواة المتوازنة والخير والشرف والفضيلة والشفقة حتى بالحيوان، وحرّم الظلم والشرك والجهل والرشوة والربا والكذب وشهادة الزور تحريمًا قاطعًا.

وهو وحده الذي صان اليتيم والفقير والمظلوم وسوَّى السلطان بالعبد، والقائد بالجندي، والمدَّعِي بالمدَّعَى عليه أمام المحكمة.

والذين يرون القرآن –حاشا لله– مصدرًا للأساطير والخرافات، هم الملحدون الذين ورثوا هذا الهذيان الأحمق عن عصر الجاهلية قبل أربعة عشر قرنًا، وإنّ الحكمة والفلسفة الحقيقية لَتَسْخران من هذه النظرة.

لقد بلغ من بيان القرآن الباهر أنَّه يَعِد هذا الإنسان -الذي أرسل إلى الدنيا بأسمى روح في أحسن تقويم- بأفضل صور السعادة والهناء، وبأفضل أشكال السمو والعلو والرقي، ويبلغ به أكثر أنماط الحياة إنسانيةً بأقوم الطرق ليرقى به إلى ذروة "الإنسان الكامل".

ألم ينظِّمْ هذا الكتاب المجيد حقوقَ الفرد والمجتمع والعلاقة بينهما في التعامل والسلوك والوظائف والمسؤوليات؟! ألم يحدّدِ المفاهيم الصحيحة لحقائق الحرية والعدالة والمساواة ويحقِّقْها دفعةً واحدة يومَ أنْ كان العالم أجمع يغرق في دياجير الظلام والغفلة والضلالة؟! ألم يقمْ بأقوى صراع ضد الظلم والطغيان؟! ألم يدعُ إلى رحمة وشفقة إنسانية شاملة لكل ذي روح؟! ألم يضع للحرب والسِّلم مقاييسَ إنسانية، فجعل من أتباعه دعاةً ورُعاةً للأمن والاطمئنان في الأرض ورموزًا للتوازن فيها؟!

يا له من كتاب نوراني يذكّر الإنسان بعجزه وفقره، فيكسر حدة غروره وأنانيته، ويؤجّج أشواقه ويدعوه لأن يبسط أشرعته للرحيل إلى ما وراء هذا الأفق.

يا له من نفحات ربانية! في كل أمر منه آلاف الفوائد، وفي كل نهي تذكير بأضرار لا تخطر على بال، إنَّه ليحملنا إلى سفوح الأمن والأمان، وبينما يحدو قلوبَنا برسائل العدالة والإحسان والأمانة ويُشهِدنا آفاق الجنة، يُمطرنا بالوعيد على المنكرات وسوء الخلق والعدوان على النفس والعرض والمال والحقوق، ولا يفتأ يدعونا لنلوذ بكنف الله وحفظه.

إنه كتاب يؤمن بسموّ درجات جميع الأنبياء والمرسلين السابقين وبجميع الكتب والصحف المنزلة عليهم ويسميها كتبًا وصحفًا مباركة، لا سيما التوراة والإنجيل والزبور.. لقد فصل فيما اختلفوا فيه، وصحّح ما حرّفوه، وصدَّق ما حُفِظ منها ولم يطله التبديل، أي إنه عثر على الكتب السالفة المفقودة بوجه ما وأظهرها، وذكر أنبياءها بكل تقدير وتوقير، لا سيما موسى وعيسى عليهما السلام، وعدّهما من "أولي العزم من الرسل"، فبرهن أنه كتاب ينطق بالحق؛ ثم ذكر بأن والدتي هذين النبيين العظيمين كانتا مصدرًا للإلهام، أي كانتا تملكان قلبًا وروحًا متميزين عن سواد الناس؛ وبذلك أثبتَ لذوي القلوب السليمة أنه إنما نزل لإحقاق الحق ووضع كل شيء في نِصابه.

ألم يكن ينبغي للذين يعترضون على القرآن وقيمه أن يقدموا أي بديلٍ صالح للنظام البشري وأمنه وسعادته ولو مؤقتًا، والحقيقة أنه يتعذر فهم سبب هذا العناد والتمرّد على القرآن ونحن نرى الحضارات المخالفة لنهج القرآن تتخبط وتعاني الويل والثبور وتتجرع الآلام، والقلوبَ المحرومة من نور القرآن تعاني أزمات نفسية حادة مؤلمة.

إن نمط الحياة الذي حضَّ عليه القرآن هو الأفضل للإنسانية والأكثرُ تنظيمًا، بل قل: جلُّ محاسن المدنية -مناط التقدير والإعجاب في أرجاء العالم كافة- ليست إلا شيئًا مما دعا إليه القرآن وحض عليه قبل قرون؛ إذًا فمن المقصِّر والمُلام؟!

ومن دأبوا على المغامرة في الاعتراض على القرآن واتخذوا هذا ديدنًا ومسلكًا لهم أكثرهم جَهَلة حتى بجهلهم، والأدهى والأمرُّ أن هذه الفئة البائسة لم تقرأ شيئًا عما تعترض عليه ولم تقم بأي بحث أو تدقيق علمي فيه؛ ولا فرق بينهم وبين الجاهل الذي يعادي الحقائق العلمية، وكأنه لا بد من الوقت لكي تصل الحقائق إلى الجماهير.

استطاع الإنسان بفضل القرآن أن يبلغ مرتبة سامية وهي مرتبة مخاطبة الله تعالى، وهو إن وَعَى هذه المرتبة وأقسم أن الله تحدث إليه وسمع كلامه سبحانه من خلال القرآن الكريم لم يحنث.

والذي يعيش في الجو النوراني للقرآن يحس ويشعر وهو في الدنيا بعالم القبر والبرزخ، ويشاهد المحشر والصراط، فيرتجف من هول جهنم، ويطير فرحًا في رياض الجنة.

ومن يَحُولون دون أن يفقَهَ المسلمون قرآنهم ويغوصوا في معانيه؛ إنّما يحولون بينهم وبين روح الدين ولُبَاب الإسلام وجوهره.

وفي المستقبل القريب ستقف الإنسانيةُ لتتأمل بإعجاب وتقدير أمواجَ العلوم والفنون وهي تتدفق نحو القرآن وتصب فيه، وعندئذ سيُلقي العلماء والباحثون والفنانون أنفسهم في هذا البحر.

والقول بأن المستقبل هو عصر القرآن ليس من المبالغة في شيء، إذ ليس ثمة غيره الذي يبصر الماضي والحاضر والمستقبل معًا.

فهو الكلام النفسي واللفظي الذي نزل به الوحي مُنجَّمًا على الرسولﷺ في ثلاثة وعشرين عامًا، والمنقول إلينا بالتواتر، المعجز لفظُه، المكتوب في المصاحف، وهو الآن كما كان يوم أن نزل.

دع الحديث عن الحروف والنقوش، وقل: إن كلام الله اللفظي والنفسي راجع إلى صفة "الكلام الإلهي"؛ لأن القرآن الكريم من صفة الله تعالى: "الكلام"، وصفةُ "الكلام" أزلية أبدية؛ فالقرآن كان قبل أن يُخْلق الكون بالنظر إلى "الكلام النفسي"؛ لأن الله تعالى متكلمٌ قبل أن يُلبِسَ الكونَ لباسَ الوجود الخارجي، وقبل خلق الإنسان الذي ظهر إلى الوجود ثمرةً يانعة من ثمرات شجرة الكون الذي هو أحد التجليات من بين ألف تجلٍ وتجلّ من تجليات ألف اسمٍ واسمٍ من أسماء الله الحسنى؛ فله تعالى كلام نفسيٌّ من هذا النوع، والقرآنُ منه، فكان أزليًّا وسيبقى أبديًّا؛ وليس لغيره خاصِّيةٌ كهذه.

أ. الحكمة من إرسال الرسل وإنزال الكتب

لا ريب أن البشر بحاجة إلى الكتب السماوية، لأنه يتعذر عليهم أن يحلوا مشكلاتهم من دون توجيه الرسالات الإلهية؛ لذا أوحى الله إلى أول إنسان آدم رسائل إلهية، كتبها آدم في صحف، وهذه الصحف كالقرآن الكريم كلاهما نزل به الوحي، وهذا خلافًا لِما ادُّعي أن الكتابة اكتشفها الإنسان من بعدُ، لقد ظهرت الكتابة بظهور الإنسان الأولِ آدمَ عليه السلام، علَّمها له ربه بالوحي، وإلا لاستحال تدوين ما أنزل الله إليه.

ولم تنزل هذه الصحف مكتوبةً؛ لأن الكتابة ليست من طرائق الوحي، وليس في القرآن أو السنة ما يفيد أن من الوحي ما نزل مكتوبًا، وقول الله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ (سورة الشُّورَى: 51/42)؛ يؤيد ما قلناه، وبهذا يتبين أن الوحي نزل على سيدنا آدم، ثم دوّن ما نزل على الورق، ومعلوم أن الله تعالى علم آدم ما يلزمه بقدر الحاجة، والأمورُ التي جرى الحديث عنها من بعد هي تفصيلٌ لِمَا أُجمل من قضايا توالى ذكرُها بحسب مقتضيات الأزمنة والأحوال؛ ولنا أن نحرِّرَ المسألة كالآتي:

الأصل أنه لا فرق في أصول الدين بين صحف آدم وما أُنزل على سائر الرسل من صحف وكتب، فما في أول الصحف هو عين ما يذكره آخر الكتب، والفرقُ إنما هو في الإجمال والتفصيل؛ فما أُجمِل لسيدنا آدم فُصِّلَ لسيدنا محمد؛ أي إن ما نزل على آدم كالبذرة، وما نزل على سيدنا محمد هو الشجرة بأغصانها وفروعها وثمارها؛ وأسلوب الإجمال ثم التفصيل من نُظُم الإعجاز.

إن الجيل الأول من بني الإنسان لم تكن قد تكشفت واتسعت مداركهم وأفكارهم بعدُ، فكان مستوى تعليمهم مناسبًا لفهمهم، ولم تفصَّلْ لهم الأمورُ كثيرًا، بل عرضت لهم القضايا كما تُعرَض لتلاميذ الابتدائية، لأن هذا هو مستوى المخاطبين، فلزم تيسير ما يُقدَّم لهذا الجيل غير العارف بلدنيّات الأشياء، ومن له حظٌّ من هذا العلم يدرك أن ما ذُكر في القرآن من حقائق كان في صحف آدم.

وكذلك الكتب السماوية الأخرى، فالحقائق التي في القرآن يمكن تلمُّسها -ولو إجمالًا- في التوراة والإنجيل؛ وليُلاحَظْ أنّ أيّ كتاب إذا تُرجم إلى لغة أخرى قد يُمنَى بالتبديل والتحريف، لا سيما إذا تكررت الترجمة، فإنه يتعذّر المحافظة على النص الأُمّ، ناهيك عن تلمّس القرآن فيه.

ولعلنا نلحظ أنه منذ أن هبط الإنسان إلى الأرض والرسالة الإلهية توجِّه مسارَ حياته فردًا وأسرةً، وتنظم الحياة الاجتماعية وتهديها إلى الخير والفضيلة والرشاد، وهذا برهانٌ على أن البشرية لن تستطيع أن تحُلَّ أيًّا من قضاياها دون دليل إلهي يدلُّها على الطريق؛ وهذا مقتضى الخِلقة والفطرة.

فالله تعالى خَلَقَ الكونَ على هيئةِ كتاب، وإنه لَكتابٌ رائع ألفى الإنسانُ نفسَه بين يديه فكان لا بد له من مرشدٍ يبينه ويفسّره، مرشدٍ لا ضال ولا مُضل، هؤلاء هم رسل الله ومعهم الكتب السماوية.

وفي كتاب الكون صفحات تُخاطب مَشاعر الإنسان؛ فلو أمعن الإنسانُ النظرَ فيه لَأَلْفى نفسه أمام هذه الشجرة الرائعة (شجرة الكون) التي أبدعتها يدُ القدرة والإرادة بغِراسها وجذورها وفروعها وأفانينها وزهورها وثمارها، وعندئذ يغدو كالنحلة، يجمع من هذه الشجرة رحيق عصاراتِ المعاني ليتخذ منها خلايا يُودِعُها أمانةً لدى القلب والعقل ليحلِّلاها ويجتهدا في فهمها وإدراكِ مغزاها، ولا ريب أنهما عاجزان عن ذلك من دون مرشد مفسِّر شارح، ولنمثل للتوضيح:

لو أن إنسانًا لم يرَ في عمره مسجدًا ولا يعرف شيئًا عن صلاة الجماعة، فذهبنا به إلى جامع كبير رائع ليُعرب لنا عما شاهده فيه، فلا مرية أنه لن يعبِّر ولن يُعرِب بل سيحار مما يراه، وسينظر إلينا والحيرةُ مِلءُ عينيه. نعم، إنَّه لن يَفهم وظيفة المِنبر والغرض منه وما هو المحراب وما هو كرسيّ الوعظ!! ناهيك عن فهمه وتفسيره لمعنى اصطفاف الناس خلف إمامٍ واحد، وقيامِهم وقعودهم استجابة لنداء واحد، لن يستطيع تفسير ذلك ولو كان عبقريًّا في مجالات أخرى، إنه لن يدرك ما يدركه صبي اعتاد المسجد وآدابه، ولن يستطيع الإدلاءَ بأية معلومة في هذا؛ فإنه إذا لم يكن له مُعلِّم، يتعذر أن يَعْلم ما هي وظيفة المسجد وأهدافه، وكذا كل ما فيه من مِنبر ومحراب وغيرهما.

لا فرق بين هذا وبين من يدخل "مسجد الكون" من دون نبي مُرْشِد؛ فإنه إذا ما يشاهد في كل ربيع آلافًا بل ملايين من أنواع النبات تخْضرُّ وتنمو بفروعها وأغصانها، وتُزهر وتثمر، فستحمله الحيرة على إسناد ذلك كلِّه إلى "الطبيعة"، وإذا ما لاح له ما لا يُعَدّ من النجوم، فحاول تفسير ما بينها من انسجام مُذهِل للعقول تَأْتَأَ كطفلٍ يهجِّي: هذه قوانين الطبيعة؛ ومهما بيَّن له علم الفيزياء والكيمياء -كلٌ بِلُغتِه- ما بين الأشياء من نظام وانتظام، وأنْ ليس في الأشياء ما هو سدًى، فسيُسنِد هذا التفاعل إلى الأشياء ذاتها، وسيتوهم أنه يدرك كل شيء؛ أي إنه لن يدرك الحقيقة كما هي، ولن ينجوَ من ظلمات الجهل، ولن يبلغ نور "المعرفة" من دون نبيٍّ مرشدٍ، وكلّ علم لا يبلغ بصاحبه مثل هذه "المعرفة الإلهية" لا يُعَدُّ "علمًا"، فـ"الجاهل" في مفهومنا هو من لا يعرف الله. نعم، إن من لا يعرفه ﷻ لن يبرأ حقًّا من الجهل ولو حلَجَ آلافًا من أصناف العلوم؛ أما من يعرف الحق تعالى فلا يُعدُّ جاهلًا عامّةً ولو كان أمّيًّا؛ لأنه عَرف ما ينبغي عليه معرفتُه، وعَرف الصانعَ الخبير الذي أنشأ قَصْر الكون، وعرف المؤلِّفَ البديع الذي ألَّف ذلك الكتاب (كتاب الكون)؛ وهذا المستوى من المعرفة هو آخر ما يجب الوصول إليه في العلوم، والله الذي كتب "كتاب الكون" لا ريب أنه به أعلم.

وقد يَنظِم عاميٌّ مصراعين يضمِّنهما من الأسرار ما يعسر على غيره إدراكُها، ومن التلميحات والإشارات ما لا يكاد يفهمُها سواه؛ فما بالك بكتاب الكون هذا، الذي فيه آلاف الأسرار؟ من

الطبيعي ألّا نفهم، ولما لم يكن قصورنا عن فهم كتاب الكون بمستنكر؛ أفليس من الضروري أيضًا أن يوجَد هنا لزامًا إرسال معلمين ومرشدين يبينون ويُفسّرون لنا مسائله المعضلة، أولئكم هم "الأنبياء" ومعهم الكتب السماوية التي أُرسلوا بها.

وإنه ليستحيل كشفُ الحقيقة كما هي من دون رسول وكتاب، وأدلّ دليلٍ على هذا هو المرحلة التي وصلت إليها الفلسفة في عصرنا؛ فإن الآلاف من الفلاسفة الذين يبحثون عن الحقيقة منذ آلاف السنين، بل إن رواد مدرسة فلسفية بعينها لم يلتقوا في خطٍّ واحد؛ فأرسطو و"ديكارت (*Descartes*)" رغم أنهما من أنصار "المذهب العقلي (*Rationalism*)"، إلا أنّ بين أفكارهما فروقًا شاسعة، ولكل منهما مسلك مباين في الاستكشاف؛ فما أبعَدَ ما بين تصورات أفلاطون عن الكون وتصورات أرسطو أو سقراط أو ديكارت!!

إن بين أفكارهم وتصوراتهم بونًا شاسعًا لا يَدَعُ مجالًا للتقريب والتوفيق؛ ويكشف لنا أن العقل الإنساني البحت "غير كاف"؛ وخير دليل على ذلك مدى الاختلاف الذي بلغه الإنسان في قراءة سطور الكائنات، ناهيك عمَّا كُتب بحروف عريضة كبيرة يكاد العمي يُبصرونها؛ علمًا بأن النجوم في هذا النسيج عُدَّت كلماتٍ، والسُّدُمَ سطورًا، والنُّظُمَ كالمجرة ودرب التبانة فِقْرات.

فإذا كان الإنسان يَعجَز عن قراءة هذه الصفحات، فأنى له إدراك أسرار قضايا الإنسان الروحية العميقة الدقيقة حتى يقدِّمَ لها حلولًا تربوية ونفسية واجتماعية؛ فالتجرُّؤُ على مثل هذا هو عين الجهل والحيرة والتيه، ولا يزال إنسانُ عصرنا يعيش منذ أمدٍ مديدٍ أسيرًا لهذا الجهل.

إن الله هو الذي كتب كتابَ الكون هذا، لا أحدَ سواه، وهو الذي أقام العلاقة بين كتابه هذا وبين الإنسان، وهو الذي جعل الإنسان فهرسًا لهذا الكتاب الكبير، وهو الذي اختزل خصائص البحار في قطرة، فهو وحده من يَعلم تمام العلم معنى هذا الكون وماهيتَه، وهو الذي يَعلم ميول الإنسان وسريرته، وبنيته المادية والروحية وغرائزه الفطرية؛ لأن الكونَ "كونُ الله" والإنسان "عبدُ الله"، ومِسبارهما هو القرآن وهو "كلام الله"، والذي يَعرف ما بينهما من المناسبة حقَّ المعرفة واضع

المناسبة وهو الله، فله وحده كلمة الفصل في هذا؛ فهو الذي أحاط بكل شيء علمًا، وأما الإنسانُ فإنه لا يعلم من هذا شيئًا إلا إذا علّمه ربّه.

نعم، لا بدّ أن نتخذَ قولَهُ تعالى: ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**﴾ (سورة البَقَرَة: 255/2) وِرْدًا يلهج به لسانُنا.. وعلم الإنسان ليس سوى ما ذكره سيدنا الخضر لموسى عليه السلام: "يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ البَحْرِ"[1]؛ وآراؤه مردُّها إلى هذه المعارف الضئيلة، ناهيك عن أن ثمة علومًا لا تُحصى ينبغي عليه تعلُّمُها ما زال جاهلًا بها؛ ورغم ذلك يدَّعي العلمَ والمعرفة ما أَصْلَفَه! وهذا وجهٌ آخر مِن أحلكِ جوانب جهله، ومن البدهي أن تكون أحكامُ الإنسان الغارق في ظلام الجهل هذا ترهاتٍ وعبثًا ولغوًا من الكلام، حتى أحكامه على نفسه، أما الأحكام الإلهية فهي حقٌّ صِرف.

وحُمادَى القول: من أسلم أمره لربه تعالى ولكتابه المعجز أنقذ نفسه من الفوضى المادية والمعنوية والفردية والأسرية والاجتماعية، وعاش في "جو ذهبيّ" من السكينة والسعادة الحقيقية، وإلا كانت التعاسة قَدَرَه المحتوم.

وقد أنجى الله تعالى الإنسانية من عاقبةٍ كهذه بواسع رحمته وبما أنزل من كتب، ونجزم بأن الإنسانية لن تستغني عما شرعه الله لها، وهذا الأمر ذو قدْر في عصرنا لأنَّ القرآنَ أكملُ كتاب خُصّ به أكمل مخلوق.

ب. القرآن والكتب الأخرى

إن الحقائق التي أُوحيت إلى الأنبياء مجملةً ذُكرت لنبينا محمد ﷺ في القرآن مفصلةً أيما تفصيل؛ لأن القرآن خاطَبَ فيمن خاطَبَ مجتمعات بلغت الغاية في التقدُّم، ولما كان خاتمة الكتب السماوية؛ كان لا بد أن يتخذه الإنسان مرشدًا وهاديًا مهما علا وبلغ من الرقي فرديًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا وثقافيًّا وتقنيًّا.

---

[1] صحيح البخاري، الأنبياء، 27.

ومن الملاحظ أن الإنسانية قد سبرت أغوار الكون، فتقدَّمت علومُ الفيزياء والكيمياء خطى واسعة، وترقّت علومُ الفضاء إلى مستوى يُذهِل العقول، وتوجهت نحو الكشف عن المجرات، وانشطرت المادة، وكُشفت "اللَّامادَّة"، ولربما حلت الطاقةُ الشمسية محلّ البترول قريبًا لأن العلوم والتقنيات تتقدّم بأرقام خيالية، وقد يصعب تتبُّع هذه الاكتشافات الجديدة كلها. نعم، إن هذه التطورات تحقّقت، وفي الطريق الكثيرُ منها، ولا ريب أن كلّ تطوّرٍ جديد سيلتقي مع القرآن في نقطةٍ ما، وسيقف بإجلال بين يدي الأصول الكونية القرآنية.

والكتاب الذي يخاطِب مرحلة كهذه ينبغي أن يكون مفصَّلًا، والقرآن كذلك، ففيه كلُّ ما في الكون "برطبه ويابسه"، وكأنّه فهرس له، فهل يا ترى عُنِي به إنسانُنا وأفاد منه كما يجب؟ لعل إثبات ذلك عسير.

واليوم هجر البشر القرآن أو حيل بينهم وبينه، فأصبحوا غرباء عنه؛ ولعله ما من مسلمٍ اليوم إلا وهو على علم بما يجري في أصقاع العالم، أما القرآن ربيع القلوب ورياضها فلا يَعلَم عنه ولو عدد آياته، بل إنك لَتجد الآن مَن يُعنَوْن بمتعةِ يوم أكثر من عنايتهم بالقرآن الذي يضمن لهم السعادة الأبدية؛ فلا هم يقرؤونه، ولا هم ممن يحبون أن يسمعوا عنه، بينما هو ينادي مَن هو شغوفٌ به ومُقبِلٌ عليه بقلبه وعقله ومشاعره وأحاسيسه، ولو أن المسلِم عُنِيَ بـ"كتابه" واستقامَ عليه، لَتَغَيَّرَ "طالع البشرية السيئ" لا المسلمين فحسب؛ وتنمية هذا الوعي اليوم ليست حاجة ماسة فحسب بل هي ضرورة من الضروريات.

ولو اجتمعت الإنس والجن بما لهم من قوة وسلطة، واستغلوا نفوذهم وسلطانهم، فلن يستطيعوا أن يأتوا بمثل القرآن؛ إنه حبلُ اللهِ الممدودُ إلى البشر، من استمَسك به لم يتردَّ في مهاوي الضلال، بل سيَتَرَقَّى إلى أسمى مقامات الإنسانية، ليُثْبِتَ من خلالها أنه صار مَظهرًا لسرِّ: "أحسن تقويم"، وبهذا سيكون "محلّ نظرِ الله تعالى"... أي إنه سيُصنَع على عينه، ويباركُ فيه.

وسنبرهن على ما قلناه هنا، ليستبين أن القرآن "كلام الله"، لا طاقةَ لأحدٍ أن يأتي بمثله، ويقيننا أن خير من يفهم القرآن ويَقْدُرُه حقَّ قدْره هو سيدنا محمد ﷺ؛ لقد فهمه ووعَاه بكل عمقه وسعته،

فكان لسانُه رطبًا بالقرآن ليل نهار، وشوقُه إليه لا يُحَدُّ ولا يُوصَف، شوقٌ مُلتاعٌ أثَّر فيمن خَلَفُوه ولو بعد قرون، فربَّى ما لا يكاد يُحْصَى من تلاميذ القرآن المهرة؛ كان منهم الإمام طاووس بن كيسان، والفقهاء الأربعة والإمام مسروق، وغيرُهم كثير؛ ومن هؤلاء من كان يتهجد بمائتي ركعة يختم فيها القرآنَ مرتين، ولعله بورك له في وقته، لقد تمكَّن القرآن من سويداء قلوبهم فأذاقهم حالًا يفوق الكمالات الإنسانية كلها، فكأنهم صاروا "قرآنيين"، تأسّوا بأمر الله تعالى لحبيبه ﷺ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ (سورة النَّمْلِ: 27/91-92) لقد وَعَوْا وفهموا مقصدَ ما قاله الرسول ﷺ؛ وفي تعاقب الآيتين إشارة إلى ما بين الإيمان الحقيقي وتلاوة القرآن من آصرة محكمة، لا تتحقق بتلاوة جوفاء، بل بجعل القرآن روحًا للحياة، وبالتخلّق به، وبصيرورةِ المرء قرآنًا ناطقًا كما كان الرسول ﷺ؛ حيث وصفته السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنُ"[2]، أي جَعل مِن نفسِه ﷺ قرآنًا ناطقًا.

وتلاوة كهذه تسمو بأصحابها إلى مقام عالٍ في الدنيا، وإلى أعلى عليين في الآخرة، وأما تلاوته من دون غوص في أعماقه، ولا فهمٍ لمعانيه وتدبرٍ لمقاصده، فإنها لن تثمر شيئًا من هذا.

ولعل الحقيقة المذكورة في الآية السابقة من باب "ذكر الخاص المراد به العام"، فكأنه تعالى يقول: "أيها المسلم كن مسلمًا حقًّا، وادخلْ في عالم السِّلم والسلام، واستسلم لأوامري، وتَفانَ فيّ، ولتكن في امتثال أمري كالميت بين يدي المغسّل؛ دع نزواتك، واضربْ بأهوائك عُرْض الحائط".

إذًا إنَّ كونَ المسلم مسلمًا حقًّا مَنوطٌ بتلاوته للقرآن؛ فإذا كان يتلوه ويغوص في أعماق معانيه فهذا في طريقه نحو التسليم لأمر الله، ومن يسعى جاهدًا لفهم حقائق القرآن وإدراكها، فسيدرك بعضها حتمًا يومًا ما، كأن يبلغ الصراط المستقيم الذي لا يَضل سالكه، وهو سبيل تذَوُّق الإسلام.

---

[2] مسند الإمام أحمد، 148/41.

روى الترمذي عن ابن عباس أن رسول الله قال: "**إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الخَرِبِ**"[3].. يا له من تشبيه ظريف صوَّر حالة المحروم من القرآن بالبيت المتداعي!

فمَن هو المحروم أو المحرومون مِن القرآن؟ عموم اللفظ في الحديث يفيد أنه قد يكون فردًا أو أسرة أو مجتمعًا أو دولة. نعم، سيغدو كلُّ شيء كالبيت الخرب إذا لم تَسْرِ في الحياة الشخصيةِ تلك الروحُ والمعنى واللدنياتُ التي في القرآن، ولم تنظَّم حياةُ الفرد حسب موازين القرآن ولم تهتدِ به، ولم يكن القرآن نبراسًا للحياة العائلية؛ وسيقع يومًا ما أمثال هؤلاء الناس والأُسر والمجتمعات في مصيدة أحابيل الشيطان وشِراكه، ولا منجى لهم من أيّ لون من ألوان حياة الذلة والمسكنة.

وبتنزيل معنى الحديث على الواقع المرير لأمتنا نجد أن نحو مليار مسلم لمَّا هجروا القرآن رزحوا تحت البؤس والهوان نحو أربعة قرون، وهذا يزيدنا إيمانًا بأهمّية العودة إلى القرآن لأن الكون قائمٌ بهديه وفضله.

فالقرآن روح الكون وحياتُه، وفي البعد عنه انهيار الكون وزواله، وإلى هذا يشير الرسول بقوله: "**الْقُرْآنُ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ**"[4]، وبسرّ هذا القرآن تقوم السماوات والأرض، فإذا ارتفع القرآن زالتا هما أيضًا، "وإذا ما غاب القرآن وفارق الكون، جنّ جنونه وفقدت الكرة الأرضية صوابها، وزلزل عقلها، وظلت بلا شعور، واصطدمت بإحدى سيارات الفضاء، وقامت القيامة"[5] كما قال ذلك العالِمُ النِّحْرِير مصنع الفكر ومنجمه.

إذًا فلنجتهد في فهم القرآن على هُدَى أفق سلطان الأنبياء ﷺ، فالتلاوة وحدها لن تبلغ بالإنسان المستوى المنشود من التعمق والشعور، وإن الذين يسبرون أغوار القرآن سيتمتعون بالعمق الروحي

---

[3] **سنن الترمذي**، فضائل القرآن، 18.

[4] **سنن الدارمي**، 2115/4.

[5] بديع الزمان سعيد النورسي: **الكلمات**، الكلمة العاشرة، ص 116؛ **اللمعات**، اللمعة الثلاثون، ص 509.

ويُوفَّقون لتأسيس رابطة بينهم وبين القرآن، ولن يتسنى إدراك الصلة بين الله والكون والإنسان إلا بالقرآن، إنها حقيقة لا تُدرك إلا بالقرآن، وهذا مغزى حديث القرآن عن كلٍّ من الأنفس والكائنات وذات الله ﷻ؛ فهو الخالق وأنت المخلوق، وهو الذي جعل من الكون كِتابًا أنت فهرسُه، وحريٌّ بمن استطاع أن يَقرأه أن يفهم الكتاب، وبمن وعى الكتاب أن يدرك ماهية فهرسه، فتأمّل تُلْفِ في القرآن صِدْقَ ما قلنا، وإذا تفكرت في عالَمك الداخلي -والهدف نفسه حاديك- وتعمَّقْت في روحك ولَدُنِّيّاتك، فستُحس وتَشعر بالحقيقة ذاتها، وتوقن عن دراية أن الإنسان والقرآنَ وجهان مختلفان لحقيقة واحدة، وأن الإنسان كالساعة كلُّ ما فيها من عقارب ومُسَنّنات وعجلات تدور نحو حقيقة واحدة؛ فهذه المُسنّنات تتيامن وتلك تتشاءم ومحورها واحد أو قل: إنها تدور حول حقيقة واحدة وهدف واحد، وحينما نتناول أجزاءها تبرز أوجُه متعددة لكن الحقيقة واحدة وهي جريان الزمان.

وهكذا (الإنسان-الكون-القرآن) ثلاثتها أوجُهٌ مختلفة لحقيقة واحدة، أي كلُّها مرايا لأسماء الله الحسنى، فالإنسان الذي هو مَظهر لـ"أحسن تقويم" مرآةٌ لـ"قدرة الله" و"إرادتِه"، والقرآنُ الذي هو "أحسن الكلام" أثرٌ من آثار صفة الله: "الكلام"، والكون يتجلى فيه ألف اسمٍ واسمٌ من أسماء الله، وما لم يكن لهذه الثلاثة محور واحد تدور عليه فلا يمكن فهمُ أيٍّ منها، يقول يحيى بن معاذ: "من عرف نفسه فقد عرف ربّه"[6]، يا لَهُ من تعبير عالي النبرة يبين قدْر البصيرة بالأسماء الإلهية! وهذا قصارى ما يبلغه إيجاز البيان عن الصلة بين "الرب" والإنسان، ولك أن تتلمَّس خصائص الربوبية في الصفات الإنسانية لدى تأمُّل علاقة العبد بربّه.

وقُلْ مثلَ هذا في القرآن، ولكن هذه النسبة ليست كما ذهب إليها الفلاسفة من تشبيه وتجسيم وتجسيد وحلول واتحاد، تلك ضلالتهم، فاللهُ سبحانه ليس كمثله شيء، ولم يكن له كفوًا أحد، فالعلاقة بين الله والإنسان هي علاقةُ (الخالق بالمخلوق) أو (التجلي بالمظهرية للتجلي)، أمّا تفسيرُها بعقلية الفلاسفة فهو محض ادّعاء، والحامل عليه الجهلُ بمعارف القرآن وعلومه.

---

[6] السخاوي: **المقاصد الحسنة**، 657/1، رقم (1149).

ومن أبحر في القرآن سرعان ما يدرك أن الإنسانَ نفسه من مواضيعه، فيفكر قائلًا: كأنَّ الحقيقة المنتشرة في الكون نتاج فسيلةٍ غرست في جوانية الإنسان وتشعّبت أغصانها في الأرجاء؛ فعلى الإنسان ألّا يكف عن السير في الآفاق وأن يصله بالسَّير الأنفُسي،

فإنه إذا تنبّه ولو هنيهة فسيجد أن كل ما يَبحث عنه موجود في ذاته، فإذا وجد ذاته فسيجد "الرب" الذي يتجلى فيها، ولما أدرك أحد الأولياء هذه الحقيقة ووعاها أنشد قائلًا:

وجوابًا منك كنت أرتقبُ

إذ بالنفس أبصرها وانجابت الحُجُبُ

ونقطع بأنّ أيَّ تلاوةٍ لم تصل إلى اللباب لن تمنحَكَ فَهْمَ كلِّ شيء من هذه الحقائق وإدراكَها وترقيتَها إلى مستوى الشعور بها واستنباطها من القرآن.

وجاء في الحديث الترهيبُ من قراءة القرآن دون أن يجاوز الحناجر: "**سَيَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَقْرَؤونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ**"[7].

ولعلّ معنى عدم تجاوز القرآن الحناجر أنه لن يكون "حياة للحياة"، بل إن هناك بونًا شاسعًا ما بين الفرد والأسرة والمجتمع والإدارة وما بين الموازين القرآنية، والأسوأُ أن كل من في المُسْتنقع يعد نفسه في غنى عن اتباع هذه الموازين، حتى إن القرَّاء سيقرؤون القرآن لغيرهم، وينصحون دون أن ينتصحوا.

وهذا كله قد حدث وما يزال، ومن بُلِي بهذا الضرب فلن يفلح حتى ولو كان مَلَكًا، وعاقبتُه ستكون كعاقبة فرعون لا منجى له منها ولو أتاه ألف مرشد وناصح.

فما هو جوهر هذا البلاء، وما نوعه؟ وبمَ يهوي العبد إلى هذه المَهْلَكة؟

---

[7] **صحيح البخاري**، الأنبياء، 6، المغازي، 61، فضائل القرآن، 36.

العلة هي العُجب، فهو لم يَصِلْ بعد وظنّ نفسه قد وصل، لم يشمَّ الحقيقة ولم يمخر عُباب القرآن ويُخيَّل إليه أنه قد عبر، أو قل: إنه ليرى نفسَه عالمًا ذا بصيرة غواصًا واصلًا بينما رُؤاه كلها في الحقيقة ضحْلةٌ سطحية، ويسعى جاهدًا ليَرى نفسه ويُرِيَنا أنه بحرٌ بعيدٌ غورُه، بل إنه ليعتقد أنه كذلك في واقع الأمر.

وكان ينبغي على كل امرئ كما هو مقتضى الأخلاق القرآنية أن يرى نفسه أنه في ذاته "لا شيء"، وأن يتوجه بشوقٍ "الفناء عن نفسه" إلى من هو "كل شيء" لا بلسانه فحسب بل بأن يذعن له بوجدانه، وهذا هو طريق العظماء. أجل، ففي التاريخ مئات بل آلاف من الصفوة الذين تخلّقوا بأخلاق القرآن لهم مَواقف يُحتَذى بها في هذا المضمار، منهم الوليّ المدفون في بلدة "جُورُومْ" التركيّة، أوصى أن يُدْفَن جهةَ قدمَي الصحابيِّ الجليل عمرو بن معديكرب، واليوم على شاهد قبره قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ (سورة الكَهْف: 18/18).

وفي حقبة من التاريخ تفرق أكثرُ الصحابة في أنحاء المعمورة للجهاد في سبيل الله، وصاروا بين شهيد معركة أو غربة أو مجهول الحال لأسباب لم تُعرف، فلم يرجع جُلُّهم إلى بلادهم؛ استشهدوا وما زالوا دعائم معنوية لمن حولهم، فالصحابيّ عمرو بن معديكربﷺ لم يكن من كبار الصحابة، ولم يُؤمَّرْ على سَرِيَّة ولو من خمسة أشخاص، ما هو سوى مجاهد قام بما عليه.

لقد كان بطلًا قويًّا، باسلًا مِقدامًا، يهبُّ في ميادين الحرب كالأعاصير، فيفرق جموع الأعداء، ولعله كان في طريقه إلى فتح القسطنطينية، فوافته المنية في بلدة "جوروم" ودفن فيها، وقبره ما زالَ بها يُزار.

كان ذلك الولي الكبير الذي تربى في "جوروم" ممن يعرفون قدر الصحابة؛ فأوصى أن يُدفن عند قدمي عمرو بن معديكرب، وأن يُكتَبَ على شاهد قبره آيةٌ ذات دلالة عميقة، وهي التي تتحدث عن هيئةِ كلب أصحاب الكهف: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ (سورة الكَهْف: 18/18).

ففي هذا المشهد الذي رسمَه هذا الولي ما يدعو للتأمل، لقد آثَر أن يُدفَن عند قدمَيْ عمرو بن معديكرب على أي مكان، وعمرٌو من صغار الصحابة سنًّا، وليس في الصحابة الكرام صغير، يا له من نموذج يدلّ على مدى تعمُّق المتخلقين بأخلاق القرآن في باب التواضع ومحو الذات!

والصحابة هم خير من ينبغي أن نتأسى بهم بعد الأنبياء، فكل فرد منهم كأنه قرآن ناطق، يقوم ويقعد، ويرقد ويسعى والقرآن بادٍ في أحواله وأطواره وتصرفاته كلِّها، فهو من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه نموذجٌ معبّر عن القرآن.

نعم، إن كل حال من أحوالهم كان قرآنيًّا، وهم والتابعون أُشْرِبت قلوبهم وعقولهم القرآن، فصارت حياتهم مرآةً للقرآن، حتى إنهم في ذلك العصر النوراني لم يبق فيهم أميّ، حتى إن الأعراب ضربوا بسهم في مدارسة مسائل القرآن، وتذاكروا في مجالسهم العادية قضايا علمية عميقة.

وهذا كلُّه تَحقَّق في هنيهة تبلغ عقدين أو ثلاثة، إنهم ما أصبحوا سلاطين الإنسانية ومرشدين ومعلمين لأرباب الحضارات إلا بالقرآن، وكانوا من قبل بدوًا تعساء أذلاء عبيدًا لغيرهم لا يجد أحدهم نعلًا لنفسه ولا سَرْجًا لفرسه.

"**فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ، طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ**"[8]، فمن اعتصم به عزَّ وسما، ومن تركه ضلّ وهوى.

إنَّ مِن أبرز علامات محبة الله ورسوله محبة القرآن؛ فمن أحبَّه أحب الله ورسوله أيضًا، والعكس صحيح؛ فمن أحبهما نال حبهما، ومن أراد وأحبّ أن يكون محبوبًا فعليه بمحبة القرآن، عن ابن مسعود موقوفًا قال: "لَا يَسْأَلُ أَحَدٌ عَنْ نَفْسِهِ، إِلَّا الْقُرْآنَ، فَإِنْ كَانَ يُحِبُّ الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ

[8] ابن أبي شيبة: المصنّف، 125/6.

وَرَسُولَهُ"[9]، وسواء كان المراد محبة الله ورسوله له أو محبته هو لهما، فكلاهما إنما يتحقق بمحبة القرآن، ولا يُتصوَّر أن يكون المرءُ "مؤمنًا حقًّا" ولا يحب القرآن.

وقدْر المرء منوط بقراءة القرآن وهجره، وهذا هو ما يميز المؤمن عن المنافق ففي الحديث: "**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ...**"[10].

وفي تشبيه المؤمن الذي يقرأ القرآن بالأترجة معانٍ كثيرة مثل: تذوق حقيقة "التكامل بين الإيمان والعمل" وتذويقها للآخرين، والشعور والإشعار، فمن ابتعد عن القرآن فعن الله ابتعد، علم أم لم يعلم؛ لأنَّ القرآن أوثقُ عُرى الصلة بالله، من استمسك بها اقترب من الله ومن تركها بَعُد عن الله.

"**رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ**": من ذاقها فقد ذاق شيئًا طيّبًا وعَمِل عملًا نافعًا، ورائحتُها تثير شهيةَ الآخرين ورغبتهم.

نعم، إن القرآن كلما قُرئ ملأ الأفئدة نورًا وفيضًا وبركة، لذلك كان الرسول ﷺ يردّد الآية الواحدة ويكرّرها، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ اللهِ عز وجل فِي إِبْرَاهِيمَ عليه السلام: ﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (سورة إِبْرَاهِيمَ: 36/14)، وقول عِيسَى عليه السلام: ﴿**إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: 118/5)، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: "**اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**"، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عز وجل: "**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟**"، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: "**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ**"[11].

---

[9] القاسم بن سلام: **فضائل القرآن**، 51/1؛ الفريابي: **فضائل القرآن**، 114/1.

[10] **صحيح البخاري**، فضائل القرآن، 17، 26، الأطعمة، 30، التوحيد، 57.

[11] **صحيح مسلم**، الإيمان، 346.

وعن عباد بن حمزة، قال: "دخلتُ على جدتي أَسماءَ وهي تقرأ: ﴿**فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ**﴾ (سورة الطُّورِ 27/52)، قال: فوقفتْ عَليها، فجعلَتْ تستعيذ وَتدعو، -وزاد في رواية: "فطال عليَّ ذلك"- قال عباد: فذهبْتُ إلى السوق، فقضَيتُ حاجتي، ثمّ رجعْتُ وهي فيها بعدُ تستعيذ وتدعو"[12].

فهذه أسماء بنت أبي بكر ﷺ تغوص في القرآن، وتُبحر بقلبها في أعماقه، ولا تريد أن تخرج، إنها ابنة أحدِ الغوَّاصين في بحر القرآن الكريم، وهي بهذا أعربت عن حبّها للقرآن وشغفها به.

فالصحابة والتابعون والذين اتبعوهم بإحسان كانوا يرون أن القرآن فيه كل شيء، وبدهيّ أن المحروم من القرآن ينتقد هذا ويعدّه مبالَغة، فليقل ما شاء، ولا نرتاب في خطإٍ من يطلقون أحكامًا كهذه في قضايا لا صلة لهم بها ولا علم.

وأنا شخصيًّا أنظر إلى القرآن وكأنَّه صورة بلورية واعية رعت مستوى إدراك البشر، أو كأنَّه كائن حيٌّ يحيط بأحوالنا كلّها، ودليل هذا من البيان النوراني المحمدي: "**وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**"[13]، ومَن يدري كم هو لحالنا أسيفٌ شفيق؟! لكنَّا نأمل أنه سيكون في الآخرة رفيق من عُنُوا به في الدنيا ولو يسيرًا.

ج. تدبر القرآن الكريم

ينبغي أن ننظر إلى القرآن بهذا المستوى من الإدراك والوعي لندرك أنه كتاب يبثُّ الحياة والروح، فهو لم ينزل لِيُتلَى ويُستمعَ إليه فحسب، أو ليُقرأَ على الأموات، إنه نزل ليكون "روحًا للحياة"، وينفخَ الروح في أجساد موات؛ أو قل: إنه أُنزِل ليَرفعَ مَن في الأرض إلى سماءِ الروحانيين، فلا بد أن يُتلى مع تفكّر في ظاهره وباطنه وعمقِه الداخلي وسعته لعالم الغيب حتى يمكنَ الإحساسُ بالغيبية التي يحملُها جوهره.

---

[12] ابن أبي شيبة: **المصنّف**، 125/2.

[13] صحيح مسلم، كتاب الطهارة، 223.

هذه هي التلاوة التي تُعتَبَرُ تكليمًا من الله للإنسان، ففي الأثر: "مَنْ أَرَادَ أَنْ يُكَلِّمَ اللهَ فَلْيَدْخُلْ فِي الصَّلَاةِ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ فَلْيَقْرَأْ الْقُرْآنَ".

نعم، إن القرآن حديث اللهِ للإنسان، كلما قرأه غمرته حالة روحية لا يخطر له فراق مصدرها.

إن هذه الحال -ولنا أن نسمّيَها: "تدبُّر القرآن"- تأسِرُ وجدانَ الإنسان عند استماعه إلى القرآن، فكأنه يأخذه عن الله، وأنى لمن لم يذقْها أن يدركَها؟!

وفي القرآن ما يُغني رسولَ اللهِ ﷺ عن غيره في قضاياه التي تناولها؛ لذلك كان يرى ما سواه من كتب عبثًا، وكثيرًا ما كان يَمنع أصحابه من قراءتها، حتى إنّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ؓ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَصَبْتُ كِتَابًا حَسَنًا مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ، قَالَ: فَغَضِبَ وَقَالَ ﷺ: "**أَمُتَهَوِّكُونَ**[14] **فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي**"[15].

فَقَالَ عُمَرُ: رَضِينَا بِاللهِ تَعَالَى رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا، قَالَ: فَسُرِّيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ: "**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى، ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ، وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، إِنَّكُمْ حَظِّي مِنَ الْأُمَمِ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ**"[16].

إن اتِّباع القرآن ضروريّ لكلّ فرد، ففيه شفاء لكل داء، وفيه روح الكونِ والإنسانِ والحقائقِ الكبرى ومدلولاتها، وفيه تجلى الحقُّ؛ وما أصدق قول جعفر بن محمد الصادق فيه: "لَقَدْ تَجَلَّى اللهُ لِخَلْقِهِ بِكَلَامِهِ وَلَكِنْ لَا يُبْصِرُونَ"[17]، ولو أمعنّا بدقّة في الكلام الإلهي، لوجدنا تجلِّيَ اللهِ تعالى

---

[14] **أَمُتَهَوِّكُونَ**: أَمُتَحَيِّرون مُتَرَدِّدون.

[15] ابن أبي شيبة: **المصنف**، 312/5.

[16] **مسند الإمام أحمد**، 198/25.

[17] الزركشي: **البرهان في علوم القرآن**، 452/1.

فيه، وهذا التجلّي ليس بجوهر ولا عرض ولا جسم، بل هو تجلٍ لكلام الله منزّه عن الكم والكيف؛ ولا يعي الإنسان هذه الأمور إلا بـ"التدبر"، وبه تنجاب الحُجُب عن خبايا لا تدرك إلا به.

نعم، إنما ينفُذ إلى روح القرآن من يديمون تلاوته بتدبر وتفكُّر، ويبذلون قصارى جهدهم ليفهموه ويُدْركوا معانيه، ولن يفهمه حقّ الفهم إلا أولو الألباب، لأنه يخاطب العقول ويدعو إلى تحكيمها، ولن ينفذ إلى أعماقه إلا من يحكم عقله، فكم عظيمٍ من العباقرة والأدباء والشعراء تأمله من هذا الوجه فدان له، وكم من ذوي الهامات السامقة ذلَّت رقابهم له وجَثَوا يتعلّمون منه.

لقد دانت للقرآن شخصيات نادرة كسيدنا أبي بكر وعمر ، وأخذ بلب أكابر شعراء عصرهم من أمثال لبيد والخنساء، ثم بَهَرَ بعدهم مئاتٍ من سلاطين البيان أمثال مولانا جلال الدين الرومي، وعبد الرحمن الجامي، وحافظ الشيرازي، وأنوري، وحتى علماء الغرب فشهاداتهم الإيجابية في حق القرآن لا تتسع لها مجلدات، فما منهم إلا تحدَّث في مؤلفاته عن إعجاز القرآن وعظمته.

وكذلك جهابذة العربية وعلماء البيان الذين لهم يد طولى فيه أمثال عبد القاهر الجرجاني والسكاكي والزمخشري وقفوا حياتهم للتلمذة على القرآن؛ لأنه أشبعَ مشاعرهم وأفكارهم وقرائحهم كلّها، وأخذ بمجامع قلوبهم، فلم يجد هؤلاء الأجِلّاءُ حاجة إلى مراجعةِ مصدر آخر غيره؛ ومما يُروى وفيه عبرة أنّ لبيد بن ربيعة من شعراء الجاهلية، أدرك الإسلام فحسن إسلامه وترك قرض الشعر في الإسلام، فسأله عمر في خلافته عن شعره واستنشده، فقرأ سورة البقرة، فقال: إنما سألتك عن شعرك، فقال: ما كنت لأقرض بيتًا من الشعر بعد إذ علمني الله البقرة وآل عمران، فأعجب عمر قوله، وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة[18].

يقول "الدكتور موريسون (*Dr. Morrison*)": "اللغات كلها مدينة للعربية، والعربية مدينة للقرآن"، وعليه فالقرآن له يد على اللغات كلها في القواعد والضبط، وهذا موضوع جليلٌ جدير بعلماء

[18] ابن عبد البر: **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، 1237/3.

اللسانيات أن يبحثوه، فلندعْه للمتخصصين، وغاية ما نريد أن نقوله هو أن إعجاز القرآن وعلوّه على سائر الأشياء -كما أشار الدكتور "موريسون"- أمر حقيقٌ بالدَّرْس..

ولو أنَّ الناس تدبّروا القرآن لاقشعرّت جلودهم منه، ولَحوَّلتْ هذه المهابةُ عالَمهم الداخلي إلى ربيع إيماني، ولم يخلُ عصر من المتدبِّرين أرباب العقول النيرة وذوي القلوب المؤمنة، الذين صوّر الله حالهم وهم بين يدي القرآن بقوله: ﴿**اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ (سورة الزُّمَر: 23/39)

فوا أسفاه على جيل اليوم ما أبعده عن مثل هذا التدبّر!

إن القرآن منبع هداية، فمن أراد الهداية في كل ميدان فعليه بالقرآن، يسترشد بهديه ويسير في نوره، وتحقيق هذا يقتضي الانسجام مع القرآن وتلاوتَه والاستماعَ إليه بتدبّر.

ومن استقرأ سيرة الرسولﷺ علم أنَّه كان عظيم العناية بتلاوة القرآن والاستماع إليه، بل طالما رغّب في تلاوته بلسان الحال والمقال، وهذا سيدنا أبو بكر أقرب أصحابه إليه لم يترك تلاوته في العهد المكي مع أن ذلك عرَّضه للأذى الشديد من الكفار، لكنه أَلاَنَ بتلاوته كثيرًا من القلوب القاسية، وهدأت بها بعض النفوس الكارهة للإسلام، وكان الشبان والشيوخ رجالًا ونساءً يجتمعون عنده حول كوخ بناه أمام بيته ليستمعوا إلى تلاوته[19].

وكانت تعجبهﷺ تلاوة أصحابه ويوصي بالأخذ عنهم، ومنهم ابن مسعود رضي الله عنه، روى الشيخان عنه أنه قال: قال لي رسول اللهﷺ: "**اِقْرَأْ عَلَيَّ**"، قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: "**فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**"، فقرأت عليه سورة "النساء" حتى بلغتُ ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ (سورة النِّساء: 41/4)، قَالَ: "**أَمْسِكْ**"، فإذا عيناه تذرفان[20].

---

[19] صحيح البخاري، الصلاة، 86.

[20] صحيح البخاري، فضائل القرآن، 32؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، 248.

وكلما قرئ القرآن كان الرسول ﷺ يرتجف من خشية الله، لذلك لم يتحمّل وقال ﷺ لابن مسعود ؓ: "**أَمْسِكْ**"، ومَن يدري فلعلّ قلبه وقتئذٍ لم يعد قادرًا على الاستمرار لأنه كان أخشى الناسِ لله وأعرفَهم بمعاني القرآن؛ فلو كانت طاقته وتجلُّده كأيِّ إنسان، لَمَا استطاع ﷺ تحمُّلَ ذلك ولفاضت روحه الطاهرة من هذه الخشية والخوف، إلا أنه رغم هذه الحساسية البالغة كان يستطيع تحمُّل تلاوة القرآن والاستماع إليه، بل كان ذلك شغلَه الشاغل.

وكان ﷺ الأسوة الحسنة في ذلك، كما أنه أفضل من يُحتذَى به في سائر مناحي الحياة، فلنجَعْلِ استمساكه بالقرآن نبراسًا ننير به طريقنا، ولنجتهد في الاستنارة بنوره بأن نعكف على تلاوته ومطالعةِ تفاسيره في مواقيت خاصة به، وعندئذٍ يُظلّنا الله بعنايته بفضل القرآن، وتُعْمَرُ دنيانا وآخرتُنا معًا.

الفصل الأول

براعة البيان القرآني

القرآن كلام الله، وفي أسلوبه البياني وطرزه الخاصِّ دلالة على استحالة كونه من كلام البشر، ولا يقاس به غيره في أساليب موضوعاته؛ فهو منزه عن ضروب المقارنة كلِّها؛ لأنه أجلُّ مِن أن يقارَن مع غيره من أيّ وجه.

ويتميز القرآن الكريم بأنه حينما يتناول القضايا المتعلقة بالجوانب النفسية للإنسان فإن المرء يشعر بلذة وكأنه يشرب ماء الكوثر، وأن روح القرآن تختلط بكرياته البيضاء والحمراء وتسري في عروقه مع دمه إلى قلبه، وتمرّ بكل منطقة من مناطق دماغه؛ لذلك لا يمكن أن نجد تأثيرًا بهذا المستوى لأي كتاب آخر.

لنفرض أنك أمام خطيبٍ مفوَّهٍ، ولحركاته التعبيرية وإيماءاته البدنية وقْع وقوَّة تُعزِّز خطبته ولو قليلًا، فإذا استمعتَ إليه وأنت مغمض العينين، وعيت عنه نصف ما يعيه المشاهد؛ لأنك فقدتَ معزّزاته البيانية لإيصال الرسالة من حركات معبّرة وتلويحات باليد يمنة ويسرة ونحوها، وأمَّا إن كانت مكتوبة فستفقد كثيرًا من رونقها وتأثيراتها وقوة أسلوبها وبعض أهدافها لأن الإلقاء ركن فيها؛ أمَّا القرآن فتأثيره هو هو قراءةً واستماعًا، فحينما نُغمض أعينَنا ونستمع إليه فإن براعة التصوير في عباراته تكاد تجعلنا نشاهد إشاراته ومَراميه وأحداث قصصه ماثلة أمامنا، وإذا ما كتبنا تعبيراته فسنسمع تأثيرها بكل ما فيها من قوة كأنها أمواج البحر في مدّه وجزْره.

وهذه من خصائص القرآن، ولا عجب فهو كلام الله الذي خلق الكون والإنسان وسائرَ المخلوقات، فكما أن صنعه لا يشبه صنع البشر، فكلامه أيضًا لا يشبه كلامهم، لكن لا يخلو كلامه من تنزّلات مراعاة لعقول البشر.

وإذا كانت البلاغةُ مطابقةَ الكلام لمقتضى الحال ومراعاة حالة المخاطب مع الإيجاز في بيان المراد دون أن يختلط الأمر عليه، فالقرآن هو المعجزة البلاغية، ولا يأتي أحد بمثله، ولو جمعنا

ما خطته الأقلام إلى يومنا هذا، وقارناه بالقرآن، فسنجد أنَّها أمام القرآن ليست سوى يَراعٍ طلعت عليها الشمس سرعان ما تخبو تِباعًا؛ فليس لديها ما تهبه للقلوب التي استمعت إلى القرآن وأُشرِبَتْه.

أجل، فلا صوت للعقعق إذا غردت البلابل؛ أين تغريدها المُعجب المُطرِب الذي يشنّف الآذان من صوت عقعق تَمُجُّه الأسماع وتعافه الأفئدة؟! وهذا التمثيل لا يليق لكنه للتقريب وتيسير الفهم، فهو قياسٌ مع الفارق لعجزنا عن التعبير بشيء آخر، وإلا فلا مقارنة بين كلام الله وكلام البشر، ومهما استقصينا في التشبيه والتمثيل، فسنظل عاجزين -وقد عجزنا- عن التعبير عن مدى الفرق والتفاوت بين القرآن وغيره.

وإن نزول القرآن الكريم على أمة أميّة وَعَتْهُ وفهمتْ مقاصده لهو الدليل الواضح على براعة القرآن في البيان حتى إن العوام الأميين يدركون هذا.

وهذه الجماعة الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب لم يكن لها مؤرخون وكُتّابٌ يدوِّنون الوقائع، والحاجة داعية لذاكرةٍ تعي أحداث التاريخ، فكان الشِّعر أقصر طريق؛ لذلك عُني المجتمع بالشعر أكثر، وبه خلَّدوا أهم الوقائع وتناقلتها الأجيال.

كان الشعراء يومئذ مشهورين مرموقين في الجزيرة العربية كالسياسي أو الثريّ الذي يعرفه الناس جميعًا ويودّ بعضهم لو كان مثله، وكانوا مثالًا يُحتذى، وتفتخر بهم القبائل أكثر من افتخارها بكُمَاتها، ويشرع الناس بقرض الشعر منذ الصِغر؛ لذا تقدَّم الشعر إلى أن فاق كلَّ شيء، حتى أصبح شغلَهم الشاغل وصنعتَهم التي يتقنون؛ فجاءهم القرآن ليظهر صدقَه وعجزَهم من الوجه الذي يُحسنون، ومعجزات الأنبياء هكذا كانت تكون.

في عهد سيدنا موسى برع الناس في السحر، فواجَهَ موسى بعصاه السحرَ والسَّحَرةَ، وأبطل ما جاؤوا به وكان لا بدَّ أن يبطل؛ لأن سيدنا موسى كان يمثل الحقَّ ومعه الحق سبحانه، وكانت اليد البيضاء معجزة يملأ الأفق نورها، فيتحلق الناس أفواجًا حوله ليرونها، ولقد انهزم فرعون أمام معجزات سيدنا موسى، ورماه بالسحر بهتانًا وزورًا وعنادًا، وأعيته حيلة غلبه بها نبي الله، فلجأ إلى القوة والتعذيب، وجرب أساليب التهديد والوعيد كلها، ثم تطاول فكانت "غيرةُ الله"، وكانت نهاية

فرعون، فلم يُقبَل منه إشهاره إسلامه حين أدركه الغرق، وبغرقه غَرِقَ العالَم السحري الفرعوني في الماء وغُلب السحر أيَّما غلبة.

وفي أيَّام سيدِنا عيسى برع الناس في الطب، يُروى أن الرومان كانوا يُجْرُون عمليات جراحية للدماغ، وهذا يومئذ خارق للعادة كإحياء للموتى، فجاء سيدنا عيسى -وهو روح الله- بمعجزات بزَّت ما كان عليه علمُ الطب يومئذ؛ فكان يُحيي الموتى بإذن الله، وينفخ الروح في البِلى، فيبعث الحياة في الرِّمم بإذن الله.

وأما عصر سلطان الأنبياء فساد فيه سحر البيان في نبض الكلمات، وكانت تهتاج المشاعر وتهبُّ الجموع لكلمة، فَلِسِحْرِ البيان طاقة كأنَّ الناسَ بها يُؤْخَذون.

فهذا "لبيد" كان يهيّج الناس بشعره، فيقتتلون أو يتصالحون بسحر كلماته، وهذا "الأعشى" كانت تُنصَبُ له منابرُ مرصّعة بالذهب والجواهر، وكان الشاعر يَخرج للناس بعد عام من ترقُّبِ أشعاره في جوٍّ مفعم بالترحيب والهتاف والتصفيق والزغاريد، وكلُّهم آذان واعية، فيحفظون ما يلقيه فورًا.

فاض الزمان بسحر البيان، فجاء القرآن يخاطب الناس جميعًا، ويتحدى الأدباء والشعراء كافّة، والإنس والجن قاطبة قائلًا:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (سورة البَقَرَة: 23/2-24).

أجل، إنَّه تحدٍّ لا زمان له ولا مكان، يشمل بخطابه السابقين واللاحقين، وأهل مكة ومن في الأرض جميعًا، سابقهم ولاحقهم إنسهم وجنهم، إنها دعوة مفتوحة كانت وما زالت تتحدى الخلق جميعًا.

كان القرآن وما يزال يتحدى هذه الدائرةَ الواسعة كلَّها، كأنه يقول: "إن كان بوسعكم فائتوا بكتاب من مثله".. ولم يزل متحدّيًا هكذا، ولكن لم يستطع أحد أن يأتي بسورة من مثله، بل ولا

بآية واحدة، ناهيك عن مثله، فكم من شاعر كان لقوله تأثير السحر، فلما وقف أمام القرآن انعقد لسانه ولم ينبس ببنت شفة.

إن التاريخ يشهد أنه لم يأت أحد ولو بسورة من مثله؛ لأنه لو كان لَبَلَغَنا؛ وذلك لأمرين:

الأول: أن مشركي مكة كانوا بأمسِّ الحاجة إلى الإتيان بمثله.

الثاني: أن التحدي كان علنًا عامًّا صالحًا للجميع، فأي محاولة من هذا القبيل لا بد أن يشيع خبرها، ومن حاول وجاء بمثله كما وهِم صار سخرية وباء بالخزي، لذا رَبَأَ الأصدقاء والأعداء بأنفسهم عن محاولة كهذه، ولنشرح هذين السببين بشيء من التفصيل:

مما لا شك فيه أن القرآن الكريم أكبر دليل وشاهد على نبوة سيدنا محمد ﷺ، وقد ردّه أهل مكة جميعًا بادئ الأمر وأنكروا نبوته، ولم يدخروا جهدًا في إلحاق الأذى به وبمنْ صدَّقَه، فلو صحت دعواهم أن القرآن من عند غير الله وأنه يمكن أن يؤتى بمثله لَمَا اختاروا طريقَ الحرب والصِّراع والمغامرة بالأرواح والأموال؛ فإنهم لو أتوا بشيء من مِثل القرآن لَتَبيَّن صدقهم في ردهم للنبوة، ولتخلَّى ﷺ عما قاله وما سيقوله وانتهى الأمر؛ فما أيسر هذا الأمر، إلا أنهم رغم يسرِ هذا الطريق اختاروا الأصعب.

وليس اختيارهم للأصعب لأنهم حمقى لا يدركون؛ فهم من ساسوا العالم بعدئذ، وصاروا أئمة ومعلمين للحضارات الأخرى؛ إذًا ما الذي ألجأهم إلى اختيار الطريق الأشق؟ ولِماذا ضحَّوا بأنفسهم وأموالهم وأهدروها، وأيقنوا بالحاجة إلى مجابهة الرسول ﷺ بالجيوش؟!

الجواب واضح قاطع؛ إنهم -كما قال الجاحظ- لمَّا انسد عليهم باب المعارضة بالحروف، اضطروا إلى المقارعة بالسيوف.

يا لَروعة نكتةِ الجاحظ هذه: "فلو أنَّ مشركي مكّة استطاعوا المعارضة بالحروف لَمَا اختاروا المقارعة بالسيوف"، والقرآن لما دعاهم إلى المعارضة لم يكن يهددهم في دنياهم، بل كان يتوعدهم بخسارة أخراهم، إن استسلامهم لتهديدٍ كهذا معناهُ العَجْز ونفاد الحِيل، وهذا يدل على

أنهم لم يكن بوسعهم الإتيان بمثل القرآن أو بشيء من مثله، ولم يسجل التاريخ سوى بعض محاولات عقيمة ميتة جاءت لتعارض القرآن فصار أصحابها هُزْأَة.

وأشهرُها محاولة مسيلمة الكذاب، الذي كان أديبًا بارعًا، ذا ملَكَةٍ قويّة في التعبير والبيان، وهو ما جَعَل كثيرًا من الناس ينساقون وراءه، ولما وُضعت أقواله في ميزان القرآن؛ ما لبث السامعون أنْ سَخِروا منها، وصار مسيلمةُ ضُحْكَة.

وسوَّلت له نفسُه أن يقارع سورة القارعة بأخرى مثلها، فلنقرأ سورة القارعة أوَّلًا:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿**الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۞ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۞ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۞ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۞ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۞ نَارٌ حَامِيَةٌ**﴾ (سورة القَارِعَةِ: 101/1-11).

في هذا البيان تبيانٌ لأحوال الدنيا والآخرة معًا، يطوِّف بك من عَجبٍ إلى عُجاب، هلم فلنقارن هذا بما أتى به مسيلمة في معارضته البائسة(!):

"الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل؟ له ذنَب قصير، وخرطوم طويل".

نعم، إن مسيلمة وهو يقول هذا كان يسخر منه حتى أقرب الناس إليه.

ويمكن تناول البلاغة القرآنية في النقاط الثلاث التالية على سبيل المثال لا الحصر:

أ. براعة التعبير القرآني

تتجلّى براعة القرآن من الناحية البيانية بخصائص منها: جزالة نظمه، وبديع بيانه، وتفرّد أسلوبه، وجلالة عبارته.. وإليك تفصيل ذلك بالأمثلة:

1- جزالة النَّظْم

من معاني الجزالةِ لغةً: الكثرة والوفرة والبركة، وتعدّد المعاني التي يحملها اللفظ، والمتانة والإحكام والقوة.

ويمكن ملاحظة هذه المعاني بجلاء في نظم القرآن الكريم؛ فإن البركة تفيض منه من كل وجه. نعم، إن نظم القرآن غنيّ بكل هذه الوجوه، فبينما ترى أنَّ للفظ دلالة واحدة إذا بها ألف.

والزمخشريُّ من الروّاد الذين اكتشفوا هذه الخصيصة في القرآن الكريم، فلطالما أشار إليها في تفسيره، ومثله الأستاذ بديع الزمان النُّورْسي، فما أكثر ما تَنَبَّه له ممّا لم يذكره غيرُه، وهذا ينمّ عن فتح رباني وعبقرية فائقة وهبها الله له؛ وإليك أمثلة على هذا من نفحاته رحمه الله لننظر في جزالة النظم دون تفصيل في التفسير:

المثال الأول:

قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: 46/21).

في سياق ذكر العذاب تحدثت الآيةُ الكريمة عن أهونه لتجذب الأنظارَ وتحفِّزَ الخيالَ ليتصوَّرَ أَشَدَّهُ، ولتشير إلى أنَّه إذا كان أخفُّ أنواع العذاب شدةً ما لو مسَّ الإنسانَ مسًّا خفيفًا لَغَلَى منه دماغُه، فما بالك بأشدِّها؟! أجل، ما أشدّ هوله وما أفزعه وهو أخف عذاب يؤلم الإنسانَ ويفجعه ويبرِّح به!

هذه المعاني برُمّتها دلَّتْ عليها الآية، وهي بصفتها "كلام الله" تخاطبنا بأسلوب معجز اتَّشَحَتْ جزالة نظمه بدقائق معانيه.

ونسيج الآية إجمالًا منوالُهُ القلة، ومدار مفرداته على القلة أيضًا، فاعتضد الكلُّ بأجزائه في الدلالة، بل لو أمعنّا لوجدنا أن الحروف تشدّ أزره كذلك بأصواتها ومخارجها وموسيقاها ووقْعها.

ومردُّ هذا إلى الذوق، وأنى لمن لم يضرب بسهم من لغة القرآن أن يتذوّق هذا؛ وحسبُنا ذكرُ نكات من الوجه الأول:

نظرات في مفردات الآية:

"إنْ" حرف شرط يفيد الشك المفضي إلى تقليل الوقوع بخلاف "إذا".

وأما "مَسَّ" فإنها تدل على اللمس الخفيف، ومسِّ الشيء بطرف الأصابع مسًّا لطيفًا، وهذا يعزِّزُ معنى التقليل، والسين المشددة بصوتها وجرسها توحي بالهمس واللين.

ومعنى "نفحة" رائحة خفيفة أو نسمة، والتنوين للتنكير؛ أي إنها مِن ضعفها وقلتها لا يكاد يُشعر بها، فهذا العذاب ما هو بعاصفة أو إعصار، بل كرائحة خفيفة أو نسمة

لا يكاد يُشعر بها.

"مِن" تدل على التبعيض المتضمن للتقليل أيضًا.

"عَذَابِ" هذه الكلمة أخف من "العقاب" و"النكال" ونحوهما، فلِمغزًى لطيف آثرها على ما يقتضي الهلاك أو العذاب الشديد، حتى إن بعض العلماء كالشيخ محيي الدين بن عربي لحظَ جذرها (عذب) ودلالته على العذوبة، وادعى أنه إذا طال بهم العذاب ألِفوا النار واستعذبوها، فكلمة "العذاب" مِن أخف مفردات هذا الباب إذًا؛ فهي بهذا تفيد القلة أيضًا.

"رَبِّ" هو الذي يُرِبّي ويَرعَى ويُمِدُّ بالرحمة، فالكلمة توحي بالشفقة إذا قورنت بـ"القهار والجبار والمنتقم والمميت" ونحوِ ذلك، فإضافة كلمة "العذاب" إليها تخفِّف من وقْعها على النفس.

لقد اعتضد معنى الآية إجمالًا بكل كلمة منها بل بكل حرف للدلالة على معنى القلة، فأنَّى لقرائحِ البشر أن تأتي ببيان مُفلِقٍ دقيقٍ كهذا.

المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ (سورة البَقَرَة: 3/2)، المبادئ الكلية والقواعد العامة للزكاة، وهي على النحو التالي:

أ. على المنفِق أن يعطي "بعض" ماله لا كله، أما إنفاق الكل كما فعل سيدنا أبو بكر رضي الله عنه فهذا خاص بمن لديه روحانية وإيمان كأبي بكر رضي الله عنه؛ فالرسول ﷺ لم يَقبَل من الصحابة رضي الله عنهم أمثالِ كعب بن مالك وسعد بن أبي وقاص أن يتصدقوا بأموالهم كلها، بل عدَّه إفراطًا، ولمَّا أصر سعد أَذِنَ له رسول الله ﷺ بالثلث فما دون، وأرسَى مبدأً خالدًا: "**إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ**"[21].

---

[21] سنن النسائي، الوصايا، 3.

ب. شرط مال الزكاة أن يكون حلالًا، فلا يقبل الله ما يُنفق من الحرام؛ فلو أنفق كلَّ ما كسبَه من الحرام في سبيل الله أو حجَّ به فلن يُتَقَبَّل منه.

ج. أن لا يَمُنَّ المزكِّي على المستحق فيؤذيه، وجاء هذا تصريحًا في آية أخرى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ (سورة البَقَرة: 264/2).

د. لا تُدفع الزكاة إلا للمستحق.

هـ. ينبغي أن تُدفع الزكاة ابتغاء مرضاة الله تعالى، فإن شابتْها مقاصد وأغراض أخرى قتلت روحَها.

هذه الأسس كلها في الآية الكريمة، وهذا برهان آخر على جزالة القرآن الكريم في مبناه، وإسقاط هذه القواعد العامة على الآية الكريمة على النحو التالي:

أ. إنفاق بعض المال لا كلِّه أفاده التبعيض في كلمة "مِن"، فلتكن الزكاة بعضًا مما رزقه الله.

ب. أن يكون مال الزكاة حلالًا، فالضمير "نَا" في قوله تعالى: "رَزَقْنَاهُمْ" يومئُ إلى هذا، فكأن الآية تقول: ينفقون مما آتيناهم على سبيل الرزق"، فما تسلبه من زيد لتعطيه عَمرًا لا يكون من الزكاة في شيء.

ج. وأما مسألة المنّ والأذى، فضميرُ "نَا" في قوله "رَزَقْنَاهُمْ" يشير إليها، فكأنه يقول: "إنني أنا الرزاق، فليس لأحد أن يمن على غيره ويؤذيه فيما يعطيه". نعم، إن الله هو الذي خلق التراب والماء والهواء والشمس، وهو الذي خلق البذرة التي تنمو؛ فماذا يملك الإنسانُ حتى يقف متكبرًا مغرورًا منّانًا على من يعطيه بعض ماله.

د. لا تعطَى الزكاة إلا للمحتاجين وقوله تعالى: "يُنْفِقُونَ" يشير إلى ذلك؛ أي يجب على من تُدفع إليه الزكاةُ أن يعلم أن هذا المال "نفقة" للمحتاجين.

هـ. ينبغي أن تُدفع الزكاةُ ابتغاء رضوان الله تعالى كما دلّ عليه قوله تعالى: "رَزَقْنَا"، أي "إنني أنا الرزاق، فليكن الإنفاق باسمي أنا أيضًا".

و"الإنفاق" من "الرزق" عام يشمل أمورًا أخرى بمقتضى عموم "ما" في قوله تعالى "مِمَّا"؛ فالمال رزقٌ، والعلم رزق، والبيان رزق، ولكل من ذلك زكاته، فالتعليم والإرشاد إلى الحق والحقيقةِ مثلًا زكاة العلم، وهكذا.

إن بضعة ألفاظ في آية تشتمل على هذه المعاني كلها لهي آية بينة على أنه ما يقول هذا بشر، إنه الوحي الذي جمع فأوعى.

المثال الثالث:

قوله تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ (سورة آل عمران: 3/159).

قبل تحليل الآية يحسن التمهيد للمحاور التي سنذكرها:

هذه الآية نزلت في غزوة أحد: استشار الرسول ﷺ أصحابه قبل الغزوة، ولا يخفى أن استشارة الرئيس واستطلاعه لآراء أهل الرأي والشورى أمر جلل لإشراكهم عاطفيًّا بَلْهَ عقليًّا في موضوع القرار، فيَعرض المسألةَ عليهم، ويُدْلي كلّ بدلوه، وهذا يثري الآراء ويُتَداوَل كلُّ ما ليس في مداولته حرج، إلا إذا كان ثمة ما يستأثر الأميرُ بمعرفته وهم

لا يعرفونه، أو كان في اطلاعهم عليه حرج وضررٌ ما يحول دون مداولته، وقد يجوز للأمير أن يخالف رأي أهل مشورته لعوارض معتبرة؛ فهو وإن كان بيده وحده اتخاذ القرار في حالة كهذه لكن تَظَلّ استشارته لأهل الرأي والمشورة من المبادئ الأساسية؛ ذلك أنّ "الوعي الجمعي" بهذا ينمو ويتطور، وبهذا يعرف كلٌّ مهمته إلى حدٍّ ما، ويبذل ما بوسعه وطاقته ليثبت وجوده وصواب رأيه وقوة حجته.

لهذا كان الرسول ﷺ يستشير أصحابه دائمًا، وفي غزوة أحد كان صوت الأكثرية مع الخروج من المدينة للحرب، وكان للرسول ﷺ رأي، لكنه اتَّخَذ القرارَ بناءً على رغبتهم ليشير إلى ما للاستشارة من قدْرٍ وقيمة.

ووقعت هزة أُحد، وإن لم نسمِّها "هزيمة"، لكن من المسلَّم به أنَّ المسلمين لم ينالوا ما أرادوا من النصر، فتألَّم الرسول ﷺ وأصحابه أيّما ألم.

وعندئذ نزلت هذه الآية لتحول دون هذه الحالة. نعم، أرست الحدود وأوْصت الرسولَ ﷺ بأن يستشير أصحابه رغم ما جرى: ﴿**وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 159/3).

ولو تأمّلنا مفردات هذه الآية لرأينا كيف تآزرت حول المعنى والمضمون ذاته:

فكلمة: "فَظًّا" لها معان، أهمُّها:

أ. سيئ الخُلُق.

ب. غليظ الفِعال.

ج. بذيء اللسان، يَجرح المشاعر وينفِّر.

د. إذا عطش في البادية نحر الإبل، وعصر كروشها ليشرب ماءها العكر.

هـ. معسِّر يصعِّب الأمور ويُعَقِّدها.

و. مُبْهم الفعال.

وأما قوله تعالى "غَلِيظًا" فهي مشتقة من الغلظة أي الخشونة والقسوة وهي خلاف الرِّقَة والرِّفْق واللطف ولين الجانب والدماثة والظَّرْف، وحروفها بجرسها وموسيقاها الداخلية وتَناغُمها الصوتي مع السوابق واللواحق تعضد القدر المشترك فيها معنًى ومغزًى.

وأما "انفضَّ" فهي تدل على خبط شيء بآخر ليتبعثر ويتفتّت، أو تمزق شيء بالضغط عليه، أو بعثرة الأطراف بعد قطع الرأس، ونحوها من المعاني.

ومفردات الآية تدور حول المعنى ذاته، وفي موسيقاها ضربٌ من الشدة والقسوة والضغط والتمزق، وهذا ما يُراد بيانه.

أجل، لا بد أن يتولّد من الضغط والتضييق تمزُّقٌ وانفجارٌ وانشطار، فتلك أسبابٌ هذه نتائجُها، ولن تجد بيانًا فيه هذا القدر من الانسجام للتعبير عن اطّراد التفاعل بين الأسباب والنتائج.. يا له من تصوير بياني للحَدَث لا يرقى إليه سواه!

ولو تتبعتَ آيات القرآن بالتحليلِ لألفيتَ فيها هذه الخصائص كلها، ولمست هذا التضافر والجزالة في جميع القرآن من سورة "الفاتحة" الشريفة إلى سورة "الناس" الجليلة.

أول آية في الفاتحة ﴿**الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، مرادها أن الحمد والثناء والشكر والمنة مستحَقٌّ لله الذي هو رب العالمين جميعًا وخالق كل شيء ومُـدبّر أمره بذراته وكراته ودنياه وعقباه وأجساده وأرواحه ومادته ومعناه، فهو مستحِقّ الحمد وأداؤه واجبُ أمثالنا من المخلوقات.

هذه الحقيقة مكنونة بشكل ما في كل كلمة من الآية.

بيان ذلك أن الحمد لفظ جامع لكل ما يعبِّر عن التعظيم والمنّة مما ذكرناه أو أغفلناه، ويدل ضمنًا على المعنى المراد في الآية.

ولفظُ الجلالة: "الله" علم خاص على المعبود المطلق، فيدل -بالتضمن والالتزام- على الحمد والثناء والشكر والمنة والمدح والتبجيل، وعلى أنها مستحقة له وحده سبحانه قطعًا.

واللام في "لِله" للاستحقاق والاختصاص، فتشير بجلاء إلى أن الحمد والثناء مستحق لله وحده دون سواه.

وقوله: "رَبِّ الْعَالَمِينَ" دلَّ على أن الله هو الذي أوجد العالمين من العدم ورعاهم وحفظهم برحمته، وأودع في خلقه بديعَ صنعِه، وعمّهم بشتى أصناف الإحسان، فدلّ -بالالتزام- أنه ﷻ يستحق أنواع التقدير والتعظيم والتبجيل والحمد والثناء كلها، وهذا هو فحوى قوله: ﴿**الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾.

مثال آخر: في سورة الناس أمور عدّة، منها توحيد الربوبية، وتوجيه الأنظار إلى معاني الأسماء الإلهية الواسعة الدالة على أفعاله وتصرفاته المتنوعة في ملكوته، لتُذكِّرهم أنه لا ملجأ ولا منجى لهم في الضراء إلا إليه، وتُبين لهم سبل وقايتهم من الشرور.

وهذا يتجلى في آيات السورة وجُمَلها كلها؛ وبيان ذلك أن الإنسان عُرْضة -من حيث لا يَرى ولا يَشعر- لشياطين الإنس والجن، إذ ينفذون بدهاءٍ ومكر خبيثين إلى جوانيته من العروق التي قد يتحكمون به من خلالها إغواءً وإفسادًا؛ والإنسان أدرى بمسارب ضعفه، وحقيقة عجزه وحاجته لاتقاء شرِّ أعدائه، فلجأ إلى القدير المطلق في ظلال "رَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلٰهِ النَّاسِ"، ومما يُثري البيانَ ويزيده جزالة لا تُنال أنَّ الجملَ بجرسها وأصواتها وجناسها ترمز إلى ذلك المكر والدهاء والخداع.

والأمثلة كثيرة، وفي قليلها ما يشهد أنه تنزيل من رب العالمين كما يشهد بهذا ما في ألفاظه من جزالة وثراء لا يحيط بهما وصفٌ، فحسبنا هذا لِنَبحث مواضيع أخرى.

2- البيان البديع العجيب

من تأمَّلَ بيان القرآن وقف -بحسب المقام- على عذوبة ورقة وشدة وقوّة بأسلوب بديع لم يُعهْد مثله من قبل ولم يُرَ بعدُ، فلا مقارنة ولا تشابه بينه وبين أدب الشعراء والأدباء السابقين أو اللاحقين، فلا هي منه بنسب وما هو لها بنظير.

أجل، إنه كلام الله المتميِّز بأسلوبه وسَمْته وتفرّده، فما هو بمقلِّد، وما لأحد يدانِ بتقليده، والغرابة في الأسلوب والتفردُ في سمت الكلام قد تثير المخاطبين وتُحرّك فيهم نزعة الرفض والإنكار، وهذا ما كان منهم، ورغم ذلك استحسنوا أسلوبه البديع وعظَّموه مذعنين لسلطانه المكين في أسلوبه؛ إنه يحلق بالمستمع في جوٍّ دافئ لطيف، ويحيط به فيأسر لبّه؛ فما أكثر من استمعوا إليه فلم يستطيعوا أن ينعتقوا من تأثيره الأخاذ، بل منهم من آمن من فوره، ومن لم يؤمنوا أذعنوا لعظمته وجلال قدره.

فهذا الوليد بن المغيرة لما استمع إليه من رسول الله ﷺ رقّ، فجاءه أبو جهل منكرًا عليه، فقال: والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا.

وجمع قريشًا عند حضور الموسم، وقال: إن وفود العرب ترِد، فأجمعوا فيه رأيًا، لا يكذب بعضكم بعضًا، فقالوا: نقول كاهن، قال: والله ما هو بكاهن، ما هو بزمزمته ولا سجعه.

قالوا: مجنون، قال: ما هو بمجنون، ولا بخنقه ولا وسوسته.

قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر كله، رجزه، وهزجه، وقريضه، ومبسوطه، ومقبوضه، ما هو بشاعر.

قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، ولا نفثه ولا عقده.

قالوا: فما نقول؟ قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا وأنا أعرف أنه باطل، وإن أقربَ القول أنه ساحر، فإنه سحر يُفرّق بين المرء وابنه، والمرء وأخيه، والمرء وزوجه، والمرء وعشيرته، فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس، فأنزل الله تعالى في الوليد:

﴿**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۝ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۝ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۝ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ**﴾ (سورة المُدَّثِّر: 11/74-24).

وقال عتبة بن ربيعة حين سمع القرآن: "يا قوم، قد علمتم أني لم أترك شيئًا إلا وقد علمته وقرأته وقلته، والله لقد سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة"[22].

[22] سيرة ابن هشام، 194/1.

وما كان منه بعدئذ إلا أن ترك معارضة الرسول إلى حدٍّ ما. نعم، إنه لم يؤمن ولكنه كان مبهورًا بالقرآن.

ولعل الغرابة في أسلوب القرآن على ضربين:

الأول: روائع حروفه لا سيما المقطعة.

الثاني: أنَّ القرآن عجيبٌ في جمعه وإحاطته.

أ. روائع الحروف المقطعة:

إن في حروف القرآن -لا سيما المقطعة- شيئًا عُجَابًا يأخذ بالألباب.

الحروف المقطعة تصدَّرت بعض السور نحو ﴿الٓمٓ﴾، ولم يُعهد قبل نزولها كتابة رموز من حروف كهذه.

نعم، إن أسرار القرآن أُودِعت في روحه مشفَّرةً، والحروف المقطعة من مفاتح هذه الشفرات.

ومن له علمٌ بماهية الشفرة يدرك معنى هذا جيّدًا، فخبير اللاسلكيات قد تَقرعُ سمعَه هذه الأصوات: (دي، دي، دا، ديت؛ دا، دا، ديت)، فنحن لا نفهمها، أما هو فيحوِّلها إلى حروف مثل: (أ-ب-ت)، ويكتبها (خماس-مخمس)، لقد اتّخذ من هذه الحروف أرقامًا دالّة على مجموعة أسرار، فالرسالة المشفرة تُحلَّل في ضوء هذه الأرقام، فتفيد المعنى المراد.

والغرض من التشبيه تقريب المسألة للأذهان، ووجه الشبه أن الحروف المقطعة في القرآن شفرات أيضًا على ما في القرآن من أسرار، ولعلها هي التي حملت أمثال محيي الدين بن عربي والإمام الرباني وبديع الزمان على أن يكشفوا آلاف الأسرار، ويفتحوا أبواب تلك الكنوز، ويطلعوا على الأسرار القرآنية..

وأما العلم بهذه الشفرات فمصدره الإلهام، يُلهمها سبحانه قلوب من شاء، فيكشفون الأسرار القرآنية النافعة لزمانهم، ويُبلغون مَن حولهم الأسرارَ الإلهية.

وموضوع هذه الأسرار ليس من القضايا التكليفية، بل هي ضروب من الموائد القرآنية ونافلة من الإحسانات الإلهية.

ولا يتسع هذا المقام لبيان وجوه الإعجاز كلها للحروف المقطعة، فحسبنا مسائل مهمة تقدِّم تصوُّرًا عن الموضوع:

إن للقرآن منهجه في اختيار الحروف المقطعة واستخدامها، وبيانُ ذلك أنَّ للحروف أقسامًا في علم التجويد والأصوات: فمنها المجهورة، والمهموسة، والشديدة، والرخوة، ومنها حروف القلقلة وهكذا، والحروف المقطعة -وهي نصف الحروف العربية فقط- جاءت على نسقٍ دقيق، فالحروفُ الرخوة ضِعْفَا الشديدة استخدامًا في القرآن، ومن المستحيل وجود هذا التقسيم بالصدفة، فهذا الضرب من نظام الحروف ليدلّ على أن القرآن معجزٌ بنظمه وأنه كلام الله، ولِبيان ذلك إليك مثالًا لا يخفى على أحد:

لنفرض أن على قارعة الطريق عددًا من الأعمدة، ثم هُدم العمود الثاني والرابع والسادس... إلخ، أي فرادى، فمن السفه ادّعاء المصادفة كأن يقال: إن الريح هدمتها فرادى؛ إنَّ في هدمِ بعضٍ بعينه وتَرْكِ غيره قصدًا وترجيحًا، وقل مثل هذا في الحروف المقطعة، فاختيارُها بالنمط المذكور ليس مصادفة، فمثلًا: حرف "قٓ" لم يرد إلا في موضعين: سورة "قٓ"، والشورى، وهو عند القائلين بالإعجاز العددي رمز القرآن الكريم، وهو كذلك لمن أمعن، وبيان ذلك أن حرف القاف ذُكِرَ 57 مرة في كلا السورتين، فالمجموع (114)، وهو عدد سور القرآن، ومعنى السورتين وموضوعهما هو القرآن؛ فمطلع سورة "قٓ" القَسَم بالقرآن: ﴿**قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ**﴾، وخِتَامها: ﴿**فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ**﴾ (سورة ق: 45/50).

وأما سورة الشورى فمطلعها: ﴿**حم ۞ عسق ۞ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (سورة الشُّورَى: 42/1-3)، وختامُها عن خصائص القرآن: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ**﴾ (سورة الشُّورَى: 42/52-53).

جاءت البداية والنهاية في السورتين عن القرآن كما أشرنا أن "ق" رمز إلى القرآن، وأن موضوع السورتين هو القرآن، وأن الحرف "ق" تكرر (114)، وهو عدد سور القرآن، أفيمكن أن ينسب هذا إلى المصادفات؟ ويزيدنا يقينًا بذلك أن هاتين السورتين ليستا من أواخر ما نزل من القرآن، فهذا

التحديد لا يكون إلا ممن يعرف عدد السور القرآنية قبل إنزالها، ولا أحد يعلم هذا حتى الرسول نفسه ﷺ، فيستحيل أن يشير من تلقاء نفسه بمائة وأربعة عشر (114) قافًا إلى مائة وأربع عشرة (114) سورة.

والدلائل على أن القرآن كلام الله متنوعة، ونظام الحروف المقطعة وأعدادها فيه، وهي من الإعجاز بمكان.

ومن النكات البديعة للحروف القرآنية المقطعة أن زيادتها ونقصانها في سورها له نسق يطّرد وترتيبَ ورودها مثلًا:

سورة الرعد تبدأ بـ﴿الٓمٓر﴾ فترتيبها (أ، ل، م، ر)، ثم يتناقص عددها على هذا الترتيب أيضًا: فـ"أ" تكررت (625) مرة، و"ل" (479)، و"م" (260) مرة، و"ر" (127) مرة.

وثَمَّةَ سورٌ سوى هذه يلاحظ فيها هذا التناسب الدقيق منها سورة البقرة، فالحروف المقطعة فيها هي ﴿الٓمٓ﴾، وتكرارها في السورة كالتالي: تكرر حرف "أ" (4592) و"ل" (3204)، و"م" (2195)، فالانسجام في الترتيب جليّ فيها؛ وهو كذلك في سورة آل عمران، فالحروف المقطعة فيها هي: ﴿الٓمٓ﴾، وعددها في السورة مطّرد مع ترتيبها؛ فحرف "أ" تكرر في السورة (2578) مرة، و"ل" تكرر (1885)، و"م" (1251)، على التوالي، والأمرُ جارٍ في سورتي العنكبوت والروم لو عددْتَ حروفَهما.

وأما في سورة (يس) فكان العكس؛ فالحرف الأخير عدده في السورة أكثر، لأن ترتيب الحروف المقطعة فيها على خلاف ترتيبها الهجائي، بدأت بالياء وثنَّت بالسين، فجاء عدد السين أكثر من الياء، ونكتفي في هذا الباب بما قدمناه مجملًا، ولندع تفصيله للمتخصّصين.

ب. شمول الخطاب القرآني جامعيته

للقرآن الكريم أسلوبٌ وبيانٌ فريد يرعى مستويات المخاطبين الإدراكية والفكرية في مختلف العصور، ففَهِمَهُ الناسُ زمنَ نزولِهِ بيسر، وكذا من أتوا بعدهم بعصور، إنَّ له أسلوبًا في بيان المراد، تنكشف به لجبريل الذي نزل به من العوالم العُلوية معانٍ من ذلك المقام، بينما يدرك الرسول

أسراره من أُفقه هو، والناس ينهلون منه كلٌّ على قدر مداركه، حتى الراعي وهو يرعى له فيه نصيب من الفهم والإدراك، وكذا الفلاح وهو يحرث، وربة البيت في عملها والبدوي في بيئته.

فعلى مرّ العصور وتعاقُبِها تربَّتْ في كنفه قاماتٌ سامقة وعباقرة أفذاذ أمثال الفقهاء الأربعة، توجهوا إليه بأرواحهم وقلوبهم، واستَخرَجوا منه لآلئ المعاني وجواهر الحِكم، بل إن أمثالنا ممن لا يَرقَون إلى مستوى التتلمُذِ على أيدي هؤلاء حينما يرِدون مَعِينه يَستقون فيُسْقَون خيرًا كثيرًا، وهذا خير شاهد على أنه منهل فياض لا ينضب ولا يغور، فيا لله أيُّ بيانٍ هذا؟! يرتشف من كوثره سكان الملإ الأعلى، ويقتبس منه الأميون، لا تفسير لهذا الأمر العُجاب الذي يأخذ بالألباب إلا أن ينسب إلى الله تعالى وأن نذعن أنه كلامه سبحانه.

ومن المعلوم بأنّ للبيئة وقْعًا كبيرًا على الإنسان، وأن المواهب والملكات إنما تظهر بتهيئة الظروف المناسبة لنموّها؛ فالمواهب التي تَربَّت في القصور يرعاها المؤدِّبون وتأخذ عن المعلمين الأكفاء، فتغْمُر فيها الروح والمشاعر والقلب والعقل، وهي ليست كغيرها؛ فعلى من يخاطبها أن يلحظ -على الأقل- مستواها، ويخاطبها بأرقى الأساليب؛ لكن خطاب القرآن ليس كذلك؛ فهو يخاطب من تربَّى في القصر ومن دونه في مجلس واحد، بخطاب واحد، وكلاهما يستقي منه ويغترف بقدر دلوه، ويغدو تلميذه، ويدخل في حلقة إرشاده النورانية، فنحن نسمِّي هذا الأمرَ "جامعية القرآن"، والرسولُ ﷺ يصف هذه الجامعية بقوله: "لكل آية ظهر وبطن وحدٌّ ومُطَّلع... إلخ"[23]؛ أي إن كل شيء في جامعيته.

والمقصود بـ"الظهر" المعاني الظاهرة وبـ"البطن" المعاني الخفيّة التي لا تنكشف إلا لذوي بصائر اكتحلت عيونهم بقلم الفراسة، وهذا مسلَّم به.

كثير من الموجات الضوئية والصوتية لا نستطيع عادة أن نلتقطها بالعين والأذن وحدهما، وعندما نضغط زرَّ المذياع والتلفاز تغدو مرئية مسموعة، وكذلك القرآن له ضروب من المعاني

---

[23] الطبراني: المعجم الأوسط، 236/1.

غير مرئية كهذه الموجات، لا يراها ولا يدركها إلا ذوو البصائر، ولدينا مئات الكتب في التفسير الإشاري، منها تامَّة، ومنها ما تناول عددًا من السور أو سورة واحدة أو آية فقط، فهؤلاء أعربوا عما كشفه الله لهم.

ولكل آية حدّ ومُطَّلع؛ فقد تُفهَمُ وتدركُ ابتداء أو في النهاية، ولكل ظهرٍ وبطنٍ وحدٍّ ومطلعٍ أنواعٌ كثيرة من الفروعِ والغصون والأوراق والثمار، ولا تنالها سوى أيدي ذوي القامات السامقة، ولا يَطَّلع عليها أهلُ كل عصر، بل منها ما يفوت السابقين وينكشف للاحقين.

إنه كلام الله الذي لا يَخْلَق بالتقادم، بل هو ذو حُلّة قشيبة إلى يوم القيامة، فلو عُمّرتِ الدنيا مئات القرون لظلَّ القرآن كما كان غضًّا طريًّا فتيًّا، فالآلاف بل مئات آلاف التفاسير التي كتبت إلى يومنا هذا براهين ساطعة على ذلك، وما زال تلامذة القرآن يُثوّرونه ويستقصون مضامينه كلٌّ بقدره ووفق طاقته الإدراكية، ولن يزال الأمر كذلك حتى يلفظ آخرُ المؤمنين أنفاسه، فهذا هو مقتضى جامعية القرآن.

ولعلَّ الأمثلة تجلِّي خصيصة القرآن بأنَّه الصرحُ البيانيّ الوحيد الذي يخاطب كل إنسانٍ على حِدَة في كل عصر، وتمتنع هذه "الكيفية الخارقة" على غيره، فهو فريد في هذا، ولنتناول الأمثلة على الشكل التالي:

المثال الأول: قوله تعالى في سورة النبإ: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا**﴾ (سورة النَّبَأ: 6/78).

هذه الآية بضع كلمات لو أدركنا مدى ما فيها من جامعية القرآن، لأمكن قياس ما سواها عليها لتقديم تقييم دقيق في المسألة.

إن الآية تتحدث عن تهيئة الأرض على هيئة "مهاد" والمَهد -بفتح الميم وكسرها- مِنَزُّ الصبي أي فراشه، فالمعنى: أن وجه الأرض كالمهد، يسهل المشي عليه، وكل ما يحتاجه الإنسان متاح ميسور، فهذا المعنى يلحظه ويشاهده كلّ امرئ فلا يحتاج استنباطُه إلى عميق العلم والفهم والبحث.

وأما الأديب الذوّاقة فله من الآية مدارك أخرى منها:

وجه الأرض كالمهد والفراش، يَشْعُر المرء بدفئه كلَّ حين وكأنه حضن أمه، ويتنسم فيه السكينة والطمأنينة، وهو كالمهد يتحرك ويهتز باطّراد وانتظام مريح يمكن للإنسان أن يعدّه "مَهدًا" له، ولولا توازن الحركة واطّرادها لمَا استقر شيء في مكانه، ولما تذوّقنا ما نحن فيه من سكينة وطمأنينة، فالأرض في هيئتها التي هي عليها الآن تتحرك وتهتز كمهد تهزّه أم رَؤُوم بلطف وحنان حتى إننا لا نشعر بحركتها تلك، فمن جعلها كذلك ذو رحمة ولطف لا نهاية له ولا حدود.

أجل، لا خوف ولا قلق ما دامت الأرض في يده، وتتحرّك بأمره، فهذا يبث فينا روح الثقة ومشاعر الاطمئنان، ويُشعرنا بالسكينة كما الطفل في مهدٍ تهزه أمه، وإذا قيمنا الأحداث وتأملناها من هذا المنظار فستطمئن قلوبنا وتهدأ نفوسنا.

ومن معاني "المهاد" الأرض المستوية المسطحة؛ فمن اتسعت آفاقه الفكرية أدرك من الآية معنى كهذا: كلٌّ منا يرى وجهَ الأرض مستويًا مسطّحًا حين ينظر إليه من مكانه، والأرض في الحقيقة كروية، ولكن الرؤية البصرية تظهرها لنا على شكل سطح مستوٍ، لا سيما لمن سبقونا بعصور.

وهذه عدة وجوه للآية، وسنذكر ولو إجمالًا آيات تشير إلى كروية الأرض.

إن هذه آية قصيرة أَوَحَتْ لشتى المخاطبين -وهم درجات- معانيَ متفاوتة، وكلٌّ يأخذ منها حاجته.

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ ۞ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا**﴾ (سورة النَّبأ: 78/6-7).

هذا الاستفهام تقريري كأنه قيل: إنا جعلنا الجبال أوتادًا، فالأمي حسبه ظاهر الآية ليرى الجبال وكأنها أوتاد، وهذا البيان مناسب له؛ فإن منظر الجبال وشكلها يشبه الأوتاد المُثبتة في الأرض.

وأما إذا سمع هذه الآيةَ شاعرٌ فمما سيستلهمه حسب روحه الشاعرية -على حد تعبير بديع الزمان النورسي -: وجه الأرض بساط، والسماء سقفه المزين بالنجوم، وسفوحُ السماءِ في الآفاق ركبت رؤوس الجبال أو إن الجبال قواعد لأطراف السماء تُمْسِك بها، فالجبال كالأعمدة التي تمسك بالسقف، والأرضُ قصر يزين سماءَه ملايينُ المصابيح السيَّارة المتلألئة الوضاءة، وقاعُه

بساط سندسي أخضر بأزهاره وأفانينه، فيا له من منظر خلاّب أعمدةٌ تتراءى لك وكأنها باسقات أصلها أرض القصر وفرعها سماؤه.

وأما البدويّ الرَّحُول فيَفهم من هذه الآية من منظوره هو أنَّ الجبال كأنها خيام شامخة في شكل مخروطي، لكن الفرق أنها في روعتها ورصانتها قائمة بقدرة مطلقة تفوق كلّ شيء.

فالبدوي يرى الأمر هكذا، فهو يستنبط من الآية بقدره.

وأما الإداري فترشده الآية إلى نظام الدولة. أجل، فالدولة مؤسسة مهمتها تسيير أمورِ المجتمع وإدارته، أي هي منظومة سياسية إدارية أنشأها مجتمع خاضع لحكومة ونظامٍ مشترك، ولها بناء هرمي كالجبال، والمجتمعاتُ التي تقوم على خلاف هذا لن تقوم لها قائمة.

نعم، إن جعل الجبال أوتادًا يوحي بهذه المعاني زيادة على المعنى الحقيقي.

هذا وللجبال دور حيويّ في استمرار الحياة كالتراب والهواء والماء، وبهذا تغدو أعمدة حقيقية للحياة العامة؛ فهي مخازن للماء، والماءُ أساس الحياة، قال الله تعالى:

﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: 30/21)، وأكثرُ من 70% من الجسم مكوّن من الماء، وهذا برهان دامغ على مدى أهمية الماء لحياة الإنسان والنبات والحيوان؛ فلا مراء في أهمية الماء، وإذا كانت الجبال خزائن المياه فلا جرم أنها أعمدة للحياة.

ومهامّ الجبال تنقية الهواء العنصر الثاني للحياة، فلا حياة من دون الهواء النقي؛ وهذا يبرهن على الأهمية الكبرى للجبال في استمرار الحياة.

وثمة تبادل للغازات بين الإنسان والجبال المكلّلة بشتى أنواع النبات والأشجار، فالنباتات تمتص ثاني أكسيد الكربون وتُطْلِق الأكسجين، والإنسان يتنفس الأكسجين ويُطلق ثاني أكسيد الكربون، وهذا عنصر أساسٌ لحياة الإنسان.

والجبال تحفظ التربة وتحميها، وتحتضنها كالأم؛ فلولا الجبال لسَطَتْ البحار على الأرض، ولك أن تتخيل ما كان سيؤول إليه أمرها حينئذ، فلولا الجبال لتعذر على الإنسان أن يعيش في

مستنقع، فهذا التحصين لليابسة له أهمية قصوى في حياة الإنسان، لذا فإن استمرار حياة الإنسان منوطٌ بالجبال من وجوه.

والأمطار والسيول تؤدّي إلى انجراف التربة على الدوام، فلولا الجبال التي تُمِدّ التربة وتعوض ما نقص منها، لما بقي الآن على وجه الأرض حَفنة من تراب، ولَاستحالت حياة الإنسان وكثيرٍ من الكائنات الحية.

هذه بعض وظائف الجبال في تغذية التربة وحمايتها باستمرار، وبها يكون الحفاظ على البيئة المناسبة لبقاء التربة وكثير من الكائنات الحية.

وعلى هذا فالمتخصص في علم الأحياء سيفهم من قوله تعالى: ﴿**وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا**﴾ هذه المعاني وما شابهها من معانٍ كثيرة، وسيقف بين يدي القرآن بكل أدب وخشوع.

والمتخصّص في علوم الأرض سيضرب بسهمٍ من هذه الآية، وسيطلع من منظاره على أمور مهمة، فلطالما يعتلج داخلَ الكرة الأرضية تقلبات عدّة تتحلل منها بعض المواد، وتدخل في تركيبات جديدة، هذه التقلبات والتغيرات التي تبدو كمن يتميّز من الغيظ، وهذه الحمم المندلعة من البراكين ما هي إلا تعبير عن هذا المحتوى الداخلي، فكأن الكرة الأرضية تلفظ ما في باطنها لتفتدي بذلك ما هو أكبر وأعظم.

وتبدو الأرض -والحمم تندلع من أفواه البراكين- كحَنِقٍ يتأفّف، وأفواهها وتأففُها على قدْر حجمها، فتهتزّ وتُزَلزَل من تأففها بعض المناطق، ولو لم تتأفّف لربما تصدَّعَتْ بطريقة أخرى؛ فهي تُخرج بالبراكين ما يعاني منه باطنها من تقلبات داخلية، فترتاح وتسكن، إذًا إن الجبال التي تندلع منها البراكين والحمم ما هي إلا حصون ودروع لسلامة الكرة الأرضية أجمع.

وقد تدل هذه الآية على المعنى التالي: ووجه تشبيه الجبال بالأوتاد أن البادي من الأوتاد أو المسامير بعد دسْرها أقل من المطمور في الأرض أو السطح أو الخشب، إشارة إلى أن الجزء المركوز من الجبال في الأرض أضعاف البارز منها، وهذا ما لم يكتشفه العلماء إلا في عهد قريب، وأشار إليه القرآن منذ قرون.

وهكذا سائر القرآن له وجوه وجامعية كهذه الآية المؤلفة من بضع كلمات.

المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: 30/21).

ولعله من المناسب تحليل المفردات أولًا: كلمة "كَفَرَ" بمعنى ستر وغطّى، وسمي الزارع "كافرًا" لستره البذر بالتراب من قولهم: كفر الحبةَ أي غطاها بالتراب وسترها، وهذا أحد أوجُه تسمية الكافر بهذا الاسم؛ لأنه ستر ما في باطنه من قابلية المعرفة الإلهية وغطى استعداده هذا، ولم يُتِح له الفرصة لينمو وينكشف، وهذا انغلاق القلب دون "الحقيقة العظمى"؛ وهذه عاقبة عناده وغيّه، وسببها الرئيس عيشه كالعُمي، وإعراضه عن الحقائق.

نعم، إن الكافر هو من يهمل قلبه وعقله ويعطلهما، بل يمسخهما، وكلمة "كافر" في الآية تصوّر نواقض العقل والمنطق من التصرفات، وتفضح من يقضُون حياتهم سامدين ويفنون أعمارهم في قضاء نزوات النفس العمياء.

"رتق" معناها الالتصاق، والشيء ضُمت أجزاؤه وجُمعت بعدما تمزقت، والمراد أن السماوات والأرض كانتا متلاصقتين كالسائل أو الغاز، أي كانتا في هذه المرحلة شيئًا واحدًا لا انفصال بينهما، وكانت بهذا المنظر الرائع عرشًا للتجليات الإلهية، فالنجوم والنُّظُم والمجرات والسّدُم نمت في هذا الحقل وترعرعت فيه، وسيأتي وجه استنباط هذه المعاني من الآية.

"الفتق" ضدّ الرتق ومعناه الفصل، والشَّق، والفصل بين المتلاصقين، فيكون معنى "الفتق" في الآية الكريمة: فصل ما تجمع من الغازات عن بعضها، ومن معاني الفتق نظم خرز السُّبحة في خيط، وحلّ اللغز والأَحْجِية، ولشمول كلمة "فتق" لهذه المعاني اختيرت على مرادفاتها؛ فهي كلمة جامعة لمعاني الموضوع كلها.

ولهذه الآية معانٍ، كلٌّ يدرك بعضها من منظوره، من أهمّها ما يدركه العامّة والخاصّة: أنه لم يكن بين الأرض والسماء نظام وتناغم؛ فلم تكن السماء ممطرة، وكانت الأرض في رحم المستقبل، ولم يكن بين أجزاء هذا الجرم المذهلة تفاعل بخاريّ ولا أيّة علاقة أخرى، وكذا بعد خلق الأرض

لا مطر من السماء ينزل، ولا بخار من الأرض يرتفع، فكانت الأرض والسماء من جملة "المجهول"، ولم ينفصل الليل والنهار عن بعض، وما تزال الأرض في الرَّحِم، ثم أسبغَ الله تعالى الانسجامَ والانتظامَ على هذه الكتلة العملاقة الخَلِيّة منهما، ونَظَمَها كما يُنظم الخرز في خيط السبحة، وظهر للناظرين أن كل شيء مسخر بأمره، فخلق الأرض والسماء، وجهَّز الأرض بالغلاف الجوي، وأعلمَ كل شيء أنه ﷻ القدير المطلق، وكلما أرعدت السماء ابتسمت الحياة على الخضراء.

والمثقَّف تدلّه الآية أن السماء والأرض كانتا تبدوان للناظر بلا هيئة ولا صورة، وكأنهما عبث، وكان الله الحكيم في أفعاله كلها المنزهُ عن العبث كتب أن سيخلق السماوات والأرضين لحكمة وغاية، فخَلَقَهما، وكساهما هيئة وصورة، فجعل الأرض قصرًا، والسماء سقفه المزين بالنجوم، والإنسان سلطانَه، وسخر له كل شيء، وصيَّره خليفة في الأرض، لِيُسَيِّرَ كل ما تطوله إرادته، فحقّق كثيرًا مما أراد، وغدت الأرض مهدًا له؛ فالوجود كله رهن إشارته، فكأن كل إشارة منه دعاء وأمر، وهذه المخلوقات المُسخَّرة له لو لم تكن مأمورة، لَمَا عرفته ولَمَا سارعت إلى إطاعة أوامره، فالذي سخر له كل شيء هو الله، وهو المنعم عليه بنعم لا تعدّ ولا تُحصى.

وأما المتخصّصون ذوو التجارب فمن منظار الآية يرون أن في الفضاء عددًا كبيرًا من السُّدُم[24]، ولعل منظومتنا كانت إحداها، ولما تَتَالَت الأزمنة تناقصت حرارة هذه الكتلةُ الغازية بإرادة الله تعالى وتقلَّصت، وزادت سرعة دورانها، وأخضعتها هذه السرعة لِما نسميه "قانون الطرد المركزي"، وهو القانون الذي وضعه الله بإرادته ومشيئته، فانشقّت الكتلة الأساسية الحلزونية الشكلِ، فخلق الله تعالى السياراتِ من هذه القِطع المنفصلة، وجعلها تدور حول الشمس وحول نفسها بتأثيرِ ما في المركز من جاذبية الشمس.

---

[24] السدم: جمع سديم، وهو: تَكَاثُف أو تَجَمُّعُ نُجُومٍ بعيدةٍ تَظهرُ وكأنها سحابةٌ خفيفةٌ، أو بقعٌ ضَعيفَةُ النُّورِ، كما يتكونُ السديمُ من غازاتٍ مضيئةٍ شديدةِ الحرارةِ، تدورُ حول نفسها.

نعم، إنَّ هذا الفَهْمَ موافق لمغزى الآية، فإن كلمة "الرتق" تستلزم معاني مثل: المائع المتجمّع، المادة اللزجة، المادة التي تتجاذب أجزاؤها، فكأنّ المراد: لم تتمايز السماوات والأرض من قبل، بل كانتا كتلة مائع أو غاز، فالله تعالى هو من فَصَلَ بينهما، ومايَزَ بينهما، وشكَّلهما وأخضعهما لنظامٍ ما.

وبهذا أرى لزامًا أن أشير إلى ملمح لطيفٍ قبل الختام وهو أن الخطاب في قوله:

﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ ليس قاصرًا على قومٍ مضوا قبل بضعة عشر قرنًا لا يرون سوى موطئ أقدامهم، ولم يفارقوا صحاريهم، ولم يحاولوا أن يدركوا أمر النجوم ولو بالباصرة، ولا يعنيهم بل لا يفقهون ما ندركه اليوم ولا يعُون معنى قولنا: "إن السماوات والأرض كانتا كلًّا غير منفصل، ونحن فتقناها أجزاءً وفصلناها عن بعض"، فالمقصود بـ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ عموم الكافرين لا سيما كفار هذا العصر الذين يخاطبهم القرآن بمعانيه الخاصة المتوجهة إلى عصرنا هذا عصر العلم، لكنهم سادرون وعنه معرضون.

إنّ كلمةً في آية توحي بضروب شتّى من المعاني لأناس على مستويات متفاوتة كل بقدره؛ فمثلُ هذه الجامعية لا ولن تجدها إلا في القرآن كما سبق، فإنه لَيستحيل على كلام البشر أن يبلغ هذا الشأوَ الرفيع.

ب. تعدّد الوجوه في معاني القرآن الكريم

إن ما ذكرناه حتى الآن يرتبط على الأكثر بعمقٍ وتعدّد الوجوه في المفردة القرآنية، ولمعاني القرآن أيضًا عمق وجامعية تبرهن أنه خارق معجزٌ من هذا الوجه أيضًا.

نعم، إن لمعانيه جامعية حملت الفقهاء قديمًا وحديثًا على استنباط مئات الآلاف من المجلدات، فصنّفوا قدرًا تزيغ منه الأبصار، ونال العارفون شهدهم العرفاني من رحيقها، فسقوا بمؤلفاتهم الزاخرة ملايينَ الناس كؤوسًا عذبة، وكم جاش في أعماق العشاق قبساتٌ من إلهاماتها، وتمايلوا بحالات من العشق والمحبة في موجات المد والجزر الناتج عن الجذب والانجذاب، فكل ما

أُلِّف إلى يومنا هذا في الفقه أو التفسير أو علم الكلام أو التصوف فالقرآن المعجزُ البيانِ أسُّه وأساسه.

في رياض القرآن ترَبَّى فُحول الفقهاء كالأئمة الأربعة، وترعرع كبار المربيّن حتى غدوا أقمار سماء الولاية وشموسها منهم الشيخ أبو الحسن الشاذلي، والسيّد أحمد الرفاعي، والإمام الرباني، والشيخ عبد القادر الجيلاني.

ولو أن الغابات أقلام والبحار مداد، وكُتِبت بها تلك المعاني التي يتضمنها لُباب القرآن؛ لنفد المداد وما نفدت، ودليل صدق هذا الادعاء أنه لو عمد قارئ إلى كتب الحنفية ناهيك عن كتب غيرهم، فقرأ كل يوم مائة صفحة، لقضى فيها سنين طويلة، وكم من كتب الحنفية أتت عليها السنون، فلم تنتشر ولم تطبع، ومنها ما لا نعرفه بل لم نسمع باسمه، ولم تذق كلماته من مِداد المطبعة طعمًا.

وإن ضُمَّت إليها كتب المذاهب الأخرى لاستغرقت أعمارَ كثيرين، وإذا أُضيفت العلوم الأخرى كالتفسير والحديث وعلم الكلام والتصوف وغيرها صارت الأرقام عجبًا عُجابًا، كل هذه العيون تتدفق وتفيض من نبع القرآن، وتنحدر هدارة إلى يوم القيامة، فجواهر خزائن القرآن لا تنفد لأن وراء ما فيه من ثراء المعنى علمًا لا ينقضي.

إن القرآن يتناول الكون كله جملةً واحدة، وهكذا يقوِّمه، ولا يُغفل منه شيء، فالقرآن يتناوله من الذرات إلى الكرات كما يندف الحلاج القطن؛ ففي القرآن لكل شيء قدر ظاهره وباطنه، وداخله وخارجه، ولُبّه وقشره وأحواله كلّها، كل بحسب درجته ومستواه.

من أمعن في القرآن ولو بنظرة عَجْلَى فسيجد أنه ذَكَرَ كل الموجودات وما عزب عنه شيء؛ فتراه يُقْسم بالذرات (*Atoms*) ويَعْرض للأنظار كيفيتَها المذهلة، فلهذه الجزيئات منزلتها الخاصة في القرآن الكريم، ولا يدفعها صغرُ أحجامها أن لا تكون فيه، فما من شيء من دوران الذرات الملأى بالأسرار إلى جريان الرياح المنعش للأرواح المهدِّئ للنفوس إلا وله في القرآن ذِكْر على

قدْر قيمته وأهميته، ويتنزه القرآن أن يكون مطروقًا، فيرتقي إلى قيم لا تحيط بها مداركنا: ﴿**وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۞ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۞ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۞ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا**﴾ (سورة الْمُرْسَلَاتِ: 77/1-4).

هذا هو القرآن ينتقل من هذا التطواف والجولان في هذه السورة إلى سورة أخرى موضوعُها قلب الإنسان وعالمه اللدني وجوانيته، فيقول: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**﴾ (سورة الأَنْفَالِ: 24/8)، فيَعْبُر من الظاهر إلى الباطن، ليُثير في الأرواح هزة من لونٍ آخر.

إنه وهو يطرق قلب الإنسان لا يُغفل إرادته، فهو خير من يسبر الإرادة الإنسانية سبرًا يأسر الألباب ويصعق العقول ويقرع الأسماع: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ**﴾ (سورة الإِنْسَانِ: 30/76)، فكم في الإرادة الإنسانية من أسرار محورُها هذه الآية.

ثم يلفت الأنظار إلى الخلق الأول للإنسان، ليذكّر بماهيته وجوهره، ذلك الإنسان الذي من جنسه كان آلاف الأنبياء والأولياء، وآلاف الفراعنة والنماردة: ﴿**أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۞ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۞ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ۞ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ**﴾ (سورة الْمُرْسَلَاتِ: 77/20-23).

لكن لا يستمر حُسن الهيئة والقوام هذا: ﴿**وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ**﴾ (سورة النَّحْلِ: 70/16).

وتلك عاقبة عابرة في هذه الدنيا الفانية؛ ففي الآخرة الراحة والسكينة السرمدية تنتظر الأرواح الطيبة، وهذه حقيقة دلت عليها مئات الآيات وهي تتحدث عن العالم الأخروي.

و﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 185/3)، وموتها هو قيامتها الصغرى.. وأما القيامة الكبرى فهي ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۞ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۞ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ**﴾ (سورة التَّكْوِيرِ: 81/1-3)، فالقرآن لا يُغفل هذه العاقبة، ففي هذه الآيات يذكِّر بذلك الحدث الهائل إذ يذهب ضوء الشمس، وتتبعثر النجوم كأنها عقد انفرطت حباته، وهكذا تملأ الرهبة القلوب.. فكأنَّ الحق ينادي عبده: ستخرج من هذه الدنيا كما دخلت، فتزود منها بقدْر عبورك منها، واستعدَّ للآخرة دار الرحيل بقدر خلودك فيها ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ (سورة الْقَصَصِ: 77/28).

وعندما يتكلم القرآن عن الخلق يخصّ مرحلة البدء، فيقول: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ (سورة فُصِّلَتْ: 11/41)، فقد بيّن أن السماء كانت دخانًا فقط، فشاءت إرادة الله أن تكون، فسوَّاهن سبع سماوات في شكل ما، وأنَّ السماء والأرض خضعتا لأوامر الله وسُننه طائعتين راغبتَين، وأنَّ الكون كُتِب وكأنه كتاب، وعُرض على أنظار أصحاب الشعور ليقرؤوه، وهكذا يحرك القرآن قلوبنا نحو حاجتها من العلم والمعرفة لعلنا نحلّ بعض قضايانا المعضلة.

والقرآن في حديثه عن خلق الكون لا يُغفل بأسلوبه الفريد ذكرَ طيّ السماء، وهي صفحة من صفحات الكون: ﴿**يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: 104/21)، ولم يغفل أيضًا ذكْرَ تبديل الأرض وتغيّرها: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ**﴾ (سورة إِبْرَاهِيمَ: 48/14).

وفي ذكره ليومٍ تُكشف فيه الأسرار يقول: ﴿**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**﴾ (سورة الطَّارِقِ: 9/86) يومئذ تشهد على الإنسان يدُه ولسانه ورجله، فتحرجه أيّما حرج: ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (سورة النُّورِ: 24/24)، إنه لَيبعث في القلوب مِنْ صنوفِ الرهبة والفزع ما لا يُحصَى، ليس هذا فحسب بل إن المرء يفرّ حتى من أقرب أقاربه بحثًا عن ملجإ يؤويه، هكذا يصوِّر القرآن ذلك اليومَ: ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۞ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**﴾ (سورة عَبَسَ: 34/80-37).

إنه لَيوم الفزع الأكبر، فيه تَبهَر الأهوالُ الناظرين، فتزيغ الأبصار، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولا ينفع في ذلك اليوم مال ولا بنون، وكل سيُوفّى عمله غير منقوص ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ (سورة الزَّلْزَلَةِ: 7/99-8)، فستنجلي هذه الحقيقة ظاهرةً جليةً، وستصطبغ الوجوه بصبغة الأعمال: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 106/3).

ثم يصور القرآن موقف الإنسان وهو ينتظر المصير إما إلى الجنة وإما إلى النار، وحالَ الناس وهم يأخذون كتبهم وتتعالى صرخات الفرح أو صيحات الحزن، فتنشرح صدور المؤمنين وتبتهج وهي تشاهد تصويره لنضرة النعيم على وجوه السعداء بعدما رأوا الجمال الإلهي، وعندئذ تبدأ

السعادة السرمدية، لكن لا ريب أن بلوغ مرضاة الله فوق هذا كله وهي أسمى ما يبتغون: ﴿**وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ (سورة التَّوْبةِ: 72/9)، فالمتنافسون في هذه الحَلْبة هم الفائزون في الدار الآخرة.

دلّ هذا أن لمعاني القرآن شمولًا، فلم يترك شاردة ولا واردة في الوجود إلا تحدث عنها بطريق العموم، فما من حادثة وواقعة إلا عرَضَ لها بقدر أهميتها في سياق بَدْء الخلق وختامه؛ فبهذه الجامعية والشمول عمد لتشريح (*Anatomy*) الكائنات كلها، حتى لَكأنّ الجزيئات كُبِّرت بعدسات وجُلِّيَت للأنظار.

وخصيصة القرآن هذه أرغمت فحولَ الشعراء والأدباء يومئذ على الإذعان للقرآن، وما أشبه الليلة بالبارحة؛ فكم من علماء ومفكرين عمالقة في عصرنا أذعنوا للقرآن واتخذوه منارًا فريدًا يُهتدَى به، وأقروا بجلال قدره، وهذا كلّه دالٌّ على أن القرآن أجمعُ وأشمل رسالة إلهية إلى الإنسانية.

وإليك من شعراء الجاهلية ما يُجلّي مدى تأثير القرآن الكريم فيهم، فهذان الفحلان الشقيقان كعبٌ وبُجير -وهما ابنا زهير بن أبي سلمى أحد أعلام شعراء الجاهلية- كانا من شعراء العصر الذهبي للشعر العربي، وكان بجيرٌ قد سَبق أخاه إلى وسام الشرف بالإسلام، وأما كعب فتأخر وكان يحرّض على الإسلام، ولكنه انبهر بنور الإسلام ومعاني القرآن فهداه الله للحقّ وانجذب لنور القرآن كما الفَرَاش.

وكان كعب بن مالك فريدَ عصره، شاعرًا يَفخر به قومه الخزرجُ، ولم يشارك في تبوك فتجرّع مرارة ما عوقِب به وكأنها السم، فما انثنى عن إخلاصه وصدقه مثقال ذرة؛ إذ إنَّ البيان الإلهيّ سَحَرَه وأخذ لبَّه.

وهكذا حسان بن ثابت الشاعر المُفْلِق الذي خصّه الرسولﷺ بدعائه له قائلًا: "**اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**"[25].. ومثله عبد الله بن رواحة، الأديب والشاعر، كان له قَرِيضٌ صارمٌ كسيفه، وصارمٌ مِخذَم كبيانه، والخنساء الشاعرة المقتدرة المفوَّهة، التي أغرَقت العالمَ العربي بدموع مراثيها في مقتل أخيها صخر، فلما تشرّفت بالإسلام، لم تجزع قط بل تجلدت يوم بلغها استشهاد بنيها الأربعة في القادسية، وقالت: "الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته"[26].

وسوى هؤلاء كثير لا يُحصون من شعراء وأدباء، أخذ بمجامع قلوبهم سحر القرآن وحده.

ولنا أن نعمم أكثر؛ فليس بمستنكر استناد مشاهير أعلام المسلمين إلى جامعية القرآن، وعليه لنا أن نقول: إن الأئمة الأجلاء كالغزالي وأحمد السرهندي وفخر الدين الرازي، وجلال الدين الرومي، وبديع الزمان سعيد النورسي.. كلهم يحومون حول البيان الخالد للقرآن كما الفراش حول الضوء، وإن القرآن قد أَسَرَهم وأخذَ بمجامع قلوبهم بجاذبية قدسيَّة ليست لسواه.

ج. الانتظام والاتساق القرآني

من الدلائل على أن القرآن كلام الله هو ما فيه من الانتظام؛ فانتظامه المُحْكم واتساقه المتين لا تبلغ شيئًا منه لوحاتٌ فنية بديعة نقشتها أيدي الفنانين المهرة، فالتناسب في الألوان وملاءمة المادة المستعملة لمكانها المناسب يفوق الوصف، ولا نشاز ينبو عنه البصر أو يعافه الذوق السليم.

وقبل التفصيل فلنبين معنى "الانتظام القرآني":

مواضيع القرآن تكاد تجتمع كلها في كل موضعٍ منه؛ فمن الممكن أن نَجِدَ في سورة البقرة كلَّ القرآن، ونجدَ سورةَ البقرة في سورة الفاتحة، ونجدَ سورة الفاتحة في البسملة، فليس من

---

[25] متفق عليه.

[26] ابن الأثير: **أسد الغابة**، 89/7.

المبالغة أن تقول وأنت تتأمّل أيَّ سورة منه: القرآن جميعه في هذه السورة، ولو أقسمت لم تحنث؛ لأنها حقيقة، فكل سورة من سوره صورة عنه.

نعم، نزل القرآن الكريم منجّمًا، في أمكنة شتى، لأسباب متنوعة بأساليب عدّة، لكن بين آياته انسجامًا تامًّا وكأنه نزل جملة واحدة في وقت واحد ومكان واحد.

إن البسملة نواة أودعت فيها معاني القرآن، فأَخرجت شَطْأَها في الفاتحة، وانشعبت أغصانُها وأفانينها في سورة البقرة، وتفتّحت أزهارُها وآتت أُكلَها في سائر القرآن، فالنسبة التي بين النواة والثمرة هي هي لم تتغير مع باقي آيات القرآن.

ومن المتعذر تصوير الانسجام بين الآيات القرآنية كلها، فحسبنا بيان ما بين البسملة والفاتحة، وما بين آيات الفاتحة إجمالًا.

1- العلاقة بين البسملة والفاتحة

هناك بين ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**﴾ وبين الفاتحة عُرًى متينة، حتى لكأنها آية من الفاتحة، وعدَّها كثير من الفقهاء أولى آياتها السبع، فبين البسملة والفاتحة آصرة تُحاكي الانسجام بين مصاريع الشعر الموزون، وسبق في سياق بيان المعاني المُنيفة للبسملة: أن المخلوقات دانت لجلال **الله** تعالى، فخَلَقَها، وألقى بذور الوجود على أرض العدم، ونمَّى الكونَ ببذرة النور المحمدي، وأودعها لُبَّه، وجَعَل الإنسانَ ثمرة لشجرة الكون.

إن البسملة تبدأ باسم **الله**، وكان **اللهُ** ولا شيء معه، ثم خلق نور سيدنا محمد ووصفه بمثلِ آخرِ البسملة بأنه "رَحْمَة للعَالَمِين" وبأنه "رَحِيم"، ثم تتالى خلقُ سائرِ الكائنات من نوره ﷺ، فتسلسلت الأحداث (الكونية)، وسمِّها -إن شئتَ-: "الأدوار الأرضية (*Geological Periods*)"، أو الأدوار التي تلاحمت فيها الغازات، فالبذرة صارت شجرة وراحت تنمو.

قد يغرس أحدنا شجرة لتثمر، فما تزال محط نظره ورعايته، يرعاها في كل طور، وعينه على أعاليها تترقب ثمارها، وقد تخلو بذورُها من أمارات الحياة، ولا يعني لِحَاؤُها شيئًا لناظرها، ولا

كذلك أغصانها وفروعها وأوراقها قبل أن تُينع، فهي إنما غُرست لغرض كبير؛ وعين ناظرها مسمّرة على الثمرة التي ستطل برأسها من بين الزهور يفترّ ثغرها مترامية في الأحضان ضمن غُلُفٍ ربانية.

وهكذا جعل الله تعالى نور محمد ﷺ بذرة في أرض العدم، فأنشأ الوجود من شعاع ذلك النور، ولو كان لِعِلْمِنا وإدراكنا أن يحيط بالأمر لجاز أن نقول: إنه مادّة الإلكتروناتِ وعالمِ الذرة، ومَبْلَغ علمنا أن شجرة الكون نبتت ونَمَتْ من تلك البذرة المحمدية في أرض العدم، وامتدت تلك الشجرة من العرش الأعظم ثم أينعت، وينعُها هو هذا الإنسان، ولبابُها هو سيدنا محمد ﷺ الذي سماه ربه "المصطفى" أي الصفوة والرحيق.

هذه المعاني كلُّها في "بسم الله"، والمناسبة بين البسملة والحمدلة ندركها إذا علمنا أنَّ الله بجلاله زلزل الوجود فأخرج منه تلك الشجرة، وبـ"رحيميته" منحنا الإرادة، وهدانا لإدراك ماهية الكون وسَعته.

إن في البسملة جاذبية رحيمية لا يفوتها شيء حتى سورة الفاتحة، فكل من يشرع في ختمة يبدأ بالفاتحة، وقارئ الفاتحة يستفتح بالبسملة، وهذا الاستفتاح كأنه سؤال لنا: كيف ستلقون الله تعالى الذي يتحدث عن نفسه في البسملة بالرحمانية والرحيمية؟ وبأي كلام ستقابلون تلك الرحمة الجذابة التي تتجلى في البسملة بجمالها وجلالها؟

هذه أسئلة مقدرة وجوابنا هو: ﴿**الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، فردّنا هو: "الحمدُ والثناء لله الذي أحاطنا ورعانا برحمته".

إن الحق تعالى يتجلى تجليًّا كليًّا عموميا بـ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**﴾، وبرحمته يمنحنا من إرادته إرادة، وها نحن أصبحنا ندرك معاني الأشياء فسيَفتح لنا بابَ الحصول على بعضها، ويمنّ علينا بالهداية، أي إن الله تعالى أتى بنا إلى عالم الوجود فالإنسانية، ثم هدانا إلى الإسلام، فجعلنا أمة من شرَّفه وسماه باسمه في ختام البسملة (الرحيم)؛ فالرحمة التي تحيط بنا بجاذبيتها تجعلنا نقول: ﴿**الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، فالحمد لله أنْ أوجدَنا، والحمد لله أنْ خلقنا في أحسن تقويم، والحمد لله

أن جعلنا مسلمين، والحمد لله أن شرَّفَنا بالإسلام الذي هو الإنسانية الكبرى وجعلَنا من أمة محمد ﷺ.

وقبيل التوجه إلى الله مباشرة نطوِّف في ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ لنبحث في آثار الله تعالى عن الأدلة عليه ﷻ، ثم إن الله "رب العالمين" يقلِّب الكون بقدرته كالسُّبحة بيد المسبِّح، ويبصِّرنا بعظمته وجلاله، ثم يدعونا في الفاتحة إلى التأمُّل في اسميه: "الرحمن الرحيم"، ليرينا كيف أنه -برحمته وشفقته- جعل وجه الأرض مائدة للنعم، وأن الكون كأنه أمواج من الشفقة تَمُورُ باسم "الرحمن الرحيم"، وتتوالى هكذا، فتتكون موجات متتابعة من الرحمة، والله ﷻ من وراء هذا الغطاء يبصِّرنا ويعرفنا نفسه، فنقف لنخاطب من جعلَنا نعي وندرك الرحمة المطلقة قائلين بلسانِ جميع المخلوقات ومشاعرها وأحاسيسها القلبية: ﴿الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فَبَيْن ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ و﴿الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مناسبات من هذا النوع.

ونحن إذ نقوم بهذا الاستكشاف والبحث لا نخاطب الله مباشرة، بل نستعملُ صيغة الغائب وكأننا لسنا بين يديه[27].

هذا "مقام الفرق"، وأما "مقام الجمع" فهو أن يدرك الإنسان الحقائق الكونية جميعًا بمنظار فلكيّ، ويَمْثُلَ بهذا المستوى من الإدراك بين يدي الله تعالى.

وإليك مثالًا يجلِّي المسألة:

إن العبد لن يعرف ربه سبحانه، ولن يتسنى له أن يتوجه إليه، ويقومَ بعبوديته كما يليق بعظمته تعالى إلا إذا أَدرك معنى الكون كله جملةً واحدة، وهذا يستلزم أن يُطلّ من منظار فلكيّ على ذلك المقام السرمديّ، وبه يمكن أن يرى شؤون الله في هذه الدائرة الواسعة، ويفهمَها، ويحيطَ بها علمًا، فيكبّر من أعماقه، أو يسبّحه وينزّهه، وما لم نَحظَ بمثل هذه الأمور على وجه كامل، فإننا سنظل في "مقام الغيب، والإيمان بالغيب" إذا لم تُكشف لنا هذه الأمور تفصيلًا.

---

[27] للاستزادة انظر: فتح الله كولن: خواطر من وحي سورة الفاتحة، دار النيل، القاهرة (2015م)، ص 24، 112.

وكلما نظر الإنسان إلى التسيير الجليل للكون وما فيه، تقرَّب إلى الله تعالى وحظي به، وهذا القرب سيكشف ما في جوانيته من حُجُب البعد، فيدرك ويستلهمُ مما كان يفهمه وعلى نحو ما أمورًا مختلفة، ثم يرقى إلى مقامِ "كُلُّ مَا خَطَرَ بِبَالِكَ فَالله بخلاف ذٰلِكَ"، وهذه ذروةٌ كلما أدرك الإنسان منها شيئًا، وجد أن الله مِن ورائه؛ فإذا نظرنا إلى زهرة، أبصرت قلوبنا أن صنعها المتقَن من فعل البديع، وإذا رأينا ثمرة على شجرة فسيغمرنا الإحساسُ بأن مصوِّرها وبارئها بهذا الشكل والنضج والقِوام هو الله تعالى، وإذا تأملنا الخلق شاهدنا عليهم تجلياتِ الرحمن الرحيم ومحاسنها كافّة.

بهذه المشاعر والمشاهدات يكدّ الإنسان ويجدّ للخروج من "مقام الغيبة"، فإذا بقلبه ووجدانه تترعرع فيهما مشاعرُ وأحاسيس تجاه الحق تعالى تحمله على مخاطبته بـ"أنت"، وما إن يَظهر هذا الإحساس حتى يشعر بمثوله أمام حضرة المولى ﷻ، أي يشعر وكأنه لطائف مركبة من أسمائه تعالى: الأول والآخر والظاهر والباطن، فيناجيه من صميم قلبه بإخلاص تام: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾، فإذا به في المقام الذي يستطيع فيه أن يخاطِب اللهَ تعالى بـ"أنت".

على زائر السلطان أن يقدم بين يديه هدية، وهديتنا التي نقدّمها هي "الغاية التي من أجلها خُلقنا"، ألا وهي "المعرفة الإلهية"؛ فعلينا أن نُقرّ له بأن غايتنا معرفته، ونعترفَ بأن نواصينا وأمْرنا بيده، ولا يجدُ وجدانُنا خطابًا لائقًا إلا ما علَّمَنَاهُ بقوله "إياك"، والحقيقة أننا مفطورون على هذا الإحساس المكنون في وجداننا وعلى هذا الشعور القائم فينا، لكن يغيّب هذا الوجدانَ بعضٌ من رانِ المعاصي، فإذا شاهد العبدُ "شؤون" ربّ العالمين، واطَّلع على تجلياته بالرحمة، فسرعان ما يزول هذا الران ويتجلّى الوجدانُ، ويصدح بـ"إياك" بنقاءٍ صِرفٍ، فينطلق اللسان بـ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾.

وإذا حظي العبد بهذا القرب قال: ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ لأنه لن يستطيع النهوض بتكاليف العبودية إلا بمعونةٍ كهذه، فلا واسطة ولا وسيلة؛ فالعبد الذي ارتقى في مقام الخطاب إلى هذا المستوى لا بد أنه سيستعين بالله وحده، فإنه في مقامه هذا يكون قد تخطَّى كل شيء وشاهَد بوجدانه قدرةَ الله وعظمته، وارتقى من مقام الغَيبة إلى مقام الخطاب.

وكأن الإنسان يلُوح له وهو في هذا المقام أنها فرصة وصلاحية، فليستثمرها على أفضل وجه، إذًا عليه أن يقتنصها ويطلب أحسن ما يليق بأن يُطلب، وها هو ذا يطلب الهداية إلى الصراط المستقيم قائلًا: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾.

وللقرآن ثلاثة محاور: العقيدة، والعبادات، والحياة.. فالعقيدة كلُّ ما يجب اعتقاده، والعبادةُ كلُّ ما يجب فعله، والحياة هي تطبيق الأحكام القرآنية على الفرد والأسرة وشرائح المجتمع كافّة.

إن موضوع القرآن إجمالًا هو هذه المحاور الثلاثة، ولا تخلو سورة منها، فهذه سورة الفاتحة تجمع بين العقيدة والعبادة والحياة؛ فالعقيدة من قوله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلهِ**﴾ إلى قوله ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾، إذ إن ﴿**الْحَمْدُ لِلهِ**﴾ تعبيرٌ عن الركن الأساسي للإيمان، فهي تُبين أن الله تعالى هو وحده المعبود الحقيقي، وهذا هو جوهر التوحيد وصفوته، وأما قوله تعالى: ﴿**رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ فيشير إلى صفات الله التكوينية المتصرفة في الكون، وإلى أسماءٍ من جنس هذه الصفات، ويدخل فيه كلُّ اسمٍ له في خلق العالم وتدبيره أثر؛ وفي قوله ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ توحيدُ المالك ليوم الدين يوم الحشر والآخرة والحساب والميزان والجنة والنار والثواب والعقاب.

إذًا مِن مطلعِ السورة إلى قوله تعالى: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ موضوعُها العقيدةُ والحديث عن مسائلها بأبعادها كلِّها، وقوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ يتناول العبادات، وهو مطلق يصدق بالبدنية والمالية، فأشار بكلمة إلى الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد... وقوله:

﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ يشير إلى أن العناية الإلهية أُسّ الأُسُس، وإلى الاستغراق في العبادة، ويأتي الحديث عن الحياة في قوله تعالى: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾.

إن الفاتحة تبدو وكأنّ محورها "الصراط المستقيم"؛ فهو صراط لا إفراط فيه ولا تفريط، فالنوازع النفسانية في توازن تام مع اللذائذ الروحية، والعقل على خط متوازٍ مع القلب وكأنهما فرسا رهان.

فاذا عوّلنا في طلب الهداية إلى الصراط المستقيم على المحاور الثلاثة: (العقيدة، العبادة، الحياة) يكون المعنى: اللهم اهدنا في العقيدة الصراطَ المستقيم، وأرشدنا في عباداتنا إلى الاستقامة، وبصِّرنا بطريق الدين منهجًا لحياتنا.

هذه الأسس الثلاثة مواضيع القرآن الرئيسة هي **العقدة الحياتية** في الفاتحة أيضًا، ولولا الهداية الربانية، لتعذّر الوصول إلى الحق في العقيدة والعبادة والحياة، فالهداية أولًا، وبها بدأت سورةُ البقرة أيضًا، بل جوهرها ومفتاحها قوله تعالى: ﴿**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾ (سورة البَقَرة: 2/2)؛ ففي كلمتين أبانت بإيجاز أن القرآن فيه الهدى الذي تسألون، وأنه لا هداية في عقيدة أو عبادة أو نمط الحياة إلا باتباعكم له مطلقًا.

وبين طلب الهداية في سورة الفاتحة وقولِه تعالى في سورة البقرة: ﴿**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾ آصرة متينة، فلو اجتهدوا لتحقيق ما في الفاتحة من هداية بالمعنى المصدري بأن أنزلوها على الواقع، لتحقَّق نمط الحياة الذي يدعو إليه القرآن ولأثمرَ فكرًا ومنهجًا إسلاميًّا، وطلاب الهداية في الفاتحة هم من يشعرون في سورة البقرة بأن القرآن منبع للهداية، فينهلون منه، ولا يستشعر في سورة البقرة بأن القرآن مصدر للهداية، فيتَّبعُ هداه، إلا من التمسها في سورة الفاتحة.

وكليات الفاتحة في العقيدة والعبادة هي مطلع سورة البقرة، فالفاتحة من ﴿**الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ إلى ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ في قضايا العقيدة، وقولُه تعالى ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ في العبادة، وفي مطلع سورة البقرة بعد قوله تعالى: ﴿**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾، أوصاف المتقين: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾، وهو فحوى قوله تعالى في الفاتحة: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾.

والعبادة نوعان: مالية وبدنية، فقوله تعالى: ﴿**يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**﴾ إشارة إلى العبادات البدنية، وقوله تعالى:﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ إلى المالية، وهكذا يظهر جليًّا التناغمُ والانسجام بين الآيات الأولى من سورتي الفاتحة والبقرة.

والصلاة والزكاة ركنان في العبادات، فذُكرتا دون غيرهما، وأيضًا بين قوله تعالى:

﴿**الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ وقولِه تعالى: ﴿**أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (سورة البَقَرة: 5/2) تطابُق تامٌ، فما ورد في سورة الفاتحة اعتضد بالآيات الخمس الأولى من سورة البقرة، فيا له من تناسب وانسجام فريد!

وموضوع قوله تعالى في الفاتحة ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ جاء في بضع عشرة آية من سورة البقرة بدءًا من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾، وكذا في سورة يونس بالتفصيل، فبين الفاتحة وسائر القرآن وشائج وأواصر، ولن ترى مثل هذا الانسجام إلا في القرآن، وهو كذلك من كل وجه، فأيّ إعجاز هذا!

2- التناسب بين سورة البقرة وآل عمران والنساء

ونقدم ههنا ومضات لما بين هذه السور الثلاثة من التطابق والتناسق والوحدة الموضوعية قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ (سورة البَقَرَة: 2/21-22).

مطلع الآية دعوةٌ للخلق إلى عبادة الله والإيمانِ به، وعرضٌ لتجليات علمه وإرادته ﷻ في السماوات والأرض لعلهم يؤمنون عندما يشاهدون آثار التصرفات الإلهية جملةً واحدة وكأنهم يشاهدون عرضًا سينمائيًّا؛ يُنزل الله الأمطارَ، وينبت الأزهار، فيُمد الإنسانَ بكل شيء؛ فالمراد من ذكر نعم الله في الأرض والسماء، دعوة الناس إلى عبادته، فالهدف هو العبودية لا عدّ النعم فحسب.

تذكَّرْ هذا وتأملْ ما تلاه: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي** [أي في بيان الحقائق] **أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا** [أي ما هو أضعف منها] **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ**﴾ (سورة البَقَرَة: 2/26).

مطلعها البحث في القدرة والقرآن وأمثاله، ثم محاولة الكفار والمنافقين استهجان هذه الأمثال، ثم يذكّر الناس بما أخذوه على أنفسهم من ميثاق في عالم الأرواح أَن يؤمنوا ويتبعوا سيدنا محمدًا ﷺ نبي آخر الزمان، فنقضه كثير منهم، وما زالوا يفعلون، وهذا ما تذكِّر به الآيةُ الكريمة بأسلوبها الطريف: ﴿**الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ (سورة البَقَرَة: 2/27).

فحياة هؤلاء هي الخذلان، وبنيانهم الاجتماعي متداعٍ من الفوضى؛ نقضوا ما عاهدوا الله عليه، فعاد ذلك على عقدهم الاجتماعي، فتاهوا في حلقة مفرغة ودَوْرٍ فاسد، وكلُّ دائرةٍ فاسدةٍ تولّد دائرة أخرى، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿**وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**﴾ من أواصر الإيمان وصلة الأرحام ﴿**وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ**﴾.

ومطلع سورة البقرة فيه عناصر متنوّعةٌ تُقَدِّمَ لنا "تحليل الطبائع"، فالصورة القلمية المصوَّرة يصدِّقها الحسّ السليم والعقل السليم والقلب السليم، ففي مرآة هذه الصورة القلمية تبدو طبيعة "قوم متمردين" قَتلوا الأنبياءَ على مرّ التاريخ، ولم يألوا جهدًا ولا وسيلة في الإساءة إلى الرسولﷺ.

وهذه الشخصيةُ المصوَّرة في عدة مواضعَ قرآنيةٍ متشبثةٌ بالحياة، مغرمةٌ بدوامها، حريصةٌ على منافعها، وتركبُ كلَّ مركبٍ في سبيل مصالحها، يداها ملطختان بدماء الأنبياء، بل إنها لتساوم الله بسفاهة.

وأبرزُ أوصافهم إثارة الفوضى، ودفعُ المجتمع نحو الأزمات والمعضلات، والصراعُ على حيازة الدنيا بأسرها، وهذا منتهى آمالهم، فيا لهم من متمردين!

وأنت على وعي بأنهم كلما سنحت لهم فرصة نشطوا -لا سيما ضدنا فلنأخذ حذرنا- وفق هذه الخصال المتجذّرة فيهم.

ومعالم هذه الشخصية وردت في بعض السور، وآيات من سورة البقرة، وبأقسى من هذا في نُسَخ الكتاب المقدس كالعهد القديم والجديد فقد ورد فيها تصريحًا وتلميحًا أن هذه الشخصية المتمردة التي باءت مرارًا بتشنيع الله لها وتقبيحه على لسان موسى وعيسى وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام؛ لتُفسِد في الأرض كثيرًا، فيا أيها المؤمنون الحيطةَ الحيطةَ والحذرَ الحذرَ من فعالها الخبيثة.

وفي بعض الأحكام قسوة، قد تبدو شديدة لكنْ فيها خير كثير، قال تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ**﴾ (سورة البَقَرَة: 216/2).

إن أقلام القدر خطت ذلك التكليف في اللوح المحفوظ، فهذا الحكم كائنٌ لا محالة، وأنى لكم أن تخرجوا عنه وما أنتم إلا بشر؛ فهذه هي الجغرافيا الاجتماعية ما تزال تتبدل كل حين بما يجدّ من أحداث.. فلا مفر إذًا من الخصومة والنزاع، وقد يهاجُمكم قوم متغطرسون أو قوةٌ إمبريالية محتلة، فيمتنع حفظ العِرض والنفس والشرف والمال إلا بالدفاع والقتال، ومن هنا قد يكون للحرب وجه حسن من باب "الحَسَن لغيره"، فعلى الإنسان أن يتحرى الخير دائمًا ويسعى جاهدًا للوصول إلى الحسن لغيره إن تعذر عليه بلوغ "الحسن لذاته".

والقرآن الكريم يتحدث في مواضع عدة ومناسبات مختلفة عن اضطرار المظلومين للجهاد، ومنها سورة البقرة، وفيها أيضًا قضايا اجتماعية كثيرة، وتفصيل ذلك يطول فحسبنا هذا من تطوافنا في رحاب القرآن الكريم، لنشرع في مناسبات السور الثلاث:

بَيْنَ مطلع سورتي البقرة وآل عمران تناسبٌ وثيق، وسور القرآن كلُّها بينها تناسبٌ وتناغم، إلا أن التناسب هنا أجلى وأقرب.

مطلع سورة البقرة ﴿**الٓمٓ ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾ (سورة البَقَرَة: 2/1-2) وكذا مستهلّ آل عمران ﴿**الٓمٓ ۞ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۞ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 3/1-3) فالتناسب بينهما أوضح من أن يُبيّن أو يؤول.

في الآيات العشرين الأولى من سورة البقرة ذكر المتقين والكافرين والمنافقين، وفي سورة آل عمران الدعوة لجهاد الكافرين والمنافقين، وهذا إشارة لتناسب محتواهما.

وفي آل عمران ذُكِرت غزوة أحد بإطناب، فما ذُكر في سورة البقرة مقتضبًا فُصِّل في آل عمران مشخَّصًا؛ ففي غزوة أحد اجتمع المتّقون والمنافقون والكافرون، فدلّ هذا أنه روعي في عرض الأحداث التناسبُ المذكور.

وكثيرٌ مما أجمل في سورة البقرة فُصِّل في آل عمران.

وهذا كله يدفعنا إلى التأكيد على النقطة التي نريد إبرازها، وهي التناسب.

والاتساق المذكور في البقرة وآل عمران تراه كذلك في سورة النساء، بل في السور كلّها، وأدلّ دليل هو الانسجام الذي رأينا بين قوله تعالى في الفاتحة: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ وقوله في سورة البقرة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**﴾ (سورة البَقَرَة: 21/2).

قضية العبودية في سورة الفاتحة تتكرر في سورة البقرة بأسبابها الموجِبة لها يقول ﷻ داعيًا إلى العبودية والتوحيد: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ (سورة البَقَرَة: 22/2)،

وفي سورة النساء يتجدد الخطاب بالصيغة نفسها في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ (سورة النِّسَاءِ: 1/4).

فمَن أمعنَ النظرَ تجلَّى له ما بينها من انسجام لا يعوزه تبيان.

وإليك وجوهًا أخرى:

أولًا: هذه السور رغم تمايزها فإن العبودية محورها.

ثانيًا: صيغة الخطاب واحدة في مستهل هذه الآيات جميعها وكأنها رمز مرور.

ثالثًا: أُجمِلت التقوى في إحدى هذه السور وفُصِّلت في أُخرى.

رابعًا: إجمال الخطاب في بعض الآيات وتفصيله في بعض، مثل قوله تعالى:
﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾.

ومن أمثلة التناغم والانسجام بين السور قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ**﴾ (سورة البَقَرَة: 27/2)، وقوله ﷻ في صدر سورة المائدة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾ (سورة الْمَائِدَة: 1/5)؛ والتناسب بينهما في أبهى صورة، فلا حاجة لتلمُّس الانسجام إلى أي تفسير وبيانٍ؛ فالثانية كأنها تكمل ما تناولته الأولى، فبينهما مئات الآيات لكن لا وقْصَ في الانسجام.

وبعد أمثلة عُجاب في سورة البقرة عن المنافقين، تتحدث السورة عن الخالق البديع والقدرة والإرادة المطلقة التي تدبر كل شيء: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (سورة البَقَرة: 29/2)..

بدأت الآية بالضمير "هو"، وهو في سورة الأنعام أكثرُ من غيرها وإليك بيان ما فيها من اتساق مع هذه الآية من سورة البقرة: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ**﴾ (سورة الأنعام: 2/6)، أي إنكم في أصل الخلق طين، ثم رفعكم الله تعالى ورقَّاكم إلى مقام الإنسان صورة ومعنى وماهية.

﴿**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (سورة الأنعام: 60/6)، فبهذه الوفاة يهبكم الراحة لتقدروا على المضي في الحياة.

﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**﴾ (سورة الأنعام: 165/6)، فلكم بوصفكم خلفاء التصرف في الكون بإرادة الله تعالى، فباسمه تعالى تعمرون الأرض ورياضها وبساتينها، وتؤبّرون أشجارها، وبإرادته تنظِّمون أمور الأسرة والمجتمع والدولة وتدبرونها، إنكم خلفاؤه تعالى ومحطّ عنايته.

هذه الأمور فصِّلت في سورتي البقرة والأنعام، وإن التدقيق في السورتين مع ملاحظة ما بينهما من سور ليرشدنا ويدلّنا دلالة واضحة على مدى ما بينهما من تناغمٍ وانسجام فهذا الانسجام الذي نلاحظه والتناغم الذي نشاهده إعجازٌ لا طاقةَ لبيانِ الإنسان به.

وأجلى ما يكون التناسب القرآني في آيات حقيقة الخلق، فأساليبها متنوّعة في سور متفرِّقة، لكن فيها تناغم وانسجام وكأنها جملة واحدة؛ وتناسبها محكم مع سياق السور الواردة فيها، ومع الآيات الواردة في السورة قبلها وبعدها.

نعم، إن آيات خلق الإنسان، وتكريم الله له بسجود الملائكة، تتناسب فيما بينها بانسجام عجيب؛ فقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ (سورة البَقَرة: 34/2)، قد فُسِّر في الآية الحادية عشرة من سورة الأعراف بإطناب، وكأنه

لجلالة هذا الحدث خُصّ بالذكر مرارًا ليُعْنَى الإنسانُ بهذه الحقيقة، ومن أمعن في القرآن جملةً لحظَ هذا الأمر؛ فهو يجذب الأنظار إلى كل أمرٍ جَلَل؛ ومنه هذا الموضوع في سورة الأعراف: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ**﴾ (سورة الأَعْرَافِ: 11/7) فبين الآيتين اتساقٌ وتكامل، ومن تتبعَ هذه الآيات بحذقٍ أدرك الملامح الرئيسة للانسجام والترتيب القرآني، وعقب قضية الخلق تتحدث سورة الأعراف عن أولئك المتمردين المعهودين وتشير إلى ما في السور السابقة من آيات عنهم، وهذا من ملامح الانسجام القرآني الذي طالما تَحَدَّثْنا عنه.

وهناك موضوعٌ آخر ذو قدرٍ جديرٌ بالبحث:

في سورة البقرة معلومات وبيان مفصّل عن الشخصية المتمردة والنمط المُفسِد في الأرض على مرّ التاريخ وفي عصر النبوة، وعما تتّصف به من إحداث الفتن والفساد في الأرض، المُودِي بالإنسان في اضطرابات اجتماعية، ومما عنيت به سورة البقرة الوظائف والمَهامّ التي تجب على المسلم في مواجهة الكفار والمنافقين ومن والاهم من أهل الكتاب، فعليه أن لا يتوانى عن التضحية لإعلاء كلمة الله، وهذا هو "الجهاد" اصطلاحًا.

وفي آيات من سورة البقرة أنّ الرسولﷺ سُئِل عن الجهاد تَتْرَى، ولا أدلّ على هذا من قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ**﴾ (سورة البَقَرَةِ: 217/2).

والصبغة هي هي في سورة الأنفال، ولكن المسؤول عنه مختلف؛ فالسؤال عن تقسيم الغنائم لا القتال.

وبين هاتين الآيتين انتظام واتسّاق أخّاذ لم يُخِلّ به ولو يسيرًا الفصل بينهما بمئات الآيات.

ومن أمعن وعمّق ودَقّق النظر في القرآن كلِّه رأى فيه تناغمًا وانسجامًا يستحيل أن تأتي به قرائح البشر، فالسورة من قصاره أو طواله متّسقة، والتناسب نفسه تراه بين السور، فكل سورة كأنها صورة مصغّرة للقرآن، فيها كل ما فيه؛ فالانسجام مكينٌ فيه وأصلٌ.

لقد اتفق المفسرون والعلماء جميعًا على هذا، وذكروا أن القرآن كلّه في سورة البقرة، وسورة البقرة في الفاتحة، والفاتحة في البسملة؛ إذًا القرآن من مبدئه إلى منتهاه في انسجام تام وكأنه جملة واحدة.

الفصل الثاني

الإعجاز الأسلوبي في القرآن

من وجوه إعجاز القرآن التنسيق والاتساق والتناغم والانسجام؛ ومنها أسلوبه البيانيّ الذي فاق مستوى البشر، وأعجز طاقتَهم، وبالمثال يتّضح المقال:

لن تجد بين سور القرآن وآياته أو كلماته أسلوبًا أو جملة تُخِلُّ بالتناغم والانسجام، فكأنه سبيكة ذهبية من قالب واحد، رغم أنَّه نزلَ منجّمًا في عقدَين ونيف، بمناسبات مختلفةٍ، وحالات متنوعة، لمخاطَبين شتَّى، وما ذلك إلا لأن كلام الذات المنزَّهة عن الزمان والمكان، فالعقدان عنده تعالى كأنهما "آنٌ" واحد، والماضي والحاضر والمستقبل سواء.

لكلِّ علم وفنٍّ مصطلحاته وأسلوبه، وله لغة وطريقة خاصّة يعبِّر بهما عن مواضيعه ومباحثه، فلا ريب أن بين لغةِ علم الحقوق ولغة الشعر والأدب أو الهندسة فروقًا واقعة وستقع؛ فلغة الحقوق مثلًا تتّسم بالقطعية والوضوح، وقضاياها تُشرح بتفاصيلها وجزئيّاتها، ويُبيَّن فيها بوضوح عقوبات الجرائم، ومقدارها ونسبتها، فإن أيَّ خطإٍ أو لبسٍ سيُخل بأساس الحقوق وهو "العدالة"، وسيؤدّي إلى الظلم.

ومن خصائص القرآن أنه كتابُ حقوق (تشريع)؛ ففيه مئات من آيات الأحكام، وبينما يصيب كبدَ الحقيقة مائة بالمائة يتميز عن كتب الحقوق بأسلوبه في هذا الباب؛ فهو يمتاز عن آيات المواضيع الأخرى، لكن لا خلل في التكامل بينهما ولو مثقال ذرة، فالقرآن الكريم رغم ما فيه من إيجاز، وما في تعبيراته من اقتضاب، إلا أن في عباراته ثراءً يُحيّر الألباب.

فعلم المواريث مثلًا يملأ مجلدات من الكتب الفقهية، أما القرآن ففصَّل هذه القضيةَ الطويلة العويصة بنحو عشرة أسطر، وبيّنها من كل وجه بأسلوب أدبي وتناغم لطيفٍ

لا نظيرَ ولا ندّ له.

والمتخصص يسأم وتتعذّر عليه المتابعة لو قرأ نصوصًا كهذه بضع مرات، أما ولا شيء من ذلك يكون في تلاوة مئات آيات الأحكام.. مئاتِ بل آلافِ المرات، وهذا من وجوه الإعجاز، وأنى لكلام البشر أن يضاهي القرآن في هذا أو يباريه.

ولما نزل القرآن وجد ثقافات وحضارات مختلفة، لكنه لم يمر كالحضارات الأخرى بمرحلة نشأة وتطوّر، لقد جاء بأسلوبٍ كَتَمَ أنفاسَ الأدباء العرب وجَعْجَعتَهم، فبذَّهم جميعًا وصار لهم قدوة وإمامًا يُحتذى به، فالأدباء بعد نزوله ما كانَ تميُّزُهم إلا بقدر نجاحهم في محاكاته، ويْكأنَّ القرآن أَسَرَ الأدبَ! فما كان من الأدباء والشعراء إلا أن ذلَّت أعناقهم له خاضعين خاشعين، فيا له من بديع أَسلم الشعراء له القياد!

هذا وجهٌ لا بدَّ مِن النظر إليه لنشهد ما في القرآن من جمالٍ أسلوبي وحسن بياني، فالتعامي عن جلال بيانه وبديع أسلوبه هو التيهُ ذاته.

وليكُن على ذِكْر منك أن معجم أبناء الصحراء ليس إلا بضع كلمات، فنمطُ حياتِهم ومعيشتهم لا يساعدهم على فهم الحياة المدنية ومستوى الحياة فيها، ومعظمُ التصوير القرآني يعكس عالَمًا رائعًا، وتعبيرات هذا السياق كانت مناسِبة جدًّا، تعكس الحقائق بلا مبالغة.

وبعض الأمثلة من هذا المنظار تكشف خصوصية أسلوب القرآن، لأنها غدَتْ حقيقةً لا يطولها الخيال والتَّصور في شِبه الجزيرة العربية يومئذ، وهذه وحدها دليلٌ باهر على أنَّ القرآن كلام الله؛ لأنه يستحيل على من نشأ وترعرع في تلك البيئة أن يأتي بأمثلة وتصويرات من الضرب الآتي.

أ. التصوير الفني في القرآن الكريم

وفي القرآن تصويراتٌ تبعث في النفوس الخوف والخشية وتُرهِب القلوب لكن أساليبها متكاملة مع سياقها، وتبثّ في نفوس قارئيها الخشية والخشوع، وهاك مثالًا لهذا من سورة النور، تليه أمثلة مرتبة وفق ما ذكرنا آنفًا:

يقول الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ (سورة النُّور: 39/24).

تتحدث الآية الكريمة عن حياةِ وتصوراتِ إنسانٍ هوى في الكفر فأخذ يتدحرج فيه؛ تلك هي عاقبة الكافر البائس اللاهث وراء الأحلام، لقد نذَرَ حياته لتحقيق مستقبلٍ دنيويّ أفضل، وكانت العاقبة السقوط في براثن البؤس والخذلان، إن هذا الإنسان البائس إنما خُلق للخلود، فلن يقنعه إلا البقاء والباقي ﷻ، وهكذا يفنى، وسعيُه ليس سوى لهثٍ وراء الفَنَاء.

فما الكافرُ إلا مسافرٌ بائسٌ عاقبتُه وخيمة، يمضي في طريق الحياة متعَبًا مرهَقًا بائسًا، فتتقطع به سبلها، ولا يجد إلا غضب الله وعذابه وشديدَ حسابه.

إن التصوير القرآني لهذا الكافر يجعلنا نستشف حالَته البائسة وكأنها مرسومة على لوحة:

بدأت الآيةُ بتشبيهٍ تمثيلي يدركه ابن الصحراء؛ فالسراب هو ما يتراءى للإنسان في الفيافي من ماء أو خضرة تحت لمعان الشمس وحرارتِها، وهذا مشهد مألوف لساكن الصحراء، ضربه القرآنُ الكريم مثلًا لمشاعر الكافر وهواجسه.

ويزيد التصوير عمقًا قوله تعالى: ﴿**يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً**﴾، فإن المشاهد للسراب ما هو إلا ظمآن تقطعت به السبل، فهو يلهث وراء ما يظنّه ماء ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا**﴾، فهذا التصوير مرآةٌ لمراحل حياته كلّها، فهو في كل مرة يظن أنه وجد الماء فيركض ويُرهَق، ولكنه لا يجد أمامه "شيئًا"، ويمتد هذا الحال إلى أن يلقى اللهَ هكذا، ففي الحديث: "**يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ**"[28].

فالكافر كهذا البائس التعيس يجري وراء السراب؛ ولن يحقق أصغر أحلامه ناهيك عنها جميعًا، وستغدو أحلامُه تِباعًا سرابًا، فما خلق الله تعالى الإنسان إلا ليعرّفه بذاته، ولكن الكافر أعرض، لذا سيعرف الله تعالى يوم القيامة قهرًا.

---

[28] صحيح مسلم، الجنّة وصفة نعيمها، 83.

هذه نماذج لا مبالغة فيها، تجتذب المخاطبين إليها وتؤثر فيهم أيما تأثير أيًّا كان مستواهم، ولا تحجر على سعة خيالهم، وبين يدي هذا التصوير الفريد نقول من أعماقنا ونحن نتنسم عبق الإيمان: "إنه كلام الله المعجز، ويستحيل أن يكون غير ذلك".

وهاكم تصويرًا يجلِّي حالة الكافر عامّة: ﴿**أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ**﴾ (سورة النُّور: 40/24).

إنَّ الكافر غارقٌ في متاهات الوحشة والظلمة، وتأمَّلْ ما كَتَب الأستاذ بديع الزمان النُّورْسي في مؤلَّفاته عن معاناة الكافر في رؤيته للكون الموغلة في الظلمات وتحليله العميق الدقيق للأسباب بِيَراعٍ بارعٍ لتُدرك ما يخسره الكافر بكفره، ويكسبه المؤمن بإيمانه ومعرفته.

ومن لم ينظر بعين الإيمان، أقفر قلبه من نور الإيمان، ومن لم يتأمَّلْ الأشياء والأحداث بنور الإيمان، فما يراه إنْ هو إلا ظلماتٌ بعضُها فوق بعض، ومن ورائها أمواج رهيبة حالكة من الظلمات تُفقِده قلبه وعقله.

وطرافة هذه التصويرات أنها لم تكن تخطر على بال العربي ساكن الصحراء، وكان يستحيل عليه معرفة هذه الأمواج المتلاطمة التي صوّرها القرآن؛ لأن موضعها المحيطاتُ العملاقة؛ فقاع البحر كسطحه فيه أيضًا أمواج كبيرة كالجبال تسمَّى "الأمواج الميتة" ما اكتشفَها البحّاثة البحّارة إلا حديثًا، فأنَّى لِمن يعيش بساحل البحر الأحمر أو في الصحراء أن يتصوَّرَ هذا بَلْهَ أن يصوِّره.

دلت هذه التصويرات الرائعة أن القرآن محيط بأسرار الحياة وبواطن الكونِ، إذ إنه كلامُ مَن يحيط بالكون كلّه ويَعلمُه وكأنه نقطةٌ واحدة.

ولنشاهدْ قوة هذا التصوير في بيانه لحالة الكافر النفسية:

إن عالَمَ الكافر بحرٌ من الظلام، وهو يجري نحو حتفه حثيثًا، وما الموت في ظنه إلا العدم، وما القبر إلا سجن مُوحِش فيه حيَّات وهوامّ وعقارب، فهو في انهيار نفسي وتفكّك اجتماعي،

منقطع عن ماضيه المظلم ومستقبله المجهول الذي لا يرى فيه إلا هاوية سحيقة لا يُدْرَك قعرها؛ فهو في دُوّامة من الظلمات لو أخرج يده لم يكد يراها.

وأنَّى لمن لم يسبح في المحيطات ولو مرة، ولم يشاهِد الأمواج الميتة، ولم يعش ولو فصلًا واحدًا من الظلام كما في الدول الإسكندنافية، أنى له أن يأتي بتصويرٍ كهذا؟! إذًا لا يُعقَل أن يُسنَد تصويرٌ بليغٌ كهذا إلى الرسول ﷺ، ولا يمكن أن يكون هذا الكلام إلا من عند الله، إنه لَكلامُه المعجز إعجازًا بيّنًا.

ب. التصوير الإعجازي للحدائق والجنان

مما يستدعي التأمّل طويلًا أمثال القرآن في تصوير الحدائق والجنان، ففيها برهان جليّ على إعجاز هذا الكتاب.

في القرآن تصويراتٌ وافرة دقيقة للحدائق والجنان أنّى يومئذ لأهل الجزيرة العربية المقفرة مشاهدةُ مثلها؟ وأنّى تُسنَد تلك المناظر لمن وُلِد وعاش وترعرع فيها حتى توفّي؛ أعني به سيد السادات ﷺ! إن وجودَ هذه التصاوير في القرآن ليدلّ دلالة واضحة على أنه كلامُ المتعالي ﷻ الذي خلق السماوات والأرض والحدائقَ والجنان وأقامها على هذا النحو، فهذه النقطة من الأهمية بمكانٍ، وهذا وجهٌ له قدْرُه في إدراك إعجاز التصوير القرآني.

وتنم قوة البيان في التصوير القرآني عن إعجاز بديع، منها:

يقول الله تعالى: ﴿**فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۞ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ**﴾ (سورة عَبَس: 80/25-32).

خلق الله الإنسان فأكرمه بنعمٍ لا تحصى، ثم عدّدها له مفصّلة في كتابه، وساق نظره ليدركها ويَشعرَ بها، فكأنه تعالى يقول: مَن لا تفيض مشاعره وأحاسيسه بين يدي هذه النعم أتراه يدرك أنه إنسان؟!

﴿**فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ**﴾ هل يُعقل إسناد الإطعام والرزق إلى الأسباب أو الطبيعة العمياء؟ ﴿**أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا**﴾ تُرى، ماذا لو لم ينزل المطر إلى الأرض ولو سنةً واحدة؟! وقال تعالى: "صَبَبْنَا" لا "أنزلنا" أو "أمطرنا" لِيذكِّر بعظم نعمته، فكأنه يقول: ﴿**أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا**﴾ فتفكّروا لو لم ينزل المطر سنة واحدة، أو توارت السحبُ، أو تبخّرت مياه البحار ولم تعد إلى الأرض، فلم يجد الإنسانُ قطرةَ ماءٍ تخرج من الأرض أو تنزل إليها.. ألن تغدو أطراف الأرض كلها صحراء قاحلة، فالأنسب هنا ذكر "الماء المصبوب صبًّا" لا القَطْر، فجاء القرآن يقول: ﴿**صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا**﴾.

﴿**ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ**﴾ أي شققنا الطبقة الترابية -وهي صلبة- ببراعم لطيفة رقيقة "شَقًّا"، فتشقّقت الأرض شقوقًا كثيرة، وفي تلك البراعم مِن الرقة ما لو داعبَتها الأنامل لانثنت لكنها بقدرة القدير شقت التراب المتحجر.

﴿**فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۞ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**﴾ (سورة عَبَسَ: 27/80-31).

فيشير ﷻ بقوله: "حَبًّا" إلى مطعم الحيوانات والطيور والدجاج من حبوب وبذور، وأدرج فيها مطعم الإنسان ومشربه، فسيقَتْ متشابكة؛ فاشتمل قوله تعالى: ﴿**وَعِنَبًا وَقَضْبًا**﴾ على العنب مأكل الإنسان والقضب مأكل الحيوان.

﴿**وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَائِقَ غُلْبًا**﴾ أي خلقنا لكم أشجارًا تسيرون في ظلالها أيامًا، وحدائق وجنانًا تَعانقت أغصانُها، فإذا طوفّتم في رُباها وسهولها فستشاهدون حدائق النخيل والعنب والزيتون وسترون الأشجار قد اصطفّت: الصنوبر مع الصنوبر، والدلب مع الدلب، والحُور مع الحُور، وهي تتمايل وكأنها أهلُ الذِّكْر.

"وَفَاكِهَةً" كثيرة.. خصّ بعضها بالذِّكْر ثم أطلق قوله: "وَفَاكِهَةً" أي ما هو كائن منها وما سيكون.

"وَأَبًّا" منهم من فسر الأبَّ بالمرعى أو الكلإ، وهذا ليس قطعيًّا، فلعله -والله أعلم بمراده- يعمّ مطعم الحيوان الطبيعي والمصنوع منه، والمتولّد منه كالذي يُنثَر على الأرض من أسمدة صناعية، يُروَى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ على المنبر: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّى**﴾، فلما أتى على هذه الآية: ﴿**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**﴾

قال: قد عرفنا الفاكهة، فما الأبُّ؟ ثم رفض عصا كانت في يده، فقال لعمرُك يا ابن الخطاب: إن هذا لهو التكلف يا عمر! فما عليك ألَّا تدري

ما الأبّ؟ اتبِعوا ما بُيِّن لكم من هذا الكتاب واعملوا به، وما لم تعرفوه فَكِلُوه إلى عالمه[29].

وكلُّ ذلك ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ أي إنها نعمة مِنَّا لكم ولأنعامكم، فبهذه النعم التي أعطيناكموها قِوامُكم وقوام بَهائمكم، وبِها تدوم حياتكم، ولولاها لخمدت جذوة حياتكم وانطفأت، وغابت عن الوجود.

فهل لمن يتقلّبُ في وديان مكة أن يدرك هذه الصور البديعة، أو لابن الجزيرة العربية -وجلُّ غِلالها التمر والبطيخ والخيار- أن يعيَ ويصوِّر هذه الأمور تصويرًا رائقًا كما جاء في القرآن؟!

وأنَّى له ذلك؟ فالقرآن له وحده هذا المستوى من هذه القوة التصويرية الجذابة البديعة الفريدة، فلا تصوير يدانيه.

ج. الانسجام بين الآيات الناسخة والمنسوخة

النسخ لغةً: التغيير والتبديل بوضع شيء مكان آخر، وهو المحو والإزالة.

واصطلاحًا: بيان انتهاء حكمٍ شرعيٍّ بدلالةِ حكمٍ شرعيّ آخرَ، وهو ظاهرًا تغيير حُكمٍ قائم وتبديلُه، وهذا في علم أصول التفسير، فلْنُعنَ بالانسجام بين الآيات التي يوهِم ظاهرُها التعارض.

يتدرّج القرآن الكريم مع مدارك بيئة النزول ومشاهدات أربابها، ليألفوا ما سيجليه من حقائق ويؤهلهم لأحكامها، لكن لن تجد مثقال ذرة من التناقض بين السابق واللاحق، فكأن السابق ديباجة ومقدمة للَّاحق، واللاحقَ متمم للسابق، وهذا من خصائص الإعجاز القرآني.

وبالمثال يتضح المقال وإليك مثلًا آيات الخمر:

قال تعالى: ﴿**وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا**﴾ (سورة النَّحْلِ: 67/16).

---

[29] انظر: ابن أبي شيبة: **المصنّف**، 136/6.

مَن تأمل الآية لاحظَ عطف المقابلة في قوله تعالى: ﴿**وَرِزْقًا حَسَنًا**﴾ على قوله ﴿**سَكَرًا**﴾، ولم يكن نزل في الخمر شيء، ثم نزل قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا**﴾ (سورة البَقَرَة: 219/2).

أجل، قد يبدو أن لهما نفعًا، والحقيقة أن ضررهما أكبر بكثير.

هذا هو التنبيه الثاني تلاه قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ**﴾ (سورة النِّسَاءِ: 43/4).

هذه مراحل ثلاث تضمّنت رسائل وتنبيهات أثارت في النفوس علاماتِ استفهام حول الخمر، فآن الأوان لنزول الحكم القطعي بعد هذه الإيماءات والإشارات: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (سورة الْمَائِدَة: 90/5).

ولنبين ما عُنينا به ابتداءً من تناسب بين هذه الآيات وإن اختلف زمن النزول، فلا تعارض بينها رغم اختلاف زمان نزولها ودلالتها، بل إنها تتدرج بقارئها نحو هدف واحد، وهو تحريم الخمر، وبيانُ ذلك أن قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا**﴾ (سورة النَّحْلِ: 67/16) دالٌّ على أن ثمرات كلٍّ من النخيل والأعناب من نعم الله عليكم؛ فمنكم من يأكلها، ومنكم من يصنع منها خمورًا مُسكِرة.

وجعل القرآن الخمرَ قسيمًا للرزق الحَسن، أي إنها ليست من الرزق الحَسن ناهيك أن تكون شيئًا يرضاه الله.

إذًا لا تعارض بين هذا الحُكم -ولو كان منسوخًا- وبين الحكم المتأخِّر، فهذا من التلطف بالإنسان الجاهلي آنذاك في الطريق المؤدي إلى التحريم، ففي الآية إشارة خفية إلى الحكم المراد، والآية التالية في النزول لم تحسم الأمر أيضًا؛ بل طرقته بأسلوب آخر: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا**﴾ (سورة البَقَرَة: 219/2).

المراد -والله أعلم- أن أضرار الخمر خطيرةٌ مطلقًا، ولكن إذا اعتبرنا "ال" العهدية في كلمة: ﴿**لِلنَّاسِ**﴾ تفيد أن نفعها هو ما يربحه صانعها وبائعها وهم قلّة، فلعل فيها نفعًا للمدمنين ولرجال

في الدولة أعمت أبصارُهم بصائرَهم، والحقيقة أن فيها أيضًا وبالًا وإثمًا وضررًا؛ فالآية لم تبتّ الحكم، لكن من شمَّر وأبحرَ في روح الآية سرعان ما يُحسّ بوقْـع تلك الصفعات على وجه شارب الخمر.

ولما لم يُبَت تحريم الخمر كان في الناس من يشربها، ثم نزل قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى**﴾ (سورة النِّسَاءِ: 43/4)، فدلّ أن الله تعالى لا يَقبل أن يقف شارب الخمر بين يديه وهو سكران، والمؤمن عليه أن يقف بين يديه تعالى بين فينة وأخرى يناجيه ويدعوه وهو يعي ما يقول، ويخر له ساجدًا حتى تسكن نفسه، كأنّ نداء الحق يقول: أقبلوا إليّ وأنتم صاحون واعون، فذو الوعي مضطر لترك هذا الضرر، فكثير ممن نفذوا إلى روح هذه الآية تركوا الخمر فور نزولها، وما زال يشربها من لم يسبر غورها ولم يرقَ إلى هذا الأفق.

ورغم تهيئة القرآن للعقل والوجدان وتربيتهما على هذا النحو كان فيهم من لم يدرك هذه القضية، فحان حينُ القول الفصل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: 90/5)، فحُكِم على الخمر كنظائرها بأنها من "عمل الشيطان" وحرِّمت تحريمًا قطعيًّا.

نعم، إنَّ شُرب الخمر وما شابهه إنما هو من أعمال ذلك اللعين ومِن بقايا الجاهلية القذرة، والشيطانُ كان ولا يزال -كما أشارت الآية- يستخدم الخمر والسكر في الإيقاع بين الناس.

ومن الفقهاء من استنبط من قوله: ﴿**رِجْسٌ**﴾ أنَّ مَن شَرب الخمر ثم تناول إناءً آخر بفمه المبلّل بالخمر قبل تطهيره تنجَّسَ الإناءُ ووجبَ غسله ثلاثًا.

وفاصلة الآية: ﴿**فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ جديرة بالبحث برأسها.

فلا تعارض بين ناسخ هذه الآيات ومنسوخها، وهي متناسبةٌ منسجمة انسجاما قويًّا، وهذا ضرب من الترابط والانسجام بينها، ولن تَجِدَ مثله في أي كتاب أو كلام آخر.

د. الإعجاز في كلمتين

ومن خصائص القرآن أنه امتاز بالإيجاز، أي تعبيره عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، فهو يضع الكلماتِ والحروفَ في موضعها المناسِب بإيجاز، فلو حُذفتْ إحداها أو قُدِّمت أو أُخِّرَت كان كاستبدال عِقد زبرجدٍ في جِيدِ الحسناء بخرز أطفال.

ولنشخِّص الموضوع بمثال، قال تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾ (سورة البَقَرَة: 179/2)، بيّنت الآية باقتضاب ما في القصاص من الردع... فبكلمتين فقط انجلى ما في عقوبة القصاص من ردعٍ لأي ضرب من عدوان واعتداء وإضرار قد يقع في المجتمع، وبهاتين فقط تمّ البيان وقُضي الأمر: ﴿**فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾، ومنذ نزولها لم يزل الأدباء يحاولون محاكاتها بمثل إيجازها، ولكن هيهات! وأنّى لهم أن يأتوا بنظير لهذا العِقد الزبرجدي[30].

من ذلك:

- قول أحدهم: "قَتْلُ الْبَعْضِ إِحْيَاءٌ لِلْجَمِيعِ"، حاول أن يبين بأربع كلماتٍ ما بيَّنه القرآن باثنتين، فوقع في ثغرات يدركها العامة، ومن الزيغ والعبث المقارنةُ بين نفيس وخسيس.

- وقول العرب: "أَكْثِرُوا الْقَتْلَ لِيَقْتُلَ الْقَتْلَ".

وفيها ضعف كثير، فلم تذكر القصاص ولا سببه، وهي مبهمة تحتمل مشروعية القتل ظلمًا، فالقتل منه ظلم وعدل، أما القصاص فهو عدل محض، وأوجز ما قيل وأبلغه في رأي الأدباء قولهم: "اَلْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ".

فهذه ثلاث كلمات، وفيها خلل موهم منه تحقيق مناط منع القتل للقتل، فقد يُفهم منه القتل في الحرب، وهو ليس القصاص في شيء.

فلنوازن بين أوجز ما قيل في هذا الباب وبين قوله تعالى: ﴿**فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾:

---

[30] النيسابوري: **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، 1/485-486.

في هذه الجملة تكررت كلمة "القتل" مرتين، والتكرار في جملة قوامها ثلاث كلمات ليس من البلاغة في شيء، وشملت الانتحار فأوهمت غير المراد ولو إيماءً، وتحقيق المناط وهو الجزاء قبل تنقيحه وإثباته ممتنع أيضًا فهذا الكلام فيه أوهام دلالية تسقطه بلاغيًّا.

وكلمة "القصاص" ليست منحصرة في القتل، بل تشمل وتعمّ أضرب القتل والجروح والكسر والضرب والضرر، فالقصاص فيها جميعًا هو المماثلة، أما "القتل" فهو مقصورٌ على إزهاق النفس بخلاف ما دونه، فكلمة "القصاص" شاملة، وكلمة "القتل" قاصرة.

ومن الأمور المهمة في قوله تعالى: ﴿**فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾ أن فيها حديثًا عن الحياة بدلًا عن القتل والجراح، فالأساس هنا ليس هو القتل أو الإضرار بوجه من الوجوه، بل المقصود هو جعلُ الفرد والأسرة والمجتمع في مأمنٍ من هذه الأضرار، إذ إنه جعل من القصاص -والقتل من ضروبه- وعاءً للحياة، وهذا اللباب في البلاغة، والآية نصّ في أصل حقوقيّ، وهو قدسيّة الحياة.

وهكذا يتبين جليًّا عدمُ وجود أيِّ نقص أو ثغرة فيها، وهذه الآية هي الأقوم في التراكيب والدلالات، وفيها لقارئها إقناع وإمتاع، ولنفسه سكَنٌ واطمئنان.

إن أوجز ما أتى به الأدباء المخضرمون الخُلَّص بين يدي القرآن ليس إلا كشمعة خافتة ترتعش أمام ضياء الشمس؛ ولهذا خرَّتْ له بلغاء العرب والعجم سجَّدًا، وبأدبٍ جمّ وإجلالٍ مهيب ذلَّت أعناقُ الأدباء القُحّ خاضعين فورَ رؤيتهم لمحاسن هذا السلطان.

هـ. أمثلة على إعجاز القرآن في تعبيره عن مقاصده:

قال تعالى: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (سورة الْحِجْرِ: 94/15)، قد يتعذّر على من فهم ظاهر الآية أن يُدرك الإعجاز المذكور لأول وهلة، فلنبيِّنْ باقتضابٍ مقصدَ الآية من الرسولﷺ.. ولنرجئ أسرار التركيب.

كأنَّ الآية تقول للرسولﷺ: "أَعلِنْ من الآن الحقَّ والحقيقةَ للجموع دِراكًا جِهارًا" فدلَّ هذا على أنَّ المرحلة السابقة كانت سريّة خفيّة، سعى فيها سُعاة لاعتقالِ لسان الحق والحقيقة، ونصبِ العقبات دون الجهر بالإرشاد والتبليغ، وجَذِّ صوت الإسلام ونَفَسه؛ فما صَدَحَ أو ما سُمِع نداؤه

الجهوري كما ينبغي، ثم آل الأمر إلى مرحلةٍ كان الإيمان يغلي في الأعماق والقلوب غليانًا لا يُقْدَر عليه، فحان وقت الجهر بالتبليـغ، ولما أُذِنَ به لزم أن يكون الصوتُ والصدى مناسبَين لجلال الدعوة وعظمتها.

وأجملت الآية هذه المعاني بكلمة "فَاصْدَعْ"، وجرس حروفها وموسيقاها مطابِق لمعانيها، ومنها: شَقُّ الشيء وإخراج غيره، والجهر بالشيء علنًا، والصدح بالحقائق على الملإ جهارًا، والإعلان عن تولي أمرٍ ما، وذِكركَ المسألةَ مرارًا، والثقل والجدية والوقار، فاختيرت كلمةَ ﴿**فَاصْدَعْ**﴾ وخُصَّتْ بالذِّكر لملاحظة هذه المعاني كلها فيها.

ولنُعْنَ بدلالة ﴿**بِمَا تُؤْمَرُ**﴾ على أن الاستحياء والحرج مِن ذِكرك لخصائصك قد يحملك على إغفالها، إلا أن ما تؤمَر به وحي إلهيّ، فمقتضى دقة "الامتثال" أن تُبيّن لهم وتأمرهم بما أُمِرْتَ به.

فيا له من أسلوب عجيبٍ معجِب، ما إن سمعه أعرابيٌّ حتى خر ساجدًا، فقيل له: أأسلمت؟ فقال: لا، لكني سجدت لفصاحته، أي: ما كان لبشر أن يسوق هذه الحقائق كلها بكلمتَين، لقد أَخَذت الآية بمَجامع قلبي، وقَطعتْ صوتي ونفَسي، فسجدتُ لما فيها من روعةٍ وسلطان[31].

وتمام الآيةِ: ﴿**وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾ أي امضِ كما أنت، وبيّن الحقائق بأسلوبك، ودع خفافيشَ الظلام وشأنَهم، ولا تُعْنَ بكفرهم وضلالهم؛ فأنت تسلك السبيل النيّر، وتجافَ عن طرق الظّلم والظّلام، فبلّـِغ ما أُمرتَ به بحزم، وبأسلوب مناسب ومنهج ملائم لعمق القرآن.

فهذه جملة بل كلمة حَوَتْ هذا القدر من المعاني، فبرهن لهم أنَّه معجز، فمَن له أدنى حظّ من الفصاحة والبلاغة لا يسعه إلا أن يخر ساجدًا مقرًّا بإعجاز القرآن كذاك البدوي، فلنُعنَ ببيان دقائقه إذًا.

---

[31] انظر: القاضي عياض: **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، 262/1.

و. الاستدلال القرآني وروعة الأسلوب

إن القرآن الكريم حينما يريد إثبات أمرٍ ما يورد له الأدلة، ويجافي التمويه والتصنع الأسلوبيَّ كما هي مغالطات بعض الفلاسفة، ولا يخصص موضوعاته وكأنها لِفئةٍ بعينها، فالقرآن في عمق الماء وصفائه ونقائه وزلاله، يلوح للناظر كأنه يرى قاعه، فإذا خاضه أدرك كم هو عميقٌ بعيدٌ غَورُه.

والقرآن كالماء عميق صافٍ رقراق، لا يلبّسُ على الأذهان والقلوب، ولا يمتّ إلى السفسطة بِصِلة، كل ما فيه بيّنٌ جليّ، يستهدف الحقّ كِفاحًا بجلاء ووضوح، وهذا منهج قرآنيّ مشهود.

ولا يستعجم المألوف ليغدو غريبًا، بل له في كلّ أمرٍ أسلوب لطيف ملائم لأرواح المخاطبين وفكرهم.

أما الفلسفة فإن الأرواح لَتضيق بأوضحِ ما فيها، فكأنها تُحوّل كل الأمور إلى ظلمات، ويُلَبَّس بها على العقول والأذهان، فتضطرب الأفكار، وتختلط التصوّرات، ولا روح ولا حيوية في أسلوبها، وقد مَجَّها الوجدان العام، فما أبعدها عن عمق المعنى والماهية، وعن واقع الحياة البشرية، لذا سرعان ما تُجابَه بِرَدِّ الفعل إذا ما حاولتْ أن تنزلَ إلى واقع الحياة.

لكن القرآن في قلب الحياة، وأمثاله موضع قبول واستحسان على الدوام، لأنه يخاطب الفطرة، وينادي الطبيعة البشرية، ولا يُغفل الأحاسيس والمشاعر الأصيلة في روح الإنسان، ولا أيَّ توجُّهٍ نحوه، مثال هذا:

منذ قرون وعلم الكلام يبرهِن على حدوث العالم بالاستدلال العقلي، وكانت للفلاسفة تصورات عقلانية، تصدى لهم علماء الكلام بأدلةٍ تُثبِت هذه القضيةِ الكبرى بأساليب المنطق الأرسطي غالبًا، وهذا هدف نبيل؛ فأثبتوا حدوث العالم بأنه لا يزال يتغير، أمّا المنزه والمقدس عن كل تغيُّر وتبدُّل فهو الله خالق هذا العالَم، قالوا: العالم متغير، أي هذا الكون بما فيه يتحول ويتغير باستمرار؛ فالذرات والأنظمة في حركة لا تفتر، والفصول تتعاقب، وفي كل مستحدث جديد، فظاهرٌ للعيان أن الكون يطرأ عليه تغيُّرٌ وتحوُّلٌ وتبدُلٌّ مستمرّ دالّ على الحدوث، وكل ما يتحول

ويتبدل عُرْضةٌ للانحلال والتفكّك ثم الفناء تدريجيًّا، فكل شيء يتغير، والمتغيِّرُ حادث، ولا بدّ لكل حادث مِن مُحْدِث، وذلك المحدِثُ هو الله.

هذا الأسلوب المنطقيُّ طريقُ علمِ الكلامِ إلى هذه النتيجة، ولكن العامّة لا يدركونها، لأن تصوّرهم ومستوى عقولهم لا يبلغ أفقَ فهمِ ذلك وإدراكه؛ فمن لا يستطيع أن ينظر إلى فصل الربيع نظرةً كلّية، ولا يحيط نظره بعظمته وروعته، ولا يَشعر بتحوّل الإلكترونات، ولا يعرف النواة والنترون والبروتون؛ لن يعرف أو يُدرك ما في الكون من الانسيابية أيضًا، ناهيك عن إدراكه الحركة الكلية في الكون ودلالتها، فأنى له أن يستدل بالحركات والتغيراتِ والتبدلات على وجود الله ﷻ؟!

أما البيان القرآني الميسّر الجليّ لهذه الأمور فإن أسلوبه يناسب مدارك الناس ويؤثر فيها وإنْ بقدر.

إن كلًّا من الفيلسوف العقلاني والعامي البسيط ليستفيد من أسلوب القرآن على أتم وجه، ففي مُحَاجَجَة النمرود لسيدنا إبراهيم عليه السلام قال: ﴿**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ (سورة البَقَرَة: 258/2). أجل، إن الله هو الذي يُحيي ويميت، أي هو الذي خلق الموت والحياة، والحياةُ لغزٌ كالموت، فليستا عبارة عن قيام الأعضاء ببعض الوظائف ثم تعطُّلها.

إن الحياة سرٌّ إلهيٌّ، وجوهرُها هو الروح الذي هو نفخة إلهية وتجلٍّ للرحمة في عالم الجمادات، وأما الموت فهو تجلي اسم الله "المميت"، فليس انحلالًا ولا تفكُّكًا؛ أي ليس ناشئًا عن عدم تجلي اسم الله "الحيّ"، فالرابطة بين الله والخلق دائمة؛ ولا يقطع الله عنايته عن خلقه ولو لحظة، والحكم القرآني في هذا مُبين، أدركه النمرود بكلّ جلاء، لكنه عاندَ وأصرّ على كفره فقال: ﴿**أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾ (سورة البَقَرَة: 258/2).

واحتمل أن ينخدعَ بعض العامة بادّعاء النمرود أنه يحيي ويميت بخُدعٍ بصرية، ففطن سيدنا إبراهيم لهذا، وسلّط الضوء على ما تمتنع محاكاته وليس لغيره سبحانه إليه سبيل: ﴿**قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾ (سورة البَقَرَة: 258/2).

منْ لم يدقِّقْ قد تغيب عنه حقيقةُ الحياة والموت، فالإماتة والإحياء يتجليان في دائرةٍ جزئية من تجليات أسماء الله تعالى؛ فانتقلت الآية من التجلي في دائرة جزئية إلى دائرةٍ كلية، وإنّ أكبرَ مدقِّقٍ مفكّرٍ متفنِّنٍ ليستوي في فهم هذا مع العامة والسذّج، وطلوعُ الشمس وغروبُها أمارة على وجود حياةٍ على وجه الأرض ثم انعدامها، فَلِتَحريك عجلة الكون صِلة قوية بطلوع الشمس وغروبِها وبعمر الإنسان أيضًا.

وأكثر من هذا أن عمر منظومتنا رهن بحركة الشمس أيضًا، فبتعاقب الأيام والفصول يقع ما لا يُحصَى من أحداث الحياة والموت، وهكذا تتجلّى إرادةُ الله تعالى على الأرض أبدًا؛ فإن الله يَبسط أمام الإنسان بدوران الأيام والشهور والفصول فصلَ الربيع وما فيه من جلال وجمال، ويُنشئ الصيفَ وألطافَه، والخريفَ وأشجانه، وقد يَعرض للأنظار بفصل الشتاء المديدِ ما لا يُحصَى من مَشاهد الموت، فهذا كلّه من علائق طلوع الشمس وغروبها، فما في هذه الحياة من بداية ونهاية وإحياء وإماتة ثمارٌ لتجلٍ ربانيٍ.

لقد جذَّ سيدنا إبراهيم لسانَ الكافر وأفحمه بدليلٍ جارٍ في دائرة كلّية، والقرآنُ إذ يصف ارتباك النمرودِ أمام هذا الدليل يقول: ﴿**فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**﴾، وكما يقال: لم يستطع أن ينبس ببنت شفة... وظلَّ واجمًا أخرس، ولوضوح الدليل لم يسأل أحد منهم: "ماذا أراد إبراهيم" وما كان لهم أن يسألوا!

تناول القرآن الأمور بهذا الوضوح، وعالجَها بِيُسْر، فالعالم المتفنِّنُ إذا نظر بعين فاحصة مدقِّقة فسيُدرك تفصيلًا ما يحدثه طلوع الشمس وغروبها، وأثرُها في الربيع والشتاء، ومثله العامّي ولو راعيَ أغنامٍ على قدر إدراكه، ومهما كان مستواه فسيلحظ في الموت والحياة معنى من المعاني، وسيُقيِّم مفهوم الإماتة والإحياء ولو بقدر محدود.

إن قضية الخالق والمخلوق شغلت العقول المتفننة المفكِّرة المدقِّقة على مرِّ التاريخ، وفيها أُلِّفت آلاف الكتب.

ومن أدلة علم الكلام "برهان التمانع"، وهو دليل قديمٌ قويّ يمتنع بموجبه

أن تصرِّفَ الكون يدان، والنظام السائد في الموجودات يعضد هذا الدليل.

أو قل: الكون قائم على قانون "رد التدخل"، ويعني كما قال الأستاذ بديع الزمان النُّورْسي أنه: "يُمتنع استعمال عاملين على إمارة، وعمدتين على قرية، وأميرين على بلدة، وواليَيْن على ولاية، وإلا حلّت الفوضى وانقلب النظام رأسًا على عقب".

هذه الأمثلة تشرح هذا القانونَ بأسلوبٍ يُدْركُهُ العامّة، وهو سارٍ في جهاز الدولة على الدوام؛ فكثيرًا ما يقع الهرج والمرج في الجهاز الإداريّ بتدخّلِ الآخرين، وهكذا تفرز إدارة الكون حالات من الفوضى، والكونُ ذو نظام رائع منتظِم بارع وكأنه سفينة تمخرُ عباب البحر بيسر نحو ساحل ترسو عليه، وهذا يدلّنا على أن إدارة الكون وتسييره بيدٍ واحدة.

وعلى "برهان التمانع" اعتمد علماء الكلام، وهو طريق مهمّ في الاستدلال لديهم.

شَغلت هذه القضية الفلاسفة المسلمين وعلماء الكلام عصورًا، وتَناوَلَها القرآنُ الكريم وبيَّنَها بيُسرٍ في بيان سحري ببضع كلمات لم تتجاوز نصف آية؛ فلو أن العقل أدرك هذه الحقيقة العظمى لظلَّ يكرر كلمات القرآن ويدور في فلكها، وإن لم يدركها ظلَّ أبد الدهر حبيسَ التخبُّط والحيرة.

أجل، إن مستندنا من الأزل إلى الأبد هو هذه الآية من القرآن المعجز البيان: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: 22/21)، فلو كان في السماء والأرض سوى المعبود المطلق يتصرّف ويتدخل لفسدتا؛ فهذا النظام والانتظام والتناغم وآلاف الكتب الزاخرة بالحِكم تدل على أنَّه لا أحدَ سواه يتدخل في صفحات الكون.

وإذا أمعنَّا النظرَ في فحوى الآية نفسها فسنقترب من حقيقتها أكثر؛ وهَبْ أنّه تَصرَّفَت في خلق السماوات والأرض يدانِ؛ فإما أن تتساويا في القدرة على التصرف في المخلوق نفسه أو تتفاوتا، فإن قدَرت إحداهما عليه فوجود الأخرى عبث، وإلا فهي عاجزة، والعاجزُ لا يَخلق؛ لأنه لا بد للخلق والإيجاد من قدرة مطلقة، وإن تساوتا واختلفتا لزِم اجتماع الضدين، إحداهما تُحيي، والأخرى تُميت؛ فيختلّ النظام ويسودُ التناقض، والعاجزُ لا يكون إلهًا، لأنَّ الله تعالى مبرَّأٌ منزّهٌ عن الضعف والعجز والخوَر.

ز. الإعجاز في سورة الإخلاص

يقول الله تعالى في سورة الإخلاص سورةِ التوحيد: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ۞ اللهُ الصَّمَدُ﴾ (أي كل شيءٍ مفتقر إليه، وهو غنيّ عن كلّ شيء، وإليه وحده يرجع كل شيء وبه يستعين) ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (سورة الإِخْلَاصِ: 112/1-4).

إن القرآن المعجزَ البيانِ يبيّن بإيجازٍ شديد في هذه السورة المباركة التي تتحدث عن التوحيد الإلهي وجود الله وأنه وحده مدبّر الكون، وإليه توجَّهَ كل شيء، وأنه لا تفسير لشيء من دون إسناده إليه تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ نعم إنه أحد لأنه ﴿الصَّمَدُ﴾.

فهذه الجمل بعضها دليلٌ وعلة على بعض معًا، فإليه سبحانه يفتقر كل شيء وهو غنيّ عن كل شيء؛ فهو لو لم يَخلق الكائناتِ الحيةَ وينشرها في كل مكان، لاستحال ظهورُ شيءٍ منها إلى الوجود، فوجودُ كل شيء مفتقرٌ إليه تعالى.

والعلوم جملةً حتى الآن شاهدةٌ على ما قلنا؛ فمِن المستحيل وجودُ شيء بلا سبب وفاعلٍ؛ فالعلوم كلّها والموجودات كافّة تشهد على اختلاف ألسنتها أن الله هو وحده الخالق القادر، وأنه ليس كمثله شيء، وشهادتها هذه لا تَدَعُ لذوي العقول والأبصار أيَّةَ حاجةٍ إلى دليل آخر، لأن في البيان القرآني السهل الممتنع من الوضوح ما لا يذر حاجة إلى شيء، وأيضًا فالقرآن الكريم غنيّ عن جدل المغالطات الفلسفية العقيمة الجوفاء.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، نشاهد دائمًا في عالم النبات والحيوان والإنسان مَن يَلِد ومن يولَد، فكل نوعٍ محتاج إلى نوعه بعلاقة السبب والمسبب والعلّة والمعلول وكأنه أب له أو أم؛ فالنباتُ يحتاج النباتَ للتكاثر، والحيوانُ محتاجٌ لأبوين للتناسل والرعاية، فلا بدَّ للمسبَّب من سببٍ وللمعلول من علة، وهذا من خصائص قوابل العدم أي الأعراض والجواهرِ، وأما الذات العَلِيَّة (الله ﷻ) فهو منزَّهٌ عن كل ذلك؛ فإنه ليس من جنس ما نرى من الموجودات ولا مخلوقًا مثلها، تعالى أن تطاله الأسباب والعلل.

وبهذا أتت الآية على بنيان الأديان والمذاهب المحرَّفة من القواعد في دعواها أن الله اتخذ ولدًا، سبحانه أنَّى يكون له ولد، فليس عيسى بإله لأنه وُلد من أم دون أب، ولا عزير بابن الإله، فالإله هو من لم يلد ولم يولد، إن هذه المزاعم ما هي إلا ترهات السَّفَلة.

ومصطلحُ "العلة-المعلول"، و"السبب-المسبب" حقيقةٌ جليلة أسهب فيها علماءُ الكلام والفلاسفةُ في بحوث مطولة بأمثلة كثيرة شرحًا وبيانًا، وبينَّها القرآن في آية قصيرة، بأسلوب سهل للغاية تدركه العقول أيًّا كانت مداركها، فحَلَّ ضروبًا من المعضلات دفعة واحدة.

ح. اليُسْر في آيات الحَشْر

سُئِل ابنُ سينا عن الحشر والبعث بعد الموت بدليله، فأجاب: "إن المعاد الروحاني وأحواله هو مما يُتوصّل إليه بالبراهين العقلية والمقاييس، لأنه على نسبة طبيعية محفوظة ووتيرة واحدة، فلنا في البراهين عليه سعة، وأما المعاد الجسماني وأحواله فلا يمكن إدراكه بالبرهان"[32]، وفي القرآن الكريم عشرات الآيات في الحشر، تخاطب العقل، وتكشف بيسر ووضوح قضيةَ الحشر التي قد يتراءى للعقل استحالتها.

نعم، إن قضية الحشر وَردت في القرآن بأسلوبٍ سهلٍ مفهوم، لم يَدَع حاجةً إلى التفكّر الطويل العميق، وجُلّ أمثلة الحشر وأدلتها من وقائع الإماتة والإحياء الجارية على مرأى الناس في الفصول جميعها، وهي من عالم النبات شريك الإنسان في البيئة والحياة، وصنوه في الموت والحياة، وهكذا يَفتح له مَعْبَرًا، فهذه نافذة للتفكّر والتصوّر لينفذ من إحياء النباتات بعد موتها إلى بعث الإنسان بعد الموت.

ومعظم هذه الأمثلة تخاطب العقل وإن تفاوتت المدارك في فهمها واستنباطها، وما من مؤمن يقرأ القرآنَ إلا استوقفته هذه الآياتُ؛ فمثلًا هذه الآية الكريمة طرقت بأسلوب خاصّ سهل جدًّا في بضع كلماتٍ البعث بعد الموت: ﴿**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾ (سورة الأَعْرَافِ: 29/7)، أي كما أن الله تعالى

---

[32] مقدمة ابن خلدون، 332/1.

حباكم الحياة من قبلُ، ستَحيَوْن مرة أخرى وتصيرون إليه تعالى، وستعودون إلى الوجود مثلما كنتم ولو غدوتم رميمًا وترابًا.

فلو قيلت هذه الجملة -ولو لعاميّ- فسرعان ما يدرك المراد.

وإليكَ مثالًا للتوضيح: هبْ أنَّ تحفةً معماريةً خارقةً كانت آية في الفنِّ والجمال بقبابها الرائعة وأعمدتِها الباهرة وبِدْعة زخرفتها الظاهرة والباطنة، فلو هُدّمت ولم تقم لها قائمة ولم يبقَ فيها حجرٌ على حجر، ثم قيل لبانيها: أعِدْ بناءَها كما كانت، فلا ريب في قدرته على ذلك؛ لِجَزْمِنا بأن لهذا البناء مخطَّطًا، بل إنَّ هندستَه تَشَكَّلتْ في الخيال والتصوّر أفضل مما كان؛ لأنه سبق له بناؤه من قبل.

من هذا المنحى أفادت الآية كما أنه خَلَقَكم أول مرة وحباكم الحياة، فبالسهولة ذاتها سيهبكم حياةً أخرى، فهو على ذلك قدير.

هذا، ولو قيل مثلُ هذا لِمن له نصيبٌ من العِلم والمعرفة، لازداد تبحُّرًا في الموضوع وقال في ضوء سعة أفقه وعمق تصوره ومداركه: إننا معشر العلماء لا نزال نعدّ بدايةَ الحياة على الأرض لغزًا مُعمّى، ومهما ارتقت العلوم والمعارف فلن تخترع مثل إكسير الحياة لدى الكائنات الحية.

ومن الشواهد الحية على هذه القضية أنّ "باستور (*Pasteur*)" أحال وجودَ أيِّ كائن حيٍّ بنفسه إلى الصدفة.. وأنّ "أوبارين (*Oparin*)" أقرّ بعد تجاربَ في روسيا استغرقت أربعين سنة أن مختبرات الكيمياء لن تستطيع إيجاد الكائن الحي.. وأمّا "مُولَّر (*Muller*)" فعاد خاليَ الوِفَاض رغم تجاربه الطويلة.

نعم، لو أن الباحثين هيؤوا في الأرض أو الفضاء الظروفَ الملائمة والمواد اللازمة بتمامها لأي كائن حي، فلن ولم يخلقوه بعلم الكيمياء ما لم يُرده الله ويخلقه.

ولنذكِّر أنه لو كان على الأرض كائن عضوي حيّ، فلا بد أن له بداية سواء خُلِق عليها أو أتى من كوكب سيّار آخر، وفي هذا يذكر القرآن الكريم بأسلوب يفهمه ويقتنع به العالِم المتفنن المدقِّق وسُذَّج العوام أيضًا: إن الله تعالى خلقكم على الأرض خلقًا عجيبًا لا تسعه عقولكم، ولا تفسير له

بمَوازينكم، ولا اسم له في قوانينكم العلمية، وبعد الموت والدّفن سيبعثكم من جديد إلى مسرح الوجود كالخلق الأول، فلا تشكُّوا في ذلك.

إن الآيات التالية تفتح آفاقًا جديدة للأنظار التي تريد أن تعلم بعمقٍ مدى كون إكسير الحياة لغزًا غامضًا، وتودُّ أن تَرى آثارَه على الأرض: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (سورة العَنْكَبوتِ: 20/29).

أجل، سيروا وطوِّفوا في الأرض، واجتهِدوا أن تروا كيف بدأَت الحياةُ، وتعمَّقوا بالبحوث العلمية، وأمعنوا في أحوال الحياة في فصل الربيع، وأطوارِ النموّ في الصيف، وأحداثِ الموت في الشتاء، وحاوِلوا اكتشاف سرّ الحياة من وجوهها الغفيرة، فمثلما بدأت الحياةُ على وجه الأرض أول الأمر؛ سيبعثكم الله في الآخرة ويهبكم الحياة الأبدية.

﴿**وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ**﴾ (سورة فَاطِرٍ: 9/35)، ريح ميت.. وبلد ميت.. فإذا بالسحب المحملة بالمطر؛ ولو لم تتجلَّ إرادة الله فلا حياة ولا وجود يُذْكَر، وكأن القدير المطلق يقول في هذه الآية: "إنَّا نحن هيأنا هذه الأسباب، فأحيينا الأرض الميتة القاحلة الجرداء، وبَعَثْنا فيها الحياةَ، فكأنَّ الذراتِ والكرات تَحرَّكتْ مِن بعدُ بإكسيرِ حياة، ينفث الحيويةَ في كل شيء بعد موتٍ شاملٍ ﴿**كَذَلِكَ النُّشُورُ**﴾.

إذًا لِماذا نحكم على الحياة بالفناء ونتعامى عن آلاف بل ملايين من وقائع البعث، فنعكّر صفوَ حياتنا بترّهاتِ "العدم المطلق"؟! فلننظر إلى ما حولنا، ونتأمَّلْ وقائع الحياة بعد الموت لنُضفي على حياتنا لونًا جديدًا من الحياة.

أجل، إننا إذا فكرنا في بعثِنا بعد موتنا، فنظمنا فلسفتنا حول الحياة، وكوَّنَّا معتقداتِنا وفقًا لذلك، فسندرك ضربًا جديدًا من الأحاسيس والمشاعر، ﴿**فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ**﴾ فكما أن الورقة الميتة تنبعث من جديد، وتَسري في عروق الأشجار حياةٌ جديدة، وتشق البراعم وجهَ الأرض، كذلك ستخرجون للحشر من أجداثكم بحياة جديدة.

وحسبنا هذا من منهج القرآن في إثبات البعث بعد الموت، وثمة عشرات الآيات الأخرى.

ولا يأتي القرآن الكريم على شيء مما يخوض فيه الفلاسفة والمناطقة من الجدال والمغالطات، ففيه من الأدلة ما يُقنع كلَّ أحد من العاميّ إلى العقلاني العنيد، فلو قرأ الإنسان هذه الآيات حذْرًا، ولم يلبث مليًّا يتفكّر فيها ويتدبر، فسرعان ما ينتقل إلى فحواها من منظار بدء الخلق بهذا اليسر، ويَربِط بينها، ويبني البعث بعد الموت على الانبعاثات الجارية على وجه الأرض، فباتت القدرة على إثبات قضية البعث والنشور بلا سردٍ طويل للأدلة العقلية من خواص القرآن وحده، والذين فسدت عقولهم بمرض الفلسفة فإما أنهم سيقولون بما قاله "ابن سينا"، أو أنهم سينحدرون في واد سحيق من وديان الضلالة؛ وأمَّا المجددون وكبار المرشدين فحادوا عن الطرق الملتوية، ودأبوا على تناوُل القضايا كلها ومنها الحشر بالمنهج القرآني الناصع اللامع أبدًا.

وفي سياق إمكان وقوع الحشر بيسر مطلق يوجّه القرآن الكريم الأنظارَ إلى قضية كبرى مثل خلق السماوات والأرض، فيقول: ﴿**أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ**﴾ (سورة يس: 81/36)، أي: هل تظنون أن الله لن يبعثكم بعد موتكم وهو من نَشر السماواتِ بصفحاتها وأنظمتها، وقسمها على هيئة أنظمة،

وربط بينها بنظام وتناغم معين، ثم بسطَ لكم الأرض فراشًا تستريحون عليها، وقدّر فيها الأنواع المتعددة من النعم ويسّرها، ونَشَرَها أمامكم؟! فما هذا الكون الرائع بما فيه من صنوف الجمال المتعددة، وآلاف الأنواع من وقائع الموت والحياة سوى همسة في آذان أرباب العقول؛ تبين لهم رسالاتٍ ذات أسرار عميقة.

أجل، لو أن الإنسان -حتى البدوي المبتدئ- ألقى نظرة إلى العوالم السماوية التي تلوِّح بنجومها من بعيد، أو نَظَرَ إلى هذه الأرض المرصعة بشتى الألوان، فلن يَسَعَه إلا أن يُذعن بأن الذي خلقها هكذا ويخلق في كل ربيع أمام أعيننا عوالمَ كثيرة قادرٌ على أن يحيي الموتى، ولن يكون المنكر لهذا إلا أعمى أصم ميت القلب.

نعم، إن الحاكِم المطلق للكون هو الله ﷻ؛ فلو أن الإنسان راقب العوالم الكبرى بتلسكوب يلتقط الأجرام والمجراتِ والسُّدُم البعيدة عنا ملايين السنين الضوئية، أو بالأشعة السينية "إكس (X)"

لرصد الأجرام المتناهية في الصغر، فسيشاهد في كل شيء وفي كل مكانٍ في العوالم كلها كبراها وصغراها أن الحاكم المطلق المتصرف فيها هو الله.

أترونه سبحانه لن يبعث الإنسان بعد موته وهو من جلَّى بجلاءٍ مظاهرَ حاكميته في دائرة واسعة كهذه لا تحيط بها مدارك البشر؟! حاشا لله ثم حاشا، فلترتعدْ فرائص الإنسان وقلبه فرَقًا من الله خشية أن يرِد بباله تصوُّرٌ مبتذَلٌ كهذا.

نعم، إنه خلاق العالمين، بدأ خلْقَ كل شيء، ثم أقام في هذه الدائرة الواسعة نظامًا مُذهلًا، فأنّى يُسنَد إلى الطبيعة العمياء هذا الخلقُ والإيجاد، وهذا الوجودُ الرائع ذو الأسرار الذي جرى بعلمٍ وتقدير من الله ﷻ؛ فلا بد للخلق والإيجاد من علم محيط بكل شيء وليس لغير الله خلاق العالمين منه شيء.

وهذا شأن علم مَنْ يَرى كل شيء من أعماق الأرض حتى ما سقط على الأرض وجفَّ وصار ركامًا من الكربون، ويحيط بما لا يسمعه الإنسان نفسُه ولا يبلغه علمه مما يدور في أعماقه من نوايا وأحاسيس، بل يحيط بما في أعماق الكون من المجرات والسُّدُم، فعلمُه أزليٌّ أبديٌّ بكل شيء محيط، وهو وحده الحاكمُ المطلق على الكون، ومالك الدنيا ويوم الدين.

والقرآن المعجزُ البيانِ يوجّه الأنظار إلى ضروب عدّة من هذه الحقائق بأمثلةٍ كثيرة لئلا يندّ العقل والوجدان.

نعم، قد يعتري الوجدانَ الإنساني ما يشبه سُبات بعض الهوام والحشرات شتاءً، ففي هذه الأمثالِ إيقاظٌ للضمائر النائمة والمشاعر الغافية، ودعوة لفهم الحياة بأسرارها على وجه الأرض.

ما أكثر المَشاهدَ التي يَعرض القرآن فيها للأنظار موتَ النباتات شتاءً وانبعاثَها في الربيع تشبيهًا لموت الإنسان وبعثه بها؛ لنفهم وندركَ حقيقة الحشر بأدنى تأمُّل بمنتهى السهولة!

ومن أقبل بإنصافٍ على أسرار القرآن، وغاص فيها بعقله ووجدانه وأصغى إليها، فلا ريب أنه سينبهر بالكون وما أُودِع فيه من أسرار، ويقطع بحقيقة الموت، ويوقن بالبعث بعد الموت يقينه بحياته الدنيا هذه.

ط. تعدُّد الوجوه في الآيات القرآنية

مما لا يخفى أن الكتب السابقة وكثيرًا من التيارات الفلسفية هُمِّشت وطُمِسَت أحكامُها واضمحلَّ تأثيرها لِأنها لم تُواكب التطوّراتِ العلمية والفكرية، ولم ترقَ إلى مستوى الحياة الفكرية والحياة الروحية للمجتمعات المتطوّرة، ولما نزل القرآن وعدَ بشموليته للحياة كلها، وبأن يكون منبعًا للنور وضياءً لكل شيء مهما صغر؛ فكان في ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه مساحةٌ فكرية واسعة لكل مفكر وفقيه ومتفنن وغيرهم؛ فقد أتاح لكل منهم أن يغوص في أعماقه ويفيد منه بِيُسْرٍ دون عقبات.

ولم يكن في القرآن المعجزِ البيانِ تناقض، وهذا قول المنصفين، لقد نزل منجمًا في عقدين ونيّف لأسباب شتّى ولم يُلحظ بين آياته وفواصله وسوره إلا الوحدة والتلاؤم والوئام.

فمثلًا، عند بزوغ الإسلام نزلت آياتٌ في المعاملات من بيع وشركة وميراث تُمهِّد لإنشاء بنية المجتمع الإسلامي، كانت توطئة لآيات تلتها هي أكثر تفصيلًا وشمولًا؛ والنظرة العجلى توهم أن بين المتقدمة والتالية تناقضًا ما، والنظرة الفاحصة تنفيه قطعًا، بل تبينّ أنها متطابقة متكاملة.

قال الله تعالى في المواريث: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾ (سورة البَقَرَة: 180/2).

لقد كانت الأعراف السائدة في الجزيرة العربية تمنع الوالدين من أيّ حقٍّ في الميراث، وتدوس حقوق الوالدين بالأقدام، وكان الناس يتصرّفون في أموالهم كيفما يشاؤون، ولم يكن يدور بخَلَدهم بتاتًا أن يُفرِدوا سهمًا للوالدين.. في حقبة كهذه ذكَّرت الآية ابتداءً بوجوب الوصية للوالدين، فمهّدت لحكمٍ ستحملُه آياتٌ لاحقة أدرجَت الوالدين في أصحاب الفروض.

أجل، إنها سابقة في تقرير حقوق الأبوين المغفلة يومئذٍ، وفي فتح نوافذ من المروءة والاحترام للأبوين أَرومةِ النفع العظيم للذرية، وسبب وجودها، ثم نزلت الآية الكريمة: ﴿**وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ (سورة النِّسَاء: 11/4).

بينَت الآية نصيب الوالدين من ولدهما المتوفَّى إن لم يكن له ولد أو كان؛ مفصِّلةً حكمَ كل حالة، وهذا نسخ لآية الوصية السابقة، وما يتبادر من توهم التعارض بين الآيتين مدفوعٌ بأن جوهر الأمر لم تصبه أيُّ زعزعة بالنسبة لمكانة الأبوين، وما ذلك إلا رفعُ حكمٍ وإثباتُ آخر، والأبوان ما يزالان على درجتهما الرفيعة.

إذًا إنَّ الآية الكريمة السابقة مهدت للحكم اللاحق، فالسابقة تُمرِّن العقول والأذهان وتهيئها، واللاحقة تعيِّن حقوقهما وتُثبِتُها، ولا يعني هذا أنَّ حكمَ الآية السابقة موقوفٌ أو مرفوع، بل ذهب بعض العلماء إلى أنه لا نسخَ في القرآن، والجمهور على القول بإمكانه ووقوعه، والجمع بين القولين ممكنٌ، على اعتبار أن النسخَ واقعٌ، ولما كان المنسوخ تابعًا للناسخ احتمل حكمًا فيه مودة ومروءة لمصلحة الإنسانية، فالآية السابقة دالّة على كلّ حال.

ولمَّا لم يكن المجتمع مهيَّئًا للتّواؤم مع نظام الحياة الذي أتى به القرآن نزلت الأحكام منجمةً، ثم تحققت الأهداف تترى تدريجيًّا؛ لأنّ البنيان البشري والاجتماعي يومئذٍ لم يكن ارتفع كما يجب؛ فنزلت الأحكام في آيات عديدة للمراحل الأولى أو المراحل الانتقالية التالية.

في القرآن أوامر كثيرة قابلة للتخصيص أو التعميم، أو الإطلاق أو التقييد، ومن أخذ بالقرآن جملةً وأمعن فيه ألفاه ذا عرًى وثيقة بترقّي البشرية وتَكامُلِها؛ ففيه أحكام أصلية وأخرى تبعية دون الأولى في القطعية من حيث الإيجاب والتحريم، لكنها تكشف ما يطرأ على الفطرة البشرية وطبيعة المجتمعات من تطوُّرات.

ومن البدهي أن القرآن يخاطب عقولًا شتَّى في مجتمعات وأحقابٍ متعددة؛ لذا استخدم أسلوبًا لحظَ ما عسى أن يَحدث من تطورات، ففي خطابه لمن جهلوا مقصد القرآن، ولم يرتقوا إلى سماء بيانه، وأصرّوا على اعتقادهم الأعمى، نصبَ ميزانًا خاصًّا لمعاملتهم فقال: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ (سورة الكَافِرونَ: 6/109)، وقد يتأولها متأول "بالعلمانيةَ"، ثم يأتي القول الفصل بآيات تجلي ما ينبغي فهمه من الآية.

نعم، نزلت آياتٌ تبين أن لكلٍّ دينه، ولكنها بينت أنه لا بد من موقف تجاه المشركين الذين غدوا كأفعى الكوبْرا التي تتلذّذ باللدغ، فصاروا سمًّا زعافًا يقتل الحياة الاجتماعية، بعد أن ماتت ضمائرهم، وتعاموا عن الآثار الإلهية في الكون، وتمردوا على الله ﷻ، وأعلَنوا الحرب على الإسلام والمسلمين، إذًا إنّ مبدأ: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾، سيُطبَّق في هذه المرحلة، وفي مرحلة أخرى سيكون هناك تطبيق آخر وفقًا لحالة الطرف الآخر.

وهاك مثالًا على هذا قوله تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ (سورة التَّوْبِةِ: 29/9).

وأيًّا كانت الشريعة السابقة فلهذا الحكم أحوالٌ وشروط وأوقات معينة؛ أي إذا أذعنوا للإسلام، ولم يَحُولوا دون انتشاره، وتركوا الاعتداء والغطرسة، فكفّوا عن قتالهم على أن يدفعوا في الصلح جزية تدلّ على انقيادهم كما يدفع المسلمون الزكاة.

ومن قرأ الآية مِن هذا الوجه لم يسعه إلا أن يقول: "إنه لكلام الله دون غيره قطعًا".

تلك حقبة تلتها محطّات تَحدَّث عنها القرآن ستقف عندها البشرية، ففي بعض المراحل الزمنية أمَرَ اللهُ تعالى المسلمين بالعفو والصفح بقوله: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (سورة البَقَرَة: 109/2)، وفهموه حقًّا، فعَفَوا وصفحُوا وعامَلوا الجميع بالتسامح، إلى أن أتى الله بـ"أمره" الذي شرع به حكمًا محكمًا مغايرًا لذاك، فقال: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ (سورة التَّوْبِةِ: 29/9).

وفي مجمل القرآن الكريم إشارات إلى منهج معاملة غير المسلمين حال ضعفنا وقوتنا؛ فكم وكم في هذه الآيات من الحِكَم والمصالح للفرد والمجتمع، والدعوة والإرشاد!

والآيات الناسخة أو المؤكِّدة تبيّنُ ماهية الإسلام؛ فلو اقتصرنا مثلًا على الآيات التي نزلت لتأسيس السلطة وترسيخها، وجعلناها محورًا، فقد نعجز عن تحبيب الإسلام إلى الآخرين،

وسيُخيل إليهم أن هذا هو كل ما لدى المسلمين، وأن المسلمين مجتمعٌ يسوده الدمار والخراب، وأنهم فئة يعيثون في الأرض فسادًا، أما إذا اختير طريق المصالحة، فأُخِذت منهم ضريبة باسم "الجزية" كما تؤخذ الزكاة من المسلمين، وطُبقت قوانين عقد الذمة وحوفظ على الأقليات تحت وصاية المسلمين، وأتيح للناس الاطلاع على ما عليه المسلمون من معاملة طيبة، فلا شك أن كثيرًا من الناس سيهتدون للحق بما يشاهدون من محاسن الإسلام؛ والتاريخُ زاخرٌ بكثير من الأمثلة على هذا النوع.

لقد دخل أهل مكة في دين الله أفواجًا لما رأَوا سماحة الإسلام وعفو الرسول ﷺ وصفحه عنهم، وما ارتضى أجدادنا الأتراكُ الإسلام ولا دخلوا فيه أفواجًا وقبائل إلا بهذه الطريقة، ولم ينتشر الإسلام في زمن قصير خلال نحو ربع قرنٍ في آسيا الوسطى وإفريقيا إلا بفضل هذه المعاملة العالمية الإنسانية.

إذًا إن الآيات القرآنية التي تخاطب الفطرة الإنسانية متعانقةٌ متناغمة على الدوام. نعم، في القرآن ناسخٌ ومنسوخٌ، لكن ما يبدو لنا منه مختلفًا أنار زوايا مختلفة، ونَشَر في كل مرحلة ودورة أنوارَها على طول موجاتٍ مختلفة... وفي مرحلة العفو والصفح استنارت الإنسانيةُ بقبسٍ منها واقتبست منها، وتوجّهتْ إليها في مراحل الحرب والصلح، والتجأت إليها، واتخذَتها ملجأً في شتى معضلاتها؛ والآيات القرآنية خزائنُ إرشاديةٌ فريدةٌ لا تنفد، زاخرةٌ بالأمثلة الباهرة لمن يريد معرفة المكوّنات الداخلية والخارجية للكافرين والمنافقين والمشركين، وكيف أنهم يوظّفون طاقاتهم في الكفر والنفاق، ويفسدون المجتمعات.

نعم، إن في القرآن تعريفًا للإنسان من كل وجه، وفيه وحده سبرًا لمختلف المجتمعات نشأةً وتطورًا وقوةً واندثارًا مرحلةً مرحلة، يستأصل منها شأفة الأهداف والأيديولوجياتِ الضالة، أو يقوّم عوجها ويُصلح فسادَها في مراحل نضجها بلا مضاعفات سلبية، إنه منبعُ قوة دائمة فاعلة؛ أما الأنظمة والمؤسسات البشرية فليس في صبغتها الأمّ شيء من المرونة؛ ففيها يتوقّف تكامل الإنسان الروحيُّ والفكري والحسي عند نقطة ما، ويبدأ عهد الانحطاط والتقهقر.

نعم، إن لم تنضج الفطرة بأن حادت عن نهج الخالق ولم تبلغ الكمال، فستتآكل ويعتريها النقص؛ وما زال القرآنُ يوصي باستثمار مقومات التكامل البشري والاستفادة منها، ومن أهمها الحركة والحيوية المغروزة في الفطرة، وخيرُ ما يعبّرِ عن هذا أن الأيديولوجيات البشرية سرعان ما تقصر عن تلبية حاجات البشر، وتُلجئ الناسَ إلى البحث عن بدائل لها، بينما يظلّ القرآن يحيط بمشكلاتنا ومعضلاتنا ويرشدنا ويهدينا.

الفصل الثالث

التصويرُ النفسيّ في القرآن الكريم

ما سبق من مطلع الكتاب إلى هنا وما أسهبنا فيه يبين أن القرآن تحفة إلهية رائعة يستحيل أن يأتي البشر بمثله، فله -قبل كل شيء- أسلوب تعبيري بياني ذو سَمت خاص، إنه بهذا الأسلوب التعبيري الرائع يعم الناس دائمًا بدفء غامر فريد، فامتاز بهذا عن سائر الكتب السماوية، بله كلام البشر وتآليف قرائح كُمَّل العقلاء.

وإليك مرادنا بعبارة "السمة التعبيرية" للقرآن أو"الأسلوب القرآني":

إن القرآن يطرق قضايا عديدة، ويتناول بسبرٍ مواضيع كثيرة، فإذا ذكر مثلًا الماضي أو المستقبل بصّرنا بهما بخطوطهما، فيعرض الأمكنة والأشخاص والجماعات من كل وجه.

إذا حدَّثَنا عن الماضي نشعر وكأنه يعرض لنا دفعة واحدة شخصية الأقوام السابقين بملامحها وأطوراها وأفعالها وحركاتها وسكناتها؛ وإن أشهر الأدباء الإنجليز "شكسبير" الذي تميَّز بمهارته وسعة خياله في تصوير الأحداث، والذي ما زالت مؤلفاته تُقرأ بإمتاع إلى الآن؛ لا تخلو أدبياته السامقة من نقاط الضعف التي تعاني منها القريحة البشرية.

فالكاتب -وإن كان شكسبير- عند تصويره أحداثًا من العصور الغابرة بخصوصياتها، تراه يعكس صوتَ عصره وصورته حتى يُخيّل للقارئ أنها قصة عصرية، والحقُّ أن البشرية اختلفت وتغيرت تغيُّرًا كبيرًا عن الحقبة التي جرت فيها تلك الأحداث؛ فظروف الحياة ومستوى المعيشة والآفاقُ الفكرية تبدّلت واصطبغت بصبغة أخرى، فأين هو من رؤية كل هذه التحولات والإحاطةِ بها؟

وإذا بحثنا في القرآن عن الغابرين وجدنا قوم نوح وعادًا وثمودَ بأدق أحوالهم وأطوارهم وملامحهم الخاصة كما هي، وكأنها لوحات رأيَ العين، صلى الله وسلم

على الأنبياء الذين بلّغوا رسالات ربهم لهؤلاء العصاة الطغاة.. ولا نقصد أن نقارن بين كلام الله المعجز وكتابات القرائح البشرية الأسيرة لضروب من الضعف مثل شكسبير أو غيرِه؛ بل نقصد أن حديث القرآن عن شتى أحوال الإنسان في سالف العصور يجعلنا نحسّ ونعايش أناسًا من

مختلف الحقب والعصور؛ فقد تتغير الشخوص وتتبدل الشخصيات ولكنها مختارة مباشرةً من واقع الحياة، لتُقدِّمَ آلافًا من الدروس في حلقةٍ واحدة، خلافًا للروايات الأدبية والمسرحيات التي تتقطع فيها المشاهد وتختلط فيها الشخصيات بالوحوش والغيلان.

يا لها من خصيصة فريدة في القرآن المعجز البيان، يرسم ببيانه النوراني في خيال القارئ صور الأشخاص بأماكنها ومراحلها فتتجسم هذه الوقائع بأطوارها وأجوائها الخاصة وكأنها صروح ماثلة؛ ورغم ذكره لمئات الأحداث والأشخاص، فلا خلط فيها ولا التباس في ذهن القارئ لا باعتبار كيفياتها ولا أزمنتها.

من أشهر الرسامين في القرون الوسطى "ميكيلانجيلو بوناروتي"(*Michelangelo Buonarroti*) نَحَتَ تمثالَ سيدِنا موسى، ولا ندري هل أراد بذلك أن يعبر عن ذاته هو أم عن شخصية هذا النبي الكريم؟! ولا جزم بواقعية هذا التمثال، فقد يُذكِّر بملامحه العريضة، ولكن الفنانين والمتفكرين بعد "ميكيلانجيلو" قد أبدوا إعجابهم بعمله هذا، بل إنه بَهَرهم بلا تقييم لمدى نجاحه في التعبير عما أراد.

أما القرآن فيقدِّم مادة موضوعاته بنهجه وأسلوبه التجريدي دون أن يجعل منها أوثانًا أو طواطم، إنه يقدم معاني مجردة لكنه يعبر عن المقصود بكيفيةٍ تفُوقُ الأسلوبَ التشخيصي بكثير، فالقارئ يتخيل الشخوص ويتصورُها كأنها حية نابضة رأي العين.

ومن خصائص الأسلوب القرآني أنه حينما يُصوِّر القضايا ويعرضها يستخدم أسلوبًا يبعث في نفس المتلقي رغبة فيها أو رهبة منها، فإذا ذكر الذنوب مثلًا حمل النفس على أن تَعَافَها؛ فالسيئات والشرور في التعبير القرآني مستهجنات تَـنفر منها النفوسُ وتَعافُها الأرواح.

تَحدَّثْنا آنفًا عن التمثال الذي حاول "ميكيلانجيلو" أن يصوِّر به سيدنا موسى؛ فالفن من وسائل التعبير عن المشاعر والأفكار؛ يعبر به الفنان للمجتمع عن أفكاره ومشاعره، فهو يَعرض للآخرين خلاصة أفكاره أو ما في الأشياء من جمال بتشخيصها أو عرضِها في إطارٍ مجرّد، لكنه قد يُخفق

إذا لم يوائم الفن واقع المجتمع وجمالياته، وقد يُسفر التشخيص عن الوثنية وأمثالِها من سلبيات تُناقِض طبيعةَ المجتمع وأخلاقَه.

إن الفن لا سيما المشخَّص ضربٌ من الأسلوب والتصوير، وشتان بينه وبين أسلوب القرآن وتصويرِه؛ لأن الفن يتناول الأشياء من بُعد واحد، وهكذا يَعكسها، فيبقى جامدًا منحطًّا، لا تجد فيه حيوية وحركية وجمالًا متألّقًا متجدِّدًا باستمرار؛ أما القرآن ففيه ذلك كله؛ ففي أمثاله خصائص وافية بموضوعه، فلا تناقض في تعابيره ولا جمود عند البُعد الأحادي للزمان والمكان، بل تراها مليئة بالحيوية مهما تقادم الزمن.

ثم إن القرآن المعجزَ البيانِ يعبر عن مقصوده بمنتهى الإيجاز، فيتألق بذكر كل شيء في بضع كلمات أو جُمل، يتعذّر بلوغ ذلك المقصود بغيرها، فيحار المرء في جمل معدودة منه يرى فيها مِن فيض المعاني وثراء المحتوى ما تضيق عنه كتب أخرى.

وإذا ذكر القرآن الأنبياء السابقين وأقوامهم وأماكنهم، فلنا أن نفهم من جملتين أو ثلاث في آية واحدة حالَ هؤلاء الأقوام، وأساليبَ حياتهم، ومشاعرهم وأفكارهم، ومبادئهم في حياتهم، ومستواهم الحضاري وأن نميز بِيُسرٍ بين هذه الأقوام بخصائصها ومميزاتها كما سيأتي في الأسلوب البديع للقرآن الكريم.

هذه ومضاتٌ عن التصوير القرآني وأسلوبِه الخاص وثرائِه الذي يفوق تصوُّر البشر، أظهرت كيف عبَّر القرآن بأسلوبه الفريد عن الإنسان والجماعاتِ الإنسانية، وأبرزت ما للقرآن من قوة تصويرية وثراء تعبيري باهر، والأحداث والقضايا الغابرة كلها تغدو باهرة بتكثيفها في لوحات معينة، فالأقوام تتَتَابَعُ، بخصوصياتها ومميزاتها في خيال القارئ وكأنها في عرض رسمي، كقوم لوط بشذوذهم الذي تعافه النفوس، وأصحاب الأيكة قوم شعيب بفسادهم التجاري، وبتطفيفهم ومضارباتهم وطبيعتهم الخدّاعة؛ وكذا قوم سيدنا موسى وحيلهم وطبائعهم المَكَّارة، فهذه الجموع كلها تتمثل نصبَ أعيننا بشخوصها تباعًا.

وفي هذه اللوحات ما يغني عن الاطّلاع على تفاصيلها، فألوان الكلمات والأضواءُ المنعكسة على السِتارة اختيرت بدقة فائقة، وإن المرءَ ليشعر وكأنه أمام مسرحية لا يَشبع من مشاهدتها ومتابعتها.

ولدى تتبُّع شخصيات المِلل والمجتمعات في القرآن نراه يعرض لنا كثيرًا منها أثناء ذكره للأحداث وتصويرِها، وهي إما واحدًا من الأنبياء أو من أمته؛ فلنبحث بعضًا منهم ممن لمعت شخصياتُهم في القرآن بخصائص وأحوال ممتازة:

عندما يتحدث القرآن عن بني إسرائيل يصوّر رسولهم سيدنا موسى ويقدِّمه وهو يتحدث بأبرز سجاياه الأمّ، فقد نعرف من الأسلوب القرآني سيدنا موسى بوصفه إنسانًا وبوصفه نبيًّا؛ وإن لم نترسم قسمات وجهه، وإن كادت سماتُه الخَلقية لتلوح وتتجسد لأنظارنا قيافةً.

نعم، يمكن أن نعرف سيدنا موسى وندرك تكوينه النفسي، وأثره الفعال في الحياة الاجتماعية، وشخصيته البَنَّاءة الجامعة، وقدرته الفائقة على البناء، ومدى درايته وكياسته في تربيته وإرشادِه لهواة الفوضى والتخريب في المجتمع، بل لك أن تستشف من التصوير القرآني منكبيه وقواه العضلية، ولحيته وقسمات وجهه ونظراته وأغوارها، وهكذا يَعرض القرآن كل شيء حيًّا نابضًا يقرّ في الذاكرة ولا يبرحها.

والقرآن هنا لا يضع عنوانًا رئيسًا باسم "موسى"، بل يلفت الأنظار إلى مئات الأشخاص معًا، وإلا فالحديث عن سيدنا موسى وحده يستغرق مئات الصفحات، هذا وإذا تحدث عن الآخرين وخصائصهم الرئيسة أتى على ذكر سيدنا موسى، وألقى الضوء على صورته الظلية في بُعد آخر بكلماته وتحركاته وحملاته المتنوعة، فكم وكم من الأحداث والأشخاص يعرضها القرآن فيتخير الأنماط والشخصيات ويصبها في عواطف الإنسان ومشاعره دون أي خلط أو تنافر بينها، بل يتناول كل حدث بالحلاوة والتلون والحيوية ذاتها.

وذِكرُه لسيدنا إبراهيم﵇ ليس غفلًا بل كأنه نقشٌ في لوحة، حتى إن الرسولﷺ بنى على التعبيرات القرآنية التي نزلت بعد عهد سيدنا إبراهيم بقرون، فقال: "وأنا أَشبهُ ولدِ إبراهيم﵇ به"[33]، فالمسألة من الوضوح والبداهة بحيث إن هذا النمط من الشخصيات استبان بتفاصيله الدقيقة كلها، وخُطَّت صورته وهيئته بوضوح، حتى لكأن الرسولﷺ يَنظر إليه ويقول لمن معه: إنني أُشْبِه هذا الرسم الذي تشاهدون، روحًا وحالًا وطبعًا وجوانيةً.

يقول الرسولﷺ هذا وكأن الصحابة عرفوا من القرآن جيدًا شخصية سيدنا إبراهيم؛ فطابقوا قوله ووافقوه، فلو لم يكونوا مدركين لما يعنيه الرسولﷺ لَمَا فهموا شيئًا من قوله، لكنهم فهموا هذا جيّدًا من التصويرات القرآنية الواضحة، فغنوا بها عن مزيد البيان.

ولو فهمنا القرآن مثلهم لأغنانا عما سواه، بل لَتوجَّه كلٌّ منا وبيده القرآن إلى مولاه العلي القدير ومَثَلَ بين يديه بخشوع وإذعان، ولَشهدنا محافل العلم والتقنية تُبجِّل القرآن وتُجِلُّه وتَطرُق بابَه أولًا في كل ما ينتابها وتتيمنُ به.

وإذا ذكر القرآن الكريم النبيَّيْنِ العظيمين سيدنا يوسف وسيدنا سليمان﵇ عرضهما لنا بخصائصهما، وكذلك يفعل بشخصياتٍ أمثال فرعون، فهو يرسم الشخصيات الخاصة والعامة في لوحات ويقدمُها بطريقة لم يصل إليها فن التصوير الحديث، وأنى للتصوير التقليدي أو الحديث أن يرقى إلى أفق القرآن؛ لأن القرآن من علم الله المطلق، إنه منهل له من العمق والسعة ما لو تدفق أبد الدهر، ونَشر وارداتِه على الملإ، لما نضب ولا نفد.

وحينما يصوِّر القرآن شخصية "المُرائي"، يتراءى لكم كل المرائين حولكم، وإذا فعل ذلك بشخصية جليلة من أهل التقوى وأولي العزم فسرعان ما يرد إلى أذهانكم كأنه رأي عين، فتقفون له بإجلال وتبجيل.

---

[33] صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، 24.

ولنا أن نقول هنا: إن القرآن حينما يصور الشخصياتِ الخاصة أو العامة يُهيِّئُ لنا مسرحًا ممتازًا أبعاده وأضواؤه في منتهى درجات التناغم والتكامل؛ كلُّ شيء فيه قد بلغ الكمال، واللوحة فيه حيّة نابضة كأحسن ما يكون، والقصة بديعة، متعدّدةُ الوجوه، فهل من مُشاهد للمَشاهد وقارئٍ لها؟ فإذا اتّحد هؤلاء بالمشهد بحيويته ذاتها، فإن هذا يعني أنه تحقَّقَ الهدف كله وحصل المقصود؛ هكذا كان فهمُ الصحابة للقرآن ومُنزله.

وفي هذه الفقرات سنأتي على شخصيات مختلفة صوَّرَها القرآن، لنمضي في مشاهدة القوة التصويرية للقرآن الكريم.

أ. قوم نوح كما يصوّرهم القرآن الكريم

إن القرآن حينما يذكر الأقوام والملل السالفة يَعرض كل مجتمع بخصوصياته وطبيعته؛ فيسهُل تمييز كلِّ قوم عمن سواهم بأحوالهم، ولو استقرأنا آياته في ضوء هذا لرأيناها تُعنَى بالطبائع الأمّ لبعض المجتمعات، فتتراءى لنا هذه الأقوام تباعًا بكل ما فيهم، وبعلومهم وفنونهم سواء تلك التي أُسيء استخدامها أو لا، وبرجالهم الذين خلَّد التاريخُ ذكرَهم؛ فنراهم في عيشهم الباذخ، في أبنيتهم وقصورهم المشيدة الدالة على مدى تَوهُّمهم للأبدية والخلود، وقد نشاهد صروحًا بارعة، وقلوبًا وأرواحًا تهفو نحو الخلود، ولا ترضى إلا بالخلود.

في القرآن يتمايز أقوام الأنبياء؛ فالمستقرئ للقرآن يلحظ عرضه كثيرًا من الجماعات، وكيف رسم بأسلوبٍ ممتاز كلَّ المجتمعات والشخصيات من لدن آدم ﷺ بجميع طبائعها وسجاياها حتى ليحسب الناظر أنه بين ظهرانيهم؛ ويتعذّر في مبحث محدود كهذا سردُ الأمثلة وحسبنا آيات من سورة هود والشعراء لعلها تفي بالمقصود.

يقول الله في سورة الشعراء: ﴿**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: 109/26).

في هذه السورة زبدةُ حياة الأنبياء وكفاحهم وروح رسالاتهم، وطرز حياتهم التي كانت تسير على نهج الاستقامة؛ وهي تَذكُر تترى أحوال الجماعات والقبائل والأقوام، وكثيرًا ما تتكرّر بعض آياتها إشارةً إلى موقف الأنبياء المتّحد وهم يؤدون الرسالة،

وإلى تشابه سجايا الأقوام وطبائعهم؛ إذ إنها نتاج الكفر، فمن البدهي ثبوت بعض وجوه الشبه، هذا ولم يخلُ كل تكرار من أحداث مختلفة.

أجل، إننا نسمع اليوم أقوالًا قيلت في عهد سيدنا آدم؛ يُطلقها المتغلّبون والمتسلّطون ويجعلون المجتمعات تتبنّاها عبر الإعلام؛ فلو أمكن مقارنتُها بأقوال أقوام ما قبل التاريخ وصداها لوجدنا أنها هي هي.

ولكل من هؤلاء خصائص، فلنتبينها في ضوء ما قلنا لنعرفهم بما يميزهم عن الآخرين.

﴿**كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: 105/26).

إن نوحًا ﷺ وصاهم بوصايا صادقة نابعة من قلب مخلص من مثل: "ادخلوا في كَنَف الله، واقرؤوا واستفيدوا من النواميس السارية في الكون قراءة صحيحة، ولا تمضوا في حياتكم خبط عشواء، بل امضوا بوعي وإدراك، فلا ملجأ ولا منجى إلا إليه سبحانه، وإياكم والإعراض عن الأوامر الإلهية".. يبلغ هذا ثم يعقب بقوله: ﴿**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: 109/26)، فلا أبتغي منكم أجرة أو عوضًا على المشاق والصعاب، بل أطلب أجري من الله وحده، إن قلبي لا يطلب إلا رضوانه، وروحي مشبعة بالإخلاص له، فلا أبتغي شيئًا من أحد سواه، فرضاه ورضوانه لا يعدلهما شيء، حتى إني لا أطمح إلى ثمرات مجاهدتي، وإن شاء ربي شيئًا منها في الآخرة فلتكن يومئذ.

ففي هذه الأثناء إذا بنا نصادف ردَّ قوم نوح بنوازعهم وعقليتهم وطباعهم على هذه الأهداف الخالصة الحانية، معبرين عن سجيتهم وأنفاسهم، قالوا: ﴿**أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: 111/26)، أي من اتبعك هم أراذل الناس ورعاعهم، أوَتنتظر منا أن نتبع دين الأراذل والسفلة؟!

والناس يومئذ في خواء قلبي وروحي مهما كان وعيُهم، ومن خصائصهم تعصُّبٌ منشؤه الفراغ الفكري والعلمي، وغرورٌ وخُيلاء مصدرهما الضَّعة، وغطرسةٌ مردُّها إلى قصور المناهج الفكرية وتناقضها؛ إنها آية من بضع كلمات لكن فيها دلالات كثيرة على أبرز سجايا القوم وطباعهم، لقد كشفت هذه الآية قلوبهم المشحونة غرورًا وكبرياءً بجلاء ووضوح بأدقّ أوصافها.

وهلمَّ نقرأ أبرز صفاتهم في الآيات القرآنية:

إن قوم نوح لم يكن ظاهرًا أنهم سيؤمنون رغم كل تلك الجهود المخْلصة التي كان يبذلها سيدنا نوح.. وكان الشركُ والكفر قد ضرَبَا بجذورهما في قلوبهم، بل كانا يسيطران على أعرافهم وتقاليدهم.. فلذلك كان لا بد لهم أن يتمرّدوا تجاه هذا الإنسان الكبير الذي يطفحُ قلبُه بمشاعر المسؤولية، رغم دعوته الخالصة، ومحاولاتِه وكفاحه.. حتى إنهم كانوا، بين حين وآخر، يقفون على رأسه ويقولون له بكلّ وقاحة وسوء أدب: ﴿**لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: 116/26).

نعم، كانوا يقولون له: لَنُرشقنَّك بالحجارة تمامًا مثل الزاني الذي عوقب بالرجم.. ويفهم من هذا التعبير أن هؤلاء القوم المتغطرسين للغاية كانوا يجاهرون بالتحدي تجاه هذا النبي المنكسر البال، والذي ليس وراءه جماعة قوية مؤمنةٌ به.. ومن المحتمل أن كل قُرَى وبلادِ هؤلاء كانت تحت سيطرة الكفر والوثنية.

وكما وَرَدَ في آية أخرى فإن هذه الجماعة الوثنية، على الرغم من كل الجهود التي بذلها هذا النبي، لم تلِن قلوبها ولم ترجع إلى وعيها مثقالَ ذرة، بل عبَّرت عن طبيعتها الغليظة جَراء كفرها وعنادها فقالت: ﴿**يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ (سورة هُودٍ: 32/11).

لننظرْ إلى هذه الغلظة؛ فهم لا يقولون له: "إنك جاهدت وأمرت بالمعروف" بل يقولون له: "إنك جادلت وماريت". نعم، إنهم لا يقولون له: "إنك بينت الحق، وصرت دليلًا على الصدق" بل فحوى كلامهم: "إنك أردت إغفالنا بطريق الجدال والمراء".. بل إنهم بقولهم: ﴿**فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا**﴾

قطعوا شوطًا آخر في إساءة الأدب معه حيث يَعنُون بهذا: "أنك استعملت كل دهائك وطاقتك وجهدك في سبيل المجادلة"؛ ﴿**فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾.

فهذه الآيات تحمل معاني جمّة في التعبير عن العالَم الداخلي لجماعة مجبولة ومطبوعة على العناد.. فكأنهم يقولون: إنك تتحدّث عن الآخرة، وتتحدّثُ عن الوقوف بين يدي الله والمحاسبة أمامه، وتُسهِبُ في ذكرِ ما عسى أن ينزل بنا من البلايا والمصائب إذا لم نؤمن بذلك.. ﴿**فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾؛ وهذا يعني أن هؤلاء

لن يؤمنوا بالله ولا برسوله ولا باليوم الآخر.

فنحن نستخرج كل هذه الأمور ونستنبطها من تلك الآية التي تتألف من بضع كلمات؛ حيث إنه من الممكن أن نرى كيف صُوّرت في هذه الآية طبيعةُ جماعةٍ عنيدةٍ مُنكِرة وَقِحةٍ، نراها كأنها رُسمت في لوحة ماثلة أمامنا.. وهناك بالمقابل نبيّ يئنُّ متوجِّعًا ملتجِئًا إلى الله وداعيًا: ﴿**أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ**﴾ (سورة القَمَرِ: 10/54).

وننتقل إلى سورة القمر، لنرى كيف يتمّ تصوير هذا الأمر؛ ففي هذه السورة يُذكر كيف كان سيدنا نوح ﷺ يبتهل إلى الله تعالى بأسلوب يُعبِّر عن عجزه ومغلوبيته: ﴿**فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ**﴾ (سورة القَمَرِ: 10/54).

لعلنا نستشف في هذا الأنين والابتهال، كيف أن نبيًّا من أولي العزم قد أصبح كئيبًا كسيرَ الفؤاد، وكيف يتحرّق قلبُه ويضيق صدره إزاء قوم يُصِمُّون أسماعهم عن رسالته التي هي عبارة عن أوامر الله ونواهيه.

نعم، إنه دعا ربه: ﴿**أَنِّي مَغْلُوبٌ**﴾، وماذا عسى أن يفعل في مثل هذا الوضع؟! فقد كان أمام جماعة جامدة هامدة كالجثث لا روح لها ولا إحساس، لا تُحركها المواعظ ولا تؤثر فيها الزواجر، بل إنك إذا نظرت إلى الجثث العادية فقد تحسّ بمعنى لطيف، لكنك لن تجد -قطعًا- في هؤلاء حتى ذلك المعنى.. فقد كانت هذه الجماعة صلدة كالحجارة وفاقدةً للروح الإنسانية كالجمادات، وكانت محرومة من الأُنس والأُنسية، وكانت لهم حالة من الجمود أشبه ما تكون بِصَمَمِ الجبال..

ولهذا نرى أن المولى تعالى استجاب لابتهالات نوح المخلصة النابعة من الأعماق ﴿**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ**﴾ (سورة القَمَر: 11/54).

أي إننا بعظمتنا أنزلنا سيلًا من البلايا والمصائب من السماء التي يَنزل منها الخيرُ والبركةُ عادةً، فانقلبَت الرحمة بلاء وعذابًا، وصار الماء عينَ البلاء، وتحمَّست الأرضُ للبلاء، وفارت به.. وكان نوح قبل نزول البلاء مشغولًا بصنع تلك السفينة التي ستكون وسيلة للنجاة الدنيوية لمن آمن معه، وأما الآخرون فقد كانوا يزورون نوحًا بين فينة وأخرى للسخرية منه، فيتخذونه هزوًا من منظورهم هم.

﴿**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ**﴾ (سورة هُود: 37/11).

ومن الممكن أن نستنبط من هذه الآية أن هذا النوع من السفن لم يكن معروفًا إلى ذلك اليوم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا**﴾ أي اصنع سفينةً تحت إشرافنا ورعايتنا، وأنا الذي سأمنحك مخططَ تلك السفينة، لأن تلك السفينة ليست للإبحارِ على متن البحر فقط، بل لا بد أن تكون بحيث توصلكم إلى جوديّ النجاة إذا طغى الماء وغطَّى جميعَ أقطار الكرة الأرضية أو جزءًا مهمًّا منها.. ولذلك لا بد أن تَصنَعها تحت إشرافنا المباشر.

فقوم نوح الذين ما سبق لهم أنْ رأوا شيئًا من هذا القبيل كانوا يأتون إلى هذا الموقع الذي يَصنع فيه السفينة، فكانوا يستهزئون به، لأنهم لم يكونوا قد أدركوا بعدُ خطورةَ ما يُعَدّ لهم.

فالقرآن الكريم في هذا السياق، حينما يتحدّث، كيف أن هذا الوضع استثار غيرةَ الله، فبذلك فجرت الأرضُ عيونَها، وأرسلت السماء أمطارَها، وأن الله تعالى هدى رسوله ومن آمن معه إلى سبل النجاة. نعم، إن القرآن إذ يتحدث عن كل هذا فإنه يستخدم أسلوبًا جاذبًا يفوق كلّ الأساليب؛ حيث إن البيان الإلهي يسرد كَمًّا هائلًا من الأحداث ببداياتها ونهاياتها في بضع آياتٍ، ولو أراد أحدُنا سردَها لضاقت عنها المجلّدات.

أجل، إنَّ سَرْد ما كان من هذه الجماعة الكافرة من التمرّد، وشرْحَ سيرة ذلك النبي المليئة بالكفاح، وبيانَ ملامح كِلا الطرفين وتصرّفاتِهما بل حتى أدقّ حالاتهما النفسية بخطوطها الدقيقة في بضع آيات وجمل قصيرة.. خصوصيةٌ لا تتيسّر إلا للقرآن.

ب. سنة الكفاح الممتدةُ من سيدنا نوح إلى سيدنا هود

إننا نشاهد في مجادلة هود مع قومه وتمرُّدِهم عليه مثلَ ما كنا نشاهد في قوم نوح؛ فهناك رجلان مؤمنان ونبيان عظيمان، وبالمقابل هناك جماعتان طاغيتان.. ونحن في سياحتنا الفكرية في سورة الحاقة والشعراء وغيرهما من السور نكاد نشاهد قوم عاد وهم صرعى وبيوتهم خاوية على عروشها، فنرتعد من هول هذا المنظر الرهيب.

ويقول الله تعالى في سورة الشعراء ﴿**كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: 26/123-127).

وكما يُفهم من هذه التعبيرات فإن همَّ كل نبي ودعواه كان واحدًا، وكلهم كانوا يقولون الأمر نفسه.. نعم، كانوا يطلبون من الناس أن يلتجئوا إلى الله، ويحترموا أوامر الله، ويطيعوه.. وهم إذ كانوا يؤدّون هذه الوظيفة لم يكونوا يقولون: "إنني قمت بمهمة فهاتوا الأجر"، بل كانوا يقولون: "إننا نحتسب الأجر من الله فيما بذَلْنا من الجهد لأجلكم، ولا نطلب الأجر إلا من الله مقابل تَعَبِنا وبَذْلِنا قصارى ما نملكه من الطاقة إلى أن تتقطع أنفاسُنا وأصواتنا".. فكانوا بذلك يطلبون الأجر من الله وحده.

وكان عهد نوح قد ولّى منذ زمان بعيد، ولكن يظهر أمامنا هذه المرةَ قومُ هود عليه السلام، فمع أن هناك تشابهًا بينهما في الطبيعة الأساسية، إلا أن قوم هود كانوا مختلفين عن قوم نوح اختلافًا كبيرًا؛ فقد حال بينهما زمن طويل، وبُني العمران، وأُسِّست حضاراتٌ جديدة، ومن المحتمل أنه صارت القراءة والكتابة والعلوم والمعارف في هذه المجتمعات الجديدة من الأمور العادية.. ومع أن علم التاريخ الحديث يُرجع بدايةَ اختراع الكتابة إلى بعض الحقب التاريخية إلا أننا لسنا مضطرين

لقبول هذا الطرح كما هو، كما أنه ليس من المعقول بتاتًا إرجاعُ بدايات الإنسانية إلى وحشية خيالية مثل عهد الكهوف (الإنسان البدائي).

إننا نرفض من الأساس هذا الخط التطوُّري رفضًا باتًّا، وننظر بعين الحيطة والحذر إلى مقولة: عصر الكهوف، العصر الحجري، العصر البرونزي... إلخ، إذ من المحتمل أن كل ذلك من الأمور غير المعقولة والتي لا سند لها علميًا ومن الأراجيف التي دسّها التطوُّريون الملحدون في تاريخ الملل المتديّنة وغير المتدينة، بل إن في الغرب من المؤرّخين النقّادين من يقول: إن هذا الطرح ليس له أساس من الصحّة.. أجل، إن نشأة الإنسان على وجه الأرض بدأت بالنبوة فلذلك نقول: إن التاريخ البشري لم يبدأ بالتوحش والبدائية، بل إنه بدأ بالحضارة ضمنَ ظرف تلك الحقبة.

ونَرجع إلى ما نحن فيه من قوم هود، حيث يتحدّث عنهم الله بما خاطبهم به نبيهم: ﴿**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: 128/26).

وهذه التعبيرات مهمة للغاية من حيث تصويرها لحضارة تلك الفترة وأفقها الفكري والنهضوي؛ فهذه الحقبة تُمثِّل مرحلة جديدة في تاريخ الإنسانية، مرحلة القلاع والأبراج؛ فقد كانت عاد تبني قلاعًا للاحتماء من أقوام آخرين، طِبقًا لما كان يعمله الجَنويون من بناء الحصون على جميع المرتفعات التي كانوا يذهبون إليها.. وكانوا أيضًا يبنون مثل هذه الأبنية للعبث واللهو.. فقوله تعالى: ﴿**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: 128/26)، أي تبنون بكل ما ترونه من مكان مرتفع بنيانًا للعبث واللهو.

وفي هذه الآية الوجيزة أمور أخرى يتم بيانها؛ إذ نفهم من الآية بطريق الإشارة أنه كان هناك أقوام يعتدون على الآخرين، وكان الناس يبحثون عن طرق للخلاص من هذه الاعتداءات، وكانوا في ظروفِ تلك الأيام يبنون على الذرى والجبال حصونًا وأبراجًا.

وإلى جانب هذه الخصلة نلاحظ في الآية الكريمة خصلة أخرى لهؤلاء القوم:

﴿**وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: 129/26). و"مَصَانِعَ" جمع مصنع أو مصنوع، أي تعملون آثارًا فنية، وتريدون أن تخلِّدوا -عن طريق الفنون- كلماتِكم الفانية وذكرياتِكم المعرَّضةَ

للفناء والزوال، وتُنشئون قصورًا وصروحًا رائعة تُباهون بها كلّما نظرتم إليها وكأنكم ستخلَّدون في الدنيا، وتُنتجون أعمالًا فنية وهياكل من شأنها أن تؤدي بكم إلى نوعٍ من الوثنية، بحيث إنكم تظنون أنكم ستظلون تفتخرون وتتبخترون في ظلالها إلى الأبد.

وفيما سبق لاحظْنا قومَ نوح الوثنيّين وكيفيةَ تمردهم عليه، ولاحظْنا أن المرحلة التي وصلت إليها البشرية هي أنه بعد تسعة قرون من كفاح سيدنا نوح لم يلتحق بركبه إلا حفنة من المؤمنين.. أجل، إن هؤلاء القوم كانوا قد بلغوا هذا المَدى من العناد والكفر والطغيان.

ومن خلال التعبيرات القرآنية المتعلقة بقوم هود نلاحظ الخصائصَ البارزة لقومٍ مغرورين ومتكبِّرين جراء نحتِهم للصخور وتشكيلِها، ونقشِهم مشاعرَ الخلود عليها وعلى الجبال والصخور.. أجل، إننا حينما نجمع بين تلك الآثار التي بنوها وبين أقوالهم وأفكارهم نرى أن ما أنتجوه باسم الفن والعمارة هي صروح وأوابد تعبِّر عن التمرد والخيلاء أكثرَ من كونها آثارًا فنية.. نعم، إننا إذا قارَنَّا قوم نوح بقوم هود فسنرى أن بينهما فرقًا كبيرًا.

فإليكَ جانبًا من تصرفات قوم هود:

يقول الله تعالى على لسان نبيهم: ﴿**وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: 130/26)، أي إنكم إلى جانب عبادتكم للأشياء المادية ووثنيتكم، محبُّون لذواتكم وأنانيُّون وغدّارون وظالمون بالقدْر نفسه، وإذا ظفرتم بمن يخالفكم الرأيَ تُذيقونه أشد أنواع العذاب، وأعتى ألوان القهر.. وإذ تفعلون ذلك فإنكم تمارسونه كأنه جزء من طبائعكم، ولا تجدون في صدوركم حرجًا منه.

وحينما كان نبيُّهم يقول لهم هذا فإنهم كانوا يقابلونه بقولهم: "﴿**يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ**﴾ (سورة هُودٍ: 53/11)، أي فالذين ذهبوا إلى الآخرة لم يعودوا حتى نؤمنَ بوجود الآخرة، ثم إنك قلت: "الله موجود وواحد"، ولكنك لم تُرِنا إياه حتى نؤمن بوجوده، وادَّعيتَ أنك نبي الله ولكننا لم نر آية ومعجزة تُبرهِنُ على ذلك حتى نؤمن بأنك رسول".

فمن الملاحَظ أن كل الاعتراضات التي أوردوها تُشَمُّ منها رائحة البدائية، وكلها معاذير تافهة للناس البدائيين المنكِرين الذين انحدرت عقولهم إلى أبصارهم، وقد أبدى المشركون تجاه الرسول ﷺ أفكارًا مشابهة لهذه ولكن بأسلوب مختلف.. وفي عصرنا هذا تتوفّر نماذج من هذا القبيل.

فقولهم: ﴿**لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ**﴾ (سورة هُودٍ: 12/11) أو ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾ (سورة الزُّخْرُفِ: 31/43)، وأمثالُها إنما هي من المقولات التي تنبئُ عن الصلف والتكبُّر والقساوة في كل العصور.

إن القرآن يتناول مراتٍ عديدة قومَ هود ويَذْكُرهم بقلاعهم الحصينة وصروحهم المذهلة الشامخة وأصنامِهم الماثلة، فهم يَظهرون أمامنا في نوعٍ مختلف من الكفر ونمطٍ آخر من الكافرين.. فالقرآن يتغير أسلوبُ عرضه وتقديمه حينما يتغير مَن في المشهد من الأقوام، فنراه يقدِّم كلَّ قوم وكلَّ جماعة بخصائصهم التي يمتازون بها.

نعم، إننا إذا تعمَّقنا وسبرنا أغوار العالَم الداخلي لهؤلاء الأقوام الذين يتناولهم القرآن، فسنرى أن القرآن المعجزَ البيانِ استَخدم في تصوير الشخصيات أسلوبًا، بحيث إنه يستحيل قطعًا على أيِّ بشر أن يصوِّر بمثل هذه التعبيرات الوجيزة وبهذا الكم القليل من الكلام كلَّ واحد من هذه المجتمعاتِ التي تركت بصمات في التاريخ، ولا يسعنا إلا أن نقول: إن هذا كلام الله، ويستحيل أن يكون كلام بشر.

ج. الجماعة التي أطغتها الحياة المترفة: ثمود

إن المؤرخين المعاصرين كانوا ينكرون وجود ثمود، ولكن الحفريات والبحوث التي أجراها علماء الآثار أخيرًا أسفرت عن وجود قوم يسمَّون "ثمود" أو "تمود"، وقد عاشوا قبل عصور طويلة، وهؤلاء هم قوم صالح (ثمود) الذين تَحدَّثَ عنهم القرآن الكريم؛ فآثارهم التي خلَّفوها مِن ورائهم تروي لنا الكثير والكثير من أحوالهم وأخبارهم وأطوارهم ونمط عيشهم.

فآثارهم تلك إنما هي ترجمان جليّ البيان لطبائعهم وأقدارهم، فهي تعبّر عنهم بلسان فصيح من كل جوانبهم؛ بدءًا من طريقة تفكيرهم، وعقليتهم في نظرتهم للحياة، وصولًا إلى أسلوبهم

الفني ومستواهم الحضاري... ومع أن التاريخ البشري لا يقدِّم لنا معلوماتٍ قطعية واضحة حول المرحلة الزمنية التي عاشوا فيها ومدةِ حكمهم وكيفية غيابهم عن مسرح التاريخ، إلا أن القرآن يفك لنا رموز "ثمود" بأدقِّ سِماتهم وخصائصهم المميّزة والمشخِّصة، ويَعرضُها أمام الأنظار، حيث يقول:

﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: 141/26-145).

إن الدعوة هي هي كما كانت من قبلُ؛ الدعوة إلى الحقّ وإلى الله وإلى الإيمان بالبعث بعد الموت والحشر والحساب، والإيمان بكتب الله.. ولكن ثمود مثل أسلافهم، لم يقابِلوا كل هذا إلا بالرد والإنكار، ومع ذلك استمر سيدنا صالح ينبّههم وينذرهم دون كلل أو ملل:

﴿**أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۞ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۞ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: 146/26-150).

نعم، كما هو عهدُ القرآن فيما سبق، فهو يأخذ -على لسان نبيٍ صالح- بتلابيب ثمود، ويهزّهم هزًّا ويقول لهم: هل تحسبون أنكم ستُخَلَّدون على هواكم في هذه الدنيا التي تعيشون فيها فرِحين فخورين؟! وهل تظنون أنكم ستخلدون عند العيون الجارية المتدفّقة، وبين بلابل غنّاء تصدح عذب ألحانها المتنوّع في كل حين.

وبما أننا نشرح هذا الموضوع فتعالوا بنا لنرى كيف يتطابق القرآن مع المعلومات التاريخية حول هذه المنطقة؛ فالمؤرخ "إسماعيل حامي دانِشمند (*Danismend*)" (ت: 1967م) الذي ألَّف كتابًا حول التسلسل التاريخي للدولة العثمانية، كان ينوي أن يؤلف كتابًا آخر حول التاريخ الإسلامي وفقًا للتسلسل الزمني، ولكنه بعد أن كتب المقدمة لم يواصل الكتابة.. ففي هذه المقدمة، أثناء حديثه عن جزيرة العرب يسهب بالكلام حول صنعاء.. وعلى حسب ما يذكره هذا المؤلف، فقد كان الرجل يسافر من صنعاء إلى الشام في جوٍّ تصل درجة حرارته إلى 60^{o} درجة مئوية، ولكنه

كان يستطيع قطع كل هذه المسافات والمراحل من دون أن تصيب الشمس هامته؛ حيث كان يتنقل تحت ظلال الأشجار والحدائق إلى أن يصل إلى الشام.

وإنه لذو مغزى عظيم أن يتحدث هذا المؤرخ عن الحدائق والبساتين في منطقة حوَّلتها ستون درجة من الحرارة إلى صحراء قاحلة، مع أنه ليس من الممكن في أيامنا هذه أن يرى الإنسان في هذه المناطق، إلا فلاة مترامية الأطراف، وعواصفَ صحراوية، وأشلاءَ ميتة عفنة... وهذا يعني أن علم التاريخ وعلم الآثار يسيران جنبًا إلى جنب مع القرآن في الحديث عن الأمور نفسها.

ومن جانب آخر، يَجري الحديث عما بَنَتْهُ ثمود من السدود، وهذا من المواضيع التي تستحق التركيز عليها.. والأخبارُ التي هي من قبيل الإسرائيليات تتحدث عن هذا الموضوع؛ فسدُّ "العرم" أو -حسب التعبير القرآني-: "إِرَم" من أهم الأمور التي احتفظَتْ بها ذاكرةُ التاريخ.

نعم، إن السدود التي أنشأها هؤلاء لِريِّ أراضيهم وفق التقنيات الحديثة لأيامنا هذه، لهي من المواضيع التي تستحقّ بحثًا مستقلًّا.

وحينما يتحدّث التاريخ القديم عن هذا السدِّ المشهور، يَنقُل لنا أنه كان له ثلاثة منافذ على مراحل متتالية.. فيبدو أن المياه كانت تأتي من مختلف الأودية والأنهار، فتجتمع في هذه السدود أوَّلًا، ومن بعد ذلك كان المنفذ الأول يُفتح لسقي الأراضي، فيُملأ منه حوض موجود في الأمام، وينقَل منه الماء إلى الأراضي التي يراد سقيها.. فإذا نفِد الماء في الحوض الأمامي فُتح المنفذ الثاني، وهكذا كان الماء يُستعمل من دون هدر ولا إسراف.. ولكننا لا نرى هذه التفاصيل بشكل مباشر، لا في القرآن ولا في السنة، بل هي موجودة في الأخبار والنقول من الإسرائيليات.. فقد تكون هذه التفاصيل صحيحة وقد تكون خاطئة، ولكن ما أستطيع أن أقوله هو: أننا نشاهد مطابَقَتَها لما يرسمه القرآن من الحياة المدنية والحضارية لتلك الحقبة.

نعم، إن ثمود كانوا يظنون أنهم سيخلدون في جِنان إرم وحدائقها الخضراء، فجاء سيدنا صالح وحاول أن ينبّههم من تلك الغفلة، فقال لهم: هل تظنون أنكم ستعيشون مخلدين في هذا العالم،

تحت وارف النخيل، وبين الحدائق والجنان المثمرة، وفي تلك الأراضي التي تسافرون فيها من اليمن إلى الشام دون أن تَضرب الشمسُ هاماتِكم.

أجل، إنه يمكن العثور على هذه التنبيهات في سور مختلفة من القرآن الكريم، ولكن ثمود لم يُعِيروا سمعًا لذلك، ولم يستمعوا لسيدنا صالح على الرغم من أنه قد بيَّن لهم كل ذلك بإخلاص وجدية.

ثم يتحدث القرآن عن جانب آخر من طبائع ثمود الذين كانوا يواصلون حياتهم في الخط الممتد من اليمن إلى الشام، فيؤكِّد أنهم كانوا حريصين على إشباع رغباتهم البدنية ويبحثون عن تلبية رغباتهم.. وبقوله تعالى: ﴿**وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: 149/26) يَلفت الأنظارَ إلى جانب آخر لهم؛ حيث إنهم، على غرار ما نشاهده في تركيا في منطقة "كورَمه-قبادوقيا" كانوا ينحتون الأحجار بعقلية فنية ماهرة، فيبنون البيوت والقصور والصروح.. فهذا الجانب منهم -سواء قلنا: إنه الطاقة الفنية أو اعتبرناه القوة البدنية- قد طَوَّر فيهم توهُّم الأبدية والخلود إلى حد كبير.. وكان هذا الشعور يمنّيهم بآمال لا تنتهي.. فعمليات الحفر والتنقيب الرسميةُ تدل دلالة واضحة على مشاعرِ هؤلاء وأشواقِهم وطبائعهم، وتُبرز للعيان كيف أنهم نحتوا الصخور ونقشوا عليها بدقّة فائقة بدافع من توقٍ عارم وحرص شديد نحو الأبدية والخلود.

نعم، إن ثمود على غرار الأقوام الآخرين قد أبرزوا طبيعةً خاصةً بهم.. وما كان ابتلاؤهم بناقة خرجت من الصخور التي ينحتونها، ثم عَقرُهم لها، ونزولُ بعض المصائب عليهم، وأخيرًا هلاكُهم ودمارهم إلا مشهدًا صغيرًا من قصة حياتهم.. والقرآن يلخّص هذه الأمور بقوله: ﴿**قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ**﴾ (سورة هُودٍ: 62/11).

ونحن حينما نجمع بين هذه الآية والآيات الأخرى التي تتعلّق بالموضوع يمْكننا أن نستخلص منها أنهم قالوا: "يا صالح، إنك كنت قبل هذا عاقلًا، وكانت لنا فيك آمال وكنا ننتظر منك تحقيق

بعض الأمور، وكنا نعلم أنك رجل ذو عقل ودراية، لكنك اليوم تريد أن تَحُول بيننا وبين عبادة الأوثان التي كان آباؤنا يعبدونها، فما أنت بالذي كنا نراه لآمالنا".

فهذا النوع من الجواب منهم كان ينمُّ عن نوع آخر مما هم فيه من الخواء والفراغ؛ حيث إن هذا يعني أن عبادة الأوثان قد رسخت فيهم وضَربت بجذورها في أعماقهم، وأصبحت دينهم الذي لا يبدلونه،وهذه الأجوبةُ سبق وأن قوبل بها أيضًا رسولنا ﷺ.

ويُمْكِن أن نستفيد من كل ما سبق أن الكفر في عهد سيدنا صالح قد أصبح ذا قواعد ومعادلات، ووُضعت له قوانين، وصار نظامًا لا يمكن التخلي عنه ولا يجوز تخطّي حدوده؛ بمعنى أن الكفر بكل أنواعه قد أصبح مسيطرًا على الساحة وتحوَّل إلى قيم اجتماعية تحت مسميات وعناوين مختلفة.

وتمام القصة مشهور ومعلوم؛ فهناك معارضة القوم للمعجزة، وعقْرُهم للناقة التي كان قد أُخِذَ عليهم العهدُ على أن لا يمسوها بسوء، ونزولُ الغضب الإلهي عليهم، وكان عاقبة أمرهم زوالهم من الوجود.. فحينما نطالع كل هذه الأمور في القرآن نكون كأننا نشاهد قوم صالح وهم يمرون مِن أَمامِ أنظارنا بجميع رموزهم في مشهد رسمي يعكس سجاياهم.

د. تصوير طبائع الشخصيات في القرآن

1- سيدنا إبراهيم وطبيعته

في الفصل السابق ركَّزنا على تحليلات القرآن العمومية للطبائع، وألقينا نظرة عامة على طبائع بعض الشخصيات أو الأقوام أو الملل.. وكما حاولنا أن نَعرِض فيما سبق: أن القرآن حينما يقدم لنا قصةَ حياةِ بعض الشخصيات أو الأقوام يشير أيضًا من بين ثنايا السطور إلى بعض الأمور التي تنم عن طبائعهم وتفصح عن سجاياهم.. فنحن بدورنا سنركز في هذا الفصل والذي يليه على بعض الشخصيات التي يرسمها القرآن الكريم، من دون أن نخل بوحدة الموضوع.

والآن تعالوا بنا لنَرى كيف يتناول القرآن تلك الطبيعة الخاصة لسيدنا إبراهيم ﷺ الذي عبر عنه بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ (سورة هُودٍ: 75/11).

إن القرآن قد أطنب في الحديث عن سيدنا إبراهيم، لأنه من جانبٍ "أبو الأنبياء"؛ إذ يُعتبَر أبًا لسيدنا إسحاق وسائر أنبياء بني إسرائيل، ومن جانب آخر يُعتبر أبًا لمفخرة الإنسانية، وفخرِ الكائنات سيدنا محمدﷺ، عن طريق إسماعيلﷺ.

وقد قضى صباه في الكهوف للاحتماء بها عن شرور النماردة والمتغطرسين المتكبرين.. وهذا الأمر نفسه ينطبق على جميع الأنبياء أيضًا بشكل عام.. بمعنى أن سيدنا هودًا أيضًا لم يكن في مأمن، وكذلك سيدنا صالح وسيدنا لوط عليهم السلام.

وكما أن الحكمة الإلهية اقتضت أن تكون ولادة سيدنا موسى سرًّا، فكذلك شاءت إرادة الله أن ينشأ سيدنا إبراهيم أيضًا في كهف.. فهذه التربية التي تلقّاها في الكهف وسار بذكرها الركبان جعلته مضرب الأمثال في الحلم والصبر والتأني، وأسوة حسنة لمن أتوا مِن بعده؛ ففي حين أن السماوات كانت فتنة بالنسبة لغيره إلا أن الجانب الروحاني الذي يهيمن على الحياة في الكهف قد سمَا به نحو السير في آفاق ملكوتية، ووجَّهه إلى أن يَقرأ صفحات السماوات قراءة صحيحة من منطلق "الفطنة النبوية؛ فنراه ينظر إلى الكواكب والقمر والشمس، فيحاول إرشاد مَن حوله انطلاقًا من فكرةِ أنه لا بد أن يكون هناك صانع للكون.

فتسقط عيناه -أوَّلًا- على نجوم وكواكب السماء، ولكنه عندما رأى أنها تأفل:

﴿**قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ**﴾ (سورة الأَنْعَام: 76/6)، بمعنى أنني لا أتعلق بمثل هذا تعلُّقًا قلبيًّا؛ فالأشياء التي تأفل وتغيب مثلي لن تكون دواء لأدوائي وأمراضي.. فلي هموم أبدية، ولي أشواق ورغبات لا نهائية؛ ولذلك أحتاج إلى قوة تفوق قوتي، قوةٍ لا تغيب ولا تذبل، بل تلبّي كل حاجاتي هذه، وتَروي عطشي نحو الأبدية.. فلذلك لن تكون الكواكب ربي.

فسيدنا إبراهيم كان يتحدث بهذا الأسلوب ليهدمَ كفرًا كان مسيطرًا على الأفكار العمومية في ذلك العصر.

ثم يتوجه إلى القمر، فلما رآه يأفل هو الآخر قال: ﴿**لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ**﴾ (سورة الأَنْعَام: 77/6).

ثم يرى الشمس التي تطلُع كل يوم بسِحرٍ جديد، فيتحدث عنها بما تستحقه، وأخيرًا يعلن أفولَ أصنامِ عبدةِ النجوم، وبالتالي عدم صلاحيتها لأن تكون إلهًا بقوله: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (سورة الأَنْعَام: 79/6).

نعم، إنه أخذ يوجه الأنظار والأفكار إلى المولى المتعالي الذي فطر السماوات والأرض، ووضَعَ الشمسَ ضمن نظام معين، وسيَّر النجوم في انتظام واطّراد.. وبهذا يكون إبراهيم قد هدم ما ينبغي أن يُهْدَم، وقَطَعَ أصواتَ عبدةِ النجوم وأسكتهم.. وحينما ننظر إلى الآيات الأخرى التي تتناول الأحداث التي جرت بين سيدنا إبرهيم وقومه، نراه بطبيعته التي تثور على الأصنام والوثنية والكفر والطاغوت.. ومن ذلك نستنتج أنه بموقفه ومَقولاته تجاه الكواكب والقمر والشمس، يريد أن يلقن درسًا لقومه الوثنيين الذين يعبدون الأجرام السماوية والأصنام.

وفي يوم من الأيام دعاه قومه إلى الريف (للنزهة) ولكنه تَعلَّل بالمرض ولم يذهب معهم، كما في قوله تعالي: ﴿**فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۞ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ**﴾ (سورة الصَّافَّاتِ: 89/37). وتُبيّنُ الآياتُ التي تليها (90-93) أنه لما تخلّف عن قومه الذين ذهبوا إلى الريف، حطم الأصنام إلا الكبير منها، وبعد ذلك تنحَّى جانبًا، وانتظر رجوع قومه ليلقنهم درسًا آخر، فلما رجع القوم اندهشوا أمام ما رأوه مما فُعل بأصنامهم.. فقالوا فيما بينهم في غضب عارمٍ وحنقٍ شديد: ﴿**مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: 59/21)..

فبينما هم يتبادلون هذا القول فيما بينهم اتهم البعضُ منهم سيدَنا إبراهيم بهذه الجريمة! فذهبوا به إلى الساحة التي اجتمع بها الناس، فسألوه قائلين: ﴿**أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: 62/21). لكنه ما لبث أن أجابهم بوقارٍ وجدّية تليقان بنبي من أنبياء الله: ﴿**بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: 63/21).

فهذه الجملة الوجيزة منه تحمل في طيّاتها من الحِكم العديدة والحُجج العتيدة ما يجعلها من قبيل: "السهل الممتنع"؛ فمهما استَخدم العقلُ البشريُّ الأساليب المنطقيةَ لإثباتِ أنَّ الأصنام لا تَصلح لأن تكون معبوداتٍ، فلن تَرْقَى في الإيجاز إلى مستوى

ما في هاتين الجملتين القصيرتين من البيان.

نعم، إنه قال: ﴿**بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا**﴾، وهذا القول يحتمل الكذب أيضًا، ولكن من المحال أن يَصْدُر الكذبُ على لسان نبي، وإسناد الكذب إلى نبي من الأنبياء له وِزرٌ ثقيل.. فلذلك من الأنسبِ أن يؤخذ هذا الكلام على مَحمَل التعريض في القول.

ومن المعلوم أن سيدنا إبراهيم ﷺ صدرت عنه ثلاث تعريضات؛ فنرى أن بعضًا من ذوي المنطق الاستشراقي لا يأخذون عصمة الأنبياء بنظر الاعتبار، فيجازفون بالقول في أمثال هذه التوريات.. ولكن هناك بالمقابل من نحَى مَنحى المحققين من العلماء فأتوا في هذا المجال بتفسيرات وتأويلات أخرى سنَعرِضها فيما يلي.

من المناسب ونحن نتحدث عن طبيعة سيدنا إبراهيم وعصمته، أن نتعرض لما نُسب إليه ﷺ من هذه "الكذبات" -وبالأحرى "المعاريض"- الثلاثة.

إن صدور الكذب عن نبي من الأنبياء من الأمور المناقضة للعصمة، فإن الكذب من شيم الكفار، ولن يجدَ له مأوى في القلوب المشبعة بالإيمان، صحيحٌ أنه قد روي

عن النبي ﷺ أنه قال: "**لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ**"[34].

ولكن كما يكون الكذب "ضد الصدق"، فكذلك يجوز أن يحمل على معنى "التورية".. صحيح أن حمله على هذا المعنى سيكون فيه شيء من التكلف من الناحية اللغوية، ولكنه مناسب للمعنى المراد بيانُه.. وسينجلي ذلك بعد بيانه.

فلا بد هنا من التنبّه إلى التعابير. أجل، كما أنه لا يجوز أن يُقال: إن سيدنا إبراهيم قد "كذب"، فكذلك لا يستعمل الكذب هنا بالمعنى اللغوي المتعارف عليه؛ فإن هذه الأمور وإن بدت في ظاهرها كأنها على خلاف الواقع، لكن إذا تنبّه الإنسان إليها ولو قليلًا فإنه سيلاحظ أنها مطابِقة

[34] **صحيح البخاري**، أحاديث الأنبياء، 10؛ **صحيح مسلم**، الفضائل، 154.

للواقع.. ومثل هذه التعبيرات تُسمّى "تعريضًا"، وكما يقال: "إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب"، ولنشرح هذا بشيء من التفصيل:

إن من بين المجالات التي يتحقّق فيها الكذبُ مجالَ المزاح، وقد مزح الرسولﷺ أيضًا، إلا أن المادة التي استخدمها كانت من نوع البيان الصادق؛ فمثلًا: قال لأنسٍ: "**يَا ذَا الْأُذُنَيْنِ**"[35]، وقد كان أنس -في الواقع- ذا أذنين.

وفي موقف آخر رُوِيَ أنَّ امرأة تُدْعى أم أيمن، جاءته فقالت: إن زوجي يدعوك، فقال لها: "**مَنْ هُوَ؟ أَهُوَ الَّذِي فِي عَيْنِهِ بَيَاضٌ؟**" قالت: والله ما بعينه بياض، فقالﷺ: "**بَلَى إِنَّ بِعَيْنِهِ بَيَاضًا**"، قالت: لا والله، فقالﷺ: "**مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَبِعَيْنِهِ بَيَاضٌ**"[36].

وكذلك رُوي عن الحسن البصري قال: أتت عجوزٌ إلى النبيﷺ فقالت: يا رسول الله! ادع الله أن يُدخِلني الجنة، فقال: "**يَا أُمَّ فُلَانٍ! إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ**"، قال: فولَّت تبكي، فقال: "**أَخْبِرُوهَا أَنَّهَا لَا تَدْخُلُهَا وَهِيَ عَجُوزٌ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ۞ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۞ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾** (سورة الوَاقِعَة: 56/35-37)"[37].

أجل، إن الأنبياء قد احتاطوا في تعبيراتهم التي استعملوها حتى في مزاحهم، لأنهم واعون بأن مقامهم وموقعهم لا يتحمّل الكذب حتى في حال المزاح.. نعم، إنهم في موقع الأسوة للناس بكل حركاتهم وتصرفاتهم، فإذا اشتمل كلامهم على "ما يخالف الواقع"، حتى ولو مزاحًا، فإن ذلك سيشجع الآخرين على الكذب في جدهم، والنبي

لا يكون قدوة سيئة للآخرين.

---

[35] **سنن أبي داود**، الأدب، 88.

[36] ذكره الغزالي في **إحياء علوم الدين**، 129/3؛ وذكره الزبير بن بكّار في كتاب **الفكاهة والمزاح**، ورواه ابن أبي الدنيا.

[37] الترمذي: **الشمائل المحمدية**، ص 142.

إن سيدنا إبراهيم كان مفطورًا على الحنيفية وعداوةِ الأوثان؛ فهو قبل أن يُبعث نبيًّا كان يُكافح الأوثان والوثنية، وهذه المشاعرُ والأفكار هي التي أدت به إلى أن يصمم فيما بينه وبين نفسه أن يحطم الأصنام، وفي نهاية المطاف حقق ما كان يفكر به.

وكان من عقائد تلك الفترة الزمنية أن ينظر الناس إلى النجوم فيستخرجوا من أوضاعها المختلفة أحكامًا يقوِّمون بها الأحداث ويؤوِّلونها؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الآلهة هي في السماء بين النجوم، وأن النجوم هي القوى التي تَحكم الكونَ.

فسيدنا إبراهيم نظر نظرةً في النجوم على حسب معتقدات تلك الأيام.. وهذه النظرة كانت بغرض إقناع المخاطبين هناك بما سيُلقى عليهم، وكان هدفه منها إقرار فكره لهم.. وإلا فإن إبراهيم لم يكن يؤمن بما يعتقد به قومه بتاتًا.. وبعدما نَظر إلى النجوم قال: ﴿**إِنِّي سَقِيمٌ**﴾ (سورة الصَّافَّاتِ: 89/37)، فهذا هو التعريض الذي صدر منه على سبيل التورية.. وسنوضح لاحقًا ما وراء ذلك من الأسباب والخلفيات التي أدت إليه، وكيفيةَ وقوع ذلك.

وأما التعريض الثاني الذي صدر منه، فهو الذي يتعلق بحادثة تحطيمه للأصنام؛ حيث إنه أخذ بيده فأسًا فحطّمها، ثم علّقه في عنق كبيرهم.. فلما سألوه قائلين: ﴿**أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: 62/21)؛ أشار إلى الصنم الأكبر: ﴿**قَالَ بَلْ فَعَلَهُ... كَبِيرُهُمْ هَذَا... فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: 63/21)، أي إن الفاعل هو ذاك... وهذا كبيرهم.. فاسألوهم... إلخ.

وأما التعريض الثالث: فلم يَرد ذكره في القرآن، وهو أنه قال لامرأته: "إن هذا الجبار، إنْ يَعلمْ أنكِ امرأتي، يغلبْني عليك، فإن سألكِ فأخبريه أنكِ أختي، فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرَكِ"[38].

فهذه هي المعاريض التي صدرت عن سيدنا إبراهيم.

[38] صحيح مسلم، الفضائل، 154.

فالآن تعالوا بنا نَذكرْ هذه الأحداث بشيء من التفصيل حتى تتجلى لنا في وجه هذه الأحداث بالذات عصمةُ هذا الرجل العظيم:

الحدث الأول: "إِنِّي سَقِيمٌ"

يقول الله ﷻ في القرآن الكريم:

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۞ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۞ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۞ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ ۞ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۞ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۞ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ (سورة الصَّافَّاتِ: 37/83-90).

فسيدنا إبراهم في قوله: ﴿**إِنِّي سَقِيمٌ**﴾ يتحدّث عن الشيء الذي يؤلمه في حقيقة الأمر، وهو أنه لم يزل متألِّمًا من الأصنام منذ صباه ولم يكن من المتوقَّع أن يزول منه هذا الألم ما لم يَقضِ على هذه التماثيل والأصنام، ولكن الذين سمعوا منه هذه الجملة تَبادر إلى أذهانهم أنه يَعني بذلك السقمَ البدني، فتخلَّوا عنه مدبرين، وإلا فإنهم كانوا يريدون ويصرُّون أن يصطحبوه معهم في طقوسهم الدينية.. وبالفعل ما إن ذهبوا عنه حتى فَعل ما فعل بالأصنام، فأبرَزَ السببَ الحقيقي الذي يكمُن وراء أوجاعه وآلامه.

أجل، إن سيدنا إبراهيم بتحطيمه الأصنام يكون قد عبَّر عما يُكِنُّه تجاهها من الكراهية، ولكنه باستخدامه عبارة فيها توريةٌ أَوْهَمَهم معنًى آخر، وبذلك استطاع أن يتخلص منهم.. بيدَ أنه لم تكن في هذه العبارات التي استَخدمها كذبٌ قط.. غايةُ ما في الأمر أنه لم يكن لدى المخاطَبين علمٌ مسبق بما يقصده إبراهيم عليه السلام، فذهب ظنهم إلى مذهب آخر.. وليس هذا منهم بمستغرب؛ لأنهم لو لم يكونوا على حمق كبير، لاستمعوا إلى الحق وفهموه، ولكنهم عانَدوا وكابروا طوال حياتهم، ولم يُحاولوا استماعَ الحقّ والحقيقةِ ولو لمرة واحدة.. وأنى لهم أن يفهموه وهم بهذه العقلية.

فكلام سيدنا إبراهيم كان تعريضًا، ولم يكن كذبًا بتاتًا.. ولكن هذا التعريض سيحزُّ في وجدانه حتى يوم الحشر، ولذلك فإنه حينما يأتي إليه الناس مستشفعين به يوم القيامة سيعتذر عن ذلك، ويقول لهم بأنه ليس أهلًا للشفاعة، لأنه يَعتبِر هذا التعريض "كذبًا" من حيث مقامه السامي[39].

وحين نرى البعض يحسون كل يوم مراتٍ عديدةً بالحاجة إلى اللجوء إلى المعاريض على غرارِ ﴿**إِنِّي سَقِيمٌ**﴾، فيقولونها من حيث يشعرون أو لا يشعرون.. حينما نأخذ هذا الوضع بعين الاعتبار؛ نُدرك مدى البراءة والبساطة في تعريض سيدنا إبراهيم في عمره مرةً واحدة بقوله: ﴿**إِنِّي سَقِيمٌ**﴾، وكم يكون هينًا في مقارنته بذلك.

ولكننا مع ذلك إذا أخذنا بالاعتبار ما في عصرنا من التداخل بين الصدق والكذب، فإنه يجب التريُّث بجدية تجاه تجويز اللجوء حتى إلى المعاريض ناهيك عن الكذب؛ فإنه في هذا الزمان أصبح الصدقُ والكذب يُسَوَّقان في سوق واحد، وصارا كأنهما متداخلان.

ولذلك أستطردُ فأقول: إذا كان ذلك كذلك، فإنه ينبغي لنا أن نكون متنبهين حذرين حيال الكذب حتى في المواضع الثلاثة التي رخّص فيها الرسولُ ﷺ للكذب[40]، فإنه كان في عصر السعادة النبوية هوةٌ سحيقة بين الصدق والكذب؛ حيث كان الرسول ﷺ وصحابته يمثِّلون الصدقَ، وكان مسيلمة ورجاله يمثلون الكذب.. أجل، كانت المسافة بين الصدق والكذب شاسعة إلى هذا الحد، وأما في عصرنا فالوضع مختلفٌ تمامًا.

ولذلك نقول: ينبغي للذين يمثِّلون الحق أن لا يفسحوا المجال للكذب البتة، سواء في حياتهم الاجتماعية أو الفردية، فهذا التصرف -قبل كل شيء- شرط أَوَّليٌّ لمن يمثِّل الأمن والسلام. نعم، لا بد أن يكون الكذب بعيدًا عنا ونكونَ بعيدِين عنه.. فإذا كان موقعُنا هذا يَفرض علينا أن نكون

---

[39] انظر: صحيح مسلم، الإيمان، 327.

[40] انظر: **صحيح مسلم**، البر والصلة، 101. والمواضع الثلاثة التي يُرخّص فيها الكذب هي: الْحَرْبُ، وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا.

حساسين تجاه الكذب إلى هذا الحد، فما بالك بالأنبياء الذين منهم تعلمنا الصدق؛ وبالأخص إذا كان ذلك النبي هو سيدنا إبرهيم، جد النبي ﷺ الذي هو أصدق الصادقين.

الحدث الثاني: "بَلْ فَعَلَهُ"

يتناول القرآن الكريم هذه القصة كالآتي:

﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ۞ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۞ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۞ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ۞ قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۞ وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۞ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۞ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۞ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۞ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۞ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ، كَبِيرُهُمْ هَذَا، فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ**﴾ (سورة الأنبياء: 21/51-63).

فهو بعد أنْ حطَّم الأصنامَ واحدًا تلو الآخر، علَّق الفأس في عنق الصنم الأكبر، ولفَت أنظارَهم إليه.. ولا شك أنه بصنيعه هذا أظهرَ نموذجًا رائعًا للفطِن النبيه، وخاصة فيما سيقوله أثناء مجادلته لهم في قابل الأيام.

فلما رجع المشركون ورأوا ما وقع للأصنام قالوا مستفسِرين يملؤهم الغضب:

﴿**أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ**﴾ فأجابهم إبراهيم بقوله: "بَلْ فَعَلَهُ" وتوقفَ -على قراءة البعض- عند هذه الكلمة.

والحقيقة أن سيدنا إبراهيم إنما قَصدَ بالضمير المستتر في قوله: "فَعَلَهُ" نفسَه، ثم وجَّهَ أنظارَهم إلى الصنم الأكبر ليسألوه عمن فعل ذلك ليسفه عقولهم بعبادة من لا يدافع عنه نفسه ولا يرد جواب سائله وهكذا أصبح المشركون غيرَ مدركين لما ينطوي عليه كلامه من تلك النكتة الدقيقة الخفية.

نعم، إن قوله: "بَلْ فَعَلَهُ" يحتمل معنيين. فالمشركون رأوا الفأس معلَّقًا في عنق الصنم الأكبر، وسألوا إبراهيم ﷺ عن الفاعل.. فلما أجابهم بقوله: ﴿**بَلْ فَعَلَهُ كبيرهم هذا**﴾ [على اعتبار أن قوله:

"كبيرهم" ليس فاعلًا لقوله "فَعَلَهُ" بل هو مبتدأٌ وخبره الجملة الفعلية بعده، والجملة مستأنفة]؛ كان مجيبًا لهم على سبيل التعريض الذي هو من أساليب الكلام البليغ.. فقصدُه بقوله: "بَلْ فَعَلَهُ" هو شخصُه هو، وقوله: "كَبِيرُهُمْ هَذَا" معناه أن هذا الصنم هو كبيرهم.

وأيضًا في هذا الكلام نوع استهزاء بالكفر والوثنية؛ فسيدنا إبراهيم بقوله: "كَبِيرُهُمْ هَذَا" كان يستهزئ بعقليتهم البسيطة هذه، ولكنهم من كثرة تعلقهم بالوثنية، لم يكونوا في وضع يسمح لهم بالتفطن لذلك؛ فإذا كان إبراهيم قد اعتَبر صنمَهم كبيرًا فلا يهمّهم ماذا كان يعني بذلك.. بل إنهم حتى لو فهموا ذلك، فإنه لم يبق لديهم ما يُدْلون به من الكلام أو يدافعون عنه أمام هذا النوع من الكلام المُوَرَّى به، جراء ما ذاقوه من تسفيه عقولهم وغلبتهم في الخصام.

ولما فشلوا في الدفاع عن دعواهم بالكلام وبسبب هذا الموقف المُخجِل شعروا بضرورة تحويل مسار الصراع مع سيدنا إبراهيم إلى مجال آخر، فقرروا تصفيته جسديًّا.

فكِفاحُ جميع الأنبياء ﷺ تقريبًا مرَّ بمثل هذه المراحل.. فالمشركون دائمًا حين يعجزون في الحوار مع ظنّهم إجادته يستخدمون الأساليب نفسها تجاه مبلّغي وممثلي الحق والحقيقة.. فهاهم المشركون في الماضي، وهاهم مشركو هذا العصر.. ما أشبه الليلة بالبارحة.

ومجمل القول هو أنه رغم مرور كل هذه المدة المديدة لم يحصل هناك أيُّ تغيُّر في العقلية؛ حيث إن الوثنية تَناقَلها أصحابُ الأدمغة المشحونة بالتعصب إلى يومنا هذا بفوارق طفيفة.. فتبًّا للوثنية! وويلٌ للعقول التي تفسخت وفسدت بوبائها، وويلٌ للصدور المنغلقة تجاه الإيمان والمحبة!

الحدث الثالث: "هَذِهِ أُخْتِي"

وهو أن سيدنا إبراهيم ﷺ تحدَّث عن زوجته بتعبير: "أختي"..

فهذا التعبير قد أدى ببعض السفَلَة إلى أن يفسروه بتفسيرات خاطئة. أجل، إن هؤلاء بلغوا من الدناءة إلى دركة أنهم لم يتورعوا عن إسناد "الكذب" إلى نبي من أنبياء الله حتى وإن كان في ذلك خطر الوقوع في الكفر.. صحيح أن بعض الملحدين على مرِّ التاريخ قد تحاملوا على مثل هذه

التعبيرات الواردة في القرآن، لأنهم عجزوا عن إدراك دقائقها، فصدور مثل هذه الدناءات من الملحدين أمرٌ متوقَّع، لكن الذي يصعب علينا فهمه ويحزّ في نفوسنا هو محاولة بعض أبناء جلدتنا إسنادَ الكذب إلى الأنبياء رغم ادعائهم أنهم مؤمنون؛ اعتمادًا منهم على مثل هذه التعبيرات.

وفي الحقيقة أنه ليس هناك مثقال ذرّة من الكذب -حاشاه- في هذه القولة الصادرة من سيدنا إبراهيم. بل ولا يسمى تعريضًا أيضًا.. بل هو صادق من كل النواحي، وصدقُه واضحٌ عيانًا بيانًا؛ فقد اتفق سيدنا إبراهيم مع سيدتنا سارة على أنه إذا سألها المَلِك أو رجاله عن طبيعة العلاقة بينها وبينه فلتقل إنها أخته، وإذا سألوا سيدنا إبراهيم فإنه سيجيبهم بأنها أخته؛ لأنه كان من المحتمل أن يمسوها بسوء إذا علموا بأنها زوجة إبراهيم عليه السلام، وهذا كان سيُحرِجهما معًا، بل كان سيضطرُّ سيدَنا إبراهيم إلى أن يتركها.. لكن هذا التعبير (الأخت) كان منقذًا لهما من شرِّ هذا الموقف، ومطابقًا للواقع، لأن الله تعالى قد اعتبر جميع المؤمنين إخوةً عندما قال: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ (سورة الْحُجُرَاتِ: 10/49).

إن رابطة الإيمان هي أول نقطة للالتقاء بين المؤمنين، فالذين لا يترابطون فيما بينهم بهذه الرابطة لا يُعتَبَرون "إخوة" ولو كانوا من نفس الآباء والأمهات، والتفاوت في الزمان والمكان لن يكون حائلًا أمام الأخوَّة الإيمانية.. فالمؤمنون جميعًا بعضهم إخوة لبعض، وليس في هذا الباب فرق بين الذكر والأنثى، وأما سائر الأواصر فإنها تأتي في الترتيب بعد هذه القرابة.. فمثلًا لو طلَّقَ الرجلُ زوجتَه فإن ما يربطهما من علاقة الزوجية يعتبر لاغيًا، ولكن أخوَّة الإيمان ستظلّ باقية.

فسيدنا إبراهيم لفَتَ الأنظارَ إلى هذه القرابة التي هي الأساس، فعبَّرَ عن أمّنا سارة بـ"الأخت".. وهذا القول هو عين الصدق، بل إنه ليس من التورية في شيء، إلا أن من عمِيت بصيرتُه وصُمّت أذناه لن يُدرِك هذه الدقائق اللطيفة في وقتٍ من الأوقات.

وخلاصة الموضوع:

1- إن إبراهيم لم يَكْذِبْ قط.

2- إن على سالكي سبيل الحق أن يتجنبوا الكذب، فالمؤمن الحقيقي يتألم أشد الألم ويسكب الدموع طول عمره إذا ما وقعت عينه على حرام، أو زلّ لسانه بكذبة، فالذي ينبغي على المرشدين إلى طريق الإيمان -مهما كان مستواهم- أن يواصلوا حياتهم كلها مثل الروحانيين.

2- سيدنا إبراهيم وتكاملُ التعبير القرآني

لعلنا نتساءل: ما مدى توكل إبراهيم حينما أتى بولده إلى المكان الذي نسميه اليوم: "الحرم الشريف"، ليذبحه؟! نعم، إن رجل الصبر والابتلاء هذا، كان مُجدًّا ومصمّمًا على تنفيذ ما أمره به ربه حينما أَضْجَعَ ابنَه في منطقة "العقبة" القريبةِ جدًّا من مكة -والتي صافح فيها سيدُ الأنبياء الأنصارَ بعد قرون، وأَخَذ منهم البيعة لأول مرة- وبطبيعة الحال كان ابنه يقول له في تسليم مطلق لا تردد فيه يليق بابن نبي: ﴿**يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ**﴾ (سورة الصَّافَّاتِ: 102/37).. والواقع هو أننا إذا تابعنا في القرآن المواضعَ التي يَرِدُ فيها الحديثُ عن طبيعة سيدنا إبراهيم، فإننا نكاد نرى في جميعها هذا التوكّل والتسليم العميق.. بحيث إننا لن نعثر فيه على جَزَع ولا تصرفٍ يُخلّ بمقام نبوته.

إن هذا الإنسان القدوة وهذا النبي العظيم الذي يمتلئ قلبه بالإيمان والتسليم، نراه يَظهر أمامنا بشخصيته هذه أيضًا لكن في مشهد آخر في القرآن الكريم؛ حيث يأمره الله بأن يُسْكِنَ زوجته التي وَلدت للتوّ بوادٍ في صحراء خاوية.

ورغم هذا التكليف الذي يَصعب على النفس البشرية تحمُّله نراه يقول في توكُّل تام وتسليم مطلق واطمئان ثابت: ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾ (سورة إِبْرَاهِيمَ: 37/14)، فيطلب من الله تعالى أن تقيم ذريتُه الصلاة، وأن يَسيروا على طريقه ﷺ، وأن يتوجهوا بقلوبهم نحو الكعبة، وأن يَسكُنَ الناسُ ذلك الوادي الأجرد، ثم يمضي في طريقه من دون أن يلتفت إلى الوراء.. فنادته زوجته من ورائه وهي تقول: يا إبراهيم!

ولكن إبراهيم لم يلتفت إلى هذا النداء الذي يرتجف منه الفؤاد.. فأعادت النداء، ولكنه لم يلتفت أيضًا؛ لأنه كان يخشى أن يُخِلَّ ذلك بما يُكِنُّه في نفسه من التسليم والتوكل تجاه مولاه.

فكما يُلاحَظ، فإننا يُمْكن لنا أن نشاهد سيدنا إبراهيم في هذا المشهد أيضًا بنفس تلك الحالة التي شاهدناه وقد تلَّ ابنَه للجبين ليضحِّيَ به.. نعم، تناديه زوجه مرة ثالثة قائلة له: "**آللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذًا لَا يُضَيِّعُنَا**"[41].

أجل، يُمْكننا أن نشاهدَ في هذا المشهد أيضًا ذلك التسليم والتوكل عينه.

وفي آية أخرى نشاهد بطلَ الصبر والحلم هذا، وهو ينصح أباه، وهذا مهمٌّ للغاية:

﴿**إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا**﴾ (سورة مَرْيَم: 42/19).

فقد كان يئنّ باعتباره ابنًا يحترق فؤاده وهو يتمنى هداية أبيه بأسلوب يغلب عليه طابَعُ الشفقة على أمل أن يُرزَق الهدايةَ، فالإنسان إذا حاول تصور هذا المشهد ولو قليلًا فإنه سيجدُ أمامه رجلًا تنعكسُ على وجهه مظاهر الألم، وسيجده ذا شفةٍ ملتويةٍ، وطلعةٍ متقلّصة، وسِيما متجعدة، ولكنه في الوقت نفسه سيرى وجهًا يتلألأ بالرضا بما قدَّر الله.

نعم، إن الإنسان إذا لاحظ فإنه سيَمثُل أمام ناظرَيه إنسان من أبطال التوكل والتسليم، يظهر على محياه وقار وجدية الإيمانِ بالله.

فهذا الدعاء الخالص من سيدنا إبراهيم لأبيه أدى ببعض السفلة إلى الطعن فيه ﷺ، فعَدُّوا ذلك زَلَّة منه.. لذلك نرى من المفيد التركيز على هذا الموضوع إضافة لما سبق.

فنتساءل: تُرَى لماذا استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه الضالِّ؟! أمَا كان يليق بنبي مثلِه أن يكتفي بالذين استجابوا لرسالته التي أتى بها؟! ولماذا اهتمّ إلى هذا الحد بأب غير مؤمن، حتى إنه بعد ذلك تضرَّع إلى الله ليغفر له؟ هل كان هذا -حاشاه- زلةً منه ﷺ؟ فإذا كان هذا خطأً منه -حاشاه- فكيف يليق ذلك بالمقام السامي لهذا النبي؟! فإذا سلَّمنا ذلك وقبِلناه جدلًا أفلا يؤدي ذلك إلى أن يقول بعض الناس باحتمال وقوع الأنبياءِ في الخطإ في أمور أخرى أيضًا؟ فإذا كان الأمر كذلك فكيف نتَّبعهم

---

[41] صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، 11.

باطمئنان وراحةِ بال؟ فهذا هو أساس تلك الاستفهامات التي كان يثيرها الملحدون في الماضي والمنكرون المشكّكون في الوقت الحاضر.

وقد دعا إبراهيم لأبيه بقوله: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: 86/26)، فذَكر لنا القرآنُ الكريم السببَ الذي دفع بسيدنا إبراهيم إلى هذا الدعاء حيث قال:

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (سورة التَّوْبة: 114/9).

وقد ذكر القرآن هذه الموعدة أيضًا بقوله تعالى: **﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾** (سورة الْمُمْتَحَنَة: 4/60).

ففي هذه الآية الكريمة يشار إلى أن العداوة بين الإيمان والكفر أبدية، وأن الكفر بروحه منطوٍ على الكراهية تجاه الإيمان، وأن هذه هي طبيعة الكفر، وبالتالي فلن يحبَّ الكافرُ المؤمنَ بشكل من الأشكال.

فالقرآن يدلُّ على أن أبا إبراهيم كان في الضلالة، وهذا يتطلّب منا الوقوف على أربع نقاط على النحو التالي:

النقطة الأولى: إن كونه في الضلالة لا يقدح في إبراهيم ولا يقلل من شأنه؛ إذ يمكن القولُ بأنه كان في أجداد سيدنا محمد من لم يَصِلوا إلى مستوى التوحيد الخالص، ولستُ أدري كيف كانت فكرة التوحيد لدى عبد المطلب وهاشم وغيرهم.. ولكنني أستطيع القول بكل راحة بال: إنهم سيعامَلون معاملة أهل الفترة، ولكنْ مع ذلك نقول: إن ما قد يكون فيهم من النواقص والأخطاء لن يكون منافيًا بتاتًا لأن يبعث الله من نسلهم سيدنا محمدًا بمهمّة الرسالة.

وعلى تقدير أن "آزر" كان أبًا لسيدنا إبراهيم، فقول سيدنا إبراهيم: **﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾** لن يضر بنبوته ؛ فقد يخلق الله ﷻ من أشخاص مثلِ آزر أنبياءَ من أمثال سيدنا إبراهيم، وقد يَخلق

من أمثال سيدنا نوح أولادًا على غرار كنعان. نعم، قد يحتضن أناسٌ كالشياطين أفراخًا كالملائكة، وقد يحتضن الملائكيون شياطينَ، فالله يُخرج الحيَّ من الميت ويخرج الميت من الحي، وَسِعت قدرتُه كلَّ شيء، ولا يُسأل عما يفعل. نعم، إنه قادر على أن يُخرج من ميتٍ مثلِ آزر حيًّا يَنفخ الحياةَ في الناس مثلَ سيدنا إبراهيم، وأن يجعله مَبدأً لسلسلتين ذهبيتين؛ حيث إن كِلَا ابنيه من الأنبياء.

النقطة الثانية: أن دعاءَ سيدنا إبراهيم أمرٌ فطريٌ وإنسانيٌّ بكل معنى الكلمة؛ حيث إن سيدنا محمدًا أيضًا دعا عمّه أبا طالب إلى التوحيد، ومِن بعد ذلك قال: "أما والله لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك"[42]، فإن أبا طالب احتضن الرسول أربعين عامًا، وكان مناصرًا له على الدوام، وقاسَمَه كل همومه، بل إنه لم يتخلَّ عنه حتى حين أعلنت قريش مقاطعتَه.

فكما أن إصرار الرسول على دعوة عمه الذي خدمه طوال حياته وحاول حمايته، وحرصَه على دخوله الإسلام أمرٌ معقول وفطري بكل ما في الكلمة من معنى، فكذلك دعاء سيدنا إبراهيم طبيعي بتلك الدرجة؛ لأن أباه هو السبب المادي لوجوده، وقد رعاه ورباه في فترة معينة.. وأيضًا فالإسلام حرص على احترام الوالدين وحرَّم على الإنسان أن يقول لوالديه: "أفّ" مهما حصل، ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا**﴾ (سورة الإِسْرَاءِ: 23/17).

النقطة الثالثة: أن سبب وجود الأنبياء هو التبليغ، وأما الهداية فليست بأيديهم، ومهمّتهم هي المواظبة على بيان الحقّ والحقيقة، واستخدام كل الوسائل المشروعة في سبيل ذلك.. فسيدنا إبراهيم قد حاول استعطاف أبيه لهذا الغرض، واستهدف تهيئةَ قلبه للهداية إلى الحق.. ولعل ذلك الاستغفار الذي وعد به أباه من هذا القبيل.

---

[42] متفق عليه.

النقطة الرابعة: أن سيدنا إبراهيم بصفته نبيًّا ينبغي عليه أن يكون على مسافة متساوية في علاقته بكل الناس؛ بمعنى أن موقعه ومهمّته التبليغية توجب عليه أن يُبين دعواه في صدق وإخلاص لكل الناس قريبين كانوا أم بعيدين.. إضافة إلى أن الدعاء من وسائل الهداية، وعلى الإنسان ألا ييأس في هذا الأمر.. صحيح أن قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (سورة البَقَرَة: 6/2) صريحٌ في أن بعض الكفار لن يحظوا بالهداية، ولكن الرسول ﷺ رغم ذلك ذهب مرّات ومرات إلى أبي جهل وأبي لهب وابن أبي معيط ومن على شاكلتهم من الكفار، وواصل دعوتهم إلى سبيل الحق.. فالهداية بيد الله ﷻ، وقلوب الناس بيده ﷻ أيضًا، فـ"السواء" في الإنذار وعدمه إنما هو بالنسبة لأولئك الذين انغلقت قلوبهم تجاه الهداية، وإلا فليس الأمر "سواء" بالنسبة للدعاة؛ فهم مأمورون بالتبليغ ولا علاقة لهم بالاستجابة.

فسيدنا إبراهيم من حيث إنه كان يدرك هذا ويؤمن به جرَّب كلَّ الوسائل المشروعة بما فيها الدعاء.. وهذا أيضًا مَظهرٌ من مظاهر إيمانه واطمئنانه.. ولكنه ﷺ لما أدرك أن المشيئة الإلهية ليست في تلك الجهة، فإنه سرعان ما تخلَّى عن أدعيته تلك، وتبرَّأ من أبيه ومِن كل من كان على خطى أبيه وما يعبدون من دون الله من الأوثان.

أجل، إنه ما كان له أن يستثني أباه من تلك الدعوة التي كلفه الله بتبليغها، لا سيّما إذا أُضيفت القرابةُ الفطرية إلى ذلك.. فلننظر إلى هذه الآيات الكريمة في تناوُلها الرائع لحالة سيدنا إبرهيم باعتباره ابنًا ونبيًّا، وكيف أنه يناشد والده ويتلهف ويتحرق أمامه مُرَدِّدًا: "يا أبت.. يا أبت".. ويدعوه إلى الحق، من دون مبالاة لما يلقاه من الفظاظة:

﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۞ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۞ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۞ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا**﴾ (سورة مَرْيَمَ: 19/41-45).

أجل، إن إبراهيم ﷺ كان يقدِّم لوالده أيضًا تلك الرسالة النورانية التي يقدمها للآخرين، وكان يقاسي في سبيل ذلك كل المحن وكأنه يتجرّع كؤوس الموت.. وهل هناك ولد لا يبذل جهودًا

خالصة في أسمَى درجات الجدية والاحترام من أجل هداية والده، وبالأخصّ إذا كان هذا الولد من أمثال سيدنا إبراهيم ؛ نبيًّا حليمًا سليمًا أوَّاهًا؟!

فرغم كل شيء لم يكن سيدنا إبراهيم يغمره ظلُّ والده، كما أنه لم يكن ليستغفر لأبيه بعدما تَبيَّن له أنه عدو لله، وبالتالي فهو في هذا الدعاء الذي دعا به في البداية بريئًا نزيهًا، ونبيًّا عظيمًا معصومًا، وكان من القدسيّين الذين ظلوا يقولون الحق وكانوا بجانب الحق دائمًا.. والقول بأنه قد يذنب ليس إلا تعبيرًا عن جهالة نكراء وضلالة عمياء.

3- نبيٌّ من أولي العزم: سيدنا موسى عليه السلام

إن القرآن الكريم يَلفت الأنظارَ بعد سيدنا إبراهيم إلى رجل عظيم آخر، إنه كليم الله موسى الذي يُقال إنه كان سريع الغضب.. وفي الحقيقة فإن تعبير "الغاضب/الغضبان" لا يجازَف به في حق نبي من أنبياء الله، ولكنه بحكم مهمته ورسالته كان متهيّجًا بفطرته، يغضب للحقّ، ويفعل كل ما يفعل بشوق وحماس عاليَين.

وإرسال سيدِنا موسى إلى بني إسرائيل لم يكن إلا من حكمة الله الذي له في كل فعل من أفعاله حكمة بالغة، لا يدرك كنهَها إلا الله، وقد كان سيدنا موسى نبي العزيمة والإصرار، إذا عزم على أمر فإنه يحث الخطى نحوه ولو أدى به إلى الموت، ولا يحيد عنه بتاتًا ولو بدا للناظر أنه لن يطيق النهوض به؛ فهو إذ ينفِّذ ما أمر الله به لا يبالي بكل ما يَعترض طريقه إلى ذلك.

ومن هذا المنطلق، كان لا بد من نبي من أولي العزم لإصلاح هذه الجماعة التي كُلِّف بإرشادها، فكان من حكمة الله أن يخضعوا للعملية التربوية طوال أربعين عامًا في صحراء التيه، لتأهيلهم وتعويدهم على معاناة المحن.. ولكن هذه المرحلة لم تكن من نوع "الأربعينيات" التي تُعَدُّ بالأيام والشهور، بل كانت "أربعينية" استغرقت أربعين عامًا.

وتذكر بعض المصادر الإسلامية وكذلك التوراة أن فرعون احتضن سيدنا موسى وهو صبي فتعلق موسى بلحيته وجذبها بغضب.. فارتاب فرعون من هذا، وهمَّ بقتله خوفًا من أن يكون هو

من يزول ملكه على يديه، إلا أن الحاضرين هناك قالوا له: إن هذا صبي لم يبلغ من العمر ما يؤهله لأن يميّز بين الأمور، وعلامته أن تقرب منه التمرة والجمرة فقُرِّبَتَا إليه فأخذ الجمرة[43].

وهذه الروايات -على ضعفها- تلائم طبيعة سيدنا موسى تمام الملائمة.. فسيدنا موسى قد نشأ في قصر فرعون، ونشأتُه هنالك لها أهمية كبيرة بالنسبة لاستعداده لأداء مهمته الكبرى.

ويتحدث القرآن الكريم عن موسى في مواضع متعددة وبمناسبات مختلفة.. ومع أنه تم تناوله في القرآن الكريم الذي نزل في غضون ثلاثة وعشرين عامًا في آيات مختلفة وضمن مواضيع متباينة وبأساليب متعددة إلا أن موسى يَظهر أمامنا بالطبيعة نفسها وبالتصرفات عينها.

ففي سورة طه التي هي من السور الطوال يَرِد ذكر سيدنا موسى بإطناب وحسبَ ما يَرِد فيها: كان الناس في مصر يتخبطون في متاهات الغفلة؛ حيث كان الأقباط وبنو إسرائيل في تخاصم دائم.. وذات مرة شاهد سيدنا موسى رجلين يقتتلان، أحدهما من بني إسرائيل والآخَر من الأقباط، فبطبيعة الحال غضِبَ موسى -وحُقَّ له ذلك- ووكز القبطيَّ، فمات، وبالفعل إنَّ ضربة واحدة من رجل قوي سريع الانفعال مثل موسى تكفي لأن يخر المضروب صريعًا على الأرض.. ولكن القرآن الكريم يترجم مشاعر موسى التي تنم عن عميق محاسبته لنفسه قائلًا: ﴿**قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: 20/26)، أي: إنني فعلت ذلك خطأً ومرتبكًا من دون دراية بما يأتي به من العواقب ﴿**فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: 21/26).

وفي مشهد آخر يجلس تحت شجرة في رحلة طويلة وبعد عناء كبير يناجي ربه بأسلوب ينم عن تأدب عميق مع الله: ﴿**رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾ (سورة القَصَصِ: 24/28).

نعم، إنه التضرُّع والابتهال بين يدي خالقه، فقد فَقَدَ الأمنَ بالجوع والعطش والخوف.. وجاء يبحث عن المأوى، فليس لديه إلا توكله على ربه.. ولذلك اتّجه إلى مولاه بتضرُّع وابتهالٍ قائلًا:

[43] ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، 212/6.

﴿**رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾، بمعنى أنه يبث شكواه وهمه لمولاه قائلًا: إنني في هذه البراري جائع ومُنهَك ومحتاجٌ إلى عظيم إحسانك.

فقائل كل هذه الكلمات هو سيدنا موسى، ذلك الرجل المتهيج القلبِ، والنبيُّ الذي يحمل أشكال الطبيعة التي تخص قومه.. فكل الكلام مطابق لمقتضى الحال مطابقةً تامة، ولنتابع مسيرة هذا النبي من خلال الآيات القرآنية ولنصعد إلى جبل الطور؛ فهناك أيضًا سنرى ما يقوله بالأداء والأسلوب نفسه: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (سورة الأَعْرَافِ: 143/7).

فهو حينما صعِد الطورَ قال: ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ**﴾، فقائل هذا القول هو نبي عظيم الشأن، وكل الأنبياء قد رضوا بما آتاهم ربهم وقنعوا به دون قيد أو شرط.. ولكنه قام بهذا الطلب باعتباره نبيًّا لبني إسرائيل الذين سبق أن طلبوا مثل ذلك قائلين: أرنا الله جهرة، ومن ثمّ كان على دراية بحالتهم الروحية، بالإضافة إلى أنه قد نوى أن يقصم ظهر المادية.. كما أنه كان يتشوق إلى ربه ﷻ.

وكما عرفناه بسجيته العالية وفطرته المتهيجة؛ حيث رأيناه يتعلق بلحية فرعون وهو لا يزال صبيًّا، ويَصرَع قبطيًّا بضربة واحدة على الأرض، فكذلك نراه على الطبيعة ذاتها حينما يتحدث بكلمات لم تصدر من أيّ نبي آخر.. نعم، إن القرآن الكريم، بأسلوبه الخاص في التصوير، يرسم لنا ملامح الشخصية نفسها.

ولنواصل متابعة سيدنا موسى من خلال الآيات القرآنية: فقد تحقق اللقاء مع الرب ﷻ، فرجع موسى من الطور، ولما أتى قومَه ورأى أنهم قد تم إغواؤهم من قِبل السامري وعبدوا العجل، ألقى ما بيده من الألواح، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وهزه هزةً عنيفة، فإذا بأخيه يقول له إزاء هذا الانفعال: ﴿**يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي**﴾ (سورة طَهَ: 94/20).

فهذه ردّة فعل من صاحب قلب طافح بالحماس، تجاه ضلالة مَن خلَّفهم وراءه.. حتى إنه بلغ به الأمر أن يأخذ برأس أخيه ولحيته ويجرَّهما إليه مع أنه نبي مثله.. فكل هذه الأمور مَظاهِرُ من عشق موسى للحقّ وتمسكه به.. فذِكرُه يرِد في معظم القرآن على هذا الوجه.

وإذا لاحظنا كل هذا فإننا نكاد نتصوّر جسامة كَتِفَي سيدنا موسى، ونُشاهد كيفية طبيعته من خلال تقاسيم وجهه، إلى جانب تضرّعه ولجوئه إلى مولاه، وبحثِه عن مرضاته، ونرى مدى شدة تمسكه بالحق فيما يراه حقًّا.

4- سيدنا يوسف عليه السلام في القرآن الكريم

يحدثنا القرآن عن سيدنا يوسف فيُبرِزه لنا شخصية مختلفة تمامًا، والنبي حينما يُعَرِّفه لنا يرسمه على أنه رجل عظيم بعلمِه وحكمتِه وصبرِه وأنّاتِه وتدبيره.. ويمكن استخراج هذه الجوانب من رؤياه التي رآها وهو لا يزال في مُقتبل العمر.

فقد رأى الكواكب والشمس والقمر ساجدين له.. ورؤيته تلك ما هي إلا إشارة بأنه سيصبح بطلًا من أبطال الحكمة؛ فالقمر والشمس والكواكب إنما هي صحائف وكُتبٌ سطرَها الحق سبحانه وتعالى، فكما أن سجودها له وإبداءَها الخضوع أمامه دلائلُ على نبوّته، فهي أيضًا أمارات على أنه سيكون صاحبَ حكمة وعلم وتدبير.. ومع تدبيره وحكمته فهو إنسانُ التسليمِ والتوكل، فمن مظاهر عميق تسليمه لأمر الله وقدره أنه لم ينبس ولو بكلمة حينما ألقاه إخوته في الجب.. ولما أخرجته القافلة المارة من الجب وأرادوا أن يذهبوا به ليبيعوه في المدينة، لم يحس بالحاجة إلى أن يتحدث عن نفسه ويُثبتَ ذاته فيقولَ: "أنا كذا وكذا"، بل حاول أن يتابع ما يدبره له المولى بحكمته.

وهو -في الوقت ذاته- إنسانٌ يتّسم بالعلمِ والحكمةِ، يفكّر بتؤدة في عاقبة الطريق الذي يسير فيه، ويحاول أن يؤوِّل الأحاديث.. ونراه على الشاكلة نفسها بعدما دخل السجن وعبَّر الرؤى لمن طلب منه ذلك.

ولم يكن يقف عند حدود تعبير الرؤيا، بل كان في الوقت نفسه يُلقنهم درسًا حقيقيًّا في التوحيد والإيمان.. والقرآن الكريم حينما يتحدّث عن هذه الأمور ينير الطريق لرجال الإرشاد ويبين الأمور والأساليب التي يجب عليهم الالتزام بها تجاه من يريدون إرشادهم.

وإني لأرى من المفيد أن أتطرّق إلى نقطةٍ بعيدة عن الموضوع، وهي أن بعض الناس يأتوننا ويوجّهون إلينا أسئلة لأغراض مختلفة، وهذه الأسئلة تحمل جوانب متعدّدة كالاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية.. وفي هذا السياق قد تكون هناك أسئلة تأتي من قِبل بعض الأطراف العلمانية واللادينية لمجرّد الجدال والمراء، وهؤلاء من حيث المبدأ لا يعترفون بالله ولكنهم مع ذلك يأتون ويوجهون الأسئلة من أمثال: هل القَدر موجود؟ كيف تؤدَّى الصلواتُ في المناطق القطبية؟ وإلى أين يَتوجه من يصلِّي على سطح القمر.. وغير ذلك من الأسئلة.

أجل، إن هذه الأسئلة تُوجَّه بغرض الجدال والمراء ليس إلا، وهؤلاء قد يظنُّ السامع أنهم سيقومون بالعبادات فورَ الجواب عن سؤالهم، ولكنهم لن يؤمنوا حتى لو أجيبوا عن كل أسئلتهم وهم مع ذلك يَظَلُّون يطرحون الأسئلة.. ولو أُفحموا في موضوع فسيقفزون إلى موضوع آخر، فإذا أُسكتوا في هذا الموضوع فسيُنتجون قضايا أخرى، وهكذا ستتواصل الأسئلة تترى.

ولنا في سيدنا يوسف درسٌ عظيم ومثال رائع في هذا الموضوع، فنحن نتعلم من صنيعه -باعتباره رجل الحكمة والعلم والمعرفة- أنه ينبغي للداعية أن يستمع جيّدًا إلى من يدعوه حتى يتعرّف على مقاصده الأساسية، كما يستمع الطبيب إلى مريضه الذي يشرح له همومه بإسهاب، ويُفْرغ له كل همومه وشكواه.

نعم، إن الطبيب الماهر يستمع أوّلًا إلى جميع شكاوى المريض، ولا يبادر بمعاينة موضع الألم لمجرد أن المريض يضع عليه إصبعه؛ فقد يضع المريض يده على رأسه الذي يعاني من الصداع، في حين أن الألم نابعٌ من التهابٍ في أسنانه.. وقد نراه يتلوّى مِن وجع يظن أنه في كليته، في حين أن هذا أيضًا ناشئ من التهابٍ أو تسوُّسٍ تَعرَّضت لهما أسنانه.. كما أنه من المحتمل أن يكون صداعُه انعكاسًا لالتهاب في الجيوب الأنفية، أو انسدادٍ في العروق.

أجل، ليس من الضروري في تشخيص المرض البدءُ من الرأس لمجرد أن به صداعًا؛ بل ينبغي البحث عن السبب الحقيقي للمرض، وجسُّ الأعضاء الأخرى في سبيل محاولة تشخيص العلة.

فنلاحظ أن سيدنا يوسف حينما أراد أن يدعو إنسانًا ملحدًا لله، تناوَله بعقلية الطبيب وحساسيته.

فعلى سبيل المثال إنه -على غرار الطبيب الحاذق- قبل أن يُعبِّر الرؤيا لمن جاءا يستفتيانه؛ رأيناه يجلس أمامهما فيلقّنهما درسًا في التوحيد، ويحاول أن يشرح لهما بالتفصيل أنه لا يمكن تفسير هذه الأمور من دون إسناد الكون وجميعِ ما فيه من الشؤون إلى الله ﷻ، وأنه قد آمن بالله، واتَّبـعَ ملة آبائه إبرهيم وإسحاق ويعقوب، ويبين لهم مدى ما يَكسبه الإنسان من السعادة والطمأنينة والسكينة عندما يوحد الله.. فقال تعالى على لسانه: ﴿**إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۞ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۞ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۞ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (سورة يُوسُفَ: 12/37-40).

وبعدما لقَّنهما درسَ التوحيد هذا، انتقل إلى تعبير الرؤيا، فقال: ﴿**أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**﴾ (سورة يُوسُفَ: 12/41).

نعم، ينبغي لنا نحن أيضًا أن نتحدث عن الله لمن يجادلنا ويمارينا، ونبيّنَ له ماهية الكتاب والنبي والنبوة، آخذين بعين الاعتبار -على الأقل- احتمال أن يكون غيرَ مؤمن بالله وبالكتاب، ومنكرًا للرسول.. ومن بعد ذلك نجيب على سؤاله أو نهتم بشؤونه الأخرى كتعبير رؤياه -مثلًا- إن وُجِدَت، وإلا فلو ظللنا نعبر الرؤى سنوات طويلة لن نحقّق شيئًا سوى "تعبير الرؤيا"، ولن نتقدّم إلى الأمام ولو خطوة واحدة.. وأما هذا النبيُّ ذو الشأن الجليل فلم يجب عمّا سئل فقط، بل تَناوَلَ كل الأمور بالحكمة أثناء تعبيره للرؤيا.

نعم، إنَّ شَرْح مسألة القدَر لِمن جاء يسأل عنها لن يكون ذا فائدة تُذكر! بل لا بد لهذا السائل أن يؤمِن بالله حتى يفهم معنى القدر فهمًا صحيحًا، لأن هذه الأمور مترابطة فيما بينها.. فلا بد لمن

يتحدث عن الله ﷻ أن يتناول ذلك في إطار البدهي من الأمور، وكأنه وصل إلى نتيجة في المختبر، أو كما يبينُ حقيقة هندسية أو يوضحُ قضية مادية، حتى

لا يدَعَ مجالًا للإنكار والشكّ.

فالإنسان إذا أراد شرح القضايا بأسلوب علمي وسهلٍ وطبيعي، يكون قد مهَّد لما بعده، فشرح الألوهيةِ أو النبوة مثلًا يحتاج إلى توطِئةٍ محكمة وأسلوب رصين حتى نجعلَ الآخرين يُصدِّقون، ومن الطبيعيّ أنه لن تكون هناك أي جدوى للخوض في الجدال والمراء الفارغ، فإننا إن خضنا في الجدالات أتحنا الفرصة لغيرنا حتى يطحنَنا، ونكونُ قد أرهقْنا أنفسنا من دون فائدة.

فعلى الإنسان أن يتصرف مثل سيدنا يوسف ؛ فهذا النبي الجليل راح يلقن بكل أحواله وأطواره دروسًا للآخرين، ويمتاز عن غيره بهذا الجانب حتى في معتقلِه.

وفي موضع آخر يلفت القرآن الكريم الأنظار إلى شمائل يوسفية أخرى؛ إلى عفته وتأنّيه ووقاره؛ فهو فتًى وسيمٌ ورائع يقيم في بيت امرأة فاتنةٍ جميلة، نازعَتْها نفسها إليه فغلَّقتْ دونه الأبواب، ويرسم القرآنُ الكريم لنا صرح العفة الشامخ هذا بقوله:

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (سورة يُوسُفَ: 23/12).

فالأبواب قد غُلِّقت.. وهناك امرأة فاتنة ازّينت، وأظهرت مفاتنها ورمت حبائلها، وسيدُنا يوسف لم ينبّأ بعدُ، ولم يقل له أحد: إنك نبي، ولكنه مع ذلك إنسانٌ عفيف، ورجلٌ حكيم، يَعلم جيدًا كيف يَصرع الزنا الإنسانَ ويكبّه على وجهه.

ومن الصعب جدًّا أن يصمُد الإنسان أمام مشهدٍ كهذا، ولا يحترقَ بلهيبِ هذه النار الرهيبة.. ولكن هذا الإنسان المرشح للنبوة صمَد صمود الراسيات وبقي شامخًا شموخ الجبالِ.

ففي مثل هذه الحالة يَكبُر سيدنا يوسف في عين الإنسان أكثر فأكثر. نعم، إننا نراه وكأنه صرحٌ للحكمة والعفّة؛ حيث نراه يواجه بطبيعته النقية الصافية هذه المراودات الصريحة بقوله: **﴿مَعَاذَ**

اللهِ﴾ (سورة يُوسُفَ: 23/12). نعم، إن هذا هو ما يتمتع به النبي من عميق الخشية من الله، والشعور بالعفّة وصون العرض.

نعم، إن كل حركة وتصرُّفٍ منه لهو تعبيرٌ آخر عن بُعد عميق من أبعاد النبوة؛ فعلى سبيل المثال إنه بتلك التصرفات الدقيقة اللطيفة التي كانت تصدر منه وهو سَجين، كان دائمًا ما ينقش أشكالًا طريفةً من الحكمة.

لقد دخل السجن بفرية رُميَ بها.. وهناك عبرَ رؤيا الملك، فاعتبره الملك تعبيرًا صائبًا وحكيمًا، فأرسل أحدَ رجاله إلى السجن وقال: **﴿ائْتُونِي بِهِ﴾** (سورة يُوسُفَ: 50/12)، ولكنَّ "صَرْح العفةِ" يوسف الصديق قال لذلك الرسول الذي أتاه ليأخذه معه: **﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾** (سورة يُوسُفَ: 50/12)، بمعنى أن سيدنا يوسف بقوله هذا قد أرسل رسالة إلى الملك مفادُها: إنني دخلت السجن ظلمًا بسبب فرية، ولا أريد أن يتكرر مثل هذا، فليُحقَّق في القضية، حتى تنجلي الحقيقة ويتميّز المجرم عن البريء بوجه كامل.

وقد استحسن نبينا الذي هو سيد الأنبياء ومفخرة الإنسانية، حَزْمَ يوسف وصبْرَه حين دعاه الملك، إذ إنّه لم يبادر على الفور، بل تمنّع طمعًا في إجراء تحقيقٍ حول القضيّة السابقة، حيث قال: **"لقد عجبتُ من يوسف وصبره وكرمه، واللهُ يغفر له، حين أتاه الرسول فقال: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾** (سورة يُوسُفَ: 50/12)، **ولو كنتُ مكانه ولبثت في السجن طول ما لبثَ لأسرعت الإجابة، وبادرتهم الباب، وما ابتغيت العذر، إن كان لحليمًا ذا أناة"**[44]، وفي نهاية التحقيق لمَّا قالت النسوة: **﴿حَاشَ لِلهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾** (سورة يُوسُفَ: 51/12)، اعترفت "زليخا" بالحقيقة فقالت: **﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾** (سورة يُوسُفَ: 51/12).

---

[44] الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، 134/16.

فمن خلال هذه القصة التي تَحدث لنا القرآن عنها بكل تفاصيلها التي قد تُعد من الأمور الفرعية، نلاحظ أن سيدنا يوسف "رجلُ التمكين والتدبير" بكل معنى الكلمة، حيث إنه لا يستعجل بتاتًا، وينتظرُ بكل أناةٍ تلك اللحظةَ التي تنبلج فيها الحقيقة بكلّ جلاء.

ونلاحظ هذا التمكين والأناة منه في مشهد آخر أيضًا: حيث إنه في تلك السنوات العجاف التي عمّ فيها القحط الشديد، عَرض عليه الملكُ أن يكون مستشارًا خاصًّا له، ولكنه قال له: ﴿**اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ (سورة يُوسُف: 55/12).

فنحن في أول وهلة قد نجد صعوبة في فهم مغزى طلبه الوظيفةَ، ولكنه على وعيٍ تام بأنه رجلُ هذه المهمة، وأنه ليس له بديل في هذا الشأن.. وبالفعل نرى تخزينه للمواد الغذائية بشكلها المناسب، وإنقاذَه البلاد من الأزْمة، ومراعاته لمبدإ المساواة أثناء تنفيذه لهذا الأمر، بل عدم محاباته حتى لإخوته -على ما نشاهده في القرآن-.. كل ذلك من الأمثلة الدالة على أهليته لهذا الأمر.

أجل، فكل هذه الأحداث تدل على مدى ما كان يتحلّى به من الأناة والعلم والحكمة والتدبير.

وقد استنتجنا كل هذه المعلومات من التعبيرات والتصويرات القرآنية التي تتسم بالتناغم والتناسق والانسجام.

فهذه هي القوة التصويرية القرآنية التي تَعرِض أمام أنظارنا شخصياتِ الأنبياء وطبائعهم الفائقة على المستوى البشري، وتُصوِّرُ لنا أولئك الأنبياءَ "رجال الحق" من دون خلط بعضها بالبعض الآخر في أروع توازن.. بحيث إن الإنسان إذا نظر إلى القرآن من هذه الجهة، فإنه لن يتمالك إلا أن يقول: إن القرآن كلام الله ولا يمكن أن يكون كلامَ بشر.

إن علم النفس الحديث يصنف الناس إلى فئات معينة ويتناولهم في إطار ذلك، فيقول: إن الفئة الفلانية هكذا.. والناس الانطوائيون يتصرفون هكذا... إلخ"، فيبدو أنه بهذه العموميات يُضيِّق واسعًا.. حتى إننا نراه في كثير من الأحيان يظل يردد الأفكار نفسها.

لكن القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرنًا من الزمن قد نفذ إلى العالم الروحي والحياة القلبية لبني الإنسان، فكأنه سَلَّط عدساتٍ مكبّرةً على انفعالاتهم ورغباتهم وغرائزهم ونياتهم، وقدَّمَها لنا

بخطوطها العريضة واضحةً جلية. أجل، إنه رَسَم لنا كلَّ شخصية وخَطَّ لنا صورتها القلمية وكأنها كونٌ مستقل وكتابٌ آخرُ؛ بمعنى أن القرآن المعجزَ البيانِ قد وضح أكثر المجالات التي عجز عنها علمُ النفس الحديثُ، فحلَّل كل صغيرة وكبيرة منها بأدقِّ تفاصيلها وعرَضَها أمام الأنظار.

ولا يمكننا أن نتناول مئات الشخصيات التي تَحدَّث عنها القرآن الكريم في هذه العجالة؛ فغاية ما نستطيع عمله هو محاولة إبراز تفرُّدِ القرآنِ الكريم في أسلوبه وبيانه وتعبيره من خلال التركيز على عدة شخصيات.

ومن الممكن أن نتحدّث في هذا السياق عن فرعون أيضًا، ولكنه قد يكون من سوء الأدب الحديثُ عن العقعق في روضة الورود.. فلذلك سنتجاوز شخصياتٍ من أمثال فرعون والنمرود.. نعم، سنتجاهل شخصيات تغاضَوا في حياتهم الدنيا عن الله وكُتبه ورسله، وسنكتفي بالتطواف في روضة الأنبياء والمؤمنين الذين عمَّروا قلوبهم بالأنوار، ولا مكان في روضة الورد هذه لمن عاش حياته حبيسَ فكرِه الأسود.

5- القرآن الكريم وسيدتنا مريم عليها السلام

تبتدِئ السورةُ التي سمّيت باسم "مريم" بالحديث عن البلايا والمصائب وبعضِ الابتلاءات التي ابتُليتْ بها سيدتنا مريم.. "فمن أمهات المواضيع التي تتناولها هذه السورة هي قصة حمل سيدتنا مريم بسيدنا عيسى بكيفيةٍ يمكن أن نعتبرها من قَبيل الأمور الخارقة للأسباب، في حين أنها كانت قد تربت في الإقليم الروحاني للمعبد، وكانت امرأةً حريصة أشد الحرص على صون عرضها وعفتها.

ومن أسباب ذكر هذه القصة في القرآن وحِكَمِها -والله أعلم- تسلية الرسولﷺ الذي كان يتعرض لشتى ألوان المصائب والبلايا، فكأن الله ﷻ يقول له: أيها الحبيب! إنك لست وحدك في هذه المصائب التي تعاني منها، فلقد ابتُلِيَ مَن قبلك بالكثير من هذه المحن والبلايا وأضرابِها فصبروا، ومنهم المصونة مريم العذراء.. وهناك الكثير من الحِكم والأسباب التي يمكن سردها في ذكر هذه القصة.

وغاية القول: إنه لا يمكن فهم حقيقة سيدنا عيسى وسيدتنا مريمعـ إلا من خلال الآيات التي تتعرض لهما.. كما أنه من خلالها يُمْكنُ دحض قضيةِ: "الأقانيم الثلاثة" التي لا تزال موجودة في النصرانية إلى أيامنا هذه.. فالنصارى مدينون من هذه الناحية للقرآن الكريم إلى حد كبير؛ حيث إن انتقال النجاشي مَلِك الحبشة من النصرانية إلى الإسلام إنما تَحقَّق في الجوِّ النوراني لهذه الآيات.

وعلى كل حال، نتجاوز الحديث عن الأسباب والحِكَم حول تناول القرآن الكريم لقصة سيدتنا مريم، لننتقل إلى تحليل الشخصية في إطار الآيات المتعلقة بتلك المرأة العظيمة:

إن سيدتنا مريم حسب الآيات القرآنية والمعلومات التاريخية كانت امرأة مباركة نذرها أبواها لخدمة المعبَدِ قبل أن تُولَد، والقرآن يَذكر أن قومها خاطبوها بقولهم:

﴿**يَا أُخْتَ هَارُونَ**﴾ (سورة مَرْيَمَ: 28/19). وليس المقصود بـ"هارون" هنا هو ذلك النبي أخو موسى، فبينهما قرون طويلة، إلا أن هارون هذا -كما هو معلوم لدى الكثيرين- كان قيِّمًا على المعبد وخادمًا فيه.. فمن هذه الناحية كان قومُها يشبِّهونها بهارون في تبتُّلها فيقولون لها: ﴿**يَا أُخْتَ هَارُونَ**﴾، وتَذكُر بعض الروايات أنها كان لها -بالفعل- أخٌ يسمّى هارون.

ومن حيث إن سيدتنا مريم كانت موهوبة للمعبد فقد قضت جُلَّ أيام طفولتها وشبابها في المعبد، فهذه المرأة العظيمة التي وَجدت نفسها -بإرادتها أو خارجَ إرادتها- في هذا المكان الذي تتنسَّم فيه نسماتٍ لاهوتية صباحَ مساءَ، قد اكتَسبت بمرور الوقت عمقًا روحانيًّا وصفاءً نفسيًّا؛ فكانت تهبّ عليها صباح مساء نسماتٌ من العالم الغيبي، فقوله تعالى: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 37/3) يعبّر عن هذه الأمور الخارقة.. وبعضُ العلماء يرى أن هذا الرزق طعامُ الصيف في موسم الشتاء، وطعام الشتاء في موسم الصيف[45].

---

[45] الراغب الأصفهاني: التفسير، 533/2.

فهذه المرأة التي أصبحت رمزًا للعفة وصونِ العرض، وقضت عمرها في هذا الجو المعنوي، وتنعمت بالنعم المادية والمعنوية التي تأتي من العالم الغيبي؛ إذا بِها تصبح حاملًا بطريقةٍ خارقة للأسباب.

ويروي القرآنُ الكريم ذلك الحديثَ الذي دار بين سيدتنا مريم وبين الملَك الذي جاء يبلِّغها الأمرَ الإلهي بالحمل.. ويُروى أن هذا الملك هو سيدنا جبريل؛ وقد نزل في هذا الحين على صورة إنسان، فحينما قابلَتْه سيدتنا مريم قَالَتْ: ﴿**إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا**﴾ (سورة مَرْيَمَ: 18/19) فرد عليها الملك قائلًا: ﴿**إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا**﴾ (سورة مَرْيَمَ: 19/19) فردت عليه مريمُ قائلةً: ﴿**أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا**﴾ (سورة مَرْيَمَ: 20/19)، وفي نهاية الأمر حملت سيدتنا مريم بمشيئة الله.. ولكن كيف كانت ستشرح هذا الأمر لقومها؟! نعم، إنها ستصبر صبرًا بالغًا أمام أمر تَعْلمُ بأنه من عند الله، ولكنه مِن شبه المستحيل عليها أن تُفهّمَه قومها.

ولنتخيل تلك الحالة الحرجة التي كانت سيدتنا مريم تعاني منها.

وانطلاقًا من هذه الحالة قررتْ مريمُ أن تتنحى إلى مكان بعيد عن قومها.. وما كان يجذبها إلى العزلة إلا عفّتها وطهارتها، ولا ندري كم من الوقت قضت في العزلة، ولا يصرح القرآن في هذا الأمر بشيء، بل ينتقل مباشرة إلى ما قبل المخاض.. ففي الوقت الذي كانت تتلوّى فيه مريم من آلام المخاض، استندت بسَوْقٍ إلهيٍ إلى جذع النخلة، وبدأتْ تَسْبَح في لجج الأفكار العميقة البعيدة تجاه ما لاقته من صنوف الابتلاءات، فإذا بلسانها يلهج بالقول: ﴿**يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا**﴾ (سورة مَرْيَمَ: 23/19).. ولكن السيدة العذراء التي لم تزل منذ بداية أمرها تنظر من منظور إيمانها العميق إلى ما يدبّره لها القَدرُ الإلهي، فلا بد أن يُحمل قولُها هذا على أنها قالته بتأثير الأحاسيس التي فارت منها تحت وطأة مشاعر العفّة وضغطاتِها.

ويَلفت أنظارَنا أمران آخران هنا:

1- الألم النفسي

2- ألمُ المخاض

ففي هذا الموقف الذي تتلوّى فيه مريم عليها السلام من آلام المخاض، ويكاد قلبُها ينفطر وأطرافها تُشَلُّ عن الحركة، وقد أنهكتها الأوجاع من جانب، هناك من جانب آخر وخزٌ في ضميرها يَطغَى ألمُه على كل هذه الأوجاع.. فهي بحاجة ماسة لدواء يقضي على آلام المخاض وفي الوقت ذاته يُطفئ لهيب تلك النار التي شبّت في ضميرها.

ولم يمضِ عليها طويل وقتٍ حتى تداركتها رحمة من ربها برسالة جاء بها المَلَك:

﴿**فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۞ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا**﴾ (سورة مَرْيَمَ: 19/24-25).

وإثر هذا البيان الإلهي الإرشادي تتخلص السيدة مريم من حالتها النفسية الصعبة، فيتحقق بذلك الهدف الأول من وراء هذا التنبيه، وهو انتشال هذه السيدة رمز العفة والعفاف من هذا الجو الخانق الذي حطّم نفسيَّتها.

حيث إن هذا التنبيه أو الصوت الإلهي قد أبعدَها عن عالمها الفكري الذي خاضت فيه، وسحَبَها إلى عوالمَ فكريةٍ أخرى.. فبعد أن فرَّت من قومها وحيدةً فريدةً إلى صحراء قاحلة إذا بها تجد نفسها أمام قدرة إلهيّة جعلتْ ما حولها بستانًا مخضرًّا محاطًا بالنخيل، فينشرح صدرُها ويرتاح فؤادُها.

وفي هاتين الآيتين الكريمتين أمرٌ يلفت الأنظار ومن الضروري البحث فيه، وهو قضية العلاقة بين الحمل، -وعلى الخصوص الفترة التي تسبق الولادة- وبين الماء والرُّطب.. ومع أن هذا الأمر لا يدخل في نطاقِ تخصُّصي إلا أنني، اعتمادًا مني على القرآن، سأتطرق إليه على وجه الاستطراد؛ حيث أعتقد أن الماء والرطب بصوتهما وجوهما وتناولهما بالأكل والشرب، يعودان بالفائدة على المرأة أثناء الولادة سواء كانت تلك الفائدة بدنية كتأثيرهما على انفتاح الرحم، أو نفسيةً؛ كتأثيرهما على رفع معنويات المريض.. وانطلاقًا من هذه الفكرة يمكن التركيز على مشاريع الطب الحديث حول "الولادة في الماء".

ويواصل الملَك في رسالته قائلًا: ﴿**فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا**﴾ (سورة مَرْيَمَ: 26/19).

فكأنه بهذه العبارات يُربّتُ على كتف امرأة تعاني من امتحانات روحية وأوجاعٍ جسدية جراء المخاض، فيهدأ عالَمُها الداخليُّ، وتملأُ السكينة والطمانينة قلبَها.. ولِعلم النفس الحديث في هذا المجال توصيات مشابهة لهذه، ولكن معظمها بعيدة كل البعد عن النفوذ إلى روح الإنسان، بل إنها تدفع الإنسان إلى جو المرض، وكلها تعكس العالَم الفكري لـ"رجال العلم"(!) الذين يُدْلون بهذه التوصيات.. وتُطرَح معظم هذه الأساليب على اعتبار أنها تُصلِح ما فَسد، إلا أنها -بدلًا من ذلك- تؤدي بالإنسان إلى أن ينفصم عن ذاته ويبتعدَ عن فطرته.. ففي حين أن الغاية منها جلب الشفاء لمرض إذا بها تَجلب معها عشراتِ الأمراض.

وأخيرًا، وُلد سيدنا عيسى، فأتت مريمُ به إلى قومها تحملُه في حضنها، فشخصت العيون مستغرِبة ونطقت الألسنة بالتهمة، فردَّ هذا الصبيُّ الذي في المهد على ما رماها به قومها من الاتهامات... ويمكن متابعة باقي القصة من سورة مريم؛ حيث إننا نريد أن نرجع إلى ما نحن بصدده، ونستخرجَ قواعد عامة في هذا الإطار.

وما يهمّنا في هذه القصة هو أن نستنبط من القرآن كيفيّةَ تحليله لأحاسيسِ المرأة، وبيان حالتِها النفسية، ومشاعرِها وعواطفها، وموقعها في المجتمع.

فيُلاحَظ أن القرآن يحلّق في الآفاق اللدنّية التي لم يصل إليها بعدُ علمُ النفس الحديث، ونرى أن رايته ترفرف خفَّاقة في أعلى الذرَى.. فإذا نظرنا إلى القرآن من هذه الناحية، فسنرى أن التحليلات التي قدَّمها قبل قرون لهي مبهرة للعقول وفي غاية العمق.. ومن المعلوم أن تحليل مختلفِ الحالات النفسية مهمة جدًّا من ناحية علم النفس وعلمِ النفس الاجتماعي.

أجل، إننا نجد أن القرآن يتناول في أماكن عديدة ما يَعتري الإنسانَ بشكل عام من الانفعالات والتأثّرات، وما يصاحب ذلك من التغيرات والتحوّلات المادية والمعنوية، حيث نراه يتحدّث عن طبائع الشخصيات غير العادية، وأصحابِ الذكاء المفرِط، وأصحاب العقول الكبيرة من الدهاة

والعباقرة، والذين كلّلوا حياتهم بالانتصارات، ويُشار إليهم بالبنان في النصر والغلبة، والذين أصبحوا أقطابًا في الطاعة والعبادة، وأصحابِ الذوق الذين يُشاهِدون لوحات من عالم المثال وهم في عالم الشهادة.. إلى غير ذلك من الشخصيات الكثيرة يحللها القرآن الكريم.

والآن، كيف يمكن أن يفسَّر ما لدى البعض من العزوف والاستغناء عن مثل هذا المَعين العميق الذي لا ينضب؟ فمن الواضح الجلي أنه ينبغي لعلماء النفس والاجتماع المسلِمين أن يبذلوا جهودًا كبيرة؛ فما سيقومون به من الدراسات في ضوء الأهداف والمقاصد القرآنية العامة، سيوجِّه إنسانَ اليومِ -الذي ابتَعد أو أُبْعِد عن ذاتيته وروحه- مرةً أخرى نحو القرآن وسيحلق به في آفاقه.

هـ. التحليل النفسي والتصويري للمجتمعات في القرآن الكريم

إن الناظر في القرآن الكريم نظرة متأنّية سيرى أنه يحلّل المجتمعات في إطار مبادئ معينة.. وفي نتيجة تلك التحليلات تتبلور طبيعة تلك المجتمعات وتبدو للعيان واضحة جليّة.

إنه في هذه التحليلات لا يصرح بالأسماء بل يستخدم أسلوبًا من نمط فريد يجعل تلك المجتمعات تنجلي وتتراءى ملامحُها للعين من فورها.. نعم، إنها تتجلى للعيان وتتراءى بحيث لا تدَع حاجة إلى أن يكون الإنسان عالِمًا نفسيًّا أو اجتماعيًّا حتى يستطيع فهمَها وإدراكها؛ لأن جميع اللوحات التي يرسمها القرآن لهي من وضوح التعبير بحيث لا تدَع مجالًا لما يناقضها.

ولذلك كان الناس في عصر السعادة (العهد النبوي) سواء كانوا من اليهود أو النصارى أو المشركين أو المسلمين ترتعد فرائصهم خوفًا من أن يفتضح أمرهم وما يدور بدواخلهم.. ومِن بين هؤلاء كان المسلمون -بالأخص- يشعرون دائمًا بالحاجة إلى أن يُلملموا شملَ قلوبهم وشتاتَ وجدانهم وضمائرهم تجاه الوحي السماوي؛ حيث كان قائلهم يقول: كنا على عهد رسول الله ﷺ، نخاف من أن يدور على قلوبنا شيء، مع العلم بأنه لا يصرح بالأسماء، ولكننا كنا نبحث عن مهرب جراء ما كانت أنظارنا تُلفَت إلى عِظَم الذنب الذي نقترفه وما يترتب على ذلك من العقاب الأخروي.. فهذا القول تعبير صريح عن مشاعرهم تجاه هذه الأمور.

حتى إنه يمكن أن يقال في هذا الصدد: مع أن ارتحال سلطان الأنبياﷺ إلى أفق روحه قد أدْمى فؤادهم، إلا أنه أصبح وسيلة إلى التسري عنهم نوعًا ما، لأن نزول آية في مثل هذه المواضيع على هؤلاء الذين هم رجال الأدب والوقار والجدية كان يؤثر فيهم كأنها صدمات تكاد تتفطر منها أكبادهم.

وأكثر النقاط التي تلفت الأنظار في مثل هذه الآيات هي أن القرآن لا يذكر الأشخاص والمجتمعات بألقابهم وأسمائهم بل يتناولهم بأوصافهم.. بمعنى أن المشهد الذي كان يُعرَض على الشاشة لم يكن مشهد الكفار بأشخاصهم بل الذي كان يُعرض هو وصف الكفر ليس إلا، وكذلك لم يكن المعروض هو المنافق بل النفاق، وليس الفاسق والضالّ بل الفسق والضلال ذاتهما.

والمأمول من رجال العلم المهتمّين بقضايا الأفراد والمجتمعات أن يستنبطوا من خاصية القرآن هذه دروسًا وعِبَرًا عظيمة.

ففي هذا الإطار يتميز القرآن بأنه يستعمل في تحليل الأفراد والمجتمعات أسلوب "التعميم"؛ بحيث إنه يمكن -دائمًا- مشاهدةُ السمات العامة للمشركين واليهود والنصارى والمجوس والصابئين والمسلمين وغيرهم في سطور القرآن أو في ثنايا سطوره.. وهذا مبدأ في غاية الأهمية بالنسبة لنا، وعلى منواله نستطيع أن نؤسّس علاقاتنا مع الآخرين سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات.. فهذه الأمور الآنفةُ الذكرِ من الأهمية بحيث إنها تُعلِّمنا كيفيةَ إصلاح الأعطال، وماذا نقدم للآخرين، وكيف نقدّم ما نقدمه.

ويمكن أن نورد أهم المميزات البارزة التي تَلفت الأنظارَ في تحليل القرآن للأفراد والجماعات كما يلي:

1- مراعاة المصالح الفردية والاجتماعية.

2- جُرِّدت التحليلاتُ من الأشخاص، ولم يُنظَر إلى الأفراد بأسمائهم بل بخصائصهم وصفاتهم.

وبهذه الطريقة تم تسجيل قُبحِ تلكَ الأوصاف مع التمويه -نوعًا ما- على الأفراد بين ذويهم، وعلى المجتمع ضمن محيطه من المجتمعات الأخرى.. وهكذا يكون القرآنُ قد دلَّ الفردَ والجماعةَ إلى الطريق المؤدي بهم إلى المثاليّة، دونما أن يُشعرهم بشيءٍ من الضيق والحرج.

3- مراعاة آداب المعاشرة المشروعة وقواعدُها وأصولها التي تَلقَّاها المجتمع بالقبول.

4- استخدام الأساليب البَنَّاءة بدلًا عن النقد الهدَّام.

5- مراعاة مبدإ الإيجاز بأقصى قدْر ممكن، والتعبير عن القضايا بأساليب موجَزة مختصرة للغاية.

1- بنو إسرائيل في القرآن الكريم

سبق لنا أنْ ذَكرْنا أن القرآن يُحلل شخصياتِ الأفراد والمجتمعات من جهات مختلفة، وذَكرْنا أبرزَ ما في هذه التحليلات من النقاط، والأمورَ التي روعيت في ذلك.. فلنحاول تفصيل ذلك أكثر من خلال عرضِ بعضِ لوحاتٍ يتناول فيها القرآنُ أهل الكتاب بشيء من التحليل:

لعل بني إسرائيل من أكثر الأقوام الذين حلَّلهم القرآن الكريم، فإذا نظرنا مثلًا إلى سورة البقرة فقط فإننا سنجد فيها مادة وفيرة تتعلق بهذا الموضوع.. فيا تُرى، لماذا ركز القرآن إلى هذا الحد على هؤلاء القوم؟! وإذا كان كلام الله يخلو من كل ألوان الإسراف، فما الحكمة أو الغاية من كل هذا الإسهاب؟

بادئ ذي بدء نقول: إنه ليس هناك أيُّ فرق -لا من حيث العقلية ولا من حيث الطبيعة- بين تلك الجموع التي تَحدَّث عنها القرآن الكريم وبين الحشود المتغطرسة غير المتسامحة في عصرنا؛ فلذلك إذا نظرنا نظرة ثاقبة إلى القرآن فسنرى فيه -بكل سهولة- صُوَرَ متغلّبي ومتغطرسي عصرنا، وإذا تفحّصْنا هؤلاء المتغلّبين والمتغطرسين في عصرنا فسنشاهد فيهم أولئك المتعصبين الذين يتحدث عنهم القرآن، فما ذكره القرآن من الأحكام قبل أربعة عشر قرنًا لا يزال معتبَرًا ينطبق على أمثالهم.

نعم، إن المفاسد الاجتماعية والإدارية والسياسية والعسكرية والثقافية بل والدينية التي جرت طوال التاريخ الإنساني تستند في أساسها إلى بعض الأفكار المتعصبة والعقليات المتعنّتة؛ فالرأسمالية جَعلت العالم بأسره سُوقًا لصالح الإمبريالية، والشيوعيةُ صارت وسيلة إلى تفشي الفوضوية على وجه الأرض، والعنصريةُ جَعلت الشعوب معادية لبعضها البعض، والنوازع والشهوات أصبحت ألهة تُعْبَد.. كل ذلك نتائج لتلك الفكرة المتفلتة والمنطقِ المتحرر عن كل القيود.. فالكثيرون ممن ظهروا واكتسبوا الشهرة في العصور الأخيرة -بالأخص- من أمثال "دوركايم (*Durkheim*)" و"فرويد (*Freud*)" و"ماركس (*Marx*)" و"سارتر (*Sartre*)" و"إنجلز (*Engels*)" وغيرهم ممن سارت بذكرهم الركبانُ في مجال تخصُّصاتهم، هؤلاء كلهم من أبناء هذا الفكر المتفلّت الذي لا يَعرف أيَّ ضوابط وقواعد.

فالكثير من الأنظمة التي أنتجها هؤلاء -وعلى رأسها الرأسمالية والشيوعية والفاشية والنازية- قد ظلّت في فترات مختلفة تُفْسِدُ الموازين الاجتماعية، وتَجرّ المِلَلَ نحو الانقراض في بنيتها الداخلية، وتحوّلهم في نظرة الشعوب الأخرى إلى أعداء.. وفي نهاية المطاف حوّلت الدنيا إلى بحر من الدماء.. وها هي النتيجة: الحرب العالمية الأولى والثانية باعتبارهما أبرزَ مثالٍ وأوضح دليلٍ على ما نقول.

فمن هذه الناحية نرى أن القرآن الكريم ينبّه سائرَ الناس مرارًا وتكرارًا ويدعوهم إلى أخذ الحيطة والحذر تجاه بعض الجماعات والأشخاص الذين يحاولون إغفال الإنسانية، ويُذْكُون نيران الفتنة، ويستبيحون كل شيء في سبيل مصالحهم المادية.

ولا يذهبْ هذا ببعض الناس إلى القول بأن الله تعالى يُسهب بالكلام في حق بعض الفوضويين ويَلفت إليهم الأنظار ويروِّج لهم.

إن الله ﷻ قد أرسل إلى هؤلاء العديدَ من المرشدين والمصلحين -وعلى رأسهم أولو العزم من الرسل- حتى يدعُوهم إلى الصراط المستقيم، ولكنهم لم يُعِيروا انتباههم لتعاليم الأنبياء الذين أُرسِلوا إليهم، حتى إن منهم من قَتلوا بعض الأنبياء وأذاقوا بعضهم صنوف التعذيب التي تنوء عن

حملها الجبال، فما يفعله القرآنُ هو تنبيه الناس وتحذيرهم تجاه هؤلاء الأشرار الذين لم يتَّبعوا الصراط المستقيم رغم كل ذلك.

وما نراه -في الواقع- مما يجري من الأحداث في الساحة السياسية والإدارية والعسكرية والاقتصادية يصدِّق القرآنَ ويدل دلالة واضحة على مدى مصداقية هذه التنبيهات والتحذيرات التي كررها.

فأمثال هؤلاء الناس الذين لم يزالوا منذ أزمان بعيدة يتناولون كل شيء في إطار منافعهم ومصالحهم الشخصية، قد أَرجَعوا كل شيء إلى المادة، وبحثوا عن كل شيء في المادة.. وهؤلاء -الذين انحصرت عقولهم في عيونهم- على درجة من العمى جعلتهم لا يرون شيئًا سوى المادة.. وهم بخصوصيّتهم هذه صاروا ممثّلين للاستغلال في كل أنحاء العالم.

فهؤلاء قد بالغوا في تبنِّي الفكر الماديّ إلى مدى بعيد، وانسجموا مع العقلية المادية، بل إنهم حاولوا فهم الأمور المعنوية أو تفسيرها بالمادة، ومن بين هذه الأمور المعنوية ذاتُ الباري؛ فالقرآن الكريم والكتبُ السماوية الأخرى تَذكُر أن صاحب هذه العقلية كان ينتصب أمام نبيّه بأداءٍ وَقِح فيقولُ: ﴿**لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً**﴾ (سورة البَقَرَة: 55/2).. فهذا الادعاء والطلب من السمات المميزة لهؤلاء.

وهذه العقلية هي التي تشكِّل الفكرة الأساسية للمدارس الفكرية والإدارية من أمثال الفلسفة المادية والرأسمالية واللادينية والوضعية.. وفي هذا الإطار، نجد أنه لا فرق بين هذه المقولة التي قيلت لنبي من الأنبياء، وبين ما قاله "جاجارين (*Gagarin*)"

الذي صعد القمر في القرن العشرين؛ حيث كان يقول: "إنني صعدت إلى السماء أبحث عن الإله فلم أجده" حاشا وكلا! فهذا هو ممثل العقليةِ المادية، صاحبُ الروح المنحطّة الذي "انحدر عقلُه إلى عينِه"، وهو كذلك الوقح الذي لا يعرف اللهَ ورسولَه والذي يقول: ﴿**أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً**﴾ (سورة النِّسَاءِ: 153/4).

ومن الممكن أن نرى تأثير هذه العقلية في تركيا اليوم، وكم يحزّ في النفس أننا نُحِسُّ بتأثير هذه العقلية وثقلِها الكامل -حتى- في بعض الأمكنة التي هي دُورٌ للعلم والمعرفة.

نعم، ما أشبه الليلة بالبارحة! حيث إن هناك عددًا غير قليل من الأساتذة والطلاب الذين يقولون: إننا لا نرى الله! ولذلك لا نؤمن به.

وحتى نستوعب جيدًا تحليلات القرآن لهذه المسألة، وفضحه لنواياهم وأفكارهم وتصوراتهم، وتشريحهُ لها شريحة شريحة، وللاطلاع اطّلاعًا تامًّا على ما تنطوي عليه نفوسهم وقلوبهم من الفساد والمرض والأدران.. لا بدَّ من العيش بين ظهرانيهم، بل أن نكون مثلهم.. فلذلك لا أظن أنه من الممكن الاطلاع التام على كنه معنى الآيات المتعلقة بهم من دون أن يكون الإنسان مثلهم أو واحدًا منهم.

وبعد هذه المقدمة التمهيديّة نقول: إن هناك حاجة للتنبيه إلى بعض الوقائع التي جرت بين الأنبياء السابقين وبين أقوامهم الذين أُرسِلوا إليهم، حتى يمكن التوصّل من خلال ذلك إلى تحليلاتٍ وتقويمات أخرى حول طبيعةِ هؤلاء بدرجةِ علمٍ قد تصل إلى علم اليقين.

فمن المعلوم أن بني إسرائيل ظلوا يَرزحون زمنًا طويلًا تحت ظلم فرعون؛ فكان هذا الظالم يستخدم جموع الناس في أشق ألوان الأعمال، وكثيرًا ما كان يَقتل رجالهم ويَستبقي نساءهم في ذلّة ومهانة، لكن الله ﷻ نجَّاهم بواسطة أنبيائه من هذا الظلم والمذلة والهوان، فأخرجهم إلى بيئة يرتاحون فيها، ووسطٍ يعيشون فيه بِحُرية، حتى إنهم عندما عوقبوا في تيه الصحراء كانت تأتيهم موائدُهم بالمنِّ والسلوى اللَّذَيْنِ كانت تَعجز أيدي أكثرِ الأمم تحضُّرًا وثروةً عن الوصول إليهما.

فكانت هذه وأمثالها من النعم التي باتت تنصبُّ من عالَم الغيب إلى آفاق أنبيائهم جُزْءًا طبيعيًّا من حياتهم اليومية.. فهم من هذه الناحية كانوا في بُلَهْنِيَةٍ من العيش المليء بالسكينة والسعادة، إلا أنهم -وخاصة المنحطون منهم الذين تأصلتْ في نفوسهم العبوديةُ والخضوع لأوامر الغير- لم يدركوا قيمة ما هم فيه من الحرية، فتمردوا على الأنبياء وبالتالي على الله، وأصبحوا يحِنُّون إلى أيامهم التي عاشوها تحت ظلم فرعون، ويطلبون من أنبيائهم الخضار والبصل والثوم والخيار

والعدس وغير ذلك مستبدلين الذي هو أدنى بالذي هو خير... ومن المحتمل أنهم لم يكونوا يعرفون غير هذه المواد الغذائية.

وما حصل منهم إنما كان انعكاسًا لما قد تأصَّل في نفوسهم من العبودية وكفرانِ النعمة؛ لذلك استبدلوا المن والسلوى بما تعودوا عليه في الماضي من الخضار والبصل والثوم وغير ذلك. فالقرآن الكريم في سياق الحديث عن الأمور التي تنمّ عما تنطوي عليه نفوس هذه الجماعة من الكفران يقول: ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا**﴾ (سورة البَقَرة: 61/2).

فمِن باب تحليل الطبائع من خلال هذه الواقعة التاريخية نستطيع القول:

إن الإنسان قد يعتاد خوارق العادات ويألفُها إذا عاش في جوٍّ قاتل للألفة والأُنْس، فلا يعجبه أي شيء، فتَفقد الخوارقُ سرَّها ومميزاتها عنده، فيتطلع إلى المزيد من النعم مهما كانت.. حتى إنه في كثير من الأحيان قد لا يتساءل هل هذا التطلع صحيحٌ أو خاطئ؟! فكما في المثال الآنف الذكر: إن بعض الناس على الرغم من أنهم نَجَوا من ظلم فرعون وأصبحوا يتمتعون بالراحة ورغد العيش، نراهم لم يأخذوا هذه الحال بنظر الاعتبار بل أخذوا يطلبون -تعنُّتًا وعنادًا- ما كانوا يتناولونه من الطعام والشراب في سالف الأيام.. وما هذا إلا كفران بكل معنى الكلمة، ولكن -كما سبق أن أشرنا إليه- قد لا يُدرِك الإنسانُ في مثل هذه الحالات مدى فداحة ما يرتكبه من الأخطاء.. فمع أنه لم يكن لموسى﷤ أيُّ دخل في وقوعهم في هذه الحال وإرغامِهم على الاستمرار في صحراء التيه على مدى هذه السنوات الطوال، إلا أن بعضًا من أولئك الذين لم يكونوا يعرفون آداب التعامل مع النبي، كانوا قد اتخذوا موقفًا سلبيًّا من سيدنا موسى﷤ وكأنه هو المتسبب في ذلك.. وإلا فكيف يمكن تفسير سبب قولهم: ﴿**ادْعُ لَنَا رَبَّكَ**﴾.. الآية.

أجل، إنهم ما كان لهم أن يتصرّفوا تجاه سيدنا موسى الذي تَسبب في جلب هذا الكم الهائل من النعم إليهم لو لم يعتقدوا في بواطن نفوسهم أنه سبب من أسباب تيهِهِم.

والحقيقة أن الذين خاطبوا سيدَنا موسى بمثل هذه التعبيرات الفظّة كانوا -حسب بيان القرآن- بفطرتهم من الجاحدين الناكرين للجميل.. ولقد جاء أناس على غرار هؤلاء الجاحدين للنعمة إلى النبي يطلبون من أموال الصدقة، فقالوا له: "أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطِنا من الصدقة".

فالقرآن الكريم في سياق الكشف عن شخصية هؤلاء الذين كانوا يمنون على النبي يقول: ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (سورة الْحُجُرَاتِ: 17/49)، فهذا يدل على أن مثل هؤلاء الناس ليسوا منحصرين في قوم سيدنا موسى.

ويمكن أن نستخرج من كلام هؤلاء الذين كانوا يطلبون من سيدنا موسى الثوم والبصل ونحوها حكمًا عموميًّا كما يلي:

إن كل إنسان بشكل عام يألف الظروف المعيشيّة التي يعيش فيها ويستأنس بها بعد مدة، ولكنه يبدأ من بعد ذلك بالبحث عن أمور جديدة ويجري وراءها؛ فمثلًا إن الإنسان الذي يخوض حياة المدن الرتيبةَ التي تجري على نسق واحد، يتمنى أن تكون له بساتين وحدائق وحقول يحرثها ويزرعها ويحصدها ويسقيها ويرعاها.. فإذا حصل على هذه الإمكانات، إذا به يطلب بعد مدة أشياءَ أخرى، وهكذا تتوالى طلباته إلى ما لا نهاية، فهذه المشاعر هي انعكاس لما جُبل عليه الإنسان من المَلَلِ تجاه الأمور الرتيبة.

ولنرجع إلى ما نحن بصدده، فنقولُ:

إن سيدنا موسى قد ردَّ على هؤلاء الذين توجهوا إليه بمثل هذه المطالب قائلًا:

﴿**أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ**﴾ (سورة البَقَرَةِ: 61/2)،

إلا أن عقوبة الله لهم على ذلك كانت أشدَّ؛ حيث تُواصِل الآيةُ قائلةً: ﴿**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ**﴾ (سورة البَقَرَةِ: 61/2).

نعم، إن القرآن الكريم يَلفت الأنظارَ إلى هذا الحدث ويلقي الأضواء عليه، وعند إشارته إلى الطرق المؤدية إلى الإنسانية الحقيقية يتطرَّق بين فينة وأخرى بطريق مباشر أو غير مباشر إلى

الأوصاف التي لا بد للإنسان أن يتّسم بها حتى يكون إنسانًا حقًّا، فالمهم في هذا الأمر هو أن يَقْدِرَ الإنسان على النظر إلى القرآن من هذه الناحية، ويستخرجَ منه الدروس والعبر اللازمة، وأهمُّ من ذلك أن يستطيع نقله إلى واقع الحياة العملية.

2- المترفون في القرآن الكريم

إن المشاعر والانفعالات التي تجيش وتفيض في فطرة الإنسان، لا تزال تتنقل من مَسيل إلى آخرَ، في تناسُب مع سَيْر حياته؛ فما يلاقيه الإنسان في واقع حياته العمليةِ من الشدائد، والمسرّات والأفراح، والمصائب والمحن له تأثيرات عميقة في مشاعره، والحياةُ التي تنقضي في راحة ورغد تورِث الإنسانَ -بطبيعة الحال- بعضَ المشاعر الخاصة التي قد تتسبّب أحيانًا في الكبر والغرور، فتُسقطه إلى مهاوي الردَى.

إن الإنسان عندما تغمره النعم ويَقضي عيشه في اللذائذ، يطلب المزيد ويبحث عن الجديد؛ لذلك تراه يَشد الرحال ويخوض الأسفار بحثًا عن الملذّات والأذواق. أجل، إنَّ سفر الإنسان عبر السفن العابرة للقارات، وركوبَه البر والبحر والجوّ متّجهًا لبلاد بعيدة، ومشاهدتَه لخيرات الدنيا ومحاسنها المادية، قد تُكسِب روحَه وعواطفه الكثير الكثير من الأذواق والملذات.. فإذا كان هذا الإنسان يمتلك من سعة أفق التفكر ما يستطيع به أن يحلِّل ويركِّبَ ما يشاهده من المحاسن والجمال، فسيكون لهذه السياحة لذّة لا تعلوها لذة، فالمحاسن التي يشاهدها الإنسان في معرِض الكون، وما تثيره هذه المشاهد فيه من الانطباعات، تصبح أذواقًا فتنصبُّ في أفق التفكر الإنساني.. فمثلُ هذا التفكر الذي يرتبط بالتوحيد الخالص يفتح ممرات التفكر بين الصنعة والصانع، فكما يُلاحَظ، إن لمثل هذه الرحلات فوائدَ لا تُحصى على حياة الإنسان المادية والمعنوية، ويحتاج جسم الإنسان وعالَمُه الداخلي بين فينة وأخرى إلى هذا النوع من الأسفار.

ولكن هناك مِن بين من يخرجون إلى مثل هذه الرحلات مَن لا يتكلّفون عناء التحليق في آفاق التفكر، ولا يلاحظون العلاقة بين الأشياء وخالقها، وبالتالي لا يبحثون إلا عن الأذواق الدنيوية والبدنية.. فهؤلاء يختارون في رحلاتهم أرقى وسائل السفر، وإذا كانت هناك سيارةٌ حديثةُ الصنعِ

لا يلتفتون إلى قديمها.. فهؤلاء الذين نستطيع أن نسميهم "رجال البدن" ينفقون باهظ الأثمان في سبيل الحصول على أعلى درجات اللذة، ويحاولون تسخير كلِّ إمكاناتهم من أجل التمتّع بالحياة.

ولا شك أن كل لذة في هذا العالم تنتهي بألم، وأنّ كلَّ عمل يُقصد منه اللذة والذوق فقط؛ فإنه في نهاية الأمر كثيرًا ما يجلب الألم، وهناك طريق وحيد للتخلّص من هذا الأمر، وهو أن يبذل الإنسان غايةَ الجهد في سبيل التحليق في آفاق التفكر، ليصل إلى الصانع عبر المصنوع، ويضيفَ إلى جانب الملذات البدنية قيمةً إضافية إلى عالَمنا الفكري والروحي -وبالتالي- إلى عالمنا الأخروي، فإذا أضفنا إلى هذا أساسين من أسس الإسلام: الصبر والشكر، فإن الأمر يتحوّل بالكلية إلى مصدرٍ للربح؛ بمعنى أننا إذا قابلْنا الملذّات التي نعيشها بالشكر، وتَحلَّيْنا بالصبر إزاء ما نعانيه من البلايا والمصائب، فإننا سنفوز بالدارين، وستأتينا مُتَع الدنيا راغمة.

وفي هذا المقام أشعرُ بالحاجة إلى الحديث عن أمرٍ آخر، حتى أرسمَ لوحة فكريّة وتصوّرية تساعد على الدخول إلى أعماقنا، فلنتصورْ أن لكم أرضًا زراعية في غاية الإنتاجية؛ وقد زرعتم فيها القطن وأشجار العنب، فحلَّت البركةُ فيها وأخذت تنمو وتزيد.. ولكم في هذه الأثناء أحلامٌ وآمالٌ مستقبليّة تعقدونها.. فمثلًا: ما زلتم تحلُمون باستثماراتٍ ستحقّقونها من وراء الأرباح التي ستجنونها من محاصيل هذه الأراضي.

فمن أجل ذلك أخذتم تتجوّلون بين هذه الأراضي بجولات مكوكية؛ أحيانًا بِنفسيةِ "رجال الشوق والطرب"، وأحيانًا أخرى بحالة من الغرور.. وقد يؤدّي بكم هذا الأمر إلى أن حالتكم الروحية تُخيِّل لمن ينظر إليكم وكأنكم أنتم الذين أمررتم من خلال عيدان أشجار الكرْم اليابسة ذلك الشرابَ الحلوَ، وكأنكم أنتم الذين أسستم تلك العلاقة بين الإشعاعات الشمسية وبين الغازات التي تُصْدرها تلك العِيدانُ، وأنتم الذين حققتم هذا التركيب السُّكَّريَّ.. في حين أنه لم يتحقق شيء من هذا بالأعمال التي عملتموها في هذه الأراضي.. بل إن الله ﷻ هو الذي أَعطَى كلَّ هذا بفضله وإحسانه، وليست أعمالُكم إلا عبارةً عن معالجات صحيحة أو خاطئة تَعملونها في تلك الحقول والكروم التي تَفَضَّلَ الله بها عليكم.

فلو بدت لكم سُحُبٌ محمَّلة بالأمطار وبروقٌ لامعة ورعودٌ مُدَوّية مبشّرةً بالغيث، فإنكم في هذه الحالة التي تغمركم فيها مشاعر الفرح بخير المطر سترتجف أفئدتكم خوفًا من كارثةٍ محتمَلَةٍ يحملها هذا الجوّ المخيف، وسيُثير كلُّ برقٍ لامعٍ في جوّ السماء آلافًا من العواصف والأعاصير في قلوبكم.. فهذا الوضع سيزعجكم كلّيًّا وسيؤرّقكم ويقضُّ مضجعكم، وفي نهاية الأمر تقلّبون النظر مرةً إلى السماء وجوِّها ومرة أخرى إلى مزارعكم وكرومكم، وتبدؤون بالتفكير: كيف أنَّ حَبَّاتِ البَرَد الشديدةِ النزولِ، ستقلب أحلامَكم رأسًا على عقب؛ حيث إنه قد تتدمر المزارع كلّيًّا أو جزئيًّا بسبب المطر الشديد أو البرد القارس ومن المحتمل أنْ تحدُث في هذه الأثناء تقلُّباتٌ في الأسواق، وتنشطَ السوق السوداء، ويَعقُبَ ذلك تعاطي الرشوة، ويتفشّى الفساد، وتزدادَ العلاقاتُ غير المشروعة، وقد يصل الأمر إلى أبعد من ذلك، فقد سرى هذه التقلبات التي تحدُث في المجال التجاري إلى كل المجالات السياسية والإدارية والأخلاقية على حسب طول هذه الفترة أو قِصرها، وقد تمتد تأثيراتها أعوامًا طوالًا، بل قد ينجرف المجتمع إلى حافة الانهيار.

ولنتابعْ مع القرآن الكريم ما حاولنا إيضاحه هنا من عملية تطبيق التحليل النفسي للمشاعر التي أَبطَرَها الترفُ والراحة والرخاء؛ فالآية في سورة يونس تَرسم اللوحةَ المتعلقة بهذا الموضوع كما يلي:

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (سورة يُونُس: 22/10).

ولنلقِ الضوء على النقاط المتعلقة بما نحن فيه، ونركّزْ على المعاني اللازمة بشيء من التفصيل:

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي إنه هو وحده الذي يتيح لكم المجال حتى تسافروا بوسائط التنقل في البر والبحر والجو من أمثال الحافلات والسفن والطائرات وغيرها.

﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ أي تخيلوا أنكم تسافرون عن طريق البحر، والبحرُ هادئ، وهناك ريح طيبة وأنتم فرحون بهذا الوضع، وبالأحرى إنكم في حالة نفسية وكأنكم أنتم الذين وضعتم قانون

"طاقة الطفو للماء"، وقانون السباحة، وقد بلغتْ بكم الغفلة آفاقًا أوهمتكم بأنكم أنتم الذين خلقتم كل أنواع هذا الجمال الرائع الذي تشاهدونه في نشوة، وكأنكم ستخَلَّدون في هذه الملذات المتعددة المتنوعة.. والحال أن هذه الحالة، شأنُها كشأن سائر الحالات الدنيوية، نوع من الابتلاء والامتحان.. وبالفعل سترون أن الابتلاء يقرع الأبواب:

﴿**جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ**﴾ أي إذا بعاصفة هوجاءَ تجتاح كل شيء وتُبعثِرُه، وأمواجٍ هائجة هائلة تهجم من كل الأطراف وتحيط بالسفينة.. ففي ذلك الحين تنقلب الأمور رأسًا على عقب ويتحوّل الفرح إلى ترح، ويَترك الضحكُ مكانَه للبكاء، ويخضع الجميعُ لحالة من الهلع والارتباك، ويصبحون حائرين لا يدرون ماذا يفعلون!

﴿**وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ وأخيرًا بعد لَأْيٍ، أصبحوا يظنون أنهم قد حوصِروا من كل الأطراف..

ففي مثل هذه الحالة التي تسقط فيها كل الوسائل الدنيوية والأسباب المادية، لا يبقى هناك من شيء سوى التوسّل بالله الذي هو مسبِّب الأسباب وخالقُها.. وهذا من مقتضيات الطبيعة الإنسانية أيضًا.. فهم كذلك يفعلون، ولكن تَوجّهَهم هذا يشوبه شيءٌ من النقصان؛ حيث إنهم يقولون:

﴿**لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾، أي إنهم حتى في هذه الحالة الحرجة يسيئون الأدب مع الله، فيشترطون عليه شروطًا... إلا أنهم حينما ينجون من هذه النائبة، يتناسَون هذا الشرط.

فهيهات هيهات! إنهم ليسوا بمخلصين في مشاعرهم ولا صادقين في كلامهم؛ إذ لو كانوا صادقين في الحقيقة لما كانوا على ما هم عليه قبل حلول المصيبة، وبالتالي فإن دعاءهم هذا أيضًا ليس صوتًا نابعًا من أعماقهم بل صوتٌ جاء مما حاق بهم من الهلاك.

فهذه الآيةُ رغم مرور قرون على نزولِها تخاطِب أهل عصرِنا الذين أَبطرَتْهم الراحةُ والرخاء، فتُحلِّل ما هم فيه من الحالة النفسية، وتُجَلِّي بوضوحٍ أنَّ ما يقولونه في الحالات الحرجة ليس إلا تمتماتٍ غير مخلصة وغير صادقة، وتُحذّرهم في ثنايا السطور وترشدهم بأسلوب في غاية الوضوح.

وعلى هذا الخطّ نفسِه، يدلّنا القرآنُ الكريم في آية أخرى على الوجه الحقيقي للدنيا، فيؤكّد أن ما يَحصل عليه الإنسانُ أو يَفقده من الأمور الدنيوية بالغفلة والحرص والطمع وغير ذلك ليس من الأمور المهمة، بل إن المهم هو التوجّه إلى الحياة الأبدية.

فهاك خلاصة لما يحتوي عليه هذا الرسم:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(سورة يُونُس: 24/10).

إن فقدان الإنسان فجأةً لِما يتمتع به من الشباب والثروة والمنصب والأُبَّهة وأمثالِ ذلك إنما يُشْبِه حال الإنسان حينما يأتي مطر شديد في وقت الحصاد فيَذهب بكل ما زَرَعَه، أو يفاجئُه مرض فيَصْدِمه وهو في قمة ملذاته البدنية والجسمانية.. فهذه الأمور كلها ألوان من التنبيهات الإلهية.. والحقيقةُ هي أن هذه الأمور تُهَيِّئ الإنسانَ للآخرة، وتُطْلعه على الوجه الحقيقي لما تَؤُولُ إليه الأشياء التي يتم الحصول عليها في الدنيا.. حتى لا يموت الإنسان روحيًّا بالملذّات الدنيوية، بل يظلَّ في بحثٍ دؤوبٍ عن الأمور الأبدية.

ففي أثناء بحثه هذا سيكون قوله تعالى: **﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** (سورة يُونُس: 25/10) دليلًا ومرشدًا حقيقيًّا له.. وبهذه الآية التي تدعو إلى الأمل تنبعث الحياة مرة أخرى في أصحاب المشاعر المتهالكة والأرواح الميتة؛ الذين تعرضوا للخزي والهوان.

و. نماذج بَشرية مختلفة في القرآن الكريم

1- الشخصية المتمرّدة

إن القرآن المعجزَ البيانِ حينما يحلل الأحداث في بيانه النوراني لا يستهدف شخصًا بعينه بل يورد نموذجًا تشخيصيًّا عامًّا يكون محور التحليل ليصل الهدفُ للمخاطبين، فمثلًا قوله تعالى: **﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ**

كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ [أي الذين تَجاوَزوا الحدَّ فأهدَروا حياتهم التي هي رأس مالهم] **مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (سورة يُونُس: 12/10) يَعرِض نماذج التصرّفات والأفكار وأنماطَ الغرور التي يمكن أن تنطبق في كل الأحيان على كل إنسان بشكل عام.

فإذا تنبَّهْنا قليلًا فسنلاحظ أن الآية الكريمة لا ترسُم لنا هذا الشخص أو ذاك بل إنها ترسم وتسجّل لنا خاصّيّةً من خاصّيّات الإنسان على إطلاقه، وتتحدّث بأسلوب رائع عن نفسيّة الإنسان وهو في تلك الحالة.

أجل، إن الإنسان إذا أصابه أيُّ مكروه: بأنْ تُوفِّي ابنه أو ابنته أو زوجه، أو أصيبت أرضه ومزارعه بسوء، أو انقلبت أوضاعه وأعماله واتجهت تجارته نحو البوار، أو أوشك على فقدان منصبه وموقعه.. فإنه يظل يدعو ويناجي ربه.. فهو وإن لم يلهج لسانه دائمًا بالدعاء القولي، فإن وجدانه يردّد دعاءه بالأمور نفسها، ولا يبرح يفكّر فيها، ويُطْلِق مِن أعمق دواخله صرخات التضرع إلى ربه ﷻ ليخلّصه مما هو فيه.

فإذا ما رفع الله تعالى عن الإنسان ما أصابه من المصيبة والضرر، ووضع عن كاهله ذلك الحِمل الثقيل؛ وألبسه ثوب النجاة وتاج القبول من جديد، ونظَّم له أموره ووضعها في مسارها الصحيح، إذا بهذا الإنسان نفسِه يتّخذ موقفًا مختلفًا تمامًا، ويتغيّر وكأنه لم يتعرّض للمصائب من قبلُ ولم يفتح أَكُفَّ الضراعة ولم يتلهّف إلى المولى ﷻ سائلًا متذلّلًا.

وعلى هذا المنوال نرى القرآن في سياق رسمه لحالةٍ نفسيّة أخرى يقول: ﴿**وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ**﴾ (سورة الإِسْرَاءِ: 83/17).

فالقرآن يصوّر هنا شخصية الإنسان الذي حباه الله بنعمته وإحسانه ولكنه يتنكر للخالق ولنعمه وكأن الأسباب هي التي منحتْه هذه النعمَ أو كأنه هو الذي خلقها.

والحقيقة هي أن هذا النمط من الإنسان الذي تحدَّث عنه القرآن الكريم يرمز إلى شخصيّة رأيناها ويمكن أن نلتقي بها ونراها في كل العصور. نعم، إن عدد أولئك الذين يقولون في معرض الحديث عمّا أوتوا من النعم: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**﴾ (سورة القَصَصِ: 78/28) ليس بالقليل.. وكثيرًا

ما نسمع هذا النوع من الكلمات في عصرنا هذا، وهي كلمات نابعة من أفكار فرعونية ونمرودية، وهي تعبيرٌ عن كفرانٍ وجحودٍ فظيع تجاه نِعَمِ المولى، ونسيانٍ لحضرةِ مسبِّب الأسباب، وغفلةٍ عمن أسدى كل النعم التي يتنعّم بها الإنسان، ويتحدّث القرآنُ بعباراته النورانية عن شخصية أخرى بقوله: ﴿**وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا**﴾ (سورة الإِسْرَاءِ: 83/17).

والحقيقة أن هذا أيضًا من صفات الكافر.. وقد لا يَشعر الإنسانُ بهذا في أول وهلة، ولكنه إذا تأمّل قليلًا وأمعن النظر في الآية، فإنه سرعان ما يفهم مِن وراء هذه التعابير شخصيةً فرعونيةً متمرّدةً على المولى ﷻ؛ فاليأسُ شعارُ الكافر وصِفةٌ لازمة له. أجل، فالذي تتحطّم آماله وينهدُّ عالَمُ أمنياته وينقلب رأسًا على عقب عندما يتعرض لأدنى ضرر، ما هو بذي إيمانٍ صلب ولا يقين متين.

فمِن خلال التعبيرات القرآنية العميقة التي مرت بنا في الآيات التي قدَّمْنا نماذجَ منها نلاحظ أنه قد صُوِّرَتْ شخصياتُ أولئك الذين يعيشون المدَّ والجزر في عوالمهم الداخلية، ورُسمت ملامحهم، بحيث إن الذين يُحسنون استخدام عقولهم مع قلوبهم، ويستمعون إلى مشاعرهم وصوت ضمائرهم، ويستطيعون مشاهدة قصة حياتهم التي تمر مِن أمام خيالهم وكأنها شريط سينمائيّ سيشاهدون نصاعة البيان القرآني في رسمه للشخصيات، وسيقولون بكل كيانهم: ما هذا إلا كلام الله، وليس غير.

ف"الشخصيات العامة" التي يرسمها القرآن ويسجلها بتعبيراته العميقة لها أهمية كبيرة أيضًا.

وأحيانًا نرى أن القرآن أثناء رسمه لشخصيات مختلفة يضعنا أمام شخصية مصابة بداء الرياء وجنون العظمة، فيتحدّث لنا بتعبيراته المعجزة، في بضع كلمات عن هؤلاء بأسلوب رائع فيقول: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ (سورة الْمُنَافِقُونَ: 4/63).

فالقرآن يرسم لنا هنا شخصية طبيعة متقلّبة عائدة لشخص متلوّن؛ فهذا الشخص يكون في البيت بلونٍ، وحينما يكون بين الناس يظهر بلون آخر، فيتقلب هنا وهناك.. فأصحاب هذه الشخصية يحسبون كل صيحة عليهم، ومهما ظهر على حالهم من أبّهة يرتدونها زورًا، ويتصنّعون بها أمام

أعين الناس، فهم في الحقيقة "إنسيُّون" ذَوُو طِباع شيطانية.. وهم من الجبن بحيث إنهم إذا سمعوا صوتًا خفيفًا، أو صيحةً، أو أرعدت السماءُ أو أبرقت، فإن مرارتَهم تكاد تتفطّر من الخوف، فلا يستطيعون إخفاء حالهم هذه وسرعان ما ينكشف حالهم وينهتك سترهم ويَشْعُر بهم مَن حولهم.

ولننظر: كيف يفضح القرآنُ قبحَ حالهم فيقول: ﴿**لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 188/3).

وكما يُفهم من الآية، فإن هؤلاء هم الذين يحبون أن يُحمَدوا بما فعلوه، كما أنهم يحبون أن تُسنَد إليهم الأمور التي لم ينجزوها.. فهدفُهم وهمُّهم وغايتُهم الوحيدة من عملهم "الخير" هو أن يَحظَوْا بالمدح والثناء على ما فعلوه وما لم يفعلوه، ولذلك لا تؤثِّر أقوالُهم ولا تَحظى بالقبول الحَسن لدى الرأي العام.

ومن جانب آخر هناك شخصية أخرى على خلاف هؤلاء، يراها القرآن لائقةً بالمدح والثناء؛ وهي شخصية رجال المحاسبة والمراقبة الذين عزموا على ألّا يُمدحوا بما فعلوه، ناهيك عن تمدّحهم بما لم يفعلوه، فالقرآن الكريم يلفت الأنظار إلى صورتهم في موضع آخر قائلًا: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 3/146-147).

ولقد حظيت هذه الأدعية بالقبول بدرجة كبيرة، حيث إننا نلاحظ أن كثيرًا من المحتسبين المضحين في مختلفِ مراحلِ التاريخ الإسلامي كانوا يَدعون بهذا الدعاء؛ فعلى سبيل المثال كانوا يقولون:

> "اللهم لا تُرِني ذلك اليوم الذي ستُجنى فيه ثمرات هذا الجهد الذي أبذله، واجعلني لا أرى أيام البيدر التي تُحصد فيها المحاصيل وتداس وتذر في الهواء.. اللهم إننا جاهَدنا في سبيلك ففلَّتْ أيدينا وكُسرت أجنحتنا، ولم يبق في أجسامنا مقدارُ درهم إلا وقد أصابه سهم أو رمح أو رصاص، ولم يمض علينا يوم إلا وقد أدير بنا في المحاكم، أو طُبِّقت علينا صنوف التعذيب، أو مَثُلْنا أمام المحاكم والنيابات.. ولكني

أدَعُ كلَّ هذه الأمور جانبًا، فإن كان ولا بد أن يرى المظلومون ثمارَها، فأبعدها عني ولا تُرني إياها! ولا تُذِقْني ثمراتِ سعيي في الحياة الدنيا، بل أحتسبه عندك يوم القيامة فادَّخِرْه لي عندك، واقبض روحي يوم يفيض كرمك على عبادك ويتنزل إحسانك عليهم، حتى لا يعرفني مَن بعدي وكي لا يطّلع على عملي أحدٌ غيرك، ووفّقني للخدمة الإيمانية، واجعلني خادمًا للقرآن والإسلام، ولكن لا بد لأصحاب الكهف من قطمير، فاجعلني قطميرًا للمجاهدين في هذه الفترة من الزمان!".

نعم، إنه يقول هذا، لأنه لا يرضى أن يختلط عمله الصالح مثقال ذرة بالرياء والسمعة، بل ترتعد فرائصه من أن يتورَّط في أوحال الأفكارِ والمقولات التي تفوح منها رائحة الشرك الخفي من أمثالِ: "إن راية الإسلام رفرفت في كل بقاع الأرض بفضلي أنا".

وفيما يلي نماذج من الشخصيات التي مدحها القرآن:

إن سيدنا عمر رضي الله عنه لما حدّثته نفسه بالشهادة، إذا به -وهو الخليفة العظيم- يناجي نفسه قائلًا: "وأنَّى لك الشهادة يا عمر؟!"[46].

نعم، إن هذه هي الشخصية التي يقصدُها القرآن ويُرغِّب فيها، وإذا كان هذا هو مطلوب القرآن ومقصودُه فلا بد للذين يعتبرونه مرشدًا ودليلًا لهم أن يكونوا متشبِّعين بهذه الأفكار والمشاعر.. وهؤلاء هم فرسان الخدمة الذين لا يتمدحون بما أَنجَزوا ولا يحبون أن يُحمَدوا على ذلك، وهم بسجاياهم العاليةِ أبطالُ هذا الخط المستقيم.

وحينما يَعرِض القرآن أمام أنظارنا طبائعَ عامة الناس وأوصافَهم بأسلوب خاص، فإنه إلى جانب ما يظهره من ذمٍّ للشخصيات المرائية العجولة ذات الوجهين، يَعرض شخصيّاتٍ اهتدوا، ويُثني عليهم ويَرسم أحوالَهم وأطوارهم، وحالاتِهم الروحيةَ والقلبية، وانسجامَهم الإيماني داخليًّا

---

[46] الطبراني: المعجم الأوسط، 163/9.

وخارجيًّا، بل إن القرآن الكريم يزيد الصورة وضوحًا فيَذكر حياتهم التي قضوها كرجالٍ للاتزان والتوازن، لتتبيّن طبيعة المؤمن الصادق وشخصيّة المسلم الحقيقي.

وفي الفقرات التالية توضيح لهذا الأمر على النحو التالي:

2- الشخصيات التي حظيت بالهداية

إن بلاغة القرآن الكريم في تصوير طبائع الشخصيات المهتدية وتكوينها العام، وتقديمها بأوصافها الأساسية في وضوح تام تجعل من يقرأ الآيات المتعلقة بها يحس في داخله تجاهها بإعجاب بالغ، بل إنه يشعر في قلبه بشوق ورغبة في تمثل تلك الشخصيات بما فيها من الأوصاف.. والأوصافُ الأساسية لهذه الشخصيات هي إيمانها بالله واليوم الآخر، وتنظيمُها حياتها وفق ذلك الإيمان.

وحينما يستمع الإنسان إلى حديث القرآن الكريم عن أولئك الأبطال من أولي العزم، أو يقرأ الآيات القرآنية المتعلّقة بهم، فإنه يشاهد بوضوحٍ وجَلاءٍ كيف أن أولئك العظماء سبقوا عصورهم وسمَوا على أزمانهم.. فهؤلاء الذين اتسمت تصرفاتهم بالوقار والجدية ظلوا طوال حياتهم يحملون أوجاع قضيتهم التي عشقوها، ومن سُعد بالتعرف عليهم عن قرب، فإنه سيشعر كأنه يشاهد اصطفاف أهل السماء خلفهم.. كيف لا؟! وهم الذين سَبقوا إلى تلبية نداء النبي الذي جاء بحياة جديدة وقضيةٍ جديدة ورسالة جديدة، حيث إنهم لما دعاهم النبي إلى الحق والحقيقة، قالوا، مِن دون تردد: "آمَنَّا".

فهناك لوحة مختلفة من القرآن حول الموضوع: **﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾** (سورة آلِ عِمْرَانَ: 193/3).

فإذا حاولنا أن نتابع بخيالِنا هذا الكلامَ والمشهدَ الذي من ورائه، فلا شك سنشعر وكأن هناك مناديًا يتجوّل بيننا ينادي إلى الحق والهداية، وفي هذه الحالة ستسمو أرواحُنا فلا تتوجس خيفة من الموت، بل تعيش حياة جديدة وتَرْقى إلى أن تصبح وكأنها تشاهد من الآن ذلك اليومَ النوراني الذي تبتسم فيها لحُسْن طالِعها، وأنتم في قصور تجري من تحتها الأنهار وتسمق فيها الأشجار،

على سرر متقابلين بوجوه ضاحكة مستبشرة. بل إننا نشعر من الآن في أعماق قلوبنا بالعالَم الذي نلقى فيه ذلك المولى المتعالي الذي خلقَنا وأرسلَنا إلى هذه الدنيا، وسخر لنا كل شيء، فنهتف بهذا الدعاء الذي يتفجّر من أعماق أفئدتنا قائلين: "ربنا إننا سمعنا مناديًا كان يطرق الأبواب بابًا بابًا حتى نفوز بالسعادة، وكان يُفسّر لنا الوجود وما وراء الوجود، فآمنا به!".

أجل، إن من يؤمن بالله فسيكون شعوره كذلك بلا ريب، فالله ﷻ يرسم لنا في هذه اللوحة نموذجًا لـ"المؤمن" الذي يَحذَرُ الآخرة ويَظهر على ملامح وجهه آثارُ ذلك الحذر، ويخطو كلَّ خطواته على حسب الآخرة، ويحمل دائمًا مسؤولية الإيمان.

ولنصغِ إلى أنفاس تلك الأرواح المحتسِبة المتواضعة غاية التواضع، والتي تَحمل وجدانًا عميقًا يحاكي وجدان أولي العزم، حيث يستقبلوننا بهذه الكلمات: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ (سورة الْحَشْرِ: 10/59).

فما أسمى علوّ جنابهم، ومروءتهم! حيث إنهم لا يَحصُرون دعاءهم في أولئك المؤمنين الذين هم رفاق دربهم، بل إنهم يُشرِكون في تضرعهم ويشملون بدعائهم هذا أولئك الذين ساندوا القضية نفسها وخدموا حقيقة الإسلام قبل قرون.. أجل، إن هذا من أروع نماذج الوفاء.

والحقيقة أن هذا الكلام الذي قاله هؤلاء بروح أولي العزم يحمل في طياته المعنى الآتي: "اللهم إنك أنت الغفار فلتسعنا مغفرتك ولتسع من سبقنا بالإيمان فهم لهم السبق فلا تحرمهم من مغفرتك فهم الذين أسّسوا هذا الأمر وبذلوا الجهد في إبلاغ هذه القضية إلينا فاشملنا كلّنا بعفوك".

فهكذا يستجيب من يحملون روح أولي العزم لنداء ربّهم ونبيّهم.. وهكذا يكون الإنسان الذي يحمل هذه الروح حيث يقف بين يدي ربه ويدعو لنفسه ولرفاق دربه ولكل المؤمنين الذين تعلقت قلوبهم بحب الإسلام، ويتضرعُ إلى الله تعالى بأن لا يجعل في قلبه مثقال ذرة من غلٍّ وحقد تجاه المؤمنين، ويسألُه تعالى أن يحبِّب إليه كلَّ من آمن به ويبعدَه عن الممقوتين لديه.

فهذا هو التصوير القرآني لروح أهل العزم وللقلب الذي تَوجَّه إليه تعالى توجُّهًا تامًّا.

وبالمقابل تعالوا بنا لنشاهد هذا النمط الإنساني المرائي ذا الوجهين، كيف يصوره القرآن: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ (سورة البَقَرَة: 8/2).

فهذا النمط الذي يصوره القرآن، يَبدو وكأنه من المؤمنين، ولكنه إذا رجع إلى جماعته وانفرد بأعوانه، يقول قولًا مغايرًا تمامًا، فما قوله: ﴿**آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ إلا من الخداع فما هو بمؤمن بالله ولا باليوم الآخر؛ فمثلًا قد نلاقِي عددًا غير قليل من الناس في النوادي، أو الشارع أو السوق يقول أحدهم: "أنا أيضًا أومِنُ بالله"، أو يقول: "كان والدي شيخًا عالمًا بالدين"، أو "كان جدّي حافظًا لكتاب الله" أو "كانت جدتي تصلي الخمس"، أو غير ذلك من الأقوال والادعاءات التي لا قيمة لها؛ لأن المهم والأساس هو وضع الإنسان ذاتِه وليس ما كان يفعله أسلافه.

أجل، ليس المهم أن يكون والدُ الإنسان شيخًا، بل المهم هو مدى ما يحمل بين جوانحه من الشوق والحماس تجاه نشر الإسلام.. إنَّ كون الإنسان ابنَ فلان وعلان لن يَعني شيئًا، كما أن كونه ابن الشيخ الفلاني أو الحاج الفلاني لن يعود إليه بأي فائدة أخروية.

إن هذا النمط من الناس ليس بصادق وما هو بمخلص بتاتًا في قوله: "آمنا".. وما ذلك إلا تظاهُر بالإيمان وتغطية للكفر من خلال تعداد الأقارب، وهذا هو عين النفاق والمراءاة، وقد بين الله ﷻ هذا النوع من الناس بقوله: ﴿**مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ**﴾ (سورة النِّسَاءِ: 143/4).

وليس لهؤلاء المرائين وِجهة ثابتة.. ولأنهم ليسوا مثل الشجرة التي ضَربت بجذورها في الأرض وسَمقت قامتُها وتفرعت أغصانها في السماء، فليس لها أن تأتي بالثمار قطعًا. فهم يعيشون في حدود الزمن الضيق، همُّهم أن يَقْضوا يومهم في إشباع نزواتهم وشهواتهم.. وليس لهم ثباتٌ على أي أمر، بل هم مثل الحرباء يتلوّنون بألوان مختلفة، ويتحولون من مكان إلى آخر على حسب مصالحهم.. فتراهم في هذه الجبهة مرة وفي تلك أخرى؛ وفي صفوف المؤمنين أحيانًا وبين الكافرين أحيانًا أخرى.

فهذه الأمور التي يتحدّث عنها القرآن في بضع جُمل لو أننا حاولنا شَرْحَها في صفحات عديدة لما تَسنَّى لنا ذلك على وجه كامل.. وقد بيَّن القرآن في بضع كلماتٍ هذا النمطَ الذي حاول علمُ

النفس الحديثُ بيانَه في ألف صفحة، ورغم هذه المحاولة فقد جاء ناقصًا مبتورًا وخليطًا من الخطإِ والصواب.. نعم، إنها بضع كلمات ولكنها تكفي لأن تُصوِّر طبيعة الموضوع بكل تفاصيله، لكأن السامع يُشاهد كل أحوال المنافق وأطواره في صورة متكاملة ماثلةً أمامه.

3- شخصية المجادل بغير علم

وفي سياق حديثه عن الطبائع العامة، يتحدّث القرآن عن شخصيّة من أكثر الشخصيات التي نلقاها في أيامنا هذه، ولا تقلّ أهمية عن تلك الشخصيات الأخرى، يقول الله تعالى: ﴿**هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 66/3).

أجل، إن المجادلة بغير علم من أخطر أمراض عصرنا؛ حيث إن الجميع يُدلي بدلوه في جميع القضايا وبخاصة في القضايا الإسلامية، مع أنها من أكثر الأمور التي تتطلب التخصّص.. فمثلًا من تلقى تعليمًا في أي مجالٍ على مستوى الشهادة الثانوية، فعليه أن يتحدّث على حسب مستواه.. فمن لم يكن متخصّصًا في مجال الطب أو الهندسة فلن تُتاح له فرصة الإدلاء برأيه فيهما ولو بكلمة، فكل علم له من يتكلم فيه من أهل الاختصاص، إلا القضايا الإسلامية، فالكل يخوض فيها ويقول كل ما يدور بباله. أجل، حين يدور النقاش حول قضية إسلامية ترى الجاهل ينبري لها فيحلل القضايا اللغوية ويُصدر الأحكام.

فالقرآن يذم وينتقد هذه الشخصية قائلًا: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ**﴾ (سورة الْحَجِّ: 8/22).

فهذه هي شخصية أخرى من الشخصيات التي عرضها القرآن وقدمها للأنظار في بيانه وأسلوبه المعجز الذي لا يُجارَى فيه، ونحن من خلال هذه الموازين القرآنية نستطيع أن نميز بين كل واحد من هذه الشخصيات، ونصْدِر حكمَنا فيها، ففي هذا المجال أيضًا يُثبت القرآن الكريم لمن يستمعون إليه أنه بأسلوبه البديع هذا ليس بكلام بشر بل هو كلام الله.

4- شخصية المتعلق بالقرآن

إن القرآن الكريم حينما يركز على شخصيات الذين تعلقت قلوبهم بالإسلام، واتخذوا قضيةَ الإيمان والقرآن قضيتَهم الكبرى، يلفت أنظارنا إلى ما يبذله هؤلاء من جهد يفوق حدود التصوّر حتى يحيا الإسلامُ بين أهله كرة أخرى، وكي ينتشرَ الإيمان وروحُ المحبة وترفرف رايتهما في كل مكان، فالمشهد في بداية الإسلام كان هكذا تمامًا؛ ففي حين كان الناس عمومًا يعيشون حالة من العشق والشوق والحماس نحو قضية الإسلام، كان هؤلاء يتجرعون مرارة هذا الشوق والحماس في دواخلهم حتى النخاع، واستطاعوا ببذلهم للمال والملك أن يحافظوا على حيوية روح الجهاد لديهم.

ففي مثل هذا السباق كان أمثال سيدنا أبي بكر ﵁ يأتون بكل أموالهم ويضعونها في سبيل الله، وحين يُسألون: "ماذا أبقيت لأهلك"، كانوا يقولون: "أبقيت لهم الله ورسوله"[47].. وكان لسيدنا عمر أيضًا مواقف بطولية قريبة من هذا (رضي الله تعالى عنهم ملء السماوات والأرض).. بالإضافة إلى أنهم لم يكونوا يقفون في التضحية عند حدود المال فقط، بل كانوا يجودون بأرواحهم أيضًا.. وكان هناك من لا يستطيع أن يشاركهم في سباقهم هذا، ويظل يرى ما يحصل دون أن يقدر على الإنفاق لكنه في قرارة نفسه وفي أعماق فؤاده يتمنى المشاركة في السباق بكل ما يملك، ولكنه لا يجد ما ينفق فلا يملك إلا دمعة تفيض من عينيه حزنًا أن لا يجد مالًا ينفقه في سبيل الله.

والقرآن الكريم يصف لنا هذا المشهد، ويذكر لنا ما تطفح به قلوبهم من مشاعر التشوق إلى الإنفاق قائلًا: ﴿**وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ**﴾ (سورة التَّوْبةِ: 92/9).

فكأنما يُقال للرسول ﷺ: "يا حبيب الله، إن هناك جماعة لا تعرفهم، لا يملكون شيئًا لينفقوه، وكانوا يراقبون من الخارج، فينظرون إلى مَن في الداخل فيشاهدون وضعهم.. فكان من الحريّ أن

[47] انظر: سنن أبي داود، الزكاة، 40؛ سنن الترمذي، المناقب، 41.

ترى حالهم وكيف يَرجعون إلى بيوتهم وهم يسكبون الدموع جرّاء حزنهم على عدم الإنفاق".. وهكذا كان القرآن يمدحهم ويذكُرهم بخير.

ولو تعمّقنا في الموضوع بشكل أكثر لربما كان بإمكاننا أن نشاهد هؤلاء ماثلين أمام أعيننا، وهم يَرجعون إلى منازلهم كئيبين كاسفي البال يحاولون أن يبرِّدوا حرارة قلوبهم بما يسكبون من دموعهم التي تنحدر وكأنها حبات لؤلؤٍ متناثرة على خدودهم.. أجل، لو أننا استطعنا أن نخوض بتصوُّرنا وخيالنا غمار التعبيرات القرآنية، لَاستطعنا أن نتلاقى مع هذه الشخصيات التي مدحها القرآن، بمشاعرهم وأفكارهم، ولَأحسَسْنا بكل ما لديها بدفءٍ بالغٍ.

ومن الشخصيات التي يصورها القرآن الكريم وهي تتمتّع بروحِ أولي العزم هي شخصيّة "أصحاب الإرادة" الذين ظلوا يقاومون سيولَ البلايا والمصائب الجارفة، ولم تنثنِ عزيمتهم أمام الأحداث، وظلوا صامدين أمام الكفر والظلم مثل الجبال الراسيات؛ حيث يقول الله تعالى فيهم: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 173/3)، وكأنه يضعهم في مستوًى مُساوٍ لأهل السماء.

أجل، فحينما يُقال لهؤلاء: "إن الناس قد اتفقوا ضدكم، وسيقابلونكم كل يوم بفخ جديد، وسيضعون قوانين جديدة، وسيضايقونكم، وسيتجوّلون بكم من محكمة لأخرى، وسيذيقونكم أسوأ أشكال التعذيب لاستنطاقكم، وسيفعلون بكم أفاعيل لم تخطر على بالكم، ويضيّقون الخناق عليكم"؛ فسيقابلون كل هذا متبسمين غير مُبالين.

أجل، إنه لم يزل هناك عصابة مُفسِدة ومثيرة للفتن تُجابه مَن يخدمون في سبيل الحق، وتقول لهم مثل هذه المقولات؛ فكما قيل هذا للسابقين في عصر السعادة (العهد النبوي والخلافة الراشدة)، قد قيل مثل ذلك في العصور التالية وسيقال لكل اللاحقين.

فقد يؤسّس البعض فيما بينهم تحالفاتٍ سرّيّة، ويُصدِرون ضدهم قوانين وتعليمات، وقد يريدون أن يُغرقوا روح الخدمة وهي لا تزال في بداية نشأتها.. وبالمقابل سيقول المؤمنون بصوتٍ موحَّد نَديٍّ مليء بالإيمان مفعم بالرضا والتسليم لله: ﴿**حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾.

فنحن أيضًا انطلاقًا من هذه الأفكار إذ نُحسّ في أعماقنا ما عاناه وقاساه المعانون في هذا السبيل بدءًا من سيدنا إبراهيم الذي قُذف في نار نمرود، إلى سيد الأنبياء -عليه وعليهم الصلاة والسلام- الذي مُرّغ رأسُه بالتراب ورُشق بالحجارة، وبُصق في وجهه المبارك.. نستشعر أمام أسلوب القرآن الرائع الذي يقص علينا تلك المَشاهد بأنه ليس إلا كلام الله، ونزدادُ يقينًا بذلك، وتمتلئ قلوبُنا بمشاعر الإعجاب.

5- الشخصية المتفكرة

إن للشخصيات المتفكّرة موقعًا مهمًّا بين الشخصيات التي حظيت بثناء القرآن؛ فهؤلاء ينسجون كلَّ جزئية من حياتهم بأعمق المشاعر والأفكار، ولا يُضيعون أيَّ جزء من الزمان الذي هو عبارة عن خطٍ اعتباريٍّ يمرُّ عليهم، بل يستثمرونه أبلغ استثمار.

﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 191/3).

أجل، إن هؤلاء الذين زيّنوا حياتهم بالتفكّر، يَدْأَبون على التفكّر في حال قيامهم وقعودهم وأكلهم وشربهم، ويُمعِنون النظر بعمقٍ في العلاقة بين الخالق والمخلوق، ويفتحون أشرعتهم صوب الأزلية في سبيل الوصول إلى معرفة الصانع.. وينظرون بعين العبرة إلى خلق السماوات والأرض وما بينهما من التناغم العجيب والتوازن الكامل، وبفضل هذا التفكر يصِلون إلى نتيجةِ أنه ليس في الوجود شيء ولا هدف ولا غاية من دون مالك.

وهم ينتقلون من حيرة إلى حيرة تجاه الكون الزاخر بالخوارق بدءًا بالسماء وما فيها من الكيفية المذهلة لمختلِف الأنظمة والمجرات السماوية، وانتهاءً بالأرض وجميع ما عليها من الأمور التي تنطوي على الحكمة والمصلحة والفائدة، قائلين: ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا**﴾ بمعنَى أن في كلِّ شيءٍ تجلّيًا للحكمة وطريقًا يوصل إلى الحق تعالى، ومِن بعد ذلك يتوجهون إليه بالدعاء قائِلين: ﴿**سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾.

وحينما يتحدّث القرآن عن هؤلاء يَلُوح لنا في نظراتهم نَمَطٌ إنساني يكتب على كل جزء من الوقت الذي يمر علينا اسمَ المولى ﷻ.. نمطٌ لا يُضيِّع أيَّ جزءٍ من وقته، بل يضفي على كل آنٍ يعيشه روحًا، وبذلك يتمتع بحياة تمر كل حين نابضة بالحياة، ويعرِّف "أينشتاين (*Einstein*)" الزمانَ بأنه "خط اعتباريٌّ"، ويقول بأن الزمان ليس له وجود في حدّ ذاته، بل هو بُعدٌ ذو أسرار للمكان.. إلا أن شريط الزمان الذي ليس له روح ولا وجود حقيقي، يكتسب الحياةَ بفضل المؤمنين الذين يَنقُشون على كل جزء منه المعانيَ المتعلّقة بالله.. ويتحول بفضل إيمانهم وعملهم إلى مشهد متعلق بالعالم السرمدي.

إن عَرْض القرآنِ لهذا النمط وتصويرَه له ببيانه الخالد وأسلوبه العذب لَيَسحرُ العقول ويأخذ بالألباب؛ ويجعل القلب المؤمن في غاية السرور، وإن الذي يَرقى إلى هذا المستوى يملأ الشوقُ قلبه ومشاعره وحماسه وتفكُّرَه وتذكُّرَه.. فإذا بك تراه يتعمق في كل آية من آي القرآن، فيحاول تذوُّقها باعتبارها "كلام الله"، فيبدأ يَشم بكل كيانه رائحةَ الجنة التي أتى بها القرآن.

ز. الدروس التي ينبغي على المؤمنين أن يستخرجوها

1- تعرُّف المؤمن على ذاته

وفي هذا الفصل سنحاول -ولو قليلًا- بيان مدى أهمية ما سردناه إلى هنا مما في القرآن من تحليل الشخصيات.. فكما هو معلوم لدى كلّ من يتفكّر ويعيش حياته متفكّرًا، أن إنسان اليومِ قد أصبح خارجَ عصره فتأخّر من ناحية الشعور والإدراك والفكر.. فهذا المستوى من اللامبالاة قد أدى بالمؤمنين إلى حالة من الشعور بالغربة عن أنفسهم

وعن بعضهم؛ وكما يقول الصوفية فإن الذي لا يَعرف نفسه ولا يَعرف ذاتَه وجوهره ليس بالإمكان أن يَعرف غيره ولا ربه، وبالتالي فلن يمكن له أن يؤسّس بينه وبين خالقه علاقة على المستوى المطلوب.

إننا حينما شرحنا بعض الآيات وحللنا فيها بعض الشخصيّات، لم نسرد بعض الأحداث التاريخية ولم نذكر أهلَ الكتاب ولا ما فعلوه بأنبيائهم بهدف إثارة مشاعر الكراهية والبغضاء تجاههم؛ بل إننا حاولنا انطلاقًا من هذه الشواهد أن نسبُر العالَم الداخلي لأولئك الذين مرت بهم

هذه الأحداث وننبشَ عن فراغاتهم البشرية، لعلها تكون عبرة لأمثالهم الذين يعيشون في عصرنا.. وإلا فنحن نؤمن بعدم جدوى نقل الأحداث التاريخية بغرض اتخاذها وسيلة لإثارة الحقد والكراهية والبغضاء.

إن الإنسان عليه أن يتعرف قبل كل شيء على نفسه، وأن يتعرف -بالأخصّ- على جانبه المعنوي؛ فهذا من أهم العوامل التي تؤثّر على نظرته للأمور والأحداثِ، بل إنني أستطيع القول: إنه مَهما قطع المؤمن شوطًا كبيرًا في صلاته وصومه وحجه وسائر عباداته، ومهما زاد منها من الناحية الكمّيّة، فإنه لا بد له من المنافذ التي تطل على عالمه الداخلي حتى تتحقّق له الاستفادة الكاملة من كل العبادات، فالعبادات بمفردها لا تفي بالغرض الروحي والسموّ اللدني.

أجل، إن المؤمنين التقليديين الذين ليس لهم معرفة بالعوالم اللدنية، وليس لهم عمق إيماني لن يجنُوا ثمراتِ عباداتهم على الوجه المطلوب؛ فمثلًا لو طافوا بالكعبة صباحَ مساءَ ولم يستطيعوا أن يطوفوا حول أعماقهم الداخلية عند طوافهم حول الكعبة فلن يجنوا ثمرة طوافهم على الوجه المطلوب، وبناء على ذلك فإننا نجد الكثيرين ممن يطوفون حول الكعبة يطوفون كأجساد جامدة أو جثث هامدة، والقليلون يطوفون بقلوبهم ومشاعرهم.

بل إننا قد نشاهد هذا الوضع بالفعل حول الكعبة، حيث إننا نرى هناك أمورًا كثيرة عظيمة عند الله ولكن يُستهان بها هنالك كالاختلاط، وبالمقابل هناك أمور هينة عند الله ولكنها تُعظَّم هنالك؛ فترى البعض يرتكبون المعاصي أثناء الطواف، وينتهكون عددًا كبيرًا من المحرمات والمكروهات في سبيل أمر مندوب.. وإذا أخذنا بالاعتبار أن المعاصي والذنوب التي تُرتكب هناك تتضاعف فإن الأمر يزداد خطورة وهَوْلًا.. وقد يكون هناك من يدعي أنه لا مفر من اختلاط الرجال بالنساء، ولكن من الممكن إيجاد طرق عدة بديلة تُبطل أمثال هذه الادعاءات.

وما مباشرةُ الحرام في الكعبة أثناء العبادة التي يُتقرب بها إلى الله، إلا دليل على البُعد عن الله تعالى؟! ويمكن أن يُقال هذا القول نفسُه في سائر العبادات؛ من الصلاة -بالأخص- والصيام والزكاة والإنفاق في سبيل الله وغيرِها من صنائع المعروف وسُبُل الخير.

ولعلّنا نلاحظ أن الحياة القلبيّة فينا وبخاصة في العصور الأخيرة قد خمدت وانطفأت جذوتها، وأَهمَل الإنسانُ -كليًا أو جزئيًا- الإنصاتَ لنفسه ومراقبتها ومشاهدةَ عالَمه الداخلي، بل يمكن أن يقال هذا القول نفسُه في حق التكايا والزوايا، مع أنها كانت من الأماكن المباركة التي كانت تبعث في نفس الإنسان روحَ الحماس الديني، وتبثُّ فيها الحيَويَّةَ، وينطلق فيها الشوقُ والعشق للغاية الأسمى.

ولذلك لا بد لنا من أن نكون على وعي تام بواقعنا الذي نعيش فيه ونحملَ على كاهلنا مسؤولية إنعاش هذه الروح وبثِّ هذه الفكرة في المجتمع من جديد.. لأنه ينبغي أن تكون القضية الأساسية هي أن يتعرف الإنسان على عالمه الداخلي ويتعمّق في لدنياتِه؛ فإن الإنسان الذي خمدت لدنياته، ناهيك عن إحساسه بالبعد عن الله تعالى، سيكون فاقدَ الوعي بالكلية.. فيا لله، ما أفظعها من طامة كبرى؟!

فانطلاقًا من مثل هذه الأفكار، أَرَدْنا أن نُعيد الحديث عن بعض التحليلات القرآنية للشخصيات، لعل ذلك يساعد أولئك الذين يريدون أن يكتشفوا ذواتهم ويَعرفوا أنفسهم ويتعرّفوا عليها حتى يتسنى لهم تحليلُ أنفسهم وذواتهم.

أجل، إن الذي لا يدري شيئًا عن ذاته ويكونُ غريبًا عن آفاق المعرفة الإلهية، ولا يعرفُ الغاية من خلقه، فلا مفرّ له من أن يتخبط في حياته الفكرية والقلبية ويرتكبَ الأخطاء الفادحة واحدةً تلو الأخرى.. ومن يدري، لعل الذي يقضي حياته لا يحمل مسؤولية كهذه، سيضرّ دنياه وآخرته.. فلذلك ينبغي على الإنسان أن يَعرف نفسه أوَّلًا، وأن يكونَ سائرًا في طريق الكمال دائمًا، وأن يحافظ على حالته هذه وكأنما يرابط على ثغور الوطن يحرسُه من هجوم الأعداء، علمًا بأن كِلا الأمرين من الأمور التي حث عليها الإسلام.

ولنفصِّل هذه الفكرة في ضوء هذه الآية الكريمة من سورة آل عمران، حيث يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 200/3).

فقوله تعالى: "اصْبِرُوا" يأمرنا بالصبر، وقوله تعالى: "وَصَابِرُوا" يأمرنا بالمصابرة؛ فكأنه يقول لنا: ليوصِ بعضُكم بعضًا بالصبر والثبات، وبتعبير آخر: ليشارك بعضكم بعضًا في حالة السرور والحزن، وإذا كان أحدكم جريح الفؤاد ومهمومًا والآخرُ معافًى فليقاسم أخاه همَّه وغمه، فينبغي للمؤمنين أن يتعاونوا فيما بينهم وأن يكونوا عونًا لبعضهم

في كلّ الأحوال.

وقوله تعالى: "وَرَابِطُوا" أي ترصَّدوا المنافذ التي يُتوقّع منها الخطر، ولا تدَعُوا الفرصة لأعدائكم المادّيين والمعنويين حتى لا يتسللوا إليكم سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات.. وكونوا بالمرصاد لشتى أنواع الفساد التي تُفسد حياتكم الفكرية أو الذهنية أو القلبية أو الروحية؛ فمِن البدهي أنه ما إن يتسلط الفيروس على جسمٍ فرديٍّ أو اجتماعي إلا ويهزُّ كيانه ويُعرِّضه للتفكك والتمزق، وتَفسُد كلُّ القيم المادية والمعنوية على المدى القصير أو البعيد، ويبتعد المجتمع عن هويته الذاتية، وتتخلخل كلّ موازين المجتمع.. وفي مجتمع كهذا تحصل دوامات الفوضى الرهيبة، وتتوالى حركات التمرّد، وتدوي أصوات الانقلابات في كل الجهات، ثم تتوالى الخلافات والنزاعات وموجات الفساد، فتتعرض الدولة والشعب لانحلالات هدامة لا تقاوَم.

ففي مثل هذه الحالة التي يمكن أن نعتبرها بداية لمثل هذه النتيجة سيظهر أن هناك ثغرات في باب القيم التي تتعلق بالملة والدين.. فمن هذه الناحية لا بد من الحفاظ على الكيان الفردي والاجتماعي بنفس مستوى الحفاظ على الثغور وحدود الوطن.. والحقيقة أن تاريخنا القريب مليءٌ بالأمثلة على ذلك؛ وأعتقد أن السبب الأساس الذي يَكمُن وراء انهدام الدولة العثمانية التي حملت راية الإسلام على مدى عصور، هو أنها انخدعت بحِيلِ وألاعيب أعدائها في الداخل والخارج، فابتعدت عن قيمها الدينية.. وما أشبه الليلة بالبارحة! ففي العالم الإسلامي الذي يفوق المليار نسمة لا يَعرف الفردُ المسلم ذاته، وإذا استثنينا بعضَ الأفراد فإنَّ جموعًا غفيرةً لا تزال بعيدةً عن الحياة القلبية والروحية والحسية.. والحياة إنما تَكتسب المعنى بفضل الوعي والإدراك، وإذا لم يكن لدى الإنسان وعيٌ وإدراك على هذا المستوى فمن الصعب جدًّا تسميةُ حياته "حياة"..

وأما الحياة الأخرويّة لهؤلاء فهي كلها دمار، والقرآن الكريم يصف هؤلاء بأنهم

﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: 98/21)؛ فهم قد عاشوا في الدنيا من دون شعور ووعي، ولم يستطيعوا أن يؤسّسوا علاقة مع الوجود وما وراء الوجود، ولم يروا ما يجري حولهم من الأمور البارزة أو الخفية، وظلوا بعيدين عن التفكّر والتذكّر.. وباختصار: إنهم لم يستطيعوا أن يستغلوا الفرص والإمكانيات التي منحهم الله إياها استغلالًا حسنًا، و-إن صحّ التعبير- فقد عاشوا مثل الجمادات أو الخشُب المسنّدة، وحسبَ قاعدة: "الجزاء من جنس العمل" سيعاملون في الآخرة معاملة الحطب.. فكأن قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: 98/21) يفسّر لنا هذه الحقيقة.

والخلاصة: أنه ينبغي على الإنسان أن يَعرف نفسه، ويبذل الجهد في سبيل فهم العلاقة الموجودة بينه وبين الكون بكلّ أبعاده، ويتعمّق في اللدنيّات، لعله يصل إلى نقطة الكمال التي قُدِّرت لكل إنسان، فإذا قُرِئَ القرآن بتدبر، فإنه يَمد لقارئه يدَ العون في هذا الإطار، ويرشده الطريق، ويحدد له الوجهة. فالآية التي ذكرناها آنفًا من سورة آل عمران هي واحدة من هذه الآيات التي تشهد على ما قلنا.

2- بابُ الرجاء للقلوب الحزينة

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 139/3).

إن هذه الآية نزلت بعد أُحد.. ومن المعلوم أن المسلمين عاشوا في أحد هزة مؤقتة، وحَزِنوا لذلك حزنًا شديدًا.. ومع أن هذا ليس له علاقة مباشرة بموضوعنا إلا أنني

لا أستطيع أن أنتقل إلى موضع آخر من دون إبداء مشاعري التالية:

إن ضميري لا يَرضى في سياق الحديث عن أُحد بأن تسمَّى الأحداث التي وقعت فيها "هزيمة"، ولا أن يُوصَفَ المسلمون بالمغلوبين أو نحو ذلك؛ فهناك واقعٌ ثبت تاريخيًّا أن المسلمين بعد انتهاء المعركة بيوم واحد، تتبعوا المشركين وطاردوهم إلى ما بعد حدود المدينة بكثير، فلذلك ليس من الصحيح قطعًا التعبير عن ذلك بـ"هزيمة أحد".

وأيضًا إنني لا أرى من اللائق بنظرتنا للصحابة ﭫ ومقامِهم السامي أن يقال في حقِّ هذه الواقعة التي هي من حيث الظاهر هزيمة: "إن الصحابة الذين كانوا على "جبل الرماة" عصوا أمر الرسولﷺ طمعًا في الغنيمة".. بل الأنسب على ما يبدو لي أن يُقال: "إنهم

لم يدركوا السرّ الدقيق الذي تنطوي عليه إطاعة الأمر".

ونعودُ لما نحن فيه فنقول: إن هذا الوضع كان قد أثّر في نفوس الصحابة تأثيرًا بالغًا وقَلَبَ معنوياتِهم رأسًا على عقب، لأن عددًا كبيرًا منهم لم يكونوا قد شاركوا في معركة بدر التي حصلت قبل عام.. فمع أن الرسولﷺ اقترح عليهم البقاء في المدينة على أن يحاربوا المشركين "حربًا دفاعية"، إلا أن هؤلاء اقترحوا أن يحاربوا "حربًا هجوميّة"، فلما قُبِل اقتراحُهم هذا، انطلقوا إلى أُحد وهم يحملون بين جوانحهم الشوقَ لانتصارٍ كالذي حصل في بدر.. ولكنهم فوجِئوا بأمر لم يكونوا يتوقعونه أو ينتظرونه، بل عاشوا هزةً زلزَلَتْهُم وأحزَنَتْهُم؛ فقد استُشهد من الصحابة -الذين كلٌّ منهم قيمةٌ فوق القيم- سبعون صحابيًّا ﭬ، فكل هذه الهزّات كانت قد أحدثتْ فيهم هزّة عنيفة مؤقّتة أوقعَتْهم في حزن عميق.

ففي هذا الوقت بالذات جاء النداء القرآني: ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 139/3)، فأنعشَهم وأيقظهم من غفوتهم فانتبهوا للحياة وحقائقِ الحياة.. أجل، إن الغالبية أو المغلوبية، والحاكمية أو المحكومية هي من الأمور التي تدور بطريقة تداولية حسب السنن الكونية التي وضعها الله، ولا تجري بشكل مطّرد على حسب أهوائنا، ولا تمشي في طريق مستقيم.. وبالفعل فإن أبا سفيان قد حدَّثَ سلطانَ الأنبياءﷺ بكلامٍ مِن هذا القبيل قائلًا: "يَومٌ بِيَومِ بَدْر، أَلَا إِنَّ الْأَيَّامَ دُوَلٌ، وَإِنَّ الْحَرْبَ سِجَالٌ، فَيَومٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا، وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَومٌ نُسَرُّ، وَحَنْظَلَة بِحَنْظَلَة، وَفُلَانٌ بِفُلَانٍ"[48]..

[48] مسند الإمام أحمد، 419/7.

فما إن دوَّتْ هذه الآية في آذان الصحابة، حتى أَنعَشتْ قلوبَهم، فعدَّلت أفكارَهم، ووسعت آفاقَهم، وأعلمتْهم أن ما عاشوه من التشتت المؤقت ليس عبارةً عن كل شيء، وذكَّرتْهم بأنه من الممكن أن يؤدِّي النهوضُ من جديد إلى انتصارات.. ولكني أرى من اللازم التنبيهَ إلى أن الأرضية التي تنبني وتتأسّسُ عليها هذه المشاعرُ والأفكارُ إنما هي الإيمان، وإلا فمِن غير المتصوَّر أن ينتفض القلبُ الخالي من الإيمان ويدَعَ أحزانه جانبًا وينتعشَ من جديد تجاه هذه الآية وما تحتوي عليه من الحقائق.

أجل، إن هذه الآية الكريمة التي أوردناها آنفًا، تُذكِّرنا بواقع الحياة، كما أنها تُنعِش الأرواح التي سقطت في دوامة اليأس، وتلامس القلوبَ الميتة فتبثّ فيها الحياة ومن خلال السطور تَدُلُّهم ضمنيًّا على المَخرج من كل مأزق.. وإن الذي تَعلَّق قلبه بالقرآن، وآمن به من أعماق قلبه وروحه، واستَلهمَ معانيَه التي ينشرها، وأراد أن يستنشق أَرِيجَهُ الفَوَّاح؛ ليستطيعُ أن يُدرك ما قلناه ويحسَّ به ويقرأه من بين سطوره وثناياه، كلٌّ على حسب استعداده وقابليته.. وإن مَن ينظر إلى القرآن سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات فإنه بلا شك سيستطيع استشراف المستقبل الآمن والغد المشرق، فلا حياة بدون القرآن الكريم.

الفصل الرابع
القرآن وأسلوبه الفريد

لقد نزل القرآن على جماعة شبه بدوية، وقد كانت غريبة عنه غربةَ إنسان عصرنا عن معظم ما جاء به القرآن بل كانت أكثر بعدًا وأشد غربة، فقد قضوا جل حياتهم في صراع وتناحر.

أجل، فهؤلاء الذين كانوا يعيشون حياتهم هائمين على وجوههم بلا هدف وبدون غايات سامية، لم يبلغوا يومًا ما النضج الاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي، ولم يستطيعوا أن يكوِّنوا -ولو في إطار القبيلة- جماعةً واعية ووحدة مثالية.. وكانوا يتفاخرون بما يفعلون أمام أصنامهم التي أحاطوا بها الكعبةَ، وكانوا يُسَلُّون بهذا أنفسهم، وكان القليل من أهل العلم من مثقفيهم يَعتبِر هذه الأصنام مجرد وسائط مقرِّبة إلى الله ﷻ، وهذا

ما تميزوا به عن بقية المشركين.

وهكذا استُخدم الشعور بالعبودية الكامن في فطرة الإنسان، في غير موضعه وأسيء استخدامه مرة أخرى، وتَعرَّضَ للخيانة، فقد عبدوا الشجر والحجر والتراب والشمس والقمر والنجوم وغير ذلك، حتى إنهم كانوا يعبدون ما تصنعه أيديهم من أطعمة مثل الحلوى أو الجبن أو التمر، ثم يأكلونها حينما يجوعون، وبلغ الانحطاطُ ببعضهم ممن غاص كلّيًّا في مستنقعات الجاهلية وتوحَّش إلى أن وصل لدرجة أنه كان يَئِدُ بناته ويدسُّها في التراب؛ فمنهم من كان يقوم بهذه العادة الوحشية الغريبة على أنها من عادات الجاهلية، ومنهم من كان يفعل ذلك خشية إملاقٍ، ومنهم من فعل ما فعل حفاظًا على عادات القبيلة اقتصاديًّا حتى لا يذهب المال لآخرين عن طريق البنات.

أجل، لقد كانت الإنسانية في أَزْمة أخلاقية واجتماعية كبيرة، فإلى جانب آلاف الفظائع التي كانت تُقترف في ظلمات الصحراء، كانت الحُفر التي يحفرونها تمتلئ بالكثير من أرواح الأطفال التي أزهقوها ظلمًا وعدوانًا.

حقًّا لقد فاق البشر الضباعَ في الوحشية، ولم يعُد لِمن ليس له أنياب حقٌّ في الحياة، وكان مصيره أن يتمزق بين فَكَّيْ ذئاب البشر.

وفي هذه البيئة التي حاولنا أن نصوّرها في إشارات عابرة، اختارَ القرآنُ من المادة المعرفية ما يتناسب مع الجميع بشكل مثالي للغاية فأذهلَ عقولهم؛ حتى إن راعي الإبل الذي قضى عمره في الصحراء إذا توجَّه إلى القرآن بقلبه، يتزلزل كيانه وترتعد فرائصه جراء ما يعتريه من الخشية عند سماع تعبيرات القرآن الفريدة.

وفي هذا ما يدلّ على أنه لم يتوجه بتعبيراته الفريدة إلى عِلْية القوم، بل جاءت تلك التعبيرات بلغةٍ مفهومة وواضحة لكل مستويات العقول والأفهام، سواء أكانوا من الخواص أو العوام، أو من الطبقة الأرستقراطية، أو ممن يَرعى البهائم على رؤوس الجبال، فالكل سواء في الاستفادة منه.

وكذلك كان أسلوب القرآن الكريم في معالجة كثير من الأمور، فهو لا يهتم بجانب ويغفل جانبًا آخر، بل يهتم بالجانب الروحي والمادي بكل مشتملاته؛ ففي حين أنه كان يعالِج القضايا الإيمانية من ناحية، كان -من ناحية أخرى- يتحدث عن السماوات والأرض ويُطْلِع مخاطبيه على نقاط غامضة لم تصل إليها مناظير علم الفلك حتى بعد أربعة عشر قرنًا.

أجل، إنه القرآن الكريم الذي لم يستطع أحدٌ أن يعترض على أسلوبه الراقي أو يستغرب بيانه الجليّ، ولو حدث ذلك على مر التاريخ لَانتهزَ أعداءُ القرآن ذلك ولتناقلت ألسنتُهم وأقلامهم ما يهمّهم منه وكأنه ملحمة، ولكانت تلك هي فرصتهم الذهبية الكبرى في ساحة عراكهم مع القرآن، وهذا هو مناط القضية.

وحينما ننظر إلى أمثلة القرآن نجدها مختارة بدقّة فائقة من واقع الحياة بالذات؛ فمثلًا، حينما يتكلّم عن السماء والسحاب يتناولهما في إطار حديثه عن سنام البعير، وحينما يتحدّث عن العظمة يضع ربوةً نصبَ الأعين، ثم يكبِّر هذه الربوة شيئًا فشيئًا إلى أن يوصلها إلى سدرة المنتهى، وبالتالي فالبدوي الذي يتجوّل على المرتفعات يستطيع أن يتخيّل سدرة المنتهى من دون أن يحمل مزيدًا من عناء التفكير.

فكان الجميع، يأخذ حظّه من القرآن بدءًا من الأمّي الجاهل وانتهاءً بالعبقري المتعمق في الأدب، فتراهم مندهشين من براعة أسلوبه ودقّة تعبيراته وبديع تصويراته -ولا يزالون كذلك- مما يحسّون به من تذوُّقٍ عالٍ لهذا التعبير القرآني.

ففي حين أن سيدنا بلالًا الحبشيّ ﷺ كان يتلقّن درسه على حسب مستواه، كان صرح العلم وجبل المعرفة سيدنا أبو بكر ﷺ، وسيدنا عمر ﷺ الذي حاز وصف "رجل الدولة العظيم"، وغيرهم.. كانوا يأخذون حصّتهم من دروس القرآن.

أجل، مهما كان مستوى الشخص فإنه ما إن يدخل في المجال المغناطيسي للقرآن حتى ينجذب إلى القرآن فيتعلّق به قلبه ويظلّ يدور في فَلَكه وكأنه مولويٌّ عاشق مجذوب.

ورغم أن القرآن نزل باللغة العربية، فإن كل مَن أصغى إلى صوت قلبه سينال منه متعةً معينة كما قيل في المثل: "لغةُ القلب والفطرة واحدة"؛ لأن لغة القلب لها وضع خاص للغاية، فكما يفهم القلب من كلام الله تعالى أشياء فإنه قد يفهم من لغة الشيطان أشياء أخرى، فانطلاقًا من هذه الحقيقة نقول: إنه لا بد من قراءة القرآن والاستماع إليه بلغة القلب..

إن القرآن يتناول الإنسان من جميع جوانبه، فيؤسِّس معه علاقةً عمادُها الإحساس والمنطق، ويمكن مشاهدة ذلك ظاهرًا جليًّا من خلال الأمثلة التي سنسردها فيما يلي؛ فالمثال الأول هو حول العالَم الداخلي للكافر، والمثالُ الثاني هو حول روحٍ اهتدت، ولكنها بقيت على الدوام في خطر..

المثال الأول:

آية كريمة تُقرِّر بأنه لا ينبغي السجود إلا لله، وتُصوِّر حالةَ مَن يستعين بغير الله لقضاء حوائجه فيخيب ظنُّه؛ وهذه هي الحالة المزرية التي يقع فيها أولئك الذين يدعون من لا يستحقّ الدعاء، فيقول الحق سبحانه: ﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ** [أي له وحده استحقاق العبودية] **وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ**﴾ (سورة الرَّعْد: 14/13).

فهذا يعني أن الذي يستجيب الدعاء هو الله وحده ﷻ، والذين من دونه لا يعرفون الدعاء ولا الهدفَ من الدعاء.

فليس لغير الله أن يستجيب الدعوات وليس له تحقيق المطلوب في الدعاء؛ لأنه غيرُ مطَّلعٍ على سرائر النوايا ولا يَعرف المصالحَ المتوائمة مع الفطرة، فالذي يرفع كفيه ويدعو غيره، يُتعب نفسه من دون جدوى.

ولا يستطيع أن يستجيب دعاءَ من يأتي إلى أعتاب بابه ويرفع كفيه متضرّعًا إليه -سواء أثناء الحاجة أو العبادة- إلا الله الذي هو مالك المُلك والملكوت؛ لأنه بيده زمام كلّ شيء ولديه مفاتيح كلّ شيءٍ، وهو وحده السلطان على القلوب، والمالك للكون، وكلُّ الخزائن والموجودات مُسَخّرة لأمره.. فليس للعبدِ أن يطلب إلا مِن مولاه ولا أن يتوجَّهَ إلا إليه ﷻ.

والكافر يلقي بنفسه في سبلٍ مغلقةٍ لا توصله لمبتغاه، ويدقّ الأبواب الموصدة لتحقيق مطالبه لأنه لا يدرك هذه الحقيقة.

فالقرآن الكريم يشبِّه حال أولئك الذين يَطرقون الأبواب الأخرى مع علمهم بأنه ما من أحد يستجيب لهم إلا الله، بحال من وصل إلى منبعِ الماء فبسط يده علَّ الماء ينساب من تلقاء نفسه ليده فيبلغ فمه.

وما كان على هذا الشخص الذي بلغ به الجهد كل مبلغ في سبيل الوصول للماء من شدة عطشه إلا أن ينحني ويغترف من الماء ليشربه، أو أن يملأ إناءه ويروي ظمأه، ولكنه لن يبلّ صداه ويُذهب ما به من عطش لأنه سلك ما لا يوصِل إلى الهدفِ قطعًا؛ لذلك سيظلّ في تخبُّط وتحيُّر يدورُ في حلقةِ المستحيل المفرغة.

أجل، إن القرآن الكريم صوَّرَ حياةَ هذا البائس الذي لجأ إلى غير ربه وطرق غير بابه بأسلوبٍ وجيزٍ ولخَّص قصة حياته الطويلة في بضع كلماتٍ قليلة بتصوير لا يفُوقه أيُّ تصوير.

فإذا نظر الإنسان إلى القرآن الذي هو معجزٌ في كل جوانبه، وتأمل من خلال هذه الآية الكريمة فقط في حال الكافر؛ فإنه سيدرك تقلبات أحوال هذا الكافر ماثلة أمام عينيه واحدة تلو الأخرى،

وسيرى خيبته وفراغاته القلبية وخواءاته الروحية، وذلك مما يزيد المؤمن إيمانًا بربه ويوصله إلى يقين تام بأن القرآن ليس إلا كلام مالك كل الكائنات ومدبر أمرها.

المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 103/3).

فهذه الآية الكريمة تخاطب تلك الجماعة التي هداها الله وتوحدت قلوبها بفضله، فعاشت حياة الإسلام ولبست نعمته بعد أن كانت على وشك السقوط في الهاوية، فهي تخاطب الأرواح من طرف خفي فتذكِّرهم بنعم الله عليهم وإحسانه إليهم؛ حيث كانوا أعداء فجمع بينهم بأخوّة الإسلام فأصبحوا جسدًا واحدًا وبنيانًا متراصًّا وكلًّا متكاملًا ﴿**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (سورة الأَنْفَالِ: 63/8)؛ فالآية الكريمة تحثهم على التمسك بتلك النعم العظيمة وأعظمها نعمة توحيد القلوب، لأنه ليس لأحد أن يتحكم في القلوب ويؤلّفَ بينها إلا الله.

وهناك بُعدٌ عميقٌ تشير إليه هذه الآية، فهي تلفت النظر إلى شخصية فظّة رغم أنها ما زالت في الدنيا، فإنها تشعر وكأنها في جهنم فما تذرُ من شيء إلا حطّمته، ولأنها

لا تؤمن بالله فهي لا تعيش بأمان ولا تبعث في نفوس غيرها أيّ طمأنينة.

وإذا تعمّقنا في معاني هذه الآية وأمثالها فسنرى أنها بأساليبها وتعابيرها تشكّل في وجدان الإنسان شلالات من المعاني المتدفقة فتنصبُّ في حوض ذهن الإنسان مئات من التصويرات الفائقة الهادفة، ومن غير المتصوَّر أن يكون كلام الله على خلاف ذلك.

أ. الإنسان مولعٌ بالجمال

إن الإنسان ميّالٌ بفطرته إلى الأمور الجميلة، فهو يعشق كل ما يراه جميلًا ويعشق أسباب الجمال ويحبّ دوام الجمال؛ فكما أنه يحبّ الزهرة فكذلك ينظر إلى الربيع العظيم أيضًا بكل إعجاب.

والقرآن الكريم يركِّز في مواضع مختلفة على هذا الجانب من الإنسان، ويتحدّث عن هذا النوع من أحاسيسه ومشاعره، ثم يُذكِّره بما وُهِب من آلاء كثيرة فيُثير ما في دواخله من مشاعر الامتنان.

أجل، إنه يُعدد للإنسان ما بُسِط له على وجه الأرض من أصناف النعم، ويدعوه إلى أن يكون متنبّهًا يقِظًا، فبهذا الإشعار والإرشاد منه تعالى يتولد في داخل الإنسان توجّهٌ للشكر وشوقٌ عميق لهذه النعم التي لا تُحصى.

وقبل أن نورد الأمثلة على ذلك لنتنبّه إلى أن القصد منها تبيان روح القرآن في هذا الباب وأسلوبه البديع المتداخل مع الفطرة وليس المقصود أن نتحدّث عن مجرد الجنة أو النار.

والأمثلة التي تُهيِّج شوق الإنسان وتثير مشاعره، وتحفّزه نحو جماليّات العوالم الغيبية من الكثرة بحيث إننا سنكتفي هنا بقطرةٍ من ذلك المحيط:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۞ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ۞ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ۞ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ۞ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (سورة الدُّخَانِ: 44/51-56).

إن لكل إنسان آمالًا ورغبات لا تعدّ ولا تنتهي، فكلّ واحد يريد شبابًا دائمًا، وعيشًا آمنًا خالدًا يتنعّم فيه مع رفيقة حياة تؤنِس وحدته وتشاركه همّه وفرحته وتزيل وحشته، بين ظلال الأشجار على ضفاف الأنهار؛ ولأن خير النعم ما دامت فهو يتمنى دوام كل ذلك دون انقطاع.

والإنسان الذي يحزن لذهاب شبابه، لن يكون سعيدًا ما دام يرتعد خوفًا كلما فكّر في ذهاب مختلف النعم؛ واللذة التي تزول ليست لذّة، بل هي في الحقيقة نقمة ومصدرُ ألمٍ لمن يرجو بقاءها؛ ورغم ذلك يعتقد الإنسان الذي يسبح في بحر النعم أنه سيظلّ في نعيم دائم.

فالقرآن الكريم يعبِّر -بين فينة وأخرى- عن مشاعر الإنسان ورغباته في هذا المجال؛ فتراه يفرِّح الإنسان بالبُعد الآخر من الوجود، باستخدام تعبيراته التي تستجيب لرغبات وحوائج بني الإنسان من كل المستويات، بدءًا من أدنى أمّيٍ وبدويٍّ، إلى أرقى متحضّر مدني.

و"المتقي" مشتقّ من التقوى، وللتقوى أبعاد كثيرة.. والمتقي بالمعنى الواسع: هو المؤمن الذي يُحلُّ ما أحله الله ويقنع به، ويحرّم ما حرم الله ويجتنبه، ويحترم كل الأحكام الشرعية، ويعيش مطيعًا للأوامر الإلهيّة؛ فما هو إلا "رجُل الإحسان" الذي يحمل في جوانحه وهو في دنياه همّ الحساب في آخرته.

فهؤلاء في الآخرة ﴿**يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ**﴾، ونحن لا نعلم كيفية هذا اللباس، لأنه من عالم الغيب فهو فوق تصوُّرنا، لكننا على يقين أنه من أجمل الألبسة التي تُناسِبنا، فالله ﷻ المدبّر لهذا الكون جعل لكل شيء ما يتناسب مع خلقته، وذلك من مقتضى تمام القدرة الإلهية والعظمة الربانية.

ومشاعر الإنسان تجيشُ تجاه هذا التصوير القرآني الرائع، فإنه حينما يرتشف كوثر البيان الإلهي يتنفّس الصعداء ويرتاح ويسرَح بخياله في أفياء الجنان والبساتين الخضراء، ويمرح بين أنهار تجري وتتفرّع في كل مكان.. هذه المشاعر تُثير في كثير من النفوس موجات من الجيشان فتجعل صاحبها -وهو لا يزال في الدنيا- وكأنه لابسٌ من سندس وإستبرق، ويمشي في تلال الجنة الزمردية.

وفوق كل ما سبق تُذكِّرنا الآية الكريمة بالأمور التالية:

كما أن الله ﷻ أنشأَ الكائنات ومدَّ الأرض وما عليها أمام الأنظار وسخّرها لخدمة الإنسان، فكذلك وَضَعَ عالَمًا آخر أروع منها يُرضي فيه عباده الأوفياء؛ فما الدنيا والآخرة إلا كتابان أحدهما صورة من الآخر؛ فالذي أنشأَ هذا العالَمَ قادرٌ على أن يُنشِئ العالَم الآخر الموعود على صورة

الأوّل، بل ويزيد في خلقه، وللمؤمنين في ذلك العالم نِعَمٌ تفوق حدود التصوّر حيث سينالون سعادةً ما كانت تخطر لهم على بال.

وكذلك تضمنت الآية الكريمة مصيرَ وجزاء أولئك الذين لم يؤمنوا ولم يحترموا الكون وخالقَ الكون ﷻ، بأنهم سينالون من العذاب أَشَدَّه، وحديث الله للمؤمنين عن هذه الفئة يُذكِّرهم ببُعدٍ آخر للنعمة، فهذه الحقيقة التي تَرِد في آخر الآية تَرْفَعُ أهلَ السعادة إلى أعلى درجة باعتبارها أعظم النعم.

أجل، فحتى من خلال هذه الآية القصيرة التي ذكرناها تَبيَّن أن القرآن الكريم لم يهمل أي جانب من جوانب الإنسان، بل أرضى رغبة جميع مشاعره الإنسانية بأروع صورة، وأثار فيه الشوق نحو العوالم الغيبية.

وخلاصة القول: إن افتتان الإنسان -كما يُفهم من الآية- بما هو جميل أمرٌ فطري وطبيعي للغاية؛ فالله الذي أودع فيه هذه المشاعر، قد شفَّر الآيات القرآنية والكونية بهذه المشاعر وأودعها في أحاسيس الإنسان، ولكن رؤية كل ذلك وإدراكه إنما يكون بتطوير البصيرة والفراسة والفطنة ونحوها من القوى الإدراكية عن طريق الأفعال الإرادية.

ب. الإنسان ينفر من القبيح

لقد حاولنا آنفًا أن نبين من خلال بعض الأمثلة كيف أن الإنسان مفطورٌ على الولـع بالأمور الجميلة، وكيف أن القرآن يُحرِّك هذه المشاعر ويُثيرها.

ومن المفيد الوقوف عند هذه النقطة ثم النظر إلى الوجه الآخر لهذه اللوحة؛ فالإنسان المولَـع بالأشياء الجميلة يحمل -في الوقت ذاته- في داخله الإحساسَ بالنفور تجاه الأمور القبيحة. تُرى، من أين ينبع إحساسه هذا؟ قد يكون من المناسب أن نبحث عن الجواب على هذا السؤال في القرآن الذي هو منبع الحلول لكلّ مشكلاتنا.

إن القرآن يثير مشاعر البغض المغروزة في فطرة الإنسان، ويحرّكُها فيتخذُها وسيلة للوصول إلى الأهداف التي يُتوصَّل إليها بالمحبة، فهو من جانبٍ، يَعرض للأنظار الجنةَ التي تفوق حدود

التصوّر، ومن جانب آخر، يُصور جهنم بكلّ ما يثير مشاعر الدهشة والكره ويقدمها لوجداننا في صورة منفّرة: ﴿**إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ۞ طَعَامُ الأَثِيمِ ۞ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۞ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۞ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۞ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۞ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**﴾ (سورة الدُّخَانِ: 44/43-49).

ففي حين أن أهل الجنة يتنعّمون بكلّ نعمها ويتلذّذون بأطايب طعامها وينهلون من سلسبيل شرابها نجد أن شجرة الزقوم أمَّ ثمرات الجحيم الخبيثة هي طعامُ أهل النار الذي تتمزّق منه الأفواه، وتتقطّع منه البطون ويا ويلهم من هذا "الطعام"؟!

أجل، يُفهم من خلال هذا التصوير القرآني أن أهل الجنة حينما يرون حال أهل النار يُدركون مدى ما هم فيه من النعمة بكل جلاء ووضوحٍ؛ وبالمقابل حينما يَرى أهل النار الجنةَ يدركون مدى ما حُرموا منه من النعمة.

فما أروع التصوير القرآنيَّ والكلماتِ التي يختارها القرآن في ذلك، والمواضيعَ التي وردت فيها هذه الكلمات؛ حيث تبدأ الآية بالحديث عن الزقوم، فإذا كان الزقوم سيُؤثر في الجسم تأثير المعدن الذائب دائم الغليان، فإنَّ تصور وقوع هذا الغليان في جوف الإنسان يثير كل ألوان الرهبة وصنوف الرعب.

وفي التعيبير القرآني هنا بـ"المُهل" (أي المعدن الذائب) إشارة إلى نكتة لطيفة؛ حيث إن الجميع يعرف أن الماء حينما يصل إلى درجة معينة من الحرارة فإنه يغلي وله أزيزٌ عالٍ، ولكن كثيرًا من الناس لم يكونوا يتصوّرون تمام التصوّر في تلك الأيام التي نزل فيها القرآن كيف أن المعادن من أمثال الحديد والنحاس والفولاذ تُصهر في البوتقات تحت درجات عالية من الحرارة، فالقرآن الكريم لِيوضّح هذا الأمر لأهل ذلك العصر مثَّل لهم بغليان الماء الذي يعرفون كيفيته، فبذلك التشبيه قرّب إلى أفهامهم شجرة الزقوم.

أجل، ما أشد وقْعَ هذه التعبيرات على الأسماع! حقًّا إنها تُعبّر عن فجاعة هذه العاقبة الوخيمة التي تنتظر أمثال قارون والسامري الذين قضوا حياتهم الدنيوية أعزّاء كرماء، ولكنهم لم يتفكّروا

فيمن أغدق عليهم تلك النعم ولم يُدركوا الغاية منها! نعم، سيُقال لمن عاش حياته في الدنيا ناكرًا للنعم على هذه الشاكلة: ﴿**ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**﴾، وسيُصبُّ عليه من فوق رأسه الماءُ المَغليّ.. فالإنسان أمام هذا التصوير القراني الرائع يرتعدُ كلُّ كيانه خوفًا من هول جهنم فيلتجِئ إلى الله.

وهناك مثالٌ آخر يتعلّق بالموضوع، وهي آياتٌ من سورة النبإ: ﴿**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۞ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ۞ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا**﴾ (سورة النَّبَإِ: 78/21-23)، ومن الجدير ذكره أن المُدود التي فيها هي أيضًا تُشارك المعنى والمضمون في التصوير؛ ففي معرض الحديث عن خلود أهل النار نجد أن كلمةَ "فيها" التي تُمَد مدًّا منفصلًا تعبِّر بجرَسِها عن هذه المُدّة المديدة، وإضافةُ كلمة "أحقابًا" التي تشير إلى الأبدية تؤكِّد على مكوث أهل النار

إلى الأبد.

فكلّ ما هنا من الأصوات والنغمات والتناغم الموسيقي والمدود تتآزر وتتناغم للتعبير عن هذه المعاني، ويمكن القول بأن هذه الخاصية موجودة في جميع القرآن. أجل، إنه لا يوجد فيه ولو كلمة واحدة تَنْبو عن موقعها أو تصطكّ بالآذان، بل إن كل كلمة.. بل كل حرف فيه إنما هو موجةٌ تعبيرية تتلاقى مع الموجات الأخرى بانسجامٍ علويٍّ فريد.

إن القرآن الكريم يُردف الحديث عن مَشاهد أهل النار بذكر الحظوات التي ينالها أهل الجنة، فيجمع بين الترغيب والترهيب، والإنذار والتبشير؛ لينفذ إلى دواخل الإنسان، فيثير كل أحاسيسه ﴿**إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۞ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۞ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۞ وَكَأْسًا دِهَاقًا**﴾ (سورة النَّبَإِ: 78/31-34).

فالقرآن يتحدّث بأسلوبه الراقي العظيم هنا عن دخول المتقين الجنة وما يحظون فيها من النعم، ولا يصوِّر الباطل، ويتحدّث عن كل الأمور بشكل يتناسب مع الفطرة الإنسانية، فبتصويره هذا يُلهب شوق الإنسان إلى الجنة، فيتمنى أن يدخلها بحيث

لا يخرج منها أبدًا.

وهكذا تَبيَّن لنا من خلال ما سبق أن القرآن الكريم إذا تناول مثالًا من الأمثلة، يتخيّر الألفاظ التي يعبر بها فيقدّمها بأسلوب يتواءم مع المعنى المقصود وكأن الأداء والصوت يسوقك للمعنى؛

أي إن القرآن حينما يريد إيصال أي معنى فإنه يرسمه في لوحة يتناغم فيها مع الحروف والأصوات، وأحيانًا أخرى يصور طبيعة الأشخاص وشخصياتها، وبذلك يحقق ما يريد من الانسجام بشكل معجز، فتعبير القرآن عن أي شيء لا يكون إلا بصورة متكاملة الأجزاء من الصوت والأداء بحيث تكون قد وصلت إلى نقطة الكمال.. وفي النهاية لا يبقى للإنسان إلا أن يقول: ما هذا إلا كلام الله.

ج. القوة التعبيرية للقرآن

وبعد الحديث -ولو قليلًا- عن كيفية تعبير القرآن عن مشاعر الإنسان، لنتحدّث ببضع كلمات عن المادة التي يستخدمها القرآن:

إن كون الكلام معجزًا، لا طاقة لجميع البشر على معارضته، وتحدّيه على مدى التاريخ لجميع دهاة القول وأرباب الفكر لَيدلُّ على أن كلماته التي وردت في تراكيبه ليست كلمات عادية، بل هي ألفاظ نورانية لها عمق استثنائي ولها لون يخصّها، ولذلك هي مادّةٌ لتعبيرات تفوق حدود تصوّرنا.

فلذلك نرى أن القرآن المعجزَ البيانِ حينما يختار ما يورده من الكلمات يتّخذ أسلوبًا لا مجال فيه للَّبس والإبهام، وحينما نبحث في هذا الموضوع نلاحظ أن هذا الاختيار يقع على شكلين:

الأول: أن الكلمة استُخدمت مباشرة في المعنى الذي سيقت له.

الثاني: أنه لو استُبدلت هذه الكلمة الواردة بكلمة أخرى، لوجدتَها نابية عن مكانها، ولظهَرَ أنها لا تفي بالمعنى المراد على الوجه المطلوب.

ولنوضّح ذلك بإيراد الأمثلة، ولعله من المفيد أن نورد الأمثلة من الشق الثاني الذي يلفت النظر بشكل أكثر:

المثال الأول:

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾ (سورة البَقَرَة: 168/2).

فالملاحَظ هنا باختصار: هو أن الآية تريد أن تنهى المؤمنين عن الانقياد للشيطان وعن اتِّباعه.. فالكلمة التي اختيرت هنا هي قوله تعالى: "لَا تَتَّبِعُوا" وهي مشتقة من تَبِع، وهي تدل على المعاني التالية:

1- أن يتّبـع الإنسانُ شخصًا ويمشي وراءه..

2- أن يتوافق الإنسان مـع شخص ويصبح كالقمر بالنسبة إليه.

3- (وإذا كان من باب الافتعال يكون المعنى:) أن تصير متابعة الآخرين طبيعةً للإنسان.

فإذا حلَّلنا الكلمة من خلال هذه المعاني تجلّت لنا الأمور التالية:

إننا إذا زدنا على الأصل الثلاثي للكلمة حرفين وحولناها إلى باب آخر، فستكون الكلمة منبعًا لمعان أخرى؛ بمعنى أن الكلمة حينما تكون في قالب فإنها تدل على معنى غير المعنى الذي تدل عليه حينما تكون في قالب آخر.. ففي هذه الآية ورد فعلُ: "تبـع" من باب الافتعال: فيكون المعنى على هذا: لا تُطيعوا الشيطان ولا تكونوا أتباعًا له، ولا تُحاولوا أن تتبعوا خُطاه بأن تدوسوا على نفس الموضـع الذي يدوسه خطوة بخطوة.

كما أنه يفهم من ذلك معنًى إجمالي كما يلي:

إن الشيطان كائنٌ دسّاس، وحينما يقوم بوساوسه يقوم بها خفية، خطوةً خطوةً، في خطة محكمة؛ بحيث يصعُب على المرء إدراك ذلك؛ فهو يخطو خطوة ويجعل الآخرين يتابعونه، والإنسان الذي يتبعه يستصغر الأمر في أوله، قائلًا: "ماذا يضير؟ كل ما في الأمر خطوة! فيتابعه وهو لا يدري أن الشيطان سيجعله يردف هذه الخطوة بخطوات؛ فما هي إلا خطوتان، تتبعهما الثالثة... وبعدها يصبح عبدًا طائعًا للشيطان فيهوّن عليه المعاصي ويسهل له طريقها ويزين له المنكر حتى يؤدي به في نهاية المطاف إلى أوحال يستعصي عليه التخلّص منها.

فقوله تعالى: ﴿**لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**﴾ يتحدث لنا عن اتِّباعٍ من هذا القبيل، فهذا الاتباع يكون في البداية من حيث لا يشعر به الإنسان، ولكنه في نهاية المطاف يتحوّل إلى مسيرٍ يُصبح جزءًا من طبيعة الإنسان وبُعدًا من سجاياه. أجل، إنه لا يتأتى للإنسان في كثير من الأحيان الإحساس به،

وكثيرًا ما يُصبح الزمام بيد الشيطان عقب تلك الخطوة الأولى.. فبناءً على هذا نفهم من قوله تعالى: ﴿**لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**﴾ تنبيهًا مفادُه: لا تجعلوا اتِّباع الشيطان طبيعة لكم.

إضافة إلى ما سبق تُصوِّر لنا الآية حالة نفسية أخرى للإنسان؛ فهو عندما يرتكب خطيئة أو يقترف ذنبًا يهوّن على نفسه قائلًا: "لا ضير، إنه أمر هين"، ولكنه لا يدري أن في الخطيئة مهما صغُرت طريقًا يؤدي إلى الكفر، فإذا لم يتب مقترف هذه الذنوب التي تبدو له صغيرة، فستتحول إلى ثعبان شرس يلدغ القلب فلا يصحو بعده، وهذه النقطة هي مرحلة الكفر، والعياذ بالله.. فالآية إذ تتحدث لنا عن هذه الخطايا تستخدم أسلوبًا يحس السامعُ من خلاله بوطأة الذنب وثقله في روحه.

ومن الممكن استبدال كلمة "لا تتبعوا" بكلمة مرادفة لها، لكنها لن تؤدي المعنى الذي تؤديه كلمة "لا تتبعوا" في التعبير عن أحاسيس الإنسان ومشاعره وعواطفه وطبيعته وسجيته، وبذلك لن تؤثر في السامع كما تؤثّر الكلمة الأولى.

أجل، إنها لن تعبر بهذه السهولة عن مراوغة الشيطان، ولا عن تفكيره بالاقتراب نحو الهدف خطوة خطوة، ولا عن انزلاق الإنسان نحو الكفر بالذنوب الصغيرة من حيث

لا يشعر.

ويتضح من الأمثلة التي سردناها إلى الآن، والتي سنسردها لاحقًا، أن القرآن يختار كل مادته كلمةً كلمةً وحرفًا حرفًا بدقة متناهية، حقًّا إنه كلامٌ لِقدير ذي جلال، لم يكن لأحد أن يأتي ببديل له ولن يكون.

المثال الثاني:

ومن الأمثلة البارزة التي تُبين أن الألفاظ القرآنية قد اختيرت بعناية فائقة، وأنه إذا بُدّلت هذه الألفاظ بغيرها فلا يمكن الحفاظ على نفس ما تؤديه هذه الألفاظ قولُه تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾ (سورة التَّوْبة: 38/9).

فهذه الآية تلوم أولئك المتكاسلين المتهاونين الذين تملّك شعورُ الراحة والدعة من أرواحهم، وبهجةُ الرياض والبساتين وحبُّ الدعة من نفوسهم فتخلّفوا عن الجهاد، فهم لا يُعيرون سمعًا لنداء الدعوة إلى الجهاد الذي يشترك فيه الجميع بأنفسهم وأموالهم فلا يبالون ولا يشاركون.. ففي سياق تصوير حال هؤلاء ورسمه بأبرز خطوطه يقول الحقَّ سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**﴾ (سورة التَّوْبة: 38/9).

فكلمة "اثَّاقَلْتُمْ" هنا هي الكلمة المفتاحيّة التي تعبّر تمامًا عن المسألة، وهناك كلمات أخرى مثل: "تَثَاقَلْتُمْ" أو "ثَقُلْتُمْ"، تُفيد معنى المكوث بالمكان جراء الثقل، ولكن القرآن الكريم آثر كلمة "اثَّاقَلْتُمْ" المشتقةَ من الجذر نفسه، ولكن -كما هو معلومٌ لعلماء الاشتقاق- يوجد في هذه الكلمة من التشديد وطريقة التلفّظ بالكلمة ما لا يوجد في غيرها، كما أن ورودَ الفعل على هذه الصيغة له دلالة فريدة من نوعها في تصوير نفسيّة الإنسان الكسول الذي يتهاون عن الجهاد، فطابق ثقلُ اللفظ فيها ثقلَ ذلك المتكاسل.

المثال الثالث:

قوله تعالى: ﴿**وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ**﴾ (سورة الأنْعَام: 31/6).

من البديهي أن رِجلَي الإنسان تحملانه في تنقّلاته.. فلنتصوّرْ أن هناك رجُلًا نحيلًا جدًّا ضعيفَ البنية خائرَ القوى رجلاه لا تقويان على حمله لكنه يحمل على ظهره حِملًا في غاية الثقل فكيف يكون حالُه يا تُرى؟ ومما يثير الاستغراب ويزيد الدهشة أنه يحمل بالإضافة إلى هذه الأعباء أحمالًا لغيره فيرزح تحتها خائر البنيان.

فهذه الآية تَذكُر لنا بتلك القوة التعبيريّة القرآنية الرائعة أن هذا الشخص لم يكتفِ بتورُّطه في المعاصي بل وَرَّط غيرَه، فحَمل أوزارهم مع أوزاره.. ويكفي لإدراك هذه الصورة وتلمُّس أجزائها أن يتصوَّر الإنسانُ صعوبة أن يرزح الجسم الضعيف النحيل مادّيًّا ومعنويًّا تحت ذلك الحِمل الثقيل.. وحينذاك يمكن للسامع أن يلاحظ مدى روعة القرآن ودقته في اختيار الكلمات لرسم هذا الموضوع.

أجل، إن هذه الآية الكريمة تُصوِّر لنا الذنب على أنه وِزر ثقيل يُثقل الكاهل ويُحني الظهر بين يدي المولى ﷻ، ثم تذكر لنا كيف أن هذا العبء يُذِل الإنسان في الدنيا والعقبى.. فإذا استَحضر السامعُ كلَّ هذه القناطير المقنطرة من أعباء الذنوب وتصوَّرَ إلى جانب هذا العناءِ ما سيقاسيه هذا الإنسانُ في طريقه من منحدرات صعبة ومنعرجات قاسية، فسيدرك ما تحمله الكلمات من المعاني وما في المعاني من العمق مما يزيد التأثير إلى مدى يفوق حدودَ التصوّر.

أجل، إن الذين يحملون على ظهورهم الأحمال هم في الغالب مخلوقاتٌ من نوع آخر؛ لأن الإنسان لم يُخلق بتكوين يستطيع أن يحمل على ظهره الأحمال، إلا أن القرآن قصد مغزى جليلًا حينما عبر عن ثقل الذنوب بالأوزار، وكيفيةِ حملها، وشعورِ الإنسان بوطْأَتها على وجدانه، فحينما يتلو الإنسانُ الآيةَ بهذه النظرة فإنه يَشعر هو أيضًا بجميع ذنوبه وكأنه يحمل على ظهره عبئًا ثقيلًا.. وبهذا نلاحظ بجلاءٍ كيف أن القرآن يستخدم مادّته بدقة متناهية بحيث إننا لو بدّلنا هذه التعبيرت بتعبيرات أخرى لم تؤدّ نفس الغرض والموسيقى ولو كانت مرادفة لها.. وهذا أيضًا من الأمور التي تبرهن على أن القرآن معجز من هذا الجانب.

د. الترابط بين المبنى والمعنى في القرآن الكريم

إن الكلمات التي يختارها القرآن الكريم تؤدّي المعنى المراد من دون أي نقص أو خلل، ولا يمكن العثورُ على أيِّ نقص أو إهمال في هذا الباب، وهذا واقعٌ في كل الألفاظ القرآنية، وهناك أمثلة كثيرة من هذا القبيل، وسنكتفي بمثالين تحاشيًا للإطالة:

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**﴾ (سورة فاطِرٍ: 37/35).

فهذه الآية الكريمة تتحدّث عن الوضع المزري لأهل النار، وإطلاقِهم للعويل والصرخات، ويستخدم القرآن الكريم هنا فعل "صرخ" على باب الافتعال. ونلاحظ في ذلك عدة معان:

1- الصيحة الشديدة

2- البكاء والعويل بصوت عال

3- إطلاق الصرخات وطلب النجدة

4- صيحات أهل النار وصرخاتهم التي لا يُستَمَع لها

5- وَلْوَلَةُ المرأة الثكلى وعويلها على ولدها الميت

فالكلمة غالبًا إذا زاد مبناها تضاعف معناها، إلا أن "عويل المرأة الثكلى" كأنه هو المحور الأساسي لكل هذه المعاني؛ بمعنى أن حال أهل النار يشبه تلك المرأة التي فَقدت ولدها فاحترق فؤادها وأخذت تُطلِق الصرخاتِ يمنة ويسرة وهي تطلب النجدة ممن حولها.. فحينما يدلّ المعنى على هذا المؤدَّى، يدل اللفظ على نفسيتهم، حيث إن الخاء في "يَصْطَرِخُونَ" توحي -بجرسها وموسيقاها- بصيحات هؤلاء الذين فقدوا الأمل فبدؤوا يُطلقون الصرخات المتتالية في يأس وإحباط.

المثال الثاني: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۞ مَلِكِ النَّاسِ ۞ إِلَهِ النَّاسِ ۞ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۞ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۞ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾ (سورة النَّاسِ: 114/1-6).

فقد رُتِّبت الألفاظُ على هذا النحو، وذُكرت الصفات مقدمًا حتى يبعث ذلك في النفوس نوعًا من الشدّ المعنوي تجاه ذلك الوسواس الخناس.

فهذه الآيات تتكلم عن وسوسة الشياطين وكيفية التخلص منها، إلا أن حديثنا سيكون عن المواءمة بين اللفظ والمعنى.

وقد ذكرنا فيما سبق أن الشيطان مخادعٌ للغاية، وهو بمراوغته يلقي في قلوب الناس الشبهات والدسائس من دون أن يحس به أحد، فهذه الآيات تنبه الإنسان تجاه حيل الشيطان الخفية، ونلاحظ أن القرآن الكريم إذ يتحدث لنا عن هذا الأمر يستخدم أسلوبًا يشعر الإنسان من خلال كل كلماته بهذه المراوغة الخفية.

فكل الآيات في هذه السورة تنتهي بحرف السين، وبذلك تلفت الأنظار عن طريق الجناس الصوتي إلى همسات الشيطان ووساوسه وفتنته، حتى يحذَرها الإنسان، ويُفهم من هذا أن كل ما لدى الشيطان من القوة والسلاح والأدوات إنما هو عبارة عن مكر ووسوسة؛ فهو يحاول أن ينتهز

الأوقات التي يضعف فيها الإنسان ليغويه ويصرعه، وحينما يعقد العزم على الغواية فإنه يستعمل ألف نوع من مصائده الخفية ليقوم بعملية الإفساد في القلب والعقل، ويخطط لبسط نفوذه على الإنسان عن طريق التحكم في نقاط ضعفه.

إن هذه السورة إذ تحذّر الإنسانَ بكل حروفها من هذا الوسواس المراوغ، تحفّزه وتشوّقه في الوقت ذاته للتوجّه إلى ربه المطّلع في كلّ وقتٍ على كل شيء، ويمكن أن نتلمس من خلال كلمات سورة الناس أن هذه الروح الشيطانية موجودةٌ في كل روح خبيثة مثيرة للفتن؛ حيث إن الألفاظ تشارك المعاني بهمسها وصفيرها في الدلالة على الهمس والخفاء، وبالتالي فإن الإنسان مهما رفع صوته حينما يقرأ هذه الآيات فإنه لن يتغلّب على ما تدلّ عليه الألفاظ من الأصوات والنغمات.

ويمكن لنا أن نأتي بأمثلة أخرى لزيادة الإيضاح، إلا أن المساحة هنا لا تتسع لإيرادِ المزيد، فليس الهدف الحديث عن جميع ما في القرآن، بل المقصود إيراد بعض الأمثلة التي تدل على إعجازه من هذه الناحية أيضًا، حتى ننبّه العقول والضمائر والمشاعر والأذواق تجاه القرآن، ونستثيرها نحوه.

وقد تَبيَّنَ لنا من خلال ما سردناه من الأمثلة أن الكلمات القرآنية تُوائم بين اللفظ والمعنى؛ فكما أنها لا تهمل المعنى المقصود ولو بجزئية من جزئياتها، فهي تتمتع بنغم صوتي مختلف، فكل من يرغب ويحرص على قراءته فإنه سيتذوق من التناغم والموسيقى ما لا يمكن تقليده، وبالتالي فسيخشع تجاهه.

ونسأل المولى المتعالي ﷻ أن يرفعنا إلى سماء القرآن معجز البيان.

هـ. الموسيقى اللفظية للقرآن الكريم

إن الإنسان من الكائنات التي تحتاج إلى الاستراحة بعد التعب، وهذه الحاجة فطرية فيه، وإذا لم تُلَبَّ الحاجاتُ الفطرية بِطرقٍ مشروعة، فسيحدث الانحراف نحو الطرائق غير المشروعة، لكن

القرآن الكريم كما تولّى تلبية الحاجات الروحية فقد تولى تلبية المؤمن في كل الحاجات المشروعة؛ لأنه نزل ليحل المشاكل الفردية والاجتماعية.

والإنسان إلى جانب أنه كائن اجتماعي، فهو كائن حيٌّ مركّب وله خصوصيات كثيرة.. أجل، إن كل إنسان له مشاعر وأذواق وحالات روحية خاصّة، وإذا كان المجتمع المثالي لا يتكوّن إلا من أفراد مثاليّين، فعليه إذًا أن يُنشِئ أفرادًا مثاليّين للوصول إلى مجتمعٍ مثالي، وكمالُ أيِّ فردٍ من الناحية الروحية والأخلاقية منوطٌ بتربيته من كل النواحي، ومن هذا المنطلق فإن أوّل ما يجب فعله في أيِّ مجتمع هو إعداد أفراد نافعين للمجتمع والحياةِ الاجتماعية، والقرآن قد جاء بقيم مادية ومعنوية وروحية وأخلاقية واجتماعية ونفسية.. و-في الوقت نفسه- أتى بمنظومة تربوية من شأنها أن تكوِّن أفرادًا أقوياء ومجتمعًا متماسكًا.. وهو بهذا الاعتبار كتابٌ صمداني كاف ووافٍ بجميع حاجات البشر إلى قيام الساعة.

ومن خلال ما سبق لعلنا نلحظُ أن:

1- القرآن يلبي حاجات الإنسان الفطرية في التمتّع بالنغم الصوتي

فلدى كل إنسان ميلٌ فطري نحو القول الحسن والصوت العذب، وقد طور الناس في كل أنحاء العالم آلاتٍ موسيقيّة مشروعة وغير مشروعة لإشباع هذه الرغبة الفطرية فيهم، فكلّ هذه الجهود تدلّ على فطرية ما لدى الإنسان من هذه الرغبة.

ولا مرية أن للمسلمين أيضًا ثقافة موسيقية تخصّهم، فالكتب الفقهية تناولت حكم الاستماع إلى الموسيقى وناقشته ووَضعت بعض الحدود بين المشروع منها وغير المشروع، ونحن نحيل الخوض في تفاصيل هذه المناقشات إلى تلك المصادر، وسنتكلم عن موسيقى القرآن.

أجل، فكما أن القرآن المعجز بيانُه دواءٌ لكل داء فهو من السعة والعمق بحيث يلبّي حاجات المؤمن الموسيقية في شتى أحواله، فيجوز له أن يستمع للقرآن قائمًا وقاعدًا وعلى جنْبِه وكل حين، وما ورد في بعض الكتب الفقهيّة مما يدلّ على كراهة تلاوة الإنسان للقرآن وهو يزاول عمله أو يمشي أو يستلقي، فهو أمر يتعلق بالآداب ولا يستند إلى دليلٍ قويّ، بل إن قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ**

يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 191/3)،

يحثّ المؤمنين -في ضمن ما يحث عليه- على أن يلهج لسانُهم بالقرآن في قيامهم وقعودهم وحتى حينما يكونون على جنوبهم، صحيحٌ أن تعظيم القرآن وتدبر معانيه أمر مهم جدًّا، إلا أن ذلك قد لا يتحقّق في كل حين.

وقد حاول بعض من لم يدرك هذا الجانب القرآني أن يجيزَ نوعًا من الموسيقى الصاخبة المستوردة من الغرب بزعم إشباع النهم العاطفي الفطري لكنه لم يدرك أنها لا تحرّك شيئًا من المشاعر المتجهة نحو المعالي، مثل الشوق إلى الجنة أو حبّ الوطن والأمة أو سائر المشاعر العُلوية الربانية بل على النقيض من ذلك؛ فكل القيم الصاخبة الدنيئة المستوردة تعكّر صفوَ قلوب أبنائنا وأرواحهم وعقولهم، وتُطفئ فيهم الجذوة الروحية الملائكية، وتوقظ كلَّ ما في ماهية الإنسان من المشاعر السفلية، وتُفسِد المشاعر العُلوية، وإذا استمع المؤمن إلى القرآن ولهجَ به لسانُه فقد لبّى حاجته بطريقٍ شرعي، وأشبع كذلك رغبة فؤاده المشتاق إلى المعالي، وبذلك نتخلّص مما يبعث القلق في قلوبنا.

إن المهمة الأساسية التي تقع على عاتق المؤمن هي أن يُثري جميع وقته بالقرآن، وأن يحاول فهمه بحقّ، ويسبر أغوار لغتِه، ويتابع المواضيع التي يتناولها من خلال أحد التفاسير، وإذا استطاع أن يسمع القرآن من قارئٍ يتلوه بأداء متميز، فإنه لن يحتاج إلى أمرٍ آخر، وهذا الأمر له علاقة بتربية المجتمع بأكمله.

أجل، إذا جُهّزت كل الأمكنة بدءًا من المسجد وانتهاء بالمنزل بأنواع الموسيقى القرآنية الربانية، وتذوَّقه الأفراد واستمرؤوه، وخالط شغاف قلوبهم فحينذاك يتّخذ المجتمع سبيله الصحيح.

ولقد قال الناس وكتبوا حول "الموسيقى القرآنية" إلى يومنا هذا أمورًا كثيرة، ولعل هناك من يستغرب هذا التعبير، ولكني أظنّ أن ذلك قد نشأ من الخطإ في فهْمِ المقصود بذلك أو أن القائلين بذلك لم يحسنوا التعبير عما يقصدون كما ينبغي.

أجل، إن بعضًا من الناس إذا ذُكرت عندهم الموسيقى يفهمون أمورًا مخصوصة، ويبنون أحكامهم بناء على ذلك الفهم، ولذلك عندما تُنسَب الموسيقى إلى القرآن يستغربون ذلك، ولكن كما عرفنا آنفًا فالقرآن له جرسٌ وأداءٌ وأسلوبٌ يخصّه، وله لحنٌ فريد في نوعه، وأحسب أن اللبس نابـع من نظرتنا الضيّقة للموسيقى.

وإذا صحّحنا نظرتَنا إلى الأمر فلن تذهب أذهانُنا إلى تساؤلات من نوعِ: هل المقصود بذلك الموسيقى الكلاسيكية أم الحديثة؟ لأن القرآن المعجز البيان هو هو بكل جوانبه، ولبيانه وقْعٌ فريد في نوعه.

وكما أشرنا من قبل فإن القرآن يُخاطب فطرةَ الإنسان، ويستجيب للمشاعر الموجودة في فطرة الإنسان، وكما أن الإنسان تتحرّك مشاعره وأحاسيسه المكنونة إذا سمـع صوتًا عذبًا فكذلك القرآن فهو على رأس أنواع البيان التي تهيِّج المشاعر الإنسانية على أحسن وجه، وإذا كان الإنسان ميّالًا بفطرته للشجاعة والبطولة والتضحية، فكذلك له ميلٌ نحو الصوت الحسن والترنّم الجميل، فإذا تحقق التوحّد بين القرآن وقارئه فإن قلبَ السامـع ينتشي له بحيث لا يبقى بداخله ميلٌ ورغبة نحو أيّ شيءٍ آخر.

ولنوضّـح ذلك بشيء من التفصيل:

قد يمتعض بعض الناس من بعض أنواع الكلام، لكن القرآن إذا تم أداؤه بروحه وحقيقته وإيقاعه فلن يمتعض منه أحد منصف.

وقد تطوّرت مراحل قراءة القرآن وفقًا لمفاهيم وتقاليد بعض البلدان؛ فمثلًا: أصبح من عادة القراء أن يقرؤوا القرآن حسب المقامات الموسيقية الكلاسيكية من الصبا والعشاق والحسيني والنهاوند والحجاز والعجم شيران والعجم كردي وغيرها.. ولا يزال في أيامنا هذه من يواصل ذلك نوعًا ما، ولعلهم توخّوا من وراء ذلك تقديم القرآن إلى السامعين بشكلٍ حسن حتى يزيدوا من تأثيره عليهم، وقد يكون هذا صحيحًا أيضًا.. إلا أن هذا التغيير الذي حلّ محل ذلك الأسلوب القرآني واللهجة القرآنية قد أحدث فراغًا هائلًا، لأن القرآن المعجزَ البيان له موسيقى خاصّة تتجلّى

في وجوه قراءاته بكل تلويناته المتعدّدة وأدائِه الطريّ الذي لا تملّ المسامع منه، ولذلك إنني انطلاقًا من هذا الهاجسِ وبعد أن أقام الناسُ هذه الأمور مقام ذلك الإيقاع القرآني الخاص المبارك قلت في نفسي مرارًا وتكرارًا: إنه لا يجوز حبس القرآن في القوالب الموسيقية الضيقة، لأن ذلك لن يحافظ على كيفيته ولن يُبقي على خاصّيته المتجلّية في وجوه قراءاته وأدائه الطري الذي لا تملّ المسامع منه، وخاصة إذا تم أداؤه بتلك المقامات الفاسدة المملّة التي تؤدي إلى العبث بروحه، ففي تلك الموسيقى مدٌّ للصوت بدون مبرّر، ودندنة في الفم لا قيمة لها، وإدخالٌ للألفاظ والكلمات في أشكال تُحوِّلها إلى ألفاظ مهملة،

لا يخفى ذلك على أبسط العوام.

نعم، يمكن للإنسان أن يرى مثل هذه الانحرافات النغمية في أحسن القصائد الملحنة، إلا أن القرآن يأبى كل ذلك، ولا تناسبه التمديدات والترجيعات التي لا معنى لها، ولو في نهاية الآيات. نعم، قد يفعل البعض منا ذلك، ولكنه مناف لروح القرآن.. وقواعدُ التجويد تناسب روح القرآن، فالأساس هو مراعاة هذه الأسس أثناء قراءة القرآن، لأن كلّ كلماته وألفاظه جاءت موافقة لهذه القواعد، ولكي يبعث القرآنُ في النفوس الشوق والحماس لا بد أن تطبَّق هذه القواعد، حتى ينسجم القرآن مع جوِّه وأدائه، وعلى القارئ أن يراعي ما تستتبعه قراءته وتوقظ في داخله من المشاعر والأحاسيس، بدلًا من مراعاة القوالب الموسيقية الجافة.

فالقارئُ الذي أرخى لنفسه عنانها من هذا المنظور في شلال البيان القرآني سينسجم مع القرآن، وينتهي الزمان والمكان بالنسبة له فنجده قبل أن ينتقل من كلمة إلى كلمة إذا بلسانه يتلوها تلقائيًّا بما يناسبها من الصوت والجرس والأداء..

والقارئ الماهر يدخل إلى أعماق القرآن، ويسلِّم له قلبَه وأحاسيسه، ويصبح مهيَّأً بحاله وروحه لفهم معنى القرآن ومحتواه، فبعد هذه المرحلة يتدفّق من لسانه ما يترنم ويتغنى به من القرآن عذبًا فراتًا ينتشي منه السامعون ويخالط أفئدتهم.

ولو استطَعنا أن نُسمِع أجيالنا ما يقرؤه القراء المهرة الذين برعوا في هذا الميدان من التلاوات التي تجيش لها القلوب لأنقذناهم مما يريده الآخرون من إفسادٍ لأذواقهم وفطرتهم.

ولعلّنا أخطأنا بسبب ضيق الألفاظ حين وصفنا القرآن بأنه مثل قصيدة منظومة من حيث النغمة واللون والموسيقى وكنا نقصد إظهار حسنه البديع فنسأل الله تعالى أن يغفر لنا ذلك.

والقرآن الكريم بعيد كل البعد عن الألفاظ والأشعار المنظومة التي تَنتُج عن القريحة البشرية وتنسكب في قوالب معينة، والقرآن ينص على ذلك حيث يقول: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ**﴾ (سورة يس: 69/36).

وإذا كان الشعرُ سلسلة من كلمات محبوسة في قوالب الإدراك البشري، وتُستلهم من الطبيعة، وتنبع من فيض المشاعر؛ فإن القرآن لم يدخل قط تحت أسرِ ما في الشعر من الوزن والقافية، ولم يخضع لموازين معينة، فالآيات تشبه في بعض جوانبها نجومَ السماء الطليقة في فلكِها؛ فكلّ نجم مع أنه فرد تابع لمجموعة ينتظم في دائرتها، لكنه يلمع وحده أيضًا.. وكذلك كلّ آية من الآيات الكريمة أيضًا مرتبطةٌ في نظامها الداخلي بغيرها، لكنّك إذا تناوَلْتها بمفردها فإنها تفيدك معاني مستقلّة أيضًا.

ولم يحدُث في أي عصر من العصور أن ارتقى فكرٌ إلى مستوى الأسلوب القرآني فضاهاه في التعبير؛ لأن القرآن الكريم فاق الفكر البشري في كل الأزمان فلا قوالب ضيقة تحدّه ولا فكر بشري يدركه؛ لهذا ولذلك نلاحظ أن كل أنواع الموسيقى القديمة والحديثة تتقادم فتُتْرَك لكن القرآن لا يبلى، بل يظل على ثرائه وعمقه وجدّته بشكل

لا يقبل المقارنة.

ونختم هذا الفصل بسورة "العاديات" باعتبارها خيرُ مثال على ذلك: ﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۞ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۞ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۞ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۞ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۞ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۞ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ۞ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۞ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۞ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ**﴾ (سورة العَادِيَاتِ: 100/1-11).

تبدأُ الآيات وكأنها تُصوِّر ساحةَ معركةٍ، حيث نرى أن الكلمات التي اختيرت وما فيها من الجرس والصوت والموسيقى تجرنا إلى ساحة معركة حامية الوطيس، وتطوف بنا بين خيول تملأ المكان بما تثيره من النقْع والغبار، والذين يسرحون في عالم الخيال الفسيح ممن تعمقت آفاقهم حينما يقرؤون السورة ويُنصتون لهذه الموسيقى القرآنية سيسمعون بكل سهولةٍ تلك الشرارات التي تنطلق من فُوَّهات الدبابات، ومن حوافر الخيول، وما يُطلقه المجاهدون من صيحات وتكبيرات.

ولا بد من التنبيه إلى أن هذا الأمر منوط بمستوى ذوق القارئ الأدبي، ومن الطبيعي تفاوت الأذواق فما كلّ أحد يتذوّق ذلك، وإذا توحّدت أجيالنا في المستقبل بالقرآن بتوفيق **الله** وعنايته فستستشعر بإذن **الله** كل خاصيات القرآن وستمتلئ حينذاك الأرواحُ والقلوب والمشاعر بدلالاته الفريدة.

2- ملاحظة بسيطة حول القرآن الكريم والصوت الجميل

إن كلّ الناس من لدن عصر السعادة (صدر الإسلام) إلى يومنا هذا قد اتفقوا على أنه يُستحسن تلاوة القرآن بأداء يهيِّج القلوب، وعمقٍ يفيض بالانشراح في الصدور.

وهناك عدة روايات حول قراءة القرآن بصورة جميلة، ومن ذلك:

1- عن البراء بن عازبt أنه قال: سَمِعت النَّبِي ﷺ قرأ في العشاء بـ﴿**والتين والزيتون**﴾، فما سَمِعت أحدًا أحسن صوتًا منه[49].

ولا بد لي من القول: إذا كان القارئ هو الرسولr، والسامع صحابيًّا فليس من الممكن لنا أن نتصوّر مدى ما يحسّ به السامع من اللذة.

وهذا يعني أن صاحب القرآن ﷺ إذا قرأه بطعمه الخاص وبأدائه الخاص وبإحساساته واستلهاماته الخاصة، سيجعل سامعه في غاية النشوة وهذا ما جعل أمثال البراء بن عازب ينتشون

---

[49] **صحيح البخاري**، التوحيد، 52.

لِما يشعرون به من اللذة، فقد كانوا يستمعون إليه من سيدنا محمد ﷺ الذي هو مهبط الوحي الإلهي، وهو خير من يقرؤه، وأحسن من يستشعره، وأفضل من يَعلمه ويفهمه.

2- عن البراء بن عازب ﷺ أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: "**زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**"[50]، أي حسنوا ألسنتكم وأصواتكم بحيث تتناسب مع حسن الكلام الإلهي الذي هو حَسَن في حدّ ذاته.

وقد أحسَسْتُ بضرورة ذكر هذا التفسير على وجه الخصوص لأن بعضَ نقاد الحديث المتشدّدين، وبعض الظاهريين لا يقبلون بهذا الحديث رغم وروده في كتب الحديث الصحيحة ويقولون: "إن القرآن جميل ومزينٌ في حدّ ذاته، فلا داعي إلى تزيينه بالصوت، فينبغي أن يكون الحديث: "زينوا أصواتكم بالقرآن"، لأن القرآن لا يحتاج إلى كسب الزينة من خلال أصواتكم، بل على العكس نحن نحتاج إلى أن نُزين أصواتنا به، لأنه جميل في كلّ الأحوال"؛ إلا أن هذا تفسير فيه كثير من التكلّف؛ حيث إن نص الحديث هو: "**زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**".

صحيح أن القرآن له أسلوب رائع وحُسنُ تعبيرٍ يذهل الألباب، ولكن هناك حقيقة يجب التنبه لها، وهي أنه إذا قرأه شخص صوته غير جميل، ولا يعرف قواعد التجويد، ويرفع به صوته بشكل غير مناسب، من دون مراعاة لمخارج الحروف، فلا شك أن هذا سيؤثر في نفوس السامعين وتطنّ آذان الذين يفهمون لغته ولهم باعٌ في موسيقاه، ولا شك أن قراءةً كهذه ستُسئم السامعين منه بدلًا من أن تثير في القلوب الشوقَ نحوه وتحبُّبَه إليهم.

ومن هذا المنظور يمكن القول: إن المقصود من حديث: "**زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ**"، هو الإشارةُ إلى أمر لطيفٍ آخر؛ وهو أن الاستماع إلى القرآن من شخص عذب الصوت يمزج في أدائه بين الصوت والمحتوى ويراعي ما في القرآن من تناغم موسيقي وأحكام تجويد؛ من شأنه أن يغمر الإنسان بالمتعة والجيشان.

---

[50] سنن **أبي داود**، الوتر، 20.

أجل، إن الأصوات الجميلةَ في ذاتها تزداد بتلاوة القرآن حُسنًا وجمالًا؛ لأنه إذا اقترن الأداءُ الحسن مع ما في الألفاظ والكلمات القرآنية من موسيقى وتناغم رائع، فحينذاك تظهر الموسيقى القرآنية الساحرة والفريدة من نوعها.. فعن أبي موسى الأشعري ﷺ أن الرسول ﷺ قال له: "**يَا أَبَا مُوسَى لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**"[51].

ويُروى في سبب ورود هذا الحديث أن رسول الله بينما كان يمرّ مِن أمام دُور الأشعريين سمع تلاوةً قرآنيةً ساحرة تأخذُ بالألباب، فسأل من هناك عن صاحب هذه الدار، فقيل له: إن هذه دار أبي موسى الأشعري، فقال رسول الله ﷺ: "**يَا أَبَا مُوسَى لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**".

والمزمار نوع من آلات الموسيقى، وأما تعبير النبي ﷺ عن ذلك عن طريق تشبيهه بالمزمار، فهو إما لبيان ما تثيره موسيقى القرآن في النفوس من نشوة وحبور أو أنه أراد تشبيه تلاوته بقراءة داود ﵇ للمزامير، أو يشبه ألفاظ القرآن بتلك الكلمات -أي آيات الزبور- التي كان سيدنا داود يسردها بقلب محترق أثناء توبته.

3- وهناك حديث آخر رواه البراء بن عازب، عن رسول الله ﷺ قال: "**حَسِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ، فَإِنَّ الصَّوْتَ الْحَسَنَ يَزِيدُ الْقُرْآنَ حُسْنًا**"[52].

فجميع هذه الأحاديث التي سردناها تُبيّن أن تلاوة القرآن الكريم بأداء جميل وصوت حسنٍ يُشكِّل بُعدًا آخر من التعبير عن توقيره، وينبغي أن يُتناول هذا الأمر في باب خدمة القرآن الكريم وأن يتمّ الاهتمام به بحساسيّة بالغة، ولكن لست أدري هل سيتسنّى لنا أن نشرح كيفيّة تحقيق هذا لجيلنا الذي صار غريبًا عن القرآن فحُرم من الذوق السليم، وأنا شخصيًّا لا أظنّه سهلًا ميسورًا.

---

[51] صحيح البخاري، فضائل القرآن، 31.

[52] سنن الدارمي، 2194/4؛ الحاكم: المستدرك على الصحيحين، 768/1.

الفصل الخامس

فَهْمُ القرآن

إن القرآن من السعة بحيث يشمل جميع جوانب حياة البشر؛ فقد وضع القرآن أحكامًا تتعلق بجميع مجالات الحياة؛ سواء منها الفردية أو العائلية أو الاجتماعية أو الأخلاقية أو الاقتصادية، فعلى مَرِّ العصور نجد كثيرًا من البشر رجعوا -بشكل أو بآخر- إلى الأسس التي جاء بها القرآن واستلهموا منها جميعَ ما يهمّهم من الأمور ونظَّموا حياتهم وفقًا لها، ومع أنه حصلت بعض الانحرافات في الفهوم أثناء الرجوع إلى تلك الأسس القرآنية، إلا أن القرآن ظلّ المنبع الوحيد الذي يدلّ البشرية على سبل الخلاص إذا تم الرجوع إليه بقلب سليم وفي أُطُرِ عقلية الصحابة الكرام وصفائهم.

فلذلك علينا أن ننبه بدايةً إلى أن الانحرافات التي حصلت في فهم القرآن إنما حصلت لعدم تناولِه من منظور عقلية الصحابة الكرام، وإلا فإن هناك آلافًا من المجلدات ظلّت تؤلَّف في كل عصر حول تفسير القرآن، وهذه المؤلفات من المنابع الفياضة بالنسبة لنا من زاوية التاريخ الثقافي الإسلامي.. صحيح أن لهذه المؤلفات جوانب نقص يأسف لها الإنسان باسم القرآن إلا أن ميزاتها وإيجابياتها هي الغالبة عليها بصبغة عامّة.

فأكبر النقائص التي يمكن للإنسان أن يتحدث عنها هنا هي تفسير القرآن تفسيرًا مرتبطًا بعصر ما أو متأثرًا بثقافة عصر ما؛ بمعنى أن بعض المفسّرين لم يستطيعوا أن يتخطوا المستوى العلمي والفكري لعصورهم التي كانوا يعيشونها، وراحوا يخوضون في أمور تُعتبَر تفاصيل من زاوية المستوى العلمي لعصورهم، فلم يستطيعوا أن يحافظوا على التوازن، بل إن هناك بعضًا من المفسرين حاولوا أن يُخضعوا النظرة إلى القرآن للعقلية العلمية التي لم تكتمل في عصرهم، فالمحاولات التي من هذا القبيل مهما كانت تحمل في طيّاتها من نوايا صادقة ومقاصد طيبة إلا أنها تُعدّ تدخُّلًا في مفهوم ومقاصد القرآن، وهو تدخّلٌ هابطُ المستوى وغير حكيم حتى وإن صاحَبَتْه نيةٌ حسنة، لكنّنا مع ذلك، وانطلاقًا من أدبنا الإسلامي نشكر هذه المساعي التي بذلها

أناسٌ مخلصون، ولا تحمل نوايا سيئة، ونقول: شَكرَ اللهُ سعي هؤلاء وجهودَهم التي بذلوها في هذه السبيل.

ولْنستعرض هذا الأمر ضمن التطوّر التاريخي له:

إن الصحابة الكرام هم أناس سعداء حباهم الله بِحَظوةِ تَعَلُّم القرآن من منبع الوحي؛ فقبل كلِّ شيء هم شهدوا نزول القرآن، فاستقرّ معنى القرآن في قلوبهم وعقولهم وهو لا يزال في طور نزوله بكل حيويته ومعناه وطراوته.. فإن أحدهم كان إذا أشكل عليه شيءٌ من القرآن يحُلُّ ذلك عن طريق الرجوع الفوريِّ إلى من أُنزل عليه القرآن ﷺ، ولم يكن يحتاج ما نحتاج إليه من تلك القواعد المنهجية التي وُضِعت لفهم القرآن.

وقد كانوا يتذاكرونه فيما بينهم ويطبّقون ما ينزل من الوحي عقب نزوله، وكأن هذا نوع من الإجماع الضمني فيما بينهم.

صحيحٌ أن هذه العملية ما كانت في تلك الأيام تسمى "إجماعًا" بالمعنى الاصطلاحي، إلا أن هذه العملية أصبحت مصدرًا لما وضعه العلماء لاحقًا من المصطلحات.

وحينما جاء عصر التابعين كانت هذه الفعاليات التي تُجرى حول القرآن لا تزال تحافِظ -بشكل ما- على صفائها على غرار ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ؛ حيث كان الصحابة الذين هم المرجع الوحيد للتابعين في هذا العهد لا يزالون على قيد الحياة، كما لم يكن في هذا العهد أيُّ تدخُّل خارجي أو تأثير لثقافة خارجية، وأما حصول نوع من الخلل في تلك النظرة الصافية إلى تفسير القرآن فقد حدث في العصور اللاحقة، حيث إنه قد تسرّبت ثقافة تلك العصور وعقليتها إلى التفسيرات والتأويلات، ويمكن القول بأن التفاسير أصبحت -من جهةٍ- مجامع للتأويلات بحيث تعكس العقلية العلمية والثقافية لتلك العصور.

ولنختم هذا الموضوع بإبداء ما تحصَّل لدينا من القناعة قائلين: إنه لو تم الحفاظ على جميع ما كان عليه الصحابة وتَحقَّق نقل نظرتهم تلك إلى يومنا هذا سواء في القضايا الأساسية والأصول أو في المسائل المتعلقة بالفروع، لكان فهمُنا للقرآن وتفسيرُنا له أكثر ثراءً وغناءً.

أ. التفاسير القرآنية ذات النظرة الشاملة، والمفسِّرون الذين فاقوا عصورهم

لقد سبق منا آنفًا أن أكّدنا في موضوع فهم القرآن: أن الصحابة ﷺ هم الذين فهموا القرآن الكريم فهمًا جيّدًا وفسروه على أحسن وجه، وذكرنا أن هذه العقلية والفهم استمرّا إلى حدٍّ كبير في عصر التابعين.. فالحقيقة أنه تَربّى في عصر التابعين أئمة أعلام على مستوى المجدّدين بحيث يستطيع كل منهم أن ينوّر عصورًا عديدة.

وكان هذا العهد عهدًا ولودًا مباركًا؛ فقد كان سعيد بن جبير وعكرمة وطاووس بن كيسان من الشخصيات العملاقة التي تتبادر إلى الأذهان.. وقد كان سعيد بن جبير يقول: لقد أخذتُ القرآن من أوله إلى آخره مع تفسيره عن ابن عباس ، وتلقّيت منه مباشرةً هذه الرسالةَ التي انتقلت إليه من النبي ﷺ صافيةً نقيّة، وقد كان كل من هؤلاء علمٌ على رأسِه نار، يُهتدى به في حالك الظلمات.

وكان في المدينة المنورة من هذه الشخصيات العملاقة خلقٌ كثير؛ منهم -على سبيل المثال-: أبو العالية وزيد بن أسلم، وفي العراق علقمة بن قيس، ومن تلامذة سيدتنا عائشة مسروق، ومنهم مُرَّةُ الهمداني، والوجه المشرق للبصرة الحسنُ البصري، فهؤلاء بتفسيراتهم للقرآن قد نوّروا عصورَهم بل والعصور التي تلت عصورهم، بالإضافة إلى أنه كان من المتاح للإنسان في ذلك العهد أن يلتقي بأمثالهم من القامات السامقة في أي بلد مسلم يزوره.

ومن بعد ذلك أُلِّفت في مجال الدراية والرواية آلاف التفاسير المستقلة المستمدة من فهم وعلم هؤلاء الأعلام النوابغ.

وفي سياق ما بذلوه من الاهتمام تجاه تفسير القرآن سنحاول أن نشير إشارة عابرة إلى بعض هذه التفاسير التي تُعتبر نموذجية، على أمل أن يكون ذلك نبراسًا للسائرين في هذا الطريق.

1- نماذج التفسير بالرواية:

أ. تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)

المؤلف هو ابن جرير الطبري .. (224-310هـ) ويعتبَر من رواد التفسير بالمأثور، وقد طبع تفسيره في ثلاثين مجلدًا، وقد ضمَّن تفسيره آراءه الفقهية؛ لأنه كان في الوقت نفسه مؤسّسًا لمذهب فقهي وكان له أتباع كثيرون، فهو فقيه ذو صلاحية ودراية وصاحبُ رأيٍ واجتهاد.

وقد التزم الطبري في تفسيره هذا بفهم الصحابة وحافظَ على الأمور التي نُقلت عنهم والتي نسميها: "الأثر"، وإلى جانب اطلاعه على ثقافة عصره، يُلاحَظ أنه قد سبق ثقافةَ عصره في تفسير بعض الآيات؛ فعلى سبيل المثال نرى أنه في تفسيره لقوله تعالى:

﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**﴾ (سورة الْحِجْرِ: 22/15)، قد اعتمد على ما روي عن ابن عباس وبذلك يكون قد اقترب من الرؤية العلمية الراهنة أكثر بكثير من الذين أتوا من بعده.

وأما الذين أتوا من بعده فقد فهموا تلقيح الرياح الوارد في الآية كما كشفه العلم بعد ذلك من "تلقيح الرياح للأزهار" أي جمع البذور المذكرة مع المؤنثة، والحال أن هناك أمرًا آخر لم يُكتشَف إلا في الآونة الأخيرة، وهو تلقيح السحب وهو من الوظائف المهمة للرياح، فبهذا تتداخل أجزاء السحب وتتراكم، و-بتعبير بسيط-: هكذا يتكوّن المطر.

يقول ابن جرير: حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جريج، عن ابن عباس "لَوَاقِحَ" قال: "تُلقح الشجر وتُمري السحاب"[53].

فنلاحظ أنه في تفسيرٍ أُلِّف قبل أحد عشر قرنًا تُقدِّم معلومات تُطابِق المعطيات العلمية لعصرنا.. وأنا شخصيًّا أعتقد أن الطبري إنما وصل إلى هذه النتيجة بالتمسّك بعقلية الصحابة، في حين أن الذين أتوا من بعده لم يرقَوْا إلى هذا المستوى لأنهم اعتبروا معارف عصرهم وكأنها حقائق مطلقة.

ب. تفاسير أخرى

[53] الطبري: **جامع البيان في تأويل القرآن**، 88/17.

ويمكن أن نضيف إلى تفسير الطبري في باب التفسير بالمأثور، تفسيرَ "بحر العلوم" لأبي الليث السمرقندي (ت: 373هـ)، و"الكشف والبيان عن تفسير القرآن" للثعلبي (ت: 427هـ)، و"المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" لابن عطية (ت: 542هـ).

فهؤلاء قد جمعوا كلَّ ما روي عن الرسول ﷺ فيما يتعلق بالتفسير وسجلوه في مؤلّفاتهم، فنحن بدورنا نرى في الغالب من خلال هذه التفاسير كيف تَحقق فهم القرآن صافيًا نقيًّا وعلى مستوى أفق الصحابة، ومعلوم أن فهم الصحابة ﷺ كان مرتبطًا بفهم سيدنا محمد ﷺ الذي هو مهبط الوحي.

ونرى في العصور اللاحقة في مقدمة المفسّرين في هذا الباب مؤلف تفسير القرآن العظيم أبا الفداء ابن كثير (ت: 774هـ) الذي عاش قبل خمسة أو ستة عصور تقريبًا، وهو في الوقت نفسه من كبار النقاد، وقد نقَّى التفسير من كثير من الإسرائيليات، وأسهب في الكلام عن بعض الأحاديث من حيث الجرح والتعديل.. كما نرى بعده بحوالي قرن من الزمن مؤلّف "الدر المنثور" جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)، وهو بدوره حاول أن يجمع جُلَّ ما كُتب في باب التفسير بالرواية.

ولسنا هنا بصدد الحديث عن كل ما قيل حول التفسير بالمأثور، بل كان قصدُنا أن نقدم فكرةً من خلال التطرّق لأهم ما كُتب في هذا المجال، وهؤلاء المؤلفون قد جمعوا في مؤلفاتهم حوالي عشرين-ثلاثين ألفًا من الأحاديث، والذين جاؤوا من بعدهم من بعض المحقّقين قد قاموا بتحقيق هذه الأحاديث ونقدِها.

ولقد نشأ في مجال التفسير بالدراية والرأي أيضًا علماء عباقرة لا يقل مستواهم عن علماء التفسير بالرواية والمأثور، وهؤلاء العلماء أيضًا قد أدرجوا مؤلفاتهم كثيرًا من ثقافة عصرهم، ولكن علينا أن نعترف أن كثيرًا من محتوَيات هذه التفاسير تُعتبر بالنسبة لنا كنوزًا معرفية حافظت على صحةِ وسلامةِ ودقّةِ معلوماتها.

2- نماذج التفسير بالدراية:

أ. فخر الدين الرازي (مفاتيح الغيب)

وحين يُذكر تفسير الدراية يتبادر إلى الذهن تفسير الرازي، فهذا المفسر العملاقُ الذي عاش قبل ثمانية قرون (544-606هـ) وألّف التفسير المسمى: "مفاتيح الغيب"، قد أدلى بدلوه في تفسيره هذا في كل المجالات؛ من التفسير والكلام والفلسفة والمنطق، وفي الأحكام الفقهية واللغة والبديع والبيان والإعجاز القرآني، ويمكن القول: إن فخر الدين الرازي شخصيّة أسطورية بكل معنى الكلمة، ومؤلفاته من الكثرة بحيث تتجاوز قاماتنا.

فقد ناقش في تفسيره الذي ألفه قبل ثمانية قرون قضيَّة كروية الأرض، ودورانها حول الشمس، بل تحدَّث بطريق غير مباشر عن وجود الجاذبية الأرضية، ولكن الذي يحزّ في النفس أن كل هذه المزايا تُسنَد في كتبنا المدرسية إلى أمثال "غاليلو (*Galilei*)" و"كوبرنيكوس (*Copernicus*)"، مع أن فخر الدين الرازي قد تحدَّث قبلهم بأربعة قرون عن هذه الأمور إما بطريق مباشر أو غير مباشر.

ومن هذه الزاوية نستطيع القول: إنه من غير الممكن العثور على قوم مثلنا يُشْبهوننا في مسألة الجحود والعداء لأجدادهم، وكأن أدمغتَنا مشحونةٌ بالحقد والنفور تجاه أجدادنا وأسلافنا، فعلينا أن نأخد تفسير فخر الدين الرازي ونضرب به وجوه كل هؤلاء الجاحدين للنعمة، الناكرين للجميل، ومن الضروري أن نبين لهم مدى ما هم فيه من الكفران والجحود، ويبدو أنه ليس هناك مِن وصف يضاهي صفةَ كفران النعمة وعدم الوفاء في درجة الهبوط بصاحبه وانحطاطه، ولكننا لا يليق بنا نحن المسلمين أن نقوم بكفران النعم، بل يجب أن نصفق لمن قدم للإنسانية خدمة ولو كان من غير المسلمين.

أجل، إننا لن ننكر الجميل كما فعل الأوروبيون، بل إننا نذكر المصادر التي أخذنا منها ونُقِرّ بالفضيلة لصاحب الفضل، في حين أنهم نسبوا الاختراعات التي اكتشفها المسلمون إلى أنفسهم، وبدلوا أسماءَ العلماء المسلمين بأسماء أوروبية، فترى أن العالِم المسلم الجابري المعروف باسمه وعلمه وكتبه قد تحول في أيديهم إلى شخصيّة مجهولة، وتحوَّل ابن سينا (ت: 427هـ) إلى "أويسنَّا (*Avicenna*)" وابن رشد (ت: 595هـ) إلى "أوروس (*Averroes*)"... وهناك الكثير مما يمكن أن يُسرد في هذا الموضوع، ولكننا نختصر الكلام تحاشيًا للخروج من الموضوع.

يقول الفخر الرازي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ (سورة البَقَرَة: 22/2): "الأرض جسم عظيم، والكرة إذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهَد كالسطح.. ومن الناس من زعم أن الشرط في كون الأرض فراشًا ألا تكون كرة واستدل بهذه الآية على أن الأرض ليست كرة، وهذا بعيدٌ جدًّا، لأن الكرة إذا عظُمت جدًّا كانت القطعة منها كالسطح في إمكان الاستقرار عليه"[54].

فيا لَلغرابة! إن هذه الأمور مما قيل وكُتب قبل ثمانية قرون.

ومن يراجع تفسير الرازي فسيرى فيه مئات من الأمثلة حول الفقه والصرف والنحو وقواعد البلاغة، كما يركّز بإلحاح على موضوع الإعجاز أيضًا، ويدافع في كل مناسبة عن ربّانيّة القرآن وسماوية منشئه، وأنه وحيٌ لا يمكن له أن يكون من تأليف بشر، وقد اهتم الرازي كثيرًا بقضايا علم المنطق والفلسفة، ممّا أدى بالبعض إلى أن انتقدوه، بل أدى الإفراطُ في هذا الانتقاد إلى أن قيل عنه: فيه كل شيء إلا التفسير، وهذا فكرٌ يخصّ هؤلاء ويَعكس آفاق نظرتهم الضيقة إلى القرآن.

ب. تفاسير أخرى: ومن العلماء الذين ألفوا في تفسير الدراية وسبقوا الرازي إلى ذلك صاحبُ الكشاف الزمخشري (ت: 538هـ) الذي هو من أئمة المعتزلة، وقد تطرق إلى موضوع كرويّة الأرض أيضًا، فجاء بعبارات قريبة من عبارات الرازي بفروق طفيفة فقال: "فإن قلتَ: هل فيه [أي في قوله تعالى: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا**﴾] دليلٌ على أنّ الأرض مسطحة وليست بكروّية؟ قلت: ليس فيه إلا أن الناس يفترشونها كما يفعلون بالمفارش، وسواء كانت على شكل السطح أو شكل الكرة، فالافتراش غير مستنكر ولا مدفوع لِعظم حجمها واتساع جرمها وتباعُد أطرافها"[55]، فنراه قد اقترب بحِرفيّة ودقّة من الآفاق العلمية لعصرنا.

---

[54] الرازي: **مفاتيح الغيب**، 337/2.

[55] الزمخشري: **الكشاف**، 94/1.

وممن قال بكروية الأرض البيضاويُّ (ت: 685هـ) مؤلِّفُ تفسير "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" الذي عاش بعد الزمخشري، وكان التلامذة في المدارس القديمة يُعبِّرون عن هذا التفسير بـ"الحُبيبات الحديدية"، تعبيرًا عن صعوبته ورصانته، حيث إن مؤلفه يتناول المواضيع فيه بدراية فائقة ودقّة متناهية.

ومن علمائنا المفسّرين الذين سبقوا "غاليلو" و"كوبرنيك" بسنين في القول بكروية الأرض ودورانِه حول الشمس أحد مشاهير وجهابذة شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية أبو السعود أفندي (ت: 982هـ)، مؤلف تفسير "إرشاد العقل السليم"[56].

وكما حاولنا التعريف الموجز ببعض كتب التفسير نود أن نعرِّف ببعض آخر منها ثم ننهي الموضوع:

ولا شك أن الإمام النسفي (ت: 710هـ) يندرجُ ضمن قائمة الذين سعوا جاهدين في إبراز عظمة القرآن وذلك من خلال تفسيره: "مدارك التنزيل"، ويمكن عده كاختصار لتفسير الزمخشري، وقد ركز المؤلف كثيرًا في هذا التفسير على الحديث والأثر أيضًا، إلى جانب ما يحمله من الروايات الإسرائيليّة القليلة.

ولا يسعنا في هذا المجال إلا أن نتطرق لتفسير "لُباب التأويل" الذي ألّفه الصوفي البغدادي: الخازن (ت: 741هـ)، ونسبةُ الإسرائيليات في هذا التفسير أكثر مقارنة بغيره، ومع أن فيه مواضيع من علم الفقه والكلام إلا أنه يركز في الغالب على ما رُوي عن الصحابة ﷺ.

وليس لنا أن نُغفل أو نُهمل ذكرَ البغدادي المرحوم الآلوسي وتفسيره "روح المعاني"، فهذا الكتاب المؤلف من ثلاثين مجلدًا يُعتبر شبْهَ خلاصةٍ للتفاسير السابقة.

---

[56] يقول أبو السعود أفندي: "وليس من ضرورة وصف الأرض بالفراش كونها سطحًا حقيقيًّا، فإن كروية شكلها مع عظم جرمها مصحِّحة لافتراشها". (إرشاد العقل السليم، 61/1)

وأيضًا هناك التفسير الذي ألفه المفسر التركي العلامة: أَلْمَالِلِي حَمدي يازِرْ (*Elmalılı Hamdi Yazır*) (ت: 1942م)، والحقيقة أن هذا التفسير يستحقّ أن يسمَّى: تحفة التفاسير، فقد كتب المؤلف تفسيره الذي أسماه: "الدين الحق ولسان القرآن (حَقْ ديني قرآنْ دِيلِي (*Hak Dini Kur'an Dili*))" بأسلوبٍ قريب من أسلوب "روح المعاني"، ولكنه أحيانًا يستدرك على كثير من المفسرين وينتقدهم.

وأيضًا مع إبقاء باب التحفظات مفتوحًا هناك تفسير الجواهر لطنطاوي جوهري الذي حاول أن يفسر القرآن تفسيرًا علميًّا، وهو تفسير موسّعٌ تطرّق فيه المؤلف لمختلف العلوم الكونية؛ ولأنه تحدث في تفسيره هذا عن معظم العلوم التي تتعلق بالكون فقد سمّاه البعض بالموسوعة.

ولا يسعنا في هذا المقام أن لا نتحدث عن تفسير سيد قطب (ت: 1966م) "في ظلال القرآن" الذي حاول في تفسيره هذا أن يقدم وجهة نظر قرآنية حول القضايا المتعلقة بالحياة الاجتماعية، ومع أن لهذا التفسير جوانب يمكن انتقادها، إلا أنه يمكن القول بأنه في كتابه هذا قدم وجهة نظر جديدة في التفسير، علاوة على ما يتمتع به أسلوبه من الجزالة والشعرية والانسجام.

وبالإضافة إلى هذا كله هناك كثير من المؤلفين الصوفيين من أمثال محيي الدين بن عربي (ت: 638هـ) والقُشيري (ت: 465هـ) قد فسروا القرآن من النافذة الصوفية الإشارية.

وباختصار نقول: كلما كتب في أي عصر من العصور كتاب بغرض تفسير القرآن وتأويله، فإن كل ذلك يبين أن القرآن في غاية العمق والسعة، وأنه لا نظير له، وأنه

من الروعة بحيث لا يمكن أن يكون من قريحة البشر، وليس هناك مجال من المجالات إلا وللقرآن فيه كلام كثير يخاطب به مدارك أهل كل عصر ويجعلهم يقولون به.

وعلينا أن ننبّه إلى أننا أثناء سردِنا الحديثَ عن التفاسير لم نتناولها على الترتيب الزمني ولا من حيث جوانبها التقنيّة، حيث إننا لسنا بِصدَدِ دراسة التفاسير من هذه الجوانب، بل غاية همّنا أن نبيّن كيف أن القرآن قد فُسِّر على حسب المراحل التاريخية، وأنه لم يزل ينطوي على مبادئ غضة طرية

في ساحات العلوم والفنون والتكنولوجيا، ومن البدهيّ لدى الجميع أن مثل هذا الموضوع من السعة بحيث تضيق عنه هذه الصفحات.

ولا يحقّ لنا أن نتحدّث عما إذا كان أجدادُنا وأسلافنا قد قاموا في عصورهم بما يترتب عليهم من الوظائف أو لم يقوموا بها، ولكن غاية ما نستطيع أن نقوله بكل راحة بال هو أنهم قد بذلوا كل سعيهم وجهودهم في سبيل فهم القرآن وتبليغه، وهم إلى جانب كل ما بذلوا من الجهود قد تأثّروا -إلى حدٍ ما- بثقافة عصورهم وقيمها والنظرة السائدة في تلك العصور نحو الدنيا والعقبى.

ونحن إذ نتذكرهم بما بذلوه من تلك المساعي العريضة والمخلصة، نلتجئ إلى القرآن ونقول: **﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾** (سورة الْحَشْرِ: 10/59).

نعم، إن القرآن هو الذي يعلِّمنا هذا الدعاء، ونحن بدَورِنا نستغفر الله لهم، ونسأله ﷻ أن لا يحرمنا من هذه النظرة القرآنية.

ب. كيف ينبغي أن يفسَّر القرآن الكريم؟

حينما ننظر إلى الطبيعة العامة للقرآن ومحتواه، نشاهد أنه يهتم بكل ما يتعلق بالإنسان ويحيط بكل جوانب حياته، فقد تَناوَل في دائرة واسعة من الأزل إلى الأبد، داخلَ الإنسان وخارجَه وسعادتَه الدنيوية والأخرويّة، وتحدث عن كلّ ذلك، فكما أنه نظَّم للإنسان حياته الاقتصادية والمادية، فقد شرح للأنظار بكل دقّةٍ جوانبه الروحية التي تتعلق بوجدانه وسرّه ولطائفه المعنوية.

إن النظام الذي وضعه القرآن ليس عبارة عن نظام متعلِّق بالدنيا، بل إنه يستوعب العالم الآخر إلى جانب هذا العالم، وباختصار: إنه كتاب يُحقق التوازن بين عالمي الدنيا والآخرة.

ولو أن القرآن حصر النظر في التكوين المادي للإنسان، واكتفى بتحقيق سعادته المادية فقط، -وهذا هو السائد في الغرب في العصر الراهن، حيث النظرة أحادية، ومتمحورة حول المادة، وخادمة للبدن والجسد، وبالتالي لا تبشر بسعادة حقيقية-.. وكذا لو أنه لم يأخذ ضمير الإنسان

بنظر الاعتبار ولم يوجه الأنظار إلى عالمه الداخلي ومشاعره المعنوية، لكان هذا فيه -من دون شك- نقصًا بيّنًا، ولَانعكس ذلك النقص على روح الإنسان بالأثر السلبي.

ولن تتحقق السعادة الدنيوية والأخروية إلا بأن يكون هناك تواؤمٌ بين البنية الداخلية والخارجية للإنسان، ولهذا نلاحظ أن من أهداف القرآن مراعاة مشاعر الإنسان، وقد ركّز عليها بين فينة وأخرى، وقبل كل شيء إذا أمعنّا النظر فيه فسنرى أنه راعى مستوى مخاطبيه على الدوام؛ بحيث إن كلّ من خاضَ فيه بفكره فسيجد فيه خطوطًا لها علاقة بأعماقه الروحية، وأعتقد أن هذا من المواطن التي تكمن فيها إحدى المزايا المهمّة للقرآن، فعلى الإنسان أن يبحث على الأقل لمدة ساعة من أصل أربع وعشرين ساعة عن ذاته في القرآن وأن يحاول العثور على حقيقة نفسه فيه.

أجل، إن خطاب القرآن للإنسان هو خطاب خالق الكون ﷻ له بلسان القرآن، وهذا يقتضي أن يكون هذا الكتابُ شارحًا للتكوين المادي والمعنوي للإنسان، وأن يتميز بالحديث عن لدنياته ولطائفه بقدر حديثه عن تكوينه الاجتماعي، فالواقع هو أن الإنسان يود أن يكون الكتاب الذي يقرؤه ملامسًا لدواخله، وملاطفًا لمشاعره، وأن يستثيره إلى المنافع ويحذّره من المخاطر، ويوجه أسرته وأمته ويدير عقولهم وإرادتهم.

ومن استطاع أن يُمعن النظر فسيرى أن كل هذه الخصائص موجودة في القرآن المعجز البيان، بل إن ذلك موجودٌ في كل آية منه، ومن لم يتعمّق في القرآن لِنَقْصٍ فيه، وكان يعيش في وادٍ والقرآن في واد آخر، فلن يتصوَّر أن يكون القرآن في مجتمع كهذا منبعًا للهداية.. ونعتقد أن هذا هو السبب الذي يكمن وراء ما تعيشه الأمم المسلمة من الذل والهوان منذ عصور، وزوالُ هذا البؤس منوطٌ برجوع الأمة إلى القرآن بكلّ صدق وإخلاص.

وإذا كنّا نودّ أن يتنفس الناس على وجه الأرض الفكرَ القرآنيَّ، فعلينا أن ندقّق النظر مرة أخرى في تفسيرات القرآن المتعلقة بالإنسان، ونظرته إلى المجتمع، وشرحِه للعلاقة بين (الله-الإنسان-الكون)، فلا نستطيع القول: إنه تم إلى يومنا الراهن معالجة القرآن من هذا الجانب على الوجه

اللائق، ويلاحَظ أنه لم يُؤلَّف تفسير من منظور علم النفس رغم أنه من الواضح مدى علاقة هذه الأمور بالإنسان.

وعلم النفس من العلوم التي ينبغي أن تتناول الجهات الملكوتية الحقيقية واللّدنية معًا، فهناك حاجة ماسّة إلى تفسير للقرآن يشمل هذه الجوانب أيضًا.

إن علم النفس في عصرنا قد تحدَّث عن أمور جديدة، ولكنه لم ينجح في الإدلاء بتفسير للإنسان بحيث يتناوله بأعماقه الحقيقية، وأقول بكل صراحة إنه من غير الممكن أن يضع علم النفس أسسًا ويتحدث عن قواعد حول الجوانب الروحية للإنسان بحيث يلبي رغبة العقل السليم في هذا المجال.

وقد تَعتبرون قولي هذا مجرّد ادّعاء، إلا أنني أقول هذا من منظور شمولية القرآن؛ لأن القرآن كتاب نزل من أجل الإنسان، وهو يقدم في مجال العلوم والفنون والاجتماعيات حضارةً محورُها الإنسان؛ ذلك الإنسان الذي خُلق وكأنه هو الكون العظيم بربيعه وصيفه وزهره ونحله.. وهذه هي الحقيقة التي عبر عنها سيدنا علي كرم الله وجهه بشعره فقال:

وتحسب أنك جرم صغير

وفيك انطوى العالم الأكبر!

أجل، إن العوالم فيه مكنونة، وهو كخلاصة للعالم، ومع أن الإنسان الذي انطوى فيه كثير من الحقائق ما زال يتعرض صباحَ مساءَ في أجواء مختلفة لبعض الحالات الروحية والنفسية؛ بحيث إنه يتدنى أحيانًا إلى بعض المراتب النباتية، وأحيانًا يتحول إلى كائن يستنشق الهواء ويخرجه، بينما ينحطّ إلى مرتبة الحيوان أحيانًا أخرى، فلا يشعر في هذه المرتبة إلا بالمشاعر البهيمية والشهوانية.. وفي مقابل هذا كله تمرُّ أحيانٌ تكون فيها الكائنات أمام قدميه وكأنها كرة صغيرة، وتمتد آفاقه الفكرية إلى مشارف العرش الأعظم، ويلبس السدرة وكأنها قميص، ويقترب من موطِئِ قدم الرسول ﷺ في المعراج، ويسبق كل المخلوقات، وهذه الأمور مما تضيق عن فهمها وتعجز عن قياسها قدراتُ مختبرات العلوم الحالية.

والآن نتساءل قائلين: هل يمكن تفسيرُ هذا كله بالاندفاع الغريزي؟ وكيف لنا أن نفسّر الانفعالات وردّات الفعل والعواطف والدموع وآلافًا من ألوان الغضب بمثل هذه التفسيرات الواهية البسيطة؟!

ج. التفسير القرآني القائم على الإنسان

ليس لبني الإنسان أن يشرحوا ويُفسّروا حقيقة ذات الإنسان بكلّ خصائصه وجوانبه، ولا يستطيع ذلك إلا الله الذي خلقه وبَرَأَه.

وقد أودع الحقُّ ﷻ في ماهيته مشاعرَ ولطائف على هيئة رموز وشِفرات، وكما أن القرآن يُفسر الكون فكذلك هو الذي يفسر الإنسان، فمن هذا المنطلق نستطيع القول: إن المعلومات المتعلقة بداخل الإنسان وخارجِه موجودة بكاملها في القرآن. أجل، إن الأطوار الروحية التي يمرّ بها الإنسان في كلّ دقيقة، والظواهر النفسية التي يتعرض لها موجودة بكاملها في القرآن على هيئة رموز.

وليس الإنسان جسمًا عاديًّا يمكن تموقعه تحت التلسكوب أو المجهر حتى يمكن الاطلاع على تكوينه. أجل، إنه لا ولن يمكن تحديدُ لدنيّاته بالتلسكوب، كما أنه من الصعوبة بمكانٍ القولُ بأن علم النفس قد حقق نجاحًا في كشف حقيقة روح الإنسان وآليات النفس.

ولعله من غير الممكن الوصولُ إلى نتيجة حول الإنسان من خلال التجارب التي تُجرى على القطط والكلاب والفئران.. وتحليلُه بناءً على أسسِ جدليةِ الماديين نوعٌ من العبث والهراء؛ لأن محاولة تحليل الإنسان الذي هو أغلى وأشرفُ موجودٍ في الكون بمثل هذه الطرائق السفلية المنحطة، أكبرُ جناية تجاه الإنسان وما يتجلى فيه من الأسماء الإلهية، ويُعتبَرُ سوءَ أدب حيالَ ما أُودِع فيه من اللطائف.

لقد تناولَتْ شتى المدارس العلميّة في الغرب الإنسانَ في مراحل زمنيّة مختلفة، وحلَّلَتْ معظمَها في إطارِ ما ذكرناه آنفًا من الانزلاقات الفكرية، وهي في الغالب نظراتٌ تناولت الإنسان بطريقة سفلية منحطّة يندى لها الجبين. أجل، إن "برجسون (*Bergson*)" و"باسكال (*Pascal*)" وعددًا قليلًا غيرهما تناولوا الإنسان بحصافة وإنصاف إلى حدٍّ ما، واحتضنوا الإنسان بأعماقه الداخلية

والخارجية، وأظن أن هؤلاء لو كانوا قد ظفروا بالقرآن لكانوا قالوا أشياء هي أقرب إلى حقيقة الإنسان، إلا أنهم حُرموا من ذلك.

ومن جانب آخر، نرى "فرويد" ممثّلًا لتيار آخر يربط كل قضية بالمشاعر الشهوانية ويخوض في البوهيمية بشكل مخْزٍ للإنسان، وحينما يحلّل الإنسانَ ينوط كلَّ ما يتعلق به من الأمور بجانب قبيح بَشِع، كما أننا نرى في جانب آخر أناسًا من أمثال "سارتر" يكادُ معظمُهم لا يرون تشريحات لدنيات الإنسان وعالمه المعنوي، ويتناولونه على غرار سائر الحيوانات، ونلاحظ أن هؤلاء للأسف، يربطون بين أمور بعيدة في حقيقتها عن بعضها البعض، فينظرون إلى الإنسان وكأنه من المخلوقات الغريبة التي غُلّت أعناقُها بأغلال الشهوة.

بالله عليكم، هل الإنسان مخلوقٌ عاديٌّ بهذا المستوى؟! صحيح أن هؤلاء كانوا يستخدمون المنهج التحليلي حينما يسردون أفكارهم، إلا أن هذا المنهج يتطلّب أناسًا مؤهّلين، وإني أرى أنه لا أحد من هؤلاء في مستوى الأهلية في هذا الباب، إلا أن من يتخبط في فراغٍ فكريٍّ وروحيّ هائل لا بد أن يتلقى أفكارهم بآذان صاغية ويتقبلها بقبول حسن على أنها حقائق علمية.. إن فرويد يربط كل قضية بالشهوة والرغبة الجنسية، حتى إنه يربط ارتضاع الطفل الرضيع من أمه بالمشاعر الشهوانية، ويتوهّم وجود هذا الإحساس وراء كل موقف بشري.

والآن أرجوكم، تصوروا، هل يستحق الإنسان الذي خُلق مكرمًا وعزيزًا وتفوَّق على الملائكة.. هل يستحق كلَّ هذا الاستحقار؟ وإذا كان الإنسان لا يستحقّ ذلك فما معنى قبول صاحب العقل والإذعان لمثل هذا التحليل والتشريح حول "الإنسان"؟ سأترك للقارئ تقييم الموضوع.

والآن يا ترى، كيف لا يندهش الإنسان حينما يرى الفرق بين التحليلات والتعريفات القرآنية التي أظهرت حقيقة الإنسان وقيمته وبين تلك التحليلات التي ألقت به في المزابل؟!

وإنه لذو مغزى عظيم من حيث عظم قيمة الإنسان لدى الله أن يرتقي مفخرةُ الإنسانية ﷺ الذي هو من أفراد بني البشر إلى سدرة المنتهى متقدّمًا على أعزّ ملك من الملائكة. أجل، فقد وصل

جبريلُ ليلة المعراج إلى نقطة ووقف قائلًا: لو تجاوزتُ لأحرقت بالنور، وفي رواية لو دنوتُ أنملة لأحرقت.

أجل، هكذا نعلم ما هو الإنسان وهكذا نعرفه.. وهكذا يكرمه الله تعالى، وهكذا يعرِّف به ويحلله في قرآنه، فهل هناك في العالَم الحديث علمٌ أو بحثٌ يُجِلُّ الإنسان ويعزّزه إلى هذا الحد، ويا لها من جناية على روح الإنسان ومحتواه حين يحلله بعض الناس بنظرات تنزل به إلى الحضيض!

ولذلك نقول: إنه قد آن الأوان لاكتشاف الإنسان مرة أخرى في القرآن، وتأليفِ تفسير قرآنيٍّ يستنبط معانيه العميقة من خلال الآيات التي تتناوله بتجهيزاته المادية والمعنوية، وتنزيهِ الإنسان الذي هو كائن مكرم من تلك التحليلات المحمَّلة بالخَباثات، فقبل كل شيء يقول القرآن الكريم: ﴿**وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: 21/51)، فيَلفت الأنظارَ إلى أن الإنسان صرحٌ للمعجزات.

إنه لا يمكن تعريف الإنسان وتحليله من دون التدقيق في ماهيته وحياتِه اليومية والتحوّلات التي يمر بها في كل حين، فلذلك نقول: إن هناك حاجة إلى تحليل القرآن حتى للعلوم الدنيوية، ولا بد مِن أخذِ هذه الأمور بعين الاعتبار أثناء تفسير القرآن؛ لأنه سوف يأتي يوم يتحقّق فيه الرجوع إلى القرآن على مستوى الفرد والمجتمع والمادة والمعنى، فحينذاك لا بدّ من إعادة النظر في كل مستويات الحياة في ضوء الرسالة التي جاء بها القرآن.

إن المقام يضيق عن سرد كل الأمور التي يجب أن تُقال أو تكتب في هذا الباب، وما نقوله أو نكتبه هنا لا يتجاوز عُشر معشار ما يلزم قوله حول هذا الموضوع، إلا أن الأمر الوحيد الذي يبعث فينا الأمل هو أن هناك تطورات مبشّرة بالخير باسم القرآن وباسمنا نحن المسلمين، حيث إننا حينما نشاهد في توجّهات شبابنا رجوعًا إلى القرآن وإلى جذوره -نسأل الله اليمن والبركة- وإلى التطورات بشكل عام، فإننا نؤمن بقرب تلك الأيام التي سيُكتب فيها مثل هذا التفسير الكلي للقرآن الكريم، فإن لم تتحقّق اليوم ففي الغد القريب إن شاء الله.

د. التحليلات النفسية في القرآن الكريم

إن علم النفس علم يدَّعي التعرف على العالم الداخلي للإنسان وتحليلَه من خلال النظر إلى التصرفات الخارجية، وكان هذا العلم يسمَّى في تاريخنا "علم الروح"، وكان هذا العلم في تلك المراحل يبحث في معظمه عن لدنّيات الإنسان وعالمه الداخلي وجوانبه الملكوتية، وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين كان يُسمّى: "علم النفس"، وفي السنوات الأخيرة سُمّي في بلادنا: "البسيكولوجيا (*Psychology*)"، وأخيرًا أُطلِق عليه اسم "البسيكولوجيا الحديث".

وأريد أن أقولَ مقدمًا: كل هذه المصطلحات المتعددة من "علم النفس" أو "علم الروح"، وما يستعمله الغربيون من تعبير "بسيكولوجي/سيكولوجي" وغيرها لا تكفي للتعبير عن ما يرد في القرآن من "الحديث عن لدنيات الإنسان وتشريح جانبه الروحي".

أجل، إن علم النفس رغم تطوُّر آليّات عمله بأنظمة عديدة وبحوث منهجية، لم يستطع أن ينفذ إلى أعماق الإنسان على مستوى القرآن، ولم يستطع أن يكتشفه ويعبر عنه على الوجه اللائق، فالخطى التي خَطاها علم النفس في هذا المجال تبقى ضئيلة جدًّا مقارنةً بما قدمه القرآن، وما قدمه علم النفس لا طعم ولا لون له إذا قارناه بما أتى به القرآن.

ولم يتيسّر لغير القرآن أن يَتناول لدنياتِ الإنسان بشكلٍ متكامل، وأن يحلله ويدققه بشكل يشمل قلبه وسرّه ومشاعره وكذا لطائفه وأحاسيسه التي لم تنكشف إلى الآن، فالقرآن يتناول الإنسان بكل أعماقه الداخلية، ويتعقّبه خطوة فخطوة بكل مشاعره الظاهرة والباطنة، وأعتقد أن نفوذ القرآن إلى ضمير الإنسان، واكتشافه للطائفه، ونظرته إلى كلّ أحواله بنظرة فاحصة، تكفي دليلًا على أنه معجزُ البيان.

وكل من يستمع إلى القرآن، ويتلمّس عن كثبٍ ما فيه من التناسب بين اللفظ والمعنى، سيطلع فيه على حالته الروحية، بل إنه سيجد فيه شرحًا وبيانًا لأحواله اللدنية التي كان يصعب عليه فهمها بنفسه من غير القرآن، وهذا الأمر منوطٌ بنفوذ الإنسان بكل مشاعره إلى روح القرآن وولوجه عالم القرآن. أجل، إنه لا يمكن ولوج القرآن إلا بالقرآن وبالاعتصام به، وإذا تسنى للإنسان أن يدخل

مرة واحدة من خلال المنافذ التي فتحت أمامه وتوصل إلى طاولة التشريح القرآني، فإنه سيشاهد ذاته في هيئة مختلفة جدًّا بروحه ومشاعره ووجدانه. أجل، إن علاقة القرآن بالإنسان في هذا المستوى إنما هي

في مستوى عال من التداخل والوثوق.

حتى إن الإنسان لو لم يجد ذاته في آية من الآيات، فإنه سيكاد يرى في آية أخرى أن كلمات القرآن تحيط به، وتداعب فؤاده، وتتحكّم في نبضاته، ولكن يبدو أنه ليس من السهل الميسور لمن لم يتوجّه إلى القرآن بكل فؤاده أن يفهمه ويجد فيه ذاته ويفهمها. أجل، إن الله ﷻ جعل في القرآن شفرات الإنسان، فإذا حُلَّت هذه الشفرات وفُكَّت رموزُها فسيُفهم كل شيء، فالقرآن أكبر نعمة من الله وإحسان وهدية إلى هذا الإنسان الذي وَجد نفسَه في زاوية نائية من الكون وحيدًا فريدًا، فبقدر تأسيسه صداقة مع القرآن سيعرف ذاته، ويلوذ بخالقه، ويتخلص من كل أنواع الوحدة.

ولا يدرك الإنسان ماهية القرآن إلا إذا دخل في عالمه؛ فكأن القرآن مجموعة إحداثيات تربط بين الإنسان والكون، بل إن القرآن كما يلفت نظر الإنسان إلى الدنيا فكذلك يوجه نظره إلى الآخرة، فيجمع بين جوانبه التي تتعرض للفناء والتي تتمتع بالبقاء فيؤلّف بينها، ويوضح تركيبته اللدنية كما يُشَرِّح تركيبته المادية.. فمن الممكن أن نجد في القرآن ما يحققه الإنسان من التطور والرقي أو ما يتعرض له من الانحطاط، وكذلك يمكننا أن نرى فيه ما يمر به الإنسان من المراتب والمقامات حينما يتحول من شكل إلى شكل أو حال إلى حال أو طور إلى طور، كما يمكننا التعرف من خلاله على ما يحمله الإنسان من مشاعر وعواطف جياشة وسَير روحي.

فعلم النفس الحديث ما زال بعيدًا عن معرفة الإنسان بهذا الشكل، وأود أن أؤكد بقوّةٍ أنه ليس هناك علاقة بين القرآن وبين المناهج التجريبية التي طورها علم النفس. أجل، إنه لن يكون هناك ارتباط لا من قريب ولا من بعيد بين الآيات القرآنية وبين تلك المبادئ التي يفسَّر بها الإنسان والتي تم التوصل إليها من خلال التجارب التي أجريت على الحيوانات، ولن يفهم علم النفس

مغزى الآيات القرآنية إلا إذا توصل إلى أقصى ما تصل إليه يده وحصل على أدق ما يكتشفه من المعلومات.

ومن الأهمية بمكان أن نعلم أن الآيات التي سنركز عليها ونُورِدُ منها أمثلةً، ليس من الممكن شرحُها بموازين العلم المسمى "علم النفس" الذي ألبسوه شيئًا من الروعة الخيالية فسموه فيما بعد "سيكولوجي"، فعندما نشرح ونحلل الأمثلة من القرآن لن ننحو منحى أفكار شخصيّة حتى نضفي على الموضوع الصبغةَ العلمية، وذلك من مقتضى توقيرنا للقرآن الكريم؛ فإنه إذا لم يتحقّق تفسير القرآن وشرحه بطريقة موافقة لأدائه وأسلوبه الفطري، فسيؤدي ذلك إلى خللٍ في المقصود، فمن أكبر التجنّي على القرآن أن نستخدم في بيانه بعض الموازين والمبادئ التي لم تصل بعدُ إلى مستوى القطعية؛ فالذي ينظر إلى القرآن عليه أن يزيل ما بعينيه من الرَّمَص المصطنع؛ حتى لا ينكسر طول الموجة الشعاعية بما فيه من نصاعة وضياء وثراء، ويبصِر ما فيه من البهاء والوضوح بكلّ عمقٍ واتّساع.

هـ. تحليل لدنّيات الإنسان من المنظور القرآني

إن القرآن يتناول الإنسان بمجموعه، ويقوّمه كُلًّا متكاملا بحيث لا يهمل أيًّا من مشاعره وأحاسيسه الإنسانية وجوانبه اللدنيّة.. وبتعبير آخر نقول: يكاد يكون من الممكن أن نجد في القرآن الإنسانَ بكلّ أنماطه وأشكاله ومواقفه.

والحقيقة أنَّ شرح لدنيات الإنسان ليس بالأمر الهيّن؛ لأن الإنسان يشبه الكون العظيم في تحوله كل حين من طور إلى طور، وتنقُّله بسره وخفيِّه وأخفاه من شكل إلى شكل، فما هي الأمور التي تحوِّله من شكل إلى شكل؛ فمرّةً تزيده شوقًا وطرَبًا، ومرة أخرى تلقي به في حالٍ من الخمول والاستكانة؟!

ما زالت هذه القضايا تشغل بالَ البشر على مَر التاريخ الإنساني، وهناك في الغرب عددٌ كبير من الذين يبحثون في لدنيات الإنسان، ولكن كل واحد منهم حاول -وما زال يحاول- أن يقوّم الإنسان من جهة واحدة ومن الجانب الذي يتراءى له من زاوية نظرته الشخصية؛ فمثلًا منهم من

أخذ ما في الإنسان من الحدس بنظر الاعتبار وأبدى ملاحظاته التشريحية على حسب ذلك، وهناك مَن حلَّل الإنسانَ نظرًا للمشاعر التي تُحرِّكه، وهناك من تَناوَله من جانب منطقه، ولكن لم يستطع أحد أن يقوم بتحليله تحليلًا جامعًا وشاملًا.

فالقول الفصلُ في هذا المجال أيضًا إنما هو للقرآن: أجل، إن القرآن هو الذي يؤكد على أن الإنسان كائن "جامع"، ولا يتم التعبير الحقيقي عن كل نموذج وموقف إنساني إلا في القرآن، بل فيه يتم بيان كل الأحوال والأطوار الإنسانية؛ فما هي الحالة النفسية للإنسان المجرم المذنب؟ وما هي الأحاسيس التي يتشبّع بها أثناء حديثه مع الناس واختلاطه بهم؟ وما هي مظاهر التدهورات الروحية والكآبات المعنوية التي تَظهر على مَنْ لا يستطيع التفلت من الإخفاقات بحال من الأحوال؟ وهكذا يستطيع الإنسان أن يشاهد انعكاسات كل من الآمال الخائبة، والأضواء الخافتة، والآمال المتزعزعة، أو الصدور المفعَمة بالأمل، والأحلام الوردية، والعيون المتلألئة بالثواب، والوجوه المسودَّة بالذنوب، والقلوب النابضة بالشوق والاشتياق، والأرواح المتشائمة المستسلمة للخيبة والخسران.

وأيضًا من سماته الخاصة بصوته ونفحاته أنه يربت على الأرواح المفلسة، ويوجهُ لطائفها نحو المشاعر العُلوية، ويجيّش القلب في سبيل تخطي شتى أنواع العراقيل والعقبات.

ونرى في القرآن دون سواه كيف أن الذين انكسرت قلوبهم وجُرحت مشاعرهم قد وجدوا فيه التسلية فتوجّهوا نحوه ونحو الأوراد.

ولأهل الإدارة ومن يتقلّدون المناصب العليا نصيب في القرآن، كلٌّ حسب موقعه ومستواه؛ حيث إنه يوجههم -بأسلوب أخاذ- نحو الهدف المنشود مباشرة من دون أن يجرح كرامتهم، أو يمسَّ شخصيتهم وأنانيتهم بسوء. أجل، فإذ يجذبهم القرآن إلى ما يستهدفه لهم؛ نراه من الجانب الآخر لا يهمل -بتاتًا- صبَّ الحقائق السامية في قلوبهم وإثارة أشواقهم على طول الطريق.

ومن روائع الأسلوب القرآني أيضًا تحليلُه لنفسيّة الأبوين؛ ففي حين يتمّ تحليل العلاقة بين الأبوين والأولاد حسب أدقّ الحالات الروحية؛ تؤسَّس هذه العلاقات بحيث تحتضن الروح وتُرقّيها نحو المعالي.

أجل، إن الأسرة يتم تناولها في القرآن بأسلوب دقيق وأنيق بحيث تتداخل أفراد الأسرة ويتوجه الكبار نحو الصغار بالشفقة والرحمة، ويتوجه الصغار نحو الكبار بالتوقير والاحترام.

لقد اتخذ أجدادُنا من دساتير القرآن أسسًا أقاموا عليها أنظمتهم، فالجيوش الانكشارية أيضًا كانت مؤسَّسة ومدرَّبة حسب هذه الأسس.. وبفضل ما استخدمه القرآن من المبادئ العامة والخاصة التي تكتشف لدنيات الإنسان؛ تمكنوا من تربية هؤلاء الجنود؛ بحيث يتمتّع كل جندي بشخصيته وذاتيته من جانب، ويتجرد من هذه الشخصية والذاتية مذعنًا لأوامر وليّ الأمر من جانب آخر.

لذا نستطيع أن نقول: إن السبب الذي يكمن وراء تفسّخ هذه المؤسسة وفسادها إنما هو ابتعادها عن القرآن وتخليها عن التغذّي بالقرآن، فلقد أدى التعامي عن المبادئ القرآنية التي تحلل الحياة اللدنية وتشرّحها، بإحدى أقوى دول العالم وأكثرها انضباطًا إلى الانهدام والدمار؛ فقد كان القرآن بمثابة روح ذلك المجتمع وأفراده، وبفضل القرآن كانوا يتكاتفون فيما بينهم ويحافظون على وحدتهم، فتلك القامات السامقة التي ساندت الإسلام كانت شديدة الارتباط فيما بينها بوشائج روحية، وإلا فمجرد اجتماع الأجسام والتواصلِ البدني وتوجُّهِ الوجوه نحو وجهة معينة لم يكن كافيًا لذلك النظام الهائل.. والدليلُ على عدم كفايته هو أن الانكشارية والنظام العسكري الذي أُسّس من بعده لم يحظ بالديمومة والتوفيق. نعم، إنه لم يوفَّق على الرغم من الاستفادة -بأقصى ما يمكن- من مبادئ علم النفس السائدة آنذاك، ومما لدى الغرب من الخبرة العسكرية؛ وما ذلك إلا بعلة الفروق الهائلة من حيث المعنى والمحتوى بين روح الأمة وبين تلك الأمور التي تم تطعيمهم بها.

ولنا أن نعود فنقول: إن النظام التربوي الذي قدمه لنا القرآن كان فيه ما يكفينا وزيادة، ولم يكن لعلم النفس ولا لعلم التربية الحديثِ أن يباريا القرآن وينافساه في ميدان تحليل الإنسان، ولذلك يجب أن تولِّي الأمم المسلمة وجوهها مرة أخرى شطر القرآن ولكن بنظرة أكثر جدية وحيوية.

ونحن في سياق التأكيد على ضرورة هذا الأمر سنقدّم بضعة أمثلة من القرآن، وليس غرضنا أن نقدم درسًا في علم النفس؛ فلسنا من أهل هذا الشأن، كما أنه ليس من مهماتنا، إلا أنه يجب على من يتصدى لتقديم درسٍ كهذا أن يعلم أنه لا يمكن النفوذ قطعًا إلى أعماق الإنسان بحقٍّ من دون الرجوع إلى القرآن والاستفادة مما جاء به.

والقرآن يفتح في كلِّ فرد نافذة يدخل منها، ومن ثم يتجوّل في لطائف ذلك الفردِ فيكشفها بأخص خصوصياتها، ثم يقدم تشخيصاته الصائبة حيالَها، وكما أن الأشعة تنفُذ إلى داخل الأجسام وتتسلّل إلى كلّ الجهات، فكذلك القرآن ينفذ إلى دواخل الناس من خلال النوافذ الروحية، فيفسرها ثم يوجهها إلى الإيمان والإسلام عن طريق التحولات التي يُحدثها فيها، فيدلها إلى سبل الانبعاث، وليس هذا الإرشاد والتبليغ أمرًا منحصرًا في القلوب المؤمنة فحسب؛ بل إنه يَنفذ بين فينة وأخرى إلى داخل الملحد والمنافق فينبههما إلى النور على حسب استعدادهما.

والآن تعالوا بنا نُلْقِ نظرة عابرة على كيفية ولوج القرآن إلى لدنيات الإنسان وما يحققه من التشريحات والتحليلات:

فمثلًا: إن بداية سورة البقرة تتناول أحوال المؤمنين وتكوينَهم النفسي، وتُحلّل وضعهم على سبيل الإجمال على الطريقة التي سبق أنْ تَحدثْنا عنها، إلا أننا نريد أن نركز هنا على الآيات المتعلقة بالمنافقين من السورة نفسها:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۞ يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۞ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(سورة البَقَرَة: 2/8-13).

وقبل أن نخوض في تحليل الآيات نودّ أن نلفت الأنظار إلى هذين الأمرين على سبيل الخصوص:

1- إن هذه الآيات تضرب صفحًا عن الكافر بالكلية وتتحدّث عن حال المنافق وما لديه من المشاعر، فكأنها بهذا الأسلوب تقول لهم: "إنكم لستم كفارًا" فبهذا يبقى باب الأمل مفتوحًا أمامهم، وكأنه قيل لهم: "إنكم بين الحين والآخر، تدخلون في طرق متعرجة، فأحيانًا تنحرفون عن الحق، وأحيانًا تدخلون في دائرته، فلو صبرتم قليلًا حين تدخلون في دائرة الحق لوصلتم إلى مستوى الإيمان. أجل، إذا استطعتم أن تتغلبوا على ما بدواخلكم من العداوة والبغضاء والأفكار المسبقة والحسد، وضربتم بها عرض الحائط، وتجرّدتم بعض الشيء عن الأهواء والغرائز البشرية، فإن قلوبكم ستلين، وستتجهون نحو الإيمان".

2- في هذه الآيات تُلفت الأنظار إلى قسم من الناس وليس لجميعهم، وفي ذلك مراعاة لأهداف سامية جدًّا، سواء من الناحية التربوية أو النفسية.. بمعنى أن الأنظار تُوجَّه إلى المنافقين بتعبيرِ: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ**﴾، بأسلوب مجرد عن التشخيص، ولا تُحدَّد الأسماءُ، فلا يقال مثلًا: الشخص الفلاني، أو القبيلة الفلانية، بل تقدم المسألة على وجه العموم؛ لأن الغرض الأساسي هنا هو الإرشاد، والأصل في الإرشاد ستر حال المدعوين كستر حال المريض عن الآخرين أثناء معالجته، وليس تشهير حاله وقد فتحت جروحه، وإنما يحافظ على كرامة المريض بهذه الطريقة.

وقد كان الرسول يمارس الإرشاد والتنبيه بهذا الخلق القرآني. أجل، إنه لم يقع منه ﷺ أن شهّر بأحد بسبب ما ارتكبه من الأخطاء، وما عنّف أحدًا على مرأى ومسمع من الناس بحيث يجرح كرامته، بل إنه كان يجمع الناس فيخاطبهم بقوله: "**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا وَكَذَا**.."، وبهذه الطريقة كان يرشد مرتكبَ الخطيئة إلى الصواب من جانب، ومن جانب آخر يحذِّر الجماعة من اقتراف مثل تلك الخطيئة. أجل، بمثل هذا الإرشاد لن تُجرح الكرامات، ولن تُهتَك الأستار، كما أن طبيعة الأمر تتطلب مثل هذا الرفق والملاطفة.

وإضافة لما قلناه آنفًا علينا أن نتنبه لأمر آخر أراه جديرًا بالذكر:

وهو أن القرآن حينما يقوم بشتى التحليلات والتأويلات لا يصرح بذكر الأسماء والأشخاص، وبفضل ذلك يحظى كل واحد بنصيبه مما فيه من الثناء أو التنبيه، ولو أن القرآن عيَّن الأشخاص قائلًا: الشخص الفلاني أو العلاني، لَمَا اهتم به الآخرون ولما استفادوا من دروسه على الوجه اللازم، فحينما يكون المخاطب مبهمًا يعتبر كلُّ شخص نفسه مخاطبًا لما فيه من المدح أو التنبيه، فيراجع نفسه على حسب ذلك، وهذا هدفٌ مهمّ جدًّا من ضمن الأهداف العامة للإرشاد، فإذا نظر الإنسان إلى الأمر من هذا المنظور فسيتابِع بحذرٍ أو شوقٍ، وهو يتلو كل آية ويتساءل: ماذا ستأتي به الآية التالية وماذا ستقدمه من شرحٍ وتحليل وتدقيقٍ للشعور النفسي.

ولكن مع ذلك نلاحظ أنه حينما يعالج القرآن في آياته جوانبَ الحالات الروحية، يستحضرُ الذهنُ بعضَ الأشخاص بطريق التداعي. أجل، سرعان ما تتراءى للعين بين الحين والحين أوضاعُهم الإيجابية أو السلبية، وأطوارُهم الصالحة أو الطالحة بأمكنتهم ودُورهم وأحوالهم ومساراتهم، حتى إن بعض المنافقين حينما يستمعون إلى تلك الآيات تنتابهم الرهبة والقلق ويتوجّسون قائلين في أنفسهم: "ها هو ذا كاد يصرّح بأسمائنا، ويفضحنا كلنا، ويَعُدُّ كل ما اقترفناه عدًّا".

ولما كان القرآن يتوخى أهدافًا سامية في عملية التربية فإننا نجده حينما يُصوّر هؤلاء على هذه الشاكلة يعمّم خطابه في البداية ثم يوجه الناس إلى مسألة معيّنة، وسواء أكان الذين يُصوّرهم منافقين أم غير منافقين، فإنه حينما يتحدّث عن الهموم التي تَشغل بالهم، وتُصوِّر اشمئزاز قلوبهم جرّاء ما يصيبهم من البلايا والمصائب، فإنه يسبر أغوار عوالمهم الداخلية؛ بغية الكشف عما يشعرون به من امتنان أمام تلك الآيات التي لم تفضح أمرهم، ومن ثمّ استثمارها في طريق الإيمان، فإن اطمأنوا أنهم نجوا من الوقوع في هذه الحالة الحرجة، وعزموا على الإتيان بكل أوامر الله جعل القرآن وعودَهم وآمالَهم -وإن كانت ضئيلة- وسيلةً للإرشاد مرة أخرى؛ وبعدما يرفع من مستوى شعورهم إلى هذا الحد يخاطبهم قائلًا: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (سورة البَقَرة: 21/2)، فيدعوهم إلى قبول الحق.

وأما موضوع ولوج القرآن إلى لدنيات الإنسان عند تحليل الإنسان في إطار الآيات (8-13) من سورة البقرة وكذا ما استخدمه من تشريحات وتحليلات في هذا السياق، فذلك أمر آخر يجب الوقوفُ عليه بشكل مستقل.

أجل، إن كل من يسمع تعبير: "وَمِنَ النَّاسِ" يشعر في داخله بميلٍ نحو مضمون هذه الآية، فالسامع يستعدّ تمام الاستعداد منتظرًا لما يُلقى إليه، ومِن بعد ذلك تقع له بعض التوجّسات، فيبدأ بالتساؤل فيما بينه وبين نفسه: يا ترى هل ستتحدث الآية عن قبائحنا؟ وهذا الانتباه قد يكون بمثابة أُولى الأمارات التي تهيّئ القلوب والعقول لقبول نداء الحق واتّباع الإرشاد والتنبيه.

ومن بعد ذلك يشرع القرآن فيما يريد أن يذكره؛ وإذ يبدأ بذلك ينفذ إلى الأرواح والقلوب بحيث إن الإنسان إذا ما خوطب بتعبيرات على هذا النحو، تَسارعت إلى ذهنه بعض التداعيات، وكما أن الإنسان إذا شاهد هضبة مرتفعة تتداعى إلى ذهنه قباب المساجد، فكذلك السامع لمثل هذه الآيات الكريمة يتفتح ذهنه على تداعيات ذهنية مختلفة يتولّد عنها أمورٌ كثيرة؛ بحيث إنه كلما سمع ذلك البيان القرآني تداعى له العديد من الأسرار.

فلنفرض أنك شاهدت شخصًا يصلي على تلة مرتفعة، وأثَّر حاله هذا في أعماق دواخلك، فإنك كلما شاهدت تلة مرتفعة فإن اللاوعي منك يبدأ بالتحرك، فيتذكرُ ذلك الإنسان الذي كان يصلي فوق التلة، ومع أنه لا يوجد -حسب الظاهر- علاقة بين المَشْهدين، إلا أن الإنسان إذا أمعن النظر فسيرى أن هناك علاقة قوية بينهما.

إن المنافقين يقولون: ﴿**آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ والله ﷻ يقول ردًّا عليهم: ﴿**وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ لأن في قلوبهم مرضًا ولذلك فهم إنما يقولون: "آمَنَّا" لبعض الأغراض الدنيوية، ويُظهرون الإيمان مع عدم إيمانهم في حقيقة الأمر للحصول على الغنائم والاستفادةِ من بعض المصالح الدنيوية التي يحصل عليها المؤمنون، أو تفاديًا للتعرّض لبعض المخاطر.

فالإنسان الذي يشعر بمثل هذه الحالة الروحية إذا سمع هذه الآيات فإنه سرعان ما يشعر بأن دواخله تُشرَح وتُبيَّن تركيبتُه الروحية، ولكن عدم التصريح باسمه يوقظ في داخله مشاعر الامتنان

تجاه صاحب هذا البيان الذي لم يَفضَحْه، فكأنه يقول له فيما بينه وبين نفسه: "إنني أشكرك على أنك -على الأقل- لم تصرح باسمي ولم تفضحني على رؤوس الأشهاد"، ويضيف قائلًا: "إن هذا يعني أن صاحب هذا الخطاب يعلم سري وعلانيتي".

وحينما يقول القرآن: ﴿**لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ**﴾ ولا تثيروا البلابل والفوضى، تتداعى إلى أذهانهم سلسلة الجرائم التي ارتكبوها، وحين يرتجفون تجاه هذه التداعيات التي بدواخلهم يفتح القرآن أمامهم بابًا يدعوهم منه إلى الإيمان.

فهؤلاء المنافقون ﴿**إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ**﴾ (سورة البَقَرَة: 13/2)، وحينما تُفضَح قبائحهم وعيوبهم، وتُعرض للأنظار من خلال الآيات القرآنية، يتزلزل كيانهم، فترى بعضهم يسارع للإيمان فينجو، وترى بعضًا منهم يستمرّ في كفره معاندًا، وقد يكون ذلك انعكاسًا للعالم الروحي للإنسان؛ ما إن يجرح شعوره نوعًا ما حتى يُخرج ما في جوفه من الأراجيف، ولكن القرآن لا يقضي بتاتًا حتى على آمال المنافق الذي انحدر إلى هذا الوضع المهين، ولا يخيّب رجاء الإنسان الذي وقع بروحه في هذه الحالة الضعيفة، بل يترك له باب الأمل مفتوحًا ويبعث فيه الرجاء.

وهنا درس مهمّ للغاية ينبغي للذين دأبوا على مهمة الإرشاد والتبليغ أن يعتبروا به، وهو أن القرآن الكريم كان يستهدف قلوب المنافقين لينفذ إليها فيهديهم، رغم أن تلك القلوب امتلأت بالفساد والمرض؛ فلا ينبغي لرجال الإرشاد والتبليغ أن يبلّغوا الحقائق ثم يتنحّوا جانبًا؛ لأنه إذا كان لنشر الحق والحقيقة قيمة عند الله، فستكون لتحقيق قبولها لدى الناس وتبنيهم له قيمة فوق القيم؛ بمعنى أنه ليس لأحدنا أن يقول: "دعُوني أقول الحق والحقيقة بشكل أو بآخر وأنادي بها على رؤوس الأشهاد، ولا يعنيني بعد ذلك هل اقتنعوا بها أوْ لا"، بل علينا أن نقول: "يا ترى كيف لي أن أقول هذا حتى يقبله الناس بقبول حسن، ويؤثرَ فيهم ويبعثَ فيهم الحماس ويحركهم نحوه!!".

أجل، إنه من الواجب علينا أن نحمل في دواخلنا على وجه الدوام همَّ سلامة الأسلوب والإخلاص والمهارة.. فالحديث عن الحقائق المألوفة قد يؤدي بالناس

إلى رد فعل سلبي، فينحرفون إلى الطرق الخاطئة، ويكونون معارضين لذلك الحق، ولذا علينا أن نبحث عن الذين يتقبلهم الناس بقبول حسن فنمنحهم الفرصة لدعوة الناس إلى الحق، وذلك من أجل الحفاظ على الحق.

فالقرآن الكريم يهدف إلى تحقيق ذلك، ويحاول أن يحصل على الثمر ولو كان من أرض سَبْخَة مثل النفاق؛ فلذلك لا بد أن تُقدَّم الحقائق بأسلوب يبعث في النفوس الأمل في رحمة الله ولو كان المستمع إليه منافقًا، فأرباب مثل هذه النفوس إذا لم يُفضَحوا مباشرةً، فكثيرًا ما تلين قلوبهم نوعًا ما ويؤوبون إلى الله نادمين.

وأظن أنه سيكون من المفيد أن نزيد في شرح كيفية تناول القرآن للدنيات الإنسان:

يقول الله ﷻ: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 14/3).

فالملاحَظ هو أن القرآن في أثناء حديثه عن الأمور التي تجذب الإنسان يذكُر المرأة أيضًا.. وللمرأة في نظر الإسلام مكانة عالية.. إلا أن الأمر أسيء استخدامه، فجُعلت -ولا تزال تُجعل- المرأة "محرابًا".. فمثلًا: إن نظام "فرويد" مدرسة تَبَنَّت الإفراطَ في هذا الباب، كما أن هناك فئات من شتى التيارات النسائية بَنَتْ أفكارَها على هذه النظرة وتورّطت في الخطإِ نفسه، فإن المرأة في نظرتهم بمثابة محراب للأحاسيس الشهوانية

بل هي بمنزلة "معبود" لها، وأكثر من ذلك هي مِثل "العلة الغائية" لوجود الإنسان.

وكذلك حب الأولاد، فهو ليس دون المرأة في كونه جزءًا لا يتجزَّأ عن الحياة البشرية، ومن الجانب الآخر: حب المال من الأمور الأخرى التي يشغف بها الإنسان، وأيضًا تخصُّ الآيةُ بالذكر "القناطيرَ المقنطرة من الذهب والفضة"، وبذلك تلفت الأنظار -من وجهٍ ما- إلى كل الذين يلهثون وراء المنافع، والمرابين والمحتكرين والسماسرة والمضاربين في الأسواق.

نعم، إنه ﷻ يؤكد بقوله: ﴿**وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ**﴾ على أنه لا بد من التنبه تجاه النقود وسائر الأموال المعطلة التي لا تتحرك في الساحة التجارية، والتي يُحتفَظ بها في زاوية من الزوايا فتكون مهيأة لتعقيد الأمور في اقتصاد السوق.. حتى يحذر الناس هؤلاء الذين يستنزفون قوت الناس، فيكدِّسون النقود ويعيشون على المراباة والاحتكار.

ففي مثل هذه الطريق التي تكون فيها الأموال مكدسةً مرصودةً، والخيولُ والسياراتُ مجهزةً للَّهو، فلا مفر من أن أصحابها سيكونون في قمة البذخ والكبرياء والخيلاء، وسيعيشون حياتهم أمام الناس بطرًا ورياءً، بل قد ينحرفون أحيانًا بالكلية إلى وقاحة تامة تجعلهم يمسون عزة الخالق وينتهكون حقوق المخلوقين.

أجل، إن كل هذه الأمور بمثابة المزالق التي من شأنها أن تنحدر بالإنسان رأسًا على عقب؛ ولكنها تُعتبر -بالنسبة لمن يستثمرها- درجاتٍ في المعارج النورانية.

ثم إن قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ يؤكد أن هذه الأمور دنيوية، والمفهوم منه أن هذه الأمور إن لم تُستثمَر في سبيل الحق، فستكون من حبائل تجر صاحبها إلى الطرق الشيطانية، وحتى لا يقع الإنسان في مثل هذه الحبائل، تقول له الآية: "إن فيك ضعفًا مهمًّا نحو النساء، وفيك ميل قوي إلى الأولاد والعيال، ولديك محبة تجاه متاع الدنيا"، وبذلك تُذكِّره بما فيه من الفراغات النفسية، ولكن ليس له الاعتراض بحجةِ أن الله هو الذي أَودَع كلَّ هذه الأمور في فطرة الإنسان، وكأنه يتساءل: "كيف نؤاخذ بما جُبلْنا عليه".. صحيح أن هذا الميل الفطري والمحبة الجبلية قد أُدْرِجَتا في الفطرة البشرية، إلا أن الحياة ليست عبارة عن هذ الميل وتلك المرغوبات فحسب. أجل، فالإنسان لم يُخلق ليتشبع بهذه الأمور؛ بل فيه ميول ورغبات أخرى متوجهةٌ نحو أهداف عالية وغاياتٍ سامية.

ففي الوقت الذي ينبري فيه الإنسان لتلبية نزواته مسترخيًا، إذا به يخاطبه القرآن الكريم قائلًا: ﴿**ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ فيقصم ظهر ما في طبيعته من هذه الأمور الرذيلة، ويوجهه نحو المعالي

بأسلوب يَقلِب حلاوة الأذواق إلى أمور مريرة، واللذائذِ إلى الآلام، ويعصف بعالمه الذهني ويغيّر وجهة عالمه الفكري.

أجل، إن هذه الأمور كلها متاع الحياة الدنيوية، والدنيا لا تقف عند حدود الاستمتاع، بل تذيق الإنسان أحيانًا مُرَّ الثمار، وهي بصنيعها هذا تَحُول بين الإنسان وبين روحه وتسحبه إلى مهاوي الجسمانية.

والحقيقة أن الإنسان يعيش حياته بين مثل هذا المد والجزر، فتراه يميل إلى الدنيا بأحاسيسه ونزواته إلى درجة العبودية لها، وأحيانًا أخرى تهب في دواخله نسمات طيبة فيبتعد عن الدنيا وعن متاعها كل البعد، فيتجول في آفاق القلب والروح، فالقرآن يسلّط الضوء على ما في الإنسان من هذه المشاعر المختلفة واحدة تلو الأخرى.. فينفُذ إلى دواخله وكأنه يجري منه مجرى الدم، وبذلك يوجِّه روحه نحو الغايات السماوية والمعارج الأخروية.

أجل، فحينما يقال: ﴿**ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾؛ تُفاجِئُنا الآية في المكان المناسب بالتأكيد على أن النعم والأذواق ستنتهي وسينطفئ بريقها بعد حين، وتترك مكانها للآلام والأكدار، وأنه سوف يأتي يوم يخلُف فيه المشيبُ الشبابَ، ففي هذه الأمور التي تتعاقب وتتقلب تذكيرٌ للسامع وتنبيه له إلى مدى تناقض حياة الإنسان وعدم تناسقها.

نعم، إن الإنسان سيَفقد نعم هذه الدنيا واحدةً تلو الأخرى، وسيفقد شبابه ويقع في شِباك المشيب، وفي نهاية المطاف سيتركه كلُّ شيء ويُطرح من هذه الدنيا في مكان لم يكن في حسبانه، ومن يدري؟! فقد يَترك كلَّ شيء ويمضي في الوقت الذي كان يظن أنه قد تم له كل شيء فيه، وحين يروح سيُمحى اسمه من الأذهان، وتضمحل ذكرياته واحدة تلو الأخرى.

فهذا هو الوجه الحقيقي للدنيا، وهذه هي عاقبتها الأليمة، وكلما شعر الإنسان بشتى طرائق التداعي يحترق فؤاده، وكلما شعر أنه ظفر بالدنيا وطفحت مشاعره لاعتقاده بأنه نال السكينة والطمأنينة اختنق بهذه الأفكار وانهدمت الدنيا على رأسه كل يوم عدة مرات.

ففي مثل هذه الحالة يميل الإنسان من حيث لا يدري إلى البحث عن مخرج، ويظل يبحث عن مستند يكون مصدر تسلية له، وتسوقُه أحاسيسُه ولدنياته إلى آفاق المَلجإ والمنجى، فإذا قال له أحد في حالته هذه: "أيها الصَّديق، إن يذهب شبابك في دار الدنيا فإني أعِدك بشباب سرمدي، وإن تذهبْ دنياك فإني أوصيك بالتوجه إلى دار أجمل من الدنيا، وإن تكن تعرضتَ في مالك وملكك لعاقبة ذابلة باهتة، فسأدلك على دارٍ بها سعادةٌ أبدية لا تذبُل ولا تَبهت بل تُداعبُ كلَّ أحاسيسك ومشاعرك..."، فإنه سيميل إلى ذلك النداء من فوره؛ لأنه في حالته هذه يكون قد خارت قواه وخابت آماله، ووجود باب للرجاء ومنبعٍ للتسلي مثل هذا الباب سيُثلج صدره، وحتى إنه لو لم يظفر به في الواقع فحالته النفسية ستصدقه وتعوّل عليه وسيقول -فيما بينه وبين نفسه-: دعُوني أعيش ما بقي لديّ من الدقائق في راحة بال بما يبعثه منبع التسلي هذا..

ففي مثل هذه النقطة التي تُخَيِّب كلَّ آماله، ينجده القرآن ويأخذ بيديه بوعود متناهية في الصدق وبريئة عن أدنى خُلْف، ويربت على كل أحاسيسه ومشاعره وروحه، ويدعوه إلى جنة تكون بدايتها في قلب هذا الإنسان.

﴿**وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ أي إن كل المحاسن والأفراح والمعايش الزاخرة بالسعادة، وكلَّ النعم التي لا تذبُل ولا تَبهت لهي عند الله.

ولنتصور نفسية شخص في مثل هذه الحالة تجاه هذه البُشرى، وكم سيتشبث بكل ما يملك من قوة، بما انفتح أمامه فجأة من باب الرجاء هذا، فلْنتخيلْ تلك الفرحة تَلُوح على وجهه جراء ما تَبدَّى له من الأمل في تلك الحالة المتأزّمة التي ضاق فيها ذرعًا ووصل إلى حدّ الاختناق، حتى ندرك مدى تعبير القرآن عما يدور في دواخل السامعين وإفصاحه عن مشاعرهم.

والحقيقة أنه لا يوجد فينا أحد لا يتصور هذه الأمور في الحياة الدنيا، وهل منا مَن لا يتوجع قلبه إزاء ما يفاجئه من النوائب التي تذهب بكل ما يملكه بعدما كان يتقلّب فرحًا وسرورًا في النعم التي تأتي إليه؟ فالإنسان مجبول على كل هذه الأنواع من الصعود والهبوط والطمع في الدنيا،

والافتتان بشتى أضرُب المنافع، والقرآن زاخر بالحديث عن نقاط الضعف هذه مع الإتيان بحلول لها.

والواقع أن القرآن يتتبع الإنسان خطوة خطوة، ويستمر في تعقبه على الدوام، وإن القرآن يتعقبه ليتداركه في الوقت المناسب الذي يكون فيه ضعيفًا ويكون قلبه راغبًا ومهيَّأً، فيقولَ له على لسان رسوله: ﴿**أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 15/3)، أي هل أخبركم بشيء هو خير من الدنيا التي خضتم فيها وتوجهتم إليها بكليتكم وثملتم بأذواقها وانبهرتم بما حصلتم عليه من الإمكانات، فبطرتم بمالها وملكها؟

وفيما تكون الروح مستعدة لأن تجيب عن هذا السؤال بـ"نعم"، إذا بالسياق يتدارك قائلًا: ﴿**لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 15/3).

فالقرآن المعجزُ البيانِ خير ملجإٍ وملاذ لأولئك الذين يحملون في قلوبهم هَمَّ الدنيا، ويتوجّسون من فقدان أموالهم وأملاكهم، ويتخبطون يائسين من مستقبلهم بقلوب منكسرة، ويتلوَّوْن في تخوُّف مما يؤول إليه حالهم حينما يُبعثون بعد الموت.

أجل، إن هذه الرسالة القرآنية لهي وحدها الملجأ ومنبع الوسيلة لكل من يستغيث قائلًا: "ألا هل من منقذ يُرقِّيني إلى كمال الإنسانية، ويوصلني إلى أعلى علّيّين؟

والقرآن يعطي مقابل ما يفقده بعض الناس من جنان الدنيا وسعاداتها جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، وهذه التعبيرات فوق كونها تسلية هي مبشرات بحقيقة عظمى وحياةٍ تمتدّ إلى الأبدية.

والله تعالى يقول من بعد ذلك ﴿**وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ**﴾.. فالذي يحلل آيات القرآن واحدة تلو الأخرى ويمعن النظر فيها بشكل جدي، سيرى أنه يتتبع الإنسان ويعبر عن كل مشاعره وأحاسيسه.

وإلى جانب تعبيره عن المشاعر اللدنية، هناك أمر آخر لم يُغفله القرآن ولم يبعده من اعتباراته، وهو أنه يفعل كل ما يفعل مِن تناوله للقضايا وشرحِه للأحاسيس بغرض توظيفها في سبيل الإرشاد والتبليغ، ويمكن مشاهدة هذا الهدف السامي في جميع آيات القرآن الكريم، ومن هذه الناحية

يمكن القول: إن القرآن هو المصدر الذي لا يمكن أن يستغني عنه المخلصون والمضحُّون الذين نذروا أنفسهم لمهمّة الإرشاد والتبليغ.

أجل، إنه يجب قطعًا على الذين يريدون أن يستخرجوا قواعد كلية ومبادئ عامة تتعلق بالإرشاد والتبليغ أن يستعرضوا القرآن من أوله إلى آخره ويحللوه من هذا المنظور على وجه الخصوص.

و. القرآن يخاطب الفطرة

إن حضارة عصرنا ثمرةٌ لعقليّة مادية.. كما أن التيارات المادية والعقلانية المتعاقبة أفسدت الإنسان من الناحية المعنوية، وجرفته نحو تكثيف همته حول المادة.

فهذه الأفكار والمقاربات المادية هي التي أبعدت الإنسان عن فطرته، وجعلته متوحّشًا بذهنه وفكره تجاه كثيرٍ من القضايا لا سيما عالَمه اللدني، وللأسف نرى أن مثل هذه الأفكار المادية عكّرت صفوَ أذهان بعض المسلمين، فحضارة عصرنا المريضة من بعض النواحي والتي نسميها "الحداثة"، قد سَرَت إلى كل مؤسسات العالم الإسلامي وكأنها مرض معدٍ، فشلَّت حركتها.

ولا شك في أن الفطرة الإنسانية هي أكثر المتضررين من هذه الظاهرة.. حيث إنه صار من شِبه الأمور المنسية أن يستمع الإنسان إلى ذاته ويفهمها ويسيطر عليها.

لقد أصبحنا متوحّشين تجاه ذواتنا منذ سنين عديدة، لذلك نعتقد أنه من الضروري لحياتنا الإسلامية أن يتوجه إنساننا إلى ذاته، ويجد نفسه في القرآن، فيفسر ذاته وكل الأشياء الأخرى على حسب ذلك، وهذا من القضايا التي يجب تناولها باستقلال من زاوية علم النفس، وهو مدى أهمية استماع الإنسان لذاته وتحكّمِه فيها وتعمّقِه داخليًّا.

فحصول الإنسان في هذا الباب على نتيجة، وتحديدُه لهدف التحكم الداخلي، وتعمقه الداخلي، وفهمه لمعناه وماهيته من الأمور التي لا يتسنى البلوغ إليها إلا بالقرآن، فإذا لم تُفهم المقاصد والأهداف القرآنية فإن كل ما سيبذله الإنسان من الجهود ستذهب سدى ولن تغني عنه شيئًا.

فماذا يفعل الإنسان حينما يستمع إلى ذاته؟ وماذا يحصُل حينما يتعمّق داخليًّا؟ وماذا يتحقق له إذا اطلع على لطائفه ومشاعره وأحاسيسه الداخلية؟ أجل، إنه لا يمكن العثور على جواب عن كل

هذه وما شابهها من الأسئلة إلا في القرآن، والذي لم يتعمق في داخله ولم يرتق إلى مستوى الاستماع إلى ضميره ولم يَمثُل بين يدي مولاه كل يوم مرات عديدة بهدف محاسبة نفسه فليس له أن يفهم مقاصد بيان القرآن المعجز التي تتعلق بهذا الأمر.

فلأجل أن يفهم الإنسان القرآنَ عليه أن يستمع دائمًا إلى صوت ضميره، ويتوجهَ كل يوم مراتٍ عديدةً إلى دواخله، ويحاسبَ نفسه، ويستمعَ إلى صوت روحه، ويتخلص من عبودية نفسه، فالإنسان الذي لا يفهم نفسه ليس له أن يفهم القرآن.

أجل، إن التعمّق الداخلي يعتبر تمهيدًا لِفهم القرآن، وقد سبق أن لفتنا النظر إلى ثلاثية (القرآن-الإنسان-الكون)، لأن بين هذه الثلاثة ارتباطًا وثيقًا دائمًا، والقرآنُ يشرح الإنسان والكون في مئات من آياته، ولا يوجد هناك كتاب ثان يضاهيه في هذا المجال، فحتى علم النفس الحديث لم يصِل -ولن يَصِل- آفاقَ القرآن في باب شرح الإنسان وتحليله وإن أي علم من العلوم مهما بلغ من التقدم والرقي لن يستطيع الوصول في هذا المضمار إلى أدنى المعارف التي بينها القرآن وسيكون القرآن قد سبق كل المعارف مرفرفًا برايته السبّاقة.

وحينما يتحدث القرآن عن الإنسان يسلك طريقًا ينساب من خلاله إلى مشاعر مخاطبيه، فيستحثهم خطوة فخطوة نحو الإيمان، ويحفِّز أحاسيسهم، وكأنه يستخرج الحي من الميت، ويستثير فيهم ملكاتهم التي تفيدهم في حياتهم الأخروية، فتراه يلفت الأنظار إلى حالتهم الروحية فيتحكم فيهم من خلال أضعف جوانبهم ويستأصل منهم الميل نحو الدنيا، بمعنى أنه يستثمر كل ما أُودِع فيهم من القابليات فيعدُّها لقبول الحق والحقيقة.

ز. القرآن الكريم والإرشاد

1- الاستقامة في الإرشاد

إن القرآن المعجز البيان حينما يرشد الإنسان فإنه دائمًا يسلك طريق الاعتدال والاستقامة، ولا يفتح المجال للإفراط والتفريط في تنبيهاته وتنويراته.

أجل، إنه لا يوجد في القرآن شيء من الأمور المفرطة التي تُخلّ بتوازن الإنسان الروحي، وتقلب تناغمه المعنوي والعاطفي، فحينما يتحدث عن المجرم لا يحطم كرامته وكذلك لا يُطْري في مدح صاحب العمل الصالح كي لا يعجب بنفسه. أجل، إنه حينما يدغدغ المشاعر ويراعي الأحاسيس ويقوم بمختلف التشريحات والتحليلات، يراعي دائمًا هذا التوازن، ولا يحيد عنه قطعًا..

فالبعد عن الإفراط والتفريط الذي نعبِّر عنه بـ"الاستقامة في الإرشاد" لهو أمرٌ مهم في باب تحليل الإنسان؛ فمِن الناس مَن إذا دُغدِغت روحه -ولو قليلًا- فإنك تراه يرتخي بل قد تتميع لديه روح العبودية، كما أن هناك -بالمقابل- من إذا نُقِّبَ -ولو قليلًا- عن مساوئه التي اقترفها ومُسَّ كبرياؤه فإنه سرعان ما يتخبط في أوحال اليأس والقنوط.

وكم من أناس ظنهم الآخرون سالمين، لكنهم سقطوا رأسًا على عقب وهلكوا بسبب ذنب صغير اقترفوه، إذ كل من يذنب يكون قد خطا خطوته الأولى نحو هذا الهلاك، فـ"في كل ذنب هناك طريق يؤدي به إلى الكفر"[57].. وليس أحد من بني الإنسان معصومًا من المعاصي.

أجل، إن مقاومة المعاصي أمر صعب جدًّا، إذا لم يكن لدى المرء إيمان راسخ وإرادة قوية، ويصعب الأمر بشكل كبير على أبناء هذا الزمان الذين أحاطت بهم المعاصي من كل جانب، ومن هذا المنطلق ينبغي عدم المبالغة في التحامل على من اقترف ذنبًا، ولكن يجب -في الوقت ذاته- عدم التّساهل في المعصية أيضًا، وقد يهلك العاصي بما عصى إذا لم يكن هناك يد تمتد إليه، وتنقذه مما تورط فيه خطأً وغَلبت عليه مشاعره، وتنتشله من عالمه إلى آفاق السلامة، وتربطه برحمة أرحم الراحمين.

فلذلك سيكون من المهم بالنسبة للمجرم الذي تعرض لمثل هذه الحالة أن تُفتح له أبواب الأمل ويُربَّتَ على أحاسيسه، حتى يؤمن بسعة الرحمة الإلهية فيَخلصَ

[57] انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة الثانية، النكتة الأولى، ص 11.

من المستنقع الذي وقع فيه.

وبالمقابل إذا كان هناك من قام بأعمال صالحة فإن الإطراء في مدحه والمبالغةَ في جرعة التوجه والالتفات إليه قد يؤدي به إلى البطر والغرور من حيث لا يدري، فيكون من الخاسرين في معرض الربح.

وهذا يعني أن تعديل الجرعة وضبطَها بالغُ الأهمية في باب الإرشاد والتبليغ.. وهذا ما نعبر عنه بـ"الاستقامة في التبليغ والإرشاد".

فهذا الشخص الذي انتُشل من المستنقع من ناحيةٍ، ينبغي حمايته من ناحية أخرى دون الوقوع في الإفراط والتفريط حتى يفيد إرشاده شيئًا، وهذا من الأمور التي يخطئ فيها كثير منا في هذا العصر، بل إن للعلم في هذا الميدان أخطاء لا تعد ولا تحصى، ولكنك لن تجد في القرآن المعجز البيانِ أي شيء فيه انحراف عن خط الاستقامة، فكل ما فيه هو في موقعه المناسب، ومراعاة الطبيعة والفطرة هي في إطار الموازين الصحيحة.

وكما أننا نجد في القرآن توازنًا بين الخوف والرجاء، نجد فيه أيضًا موازنة بين التواضع والكبرياء، والمحبة والبغضاء، ولا يوجد وصف للجرعات الحساسة الموزونة بالموازين الدقيقة إلا في وَصفات القرآن، ولا تُلخَّص آليات الموازنة بين الدنيا والآخرة، والمفاضلة بين الإيمان والكفر، وتحليل وتدقيق شخصية المؤمن والكافر والمنافق إلا في بيان القرآن فقط.. ولذلك نقول: إن العلم الحديث والإنسان المعاصر يحتاجان دائمًا إلى القرآن، فحينما يربت القرآن على روح المجرم ويلاطفها لا يداريه في إجرامه، بل يبقى في حدود ما يتوعد به فيرغِّبه إلى الأعمال الحسنة لينتشله من إجرامه.

كما أن القرآن يحتوي على وصف أقصر الطرق الطبيعية المؤدية إلى استجابة الدعوات.

إن القرآن لا يخاطب عقل الإنسان فحسب بل ينادي روحه أيضًا، وبذلك يحرك مشاعره ويرشده إلى الطرق المؤدية إلى السعادة الأخروية، والقرآن يُسخِّر كلَّ الأدوات في سبيل الإرشاد والتبليغ، ويتناول أصغر الأمور على النحو المطلوب، ولا يتجاهلها ولا يهملها، ويتناول الإنسان

باعتباره كلًّا متكاملًا بمادته ومعناه، ويضعه على طاولة التشريح، ويكشف عن المرض ويشخِّصه، ويبعث الأمل في الإنسان ويشجعه ويجذبه نحوه، والقرآن يوارب الأبواب دائمًا لأولئك الذين فسدت أرواحهم ويتيح لهم فرصةً تلوَ الأخرى.

إن القرآن هو الذي يبيّن أن الله: ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ**﴾ (سورة الرُّوم: 19/30)، فليس في القرآن كلمة واحدة تؤدي إلى التراجع والجمود وإلى ما يفسد الأخلاق والمعنويات.

ويستطيع الإنسان أن يجد ذاته في القرآن بظاهره وباطنه ومن كل جوانبه.. ورسالة القرآن إنما هي رسالة ذات استقامة في التوازن بين الظاهر والباطن، كما أن المعرفة الصحيحة والموازين الدقيقة الحقّة التي لها دور في التربية وتحليل نفسية الإنسان لهي من الأمور التي لا توجد إلا في ثنايا صحائف القرآن المعجز البيان.

2- إرشاد النفوس العالقة في أوحال المعاصي

لقد ركزنا منذ البداية وإلى الآن على أن القرآن هو كلام الله من كل الوجوه، وأنه يستحيل على البشر أن يأتوا بمثله.. وكان هدفنا من لفت الأنظار إلى أسلوبه في إرشاد الناس من مختلف المستويات والثقافات والعقائد، هو أن نبين مرة أخرى ونَعْرِضَ للأنظار مدى تفرده من بين سائر أنواع الكلام، فإن الإنسان إذا تمعّن في القرآن بتدبر عميق فسيقول في نهاية المطاف: "ليس هذا إلا كلام الله"، وقد رأينا هذا الجانبَ من خلال الأمثلة التي أوردناها إلى الآن، وليس لنا أن ندَّعي أننا بيَّنَّا في هذا المقام ما يتمتع به القرآن من تلك الجاذبية الخاصة به، وإنما غاية ما في الباب أنني أردت أن أنقل للآخرين ما شعر به قلبي وروحي من المعاني التي استلهمتها من القرآن ذاته.

إن فهم القرآن والإحاطة بأسلوبه الفريد يتطلب معرفة جادة به، ونحن بدورنا لم نرجع في عملنا هذا إلى أي مصدر آخر غير الكتاب والسنة الصحيحة حتى لا يتكدَّر صفوُ أذهاننا بسائر الآراء والأفكار وبذلك حاولنا تقديم الحقائق التي تكوّنت من التقاء هذين المصدرين.

أجل، إن القرآن الكريم يتولى أمر إبراز جاذبيته بنفسه، ويكفي في ذلك أن تتسامى الأرواح وترتقي نحوه، ولا تتوجه إلا إليه، والقرآن يشرح قضيته ويعبر عنها بأسلوب لا يفوقه أي بيان

وتعبير، وحينما يكشف عن الحالة النفسية للناس يجعل السامع يشعر وكأن القرآن يجري في دمه وعروقه.

والآن كمثال على هذه الأمور التي تَحدَّثنا عنها؛ تعالوا بنا نتابع الحالة الروحية والمشاعر الداخلية لعبد اقترف الخطيئة، من خلال قوله تعالى: ﴿**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا**﴾ (سورة النِّسَاءِ: 31/4).

وعليَّ أن أعترف أنه لا يمكنني أن أعكس حقيقة جمال الآية من خلال مثل هذا التفسير المتواضع.

أجل، إن التفسير مهما كان دقيقًا فمن المحقَّق أن هناك حقائق عديدة يتم التعبير عنها في الآية عبر مختلف أوجه الدلالات إلا أن التفسير يعجز عن نقلها إلى لغة أخرى، فأنَّى للتفسير أن يعبر عما في البيان الإلهي من الإشارات أو التلميحات إلى بسمة أو طرفة عين أو قسمات وجه، فكم في تلك التعبيرات الغنية من الإشارات أو الرموز أو مستتبعات التراكيب التي يستحيل إبرازها من خلال التفسير، فتدبّروا في قول الله تعالى: ﴿**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا**﴾ (سورة النِّسَاءِ: 31/4).

فتخيلوا أن هناك إنسانًا تلطخت يداه بالدماء، واحمرت عيناه بالدماء، ويسطو على ما حوله يمنة ويسرة، حتى بلغت به هذه الحالة الجنونية إلى أن يدمر ويحرق ما حوله، فهذا الإنسان إلى جانب مقارفته المعاصي هو لا يحترم القوانين الكونية ويشاكس من حوله بمنتهى الفظاظة.. وهذا ما نفهمه من تعبير "كبائر".

فكل المعاصي الكبيرة التي تتبادر إلى الذهن تدخل في نطاق كلمة "الكبائر"، فهذا الإنسان إلى جانب ارتكابه للمعاصي والكبائر والمنكرات فإنه ينشرها -في الوقت ذاته- إلى ما حوله، ويشجع عليها ويقوم بالدعاية لها، والأدهى والأمر أنه يقوم بتأسيس مدرسة للمعاصي والعصاة.. فتخيلوا مجرمًا بهذا المستوى يسيلُ لعابه وهو يهجم على من حوله، فإذا بالقرآن يهمس في أذنيه وهو على هذه الحالة: "إن تجتنب هذه الأعمال التي ترتكبها..."، فيبثّ روح الأمل فيه قائلًا: "إن تأخذ موقفًا

صارمًا تجاه الكبائر، وتغمضْ عينيك عن المعاصي فور رؤيتك لها، وتتوَخَّ الحذر بيديك ورجليك وعينيك وأذنيك تجاه الخطايا، فإننا سنجعل ذلك كفارة لما اقترفته من المعاصي".

فنلاحظ أن المطلوب من المجرم شيءٌ قليل، وهو أن يتخذ موقفًا تجاه الشرور التي تترصد حياته القلبية والروحية لتهلكه.. أجل، إن المطلوب منه هنا هو التخلي -فقط- عما يرتكبه من المعاصي، ليكون موقفه هذا كفارة لجرائمه، وإن لم يبدأ بعدُ في الأعمال الصالحة، وأظن أن كل من أصغى إلى صوت ضميره فسيعتبر مثل هذا النداء من الله بشارة للخلاص؛ فإنه لم يُطلب منه بعدُ الشيءُ الكثير من الخير والحسنات، بل قيل له فقط: "إذا صادفتَ السيئات فدعها وشمر عن ساعديك متجهًا نحو الشاطئ الآخَر من دون أن تتلوّث بالمستنقع"، فإذا وصل إلى الشاطئ الآخَر نظيفًا فإنه سيفوز بالوجود والخلاص الأبديَّين.

﴿**وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا**﴾ تقول الآية الكريمة: إن تقوموا بهذا العمل على هذه الشاكلة فإننا سنسمو بكم من أسفل طبقات الإنسانية إلى أعلى عليين منها، وسندخلكم -بصفتكم أناسًا ذوي أصل كريم- الجنةَ التي هي دار الأعزّاء.

فمثل هذه التعبيرات تُهدّئ روح كل مجرم تقريبًا وتوارب له باب الأمل، فإن الواقع هنا هو التغير العمودي الذي يُشْبه الارتفاعَ بسرعة الصاروخ من قعر بئر إلى رأس المَنارة، بالإضافة إلى أن هذا الإنسان لا يتحمل من عناء هذا السفر الغالي سوى إغماض العين تجاه الحرام.

فالآن تصوَّروا -من جانبٍ- قُبْحَ الكبائر التي تجعل المذنب يشعر وكأنه وصمة عار في الحياة.. ومن الجانب الآخر، تصوّروا حجم اللذة الروحانية والحماس المنبعثين في روحه بسبب البيان الرباني الكفيل بخلاصه من مستنقع المعاصي الذي يتخبّط فيه، ومِن بعد ذلك حاوِلوا أن تفهموا كيف يُهيّج القرآنُ المعجزُ البيان مشاعرَ الناس وأحاسيسهم وحماسَهم وأشواقهم، وكيف يصبح منبعًا فياضًا لِبعث الأمل في الأرواح التي فَقدت آمالها، افعلوا ذلك حتى تفهموا أنه معدن الإرشاد الذي ينشر أنفاس الحياة.

ولنتصور في أذهاننا نوعًا من المجرمين، ولننظر إلى المشهد الذي يُعرض فيه أولئك الذين هاجموا المؤمنين، وساموهم سوء العذاب بسبب دينهم وإيمانهم، ولم يتبعوا الرسل والرسالات ولم يستسلموا للحق والحقيقة، ولننظر إلى الآيات وهي ترسم صورة الذين اتخذوا العصيان شعارًا لهم من خلال ارتكاب شتى ألوان المساوئ، أولئك الذين دأبوا على تعذيب المؤمنين وممارسة الظلم عليهم: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ**﴾ (سورة البُرُوجِ: 10/85).

فهذه الآية الكريمة تَعرض للأنظار -بشكل وجيز- كلَّ أولئك الغوغائيين من الكَفَرة الفَجَرة الذين تسلّطوا على المؤمنين والمؤمنات دون تمييز لأحد، وهددوا حياتهم الدنيوية والأخروية بلا هوادة، ولكن علينا أن ننظر إلى الموضوع من زاوية قوله تعالى في سياق الآية ﴿**ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا**﴾؛ فإنهم حينما ينظرون إلى الموضوع من زاوية ﴿**فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ**﴾ فإنهم سيظنون أنه ليس لهم مَخرج وباب للأمل، ولكن قوله:

﴿**ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا**﴾ يَعِدُهم ضمنًا بمفاجآت، فحينما يسمع المجرم هذا الكلام يشعرُ وكأنه على جسر يوصله إلى شاطئ السلامة وبر الأمان.

أجل، إن الذين يدأبون على إجرامهم، ولا يتخلون أبدًا عن المعاصي، والذين لا يستطيعون التخلي عن ارتكاب المحظورات، يستحقون عذاب النار يوم القيامة، ولكنهم إذا أرادوا فهناك دائمًا باب مفتوح يستطيعون الخروج من خلاله من سجن المعاصي الذي وقعوا فيه.. إنه باب التوبة، وباب التوبة مفتوح دائمًا أمام كل أحد.

فلنتصور مدى تألم الروح المجرمة تجاه تهديدات هذه الآية، وشدةَ تلك العواصف التي تثور بداخله جراء سماعه الحديثَ عن "العذاب الإلهي"، ثم لنتخيلْ كيف يفتح قولُه تعالى: ﴿**ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا**﴾ له باب الأمل، فيكون كيوم ولدته أمه إذا تخلى عن قبائحه، فحينذاك نغدو وكأننا نرى رأيَ العين كيف تُرَبّتُ الآيةُ على قلوبهم وعواطفهم.. وهذا يعني أن القرآن الكريم حتى حينما يتناول المجرمين لا يحيلهم إلى اليأس والقنوط قطعًا، ولا يصدمهم بمعالجة القضية من جانب المعاصي

فقط، وحينما يُصدر الحكم يوارب لهم باب الأمل والرجاء، وبهذا يعطي الفرصة لأمثال هؤلاء حتى يتخلوا عن المعاصي ويتوبوا.

3- القرآن الكريم وطاعة الرسول ﷺ

من أهداف إرسال الرسل بالرسالة السماوية هو أن يطاعوا من أَجْل الله، والقرآن الكريم يَعرض للأنظار هذه الحقيقة الكلية من خلال بعض الآيات الكريمة، ومن الأمثلة على ذلك قول الله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ**﴾ (سورة النِّسَاءِ: 64/4)، ولذلك اعتُبرت معصية الرسول والتمرّد عليه من كبائر الذنوب.

فالتمرد على الله ورسوله وعلى القيم التي يجب التمسك بها علامة على فساد في الطبيعة البشرية وانزلاقٍ في الروح، وأما تعرُّض مجتمع بأكمله لمثل هذا الانحراف الكبير فهو يدل على تدمير المقومات الأساسية التي تحافظ على قيام المجتمعات، مما يعني أنه من المستحيل أن يعيش هذا المجتمع لمدة طويلة.. ولم يهلك الذين أخبر عنهم القرآن من عاد وثمود وقوم لوط وأقوام كثيرة غيرهم إلا لهذا السبب.

فعدم الإطاعة، الذي يعبَّر عنه بالعصيان والتمرد وسوءِ الطبع وغيرِ ذلك لهو مثل الأمراض المُعْدية، فإذا لم تتم السيطرة عليه في الوقت المناسب فسيسري إلى كل المجتمع، وحينذاك يختل التوازن في المجتمع ويؤدي به في نهاية المطاف إلى الهلاك والدمار.

ويمكن أن نوضح هذا الموضوع بمثال كما يلي: لنفرض أن هناك مجموعة عسكرية صغيرة تضم قليلًا من الجنود، ومن بين هؤلاء الجنود جندي متهور لا يطيع ضابط الصف مما يجعل هذا الضابط يريد ويحاول أن يعاقبه على تهوره، ولكن هناك ضابطًا أعلى يعفو عن هذا الجندي، وكنتيجة طبيعية لهذا الأمر يبدأ الجنود الآخرون بالتمرد على ضابط الصف، بل ويستخفُّون بأوامره ويسخرون منه، وهذا يعني أن السلسلة التراتبية بدأت بالاختلال والانقلاب رأسًا على عقب، ويمكن أن نعمم مضمون هذا المثال البسيط على سائر وحدات الجيش.. وكما هو ملحوظ هنا لما

لم تُعَالَج المشكلةُ في مراحلها الأولى على الوجه المطلوب، استفحلت وسَرَى مرضُها إلى بقية الصف، وشملت كل وحدات الجيش.

ويمكن تطبيق هذا المثال نفسه في نطاق النبي وأمته؛ فالقرآن الكريم في سياق هذا الخطر المحتمل ينبه الأمة في آيات عديدة، وإذ ينبه على ذلك يستخدم أسلوبًا في منتهى اللين واللطف، بالإضافة إلى لفت الأنظار إلى توقير مقام النبي ﷺ: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا**﴾ (سورة النِّسَاءِ: 64/4).

فنلاحظ أن هذه الآية تخاطب -أولًا بشكل خاص- المجرمين الذين قصَّروا في احترام الأوامر الدينية، وتمرّدوا على الأوامر التي يجب طاعتها، ولم يحترموا الكبار، وباختصار: ظلموا أنفسهم.. ولم يأت في الآية أسلوب يجرح عواطف المذنبين ويؤنّبهم ويُخجلهم.. فصار هذا الصنيع من العناصر المؤدية إلى تليين قلوبهم.

وثانيًا: هناك أمر آخر، وهو أنه لا بد في ترك التمرد على الرسول من الرجوع إليه ﷺ، لأن الطريق إلى رحمة الله الواسعة يمر عبر النبي ﷺ. أجل، إن سلطان الأنبياء ﷺ بمثابة الجسر المؤدّي إلى رضا الله ورضوانه، ومن المستحيل على العبد أن يلقى الله من دون المرور عَبره.

وهذا الحديث جعلنا نتطرق إلى موضوع يجدُر ذكره في هذا المقام: وهو أنه لا يوجد في الإسلام واسطة بين العبد وبين الله، فللعبد أن يؤسّس علاقة بينه وبين ربه حيثما أراد ومتى شاء، ولكن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار حيال هذه النقطة أن الرسول ﷺ هو الذي علَّمنا طريق هذه العلاقة.. فلذلك يُعتبَرُ هو أهم وسيلة فيها.

أجل، إنه وسيلة باعتبار ما علَّمَناه.. وسيلةٌ بمثابة الغاية، إلا أننا نرى كثيرًا من الأرواح التي فيها جفاء لم تدرك هذا الجانب، ونظرت إليه ﷺ وكأنه ساعي بريد، وبذلك حادت عن الصراط المستقيم.

وثالثًا: إن ذكر وصفي الله ﷻ: "التواب" و"الرحيم" ينطوي على منتهى الملاطفة لقلوب المجرمين، ويزيد لديهم الأمل في العفو عنهم وفي قبول توبتهم، ويشير إلى أن التوبة والاستغفار أسهل وأقصر طريق للإقلاع عن الخطايا.

أجل، إن هناك كثيرًا من الناس الذين رأوا ما في القرآن من عميق التسامح من خلال هذه الآية وما شابهها من الآيات فأَتَوْا إلى حضرة صاحب الرسالة ﷺ واعترفوا بخطاياهم وطلبوا تطبيق الحدود عليهم حتى وإن أدى بعض منها إلى الموت؛ فما مجيء ماعز والغامدية التي شاركته في اقتراف جريمة الزنا إلى النبي ﷺ واعترافهما بذنبهما إلا واحدٌ من تلك الأمثلة على هذه الحقيقة التي ذكرناها، وأظن أنه سيكون من الصعب على إنسان عصرنا أن يدرك ويشرح مدى مشاعر الندم لدى هذين الصحابيين اللذين أتيا إلى النبي ﷺ واعترفا بذنبهما بطريقة تؤدي إلى تضحيتهما بحياتهما الدنيوية، فهو أمر يفوق حدود تصوُّر أهل هذا العصر ومداركهم.

والحاصل أن عصيان الرسول ﷺ من الجرائم الكبيرة، وقد يأتي يوم تؤدي هذه الجريمة إلى هلاك المجتمع بأكمله؛ ولذلك نلاحظ أن القرآن الكريم ركز على هذه النقطة بحساسية بالغة، وقَرَنَ بين طاعة الله و طاعة رسوله، بل إنه وَضَع أحكامًا وعقوبات تدل على أنه ينبغي على المجتمع كله أن يكون على هذا النهج وهذه العقيدة، إلا أنه لم يَدفع المذنبين الذين لا يمتثلون هذا الأمر إلى اليأس والقنوط، بل وَضع أساليب تؤدي إلى إصلاح طبائعهم وتكوينهم الروحي، ودلهم على ما يخرجهم مما هم فيه.

4- المصائب والصبر عليها

إن من مقتضيات قَدَر الله ﷻ أن تكون المصائب على حسب وضع المصاب بها، فهي إما وسائل لتكفير الذنوب أو للاستدراج.

أجل، إن المصائب بذاتها لن تكون مكفِّرة للذنوب، والأمر الذي يجعلها مكفِّرة للمعاصي إنما هو عدم تمرد الشخص المبتلَى على الله وعدم عصيانه له، بل إبداؤه الرضا عن الله بأقواله وأفعاله.

وسيدنا يعقوب عليه السلام خير مثال لنا في هذا الباب، فهذا النبي العظيم تعرض لمصائب تفوق طاقة أي بشر، ولكنه تجاه كل هذه المصائب عبّر عن مشاعره وأحاسيسه بما هو فيه من الضعف، وأسندها إلى نفسه قائلًا: ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ**﴾ (سورة يُوسُفَ: 86/12)، فقوله هذا يرسم لنا موقفه النموذجي.

أجل، إن اتخاذ مثل هذا الموقف النبوي تجاه المصائب، يقرِّب الإنسان من ربه جل جلاله، ويُرقِّيه إلى موقع يتبوَّؤُه من صلى النوافل على مدى آلاف الأعوام.

وقد يكون من المفيد لنا أن نلقي نظرة سريعة على هذه الحقيقة التي تَحَدَّثَ عنها القرآن على لسان يعقوب عليه السلام، وأعتقد أن هذه الآية الكريمة ترسم الطريق لمن فَقَدَ السعادةَ -نوعًا ما- جراء ما نزل به من المصائب والبلايا، ويدلُّه على المخرج الذي يخلصه مما وقع فيه من الأزمات الفكرية والروحية، فهذا الطريق هو من العقلية والمنطقية بحيث إنه يمكن للذي يسلكه أن يصعد في قفزة واحدة إلى أعلى عليين، فمقتضى الإيمان هو الصبر على كل أنواع المصائب، ثم التوجهُ بعد ذلك إلى المولى المتعال وطلبُ المعونة منه فقط..

وعلى الخط نفسه يقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ (سورة البَقَرَةِ: 153/2).

أجل، إن المثول كل يوم بين يدي المولى جل جلاله والصبرَ على كل شيء باعتباره أمرًا قدّره الله، لهما إكسيران حيويان يطفئان أُوار صدمات المصائب ويوصلان الإنسان

إلى عمق فكريٍّ وعمليٍّ.

ويقول الله تعالى بعد هذه الآية مباشرة: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾ (سورة البَقَرَةِ: 154/2)، لافتًا الأنظار إلى بُعد آخر من القضية.. كما أنه يعبر عن الحقيقة نفسها في سورة آل عمران: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 169/3).

فالأمر الذي تبينه هاتان الآيتان هو أن هناك نمطًا من الحياة لا يرقى إلى إدراكه وعيُ الإنسان، وما يترتب على الإنسان في مثل هذه الأمور التي لا يرقى إلى إدراكها شعوره هو أن يستقبلها بالإيمان والاطمئنان والتسليم. أجل، هذه هي الوظيفة الملقاة على عاتق المؤمن.

وهناك أمر آخر وهو أن الآية تحتوي على رسالات مهمة إلى أقارب الذين استشهدوا وارتحلوا إلى دار البقاء، ففيها تسلية لهم، وفي إطار هذه الحقيقة التي تتحدث عنها الآية الكريمة تعالوا بنا نتصور الرسولﷺ الذي استشهد عمه في أحد، وأعتقدُ أنه لولا هذه الآية الكريمة لَتَفطّر قلبُه المرهف الحساس بسبب هذه المصيبة.. ولتفطر قلب جابر بن عبد اللهt من تلك الصدمة التي تلقاها في أحد أيضًا حيث استشهد والده آنذاك وخلَّف وراءه عددًا من الأيتام وكمًّا من الديون، مما ترتب عليه أن يتحمل في مقتبل العمر كل ذلك العبء الثقيل، فلا مرية في أنه مهما كان في مستوى من الإيمان فإنه قد انقلبت مشاعره وأحاسيسه رأسًا على عقب واحتاج إلى ما يسليه، وقد قامت هذه الآية بدور التسلية المهمة لجابر وأمثال جابر.

والواقع أن كثيرًا من ساداتنا المفسرين العظام يذكرون أن الآية السابقة من آل عمران نزلت في استشهاد سيدنا عبد الله هذا، ويكاد يذكر كثير من التفاسير حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه الذي يقُولُ: لَمَّا قُتِلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

"**يَا جَابِرُ، أَلَا أُخْبِرُكَ مَا قَالَ اللهُ** ﷻ **لأَبِيكَ؟**"، قُلْتُ: بَلَى، قال "**مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ وَكَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيّ أُعْطِكَ قَالَ: يَا رَبِّ، تُحْيِينِي فَأُقْتَلُ فِيكَ ثَانِيَةً، قَالَ: إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ، قَالَ: يَا رَبِّ، فَأَبْلِغْ مَنْ ورائي، فَأَنْزَلَ اللهُ** ﷻ **هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾** (سورة آلِ عِمْرَانَ: 169/3)"[58].

ومع انتفاء العلاقة المباشرة لما نحن بصدده إلا أنني لا أود أن أنتقل إلى موضوع آخر قبل أن أذكر ما يلي: تذكر كتب المغازي أنه بعد حوالي أربعين سنة من غزوة أحد، جرى السيل نحو مقابر

[58] سنن ابن ماجه، الجهاد، 16.

شهداء أحد التي كانت بسفح الجبل، فخشي الصحابة من انجرافها، فاجتمعت الآراء على نقلها إلى مكان آخر، وفي ذلك يقول جابر: فحُفر عنهم فوجدتُ أبي في قبره كأنما هو نائم على هيئته، ووجدنا جاره في قبره عمرو بن الجموح ويده على جرحه، فأزيلت عنه فانبعث جرحه دمًا.. ويقال: إنه فاح من قبورهم مثل ريح المسك، رضي الله عنهم أجمعين[59]... ويفهم من هذا كله أن الشهداء يكونون في طبقة مختلفة من الحياة البرزخية.

ولنرجع إلى موضوعنا قائلين: إن محتوى هاتين الآيتين وارد بالنسبة لأولاد وعيال عمرو بن الجموح الذي استشهد هو أيضًا في أُحد، ولا ننسى مشاعر زوجة حنظلة بن أبي عامر الذي شارك في أحد وهو عريسٌ واستشهد بها.

والآن تعالوا نفكر في مدى تسلية كل هؤلاء بهاتين الآيتين.

كما أن علينا أن نتصوّر مدى قوة تأثير ما تفيده الآيتان في نفوس أُسَر الآلاف من أبناء الشهداء حول العالم.

والحاصل أن هذه الدنيا دار امتحان وابتلاء، وأن كلّ شخص لا بد وأن يُبتلى بشيءٍ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وأن الفائزين هم الذين يصبرون على ذلك. أجل، إن الصبر هو منبع الفوز في الدارين.

5- توبة العصاة

إن المعصية عنوان على إساءة الأدب مع الله، واتخاذ موقف سلبي تجاه أوامره ونواهيه، لكنها -في الوقت نفسه- من مقتضى الفطرة الإنسانية، كأن أحدهما جزء من الآخر ولا يفارقه.

وأما التوبة فهي الأمر الوحيد الذي يلجأ إليه العصاة، كما أنه عملية رجوع الإنسان إلى ذاته، وليس من الصواب اعتبار كل المرتكبين للمعاصي في مستوى واحد وجمعُهم في كفة واحدة؛ فمنهم من يعيش حياته بالمعاصي وهو مرتاح لهذا النمط من الحياة، كما أن منهم من يشعر بالندم

---

[59] ابن كثير: السيرة النبويّة، 87/3.

ويرتجف فؤاده بل ويتفطر قلبه وينكسر، وتضيق عليه الأرض بما رحبت، ويعيش حالة من الاختناق بسبب ما يشعر به من هذا الضيق.

فالإنسان العاصي سواء كان من الفئة الأولى أو الثانية إذا لاذ بالتوبة ورفع أكف الضراعة إلى الله الذي يعتبره الملجأ والمنجى الوحيد، وطلب منه تعالى المغفرة فإن الله سيغفر له.. فقد ثبت في كثير من الآيات والأحاديث أن الله تعالى قد غفر وسيغفر للعبد الذي يتوجه إليه. أجل، إنه غفار لمن تاب، وقد سبقت رحمتُه غضبه.

ففي القرآن الكريم عديد من الآيات تشير إلى هذه الحقيقة، وأظن أنه لا يوجد أحد يرى تلك اللوحات التي ترسمها هذه الآيات، ثم يتمالك نفسه من البكاء، وبالأحرى أستصعب في ذهني أن أتصور أن هناك إنسانًا ذا قلب مؤمن حي لا يتوجه نحو باب مولاه تعالى ثم يتخيل نفسه في مكان ذلك المجرم الذي ترسمه تلك الآيات.

فمثلًا قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 193/3).

فهذه صرخات المنكسرة قلوبهم الذين ضاقوا ذرعًا بذنوبهم، وسئموا من معاصيهم، فأكثر ما يلفت الأنظار هنا من التعبيرات، هو طلب الذين يرجون المغفرة أن يكونوا من "الأبرار"، فـ"الأبرار" اسم يطلق على المرشحين للوصول إلى القمة في طريق الوصول إلى الله، وبعد ذلك بخطوة هناك مقام المقربين، فالمقربون هم الخواص الذين حظوا بمعية الله تعالى.. فمن هذا المنظور إذا كان النبي من المقربين -وهو كذلك-، فإن أصحابه إنما هم من الأبرار، وبين هؤلاء فروق في العموم والخصوص، وكما يقال "حسنات الأبرار سيئات المقربين"؛ ومن حيث إن الذين انغمسوا في الخطايا قد يكون من الصعب عليهم أن يرتقوا إلى مستوى المقربين -وإن لم يكن مستحيلًا-، فإنهم يطلبون أن يكونوا من الأبرار.

وتُواصِل الآية قائلةً: ﴿**رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 194/3).

أجل، إنه لا يُتصور أن لا يستجيب الخالق ذو الجلال لهذه الصرخات وهو الذي يلبي نداء من يناديه، ويهرول نحو من يأتي إليه ماشيًا كما ورد في الحديث القدسي[60]، فهو الذي استجاب لعباده هؤلاء الذين توجهوا إليه بإخلاص:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 195/3).

وهناك أمر آخر في هذه الآية الأخيرة غير قضية استجابة الله لدعائهم وقبولِه لتوبتهم، وهو أن الله تعالى من خلال الحديث عن استجابته دعاءهم يُذكِّر الناس بما ينبغي عليهم فعله من التصرفات، وهي المجالدة والمجاهدة في سبيل الله والتضحية في سبيل ذلك -إن اقتضى الأمر- بالهجرة والقتال وغيرهما.

أجل، إنه، من جانبٍ، يلاطف القلوب التائبة المنيبة، ويقبل دعاءهم ولا يخيب حسن ظنهم، ومن جانب آخر، يُذكِّرهم بوظائفهم ويدعوهم إلى الصراط المستقيم، وهكذا فإن الذين ارتكبوا المعاصي ودخلوا في حالة من اليأس والقنوط؛ فإما عَزَلَهُم المجتمع أو انعزلوا هم بأنفسهم عنه، واستسلموا للأمر الواقع وخارت عزائمهم، فهؤلاء يسترجعون حيويتهم مرة أخرى بما يسمعونه من هذه التعبيرات القرآنية، وينجون من الغرق في مستنقعات اليأس، فيراجعون حساباتهم مرة أخرى ويصبحون أفرادًا صالحين في مجتمعاتهم.

---

[60] **صحيح البخاري**، التوحيد، 15.

الفصل السادس
الأخبار الغيبية في القرآن الكريم

أ. تعبير "الأخبار الغيبية في القرآن الكريم"

لقد نزل القرآن في مجتمع كان يعيش قبل أربعة عشر قرنًا من الزمن.. وقد استغرب ذلك المجتمع الأسس التي جاء بها القرآن، والقواعد التي وضعها، وحقائقه المتعلقة بالدنيا والآخرة، وفلسفته في الاعتقاد والعبادة والأخلاقِ.. أجل، فمعظم هذه الأسس الجديدة كانت أمورًا مختلفة، فقد كان القرآن يربط هذه الدنيا بحياة أبدية ويجعلها مزرعة للآخرة، ويجتث العصبية القبلية والقومية من جذورها ويضع مكانها أسسًا اجتماعية جديدة كل الجدة، ويُنزِل ضربات قاضية على الوثنية التي كانت منتشرة بشتى أشكالها في كل نواحي الحياة الفردية والاجتماعية.. ويزيل كل رواسب الجاهلية المتعمقة في النفوس ويقتلع كل الأفكار الضالة الراسخة في الأذهان، وكان يتحدث عن عوالم لم يَسبق لأهل ذلك العصر أن علموها أو سمعوا عنها، ويقدم لهم لوحات عن مئات من الأحداث والشخصيات التي لم يسجلها التاريخ القديم، ويفتح لهم نوافذ غيبية مذهلة تطل على المستقبل، وبهذا كان يتحدى كل من له ادعاء فيما يتعلق بهذه المجالات، بل إنه يكشف عما كان يخالج أعماق أرواحهم من الأفكار والنوايا والخطط، ويتتبع كل أحاسيسهم وحماساتهم وضربات قلوبهم وأنفاسهم خطوة فخطوة.

ولقد انقلبت جميع أفكار المخاطَبين بهذا الكتاب رأسًا على عقب، وتَغير عالَمُهم، وتبدلت آفاقهم وانفتحت أمامهم من هذه الآفاق الجديدة منافذُ إلى عوالم مختلفة؛ لذلك لم يكن أمام السامعين له خيار إلا الاستسلام له، وهذا ما وقع منهم فِعلًا، فقد كان القرآن ينزل منجمًا وكانت تتشرّبه أرواحهم، فتركوا ما دأبوا عليه من عاداتهم، وحلّت مكانها عادات قرآنية وتجذّرت، وأصبحوا بمرور الزمن يفكرون ويتحدثون وفق ما يأتي به من الرسائل الإلهية، وتعوّدوا من خلال ذلك على الإحساس بنوع مختلف من الحماس، وقد تحقّق هذا كله في زمن قصير أي في ثلاثة وعشرين عامًا.. وهذا أيضًا واحدٌ من جوانب الإعجاز القرآني.

كما هو الحال في القوانين التي تضبط الحياة الاجتماعية والفردية وتنظمها تقابَل بألفِ لونٍ من الاستغراب حينما تُعرض على الناس، وكثيرًا ما تتصادم معها العادات والتقاليد التي تطورت في المجتمعات في جوِّ تركيبتِها النفسية والثقافية والعقدية والتقليدية ونضجت في قلب الأحداث التي مرّت بها على مر العصور، فالأفراد الذين تخاطبهم هذه القوانين هم الذين تشكّلت مشاعرهم وعواطفهم وأطوارهم وأفكارهم ونظرتهم للحياة في ظلّ هذا المجتمع؛ لهذا فإن القوانين التي تُملى عليهم، بآلية إدارية وبأسلوب فوقي وبعقوبات قانونية؛ لن تكون مؤثرة على المدى البعيد، ولا يمكن جعلها مقبولة لدى ذلك المجتمع لمدة طويلة؛ لأنه لا بد، قبل كل شيء، من أن يتقبلها المجتمع من صميم قلبه؛ فإذا لم يتم النفوذ إلى عالَمهم القلبي والروحي، فإن الشعور المجتمعي لن يستمرئ القوانين والقواعد المفروضة عليه من فوقُ، بل سيرفضها يوما ما، وبالأخص إذا كان الذين يضعون القوانين لم يتربوا في تلك البلاد وفي أحضان ذلك المجتمع فإن الأمور ستزداد تعقيدًا، ولن يتكوّن توافق بين القوانين والحياةِ التي يعيشها الناس.

أجل، فهاكم نتيجة القوانين والمراسيم التي تنطوي على ثغرات معينة، فالتاريخ يشهد أن الحضارات التي انهارت والمجتمعاتِ التي تحطّمت وتفكّكت ما هي إلا ضحايا لمثل هذه التناقضات، ولم يستطع الذين يسُوسُون المجتمع ويوجهون مختلف شرائحه، أن يُوجِدوا فيهم شوقًا واشتياقًا وإيمانًا، لم يستطع هؤلاء -ولن يستطيعوا- أن يبنوا حضارةً وأمة قوية لا تتزعزع، ما لم ينفذوا إلى أرواح الناس وقلوبهم، ولم يأخذوا بعين الاعتبار أحاسيسهم ومشاعرهم وأفكارهم وعواطفهم.

إلا أن هذه القوانين والقواعد إذا عجنت بالإيمان بالله فستكون أكثر تأثيرًا في الأفراد والمجتمعات؛ فإن الله الذي خلق الإنسان يعرفه حق المعرفة، بكل تفاصيله حتى أنفاسه التي يلتقطها ودمه الذي يجري في عروقه.. فهو الذي أودع في فطرته كل الأجهزة، وهو أعلم كيف سيعيش الناس في هذه الدنيا وكيف يؤسسون فيما بينهم علاقة اجتماعية، وعلى حسب أيّ القواعد والأصول سيقضون حياتهم تلك في مزيد من الراحة والسعادة.. وبالتالي فإن الإنسانية بمقدار ما تستطيع أن تطبق هذه القواعد والأصول الإلهية في واقعها ستشعر بمزيد من الراحة والأمان،

وحينذاك سترى أن القرآن مهيمن على كل مشاعرها وعواطفها، وجميعِ علاقاتها الروحية والاجتماعية، وعلى كل عباداتها وطاعاتها بكل تفاصيلها وفرعياتها، وأنه يُشَكِّله من الداخل شيئًا فشيئًا؛ لذلك فإن القرآن منذ أول يوم نزل فيه إلى اليوم الذي انقطع فيه الوحي لم يُقابَل بنفور أو ردة فعل إلا مِن قِبَل شرذمة قليلة من المعاندين؛ فقد تسرب إلى أرواح كل من استمع إليه، وفتح قلوبهم، وأما الذين عاندوه وتمردوا عليه ولم يستسلموا له فقد سُحروا به وبهتوا.

ومن هذا المنظور نقول: إن الأخبار الغيبية في القرآن تفُوقُ حدود مدارك البشر بكثير؛ فتراه يتناول الأخبار المتعلقة بالماضي، ويتحدث عن الأقوام التي عاشت قبل التاريخ بأدق خصائصها، ويرسمها بحيث إنه من المستحيل على أي بشر أن يعرفها كما فصلها القرآن مهما كان واسعَ المدارك كثيرَ المعارف، وفي الوقت نفسه تراه قد أخبر عن أمور مستقبلية وأشار إليها، وقد ظهر كثير منها بعد ذلك، فكأنه يَعرض لأنظار الناس الزمانَ الماضيَ مع الزمان المستقبل مثل شريط سينمائي، وكأنهما على خطّ واحد أو هما نقطة واحدة، وسنبيّن لاحقًا كل هذه الأمور بأمثلتها، ولكن من المفيد لفت الأنظار إلى بعض النقاط:

أ. كما هو ملحوظ من بعض الأمثلة التي يأتي بها القرآن فإن الأخبار الغيبية التي يتحدث عنها القرآن ترِد فيه بأسلوب صريح وواضح، حتى إن العقول العامية البسيطة تستطيع أن تفهم منها الهدف القرآني وتطلّ من خلالها على آفاق جديدة من العلم والتفكّر.

ب. وكما أن القرآن يستخدم العبارات الصريحة في الأخبار الغيبية نراه يستخدم أحيانًا تعبيرات كنائية لا يستطيع كل شخص أن يفهم هذه الكنايات، حيث تكون هذه العبارات محمّلة بإشارات ورموز لا يرقى إلى فهمها إلا أهل الاختصاص.

ج. ويتحدث القرآن عن أقوام وجماعات لم يسجلها التاريخ، ولأن المخاطبين ليس لهم طريق إلى التعرف على هذه الأقوام والجماعات فإنها تكون من قبيل الغيبيات، فالأخبار المتعلقة بتاريخ قدماء روما والصين وبابل والفراعنة وحضاراتها التي لم يسجلها التاريخ المكتوب أو الشفهي هي من هذا القبيل؛ فإننا نحن أهلَ هذا العصر نمتلك معلومات تاريخية ترجع إلى أَلْفَي أو ثلاثة آلاف

سنة، في حين أن المجتمع الذي نزل فيه القرآن كان أميًّا، وبهذا الاعتبار فإن الأحداث التي أصبحت مطوية هنا وهناك في ثنايا التاريخ تُعتبر بالنسبة لهم غيبية.

د. إن معظم الأخبار القرآنية تتعلق بالمستقبل، وقد يكون من المفيد أن نتناول هذا الأمر بشيءٍ من التفصيل.

قد يكون هناك من يعترض على غيبية الأخبار المتعلقة بالماضي، لاعتبارات مختلفة.. كما أن الأخبار المتعلقة بالزمان الحالي لا تعتبر من قبيل الخوارق والمعجزات.. وأما الأخبار والإشارات المتعلقة بالمستقبل التي تتحقق حينما يحين الأوان، فليس هناك مجال لأي اعتراض على كونها من الغيبيات، ومن الممكن على كل حال التحدي بمثل هذه الأخبار، وبالتالي فإن الأخبار التي من هذا القبيل ظلت جالبة لأنظار بني البشر، وكانت مصادرها تحظى بالاحترام أكثر من غيرها.

وبالمناسبة فإني أود أن أتطرق لحقيقة تاريخية، وهي أن "ماركس" الذي يعتبر من المؤسّسين للفلسفة المادية ومن المحسوبين في عداد أحجار الزوايا فيها؛ كان قد تكهن بأمر في بداية تأسيسه لنظريته، وهو أن بريطانيا ستكون أول الأمكنة التي ستطبق فيها هذه النظرية، فروح فلسفته كانت تقتضي هذا؛ حيث كان يَربط نظامه هذا في معظمه بإفلاس الفلسفة الرأسمالية، فكان لا مفرّ - حسب تكهنه- من حلول هذه الفلسفة المادية محل الرأسمالية التي هي على مشارف الإفلاس.

ويبدو أن ماركس كان يفكر كما يلي: إن أوروبا كانت منذ العصور الوسطى في وضع تتصادم فيه شرائح المجتمع وطبقاته، وكان الصراع الطبقي مُسْتَعِرًا إلى حدّ كبير، مما يعني أن هذا الصراع القائم سينتهي في إنكلترا بالاشتراكية والشيوعية، وكان هذا -على حد زعمه- أمرًا مثل قانون طبيعي لا مفر منه وغيرَ منوط بإرادة الإنسان، إلا أن هذا التكهن والتوقّع لم يتحقق، بل تأسس هذا النظام المادي بعد خمسين عامًا في روسيا التي كانت في جغرافيا لم تكن بالحسبان، وهكذا أصبح هذا النظام مجروحًا منذ أول تأسيسه وسرعان ما ظهر للناس أنه بني على أسس خاطئة.

ولا ريب أن أفكاره التي طرحها في هذا الباب كانت عبارة عن توقعات وادعاءات، وكان لزامًا أن تبوء بالفشل الذريع قبل أن يمر عليها سبعون عامًا، وهذا ما وقع فعلًا، إلا أن الملايين من

الشبان قد سفكوا الدماء جراء توقُّعٍ وكذبة، وارتكبوا جرائم الظلم والاضطهاد، ولا يزال إلى يومنا هذا من بني الإنسان من يئنّ جرّاء بقايا هذا النظام الطاغي، فهناك في جميع أنحاء العالم من كان يتابعهم بأفكار سطحية، ويرتكب أشكالًا وألوانًا من عمليات الاحتيال والفساد من رشوة وغيرها.

أجل، قد يكون من الممكن لمن يتابع سير بعض الأحداث عن كثب أن يتنبّأ ببعض الأمور حول المستقبل القريب، فتلبُّد الغيوم وإبراق البرق من الأمارات الدالة على نزول المطر، وتوقع مثل هذا الأمر لا يُعَدّ من الغيبيات، إلا أن هناك بعض الأحداث لا يوجد أثناء التنبؤ بها أيُّ أمر يتعلق بها بحيث يساعد على التخمين حولها وكيفية جريانها، حيث إنه بدلًا من وجود أمارات حولها قد تحدث هناك أمور من شأنها أن تدحض هذا التنبُّؤ وتسيرَ في عكسه، والأنباء التي أخبر عنها القرآن من هذا القبيل.

هـ. وقد اخترنا مما يتعلق بالموضوع بعض الأمثلة من الماضي وبعضها من المستقبل حتى نقارن بين هذين الزمانين.

وفي هذا الموضوع الذي نتطرق فيه إلى الجوانب الإعجازية للقرآن الكريم أردنا أن نشير إلى ما يؤيد هذا الطرح، وإلا فإنه كان من الأنسب أن يتم تناول هذا الموضوع في بحث مستقل، وكما ذكرنا من قبل: إن هدفنا الرئيس في هذا التحليل هو لفت نظر مسلم القرن الحالي إلى القرآن وتوجيهُ الأنظار إلى كون القرآن كلامًا معجزًا؛ فإنه إن لم تتوجه القلوب إليه مرة أخرى، ولم تتشبع الأذهان ولم تنشغل به، فلن يكون -حسب اعتقادنا- خلاص كلي للإنسانية.

ب. الأنباء المتعلقة بالماضي

إن القرآن الكريم يتحدث بين الحين والآخر عن أقوام ومجتمعات سابقة لم يكن إلى ذلك الوقت في تاريخ الإنسانية أي معلومات حولها، فلو رجعت إلى ما تناوله الأدباء والمؤرخون العرب وتفحصْتَه علمتَ أنه لا توجد فيها معلومات حول هذه القضايا التي تناولها القرآن الكريم.

ومع أن الرسول ﷺ نشأ أمّيًا في بيئة أمّيّة، فقد كان يتحدث عن موضوعات وردت في التوراة والإنجيل وكأنه اطلع عليها بتفسيرها وشروحها، فكان يقول أشياء تعتبر تأسيسًا لهذه المواضيع وأحيانًا أخرى بمثابة التوضيح، أو بمثابة التصحيح.

أجل، إن سيد الأنبياء ﷺ كان بمنزلة الحَكم، فكان يُقرّ الأمور الصحيحة المتفق فيها، كما أنه كان يؤسس للأمور التي تدعو الحاجة إلى تأسيسها، وكان يقدم الحلول البديلة للقضايا الخلافية، فمثلًا كان هناك من يرمي السيد المسيح بأنه -حاشاه- لا نسب له، وكانوا يزعمون أن لديهم أدلة تصدق دعواهم هذه، ففي المقابل كان الرسول ﷺ يقول: "إنه رسول الله"، وبذلك كان -من جانبٍ- يدحض دعواهم بأنه لا نسب له، ومن جانب آخر، يرد على أولئك الذين ينسبون إليه الألوهية.

كان هناك إسرائيليات على هذا النحو، تحتوي على العديد من الافتراءات والمغالطات في حق الأنبياء الذين أُرسلوا منابعَ للهداية بكل ما للكلمة من معنى، ففي هذا المجال أيضًا تَناول القرآن الكريم كل الأنبياء بأدب يناسب شأنهم العظيم، وأَثبت أن كل واحد منهم مرشد هاد للإنسانية نحو الترقي المادي والمعنوي، فمع أن مفخرة الإنسانية ﷺ كان أمّيًا ولكن نداءه بهذه الحقائق بأسلوب القرآن الرائع النفيس يدل على مدى صفاء منبعه وصحته.

أجل، إنه على الرغم من أنه ﷺ كان نبيًا أميًا ولم يسافر في حياته إلا مرتين نحو الشام مع قوافل التجارة ولم يتسنّ له التعرف على غيرها من المناطق.. نجد أنه تَحدَّث عن الأزمان الغابرة وكَأنَّ أمامه جميعَ الكتب المقدسة، ويقوم بدور الحَكَم فيعالج الاختلافات التي ظهرت بين بني إسرائيل ويأتي بحلول عادلة من مشكاة النبوة بتركيب سحري يأخذ بالألباب.

وقد سبق لنا أن أوردنا في الفصول السابقة معلومات مفصلة عن الأمم السابقة فلا داعي لتكرارها إلا أننا سنكتفي هنا بإيراد مثال صغير:

يتحدث القرآن في مواضع عديدة عن كثير من الأقوام مثل عاد وثمود، مع أنه لم يكن هناك من يتحدث عن هؤلاء قبل أن ينتشر في أوروبا علم الآثار والتاريخ، فالمعلومات التي كتبها العلماء المتخصصون في الكوزموغرافيا والجغرافيا وعلم الفلك حول عاد وثمود وإرم قريبةٌ جدًّا من

المعلومات التي وردت في القرآن حولهم منذ زمن بعيد، اللهم إلا بفارق بسيط في النطق ببعض الكلمات.. فقد جاء في القرآن الكريم قبل قرون قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۞ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۞ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۞ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۞ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۞ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۞ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۞ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (سورة الفَجْرِ: 89/6-14)، وذلك له مغزى كبير.

فلما سمع الكُتَّاب والعلماء في أوروبا مثل هذه الآيات بادروا بالاعتراض فقالوا: إن القرآن يتحدث عن أقوام مثل عاد وثمود ما سبق لنا أن سمعنا أو علمنا عنهم شيئًا، وليس لدينا معلومات عن وجود مثل هذه الأقوام منذ اكتشاف الكتابة، فمن المحتمل أن القرآن يتحدث عن أمور خيالية، إلا أنه لما انتشر تاريخ العلوم في أوروبا بدأت الحيرة والدهشة تأخذ هؤلاء الناس أنفسهم بسبب مثل هذه الإخبارات الغيبية القرآنية؛ لأنهم كانوا يحتاجون لدعم من علم الآثار والأنثروبولوجيا ونحوهما للحصول على معلومات عن الأقوام التي تحدث عنها القرآن قبل قرون، وبالفعل فقد أسفرت البحوث التاريخية والتنقيبات الأثرية التي أجريت في الفترات اللاحقة عن تصديق علم التاريخ أيضًا للقرآن وتأييده لأنه كلام الله.

إن القرآن الكريم يصور الأقوام الماضية بروحها ومشاعرها وحماساتها، ونواياها ومعتقداتها ويحللها وكأنه عاش بينهم، بحيث إنه يُشعر قارئ الآيات القرآنية أن أولئك الأقوام ماثلون أمام عينيه، إلى مدى أن القرآن حينما يذكر بتعبيراته المذهلة جنان إرم وبساتينها يخيل إلى الإنسان أنه يتنزه بين تلك المناظر الجميلة اللطيفة[61].

ففي الآية السابقة يتحدث القرآن عن فرعون، صحيح أن كتب التاريخ ترد فيه معلومات مختلفة عن فرعون، وبالتالي قد لا يكون حديث القرآن عن قصته معجزًا من هذه الناحية، إلا أن تناول القرآن للأحداث بشكل موجز، وتعرضه لأدقّ خصائصهم بأسلوب بالغ في الوقع والتأثير، ومعالجته للوقائع بما اكتنفها من واقع ومشاعر لهو أمر يقرب من حد الإعجاز، لكن المستشرقين

---

[61] سورة الفَجْرِ: 89/7-8.

ومن يحذون حذوهم ويقلدونهم قد أغمضوا أعينهم عن حقائق القرآن ولا يزالون يتغاضون عن هذه الأمور المهمة.

ففي حين أن القرآن الكريم يذكر في قوله تعالى: ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ**﴾ (سورة يُونُس: 10/90-92) أن فرعون قد غرق، نرى أن بعضًا من المستشرقين ينكر غرق فرعون قائلًا: "إنه مات وحُنِّط جسده، وظل موجودًا هكذا إلى يومنا هذا".. في حين أن القرآن قد ذكر بقاء بدنه حتى تراه الأجيال القادمة ويكون عبرة لهم، وأخيرًا لما جاء اليوم الذي ظهر فيه جسد فرعون لم يبلَ رغم عدم تحنيطه تمامًا كما ذكره القرآن الكريم؛ تحير الكل أمام هذا الخبر الغيبي القرآني، وانتصر الضمير والوجدان على مشاعر الجحود والإنكار.

وكان بعض الأوروبيين يهاجم الآيات القرآنية التي تتحدّث عن طوفان نوح عليه السلام، ولكن بعد حين من الدهر أظهرت بعض البحوث حقيقةَ أنه قد حصل طوفان رهيب غمرَ جميع الأرض أو قسمًا منها، حتى إن الوثائق التي حصلوا عليها أحدثت لديهم قناعة قوية أدت بهم إلى أن أتوا إلى جبل الجودي مرات متعاقبة للبحث في القضية، مع أن القرآن كان يتحدث عن هذا الأمر منذ زمن بعيد بكل تفاصيله وبدرجة من القطعية بحيث لا يبقى في القلب أدنى تردد حوله، ولكن للأسف كان لا بد من مرور عصور حتى يفهموا القرآن ويَقبلوا الحقيقة غير معاندين.

وبعد سرد القرآن الأمثلة حول هذا الموضوع وإتيانه بتلميحاته عن الأمم السابقة يقول: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا**﴾ (سورة هُودٍ: 11/49).

أجل، فكما قال القرآن الكريم، لم يكن بإمكان النبي ﷺ ولا قومه أن يكونوا عالمين بهذه الأخبار؛ إذ كما أنه لم يكن في جزيرة العرب من يتحدث عنها؛ فكذلك لا يوجد أي معلومات صغيرة حولها في كتب التاريخ ولا في أشعار العرب، فأرسل الزمان أطيافه النيرة وقدم تفسيراته، وطلعت شمس القرآن على آفاق مدارك البشرية.

ج. الأخبار القرآنية المتعلقة بالمستقبل

إن الأخبار القرآنية المتعلقة بالمستقبل تختلف عما يتعلق بالماضي، فهي أكثر إثارة للتفكير؛ لأن الإخبار عن واقعة قبل حدوثها أمر يتجاوز حدود آفاق الإدراك البشري؛ فالحديث عن أمر سيحدث في المستقبل من دون أية أمارة حوله لهو ادّعاء كبير وتحدٍّ عظيم في الوقت نفسه، ومن ثمّ فإن القرآن الكريم بمثل هذه الإخبارات المعجزة يتحدى المنكرين له في عصر نزوله والعصور اللاحقة ولنأتِ ببعض الأمثلة حول هذا الموضوع:

يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (سورة الْمَائِدَة: 67/5).

فهذا البيان الإلهيّ يُخبر الرسول ﷺ بأمر غيبيّ بأنه لن يصل إليه أيّ ضرر من أيّ إنسان، وقد كان الرسول ﷺ جاء برسالة عالمية تشمل كل البشرية، وكان من المتوقّع أن تعارَض قضيةٌ بهذا الحجم من قِبل بعض المنكرين، وأن تكون هناك ردّات فعلٍ من المشركين تجاهها، وهذا ما وقع فعلًا؛ فقد وقف كثير من المنكرين والمشركين في طريق هذه القضية المقدّسة عازمين على عدم إعطاء الفرصة لتطوُّرها وانتشارها، فحين بدأ الإسلامُ ينتشر في مكة لم يدع المشركون طريقًا للمجادلة إلا وجربوها، وحاولوا محاصرته من كل الجوانب، ولما علموا أنهم لن يُوَفَّقوا لذلك؛ قرروا اغتيال سيد الأنبياء الذي هو صاحب القضية ﷺ.

إلا أن الله تعالى أَطْلع رسولَه على خططهم السرية، وأخبره من خلال الآية الآنفِ ذكرها أنه سيحميه مهما كانت الأوضاع، وأنه لن يتسنّى للمشركين أن يضروه بشيءٍ أبدًا، لأن قضية مفخرة الإنسانية كانت قضية فوق كل القضايا باعتبارها تتعلق بالفلاح الأبدي لكل الإنسانية، وكان الممثّلُ لهذه القضية هو سيدنا محمد ﷺ الذي أُرسل رحمة للعالمين، وما كان للبشرية أن تحظى بالسعادة إلا بإرشاده، مما يعني أن القضاء على حياته سيؤدي إلى انغماس كل شيء مرة أخرى في غياهب الظلمات.

وقد تكفل الله مباشرة بحفظ حياة هذا الشخص الذي أنيط وجود الكون بوجوده إلى هذه الدرجة، لأنه كان على شمس الهداية صلوات ربي وسلامه عليه أن يطوف بالشوارع، ويمر على

كل البيوت ليدعو الناس إلى الهداية والنور، وهذا يعني أنه سيكون معرّضًا كل حين للأخطار المتنوّعة، فقد كان هناك من يبصق في وجهه المبارك ويذرُّ التراب والحصا على رأسه، كما أن خصومه إذا رأوه يرتاح في مكان ما لوحده فإنهم سرعان ما كانوا يحيطون به جاهدين لحياكة مؤامرة ضدّه ومحاولين قتله.

ففي بدر وأُحد والخندق استهدفوا شخصه للقضاء عليه وتصفيته تمامًا، وأما هو فقد كان حيال كل هذه المؤامرات يعيشُ حالة من الثقة المطلقة والاطمئنان العميق تجاه ربه، بحيث جعل الكفارَ يندهشون ويحتارون من توكّله وجسارته التي تفوق حدود الطاقة البشرية؛ لأنه كان يعلم أنه تحت الحماية الربانية مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: 67/5).

أجل، إن الله تعالى قد عصم الرسول ﷺ الذي أرسله لينور البشرية مثل الشمس، وحماه من أيدي أعدائه فلم يبلغوا منه أملهم وأفشل كل الأفخاخ التي نصبوها ضده.

وقد كان قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ (سورة الأَنْفَالِ: 30/8) وقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۞ وَأَكِيدُ كَيْدًا**﴾ (سورة الطَّارِقِ: 15/86-16)، من المبشرات التي تصب في هذا الاتجاه.

وإلى جانب الآيات التي تدور في إطار قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: 67/5)، والتي تدل على أن الله تعالى قد تكفل بحفظ سيدنا محمد ﷺ مباشرة، هناك أحاديث وردت في كتب الحديث تتحدث عن واقعة جرت قبل نزول هذه الآيات، منها:

يروى أنّ عائشة ﵂ كانت تحدّث، أنّ رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة [ولعله كان في السنة الثانية للهجرة النبوية إلى المدينة] وَهِيَ إِلَى جَنْبِهِ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: مَا شَأْنُكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ ﷺ: "**لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ**"، [وهذا لأن غير المسلمين في المدينة كانوا عازمين دائمًا على أن ينصبوا له أنواعًا من المصائد والأفخاخ] قَالَتْ: فَبَيْنَا أَنَا عَلَى ذَلِكَ إِذْ سَمِعْتُ خَشْخَشَةَ

سِلاحٍ، فَقَالَ: "**مَنْ هَذَا؟**"، فَقَالَ: سَعْدُ بْنُ أبي وقاص، قَالَ: "**مَا جَاءَ بِكَ؟**" قَالَ: وقـع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه[62].

وبعد مدة لما نزل قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (سورة الْمائِدَة: 67/5)، قال النبي لهم: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللهُ**"[63] وهذا ما وقـع فعلًا، فقد التحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى وهو على فراشه تحت حماية الله تعالى، ولم يسمح الله لهم بأن يصيبوه بسوء.

فقد أخبرَ القرآن بهذا الخبر قبل وفاته ﷺ بعشر سنوات تقريبًا وأعلن أنه لن تصل إليه أيَّة يد منحوسة، وبالفعل فقد لاقى ﷺ بعد ذلك مئات المخاطر، وشارك في عديد من المعارك، وشارف على الموت في ساحات الوغى، ولكن هذا الحرز الإلهي بدا للعيان في كل مرة منها.

فمثلًا في مرة من المرات بينما كان ﷺ يستظل بظل شجرة انتهز أعرابيٌّ يسمى غَوْرَث ابن الحارث تلك الفرصة فجاء وأخذ سيفه المعلق بالشجرة وقال بأسلوب السخرية: من يمنعك مني اليوم يا محمّد؟! فأجابه الرسول بأسلوب بالـغ في التوكل والثقة بربه وصرخ في وجهه قائلًا: "**الله**"، فأرعبت هذه الصرخةُ المدوّية منه ﷺ الكافر، فوقف واجمًا ثم ارتجف وارتعدَ وخارت قواه فسقط السيفُ من يده، فإذا بالرسول ﷺ يأخذ السيف ويقول له: "**فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي الْآنَ؟**" فأخذ الرجل يرتعد كالمحموم قائلًا: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ، فقَالَ له النبيّ: "**وَأَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟**" قَالَ: لَا، وَلَكِنْ أُعَاهِدُكَ عَلَى أَنْ

لَا أُقَاتِلَكَ، وَلَا أَكُونَ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ[64].

---

[62] صحيح مسلم، فضائل الصحابة، 40.

[63] سنن الترمذي، تفسير القرآن، 6.

[64] صحيح البخاري، الجهاد والسير، 84؛ مسند الإمام أحمد، 369/23.

وفي بداية غزوة حنين أيضًا بدا نوع من الهزة في صفوف الجيش الإسلامي؛ بحيث إن جميع الصحابة تقريبًا عاشوا هذا الهزة، وقد سادت في صفوف الصحابة قناعةٌ بأن الأمر قد يؤول إلى مغلوبية وانهزام؛ حيث لم يصمد شباب المهاجرين والأنصار أمام النبال التي يرشقها مهرة الرماة من مشركي هوازن وبني نصر في بداية المعركة، وتحولت بوادر النصر إلى تقهقرٍ وبقي شخص واحد معه قِلّةٌ من صحبه أحدق بهم الخطر وأحاط بهم الأعداء.. ألا وهو الرسول ﷺ.

ففي هذه اللحظة الحرجة بالذات حَدَث أمرٌ لم يكن في الحسبان؛ ففي حين أن العباس رضي الله عنه كان يمسك براحلة الرسول إذا بالنبي ﷺ يتقدم نحو صفوف الأعداء ويصرخ بصوته الجهوري المهيب قائلًا بملءِ فيه: "**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ**"، فهو الذي لا يمكن أن يدير ظهره للأعداء، كما أن جدّه أيضًا لم يهرب مِن أمامِ أبرهة، بل وقف صابرًا صامدًا.

وكان ﷺ من الصمود والمهابة والجسارة بحيث إن الذين كانوا يدخلون في محيطه المغناطيسي ينبهرون بكل شيء منه، بل إن الذين كانوا يحتَمون به كانوا يعتبرون أنفسهم في أمان.

أجل، إنهم كانوا يرون بأن آمَن الأمكنة هو ما كان بقربه، وهكذا كانوا يفعلون فيلتفون حوله ﷺ؛ لأن الله تعالى كان يكلؤه ويرعاه، تصديقًا لقوله الكريم: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: 67/5).

وقد روي عن الحيدر الكرار وملكِ الفُتوَّة، صهر سيد الأنام ﷺ، سيدنا علي كرم الله وجهه أنه قال: "كنا إذا حمي الوطيس (أي اشتدت المعركة) احتمينا برسول الله"[65]. فقد حَدَثَ مثل هذا في أحرج مراحلِ حنين، وأدى إلى انتصار جيش الإسلام، وانقلبت الهزيمة إلى النصر.

وكما نفهم من الأمثلة التي أوردناها إلى الآن فإن القرآن الكريم من خلال قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: 67/5) قد أخبر عن حدثٍ غيبي يتعلق بحفظ الله تعالى لرسوله، وقد أكدت الأحداث التي وقعت خلال المدة الزمنية التي مرت بعد نزولها صِدْقَ هذا الخبر الغيبي، حيث إنه

---

[65] الزحيلي: التفسير المنير، 180/5.

على الرغم من نزول هذه الآية في فترة لم تكن فيها حماية للرسول ﷺ بل كان الأعداء محدِقين به من كل جانب، ظهر صدق هذا الخبر القرآني والتحق سيد الرسل بالرفيق الأعلى وهو على فراشه آمنا مطمئنًّا.

وأود أن آتي بمثال آخر له علاقة بالموضوع:

فلقد أخبر القرآن الكريم في قوله: ﴿**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۞ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ**﴾ (سورة القَمَرِ: 54/45-46) بأن المسلمين سيَهزمون الكفار في المستقبل، وأن المشركين سينهزمون، وقد روى البخاري عن أمنا عائشة أن هذه الآية مكية[66]، وقد كان المسلمون في مكة في غاية الضعف مما جعلهم يغادرون مكة مهاجرين إلى الحبشة، ولما لم يجد الرسول من المكيين استجابةً توجه إلى الطائف لعله يجد من يسانده في قضيته.. إلا أنه بدلًا من أن يلقى من أهلها القبول الحسن رشقوه بالحجارة وعرّضوه لشتى أنواع الإهانات وسوء الاحترام، وحين لم يعد جو مكة مناسبًا للعيش بالنسبة له ولمن حوله من المسلمين، أجابوا دعوة أهل المدينة الذين احتضنوهم، فهاجروا إليها.

ففي هذه الفترة التي كان المسلمون فيها في غاية الضعف، وكان الكفار -بالمقابل- أقوياء من كل الوجوه وفي منتهى التهوّر والطغيان نزل قوله تعالى: ﴿**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**﴾ (سورة القَمَرِ: 54/45) مبشِّرًا رسوله ﷺ بأن الكفار عما قريب سينهزمون وسينقلبون على أعقابهم.

وقد كان من الصعب جدًّا أن يؤمن الإنسان بتحقق مثل هذا الأمر في تلك الظروف التي لم تكن موازين القوى بين المؤمنين والكفار متكافئة قط، وكان الكفار يزيدون من ضغوطهم، وبالتالي فقد كان من العسير جدًّا التنبّؤ بمثل هذه النتيجة، حتى إن سيدنا عمر رضي الله عنه الذي كان رمزًا للشجاعة تعجّب حينما نزلت هذه الآية قائلًا: أيُّ جمع يهزم؟! أيّ جمع يغلب؟! فهذه الحيرة من سيدنا عمر تجاه هذه البشارة لها مغزى كبير في التعبير عن مدى صعوبة تحقّقها في واقع الأمر، صحيح أن سيدنا أبا بكر بحكم كونه رمزًا للصّدّيقية بادرَ بتصديق هذه البشارة، أما سيدنا عمر فقد عبر عن

[66] **صحيح البخاري**، فضائل القرآن، 6.

الأجواء السائدة على الشعور العام لدى الصحابة، فسأل عن وقت تحقُّقها، وأراد أن يؤكد أنه إذا كان لها أن تتحقّق فإنها ستتحقق ولكن في وقت ليس بقريب.

فلما كانت السنة الثانية من الهجرة النبوية المباركة، التقى المسلمون يوم بدر بالكفار، وكان الرسول ﷺ يتضرع إلى ربه ويرفع يديه ويقول في سياق دعائه الطويل: "**اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ**"، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ[67].

وفي هذه الأثناء تغيّر الجو فجأة، وغطّت السحبُ كلَّ الأفق، فتبسم الرسول ﷺ أمام هذا المشهد الذي اعتبره تصديقًا للبشارة التي جاءت بها الآيات من قبل، فأخذ حفنة من الرمل ورماها في وجوه العدوّ وخرج وهو يَثِب في الدرع وهو يقول: ﴿**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۞ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ**﴾ (سورة القَمَر: 54/45-46). وفي رواية ابن أبي حاتم: قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع، وهو يقول: "**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**"، فعرفت تأويلها يومئذ.

فهذه الحادثة هي مصداق ذلك الخبر الغيبيّ الذي أخبر به القرآن قبل عشرة أعوام، مع أنه حينما نزلت الآية التي تُبشّر بهذا النصر لم يكن كثيرٌ من حديثي العهد بالإسلام يتوقّعون تحقُّق هذه الغلبة، ولكن الله أنجز وعده ببدر وهزم جمع الكفار هزيمةً نكراء، بحيث إن أبا سفيان رأسَ العصابة حينذاك هرب مع العير إلى مكة حتى ينجو بنفسه من الموت، وقد سأل أبو لهب -ولم يشهد بدرًا- أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب: يا ابن أخي! أخبرني كيف كان أمر الناس؟ فقال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم، فمنحناهم أكتافنا يضعون السلاح منا حيث شاؤوا، وايمُ الله مع ذلك ما لُمْتُ الناس، لقينا رجالًا بيضًا، على خيل بُلْقٍ (لونها بياض وسواد) بين السماء

[67] صحيح مسلم، الجهاد والسير، 58.

والأرض.. فقال رافع مولى العباس بن عبد المطلب -وكان مسلمًا يكتم إسلامه-: تلك -واللهِ- الملائكةُ[68].

أجل، إن الكافرين أيضًا قد شاهدوا الملائكة وهي تقاتل وتكافح في صفوف المسلمين، مما أدى إلى ضعف معنويات المشركين بالكلية.

والآيات التالية تتحدّث عن تلك التأييدات الإلهية المادية والمعنوية التي قدمها الله للمسلمين يوم بدر، يقول الله تعالى: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۞ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ**﴾ (سورة الأنفال: 9/8-12)، ﴿**إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۞ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾ (سورة الأنفال: 43/8-44).

ومن هذا الباب تلك البشارات التي أتى بها القرآن الكريم في العهد المكي الذي عانى فيه المسلمون من صنوف الضغط الشديد التي تمارَس عليهم، حيث إن القرآن نزل في هذا الجوّ بما يثلج صدورهم ويروّحهم قائلًا: ﴿**وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا**﴾ (سورة النّور: 55/24). والحال إن التنبُّؤَ بتحقق مثل هذا في تلك الأحوال وفي ظروف ذلك اليوم كان من العسير جدًّا بل من باب المستحيل، إلا أنه لما حان الموسم تَحقَّق كل ذلك، وصار الأمر كما قال الشاعر محمد عاكف: "رسخت الأقدام التي كانت تحلق في الفضاء"، وذهب الممثلون للقرآن ينصبون خيامهم في كل بقاع المعمورة.

وفي حين كان المسلمون يرزحون تحت الضغوط، كان الروم والفرس في صراع وحرب دائبة، واستطاع الفرس أن يهزموا الروم حتى احتموا بأسوار القسطنطينية (إسطنبول)، وفرضوا عليهم

---

[68] الحاكم: المستدرك على الصحيحين، 365/3.

ضرائب باهظة، ففي تلك الأيام كان المشركون أيضًا يشتمون المسلمين، ويقذفون بالكلام قائلين: "إِنَّكُمْ أَهل كتاب والنَّصارى أهل كِتَاب وَنَحْنُ أُمِّيُّونَ وَقَدْ ظَهَرَ إِخْوَانَنَا مِنْ أَهْل فَارِس عَلَى إِخْوَانكُمْ مِنْ أَهْل الْكِتَاب وَإِنَّكُمْ إِنْ قَاتَلْتُمُونَا لَنَظْهَرَنَّ عَلَيْكُمْ"[69] [فكانوا على الدوام يهددون هذه الثلة من المؤمنين، ولكن الله تعالى في هذا الوقت بالذات أراد أن يفرح المؤمنين ويقوي عزائمهم بهذه البشارة الربانية] فَأَنْزَلَ تَعَالَى: ﴿**غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ**﴾ (سورة الرُّوم: 30/2-5). فلما حان الموعد وقع كل شيء مطابقًا لما أخبر به القرآن، فقد التمَّ شمل الروم بعد فترة من الزمن فغلبوا الساسانيين في اليوم الذي كان المسلمون يعيشون أجواء الفرح بالنصر على المشركين في بدر.

وهناك خبر غيبيٌّ آخر حول فتح مكة.. حيث كان بعض المسلمين يعيشون حالة من انكسار الأمل جراء ما جرى في الحديبية من بعض بنود المعاهدة مما أدى إلى نوع من الضيق في صدور بعضهم، فكانت العيون ترنو إلى وجه الرسول على أمل بشارة تأتي منه، وأخيرًا وقع ما توقعوه حيث نزلت سورة الفتح وفيها قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ**﴾ (سورة الفَتْح: 48/27)، وقد تحقّق ذلك على أرض الواقع.. وفي غضون مدة قصيرة دخل المسلمون مكة في الإطار الذي رسمه القرآن وطافوا بالكعبة.

وفي الآية التي تليها يبشر القرآن المسلمين بنبإٍ مستقبليّ أيضًا؛ حيث تبشرهم بالانفتاح على آفاق أوسع فيقول: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾ (سورة الفَتْح: 48/28).. وبمرور الزمن تحققت هذه الحادثة الكبرى أيضًا، فصارت البشرية في شتى بقاع المعمورة تسمع الأنفاس المحيِيَة التي تنبعث من المسلمين.

---

[69] ابن كثير: **التفسير**، 300/6.

وعلى غرار ما ذكرنا من الأمثلة فهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم أخبرت عن أمور ستحدُث في المستقبل، ففرح بها المسلمون وقويت عزائمهم، ولما حان الوقت تَحققت هذه الأمور طبقًا لما أخبر به.

ويفهم مما سردناه إلى الآن من الأمثلة أن القرآن بما أخبر به من الأنباء الغيبية يلفت الأنظار إلى أفقٍ إعجازي مختلف، صحيحٌ أن بعض هذه الأخبار قد تحققَ في عهد سابق إلا أنه من المقرر أن القرآن يخاطب الناس في كل الأزمنة والأمكنة؛ لذلك فإننا على يقين بأنه كما وقع هذا في السابق فإن الإخبارات القرآنية الغيبية ستحقق في عصرنا الحاضر وفي المستقبل أيضًا، وستتنور الدنيا التي تئن في دوامة الاضطرابات والأزمات مرة أخرى.

فستنقشع في القريب العاجل -بإذن الله تعالى- السحب المظلمة، وفي ذلك اليوم سيتجدد إيمان الذين تعلقت قلوبهم بالقرآن وسيصدقون آياته وأخباره الغيبية مرة أخرى وسيقولون ليس القرآن إلا كلام الله المعجز.

د. الأخبار الغيبية التي وردت على وجه الإطلاق

لقد سردنا فيما سبق -ولو على سبيل الإجمال- أمثلة من القرآن الكريم حول الأخبار الغيبية القرآنية تحت عنوان: "الأنباء المتعلقة بالماضي" و"الأخبار القرآنية المتعلقة بالمستقبل"، وكان من الممكن أن ندرج ما سنذكره في هذا الفصل أيضًا تحت عنوان: "الأخبار القرآنية المتعلّقة بالمستقبل".. إلا أن ما سنذكره في هذا الفصل يختلف عنها نوعًا ما، فالأمثلة التي سنذكرها لها علاقة بالماضي وبالمستقبل، بمعنى أنها أمور تحمل في طبيعتها تحدي القرآن للعصور، فأردنا أن نركز على هذه الناحية من الموضوع، ونعتقد بأنه كما لم يكن في الماضي من يستطيع أن يتصدى لتحدي القرآن، فلن يكون في المستقبل أيضًا من يتصدى له وسترفرف راية القرآن في سماء المستقبل إلى أبد الآبدين بوصفه معجزة إلهية.

وكما سبق لنا أن قلنا: إنه ليس من الممكن لإنسيٍّ أو جني أو أي مخلوق آخر أن يطلع على الغيب؛ لأن هذا الأمر يفوق بكثيرٍ حدودَ فهمِ المخلوقات وإدراكِهم؛ حيث إن مساحة علم الإنسان

وإدراكه محدودةٌ وضيّقة جدًّا، فليس له أن يفهم بعلمه المحدود هذا الأمور المتعلقة بعالم الغيب، ولا أن يقوم بتركيب أو تحليل في مثل هذا الموضوع، ويستثنى من ذلك أولئك الذين اختارهم **الله** تعالى من بني الإنسان وأطلَعَهم على الغيب[70].

أجل، إن **الله** ﷻ يصطفي هؤلاء ويوظّفهم بأن يشرحوا ما في قصر الكون أو ما في هذه الدنيا التي هي جزءٌ مهمّ من الكون، ويعرِّفوا بالآثار المعروضة على مشهر الكون، كما أنه يوظفهم بأن يدْعوا كلّ المخلوقات وبخاصة الإنسان إلى مشاهدة هذه المظاهر، ثم إنه ﷻ يخصّ هؤلاء العظماء المصطفَينَ الأخيار ببعض المعجزات حتى تتوجه أنظار الناس إليهم ويسترشدوا بهم، ويأتي على رأس هؤلاء الذين حباهم **الله** ببعض المعجزات سيدنا محمد ﷺ؛ فقد أطلعه **الله** تعالى على الغيب أيضًا ورفعه إلى مستوى عال جدًّا.

أجل، إن سيدنا محمّدًا ﷺ لهو المرشد الأكمل والمبلِّغ الفريد الذي يدعو إلى **الله** ﷻ.. والقرآنُ المعجز البيان الذي نزل على قلبه بوحيٍ إلهيٍّ لهو كتاب سماويّ مقدّس يحوي كثيرًا من الأخبار الغيبية، ومن هذا المنطلق نستطيع القول بأن الرسول ﷺ أكبر معجزات القرآن، كما أن القرآن أكبر معجزات ذلك المرشد الأكمل والأكبر ﷺ.

ونعود لنُذكِّر مرة أخرى بأن القرآن المعجز البيان يفوق بكثير الكلامَ البشري وتعابير البشر وبيانه، وهو كتاب معجزٌ من كلّ الوجوه، وليس إخباره عن الغيب إلا وجهًا واحدًا من هذه الوجوه الإعجازية، ومن هذا المنطلق نقول: إنه لا بد أن يأتي يوم ستعترف البشرية فيه بأن القرآن حوى جل أنواع الإعجاز، إن لم يكن اليوم فغدًا.

والآن نود أن نقف ولو قليلًا، عند آية تعلن في معرض الحديث عن أن القرآن معجز، وأنه قد تحدى البشرية في كل القرون أن يأتوا بمثله، فتذكر بطريقة غيبية لأهل كل العصور أنه لن يتأتى لأحد أن يأتي بمثله، منذ أول يوم نزل فيه إلى يوم القيامة، فتقولُ: ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى**

---

[70] انظر: سورة الْجِنّ: 72/26-27.

عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (سورة البَقَرة: 2/23-24).

وقد كان الأدب في عصر ظهور الإسلام قد تطوَّر جدًّا وكان يعيش عصره الذهبي، إلى درجةِ أن الكلمة غدت أكثر الأمتعة رواجًا بينهم، وبها كانوا يعبِّرون عن مستواهم في كثير من الأحيان، فكانوا يتعاركون من أجلها وبها يتقاتلون وكما كانت الكلمة الواحدة تؤدّي بهم إلى المحاربة، فكذلك كانت الكلمة سببًا للوئام؛ حيث ترى القبائل المتناحرة تتصالح جرّاء كلمة تلقى عليهم.

وكما أن المادة في عصرنا الحالي أصبحت قيمة فوق القيم، وصار كلُّ شيء يقاس بالمادة وبها تعتبر قيمته، وغدت المادة أساس كل شيء وغايته وأمرًا لا بد منه، فكذلك في تلك الحقبة في الجزيرة العربية كانت الكلمة، وبالأخص الشعر، قيمةً تَسبِقُ كل القيم وتَفُوقُها.

ولقد جهز الله تعالى كل نبي بالقيم الرائجة في قومه وأيدهم بمعجزات تفوق مستوى إدراك أهل عصرهم حتى يثبتوا بها دعواهم، فمثلًا:

كان السحر رائجًا في عهد سيدنا موسى، وفي عهد سيدنا عيسى كان الأمر الرائج هو الطب؛ لذلك منح الله تعالى سيدنا موسى من المعجزات ما يبطل به عمل السحرة، وأعطى سيدنا عيسى معجزات تتعلق بالطب لأنه كان في عهدٍ تطوَّر فيه الطبُّ إلى مدى أن الأطباء حينذاك كانوا يقُومون بإجراء بعض العمليات الجراحية، وهذا الأمر كان من الأمور التي يُثبت بها هؤلاء الأنبياءُ نبوتهم.. على نبينا وعليهم الصلاة والسلام.

وفي الفترة التي بُعث فيها الرسول ﷺ كان الشعر والأدب يعيشان عصرهما الذهبي، ومن هنا فقد حباه الله تعالى القرآن المعجز الذي كان أساتذةُ البيان عاجزين عن الكلام أمامه كأنهم بُكْمٌ، بل خرُّوا سُجّدًا أمام بلاغته.

أجل، إن القرآن بهذه الآيات دعا كل الشعراء والأدباء إلى أن يعارضوه وتحداهم قائلًا: **﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾** (سورة الإِسْرَاء: 17/88).

﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (سورة هُودٍ: 13/11).

﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (سورة يُونُس: 38/10).

﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾ (سورة البَقَرَة: 24-23/2).

ف﴿**إِنْ**﴾ في هذه الآية تفيد الشكَّ، ويُفهم منه أن المخاطَبين بهذه الآية يظلون يتخبطون في شُبَهٍ ضعيفة، ويرزحون تحت وطأة الشكوك والشبهات.

وكأن قوله تعالى: ﴿**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ يقول لهم: ادعوا غيرَ الله من شهدائكم وشعرائكم وأدبائكم وكلِّ مَن تظنون أنه سيساعدكم في يومكم هذا وفي غدكم من أهل العلم والمعرفة، وأجمِعوا فيما بينكم على فكر واحد، واطرحوا أفكاركم البديلة، حتى تأتوا بنظير لسورة واحدة فقط من بين سور القرآن.

وإن التاريخ لَيشهد أنه لم يستطع أن يأتي أحدٌ بنظير لآية واحدة من آي القرآن ناهيك عن السورة، فإن ما في كلمات القرآن من حسن الاختيار الخارق، وما في تراكيبه من السلاسة والتناغم البديع، وما في معناه وأسلوبه من شاعرية -رغم أنه ليس بشعر- وموسيقى وانتظام يأخذ بالألباب وما في ألفاظه من نغم يطرب القلوب، وما بين ألفاظه ومعانية من التناسب والتطابق، وكذا ما في إخباراته الغيبية من النوافذ الباهرة؛ لَمن الأمور الخارقة التي لا يستطيع أن يحقِّقها إلا الله، كما أنه ليس لأحد أن يأتي بسورة أو آية تحتوي على كل ما ذكرنا إلا الله ﷻ.

أجل، إن الإنسان حينما يأخذ بعين الاعتبار كلَّ هذه النقاط، فستأخذه الحيرة، وسيملأ الانبهار عقله، وسيرى أن الإتيان بسورة أو آية مثل سور القرآن أو آياته أمر يفوق أضعاف أضعاف طاقة البشر.

إن القرآن رغم تَحدِّيه الجميع بكل هذه الجوانب الخارقة فيه، لم يتصد للإتيان بنظير له سوى ثلاثة أو أربعة من التافهين الذين أصبحوا بمحاولاتهم الفاشلة موضع السخرية لدى الآخرين، وقد كان في تلك الأيام كثير من الفصحاء وأساطين البلاغة الذين كانوا يتربعون على عروش الأدب في مهرجانات مثل عكاظ وقينقاع بمن فيهم من الشعراء الفحول أمثال الأعشى ولبيد والخنساء، ولكنهم بدلًا من الإتيان بنظير للقرآن استسلموا واستكانوا له، وقد كان من بين هؤلاء الشعراء أمثال لبيد ممن كانوا قبل إسلامهم يُنظَر إليهم على أنهم من الملهَمين، فيتحلق حولهم الناس متلهفين لسماعهم، ولكن هؤلاء الشعراء لما سمعوا القرآن استسلموا له وتركوا الاشتغال بقَرْض الشعر.

أجل، إن هؤلاء لم يكتبوا الشعر بعدما دخل القرآن عالَمهم الفكري، فشعراء تلك الفترة وأدباؤها سُحِروا من تعابير القرآن التي تأخذ بالألباب، وقد كانوا عارفين باللغة وبكل دقائقها، فقد بلغوا من العاطفة الشعرية إلى مستوى كان أحدهم يخر ساجدًا أمام بلاغة جملة واحدة، وبعدما نزل القرآن وفَهِمَ بعض من كان لا يزال على قيد الحياة من شعراء المعلقات السبع أن شعره لم يعد يعني شيئًا؛ أخذ يتولى بنفسه نزع شعره المعلق بالكعبة، حيث إن المعلقات السبع هي التي كانت تُكتب بماء الذهب وتعلق بالكعبة.

أجل، إن كل من كان يسمع ولو بضع آيات من القرآن في تلك الأيام كان يضطر للاعتراف بأنه لا يمكن معارضة القرآن بنظيره ولا الإتيان بمثله.

وتحدي القرآن لم يكن منحصرًا بذلك الوقت بالذات، فقد نشأ بعد ذلك العصر أيضًا شعراء عباقرة، وكان منهم من يعظّم أمرَ الشعر إلى درجة التأليه، ولكن إذا أمعن الإنسان النظر، ولو قليلًا، فيما قالوه فسيلاحظ ما فيه من التكلّف وسيرى أن بعضَ قطعهم الأدبية عبارة عن ألفاظ وتعابير مضخّمة، فهذا أبو العلاء المعري الذي ترك بصمات واضحة في حقبةٍ من تاريخ الشعر، وكذا

المتنبي الذي ذهب به كبره وغروره إلى أن قال: أنا نبيُّ الشعر، تراهما قد حاولا أن يأتيا بما قالاه من الشعر المزخرف الذي يفوح كبرًا وغرورًا، بما قد يقترب من القرآن الكريم، ولكنك حينما تنظر إلى ديوانهما فسترى محتواه في مجمله عبارة عن الهجاء واليأس والتشاؤم والادعاءات الفارغة، فما بالك بالإتيان بما يعارض القرآن.. فهؤلاء التعساء، شأنهم شأن بعض العدميّين في القرن العشرين، لم يهتموا نهائيًّا بالسبب والحكمة من وراء وجودهم، وبكيفية هذا النظام الهائل الجاري في كتاب الكون الكبير بدءًا من الذرات وانتهاء بالمجرات، ولم يعيروا بالًا للعلة الغائية للوجود، بل إنهم لم يأتوا بشيء يُذكر سوى التعبير عن أمور تافهة بكلمات مزخرفة.

وليس المعري بأقل حظًّا من المتنبي في باب الإتيان بالادعاءات الفارغة والتشدق بالكلام والتشاؤم والقنوط، فهذا الرجل التعيس الذي تذخر أشعاره من أولها إلى آخرها بلوحات من المداهنة والمديح والهجاء قد دأب على الحديث عن الليالي المظلمة، وليس من المتوقع من أمثال أصحاب الأرواح المظلمة هؤلاء أن يُعبّروا عن أحاسيس الإنسانية وأفكارها وتصوراتها ونواياها وأهدافها، وليس من الممكن قطعًا لهؤلاء البؤساء الذي انغلق عالمهم الروحي تجاه النسمات الإلهية الغيبية أن يقولوا شيئًا حول التكوين الروحي والقلبي واللدني لبني الإنسان، وأن يسردوا أفكارهم حول هذه الأمور في تناغم وانتظام وانضباط، وأن يضعوا أمام الأفراد والمجتمعات أهدافًا وغايات سامية، في حين أن هذه قضايا مهمة وهي من الأمور الأساسية التي تناوَلها القرآن الكريم، فشرح بها الصدور.

ومن حيث إن هذا الموضوع ليس مما نحنُ بصدد الحديث عنه فإننا لن نخوض فيه بل سنتطرق إلى نقطة وننهي الموضوع.

فلو تم استعراض كل الكتب والمؤلفات نظمًا ونثرًا، واجتمعَ كلُّ أساتذة اللغة على أن يأتوا بمثل القرآن، لن يستطيعوا أن يأتوا بما يضاهي سورة واحدة بل آية واحدة منه، فكما أن هذه الحقيقة كانت ثابتة في الماضي والحاضر، فكذلك ستكون في المستقبل أيضًا، فإن القرآن رغم أنه تحدى بذلك قبل أربعة عشر قرنًا، لم يكن هناك من تصدّى لمجاراة هذا التحدّي: ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي**

رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (سورة البَقَرَة: 2/23-24).

ولا بد لي أن أنبه هنا إلى أن أمثال المتنبي والمعري ممن حاولوا أن يأتوا بما يشبه القرآن لم يقولوا يومًا ما بأن ما قالوه يُشْبه الوحي، بل غاية ما فعلوه أنهم حاولوا أن يقولوا أشياء عَجَزَ عنها غيرُهم.

وهناك أمر آخر وهو أن مئات الآلاف من الأصدقاء والأعداء لم يزالوا يقتبسون من القرآن ويستفيدون منه في نظمهم ونثرهم حتى يزيدوا من جمال قولهم وتأثير كلامهم، وهذا يدل على أنه لا يمكن الاستغناء عن تعابير القرآن وأسلوب بيانه الآخذ بالألباب.

والآن دعونا نرجع مرة أخرى إلى تفسير الآية الكريمة فنقول: ﴿**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا**﴾ أي بما أنكم لن تستطيعوا بالفعل أن تأتوا بكلام يماثل سورة بل آية منه، فلا أقل أن تعرفوا حدكم وتُفكروا في عاقبتكم ﴿**فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾ (سورة البَقَرَة: 2/24).

وكما يُفهم من الآية تحديها لكل أحد، يفهم منها أيضًا الإيماء إلى ما يلي:

إنكم لستم حجارةً أو حطبًا، بل أنتم "بشر" ذوو شعور وإدراك وإحساس وقلب، وبالتالي فعليكم أن ترجعوا إلى صوابكم، وتُفكّروا جيدًا، تفكروا حتى لا تتحولوا بسيرتكم إلى حجارة أو حطب فتصيروا وقودًا لنار جهنم، وحاوِلوا أن ترتقوا في إطار مواهبكم إلى سماء الكمالات الإنسانية، واعلموا أيضًا أنه لن يكون للقرآن مماثل ولن يمكن الإتيان بنظيره؛ فلا تُتعبوا أنفسكم من دون جدوى في سبيل الإتيان بمثله، وإن الله ﷻ منحكم العقل وحباكم بوصف الإنسانية حتى تُطوِّروا شعوركم ومواهبكم، فلا تلقوا بأنفسكم في مهاوي أسفل السافلين.

ومن جانب آخر، ينبغي التنبه لما يلي:

1- لا بد للتعرف على [إمكانيةِ أو عدم إمكانية] الإتيان بنظير للقرآن من الوقوف -ولو قليلًا- على اللغة العربية إضافة إلى التمتع بالذوق الأدبي والمعرفة بدقائق التعابير، ومعرفةِ الفصاحة والبلاغة والإعجاز ونحوها، فمن ليس له باع في دقائق هذا الباب وليس له تراكمٌ معرفي، فلن

يَفهم ما يقال حوله بمجرد الاكتفاء بالسماع عن أصحاب الشأن في هذا الموضوع، فمن لا يثق بما يقوله العلماء في هذا الباب فعليه أن يتولى أمر البحث فيه بنفسه، والذين يُدْلون بدلوهم في الموضوع ويجازفون بالقول في القرآن من دون التمتع بتلك الآليات ومن دون إدراك كنه القضية فليس لقولهم أية قيمة علمية، وليس لهم حق وصلاحية في الحديث حول هذا المضمار.

2- وهناك في الآيتين (23-24) من سورة البقرة نقطتان تستدعيان التوقف عندهما والنظر فيهما.

أُولاهما: قوله تعالى: "نَزَّلْنَا" حيث أسند الله تعالى الإنزال إلى ذاته مبيّنًا أن هذا القرآن إنما هو منه ﷻ.

وثانيتهما: قوله تعالى: "عَلَى عَبْدِنَا" حيث ركز على عبودية النبي ﷺ لله تعالى.

أجل، إن كل شيء منسوبٌ إليه ﷻ فإذا قُطِعَتْ نسبة القرآن وصاحبِه ﷺ عن الله فقد ضاعت عنهما ما يتمتعان به من ذلك الموقع السامي، فمثلًا: إذا قال أحد الباحثين "لنعتبر هذا القرآن من كلام البشر وبعد ذلك لنبحث فيه وكأنه من كلام البشر" أو قال: "لنتاولْ الموضوع بموضوعية وحيادية"، فهذه وغيرها إنما هو من هراء الكلام وليست إلا من باب خداع المرء لنفسه؛ فكيف يمكن له تفسير القرآن إذا لم يسند إلى الله؟! وكذا الرسول ﷺ إذا لم يُعتَبر على أنه عبد الله ورسوله فكيف تُفسَّرُ شجاعته الفائقة وصبرُه الخارق، وحلمُه وعرفانُه، وجوامع كلِمه وبيانه، وأطواره وحركاته الآخذة بالألباب، وفتحه للقلوب من أول نظرة، وإرادته الصامدة وفراسته المذهلة، وعصمته وفطنته.

وموجزُ القول: كما سبقَ وأسلفنا؛ إن كل شيء له تعالى، ولا بد أن يُنسَب إليه؛ لأن كتاب الكون الكبير هذا الذي هو ميدانٌ لأنواع الجمال لا يظهر بمحض الصدفة، وإنما هو من صنعِ ذي الجلال الذي هو قادر على كل شيء، وبالتالي ينبغي لنا أن لا نتورّط في الخطإ الذي سقطت فيه مقاربات الفلسفة الوضعية والعقلانية التي قَطعت نسبة الأشياء عن الله وسلكت سبيلَ الإلحاد في عصرنا،

بل إننا إذا تناولنا القرآن وصاحبَ القرآن بالبحث فعلينا أن لا ننسى أنه "كلام الله" وأن سيدنا محمدًا ﷺ هو رسوله ﷻ.

وهناك أخبار غيبية غير مقيدة بزمان بعينه هو ما تشير إليه هذه الآية الكريمة: ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ**﴾ (سورة غَافِرٍ: 77/40).

ففي هذه الآية الكريمة نوعُ تسليةٍ من الله تعالى للرسول ﷺ من جانبٍ، ومن جانب آخر يخبره تعالى بأن ما يعانيه من المصائب لن يذهب سدًى، ويوصيه بالصبر على ما أصابه ويخبره بقوله ﴿**إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ**﴾ بأن مقصوده سيتحقق لا محالة.

والآن تعالوا بنا نتصور في عالم خيالنا إنسانًا، ظهر في جماعة مشتّتة قد انفرط عِقدها، ويكاد يتحدّى جميع البشرية وحده، وجاء بأفكارٍ جديدةٍ تمامًا وطرحها في هذه الحقبة المليئة بالفساد والتخبّط، ثم جعلَ يتحدث عن التخطيط لبعض التحولات الحيوية على مستوى العالم، ويحاول أن يقنعهم بجدوى مبادئ هذه التحولات، ولكن عدد المقتنعين به قليل جدًّا، بل إن طائفة من أفراد هذا المجتمع بينما تسُودهم السفاهة والانحطاط الأخلاقي، هناك طائفة أخرى منهم يذبحون قرابين للأصنام ويستمدون منها العون، ولقد سادت الرزائل والمنكرات إلى درجةٍ أن الناس كانوا يطوفون بالكعبة عرايا... فما أعمى أولئك الذين لا يأبهون بجهود هذا الإنسان الذي كان يواصل مسيرته في خضم آلاف من تلك الخرافات المرتكبة باسم الدين!

ففي تلك البيئة المظلمة التي رسمناها وصورناها بزغ الرسول ﷺ مثل الشمس، وأخذ يقدم لهم أرقى دساتيرِ حياةٍ لا يستطيع أن يتمثلها إلا أناس من أهل الجنة، وفي هذه الحقبة لم يكن من المتوقع أن تتقبّل الإنسانية الغارقة في السفاهة هذه المبادئَ بقبول حسن، ولكن عناية الله كانت خلف سيد الأنبياء، فبها استطاع أن يبين الحق والحقيقة لهؤلاء المُوغِلين في السفاهة في زمن قصير جدًّا، وأن ينجح في هدايتهم إلى الله تعالى، ولم يكن بيده إلا القرآن الكريم.

أجل، إن خطّة شمس الهداية ﷺ هو القرآن، ولم تكن له تسلية وحل للمعضلات إلا في القرآن، وكلما كان يتعرّض لشتى ألوان الأذى والاضطهاد في سبيل بيان طرق الخلاص لبني البشر، وكلما

كان ينكسر قلبه ويحزن، كان يلتجئ إلى الله، وبفضل ذلك كان يصمد ويحافظ على الأمل، وفي ذلك خاطبه الله تعالى واعدًا إيّاه بالتأييد والنصر قائلًا: ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ**﴾ (سورة غَافِرٍ: 77/40).

فقوله تعالى: ﴿**إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ**﴾ يشير بطريقة غيبية ضمن ما يشير إليه إلى أن رسالة النبي ﷺ ستصل إلى شتى بقاع المعمورة خفاقةَ الراية، وأنها ستكون حاكمة على الناس بفضل الله وعنايته، وأنّ أنفاسَ الأمة المحمدية ستصلُ إلى كل مكان من شرقي الأرض وغربيها، وأن أسسَ الدين الإسلامي المبين ستُستقبَل بالاحترام في كل مكان، وأن القرآن الكريم ستلهج به الألسنة وتأخذ به الأيدي وتحتضنه القلوب وسيحترمه الجميع وسيتسابق الناس في فهمه واستيعابه، وغير ذلك من الأمور.

وقد بشر الله تعالى رسوله بهذه البشارة في الظروف التي كان فيها ﷺ محاطًا بألف لونٍ ولونٍ من المخاطر والمهالك، ولم يكن حاصلًا على دعم أحد من الناس، وما كان لأحد أن يصدِّق حتى بمجرّدِ احتمال تحقُّق هذه الوعود في تلك الأيام، ولكن الله ﷻ قال لرسوله: ﴿**فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ**﴾ (سورة غَافِرٍ: 77/40)، فهذا يحتمل أمرين: أحدهما: هو ما يتبادر إلى الذهن من كون "أو" لأحد الشيئين، وثانيهما: أن تكون "أو" بمعنى الواو فيكون المعنى: سنريك بعضًا من الأمور التي نعدهم بها وسنتوفاك من قبل أن ترى كل الذي نعدهم.

وبالفعل فقد ظهرت بعض هذه الأمور التي وعد الله بها رسوله وهو لا يزال على قيد الحياة، في حين أن البعض الآخر قد تحقق بعد التحاقه بالرفيق الأعلى، فقد رأى في عهده فتح مكة، ومحاربة المسلمين للروم، ودخول مختلف القبائل في دين الله أفواجًا، لكنه ﷺ لم يشاهد وقائع العهد الأموي والعباسي والسلجوقي والعثماني، إلا أنّه اطّلَع عليها بروحانيته.

وكان سيدُ الأنبياء يحمل على عاتقه مهمة كبرى، ألا وهي الرسالة، وكان مرتبطًا من كل قلبه بقضيّته الكبرى هذه، ولقد وعده الله بصورة غيبية بأن يطلعه على بعض الأمور، وقد كان الله ﷻ يريه كل ما وعده به في أوانه، وبهذا كان يبعث الانشراح في صدره، وقد خرج المسلمون مع

الرسول ﷺ قبل الحديبية بنيّة أداء العمرة، ولكن قريشًا لم تكن تنوي إعطاءهم هذه الفرصة، ولما سمع مفخرةُ الإنسانية ﷺ أن الكافرين لن يسمحوا لهم حتى بطواف الكعبة الذي هو من حقوقهم ومَطالبهم الطبيعية، بل وأنهم قد يستخدمون السيف للحيلولة دون ذلك، قال: "**يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ، لَقَدْ أَكَلَتْهُمُ الْحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ، فَإِنْ هُمْ أَصَابُونِي كَانَ ذَلِكَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَافِرِينَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ، فَمَا تَظُنُّ قُرَيْشٌ، فَوَاللهِ لَا أَزَالُ أُجَاهِدُ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللهُ بِهِ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ**"، (يقصد: الموت)[71].

ففي هذه النقطة بالذات إذا نظرنا إلى موضوع الحديبية من منظور قوله تعالى:

﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ**﴾ (سورة غافر: 77/40)، فسيتبين لنا أن من بعض الأمور التي وعد الله بها رسوله في هذه الآية هو فتح مكة الذي تَحقّق بعد الحديبية بعامين.

وأريد أن أختم حديثي حول ما ورد في القرآن من الإخبار عن الأمور الغيبية المطلقة التي لم تقيّد بزمان، بما ورد في سورة النور، وهو قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ (سورة النُّور: 55/24).

فقد وعد الله تعالى في هذه الآية المؤمنين بوعود ستُحَقَّق قطعًا، بشرط الإيمان والعمل الصالح، وهذا الوعد باقٍ من لدن عصر الرسول ﷺ إلى قيام الساعة، إلا أن الإيمان والعمل الصالح على مستوى الفرد أو المجتمع لا يكفيان لتحقق هذه الوعود بل هناك تأكيدٌ أيضًا على أساسيات أخرى كالقيام بالعبودية من دون الإشراك بالله، وعدم الكفران تجاه الحقّ ﷻ.

[71] مسند الإمام أحمد، 212/31.

فالله ﷻ بقوله: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قد وعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأنه سيجعلهم حكامًا على وجه الأرض مثل ما يسَّر ذلك لسيدنا داود وسليمانعـ.

فإذا رجعنا إلى الوراء ولاحظْنا الظروف التي نزلت فيها الآية لوجدنا أنه لم يكن يبُلُّ تلك القلة المؤمنة قطرة من المطر، ولم يكن ينبت على وجه الأرض نبتة، وكانت القلوب قاسية جامدة وكأنها صخور صماء، وتتابعت ردات الفعل ضد القرآن، وكان النبي ﷺ وأمته يعانون شتى ألوان الظلم والضيم، مما يعني أن نزول الآية -بمثل هذا الوعد في ذلك المناخ الذي لم تكن فيه أيّةُ أمارة- يبعث على الأمل.. وبنفسِ الملاحظةِ ندركُ أنَّ تحقق مثل هذه الوعود كان -حتى- في نظر بعض المؤمنين من باب المستحيلات؛ لأنه لم يكن هناك أي بصيص من نور الأمل.

فهذه الوعود في مثل هذه الظروف كانت بالنسبة للمؤمنين الحقيقيين بمثابة خبر غيبي يبشّر بالفوز والفلاح، فالله ﷻ سيُحقق وعده هذا للمحظوظين الذين سيَخلُفونهم

في المستقبل، وسيُعلن على الملإ كيف أن القرآن يتحدى الزمان والعصور.

ومن جانب آخر تُواصل الآية وعودها بقوله تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ (سورة النُّورِ: 55/24)، وهذا يعني أنه ﷻ سيحقق الثبات لهذه المبادئ التي ارتضاها للمؤمنين وسيحفظها من كل أنواع التغير والفساد والانحطاط، وسيَترسخ الدين ويضرب بجذوره في القلوب المؤمنة ويتحكّمْ في سير حياتهم.

وفي الحقبة التي أخبر القرآن بهذا الأمر بصورة غيبية لم يكن الدين قد تمكن واستقر في حياة الأفراد والمجتمع، فلو كان المؤمنون يسمعون هذه الوعود في تلك الأيام التي كانوا يعيشون أضعف الأحوال فيها من غير القرآن؛ لكان من الصعب على كثير منهم

أن يصدِّق بها.

ويخبر الله ﷻ بقوله ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ بطريقة غيبية أنه إذا استقرّت المشاعر الدينية على وجه تام في قلوب أي مجتمع فإن الأمن سيستقر في ذلك المجتمع بشكل تلقائي، ولن يَبقى

أي خوف في قلوب ورؤوس أولئك الذين تفيض قلوبهم بالإيمان، وسيقوم الجميع بالعبودية لله من صميم القلب.

أجل، إن الآية الكريمة تعِد المؤمنين على وجه صريح بوراثة الأرض.. ولكن لن يكون من الصواب قطعًا فهمُ هذه الحاكمية التي وعد الله بها على أنها مجرد حاكمية وسلطنة مادية يتحكّمون بها في الناس ويعاملونهم معاملة العبيد والخَوَل، كيف والحاكمية الموعود بها في الآية الكريمة تستتبع مسؤوليات كبيرة جدًّا؛ فإنها تقتضي من المسلمين أن يكونوا عنصر توازن على وجه الأرض بحيث إن حاكميتهم هذه تضمن لكل الناس السكينة والطمأنينة في ظلها، ويرقى المسلمون إلى مستوى الحَكَم بين سائر الأمم والدول، وبذلك يستقر الصلح والسكون على وجه المعمورة، بكبح المجموعات التي تتسبب بالبلبلة والإرهاب، وإنذار البغاة وتأديبهم، والقضاء على كل ما يخل بسعادة بني الإنسان.

فنلاحظ أن القرآن الكريم قد وعد بهذا في حقبة لم تتشكل بعدُ فيها دولة إسلامية بكل وحداتها، ولكن الله تعالى قد حقق وعده هذا ابتداءً من زمنِ رحيل سيد الأنبياء مباشرة ووفَّقَ المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين ليتمَثّلوا تلك الحاكمية في بقاعٍ مهمة من الأرض على المستوى المطلوب وعلى الوجه المذكور في القرآن.

فالأمر المهم الذي ينبغي التركيز عليه في هذا الباب هو حاكمية الحق، ولو نظرنا إلى تلك الفترة التي نزلت فيها هذه الآية الكريمة لوجدنا أن تحقُّق هذه الأمور ما هو إلا من الأمور المستبعدة التي تدخل ضمن المستحيلات، ولكن في الفترات اللاحقة بل و-حتى- في أيامنا هذه قد تأصل الدين واستقر في القلوب بحيث لا يمضي يوم إلا ويهتدي أناس إلى الإسلام، وهذا يجعل المسلمين يعيشون فرحة كتلك الفرحة التي كان يعيشها المسلمون في عصر الرسول ﷺ.. بل إنك لتلاحظ أن القلوب المؤمنة في أيامنا هذه تُحاول أن تتبع خُطَى الرسول بكل عشق وشوق وتتحرى سننه في تفاصيلها ودقائقها، حتى في الأمور التي ليست هي من قبيل الفرائض والواجبات كأكله وشربه ومشيته وتعامله مع الناس.

والحق أن الدين كما كان في السابق؛ قد أخذ -بفضل الله وكرمه- يترسخ في القلوب في عصرنا أيضًا، ونحمد الله تعالى حمدًا لا نهاية له على أن جذوة الشوق والحماس التي كانت تشتعل في نفوس المؤمنين في العصر النبوي السعيد بدأت تتّقد في عصرنا هذا مرة أخرى، وأصبح هذا المشهد الذي يبشر بالأمل يثلج الصدور التي تعاني من حر نار الهجران والحرمان، وأخذ الخبر الغيبي الذي جاء به قوله تعالى: ﴿**وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ**﴾ (سورة النُّورِ: 55/24) يتكرر مرة أخرى على مراحل.

روى الخباب بن الأرت ﷺ أن المسلمين لم يكن لهم في مكة مأوى يلجؤون إليه واضطروا للهجرة إلى المدينة المنورة. أجل، إنهم قد هاجروا ولكنهم كانوا لمدة طويلة يحملون في المدينة أيضًا بين جوانحهم نفس المخاوف، فالكفرة الفجرة الذين يحيطون بهم، والمنافقون الذين يعيشون بين أظهرهم كانوا من بواعث القلق لهم، وكان جل المسلمين لا يبيتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فلما بلغت الضغوط والشدة أقصى حدود التحمل جاء الصحابة يومًا إلى الرسول ﷺ فقالوا له: يا رسول الله، أليس لهذه المخاوف نهاية؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: "**اِصْبِرُوا فَإِنَّ اللهَ سَيُذْهِبُ هَذَا الْخَوْفَ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِه**"[72].

ولست أدري كيف كان رد فعل الناس تجاه هذا الخبر الغيبي الذي كان من الصعب التصديقُ به في جو تلك الفترة التي طغت فيها الوحشية واستفحلت، ولكن الواقع أنه تحقق هذا الأمن في عهد سيدنا أبي بكر وعمر ، ونعتقد أن الله تعالى كما رزق مسلمي ذلك العهد الأمنَ فسيرزقه هذه الأمة بمشيئته مرة أخرى، فالمفهوم من هذه الآية الكريمة هو أن هذا الأمر باق بالنسبة لكل المسلمين إلى قيام الساعة، ويدلّ قوله تعالى في سياق الآية: ﴿**يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**﴾ (سورة النُّورِ: 55/24) على أن الأكثرية على وجه الأرض ستعبد الله تعالى.

---

[72] صحيح البخاري، الإكراه، 1.

فإذا استطعنا أن نذهب بخيالنا -ونحن نتدبر هذه الآية الكريمة- إلى العهد المكي، فسنلاحظ أنه كان يوجد في الساحة عددٌ كبير من الأصنام، وكل قبيلة كانت تعبدُ أصنامها، وأصبح المجتمع ضحية الفوضى، وتحكمت الوثنية في القلوب والعقول، فقدَّم الناس للأوثان القرابين واستمدوا منها العون والمدد، وراجت العقائد الباطلة في كل مكان.

كما أننا إذا تناولنا هذه الآية الكريمة من منظور عصرنا هذا فسنرى الجانب الإعجازي الفريد للقرآن الكريم؛ فإن هناك، على الرغم من كل شيء، الملايينَ من الناس يعبدون الله، ويطيعونه بالمعنى الحقيقي ويجتنبون الشرك ويتوجهون إليه تعالى بخالص النية، مصداقًا لهذه الآية الكريمة.

فكما أن المسلمين الأوائل تحفزوا عندما طرقت هذه البشارة الكريمة سمعهم؛ فإن الذين جاؤوا من بعدهم في عهد عمر ﷺ وفي العهد الأموي والعباسي توسعوا في الفتوحات وامتد انتشارهم من الجزيرة العربية إلى القارة الإفريقية وربوع آسيا وحققوا تلك البشارات التي أخبرت بها -بشكل غيبي- هذه الآيةُ الكريمة وكذلك آياتٌ أخرى غيرها، فأصبحوا عنصرًا مهمًّا في التوازن الدولي.

فكل هذه الآمور تدل على أن القرآن الكريم كتاب غيبي فريد لا يدانيه أو ينافسه أي كتاب آخر.

أجل، إنه يجعل كل الأدوار والعصور تصدقه فيثير الإعجاب في العقول، ونأمل أن يتوجه العالَم مرة أخرى إلى هذا الكلام المعجز الذي يلبي كل آماله وتطلعاته، حتى تصل الإنسانية مرة أخرى بطريق مباشر إلى منبع السعادة الأبدية هذه، فالإنسانية في وضعها الحرج هذا لهي في أمس الحاجة إلى روحانيته ونسماته التي تبث الحياة.

هـ. الأخبار الغيبية المتعلقة بالأشخاص

لقد تحدث القرآن الكريم -ولو بالتعريض- عن عاقبة بعض الأشخاص، وحينما حان الموعد تحقّق ما أخبر به في حق هؤلاء الأشخاص تمامًا كما أخبر.

أجل، إذا كان القرآن قد حكم على شخص بأنه "كافر"، فمعنى ذلك أن هذا الشخص قد قضى عمره كلّه في الضلال، وإذا كان قال في حقِّ شخص: "إنه من أهل النار" فهذا يُبيّن أنه قد واصل حياته كلها على ذلك الخطّ وسار نحو عاقبته المشؤومة، فمن هؤلاء من لم يبقَ بينه وبين الإيمان

من المسافة إلا مقدار خطوة واحدة ولكنه انجرف بكبره وغروره وحبِّ المنصب وما أشبه ذلك، فاختار طريق الكفر والضلال ورحل عن هذه الدنيا على الشكل الذي أخبر به القرآن.

ويجدر أن نزيد الموضوع وضوحًا عن طريق بعض الأمثلة:

يذكر المفسرون أن من الأشخاص الذين تحدث عنهم القرآن الكريم الوليد بن المغيرة، فقد كان له عدد كبير من الأولاد بالإضافة إلى ما يملكه من المال والثروة، وكان قد تربى في طبقة أرستقراطية، وكان له نصيب من الأدب والمعرفة التي تتمتع بها تلك الطبقة؛ لذلك فقد كان يجيد فنّ الخطابة، ويَلقَى قبولًا في كل الأوساط.

وقد لقي الوليد بن المغيرة الرسول ﷺ في بدايات نزول الوحي وسمع منه القرآن، ولأنه كان ذا ذوق أدبي فقد تأثر بالقرآن تأثُّرًا كبيرًا أدرك من خلاله أنه ليس بكلام بشر.

نعم، إنه أدرك ذلك ولكنَّ كبره وغروره حَالَا بينه وبين الإسلام، ورغم أن هذا التعيسَ غُلب أمام كبره وغروره فقد أنصف القرآنَ في أول وهلة، حيث روي أنه قال:

"والله لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو وما يعلى عليه".

ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش: صبأ والله الوليدُ، وهو ريحانة قريش والله لتصبأن قريش كلهم، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فانطلق فقعد إلى جنب عمه الوليد حزينًا، فقال له الوليد: ما لي أراك حزينًا يا ابن أخي؟ فقال: وما يمنعني أن أحزن؟ وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ويزعمون أنك زينت كلام محمد وأنك تدخل على ابن أبي كبشة وابن قحافة لتنال من فضل طعامهم، فغضب الوليد وقال: ألم تعلم قريش أني مِن أكثرها مالًا وولدًا؟ وهل شبع محمد وأصحابه ليكون لهم فضل؟ قال أبو جهل: فقل فيه قولًا يبلُغ قومَك أنك منكر له أو أنك كاره له، فقام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم: تزعمون أن محمدًا مجنون، فهل رأيتموه يحنق قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه تكهَّن قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئًا من الكذب؟ قالوا: لا، فقالت قريش للوليد: فما

هو؟ فتفكر في نفسه ثم نظر وعبس فقال: ما هو إلا ساحر: أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، فهو ساحر، وما يقوله سحر يؤثر، فذلك قول الله في سورة المدثر: ﴿**إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ**﴾ (سورة الْمُدَّثِّر: 18/74-19)[73].

إن إصرارَ الإنسان وعنادَه في الكفر على الرغم من قربه من القرآن بهذه الدرجة وإدراكِه لمعناه ومحتواه وشعورِه بأنه كلام مقدس، يُعتبَر انحرافًا وكبرًا وظلمًا تجاه الحقيقة، مما جَعل القرآن يَعتبره في عِداد المحكوم عليهم بالإعدام الأبدي، فَرَسَم تصرفاتِه الكافرة والظالمةَ، وسوءَ عاقبته قائلًا:

﴿**إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ**﴾ (سورة الْمُدَّثِّر: 18/74-26).

ويمكن أن نفهم من هذه التعبيرات ما يلي:

1- إن هذا نوعٌ مختلف من السحر، يفوق تأثيره كافة أشكال السحر.

2- إن لسحر القرآن تأثيرًا على الإنسان لا تُدرَك ماهيته.

فيمكن أن يُفهم من هذه التعبيرات القابلة لتفسيرات مختلفة ما يلي: إن الوليد بن المغيرة رغم أنه يقول لمن حوله بأن القرآن سحرٌ، إلا أنه يعلم جيّدًا أنه ليس بسحر، ومن المحتمَل أنه بهذه التعبيرات أراد أن يقول، في معرض الحديث عن تأثير القرآن، إنه يؤثر في الناس مثل السحر، وليس هذا إلا إخبارًا عن واقع الأمر.

وهذا يشبه صنيع بعض الملحدين في عصرنا هذا، حيث إنهم يتغاضون عن تصرفات الله تعالى المذهلة في الكون، ويحاولون أن يسموا الكائنات والأحداث بأسماء فنية من منطلق علمي، وكأنهم يقومون بتفسير كل شيء عن طريق هذه التعريفات والتسميات. فمثلًا: إن كل ما في الكون من الكُتَل تتجاذب فيما بينها، وهذه الجاذبية تتناسب طرديًّا مع مقدار حجم الأجسام، وعكسيًّا مع

---

[73] الصالحي الشامي: **سبل الهدى والرشاد**، 354/2.

مربع ما بينها من المسافة، وبالتالي فإن الكتلة الأرضية والشمس تتجاذبان فيما بينهما، وبسبب هذه الجاذبية تدور الأرض حول الشمس وكأنها مقلاع، وتسمى هذه الظاهرة في لغة الفيزياء بـ"قانون جاذبية نيوتن".

فمثل هذه المقاربات لا تتعدى أن تكون تسمية لهذه الظاهرة، ومن البين أنه لا يمكن فهم هذه الظاهرة التي لم يتحقق الكشف عن ماهيّتها بحقّ، ولا يمكن إدراكها بمجرد وضع اسم لها، ولم يزل هناك من الظاهريين من انخدع بهذا الصنيع.

ولكن ما ينبغي فعله هو الإتيان بجواب معقول حول ذلك الخالق الذي أوجد قوة الجاذبية هذه من العدم، وإذا كانت هذه الجاذبية موجودة قبل أن يُخلق الإنسان بمليارات السنين، فهذا يعني أن الخالق لها ليس هو نيوتن أو أي إنسان آخر، إذًا الذي خلق الكون بما فيه قانون الجاذبية هو الله سلطان الأزل والأبد، وليست مهمة الإنسان إلا أن يكتشف هذا القانون ويفهمه ويستفيد منه.

أجل، إن الجاذبية هي أيضًا من ضمن القوانين التي خلقها الله وأودعها في الكون وإن الذي يجعل هذه الكرة الأرضية الجسيمة تدور حول الشمس وكأنها حجرٌ في مقلاع، هو أيضًا الذي ربط كل ما في الكون من أشياء وأحداث ببعض القوانين والمقررات والمبادئ حتى تجري الأمور في نظام وتناغم، فمثلًا: إن الكرة الأرضية، شأنها شأن سائر الكواكب، تدور حول الشمس مثل عقارب الساعة بل أدق منها، بشكل بيضاوي، فلو تخيّلنا أن هناك خيطًا يربط بين الأرض والشمس لوجدنا أنه يمسح مساحات متساوية أثناء حركتها بفواصل زمنية متساوية، وهذا هو قانون "كبلر".

وأيضًا فإننا حينما ننظر إلى الشمس في إطار هذه القوانين العامة نلاحظ أن الشمس كتلةٌ ناريّة هائلة درجة حرارة سطحها حوالي (6000) درجة بمقياس الحرارة على وجه الأرض، وأما أقسامها الداخلية فتفوق حرارتها خمسة عشر مليون درجة.. وهي تعمل بشكل دؤوب كمُفاعِل "هيدروجين-هليوم" عملاقٍ، فتجتمع فيها أربع ذرات من الهيدروجين لتتحول إلى ذرة هليوم واحدة، إلا أن أربع ذرات من الهيدروجين أثقل من ذرة هليوم واحدة ولذلك فيتحول ما زاد من المادة إلى طاقة، وهكذا ففي كل ثانية يتحوّل 564 طنًّا من الهيدروجين إلى 560 طنًّا من الهليوم،

وما زاد من 4 أطنان من المادة فهي تنتشر في الفضاء على شكل حرارة وَضَوء، وفي أثناء هذه العملية لا تلتقط الكرة الأرضية من هذه الطاقة المنتشرة إلا مقدار اثنين من المليار، علمًا بأنها لو التقطت ثلاثة بالمليار مثلًا لانقلبت الحياة على وجه الأرض رأسًا على عقب.

وإذا كان من الأمور المهمة اكتشافُ قانون الجاذبية العامة، ودورانِ الكرة الأرضية بشكل بيضاوي، وكونِ الشمس مُفاعل هيدروجين وهليوم، وربْط هذه الأمور بقواعد ومبادئ فيجب التركيز على أمر آخر وهو التعرف على الخالق الذي أوجد هذه القوانين من العدم، وجَعَلها ملائِمة لحياة الإنسان، وقدَّمها لخدمته، وإذا لم يُعرف ذلك فلن يكون الكون إلا عبارة عن الفوضى.

فقول الوليد بن المغيرة: ﴿**إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ**﴾ (سورة الْمُدَّثِّرِ: 24/74) هو إخبار عن واقع أكثر من كونه تفسيرًا للحقيقة، وإلا فلا مجال لتفسير ظاهرة القرآن بالسحر، وعلى الرغم من اقتراب الوليد من الحقيقة بشكل كبير، وإدراكه بأن القرآن ليس من كلام البشر؛ إلا أن كبره وغروره غلباه، شأنُه في ذلك شأن الذين يُسنِدون النواميس الجارية في الكون إلى الأسباب على الرغم من إدراكهم بأن الذي خلقها هو الله، فادعى أنه كلام البشر، فنكص على عقبه بعد أن لم يكن بينه وبين ساحل السلامة إلا خطوة واحدة، ولذلك قال الله فيه: ﴿**سَأُصْلِيهِ سَقَرَ**﴾ (سورة الْمُدَّثِّرِ: 26/74).

وإخبار القرآن في هذه الآية وأمثالها عن دخول أشخاص معينين النار يدل على أنهم بإرادتهم لن يؤمنوا.

وأود أن ألفت الأنظار هنا إلى أمر آخر: وهو أن كثيرًا من أمثال الوليد من الكفار المعاندين، عارضوا القرآن بل أعلنوا عليه الحرب، إلا أن القرآن لم يخبر بأن هؤلاء الكفار سيدخلون النار، فدخلوا في الإسلام واحدًا تلو الآخر، منهم أبو سفيان الذي كان في بدايات أمره من ألد أعداء الرسول ﷺ، ومنهم أيضًا خالد بن الوليد بن المغيرة، كما أن منهم أيضًا عمرو بن العاص الذي كان كثيرًا ما يُحرج المسلمين بما يتمتع به من الدهاء السياسي والدراية والخبرة والذكاء، أما الوليد بن المغيرة الذي أخبر عنه القرآن بأنه سيصلَى سقر، فلم يؤمن وظلَّ على كفره وضلاله إلى آخر لحظة من أيام عمره، وبذلك أصبح مصداقًا لما أنبأ به القرآن من الخبر الغيبي.

والسورة المتعلقة بأبي لهب وأم جميل هي أيضًا تحمل رسالة تنبئ عن سوء عاقبةٍ على غرار حال الوليد بن المغيرة، وتَعْرِض للأنظار وضْعَ هذين التعيسين، وقولُه تعالى: ﴿**سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ**﴾ (سورة المَسَد: 111/3-5) هو شهادة غيبية بشكل صريح في حق أبي لهب وأم جميل أنهما أيضًا لن يؤمنا طوال حياتهما وأنهما في نهاية المطاف سيدخلان النار.

وعلى الرغم من أن أبا لهب وزوجه كانا من أسرة قريبة من الجو النبوي الذي يبعث الحياة في النفوس، إلا أنهما كانا من الشقاء بحيث إنهما لم يستفيدا من مفخرة الإنسانية ﷺ، علاوة على أن ابنيهما عتبة وعتيبة اللذين كانا متزوجين بابنتيه تأثرا بوالديهما، وظلا يحملان تجاهه مشاعر عدائية، بل وصل الأمر إلى أن بلغت الوقاحة وقلة الأدب بعتيبة إلى أنه كلما اتسعت دائرة الذين يدخلون في الإسلام، -وبالأخص لما شعر بأن زوجه أسلمت- زاد وقاحة وسُعارًا، وأخيرًا أخذ بيد زوجه يجرّها إلى أن أتى إلى مجلس سيد الأنبياء ﷺ قائلًا له: ها هي ابنتُك، أنا أطلقها.. فقال له النبي ﷺ -برخصة من الله-: "**سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكَ كَلْبًا مِنْ كِلَابِهِ**"، وبذلك أشار إلى عاقبته الدنيوية، ولما سافر بعد مدة إلى اليمن ضمن قافلة، أقبل أسدٌ إلى القافلة وافترسَ عتبةَ من بين سائر الموجودين في الرَّكْب أثناء الاستراحة، وبذلك تحقّق ما أخبر به الرسول ﷺ، وأما عتبة فإنه قد نال سعادة الدخول في الإسلام بعد فتح مكة[74].

أجل، إن القرابة الجِبِلّيَّة، حتى مع الرسول لا تكفي للخلاص من العذاب الإلهي؛ إذ لو كانت كافية لنجا أبو لهب وزوجه، فأبو لهب كان عم الرسول، وما يدريكم فقد يكون احتضن النبيَّ ﷺ في صغره، كما أن أم جميل كانت زوج أبي لهب هذا، وهؤلاء رغم قرابتهم للرسول، لم يستفيدوا من تلك القرابة، لأنهم كانوا بعيدين عن الله فلم يهتدوا ولم يسلكوا سبيله الذي يؤدي بهم إلى النجاة.

---

[74] البيهقي: **دلائل النبوّة**، 457/1.

وأظن أن الأمر الملفت للنظر هنا هو أنه كان في ذلك الوقت كثير من الكافرين والظالمين الذين لم يألوا جهدًا في إيذاء الرسول ﷺ، إلا أن أبا لهب صار هو المقصود بالآية فلا بد أن يصيبه وعيد القرآن.

ويمكن أن نورد في تفصيل هذه الأفكار النقاط التالية:

1- إن عدم تفلُّت عم الرسول ﷺ بالذات من وعيد القرآن كان تأثيره أكبر لدى الرأي العام؛ لأن ذلك من شأنه أن يسد الباب أمام من يظن أن الرسول ﷺ يحابي أقرباءه، فيكونُ ذلك من باب التأكيد على أن جميع الكفار سواسية، وهذا يدل على أن سيد الأنبياء قد عُصم مما يؤدي إلى إثارة الشبهة حول الرسالة والوحي.

2- إن الله بيّن في سورة المسد بشكل صريح أن أبا لهب وزوجه سيدخلان النار، وهذا تحدٍّ من القرآن لهم، ففي تلك الفترة التي كان المسلمون ضعفاء من حيث الكمية وكان الكفار يمارسون الضغوط على المسلمين بكل ما يملكون من قوة، تحداهم القرآن على الرغم من أن ذلك قد يؤدي إلى مضاعفة غيظ الأعداء وكراهيتهم، إلا أن القرآن بارزهم وتحداهم بهذا الشكل، وذلك خير دليل على أنه ليس من كلام البشر، وأن الذي جاء ليُبَلِّغه واثقٌ من نفسه بأقصى درجة، وهذا أمر في غاية الأهمية بالنسبة لتلك الفترة الحرجة.

3- إنّ تعرُّض أقرباء الرسول ﷺ للوعيد، وتهديدهم بالعذاب الإلهي، والتصريحَ بأسمائهم يضاعف أهميةَ هذا الموضوع؛ لأن الرسول ﷺ كان قد بدأ بأقربائه امتثالًا لقوله تعالى: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: 214/26)، ذلك لأنهم كانوا أعرف الناس بطبائعه الأساسية وبتكوينه الروحي والقلبي، فقد نشأ بين أظهُرهم وترعرع على مرأى ومسمع منهم، فكانوا هم الذين أذاعوا للعالم مدى سموِّ أخلاقه، وفطرته المنفتحة على المعالي، وشخصيته البارزة في شجاعته وسماحته.

أجل، إنهم كانوا يعرفون جيّدًا سيدَ الأنبياء الذي لم يكذب قط في حياته، ولم يلتفت أبدًا إلى اللهو ولم يُعرف عنه سفاسف الأمور، واجتَنَبَ التصرفات التي تجرح مشاعر الآخرين، بل إنهم كانوا يفتخرون به.

فهذا الوضع كان يتطلب منهم أن يسارعوا إلى تلبية دعوته قبل سائر الناس، إلا أن أبا لهب وأبا جهل وأم جميل وكثيرًا من سائر أقربائه بذلوا كل ما يملكون من طاقة في سبيل الحيلولة دون خدمته للدين، وأيضًا كان مقابلَ هؤلاء من أقربائه من أمثال حمزة والعباس مَن عرفوا قدره ولم يتخلّوا عنه ولو قليلًا.

فالقرآن الكريم بالحديث عن أبي لهب في سورة "المسد" كأنه يقول لأبي لهب: "على الرغم من وجود نور إلهي يشع ويتلألأ بالقرب منك، إلا أنك تُغمضُ عينيك عنه بل تحاول إطفاءه، وتدير ظهرك لذلك المنبع الذي من شأنه أن يكون وسيلةَ هدايةٍ لكل الورى"، وبذلك يقدم القرآن لنا لوحة حية من شأنها أن تعلّم العالمين درسًا مفيدًا.

نعم، إن القرآن الكريم بقوله: ﴿**سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ**﴾ (سورة المَسَدِ: 3/111)؛ قد أخبر عن أبي لهب -وهو لا يزال على قيد الحياة- بأنه لن يؤمن، وفي نهاية المطاف سيدخل النار بسبب كفره وعدم إيمانه، وحينما حان الموعد وقع الأمر كما أخبر به القرآن تمامًا، ومات أبو لهب على الكفر والضلال.. وفي بعض الروايات أنه مات كمدًا؛ لما سمع بانهزام المشركين يوم بدر، وفي رواية أخرى: أنه كان هو وأبو سفيان على رأس بئر، وكان أبو سفيان يتحدث له عن بدر وكيف انهارت قوتهم المعنوية أمام المسلمين وتزلزلت أقدامهم، ويذكر له ما أبدى المسلمون أمامهم من البسالة والبطولة، وإذ هما يتحدثان فيما بينهما كان هناك مولى للعباس قد آمن من قبلُ، فإذا به يتحدث عن دعم الملائكة لجيش المسلمين ويقول: "والله إنها الملائكة تقاتل مع المؤمنين"، فاغتاظ لذلك أبو لهب فصفعه صفعة أسقطته على الأرض.

ولكن زوجة العباس لم تتحمل ذلك، فأخذت عصا كبيرة ثم ضربت به أبا لهب فشجت رأسه وقالت: "أتفعل هذا لمّا غاب سيده"، فمن المحتمل أنه لقي حتفه بما أصابه من نزيف في الدماغ من جراء تلك الضربة الشديدة، وقد أنتن جسده وتفسخ وفاحت منه رائحة كريهة فلم يستطع

الناس الاقتراب منه، حتى إن أولاده لم يهتموا به مما جعل الناس يربطون رجله بحبل ويسحبونه ليرموه في حفرة[75].

وحينما كان القرآن يتحدّث عن هذه العاقبة الوخيمة لأبي لهب لم تكن تبدو في الأفق أية علامات تدل على ذلك؛ فقد مات أبو لهب بعد نزول هذه الآية بحوالي عشر سنوات وقلبُه ممتلِئٌ بالكفر والحنق والغيظ والحسد تجاه انتصار المسلمين وهزيمة المشركين في بدر، فصار موتُه كما أخبر به القرآن من العلامات التي تؤيد أنه كلام الله.

وهناك أناس يحسب الناظر إلى واقع حالهم أنهم سيموتون على الكفر، ولكنهم في أواخر أعمارهم يصبحون من خُلَّص المؤمنين.

أجل، إنه ليس للإنسان أن يطّلع على الغيب، وليس لأحد أن يخبر عن شيء إلا أن يشاء الله إخباره بذلك، وبالأخص الأخبار التي يلقيها ويجازف بها أصحابها رجمًا بالغيب ثم لا تأتي لهم إلا بالخزي والعار في نهاية المطاف، أما النبي ﷺ فإن الله تعالى أحسن إليه فأيد رسالته بمثل هذه الأخبار الغيبية، بحيث إنه كلما تحققت الأمور التي أخبر بها أصبح الناس -وعلى رأسهم الذين كانوا يسخرون منه- ينبهرون واجمين أمام صدقها.

و. أنواع متفرقة من المعجزات والأخبار

1- إن الله تعالى هو الذي خلق كل شيء

والأخبار الغيبية هي من الأمور التي تفوق طاقة البشر وقدرته، ومن غير المتصور أن يصل الإنسان إليها بعلمه ومعرفته، وبعقله ومنطقه وإدراكه؛ لأن هذه الأمور من المعجزات، والمعجز مشتق من العجز، فهو بمعنى: الأمر الذي يُعجز الآخرين.

---

[75] انظر: البزار: **المسند**، 18/6.

والمعجزة في الاصطلاح الإسلامي: هي أمر خارق للعادة يعجز عنها الناس، يخلقها الله تعالى ويجريها على أيدي الأنبياء لتكون دليلًا على صدق نبوتهم وهذا الأمر الذي يعجز عنه كلّ أحد سوى الله هو في الوقت نفسه يقوي إيمان المؤمنين ويُفحم الكافرين.

ولا يستطيع الإنسان أن يخلق شيئًا من العدم، وليس له إلا أن يقوم باكتشاف العناصر الموجودة ويُجري عليها بحوثًا وتراكيب ويحصلَ على معلومات حولها، فلن يرقى شيء مما يحدثه الإنسان ويكشفه إلى مستوى المعجزة مهما كان أمرًا بديعًا، فالمعجزة أمر خارق يخص اللهَ تعالى، ومن ميزاتها أنها تقترن بدعوى النبوة.

فالقرآن الكريم يشير إلى هذا بقوله: ﴿**وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾ (سورة الشُورَى: 31/42).. فإذا تناولنا الآية بالمعنى اللازمي تَبَدّتْ لنا الإشارة التالية:

إنكم لن تستطيعوا أن تأتوا بمعجزة على وجه الأرض، ولن تطيقوا أن تعملوا شيئًا خارج إرادة الله، فقد تتقدّمون في العلوم، وتنجحون في شتى مجالات التكنولوجيا، وتكتشفون معلومات مهمّة للغاية، فمثلًا:

تقومون بتحليلات وتركيبات مختلفة في مجال الكيمياء، وقد تعالجون العناصر الموجودة وتُنشِئون منها أشياء مختلفة، فتصنعون في المختبرات عناصر مركّبة جديدة، وقد تكتشفون أصغر اللبنات الأساسية للمادة من الذرة وما تحتوي عليها من الجزيئات من أمثال الإلكترونات والبروتونات والنترونات، وتكتشفون أن الإلكترونات تدور حول نواة الذرة التي تتشكل من البروتون والنترون بسرعة 100-1500 كم في الثانية، وتكتشفون الكواركات[76] التي يتشكّل ويتكون منها البروتون والنترون.

[76] **الكوارك**: هو جسيم أولي وأحد المكونين الأساسيين للمادة في نظرية النموذج القياسي لفيزياء الجسيمات -والمكون الآخر حسب هذه النظرية هو الليبتونات- ولها كتلة ولكن أبعادها صفرية، تتم مشاهدتها عند حدوث تصادم شديد بين البروتون والإلكترون، وقد أطلق "موري جيلمان" هذا الاسم على الكوارك، ومنها ستة أنواع.. وللكواركات جسيمات مضادة مثل بقية الجسيمات الأولية تدعى "كواركات مضادة"، حيث تتميز الكواركات والكواركات المضادة بأنها الجسيمات الوحيدة التي تتآثر مع بعضها باستخدام القوى الأربع الرئيسة الموجودة في الطبيعة.. تشكل الكواركات معظم الجزء الداخلي للمادة، وهي مترابطة مع بعضها بقوى شديدة. **(الناشر)**

كما أنكم قد تَشْطُرون الذرّة فتصنعون القنابل الذرّية، لتحصلوا من انشطار كيلوجرام من نواة اليورانيوم على طاقة تعادل ما ينتجه 2500 طن من فحم الكوك من الطاقة، وقد تكتشفون تركيبات جديدة للهيدروجين فتصنعون القنبلة الهيدروجينية ذات التدمير الهائل، ولكن لن يكون كل ما تفعلونه من هذا القبيل معجزة قطعًا؛ فكما أن المكتشف لقارة أمريكا لن يَعدُوَ أن يكون مكتشفًا فحسب، فكذلك أنتم.

فالخالق للذرة في حقيقة الأمر هو الله، وبيده مقاليد السماوات والأرض، وانفتاحُ كل شيء وانقباضُه وتشكُّله بشتى الأشكال إنما هو بمشيئته وإرادته، وهو الذي يأخذه، بيده كلُّ شيءٍ بدءًا من قلب الإنسان وانتهاء بأقصى الأجرام السماوية، ويؤسّس دائمًا بين هذين العالمين شتى أنواع العلاقات، والذي يتحكّم بالذرات والجزيئات إنما هو برنامجه الذي وضعه فيها، وهو الذي يكتب الديمومة لذلك البرنامج أيضًا، وبالتالي فإن ما تقومون به لا يعدو أن يكون مجرّد اكتشاف لما هو موجود حقيقةً، فليس من الوارد الحديثُ عن إتيانكم بأمر معجز، والله هو الذي يأتي بالمعجزات، وإذا كان الأمر متعلّقًا بدعوى النبوة فالوسائل فيها هم الأنبياء.

ففي قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾ (سورة الشُّورَى: 31/42)، ورد ذكر "الأرض" فقط، وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾ (سورة العَنْكَبوت: 22/29) يذكر السماء أيضًا مما يعني أن الإعجاز لن يكون لا في الأرض ولا في السماء.

وقد ورد في بعض آيات القرآن الكريم ما يشير إلى الصعود -ولو نوعًا ما- إلى السماوات، وفي ذلك إيماءٌ إلى أن بني البشر سيصعدون يومًا ما -ولو في حدود معينة- إلى بعض طبقات السماء، ولكن هذا النوع من الإنجاز ليس من الأمور الخارقة للعادة؛ فإن من يريد الصعود إلى السماوات فعليه أن يأخذ بعين الاعتبار ما وضعه الله من قوانين الكتلة والوزن والسرعة والجاذبية الأرضية، ولن يكون ما يحققه الإنسان في هذا من باب الإعجاز بل غاية ما يقوم به هو الاستفادة مما خلقه الله من الغلاف الجوي وعلم الرياضيات وتقليد بعض الأجسام والنماذج.

وأيضًا يمكن أن نستفيد من الآيتين ما يلي:

أ- كل شيء يعتمد على بعض النواميس، ولكن ليس للانسان في هذه النقطة مجال للتدخّل، وليس له أن يضع بعض النواميس التي يتدخل من خلالها في جوهر الأشياء وأساسها وماهيتها؛ فإن الله هو -وحده- الذي يمتلك حقَّ وضعِ القواعد والمبادئ الأساسية في هذا الباب.

ب- وعلاوة على ذلك فهاتان الآيتان تخاطبان إنسان عصرنا قائلتين: "إنكم بما حقّقتم في هذا العصر من النجاحات المتعاقبة أصبحتم تعتقدون بأنكم تستطيعون أن تعملوا كل شيء، وقد تُوغِلون في الوقاحة وتعلنون كفركم وضلالكم إذا نجحتم غدًا في السماوات، ولكن مهما عملتم فإن عليكم أن تعلموا جيدًا أنكم لن تبلغوا أي مدى تُعجزون الله فيه، بل على العكس ستظلّون عاجزين أمام إجراءاته الإعجازية، ومصنوعاته الخارقة، وترجعون إليه طوعًا أو كرهًا"، وهذا يشير إلى أن طريق العلم سيظلّ مفتوحًا أمام البشر، وفي الوقت نفسه ستكون هناك وقاحات أيضًا.

إن العلم قد تقدَّم وسيتقدّم، والإنجازات التكنولوجية تعاقبت وستتعاقب، ولكن كل الأمور ظلت تجري منذ البداية في إطار القوانين التي وضعها الله، فليس هناك أيُّ تَخَطٍّ للنواميس الإلهية ولا إعجازٌ بشريٌّ، صحيحٌ أن رجال العلم قدموا للإنسانية كثيرًا من الأمور البديعة، ولكن لا شيء منها من قبيل المعجزات، بل إن كلّ الأمور جرت في إطار القوانين التي أودعها الله في الكون، ولم يحصل أي تخطٍّ لمشيئتِه وإرادته.

ولم تكن في الفترة التي نزل فيها القرآن دراسات حول الفضاء على غرار ما في وقتنا الحاضر، ولكن القرآن في سياق حديثه عن المقاصد العامة كان يشير بلفتات إلى الصعود إلى الفضاء، ولكن بمرور الأيام تطوّرت الأوضاع وتقدم العلم في تكنولوجيا الفضاء بشكل مطابق للبيان القرآني، وعلى الأقل كان في ثنايا تلك التعبيرات القرآنية إيماءات إلى ما في أيامنا من التطورات.

والقرآن الكريم، حين يُذكِّر الإنسان بضعفه وعجزه في الأرض والسماء، ويلفت النظر إلى أن ما يكتشفه ويحققه من الأمور إنما هي أمور عادية في حقيقتها وإن كانت تبدو في ظاهرها خارقة.. نلاحظ أنه يومئ إلى أنه سيصعد يومًا ما إلى السماوات ولو بشقّ الأنفس، ولو لم يكن هناك مثل

هذه الإيماءات لما كان لذكر السماوات في قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ**﴾ (سورة العَنْكَبوتِ: 22/29) وجهٌ، وقوله "معجزين"

أي لن تعجزوا الله، أو لن تأتوا بمعجزة.

ولكن الوصول إلى ما يمكن الوصول إليه من آفاق السماء لن يتأتى إلا في إطار القوانين التي وضعها الله، وبقوته وضمن حاكميته.. فقوله تعالى: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ**﴾ (سورة الرَّحْمَنِ: 33/55) يشير إلى أن هناك عقباتٍ عديدة تحول دون الوصول إلى هذا الهدف من انعدام الأوكسجين، والجاذبية الأرضية، والاحتكاك وسائر الأحداث الكونية، وليس من الممكن تخطي هذه العقبات إلا بمقدار معرفة القوانين التي وضعها الله والاستفادة منها، وإذا كان النجاح عن طريق هذه القوانين فلا معنى لتسميته معجزة، ومن الممكن التركيز هنا على بعض التفاصيل التي أدلى بها المؤولون المحدثون ولكننا سنكتفي بما قلناه.

2- وسائل المواصلات

وفي هذا المجال يقدم القرآن الكريم بشكل معجز بطريق الإشارة أو الإيماء لكل الأجيال المتعاقبة من لدن العهد النبوي إلى قيام الساعة أخبارًا تتخطّى حدود آفاق علوم الإنسان من كل العصور، ومن تلك الآيات التي تحتوي على هذا النوع من الأخبار قوله تعالى: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ أي من وسائط النقل والركوب.

وبالنظر إلى الفترة التي أنزل فيها القرآن فإن ما كان يركبه الناس آنذاك إنما كان عبارة عن الخيل والبغال والحمير والإبل ونحو ذلك كما ورد في الآية.. وكذلك كان الوضع في سائر أنحاء العالم، وكان الناسُ يسافرون عليها وعليها تسير القوافل وتُنقَل السلع التجارية، كما أنها كانت من الأمور البارزة في باب الزينة، فقد كان الناس يستخدمونها وسائل للترفيه والمتعة.

فالآية الكريمة بعد تعداد وسائل الركوب والزينة هذه، تقول: ﴿**وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ إشارة إلى ما سيخلقه في المستقبل من وسائط النقل والركوب، و"الخلق" من الأمور التي تختص بالباري

ﷻ، وإن كان هناك من يستعمله في عصرنا في الإسناد إلى الإنسان، ولكن الخلق هو الإيجاد من العدم ولا يستطيع تحقيق ذلك إلا الله، فما يصنعه الإنسان ليس من قبيل الأمور التي توجد من العدم، وإنما هو إنشاء مما هو موجود، وحتى ذلك لن يتحقق إلا بإذن من الله.. ولنرجع إلى ما كنا بصدد الحديث عنه في قوله تعالى:

﴿**وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ فهو إشارة إلى ما تم تحقيقه وإنشاؤُه عن طريق ما يتمتع به الإنسان من العلوم والمعارف وما حباه الله تعالى من القدرات والإمكانات، ومن الوسائط العديدة التي تم إنشاؤها للركوب والنقل في البر والبحر والجو، بل إن هذا الأمر لن ينحصر فيما تم تحقيقه في أيامنا هذه، فمن يدري لعل الله تعالى يرزق الأجيال القادمة أنواعًا شتى من وسائل السياحة والتنقل في قابل الأيام.

وأيضًا فهذه الآيةُ الكريمة تثير همم العلماء وتحفّز عزائمهم وتُوجّه عشاق العلم نحو البحث العلمي، كما أنها تشير وتنبه إلى اكتشاف وسائط غير معلومة في هذا المجال انطلاقًا مما هو متاح وموجود، وهذه وأمثالها من الآيات تشجع المسلمين دائمًا على العمل وتُوجّههم إلى الانطلاق نحو آفاق جديدة، ولكن الواقع المرير هو أن المسلمين يعيشون في القرون الأخيرة حالةً خطيرةً من الكسل والجمود الفكري، فبدلًا من أن تَهيج أشواقُهم بسبب الإشارات القرآنية الصريحة، وتنهضَ عزائمُهم تجاه ذلك الكم الهائل من الأبواب التي انفتحت عبر الأشياء والحوادث، ويزيدَ ذلك فيهم احترامًا للقرآن والحقيقةِ، بدلًا من ذلك إذا هم يعيشون هذا الحال من الخمول الروحي والقلبي والعقلي.

ونأمل أن يتحقّق رجاؤنا في قابل الأيام، وأن ينشأ جيلٌ جديدٌ يهتمّ بالقرآن، ويؤمنُ بضرورة تحقيق هذا الأمر، حتى ينقذَنا مما وقعنا فيه من الكسل الفكري والعمى عن الحقيقة، ويدلَّنا على سبل تحقيق ذواتنا.

ومن المعلوم أنه يتم الصعود في عصرنا نحو السماء بوسائل معينة، ويمكن أن يكون في الآية ما يدل -ربما بطريق الإشارة- إلى أن الصعود كما يكون بالواسطة فقد يكون بدون وسيلة، ومن

المحتمل أنه إذا تقدّم العِلم والتقنيّات يوفَّق العلماء لإنجاز ذلك، ويتأكد لهم أن الله نعمًا أخرى من هذا النوع، وأيضًا فالآية الكريمة تخاطب على وجه الخصوص أولئك الذين يجتهدون ويُعملون عقولهم لتبعث فيهم الأمل والفضول.

والآية التالية التي سنعرضها -مع العلم بأن الله تعالى أعلم بمراده- تشير إلى أن هناك وسائط أخرى ستصنَّع، وتضع أمام عشاق البحث أهدافًا جديدة وتعطيهم إحداثياتٍ جديدةً للوصول إلى تلك الأهداف: ﴿**وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۞ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ**﴾ (سورة يس: 36/41-42).

أجل، إنه لا شك في أن من نعم الله تعالى التي حباها الإنسان هي السفن التي يسافر عليها في البحر، ولم تكن أثناء نزول الآية من أنواع السفن إلا سفن بدائيّة للغاية تَشقّ طريقَها حسب هبوب الريح أو تُحرَّك بالمجاديف، ومع أن سياق الآية هو تعداد النعم، إلا أن ذلك لا يمنع بتاتًا من أن نستنبط من قوله تعالى: ﴿**وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ**﴾ (سورة يس: 36/42) ما سيُصنَّع في المستقبل من الباخرات والسفن العابرة للقارات والعبّارات والغواصات والسفنِ التي تعمل بالكهرباء أو الطاقة النووية والشمسية.

وكان جُلُّ ما عسى أن يتصوره المسلمون في ذلك الوقت هو السفن ذات الأشرعة، ولكنهم ما كان لهم بتاتًا أن يتصوّروا السفن التي تعمل بالبخار أو بالمحركات أو يتخيلوا السفن العابرة للقارات.. فقوله تعالى: ﴿**وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ**﴾ (سورة يس: 36/42) أرشد رجالَ العلم ووجههم وفتح آفاقًا جديدة أمام ذوي الاستعداد الذين يريدون اختراع وسائط جديدة، وحينما حان الأوان إذا بنا أمام وسائل جديدة في مجال النقل تأخذ مكان القديمة ويتحقق ما تشير الآية إليه، واحدًا تلو الآخر.

ولسنا ندري ماذا سيخترع بنو الإنسان في قابل الزمان من وسائل النقل، ولكن هناك حقيقة ندركها وهي أن المجال ما يزال مفتوحًا أمامهم، حسب ما يشير إليه القرآن الكريم، وهناك الكثير

مما يتخيله الإنسان ويعمل عليه سيتم تحقيقه إذا آن الأوان، وذلك على حسب ما تسمح به الظروف، ولعله سيكون لمفسّري عصرنا الحديث في هذا المجال تفسيرات جديدة.

3- سيتحقق في المستقبل الدخول في دين الله أفواجًا

ومن الأخبار الغيبية القرآنية بشارته بأن الناس سيدخلون في دين الله أفواجًا.

أجل، إن القرآن الكريم قد ذكر في قوله: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾ (سورة النَّصر: 110/1-3) بأن هذه البشارة العظيمة ستتحقّق في وقت قريب، ولم تكن وقتَ نزول هذه البشارة التي بثّت الفرح في نفوس المؤمنين أيَّة أمارات تبعث الأمل في النصر، ولكن حينما آن الأوان تحقّقت هذه البشارة بفتح مكة، وتتابعَ الناسُ من أهل حنين وقبائلِ هوازن والطائف ونجد يدخلون في الإسلام مصداقًا لهذه البشارة.

وكانت مكة أمَّ القرى، وكان الناس قبل الفتح أيضًا يأتون إلى الكعبة من كل فجّ ويعظّمون الأصنام التي حول الكعبة، ولما أسلم أهل أم القرى بعد الفتح أخذت القبائل تَفِدُ إلى الرسول ﷺ معلنة الإسلام في مجلسه المبارك، فكان هذا الفتح، في الوقت نفسه، فتحًا للقلوب أجمع، بحيث إنه ﷺ لما أخذ طريقه إلى حجّة الوداع كان محاطًا بآلاف من صحابته المخلصين، وكان هذا تحقيقًا لتلك البشارة التي وردت قبل سنين.

ومن جانب آخر كانت هذه الآيات، بالنسبة لمن فَهِمَ مغزاها إلى جانب إخبارها عن انتشار الإسلام وشيوعه؛ إخبارًا بوفاة الرسول الأكرم ﷺ، حيث روي في هذه الشأن عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال:

"كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وَجد في نفسه فقال: لِمَ تُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعاني ذات ليلة فأدخلني معهم، فما رئيتُ أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿**إِذَا جَاء نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ**﴾ فقال بعضهم: أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصرنا وفُتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجلُ رسول الله ﷺ أَعْلَمَه له قال: ﴿**إِذَا جَاء نَصْرُ**

اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ وذلك علامة أجَلك **﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾** فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول[77]. أجل، إن هذه الآية تقول للرسول ﷺ: إذا جاء نصر الله والفتح فهذا يعني أن مهمتك قد انتهت، فلذا عليك أن تسبّح بحمد ربك وتستغفرَه إنه كان توابًا.

فبعد صدور هذا الجواب من ابن عباس فهِمَ الحاضرون هناك السببَ من وراء اهتمام سيدنا عمر بابن عباس ﵄، وسكتوا.

أجل، فقد تحقق هذا الخبر الغيبي الذي أخبر به القرآن المعجزُ البيانِ طبقًا لما أخبر به، والتحقَ سيّد الأنبياء بالرفيق الأعلى ولسانُه يلهج بطلب العفو والمغفرة ليفتح بذلك الطرقَ المؤدية إليهما.

4- فتح بيت المقدس

إن هذه الآيات التي مرّت بنا والتي تَعرَّضْنا لمعناها سريعًا كانت في مجملها متعلقة بالأخبار المستقبلية التي تُعتبَر جانبًا من جوانب الإعجاز في القرآن الكريم، والمقام لا يتّسع لسرد جميع الآيات المتعلقة بالأخبار الغيبية؛ فلذا لن نوردها جميعها؛ لأن الآيات التي تتعلق بالأخبار الغيبية أكثر من مائة وخمسين آية، إضافة إلى أننا ذكرنا الآيات التي تدل على ذلك صراحة فقط، ولم نتطرق إلى الآيات التي تدل على تلك الأمور بطريق الإشارة، وقد وقف المفسّرون طويلًا في تفسيراتهم الإشارية عند هذه الآيات واستخرجوا منها كمًّا هائلًا من جواهر الحقائق، وألّفوا فيها عددًا كبيرًا من الكتب.

واستنبطوا بهذه الطريقة من القرآن فَتْحَ القسطنطنية[78] وإعادةَ فتحِ المسلمين لبيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي بعد احتلالها واستباحتها من طرف الصليبيين، بل ذهبوا إلى أبعدَ من ذلك فذكروا تواريخ هذه الأحداث، ولتوضيح ذلك لا بد من مثال حول الموضوع:

---

[77] **صحيح البخاري**، المناقب، 25.

[78] وفقًا لِحِسَابِ الحروفِ الهجائية التي يقيسُ بها البعضُ فإنَّ نتيجةَ جمعِ رموز الحروف العددية لِكلمة "بلدة طيبة" هي تاريخ فتح إسطنبول، وذلك أن ما يُعادل الحروف من الأرقام الرمزية في ميزان الحساب الهجائي هو على النحو التالي بالنسبة لعبارة "بلدة طيبة": فالباء ترمز إلى الرقم 2، واللام إلى 30، والدال إلى 4، والتاء إلى 400، والطاء إلى 9، والياء إلى 10، والباء إلى 2، والتاء إلى 400، وإذا جمعنا هذه الأرقام فإن المجموعُ هو: (857)، وهو العام الهجري الذي فُتِحَت فيه إسطنبول. (انظر: فتح الله كولن: جيلنا وإشكالاته العصرية، من سلسلة أسئلة العصر المحيّرة، دار النيل، القاهرة (2016م) ص 202)

إن احتلال القدس الشريف واستباحته من قبل الصليبيين قد جرح مشاعر المسلمين جرحًا غائرًا.. ففي هذه الحالة التي كان المسلمون في جميع أنحاء العالم الإسلامي يُعانون من غمٍّ شديد كان من بين أَتَابِكَةِ السلجوقيين الذين يعتز بهم المسلمون شخصٌ يُدْعى "نور الدين زنكي"، وكان المسلمون قد عقدوا فيه الأمل، وهو بدوره لم يخيّب رجاءهم فيه فحقق عديدًا من الإنجازات، فهذا الرجل صاحبُ الأفق الواسع كان قد استصنع قبل إعادة فتح بيت المقدس بخمسة وعشرين عامًا منبرًا على حسب مقاسات المسجد الأقصى، وكان كلما مرّ بالمنبر يمتلئ ويفيض بمشاعر ممزوجة من الغم والفرح على أمل أنه سيضع هذا المنبر في مكانه بالأقصى المبارك.

وكلما سأله الناس عن سبب استصناعه لهذا المنبر كان يردُّ قائلًا: "إنما استصنعته للأقصى".. وحينما قالوا له: فكيف سيتحقّق هذا والأقصى بيد الصليبيين؟ ردّ قائلًا: إنني رأيت في بعضِ الحواشي والتعليقات الفرعية على تفسير "ابن برجان اللخمي الإشبيلي" أثناء تفسيره لسورة الروم ما مفاده: أن الصليبيين سينهزمون وسيعود القدسُ مرة أخرى للمسلمين، فقد رأيتُ هذا مضبوطًا بتاريخٍ محدّد، وأَمامنا خمسة وعشرون عامًا لحلول ذلك التاريخ، فإن عشتُ خمسة وعشرين عامًا أخرى فسأضع هذا المنبر في موضعه هناك[79]، لكن نور الدين زنكي توفي قبل ذلك الموعد، وحقق الله شرفَ فتح بيت المقدس لصلاح الدين الأيوبي الذي تربى على يد نور الدين، ووضعِ المنبر في المسجد الأقصى.

أجل، إن ابن برجان قد استنبط من معاني القرآن الإشارية فتْحَ القدس وبشَّر به قبل أن يقع بيد صلاح الدين بسنين عديدة.

وهناك خبر آخر يورده ابن جرير الطبري عند تفسيره لسورة الشورى، ومعلوم أن تفسيره "جامع البيان" من التفاسير التي جَمعت بين التفسير بالرواية والتفسير بالدراية، وإلى جانب ذلك يهتم كثيرًا

---

[79] ابن كثير: **البداية والنهاية**، 69/13.

بالمعاني الإشارية، فيَروي ابن جرير في هذا التفسير الذي حرّره قبل أيامنا هذه بحوالي ألف ومائة عام عند تفسيره لـ﴿حم ۞ عسق﴾ (سورة الشُّورَى: 42/1-2) بسنده إلى أرطاة بن المنذر قال:

جاء رجل إلى ابن عباس فقال له وعنده حُذيفة بن اليمان: أخبِرني عن تفسير قول الله: ﴿حم ۞ عسق﴾، قال: فأطرق ثم أعرض عنه، ثم كرّر مقالته فأعرض فلم يجبه بشيء وكره مقالته، ثم كرّرها الثالثة فلم يجبه شيئًا، فقال له حُذيفة: أنا أنبئك بها، قد عرفتُ بم كرهها؛ نزلت في رجل من أهل بيته يقال له عبد الإله أو عبد الله، ينزل على نهر من أنهار المشرق، تُبنَى عليه مدينتان يَشقّ النهرُ بينهما شقًا، فإذا أذن الله في زوال مُلكهم وانقطاع دولتهم ومدّتهم بعث الله على إحداهما نارًا في ظلمة الليل فتصبح سوداء مظلمة

قد احترقت كأنها لم تكن مكانها، وتصبح صاحبتها متعجبة، كيف أفلتت، فما هو إلا بياض يومها ذلك حتى يجتمع فيها كلّ جبار عنيد منهم، ثم يخسف الله بها وبهم جميعًا، فذلك قوله: ﴿حم ۞ عسق﴾ يعني: عزيمة من الله وفتنة وقضاء، حم، عين: يعني عدلًا منه، سين: يعني سيكون، وقاف: يعني واقعًا بهاتين المدينتين[80].

ومن الغريب أنه لما حصل الانقلاب في سنة (1958م) بالعراق قُتل عبد الإله الذي كان من أحفاد ابن عباس من قِبل البغاة، وتَحقَّق ما أخبر به القرآن بطريق إشاريٍ قبل ذلك بقرون.. فتحقّق مصداق هذا الخبر الذي جاء قبل ألفٍ وثلاثمائة عام لهو من الأمور التي تَفُوق حدود آفاق علم البشر.

والعلماء من أمثال محيي الدين بن عربي والقشيري ممن لهم بعض الإلمام بعلم الحروف قد اهتموا بهذا الجانب من القرآن، فتحدثوا عن أمور كثيرة بدت لهم عن طريق الرمز والإشارة، ولا ننكر أن هناك من بالغوا في الأمر وأخرجوه عن حدوده الطبيعية فأغرقوا في رمزية الحروف، لكن هناك بالمقابل من جانبوا الإفراط والتفريط واتخذوا طريقًا وسطًا فاستخدموا هذه المعطيات

---

[80] الطبري: **جامع البيان في تأويل القرآن**، 497/21.

ليتوصلوا عبرها إلى أسرارٍ تُلقي الضوء على أمور ربما ستتحقق بعد عصور، وحقًّا حينما آن الأوان إذا بتلك التنبؤات تتحقّق وتظهر للوجود، فمثل هذه الأمور إما هي من قبيل الرموز والإشارات التي أتى بها القرآن أو هي عبارة عن أطياف نورانية وإشعاعات قرآنية تجلت وانعكست في الآفاق المعنوية لتلاميذ القرآن هؤلاء.

والأمثلة كثيرة في هذا الباب ولكن المقام يضيق عن ذكرها.

وكما يُفهم من الأمثلة المذكورة بشكل صريح فإن القرآن الكريم ليس من كلام البشر بتاتًا، بل هو بيان معجز جاء من الله الذي يعلم الماضي والمستقبل بكلّ تفاصيلهما.

الفصل السابع
الحقائق والتطورات العلمية
في القرآن الكريم

أ. النظرة القرآنية الواسعة

إن الإنسان إذا تتبع القرآن آيةً آيةً فسيرى أن فيه إشارة إلى العديد من الحقائق العلمية على نطاق واسعٍ بدءًا من أعمق الأفكار والأحاسيس في الإنسان، مرورًا بأعظم الأنظمة والمجرات الكونية، وصولًا إلى عالم المثال والعوالم الغيبية.

فكما أن هذا الكتاب يتناول الإنسان ويفسره بميوله القلبية والروحية ومشاعره الظاهرة والخفية، فهو في الوقت ذاته يتحدث عن أوسع دوائر الكون وأبعد زواياها؛ فيلفت الأنظار في آن واحد من الكون إلى الإنسان، ومن الإنسان إلى طبقات الكون، فتارة يَفتح ذلك الكتاب الكبير أمام أنظار من يقرؤونه، وتارة أخرى يكثِّف الأنظار بتجلٍّ أَحَدِيٍّ على الإنسان.

ففي حين نراه يتحدث من خلال بعض آياته عن لدنيات الإنسان، إذا بنا نراه يشرع في الحديث عن السُّدُم والمنظومة الشمسية، فيتجول بنا في آفاق عالم المجرات، فهذا أسلوب يخصه هو، وهو بأسلوبه هذا يَلفت النظر إلى الكون جملة واحدة، فيُرينا كيف تتجلى الإرادة الكلية والقدرة الإلهية في الدائرة الواسعة والضيقة في آن واحد، وإليك مثالًا على ذلك من القرآن الكريم:

يقول الحق ﷻ: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ (سورة فُصِّلَتْ: 53/41).

إن الحق تعالى سيُري آياته للناس في الآفاق والأنفس واحدةً تلو الأخرى وعلى هيئة مجموعات متتالية حتى يذعن السوادُ الأعظم ويقر: بـ"أنه الحق"؛ وهذا القرآن "حقٌّ" جاء من "الحقِّ" ﷻ ونشَرَ الحقيقة وصار ترجمانًا للكون والوجود.

إن هذه الآية تشمل كثيرًا من الحقائق المتعلّقة بالإنسان والكون، وتُبشّر بأن الأعوام القادمة ستكون أعوام القرآن، كما أنها تشير إلى حقيقةٍ أن أعماق الكون سيتمّ سبرها إلى حدٍ ما بفضل الأدوات التقنية التي يصنعها البشر، كما أنها تؤكد في الوقت نفسه على

أن الإنسان سيقطع شوطًا كبيرًا في سبر أعماقه الداخلية.

أجل، بفضل الإمكانات التي تتيحها التكنولوجيا المستمرة في التطوّر، تَوجَّه الإنسانُ إلى ذاته مرة أخرى، ووضَعَ نفسه على منصة التشريح ليعيد تفسير جوهره ويكتشفه، وبدأ بتفسير ذاته وتقويمها مرة أخرى في ضوء العلوم الحديثة؛ كالفيزياء والكيمياء والفلك والطب والهندسة بل وعلمِ النفس والتربية، وبذلك يكون قد بدأ بالدخول في تلك المرحلة التي أشار إليها القرآن الكريم.. ونستطيع القول: إن الجميع سيتفق على أنه الحق في النهاية.

والقرآن هو وحده الذي يعرِّف الإنسان بما يبث في قارئه من عشق الحقيقة والشوق إلى العلم والتوق إلى البحث، من دون أن يقطع علاقته بالكون، ومن دون أن يقطع صلة الكون بالله، ومع المحافظة على موقع الإنسان في الكون، ففي القرآن يجري الحديث عن الكون بالتزامن مع الحديث عن الإنسان، ويتم تحليل القلب في الموضع الذي يرِد فيه شرحُ الأوضاع العامة للمنظومة الشمسية والمجموعاتِ النجمية، ويدور القول حول لدنيات الإنسان بالتوازي مع لفت النظر إلى أعماق الكون.. وبذلك تتجلى فكرة التوحيد.

وستُواصل العلومُ سيرَها نحو التقدم بعد يومنا هذا أيضًا، وعلى قدر انكشاف العلوم سيتعمق فكر الإنسان؛ فمن جانبٍ ستنكشف المجاهيل في العالم المجهري تحت أضواء المجهر الإلكتروني وشعاعاتِ إكس، في حين أنه ستتم محاولة الاطلاع بأنواع المناظير العملاقة على كل صغيرة وكبيرة في أوسع دوائر الكون الكبير إلى أبعد حدّ يمكن التوصل إليه.. وهكذا فسيتم وضع كثير من الموجودات الأخرى غير الإنسان في دائرة البحث والدراسة، بحيث يَخضع كل شيء للتجربة والمشاهدة.. فحيثما تصل البشرية في نهاية المطاف فستسمع كلَّ شيء ينادي بلسان الحال أو المقال أنْ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ".

فالقرآن يتحدث عن هذه الحقيقة على أنها بيان لـ"صاحب القرآن" الذي أوجد الكونَ بقدرته وإرادته، وهو القائل في كلامه العزيز: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ (سورة فُصِّلَتْ: 53/41)، أي إن القرآن يحملُ دلالات وبشائر ووعود ربانيّة عديدة.

وقد كان الخطاب في الآية وقتَ نزولها موجّهًا للصحابة، ولا ندري ما فهمه ذلك الجيل الطاهر البريء، ولم تكن في ذلك الحين أدواتٌ تَرْصُد الآفاق، كما كان من غير الممكن التعرّف على كلّ جوانب النفس.. وأيضًا فلم تكن أشعّة "إكس (X)" قد اكتُشفت بعدُ، كما أنه لم يكن حينذاك المجهر الإلكتروني، ولكن القرآن كان يقول لهم: إننا سنجعل كلّ واحد في المستقبل يقول: "إنه الحق"، وهذا يعني أن هذه الآية كما كانت تفيد بالنسبة لهم أمورًا، فكذلك تهمس في أُذُن إنسان هذا القرن أيضًا بعديد من الأمور.

أجل، إن إنسان هذا العصر بفضل التكنولوجيا المتقدمة يُعتبَر مُدركًا -إلى حد ما- لهذه البشارة الإلهية، فلقد اكتُشفت أسرارٌ كثيرة حول تشريح جسم الإنسان، وتم تمشيطه بواسطة المجاهر الإلكترونية، وأجريت العديد من الأبحاث العميقة الأخرى في الآفاق والأنفس، وأصبح الوضع كأن فيه انفتاحًا على أبواب الغيب.

ومن جانب آخر يمكن الحديث في هذا السياق عن ملمح لطيف وهو: أن القرآن الكريم يَعرض الإنسانَ والكون للأنظار في آن واحد وفي نفس المستوى من الأهمية وبنفس الدقة، ويريد منا فهمَ كل الوجود في تكامل تام، وفي الخطّ الممتد من أعماق الإنسان الداخلية إلى زوايا الكون الشاسعة يؤكد على ضرورة البحث في كل الوجود، ولزومِ بذل الجهد في اكتشاف الآيات الربانية، بأن يصرِف الباحثون كلَّ ملكاتهم في هذا المجال، ويوجهُ إليهم أوامره الربانية وكأنه قائد يقول لجيشه: "انطلقوا".

فهذه النكتة الدقيقة تدل على أنه إذا كان لا بد من البحث عن الاستقامة الفكرية حتى في العلوم البحتة فإنما يمكن ذلك بفضل إجراء البحوث بمقاربة كلية، من دون التغاضي عن المناسبة بين (الإنسان-الكون-الله)، وبالانفتاح على الآفاق والأنفس معًا.

والحاصل أن القرآن الكريم حينما يقدم معلومات عن السماوات والأرضين وكلِّ الوجود يستخدم أسلوبًا يتمتع بمستوى عال من قوة الإقناع بحيث يؤكد للإنسان أنه كلما قطع شوطًا في الاكتشافات والاطلاعات والاختراعات الجديدة، فإنه سيتقاطع طريقه في مرحلة من المراحل مع حقيقة من الحقائق القرآنية، ويُذكِّره بالأيام القادمة التي سيتّضح فيها تعلُّق كل شيء بالله.

وليس من المعقول أن يكون كلامُ خالق جميع الكائنات متناقضًا مع الكون والطبيعة والعلوم؛ لذلك ليس من الممكن بتاتًا أن تكون المعلومات التي استقيناها من القرآن متناقضةً مع المعارف التي أخذناها من الكون بأي وجه من الوجوه، طبعًا إذا أخذناها بطريقة صحيحة.

وإذا رأينا تناقضًا بين العلوم وبين القرآن، فإما أننا فهمنا القرآن فهمًا خاطئًا، أو أننا ظننا بعض الفرضيات المطروحة على بساط البحث "حقيقة علمية".

ب. النظريات البشرية والحقائقُ القرآنية

إن العلوم الطبيعية على عكس العلوم العقلية والنظرية، ونقصد بالعلوم الطبيعية "العلوم المثبتة" التي تستند إلى التجربة والمشاهدة، وتبيّن صدقها بشتى طرق الإثبات.. فما تم إثباته من المسائل المتعلقة بعلم الأحياء والفيزياء والكيمياء والفلك والطب وما شابهها إنما هو من هذا القبيل، ونحن نسميها "العلوم الطبيعية" باعتبار أنها من العلوم التي تم إثباتها.

والعلوم الطبيعية حسب العقلية السائدة في عصرنا هي مجموعات المعلومات المتشكلة من الفرضيات التي من الممكن تخطئتها في كل حين، ومنهم من يعتبرها: الأدوات والوسائل التي تمنحنا إمكانية التكهن حول ما في الكون من كائنات..

إلا أنه ليس من الصحيح أن نستخرج من مفهوم المخالفة لهذا التعريف أن العلوم التي لا تدخل في مجالِ التجربة والمشاهدة هي من "العلوم المنفية".

فعلينا أن لا نفسح المجال أمام بعض الفهوم الخاطئة على غرار ما وقع في القرنين التاسع عشر والعشرين، حيث تمكّنت (الجدلية) من عقل البشرية بقدر ما وعكَّرت صفو بعض الأذهان، فمن المعلوم أن بعض العلوم لا يمكن التوصل إليها إلا عن طريق العقل وليس بالأدوات والوسائل

المَخْبَرية. فكم من الحقائق لا تدخل في نطاق التجربة ولكن لها قواعد تخصها ولا يمكن التوصل إليها إلا عبر تلك القواعد، فمثلًا لا يمكن إدراك الله الواجب الوجود، بل ولا الملائكة الكرام والجنِّ والشيطان وما شابه ذلك من كائناتِ ما وراء الطبيعة بالعلوم الطبيعية، بل بالوحي والعقل والمنطق والوجدان والقلب والحس؛ لأن هذه المواضيع ليست من النوع الذي يُعالَج عبر المختبرات، ولا هي موضوعه أصلًا، ولا يمكن مشاهدةُ ذات النوع بالتلسكوب (المقراب) أو الميكروسكوب (المجهر).. وبالتالي يلزم توسيع مفهوم "العلم" بحيث يشمل جميع الأمور التي يتم إثباتها عن طريق الوحي والعقل والمنطق والحس والوجدان.

ولا بد لي من أن أُنبّه هنا إلى أن أكثر موجود تم التركيز على إثباته هو "واجب الوجود".. صحيحٌ أن تعبير "إثبات" لا يُستخدَم كثيرًا في حق واجب الوجود، إلا أن صفات الله وأسماءه وشؤونَه الذاتية والملائكةَ الكرام والحشرَ وحقيقةَ النبوة لهي أكثر المفاهيم والمضامين التي يحاول العلماء إثباتها حتى الآن.

فهذه الأمور ظلّت إلى يومنا هذا تُتناوَل بالبحث، بمقاييس عقلية بلغت مستوى رفيعًا بحيث تبقى ما يسمونها "التجربة" باهتةً للغاية أمام تلك المقاييس، فقد ظهر على مرّ العصور كثيرٌ من القوانين والمبادئ والكشوفات المتعلقة بالساحة التجريبية وأصبحت اليوم طيَّ النسيان حتى بأسمائها.

أجل، كم من نظريات وفرضيات وأفكار كانت تفرض نفسها على الأوساط التاريخية والعلمية، ولكنها بدأت تهترئ وتتآكل ولا يؤبه لها رغم أنها لم يمض عليها قرن أو قرنان من الزمن، فمثلًا إنَّ "كانْط" و"لابلاس" اللذين شَغَلا بالَ أهل الفيزياء الفلكية بكل ما يملكان من أبهة وعظَمَة كان لهما أفكار أصبحت بالمقارنة مع تفسيرات عصرنا الراهن بمثابة أوراق الخريف تذروها الرياح.. حتى إن قانون الجاذبية المنسوب لنيوتن الذي لم يكن ليتزعزع، أصبح اليوم عرضة للنقاش من حيث بعض تفاصيله وجزئياته.

صحيح أن كل النظريات بحكم أنها تُعتبر من باب السُّلَّم المُوصل إلى الحقيقة، قد تهتز وتتزعزع، ولكن قد يأتي يوم يتم الوصول فيه إلى قوانينَ وحقائقَ راسخة -ولو نسبيًّا- لا تتزعزع ولا تهتز.. فنحن نعتقد بأن كلّ الحقائق ستأتي يومًا ما وتلتقي في جوهرٍ وخلاصةٍ قرآنية[81] ، فمن المؤكد أنه ستتحقق في كل مرحلة زمنية بعض التطورات، وإذا لم تتعثر العلوم المتطورة والمعارف النظرية بعصرها الذي تعيشه، فإنها ستأخذ طريقها نحو التجدّد المستمر.

إن أرباب العلم الحقيقي يدركون جيدًا كيف أن نظريات لا حقيقة لها شغلت بالَ التاريخ ومختلفِ المحافل العلمية، وجعلتْها تتعثّر في طريقها نحو الحقيقة.

أجل، إن بعض المحافل العلمية لهي من أكثر المسارح لمثل هذا النوع من معارك العميان، ولكن هناك حقيقة وهي أن العلم دخل مرحلة جديدة تتّسمُ بأنها ستجعله يتجاوز نفسه ويسبقها محطِّمًا أرقامه القياسيّة ومتحرّرًا من أطره التقليدية التي لا تخرج عن عالم المادة، فإذا عاشَ العلم هذه المرحلة فسيهتفُ يومها قائلًا: "ربي الله".

وحينذاك سيصل كلُّ عِلم واصلٍ ومُوصِلٍ إلى الله إلى مستوى لا نهائي، ولن يتعرض بعد ذلك لانسداد الطريق أو للتعثر بأمور أخرى، ولن يتعرض للتعارضات والتساقطات كسائر الفرضيات الأخرى.

ففي هذه النقطة بالذات يضع القرآن لأرباب العلم هدفًا لا نهائيًّا، فيخلصهم من التعثّر بنظريات ذات أحكام مسبقة تعترض طريقهم، ويرشدُهم إلى أن يُوَلُّوا وجوههم شطر النقطة النهائية التي لا يمكن الوصول إليها إلا بتطورات جديدة. فالقرآن هو جوهر الحقيقة وأساسها وخلاصتها، ولا مجال فيه للأخطاء والتصدعات والانكسارات،

---

[81] لا يشترط أنّ كل النظريات سوف تلتقي مع جوهرٍ أو خلاصة قرآنية لأنها قد تتغير أو تتبدل، بعكس الحقائق المسلمة عند العلماء فإنها تتفق تمامًا مع الإخبارات الغيبية للقرآن الكريم.

وهو كتاب الله العزيز الذي أنزله مَنْ يدبر الكون بقدرته وإرادته، لا يأتيه الباطل من بين يديه (أي في المستقبل) ولا من خلفه (أي من الماضي).

حيث يقول الله فيه: ﴿**وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۞ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ (سورة فُصِّلَتْ: 41/41-42).

أجل، إن هذا القرآن كلام الله العزيز الحكيم، ولا مجال لتسرّب الباطل إلى ما يتحدث عنه من الأخبار أو بما يتعلق بالماضي أو المستقبل، وقد مضى على نزوله قرابة ألف وخمسمائة عام، ولو مضى على ذلك عشرات الآلاف من السنين فلن تتبدل الحقائق التي أقرها.

أجل، فهناك من جانبٍ نظرياتٌ في طريقها نحو الانتهاء والسقوط، وبالمقابل هناك الآياتُ القرآنية التي تُنبئ عن حقائق لا تنطفئ، بل تُنادي صارخةً بالحقائق بصوتها الجهوري المدوي في سائر الأنحاء، وكم من نظريات شهيرة ستسقط وينتهي أمرها، في حين أن القرآن وما أخبر به من الحقائق سيبقى كما هو وسيحافِظ على جدّته ونضارته كأول يوم نزل فيه، لأنه كلام الله صاحبِ العلم المطلق، وهو ذو أنفاس أزلية وأبدية، معجزُ البيانِ وخارقٌ للعادة.

ليس من الصحيح المقارنة بين ما طرحتْه الفرضيات العلمية على بساط البحث وبين ما جاء به القرآن من الحقائق حتى ولو كان بينهما تشابه أو توافق بل وتطابق تام؛ لأن العلوم رغم ما حققتْه من تطورات كبيرة لا يمكن اعتبارها قد وصلت إلى منتصف الطريق، ولذلك فمن الخطإ ربطُ القرآن بالنظريات العلمية وأن يقال: "إن القرآن يقول: كذا وكذا كما تقول النظريات الفلانية".

صحيح أن العلوم كلها ما هي إلا نتائجُ إلهاماتٍ من الله لبني البشر، فحتى لو كان الشخص ملحدًا فإن ما يقوله في الموضوع الذي يبحث فيه يُعَدُّ هو أيضًا نوعًا من الإلهام الرباني، وهناك حكمة إلهية في إيجاد التفكر والبحث العلمي، فالتفكر المجرّد والبحث العلمي البحت وإن لم يكونا في حد ذاتهما كافيين في الوصول إلى الحقيقة المطلقة، لكنهما من الوسائل الموصلة إليها، فلقد ربط الله تعالى العلمَ والبحوث العلمية بحقيقة وقيمة، بحيث إنه من سنة الله تعالى في من

يبذل الجهد والطاقة لتحصيل المعرفة أن ييسر له طريق الوصول إليها، ويحقق له ذلك بقدْر مراعاته للأسباب الموصلة إليها سواء كان هذا الباحث ملحدًا أو مؤمنًا.

إن العلم والقرآن بمثابة عينين تنظران إلى نقطة واحدة، أو هما بمنزلة مقرابين ومنظارين متوجهين إلى شيء واحد، فهما وإن كانا في البداية شيئين مختلفين لكنهما وجهان لحقيقة واحدة، فالله تعالى الذي قدَّم أمام أنظارنا الكونَ وكأنه كتاب أو معرض أو قصر أو حديقة حتى نتأمل فيه، هو الذي أنزل القرآن أيضًا وكأنه كتاب إرشاديٌّ، ولا يستطيع الإنسان أن يصل إلى الحقيقة إلا من خلال هذه الظاهرة ذات الجانبين.

وإذا نظرنا إلى ما وصل إليه الأمر في زماننا، فقد نلاحظ عدم انسجام بين بعض فروع العلم وبين الحقائق القرآنية، لكن هذا الأمر إما ينبع من عدم الإجادة في استخدام العلم، أو من فهمنا الخاطئ للقرآن الكريم؛ فكما أن العلم في يد غير المؤهلين له يكون بمثابة شخص أعمى، فكذلك الدين في نظر الجهال فإنه سيظل عرضة للتفسيرات الخاطئة.. وإنني أعتقد أن المختبر الذي يُجري بحوثًا صناعية وزراعية وكيميائية وفيزيائية إذا كان في يد رجال الحق الذين ارتبطت قلوبهم بالله فستكون له صبغة مختلفة تمامًا.

وخلاصة القول أن بني الإنسان إذا أصبحوا ذوي صلاحية في الكلام حول العلوم فسيُلاحَظ أن العلم والقرآن يتقاطعان في نقطة واحدة، وحينذاك سنجد إمكانية رؤية الأشياء وتفسيرها على حقيقتها، ولكن الواقع الحالي هو أن الكثير منا يعاني من ضعف في الرؤية أو عَمَى الألوان ويحتاجُ إلى إجراء عملية جراحية روحية، وما لم تنفتح القلوب على الإيمان فلا مجال لأن يكون هناك تفكير متوازن لدى العلم أو الإنسان

أو المجتمعات الإنسانية.

ولا يُتوهَّمْ أننا حينما نتحدث عن بعض الحقائق العلمية ننوي بذلك وضع القرآن تحت وصاية العلم، فالقرآن مُنزّه ومُبرّأٌ عن أمثال هذه الوصايات، بل الأمر على العكس تمامًا بالنسبة لنا؛ فغاية ما نريد أن نبينه هو أنه كلما تم تفسير العلم تفسيرًا صائبًا اقترب من القرآن؛ وما نحاول فعله هو

أن نجمع في نظرتنا إلى القضايا العلمية بين الفكر الأبستمولوجي وبين ما يقدمه القرآن من الحقائق في قضية الخلق الأول، وخلقِ السماوات والأرض، وخلقِ الكائن الحي الأول والإنسانِ الأول بعد تهيئة كل الظروف اللازمة لاستمرار الحياة على وجه الكرة الأرضية، ونتحدثَ عن كروية الأرض ودورانها، ومنافع الجبال وغيرها، فننظرَ إلى هذه القضايا من كلا المنظورين، وهذا يعني معالجة القضايا وتناوُلها في خطّ مناسب لنظريّة المعرفة.

ج. تعبير عن تحسُّر يحزّ في النفس

هناك بعض الغافلين الذين خضعوا لتنشئةٍ أحادية الجانب تحت تأثير بعض الأوساط، يحاولون أن يُلقوا باللائمة على الإسلام في قضية خمولنا وتدهوُرنا الذي دام قرنين أو ثلاثة قرون، وبالمقابل هناك شريحة أخرى تظنّ كيل المسبات للجبهات الأخرى نوعًا من البراعة، وبهذا يحوِّلون نقاط الالتقاء إلى مسرح للتناحر والنزاع، كما أن هناك مجموعة أخرى ترى من البراعة أن تتعامى عما أهملتْه وقصرت فيه في هذا الباب وتتحيّن كل الفرص لانتقاد أجدادنا في كل ما فعلوه.. صحيح أن هناك في الماضي نوعًا من الخرافات تسربت إلى ما كان يمارسه المسلمون من التدين، وقد ألقت هذه الخرافات بظلالها على القرآن والإسلام، وإلى جانب كل هذه السلبيات فقد بُذلت في تلك الحقبة جهود كبيرة وأُنجزت أعمال جادة كثيرة، كما يوجد في عصرنا أعمال قد أُنجزت، وتم التغاضي عنها؛ وهذا من باب كفران النعمة.

إننا -كأمة- استطعنا على مرّ تاريخنا، أن نُنَشِّئ عباقرة حافَظوا أثناء تفسيرهم للقرآن على صفاء العصر النبوي والخلافة الراشدة، وقاموا من قبلِ ألف سنة بتفسيرات لبعض آيات متعلقةٍ بالعلوم والتكنولوجيا لم يتبين مغزاها إلا في هذه الحقبة، وقد أشَرْنا فيما سبق لهذا الموضوع، ولكن ما يحزّ في النفس هو أن هناك بعض النفوس المريضة التي اعتادت

أن تسبّ أمتها وماضيها لا تريد أن تتقبّل هذه الأمور بل تتغافل عن رؤية بعض الحقائق.

ففي حين أن العثمانيين حينما كانوا يبنون تلك الصروح المعمارية ومختلفَ الآثار الثقافية والمستوصفات ودُورَ العَجَزة والمحتاجين، كانت أوروبا لا تزال تتخبط في جهلها ووحشيتها، ولم يكن لدى أوروبا أيُّ دراية بألف باء المدنية.. ولكن المؤسف أن يكون هناك مثقفون مصابون

بالدوار زائغو الأبصار لا يزالون متمادين في عنادهم ولا يريدون أن يلاحظوا ذلك بوجه من الوجوه، بل يواصلون -بكل وقاحةٍ- تشويهَ سمعة دولة كان لها وزنها على المستوى العالمي، ومهما كان الأمر فنحن من ثمرات تلك الجذور، ونحن أحفادهم بصالحهم وطالحهم، ومن الخطإ أن ننكر جذورنا ونسبَّ أجدادنا، كما أنه

من الخطإ أيضًا أن نفتخر بما صنعوه على عِلّاته.

وبعبارة أوضح نقول: إنه من اللازم علينا أن نتصرّف في إطار من المعقولية والوعي والإنصاف، فإن كنا لم نستطع أن نُطوِّر ما ورِثناه منهم من التراث الثقافي والحضاري، وصبَبنا الكبريت على جذورنا وجفَّفناها بالانبهار بالغرب، فإننا سنُعتبر منكرين لفضل الأجداد رافضين لإرثهم. أجل، لقد أتى علينا حينٌ من الدهر لم نتناول فيه القرآن بعمقه، بل حاولنا تقييم كلام الله تعالى بما استورَدْناه من أفكار وتصورات غربية، فبطبيعة الحال لم يتسنّ لنا أن نفهمه على حقيقته، ولم يكن لنا ذلك؛ لأننا حاولنا تصميم عالم يخصّنا نحن بمعاييرَ تنتمي لغيرنا، ولا بدّ لأمرٍ كهذا أن يبوءَ بالخيبة والخسران، وما كان لنا أن نقطع المسافات والأشواط بهذه الطريقة بتاتًا، بل كدنا نَفقد مصادر طاقتنا ونجفف قُدُراتنا بهذه الطريقة.

ولقد عشنا أيّامًا، كلّما دار الحديث حول التطوّر التقني والتكنولوجي كنا على الفور نشكك بأصولنا وأنسابنا، ونَكيل وابلَ الشتائم لأجدادنا بلا إنصاف، وعكرْنا صفوَ العقول بإثارة أسئلة من مثل: لماذا تَخلَّف العالم الإسلامي على الرغم من تناول القرآن لهذا الكم من المسائل العلمية والتقنية والحضارية؟ وحاولنا نِسبة التخلف للإسلام، والأدهى والأمرُّ من ذلك أننا لم نُتِح للقرآن فرصةً ليعبر عن نفسه، وحاولْنا تسلية أنفسنا بإلقاء اللائمة على سلفنا وأجدادنا الذين عاشوا قبل ثلاثة أو أربعة قرون بل الذين عاشوا قبل أربعة عشر قرنًا.. حتى ولو افترضنا جدلًا أنهم قصروا في هذا المجال فالذي يجب علينا أن نستفيده من ذلك الوضع الدروسَ والعبرَ بدلًا من اللومِ وملحقاته.

وأيضًا فإن مقتضى الأدب الإسلامي والإنساني أن يكون موقفنا منهم في إطار المبدإ الأساسي الذي يقول فيه الرسول ﷺ: "**اذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ، وَكُفُّوا عَنْ مَسَاوِيهِمْ**"[82]؛ لأنهم لم يترددوا في التضحية في سبيل فهم القرآن بكل ما يملكون، حتى بأرواحهم، ولهذا يترتب علينا قبل كل شيء أن نقوم بإصلاح عيوبنا نحن، وأن نوجِّه على الأقل كلَّ ما نملك من قوانا الفكرية وقدراتنا الذهنية وكل طاقاتنا وجهودنا نحو القرآن، وأن نحاول فهمه بحق، وأن نجعل ذلك هدفًا أساسًا في حياتنا.

د. المنظومة الشمسية في القرآن الكريم

إن نظرة القرآن إلى العلوم الطبيعية الكونية إجمالية، ولكن لا بد من التنبيه إلى حقيقة جلية وهي أن اختيار بعض الجمل والكلمات والحروف في الآيات المتعلقة بالعلوم يشير بشكل ملفت للأنظار إلى بعض الحقائق صراحة أو ضمنًا؛ لأن القرآن الحكيم نابع من العلم الإلهي الشامل، ولذلك فإن ما يشير إليه من المعلومات حتى ولو كانت إجماليةً، فإن لها تفوُّقًا على العلوم والتكنولوجيا مهما بلغت من التقدّم والرقي. أجل، فكما أن القرآن معجزٌ في تعبيراته وألفاظه فهو محيطٌ وعالٍ في محتواه ومضامينه أيضًا، صحيح أن هذا البيان الإلهي لا يتطرق إلى التفاصيل في المسائل المتعلقة بالعلوم، إلا أنه قد يُقدم لنا أحيانًا مفاتيحَ تؤدي بنا إلى أفكار واكتشافات جديدة كل الجِدَّة، فهناك بعض الحقائق لا يسهل شرحها إلا بصياغة عبارات مُسْهِبة، إلا أن القرآن كثيرًا ما يعبر عنها فيختصر الطريقَ بجملة واحدة أو بنصف جملة بل ببضع كلمات، ويختار في تعبيراته كلمات تشير إلى معظم القواعد والقوانين المقررة في العلوم بأسلوب لا يدع مجالًا لحدوث أيِّ شكٍّ وريبة في النفوس.

فمثلًا: حينما يصوِّر القرآنُ الشمسَ والمنظومةَ الشمسية ببضع كلمات، فإنه يبين خط سيرها من المبدإ إلى المنتهى بأسلوب رصين لا فراغ فيه من حيث المشاهدة والعقل والمنطق والحس، فلو نظرنا إليها من منظور علم الفلك لوجدنا أن كثيرًا من الأحداث المتداخلة قد تمّ اختصارها في بضع كلمات.

---

[82] سنن أبي داود، الأدب، 50؛ سنن الترمذي، الجنائز، 34.

لنتأملْ قول الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (سورة يس: 38/36). فالآية بمبانيها ومعانيها تُبيّن أن الشمس تجري وتسير نحو نقطة ستستقر عندها، وهذا المعنى واضح جلي يستطيع كل واحد أن يفهمه ويدركه، بحيث إن من له أدنى حظّ من اللغة العربية لن يجد صعوبة في فهم المعنى بتاتًا، وإذا تم التوجه نحو الكلمات والحروف فستنجلي منها معلومات حول تفاصيل الموضوع، كما أننا إذا رجعنا إلى التفاسير التي أُلِّفَتْ قبل خمسمائة عام فسنرى أن المفسرين كلهم فهموا من الآية المعنى نفسَه، وفي ذلك أوضح دليل على صحة هذا الفهم، فمثلًا إذا رجعنا إلى التفسير الكبير لفخر الدين الرازي الذي ألفه في أواخر القَرن السادس وبدايات القَرن السابع الهجري نراه قال بمثل ما قاله ابن جرير الطبري في تفسيره الذي ألفه قبل الرازي بما يُقارب ثلاثة قرون.

أجل، إن الإنسان ليحتار حينما يلاحظ أن هؤلاء حينما يتحدثون عن الشمس يُدْلُون بمعلومات قريبة من معلومات عصرنا، قائلين بأن الشمس جسم من العالَم المادي وهي جزء من منظومة معينة، بل إننا نرى أنهم حينما يأتون بهذه التفسيرات يُسندون آراءهم إلى ابن عمر أو ابن عباس أو ابن مسعود، وذلك علم لم يُسبَق إليه.

وأكثر ما يلفت النظر في الآية هو اللام في كلمة "لِمُسْتَقَرٍّ" حيث إنه يحتمل أكثر من معنى، وكل ذلك يؤيد المعلومات الفلكية المعتبرَة في هذا العصر، وقد ذكروا لـ"اللاّم" ثلاثة معانٍ:

1- أن تكون بالمعنى الطبيعي والعادي لحرف اللَّام.

2- أن تكون بمعنى "في".

3- أن تكون بمعنى "إلى".

فعلى حسب المعنى الأول، يكون المعنى أن الشمس تدور حول نفسها وهذا الدوران يتم في مدة شهر تقريبًا، إلا أن كل قسم من أقسام الشمس لا يدور بالسرعة نفسها بالنسبة لغيرها، حيث إن سرعة الدوران في خط الاستواء تكون حوالي خمسة وعشرين يومًا، بينما يختلف هذا الأمر في المناطق القطبية فيتم الدوران في ستة وثلاثين يومًا.. أما في المناطق الأكثر عمقًا وفي الأجزاء

التحتية لمنطقة البلازما يتم دوران كل شيء في سبعة وعشرين يومًا، ولو كانت الشمس كتلة جامدة لاقتضى أن يتمّ دوران كل جزء منها في نفس المدة على غرار كرتنا الأرضية، حيث إنه من المعلوم أن الكرة الأرضية تُكمل دورانها حول نفسها في غضون أربع وعشرين ساعة.

وتتحرك الشمس بسرعة هائلة تصل إلى 20 كم في الثانية صوب نجمِ "النسر الواقعِ (*Vega*)"، ويسمى المحور الذي تسير فيه في مصطلح علم الفلك "قبة الشمس (*Solar Apex*)"، وتصِلُ هذه السرعة في الساعة إلى 72 ألف كم، ويعني هذا أن للشمس طريقًا يخصّها، فتسير فيه على الدوام وتقطع طريقها نحو نقطة معينة.. فالقرآن الكريم حينما يقول: ﴿**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾ (سورة يس: 38/36) يعني -والله أعلم- أن الشمس تسير وتجري وتدور في محور معين لها، فيشير إلى هذه المعاني كلها دون أن يدخل في التفاصيل.

وأهم شيء بالنسبة لحركة الشمس هو ارتباطُها بمدة محددة وسيرُها وجريانها إلى نهاية مقدرة لها، فهذه المعاني الثلاثة التي قدّرناها لحرفِ اللّام تدل إجمالًا على أن الشمس تجري وتسبَح في مسار معين، بحركتها المقدرة إلى نهايتها المعلومة عند خالقها.

وقد ورد في تفسير كلمة "مُسْتَقَرّ" قولان: الزمان، والمكان.. فبناءً على أنه اسم مكان نقول: إن الشمس تجري نحو نقطة معينة، وهذه النقطة من الناحية المعنوية -والله أعلم- هي العرشُ الأعظم، ومن الناحية المادية فهي تشير إلى نجم "النسرِ الواقعِ" ومركزه، كما يشير البيت الحرام إلى حقيقة الكعبة.. وإذا اعتبرناه اسم زمان يكون المراد أن حركة الشمس وفعاليتها محددة بوقت معين، فإذا انتهت تلك المدة يكون دَورُها الحاليُّ منتهيًا أيضًا.

وتقول بعض المعلومات الفلكية: إن سياحة الشمس الحاليةَ هي التاسعة عشرة من عمر الشمس الذي قُدر بـ 4.6 مليار سنة، وأيضًا تقول التخمينات العلمية: إن الشمس قد حَققت هذا المقدارَ من الجريان في غضون 250 مليون سنة، إلا أنه من غير الممكن التنبؤ بما ستحققه وتكرره في المستقبل، والحقيقة أنه يمكن للشمس ألا تتجاوز حدود سياحتها التاسعة عشرة وهي تجري اليوم في الساعة الواحدة بسرعة 72 ألف كم نحو آفاقها التي تتحول وتتبدل فيها، كما أننا نحن أيضًا

نسير نحو نقطة سنتعرض عندها للتحول والاستحالة، إلا أن هناك حركة دائرية للشمس وهي مهمة وجديرة بالتوقف عندها طويلًا، تتوقف على تفسير اللام في "لِمُسْتَقَرٍّ": بمعنى "في".

وتسمى حركة الشمس أو أيّ نجم آخر حول محورها أو حول أي جسم آخر بـ"الحركة الدائرية" -ويمكن أن نسميها بـ"الحركة المغلقة" أيضًا-، وبناء على هذا فإن الجسم الذي يتحرك وهو يدور يكون دائرًا حول نفسه في الوقت الذي يجري فيه ضمن محور معين، إلا أن النقطة المشتركة بين الآية المتعلقة بهذا الموضوع وبين الآيات الأخرى المشابهة هي كون جريان الشمس "في فَلَك" وبشكل دائري، وليس حركة في خط مستقيم، قال تعالى: ﴿**لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ (سورة يس: 40/36)، ويمكننا أن نعمم الآية أكثر فنقول إن كل الأجرام السماوية تتحرّك بالطريقة التي تُشْبه حركات الشمس.

و"مُسْتَقَر" في قوله تعالى: ﴿**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾ (سورة يس: 38/36) تهمس في ذهن الإنسان بمعان من هذا النوع.. وبينما تدور الشمس وتجري نحو نهاية مقدرة لها، يكون بطبيعة الحال لهذا تأثير وتغيير على حركة الكرة الأرضية أيضًا، فحينما تسير الشمس وتقطع طريقها تتحرك الكرة الأرضية معها في طريق حلزوني، وكأنها تقطع كلّ سنة مسافة تتغير وتطول، ونفهم من كل هذه الحركات المتداخلة أن الشمس في تحرُّك دائم، وكل ذلك لا يعني أنه تحرُّك لا نهاية له، فستنتهي هذه الرحلة عند النقطة التي حددتها القدرة القدسية، وحينذاك ستقوم القيامة على حسب أحد الاحتمالات في هذا الباب.

والحقيقة هي أن المنظومة الشمسية لا تَشغل إلا حيزًا صغيرًا جدًّا ضمن مجرة درب التبانة؛ لأن الشمس ما هي إلا واحدة من مليارات النجوم الموجودة في درب التبانة، فالله تعالى نظَّم درب التبانة بحيث إن الشمس تبعد عن مركزه بمسافة 30 ألف سنة، بمعنى أن الشمس إذا سارت بسرعة الضوء فليس لها أن تصل إلى مركز درب التبانة إلا بعد 30 ألف سنة.

وعلى غرار سائر المنظومات صغيرها وكبيرها، فإن مجموعة درب التبانة أيضًا تتحرك وهي تدور حول نفسها، وبالتالي فإن الشمس أيضًا تدور، وفي الوقت نفسه تتقدم وتسير مع أُسرتها

حول مركز مجرتنا التي تتشكل من الأجرام السيارة والمُذَنَّبات وسائر الأجرام السماوية.. وسرعةُ الشمس في سيرها في هذا المجال أشد هولًا، حيث إن هذه السرعة تقدَّر بـ 268 كم في الثانية، ولكن من حيث إن مدارها واسع جدًّا فهي لا تستطيع أن تكمل شوطًا واحدًا في هذا المدار إلا في حوالي 250 مليون سنة، إلا أنها كما قلنا على غرار الأجرام السماوية الأخرى على اختلاف أحجامها، "تَسبح" -حسب التعبير القرآني- وتسير نحو نهايةٍ مقدَّرة لها.

وكل المجرات تقريبًا تابعة لمجموعات معينة، ومجموعة درب التبانة أيضًا تابعة لمجموعة صغيرة تحتوي على 20 مجرة.. وفي كل مجموعة تدور المجرات بقوة جاذبية حول بعضها البعض، وكما أن في كل مجموعة هناك حركة داخلية منتظمة، فكذلك المجموعات بشكل عام هي أيضًا تتحرك بحركة كلية متّسقة مع عموم المجموعات الأخرى، وفي هذا السياق ننبّه إلى أن كل مجموعة تتحرك مبتعدة عن الأخريات، وبناء على هذا فإن من يرصد من الأرض هذه التحركات فسيلاحظ أن كل المجموعات تبتعد بسرعة عن مجموعة درب التبانة، في حين أنه إذا كان هناك من يرصد من أي مجرة أخرى فسيلاحظ أن المجموعات الأخرى تبتعد عن مجموعته هو.

إن كل مجموعة من المجرات تتحرك بسرعة تتناسب طرديًّا مع بُعدها عن غيرها، فمثلًا إن سُدُمًا بعيدة عن الأرض بمسافة مائة مليون سنة ضوئية، تتحرك في ثانية واحدة بسرعة 2500 كم، بينما المجرة التي تبعد مسافة 500 مليون سنة ضوئية تتحرك في ثانية واحدة بسرعة 12 ألف كم، فحركات الشمس التي تبدو متداخلة ومعقدة جدًّا هي في حد ذاتها منتظمة بدقة وانتظام ستنتهي في "مستقر لها".. وبطبيعة الحال إن الشمس التي ظلَّت منذ أربعة مليارات و600 مليون سنة مُنْتِجة للطاقة وباعثة فيما حولها الضوءَ والحرارة سينتهي وقودها يومًا ما، ويقول العلماء: إن الشمس لن تُواصل وضعها الفعال الحالي إلا مدّة خمسة مليارات من السنين، فهذا كلامهم.. ليقولوا ما يقولون.. ولكن الموضوع قابلٌ للنقاش، ومن المحتمل أن الشمس في نهاية المطاف ستنتفخ إلى أقصى درجة وتصبح عملاقة حمراوية فتبتلع كرتنا الأرضية، وبعد هذه المرحلة بمليار سنة ستنهار فجأة وتتحوّل كرةً بيضاءَ منطفئة، هذا إذا لم يَسبق عليها الكتابُ ولم يَقطع سببٌ آخرُ طريقها نحو هذه النهاية.

وأيضًا فالشمس إنما تتحرك ضمن مجرتها مرتبطةً بمركزها، فكل حركاتها محددة بدرب التبانة، كما أن كل تحركات منظومة درب التبّانة محدّدة بمجموعتها، ومن وراء كل هذه المنظومات والمجرات هناك قوة قدسية، وهي التي تمنح كل شيء قابليةَ وإمكانيةَ الحركة، هذه القوة القدسية تتصرّف بشكل كامل في كل الأنظمة والمجرات، وتنظِّم كل الأحداث الهائلة باعتبارها قصائد تكوينية دالة على وجودها وأحديتها، وهذه القوة القدسية تَنبُع من الأسماء الإلهية والصفات القدسية. أجل، إنها الكامنة وراء كل شيء، وعلى حسب تعبير الإمام الرباني أحمد السرهندي: إن وراء وراء وراء الوراء هناك تصرف الله وتقليبُه كما يشاء. أجل، إذا كانت اللام في "لِمُسْتَقَرٍّ" بمعنى إلى فيكون فيه إشارة إلى هذه المعاني.

ولا بدّ من الاعتراف بأنه لو لم تحثّ الآيات على العلوم والتقنية، ولم يَستتبع ذلك اختراع المقراب، ولم يرصُد العلماءُ المكتشفون للفضاء لما كان لنا أن نفهم أيًّا من هذه الأمور، فبفضل هذا كله نستطيع أن نستخدم ما بأيدينا من المعلومات التقنية في فهم الآيات القرآنية المتعلقة بالمنظومة الشمسية، وكلما تهيَّأ لنا من الأدوات والوسائط ما نمضي به قدمًا في هذا الباب، فإننا نكون أوفرَ حظًّا في الاطّلاع على الآفاق الجديدة التي أشار إليها القرآن.

ومن يدري لعل القرآن يشير إلى حقائق كثيرة من شأنها أن تفتح آفاقًا جديدة للعلوم والتقنية هي بانتظار الباحثين من عشاق الحقيقة ومحبّي العلوم، فالقرآن يشير إلى مثل هذه الأمور بأسلوبه الخاص به ويأتي بتذكيرات مجملة فيذكُرها في إطار التأكيد على القضايا الإيمانية حتى نؤمن به.

أجل، هذا هو أسلوب القرآن؛ فنراه يثير في الإنسان حسّ الفضول بقوةٍ نحو آفاق مجهولة بالنسبة إليه ويحفز فيه الجنوح إلى التفكر، فيصرّح أحيانًا ويكتفي بالإشارة الخفيّة أحيانًا أخرى، فصحيحٌ أن فيه تبيانًا لكل شيء، إلا أن الذين يدَّعون أن فيه كلَّ شيء بتفاصيله يكونون مبالِغين في قولهم هذا، بينما يكون الذين يتغاضون بالكلية عما فيه من الإشارات والتوجيه نحو بعض الأهداف والأمور الإجمالية من جملة العُمي تجاه القرآن.

وبعد هذه الآية التي تتحدث عن الشمس تأتي آية تشير إلى القمر وأنه هو أيضًا يسير في طريق له قائلةً: ﴿**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ**﴾ (سورة يس: 39/36).

أجل، إن القمر يسير فيما عُيِّن له من مسار، وإذ يتحرّك في محوره يواصل -في الوقت نفسه- طريقَه في محوره حول الكرة الأرضية.. فهاتان الحركتان كلتاهما تنتهيان في كل سبعة وعشرين يومًا وثلث اليوم.. فمدتهما متساويتان إلا أن القمر حينما يدور في فلكه حول الأرض يختلف مقدار ضوئه الذي يقتبسه من الشمس ويعكسه على الأرض، فلذلك نرى منظره أحيانًا مثل العرجون القديم، بمعنى أنه يكون في شكله مثل ورق النخيل الجاف، والعرجون عود العذق اليابس المنحني من النخلة إذا أعتق وييس وتقوس وهو يشبه الهلال إذا انحنى واصفرَّ.

ومن السهولة فهمُ أن هذه الآية تتحدث عن القمر، فالقمر يتنقل من منزل إلى آخر، وفي كل منزل يكون له منظر مختلف، فيبدأ من مرحلة لا يعكس فيها أي ضوء، ثم ينتقل إلى مرحلة يبدو فيها هلالًا، ثم يكبُر الهلال شيئًا فشيئًا إلى أن يبدو بنصف قطره، ثم يعقبه البدر، فنرى وجه القمر المتوجه إلى الأرض قطرًا نيرًا بكامله، ثم يبدأ الأمر بعكس ما بدأ، فينقص الوجه المتلألئ إلى أن يصل إلى مرحلة يرجع هلالًا يبدو فيها كالعرجون القديم.

والقمر أيضًا في ضمن المنظومة الشمسية، يكون في دوران مستمر حول الأرض بقوة الجاذبية، وبالتالي يتحرك بتحرك الأرض والشمس.. والآية المذكورة تقول بتحرك القمر في منازلَ مختلفة، كما أن قوله تعالى: ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا**﴾ (سورة الشَّمْسِ: 91/1-2) يدل دلالة واضحة على أن القمر يدور مع الأرض في مسار تابع للشمس ويدور حولها، كما يفهم من قوله: "تَلَاهَا" أن القمر يتبع الشمس، فاختيار هذا التعبير من الدقّة والتصوير بمكان.

وقضية دوران القمر حول الأرض من الحقائق التي كانت تُعرف منذ زمن بعيد، وأما دورانه حول محوره فيتطابق مع دورانه حول الأرض، ويُنهي سياحته التقويمية في حوالي تسعة وعشرين يومًا ونصف اليوم، وقد تقرر لدى علماء هذا الشأن أن سرعة دوران القمر حول نفسه أثناء سيره في محور الأرض تكون في الساعة الواحدة (3683) كم.

إن القرآن الكريم لا يدخل في التفاصيل بل ينوط الأمر بالغاية من وضعه، ويتطرق إلى موضوع دوران القمر حول الأرض، وما يعتري القمرَ من اختلاف في المنظر لوقوعه في زوايا تختلف عن الأرض، لمروره بمنازل في غضون الشهر الواحد، ويسمي ما يتراءى لنا نحن باعتبار تطابقه أو تقاطعه مع بعض الأبراج السماوية "منازل".. وحينما يمرّ القمر بهذه "المنازل" تتغير ساحة الضوء الذي يقتبسه من الشمس، فلذلك نراه

في مَظاهرَ مختلفة.

وظهور القمر في كل منزل بمظهر مختلف على مدى الشهر الواحد يمنحنا فرصةَ حسابِ الشهور والأعوام، كما أنَّ تكرُّر هذه الأمور ذو أهمية بالغة لنا من حيث تعيين أوقات عباداتنا، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾ (سورة البَقَرة: 189/2).

ويتلخص من هذا ومما ذكرناه عند حديثنا عن الحركات الدائرية للشمس، أن الشمس والقمر والنجوم تجري وتَسبح كل منها على حدة في أفلاكها، وتُعلن بذلك تقدير العزيز العليم.

هـ. الأنظمة التي تَسبَح في الفضاء

لو قام شخص قبل أربعة أو خمسة عشر قرنًا من الزمان وقال للناس: إن الشمس والقمر والكرة الأرضية ومليارات من الأجرام السماوية تَسْبَح في محاور معينة من الفضاء، فلست أدري ماذا عسى أن تكون ردة فعلهم؟ ولكن هذا الأمر الذي أصبح اليوم في عداد البدهيات هو من الحقائق التي تحدَّث عنها القرآن في تلك العهود الغابرة، وذلك ما يصرح به قوله تعالى: ﴿**وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ (سورة يس: 40/36).

ولفظ "كُلّ" من ألفاظ العموم، وقد ورد في هذه الآية منوّنًا، والتنوين يفيد التنكير، وهذا يعني أن اللفظ شامل لجميع الأجرام الموجودة في الفضاء، وهي كثيرة لا يكاد يُحصى عددها، وكلُّها تَسبح في أفلاكها.. ويمكن فهم كلمة "فَلَك" هنا بمعنى المدار الذي تسير عليه الأجرام السماوية، أو الالتزام والانضباط ضمن الدائرة العامة والانسجام العام، حيث إنه من المعلوم لدى الجميع أن جميع الأجرام السماوية تَجري نحو نقطة معينة على هيئة مجرات بسرعات مختلفة، وكلٌّ

مجموعة من المجرات تأخذ بالابتعاد عن سائر المجرات الأخرى أثناء هذه السياحة الفضائية، وحينما يتحدث القرآن الكريم عن هذا النوع من التحرك لا يستخدم تعبير "التجول" أو "التحرك بتأثير من جسم آخر"، بل يختار تعبير: "السباحة".

أجل، إن كل الأجرام السماوية في الفضاء تَسْبَح مثل ما تَسبح السفن أو الأسماك، فقد تم التعبير عن هذا الأمر، بجملة واحدة، بمنتهى الجمال والوضوح، وروعيت فيها الأحاسيسُ الشاعرية مع الأسلوب العلمي، حيث يُفهم منها بجلاء أن كل شيء بدءًا من الكرة الأرضية وانتهاءً بالشمس والقمر وسائرِ الأنظمة يجري ويَسبح في مَدارات معينة.

والواقع أننا تناولنا هذا الموضوع هنا بأسلوب إجمالي يلائم مستوى العامة، وإلا فلو تم تناول الموضوع بأسلوبِ علم الفلك لجذب وشد انتباه أهل الاختصاص في هذا العلم أيضًا.

وهناك أمر آخر تمت الإشارة إليه هنا وهو أن السباحة لا تتم في الفراغ بل في المادة، فالآية الكريمة حينما تقول: إن الأجرام السماوية تَسبح، تكون مشيرة إلى أن تلك الأجرام العملاقة حينما تجري في الكون لا تكون جارية في فراغ بل تتحرك في المادة، بمعنى أن الفضاء ليس فراغًا هائلًا بل إنه بحر من مادة لطيفة تَسْبَح فيها هذه الأجرامُ العملاقة.

وهناك مادة لا تُرى بالبصر يسميها العلماء "المادة المظلمة" (مادة الأثير)، وإذا تم الكشف عنها وتجليتُها في إطار البحوث الفلكية، فسيؤدي ذلك إلى إعادة النظر في كثير من القضايا، علاوة على أن الكشوفات في هذا الحقل ستشكل نقطةَ تحوُّلٍ في بحوث علماء الفلك، فهناك مَنْ يدَّعون بأن "المادة المظلمة" التي لا تُرى تُشكِّل تسعين بالمائة من إجماليِّ المادة في الكون، بمعنى أن النجوم ومجموعاتِ الكواكب والمجرات والغازات وسائر المواد التي تم اكتشافها لا تُشكِّل إلا عُشر هذه المادة التي لا بد

من وجودها في الكون.

ولذلك لا بد من وجود عشرة أضعافِ ما تم اكتشافه في الكون من المادة حتى تتشكل -بالإذن الإلهي- الأجسامُ الموجودة في الفضاء وتؤدي وظائفها، وكان العلماء في السابق يعتقدون أنه لا

يوجد فيما بين الكواكب أية مادة، وأن الفضاء عبارة عن فراغ هائل، وعلى هذا فإن دلالة قوله تعالى: "يَسْبَحُونَ" -ولو بطريق الالتزام- لهُو أمر مهم من حيث تحقيق أهداف القضايا التوحيدية، وهناك كثير من رجال العلم في وقتنا الحالي يشددون على احتمال أن تكون تلك "المادة المظلمة" (المادة غيرُ المرئية) التي تملأ الفضاء عبارةً عن بعضٍ ما سنذكره من المواد أو من جميعها.

النيوترونات: وهي أقارب الإلكترونات التي هي أصغر بكثير من الذرات، فهذه المواد ليس لها شحنات كهربائية، وتتفاعل مع المواد العادية بشكل ضعيف جدًّا فلا يتم الإحساس بها، ويقال: إن هناك كميات لا حصر لها من هذه الموجودات التي هي في غاية الصغر، وكتلتها خفيفة جدًّا بحيث إنه يمر من سنتيمتر مربع من أي مكان من سطح أجسامنا مثلًا في كل ثانية ستون مليونًا من جسيمات النيوترونات.

الجسيمات الثقيلة ضعيفة التفاعل: (*WIMPs*) (*Weakly Interacting Massive Particle*)

وهي جسيمات ذات كتلة لها تأثير ضعيف، وهي مادة باردة (قليلة الحركة) مظلمة وداكنة، ولها وجود نظري.

الأجسام الهالية المضغوطة الثقيلة: (*MACHOs*) (*Massive Compact Halo Objects*)

وهي إما كواكب مجهولة المعالم بحجم كوكب المشتري، أو هي النجوم النيوترونية الأقزام البيضاء.

الثقوب السوداء: هي كائنات تتمتع بحالات جاذبية شديدة، لا يستطيع شيء حتى الضوءُ من التفلت منها.

ومن المعروف أن قدرًا كبيرًا من الأدلة يدل على وجودها في إطار النظرية النسبية العامة.

كرات البولينج: هذه أشياء يجد علماء الفلك صعوبة في التعرف عليها وتحديدها؛ لأنها بالإضافة إلى كونها خارج القوانين الفيزيائية المعروفة، تكتنفها مشاكلُ مشابِهة للأجسام الهالية المضغوطة الثقيلة.

وكما يفهم مما ذكرناه إلى الآن، فإن التعبيرات القرآنية تتسم بخاصية يستفيد منها الناس من كل المستويات بدءًا من العامي، مرورًا بالعالِم المتخصص في علم الفيزياء الفلكي، ووصولًا إلى الأديب الذي يتمتع بذائقة أدبية، كما أن العلماء في كل الأدوار التاريخية يستنبطون منها معاني مختلفة ويلتقطون منها رسالات توجههم إلى أهداف جديدة تختلف على حسب التطورات الجديدة وتفسيرات الزمان.. صحيح أن القرآن لن يشرح لنا القضايا العلمية بتفاصيلها التي نأخذها من المختبرات والمراصد الفلكية، لكنه يذكر حقائق هي مقاصد أساسية لها ويشرحها لنا بالقدر الذي ينبغي شرحه، نلاحظ أنه إذ يلقي علينا خطبته سيؤكد لنا إما بطريق الإيماء أو الإشارة أو الرمز أو بالمعاني الثانوية التي توحي بها الهيئة التركيبية العامة على أن الكون الذي هو كتابه المنبثق عن صفة "القدرة والإرادة" متّصلٌ اتصالًا وثيقًا بالقرآن الذي هو بيانه المنبثق من صفة "الكلام".

ونحن بهذا نكون قد أكّدنا على أن القرآن ليس كتاب علوم ولا فلسفة، كما نكون قد أشرنا إشارة صغيرة إلى ما عسى أن يدور بخَلد بعض من لا يعرف الحكمة من نزول القرآن، وإلى ما قد يتتابه من اعتراضٍ مفاده: لماذا لا يصرح القرآن عن كل شيء وكل حادثة بوجه صريح؟

و. إزالةُ نور القمر، وآيتا الليل والنهار

إن العلوم كلّما تطوّرت وتقدّمت فسيقترب الإنسان من القرآن وسيحظى بالتعرف على آياته. أجل، إن الإنسان إذا تناول الآيات القرآنية وتأمَّل ما في كلماتها من الفروق الدقيقة فسيرى بجلاءٍ مدى تطابُق بعض الحقائق العلمية مع البيان القرآني، فمثلًا إذا نظر فقط إلى مجمل معنى قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً**﴾ (سورة الإِسْرَاءِ: 12/17)، فسيرى أنه قد ذُكر فيه كثير من الحقائق المتعلقة بالليل والنهار. أجل، سيفهم هذا وإن لم يدقّق ولم يتعمق في تفاصيل الكلمات.

فحينما ينظر الإنسان ليلًا أو نهارًا إلى السماء، فأوّلُ ما يشاهده آيتان دالتان على وحدانية الله تعالى، وهما: الشمس التي هي آية النهار، والقمرُ الذي هو آية الليل.. فالله تعالى حينما يذكر هنا علامتين إحداهما من علامات النهار والأخرى من علامات الليل، يذكر في سياق ذلك أمرًا له

مغزى كبير وهو أنه قد أطفأ نور القمر الذي هو علامة الليل، فلم تَبق له خاصية الإشعاع الذاتي كما هو الأمر بالنسبة للشمس.

ومن المعلوم أن القمر لا يعكس إلينا إلا جزءًا من الضوء الذي يأتيه من الشمس، ولذلك نرى أن الشمس بما تبعثُه من الإشعاع يُحوِّل الليل إلى نهار ويَظهر كلُّ شيء تحت ضوئه واضحًا جليًّا، في حين أن القمر لا يعكس النور إلا في إطار محدود، بحيث لا ينجلي تحت ضوئه إلا شيءٌ يسير، فالآية الكريمة تقول: ﴿**فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً**﴾ وهذا يبيّن بوضوحٍ أن القمر ليس له ضياء، حتى إن المفسّرين في العهد النبوي (عصر السعادة) قد فهموا بكل سهولةٍ من الآية نفسَ ما نفهمه نحن في هذا العصر، كما في تفسير المفسرين في القرون الأولى، كابن عباس وكذا ابن جرير الذي جاء بعده بثلاثة قرون، حيث إن ابن جرير الذي ألف تفسيره قبل (1100) سنة من الزمن، يَروي عن ابن عباس ﷺ قوله: "كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، وهو آية الليل فمُحِي، فالسواد الذي في القمر أَثَرُ ذلك المحو"[83].. مع العلم بأنه يكون من الصعب علينا أحيانًا أن نُقنع بعض الناس في زماننا بأن القمر قطعةٌ انفصلت من الشمس، ولكن ابن عباس ﷺ استطاع أن يعبِّر عن هذا قبل أربعة عشر قرنًا من الزمن، ولم يتصد أحد للاعتراض عليه!

وهنا قد يخطر على البال سؤال مُؤَدّاه: ما الحكمة في محو علامة الليل، وإبقاءِ ضوء النهار؟

والجواب على ذلك يأتي في ذات الآية وهو قوله تعالى: ﴿**لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ**﴾ (سورة الإسراء: 12/17).. بمعنى أن ضوء القمر قد أُطفِئ مثل ما يُطفَأ المصباح، ليَعمل الناسُ بالنهار ويَخلدوا إلى الراحة بالليل، ولولا ذلك لانقلب كل شيء رأسًا على عقب واختلّ التوازن، ومن المحتمل أن الطبيعيين يُسنِدون كل ذلك إلى الصدفة، ولكن الحق أنه ليس للطبيعة أي تأثير على سبيل الحقيقة، لا في هذا ولا في غيره من الأمور.

---

[83] انظر: الطبري: **جامع البيان في تأويل القرآن**، 396/17.

ولا أريد أن أسهب في الكلام هنا حول هذا الموضوع، ولكني أريد أن أقول باختصار: إن هناك بعض الطبائع الذين تشوشت أذهانهم بالعديد من الفرضيات لا يريدون أن يفهموا هذا الأمر على حقيقته، ولكن الحقيقة هي أنه ليس للطبيعة والأسباب أيُّ تأثير لا في وجود الكون ولا في ديمومته، فكون كل ما في الكون في مكانه المناسب، وإناطتُه بمئات من الحِكم والمصالح يناقض هذا ويرفضه رفضًا قاطعًا، والمُحزِنُ أنَّ إنسانَ عصرنا لم يُشرَح له روحُ الدين وأسرارُ الكتاب المبين وجوهرُ الإسلام، فنشأ قابلًا لابتزاز الآخرين وخداعهم، بل إن الجموع في بعض المناطق انجرفوا إلى مهاوي الإلحاد والطغيان. وعلى الرغم من أن القرآن يتناول هذه المواضيع، ولكن قَلَّ أن تجد مِن الذين يؤمنون به ويَتْلُونه مَن يَطَّلِعون على ما فيه من الإيماءات والإشارات والدلالات المتعلقة بالعلوم والفنون والتقنيات، ولذلك فإنه من الطبيعي أن يكون إنساننا البعيدُ عن القرآن ومعاني القرآن بمنأى عن التطورات العلمية والفنية، فنحن نعيش في عصر يُهمِل فيه حتى رجالُ العلم هذه الحقائقَ، فما بالك بالجموع الجاهلة.

وهناك أمر آخر، وهو أن المعلومات المتعلقة بالعلوم الطبيعية حتى تلك المتعلقةُ بالفيزياء والفيزياء الفلكية والجيوفيزياء لم تكن من الحقائق الثابتة التي لا تقبل النقاش، بل فيها كم كبير من المعلومات التي قالها أصحابها تحت تأثير ثقافات عصورهم وأصبحت اليوم في عداد الأساطير. أجل، لقد كان علماء الفلك إلى هذا العصر قد طرحوا على بساط البحث عديدًا من الأفكار المتعلقة بعلم الفلك، ولكنهم بسبب شحّ إمكاناتهم المتاحة، وبدائيةِ ما بأيديهم من آلات الرصد والمراقبة وغيرِها من الأسباب، بقيتْ معظمُ ما لديهم من المعلومات في مستوى التخمين.

فإذا أخذنا هذه الأخطاء بعين الاعتبار ثم نظرنا إلى القرآن الكريم فسنرى أنه أشار في مرحلة مبكرة جدًّا إلى أمور مختلفة.

وكما هو الحال في العديد من فروع العلم، قد أدى نشوءُ التخصصات الجديدة في علوم الفلك والدراسات الجيولوجية-الجيوفيزيائية في القرن العشرين إلى تكوُّن نظرات ورؤى جديدة، فالتقنيات والعناصر التكنولوجية المؤسَّسة على هذه التركيبات والرؤى الجديدة ستساعدنا على الوصول إلى معلومات أكثر دقة وصحة، وستكون هذه التطورات في معظمها بحيث تُصدِّق ما

يقوله القرآن في هذا الباب، وسيتَّضح جليًّا على الأقل أنه ليس بين الحقائق العلمية والقرآنِ أيُّ تَعارض وتصادم.. ونحن نعتقد أنه سيكون بإمكان القرآن أن يبين لنا بكثير من آياته الحقائقَ العلمية المتعلقة بالكرة الأرضية أو السماء تِبيانًا مختصرًا غيرَ بعيدٍ عن الصراحة.

ز. توسيع السماء

لقد دأَبَ رجال الفكر والعلم على رصد السماء، وطوروا في هذا السبيل مختلف الأدوات التقنية، إلا أنه لما لم يتسن إذكاء جذوةِ تحري الحقيقةِ وحبِّ العلم وشوقِ البحث في النفوس، لم يُكتب لهذه الدراسات التطورُ والتقدم إلى الأمام على الوجه الذي ينبغي، أما علماء عصرنا فإنهم توجهوا مرة أخرى نحو أعماق السماء فاستخدموا مرة أخرى كل الإمكانات التقنية والتكنولوجية، واستطاعوا أن يحصُلوا على معلومات جديدة أدقَّ وأعمقَ من تلك المعلومات السابقة، فظهر في ضوء هذه المعلومات مجددًا أن القرآن الكريم لا يتعارض مع العلوم الحديثة بل إنه في مجمله متطابق معها تمامًا، حتى إنه بما يورده من إشارات في خواتيمِ الآيات يذهب بالموضوع إلى شوط أبعد.

فهاك مِن ضمن بيان الله المعجز آيةً تتعلق بذكر توسُّع الكون بشكل مستمر وهو قوله تعالى: ﴿**وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: 47/51).

فكثير من المفسرين المتقدمين والمتأخرين من أمثال ابن زيد وفخر الدين الرازي والزَّجَّاج وابن كثير وأبي السعود فهموا الآية على أن معناها: إننا نوسع السماوات، أو قد وسّعنا أرجاءها، فإذا لم ندخل في التفاصيل نلاحظ أن هذا المعنى لا يتعارض مع البحوث والاكتشافات العلمية الحديثة، حتى إننا نلاحظ بشكل واضح أنها متطابقة معها في الإطار العام، خصوصًا أن قوله تعالى في سياق الآية: ﴿**وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ**﴾ أي بقوتنا وقدرتنا يؤيد هذا التفسير.

وقضيةُ توسيعِ السماء أصبحت في أيامنا هذه من القضايا التي لاقت رواجًا لدى كثير من رجال العلم؛ ففي بدايات القرن العشرين، نَشَر مَرصدُ "ويلسون (*Wilson*)" بالولايات المتحدة خبرًا يشتمل على ادعاء لم يُطرح من قبل ولم يُسمع به على هذا الوجه، صحيح أنه كانت تنتشر قبل ذلك أخبار

مشابهة لهذا ولكن لم يكن أي من ذلك مؤثرًا بدرجة ما أعلنه مَرصد "ولسون" من هذا الخبر المدعوم بالصور.

فكان محتوى هذا الخبر والاكتشاف أنه قد تم توثيق قسم من أطياف ضوء النجوم والمجموعات النجمية بالصور، وببيان أبسطَ نقول:

إذا نظرنا إلى أطياف الألوان نفهم منها أن بعض النجوم تبتعد عنا، وأن الخطوط الطيفية تميل في نهايتها إلى اللون الأحمر.. وبعد عمليةِ رصدٍ وبحثٍ لمدة طويلة أعلن الخبير الأمريكي الدكتور "هابل (*Hubble*)" تقييمه لهذه الظاهرة، فطَرَحَ قضيةَ تَوَسُّع الكون لأول مرة في العالَم الغربي مما أثار نوعًا من الحيرة والروعة في الأوساط العلمية في عام (1929م).

ثم جاء عالم الرياضيات القسُّ البلجيكي "لومتر (*Lemaitre*)"، فأجرى بعض الحسابات الرياضية، وأعلن أنه يوافق طرح الدكتور "هابل"، وعلى حسب هذه النظرية التي تدعى "بيغْ بانغ (*Big Bang*)" أي الانفجار الكبير ظلت المجرات تبتعد عن بعضها البعض، ويتمدد الفضاء وكأنه منطاد، وظَلَّ الكون بحجمه العملاق يَكبر وينمو، فأصبح اكتشاف هذا الابتعاد في عالم المجرات يتبوأ مكانه باعتباره من أروع الاكتشافات في تاريخ العلوم.

ويسمَّى العاملُ الذي يُستعمل في حساب تباعُد المجرات عن بعضها البعض "ثابت هابل"، وحسبَ هذا المقياس فإنه إذا كان هناك مجرتان تَبعُد إحداهما عن الأخرى بمسافة مليون سنة ضوئية، فإنهما تتباعدان عن بعضهما البعض في كل ثانية 20 كيلومترًا.. فإنْ تضاعفت المسافة بين المجرتين إلى ألف ضعف، فإن سرعةَ تَباعُدِهما أيضًا ستزيد إلى ألف ضعف، فإذا طبقنا هذا المقياس على مجرةٍ تبعُد عن الأرض بعشر مليارات من السنين فإن هذه المجرة تبتعد منا في كل ثانية بسرعة 200 ألف كيلومتر، بمعنى أن هناك توسّعًا بسرعة هائلة تساوي ثلثي سرعة الضوء.

وبالنسبة لما قيل في تفسير الآية في الماضي وما أُورد من الأمثلة لتوجيهها كان من الطبيعي أن تأتي اعتراضات من أهل تلك المرحلة حيث إنه كان من الصعب إدراك مغزى الآية، ولكن في هذا الزمان الذي بدأ العلم يتهجى بعض الأمور، إذا بالقرآن يقول بلسان بسيط وبتقرير للواقع: "إننا

نوسّع السماء"، فهذا أمر يستحق الوقوف عنده بجدية، فإن فيه من التحدي ما يهم إنسان عصرنا أكثرَ بكثير من إنسانِ القرونِ الماضية.

فإذا تنبه الإنسان فسيلاحظ أن الآية بَيَّنت هذه الظاهرةَ بطريقة موافقة لمستوى فهم عصرنا وللمستوى الذي وصلت إليه العلوم من دون حاجة إلى تأويل أو تفسير، وإذ بيَّنَتْها استخدمتْ تعبير "لَمُوسِعُونَ" باللام للتأكيد على أن توسيع السماء من الأمور المحققة التي لا ينبغي لأحد أن يَشك فيها، وأيضًا فالجملة هنا اسمية، فلو استُخدمت "نوسع" لأفادت التجدد والتكرار، لكن الجملة الاسمية تفيد الدوام والثبات.. وهذا له مغزًى آخر، من حيث إفادته أن توسيع السماء أمر مستمرٌّ دائم الوقوع.

وإنَّ عدمَ تناقُض كلام نزل قبل أربعة عشر قرنًا، مع الكشوفات العلمية التي تَحققت في القرن العشرين كاف في الدلالة أنه كلام الله، والحق أنه من غير الممكن عدم ربط مثل هذا الكلام بعلم الله الأزلي. أجل، إن القرآن كلام الله المعجزُ، ومن غير الممكن إسناده إلى موجود غيره ﷻ.

وحين يشار هنا إلى توسيع الكون، تتم الإشارة إلى حقيقة أخرى، وهي أنه يترتب على توسع الكون بوتيرة ثابتة نتيجةٌ قطعية وأساسية، وبالتالي لو أمكن الرجوع بالزمان في الكون إلى الوراء للاحظنا تقلُّص الكون؛ بمعنى أن الكون من حيث إنه يتوسع على الدوام فهذا يعني أن الكون كان قبل مائة سنة أصغر منه في وقتنا الحالي، وهذه حقيقة علمية ليس لأحد أن يعترض عليها، فإذا واصلنا الرجوع إلى الوراء بأقصى قدر ممكن فسنلاحظ أن الكون كان نواة صغيرة بحجم النقطة ولكنه كان على درجة غير متناهية من الحرارة.

فبناء على هذه النظرية، فإن بداية خلق الكون قد حصل -بأمر الله وإرادته- نتيجةً لانفجار عظيم يسمى (*Big Bang*).. بمعنى أننا إذا نظرنا إلى الأمر من الناحية الفيزيائية فإن بداية الكون هي بهذا الشكل أي إنه خلق من العدم، والعلماء في عصرنا متفقون على أن الكون قد خرج من العدم إلى ساحة الوجود المادي نتيجةً لانفجار كبير، ويُعتبر خلق الكون نتيجةً لـ"الانفجار الكبير" نظرية قوية من حيث إنه قد تم دعمه بالبحوث الأخرى.

أجل، إن الكون قد خرج من العدم إلى الوجود بقوله ﷻ: "كُنْ"، فحصل على أشكال وكيفيات مختلفة، وحسب آخر التقديرات، فإن عمر الدنيا قد وصل إلى (13-14) مليار سنة.

ح. تكوير الليل والنهار

إن التعبيراتُ القرآنية المجازية تعتبر من البيانات التي من شأنها أن تفتتح آفاقًا جديدة أمام العلوم والفنون والتكنولوجيا، فهي تتحدث عن تكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل، أي لفِّ أحدهما على الآخر كما تلف العمامة على الرأس، فهذه الآية -من جانب- راعت المستوى المنطقي والإدراكي لمن عاشوا قبل أربعة عشر قرنًا، وفي الوقت نفسه جاءت بتعبير ينيرُ الطريق لأهل القرن العشرين ومن سيأتي بعدهم؛ حيث إنها بينت العلاقة بين الشمس والكرة الأرضية بأسلوب غاية في الطرافة والبداعة:

﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ**﴾ (سورة الزُّمَر: 5/39).

إن كلمة "التكوير" تأتي في اللغة بمعنى لف شيء على آخر، وجعلِه على هيئة كرة، ومنه كور العمامة، فاختيار هذه الكلمة بما توحي به من المعاني في الآية الكريمة يؤكد بوضوح على أن الأرض كروية، فالقول بأن الليل والنهار يُلَفَّان على الأرض كما تلف العمامة على الرأس لذو مغزًى كبير، وأيضًا فإنّ استخدام صيغة المضارع في الآية يدلّ على أن هذا الوضع متجدّد، وأن الليل بظلامه يتبع النهار، وأن هذا النظام يعمل ويتكرر وكأنه مكوك، وهذه أطراف خيوط علمية مهمة.

وهناك آية أخرى تزيد هذه الآية توضيحًا وتزيل ما فيها من الإبهام، وهي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا**﴾ (سورة الأَعْرَافِ: 54/7).

فكلمة "يُغْشِي" هنا من الغَشْي وهو التغطِيةُ والستر ووضعُ غطاء آخر على الغطاء، وهذا التعبير يدل بوضوح أن كلًّا من الليل والنهار يغطي الآخر.

وإذا حللنا الموضوع من الناحية اللغوية فقوله تعالى: "اللَّيْلَ النَّهَارَ" كلاهما مفعول به، وعلى حسب القاعدة النحوية إذا تعدى الفعل إلى مفعولين ليس أصلهما مبتدأ وخبر فإن المفعول الأول منهما هو بمنزلة الفاعل، فعلى حسب هذه القاعدة فإن الليل بمنزلة الفاعل، أي هو الذي يغطي النهارَ، وهذا أمر مهم للجواب على ما يدور في الذهن: أيهما يتبع الآخر؟ الليل أو النهار؟ لأن مدلول الكلمة الأولى هنا هو أنها هي التي تُغطي مدلول الآخر، ويكون الثاني هو المغطَّى والمتبوع، فيتلخص من هذا أن الليل هو الذي يتبع النهار، وأن الظلام هو الذي يغطي الضياء.

وقوله تعالى: "حَثِيثًا" فيه إشارة إلى تفاصيل أخرى، لأن "حثيثًا" معناها أنه يجري بسرعة هائلة تذهل الناظرين.

إن رائد الفضاء الروسي الشهير "جاجارين (*Gagarin*)" قد قال شيئين، أحدهما قبيح، والآخر جيد؛ فالقبيح هو أن هذا الإنسان التعيس بعدما رجع من رحلته الفضائية قال ما معناه: إنني صعدت إلى السماء وتجولت فيها فلم أجد شيئًا يسمى: "الإله"، والأمر الثاني هو قوله: إنني كلما ابتعدت من الأرض وجدت في الدوائر التي على الأرض ظلامًا يلاحق الضياء. أجل، إنّ في الطرف المعاكس للشمس حجابًا مظلمًا يدور حول الأرض.

ولا غرو، فمن حيث إن الأرض كروية تدور حول الشمس، فإن الظلام الذي هو في الجهة المعاكسة يبدو وكأنه غطاء يلاحق الضياء، ولكن لا بد لفهم هذا الأمر جيدًا أن يقوم الإنسان برحلة فضائية، وقد جلب القرآن الكريم الأنظارَ قبل عصور إلى هذه الحقيقة بقوله: "يَطْلُبُهُ حَثِيثًا" بمعنى أن الظلام يلاحق النور.

ويُفهم من هذا أن المظلم هو الأرض، وأن المضيء هو الشمس، ووفقًا لذلك فإن الأرض هي التي تلاحق الضياء وتطلبه، وأنها هي التي تدور بسرعة هائلة حول الشمس وكأنها حجر مقلاع، ولو كانت الأرض مسطحة غير كروية لم يكن للظلام أن يواصل مطاردةَ الضياء، ولكان أحدُ وجهي ذلك المسطَّح مضيئًا على الدوام، بينما يظلّ الجانب الآخر في ظلام دائم.

أجل، إنّ كلًّا من هذه إشاراتٌ لا تتناقض مع الكشوفات العلمية، وقد ذكرها القرآن في بضع كلمات، ولكنها تعبيرات مركّزة جدًّا، لو تم تحليلها في عصرنا وأُجريت حولها البحوث، واستعين بالتلسكوبات العملاقة لظهر للعيان مدى تلألؤِ الحقائق القرآنية وتالُّقها.

والإنسانية كلما تقدمت في العلوم والتكنولوجيا اتّضح لها من التعبيرات القرآنية نكات ذات أسرار، وسينادي القرآن على رؤوس الأشهاد مرة أخرى أنه كلام الله تعالى.

ط. رفعُ السماء بغير عمد

هناك العديد من الفرضيات التي طُرحت حول السماوات الممتدة فوق رؤوسنا بهذه الحالة الرائعة التي تذهل العقول، وقد عُبر في القرآن الكريم عن دوران الأرضِ في الفضاء بـ"السباحة" و"الجريان"، كما عُبر عن رفع السماء بقوله تعالى: ﴿**بِغَيْرِ عَمَدٍ**﴾ أو ﴿**بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾ أي إن هناك أعمدة غير معلومة الماهية.. لكنها لم تُفهم في القرون الأولى على وجهها، ولذلك طُرحت حول الموضوع نظريات بسيطة من شأنها أن تُضحك الإنسان، فمثلًا هناك بعض علماء أهل الكتاب الذين لم يستوعبوا القضية حاولوا أن يصوروا أن الكرة الأرضية محمولة على ثور أو حوت أو صخرة وغير ذلك من الأمور التي يأباها العقل والمنطق، فعلى حسب تفسيراتهم هذه فإن الكرة الأرضية هي بين قرني ثور عملاق، فكلما هز الثور رأسه أدى ذلك إلى حدوث هزات أرضية، والحقيقة أننا إن اعتبرنا الروايات التي يرِد فيها الحديث عن الثور أو الحوت، فمن الممكن أن نجد لها وجهًا صحيحًا بأن نحملهما على معناهما المجازي[84].

أجل، إن إنسان تلك العصور لم يكن لديه من المعلومات ما يوصله إلى مستوى من الإدراك والمحاكمة العقلية ويجعلُه يتعقل إمكان سباحة الكرة الأرضية في الفضاء،

بل لم يكن مطّلِعًا على المواضيع من أمثال قوة الجاذبية والدافعة، في حين أن القرآن الكريم يَذكر أنه ليس للسماوات والأرضين أعمدة مرئية، وأن هذه الأجسام السماوية تربطها روابط غير

---

[84] انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة الرابعة عشرة، المقام الأول، ص 124-128.

محسوسة ولا مرئيةٍ، وبذلك يَهدِم تلك الأوهامَ القديمة من الأساس؛ حيث يقول الله تعالى في هذا الصدد: ﴿**اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾ (سورة الرَّعْدِ: 2/13).

ولنركز على الكلمات التي استخدمت في الآية الكريمة وخصوصياتها الدلالية: إن قوله: "رَفَعَ" يدل على نقل الشيء من مكانه نحو العلو، ولا يرادفه "نَصَبَ"، فقد يكون الشيء عاليًا ومنتصبًا ولكن لا يكون مرفوعًا، لأن قاعدته غير مرفوعة ولا منقطعة عن أرضيته.

وعلى حسب ما نفهمه من الآية الكريمة فقد رفع الله الأرض والسماوات من دون أن تستند على شيء، فهي قبة ممتدة على رؤوسنا، كما قال تعالى: ﴿**وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ**﴾ (سورة الطُّورِ: 5/52).. فالله قد وضع قانونًا يحمي به الكرة الأرضية من آلاف النيازك التي تأتي كل يوم فتصطدم بالغلاف الجوي الذي لولاه لدمرت الأرضَ.. وهناك قانون آخر به يَحُول بين أن تتصادم الأنظمة السماوية كما يحميها من غير ذلك من المخاطر.

ورُوي عن متقدمي المفسرين من أمثال مجاهد وقتادة وعكرمة والحسن البصري ﵃ أن ابن عباس ﵄ فسّر الآية التي تدل على أن السماء بغير عمد بقوله: "لَهَا عَمَد وَلَكِنْ لَا تُرَى"، أي لأنها ليست من جنس المحسوسات التي تدخل تحت الحواس.

فهناك عمود وسند للسماء يمسك بها لكنه لا يُرى بالعين لأنه ليس من المحسوسات.. فقبل مائتي سنة تقريبًا اكتُشفَ هذا العمود والسند الذي لا يرى بالعين، ألا وهو قانون "الجاذبة والدافعة"، وهذا يدل على أنَّ كل الأجرام تتحرك في إطار هذا القانون.

وما أشارت إليه الآية بشكل موجز لهو من الأمور المثيرة للاهتمام، حيث إنها تدل على المراد وتُسمِّيه باسمه (عمد)، ولكن الواقع أن هذين الأمرين المتناقضين (الجذب والدفع) ما يزال كلٌّ منهما مجهولَ الماهية، صحيح أن أمثال نيوتن وآنشتاين أدْلوا بدلوهم في الموضوع وقدموا حوله أفكارًا، إلا أنهم لم يستطيعوا بعدُ أن يبينوا الأمر بماهيته وطبيعته الحقيقية، بل جلُّ ما قاموا به هو أنهم عرَّفوا القانون ووضعوا له اسمًا، وأما من يَعرف ماهية الأمر على وجهه الحقيقي فهو الله وحده

الذي وضع ذلك القانون، ولا بد في هذا الباب من معرفة أن الله تعالى يرفع السماوات بهاتين القوّتين المتناقضتين، بقطع النظر عن اسمهما وعنوانهما.

ولا شك في أن التوازنات التي خلقها الله تعالى لتحقيق النظام على وجه الأرض قد أُسست -في دائرة الأسباب- على بعض القوى والحركات، وهناك أمور أخرى لها تأثير على هذا الأمر مثل: نوع المواد المكوِّنة للكتلة، وأوصافها وحجم الكتلة ووزنها، وقوّة جذبها، وحركيتها، والمسافة بينها وبين غيرها، حتى -من المنظور الآينشتايني- الأجرام السماوية التي تشغل حيزًا في الفضاء، وكل الجزر الفضائية، ولكن الأمر يرجع في نهاية المطاف إلى ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ**﴾ (سورة لُقْمَانَ: 10/31) وقوله: ﴿**اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾ (سورة الطُّور: 5/52).

ي. المنظومة الشمسية ونشوء الكرة الأرضية

تُعتبر الشمس مركز المنظومة التي نعيش فيها، وهي جرم سماوي كبير يبث الحرارةَ والضياء إلى ما حوله من الكواكب وما تمر به من سائر الأماكن، وهي من حيث الحجم أكبر من الكرة الأرضية بمائة وتسعة أضعاف، وقُدِّر عمرها بـ(4.6) مليار سنة، وترتفع درجة الحرارة في داخلها إلى خمسة عشر مليون درجة، ويقال إن طول الأعمدة الغازية الساخنة المتدفقة منها في الفضاء يبلغ 400.000 كم.. ومن يرصدها بأجهزة التلسكوب فإنه لا يتمالك إلا أن تأخذه مشاعر الدهشة والروعة تجاه ذلك المظهر الباهر.

ولكنا إذا نظرنا إلى الشمس من زاوية كونها مسخَّرة لأوامر الله الذي هو آخذ بزمامها ومتحكم فيها، فإننا سنرى أن هذه الشمس العملاقة المدهشة والعظيمة مخلوقٌ ضعيف وحقير قد سخرها الله للإنسان وجعلها خادمة له على وجه الأرض.

فنراها تنشر فيما حولها الحرارة والضوء فتُدفئ مِن جانبٍ وجهَ الأرض وتُنيره، ومن جانب آخر تكون وسيلة إلى التركيب الضوئي في النبات فتخدم مواصلة الحياة على الأرض.

وأما الكرة الأرضية فإنها تعتبر طائرة أو سفينة فضائية، أو مركوبًا خصّصه الله تعالى لخدمة بني الإنسان، وسماها في القرآن الكريم "مهدًا"، وأودع فيها شتى أنواع النعمة التي ننعَم بها.

فتجهيز الأرض بهذا الشكل الرائع، وطلوعُ الشمس وغروبها في أوقات معينة، وإضاءتها للدنيا وكأنها شمعة عملاقة، وغيابها لفترة معينة من الزمن لإتاحة فرصة الاستراحة للإنسان، وتَحرُّكُها ضمن منظومتها، وتأثيرُها على الأجرام المرتبطة بها، وضياؤها، وألوانها.. كلُّ ذلك لم يزل يشغل عقول المفكرين ويُلهِمُ قلوب أهل الاستعداد بشتى ألوان الإلهامات.

ومنذ القديم ظل رجال الفكر والعلم يضعون نظريات حول تكوُّن المنظومة الشمسية، وتَشَكُّل الأرض وعلاقتها بالمنظومات السماوية وغيرها.

وأول من قدَّم معلومات منظمة -ولو على مستوى النظرية- حول الكرة الأرضية والشمس هو "بوفون (*Buffon*)"؛ حيث افترض أن مذنّبًا ضخمًا اصطدم بالشمس، ونتيجة لهذا الاصطدام تناثرت من الشمس كمية ضخمة من الغاز نحو الفضاء في مسافات وأمكنة مختلفة، ثم بردت هذه الغازات بسبب ابتعادها عن الشمس وتشكلت الكواكب السيارة، أما الأقمار فتشكلت من خلال كتل صغيرة من هذه المادة كانت تدور حول الكتل السَّدِيمِيّة الكبيرة أي الكواكب السيارة.

وقد تبدو هذه النظرية في أول وهلة وكأنها معقولة ومنطقية، إذ من الممكن إذا أراد الله تعالى ذلك أن يُصدم مذنَّبًا بالشمس ثم يُحدث من ذلك قطرات، ثم تبتعد تلك القطرات بقوةِ الطرد المركزي، ثم تبدأُ بالدوران حولها بقوة الجذب المركزي، إلى أن تتشكل الكرات والأقمار التوابع على هيئتها الحالية، إلا أن نظرية "بوفون" هذه لم يمكن إثباتها حسب المبادئ الرياضية، كما أنها قوبِلَت بكمٍّ هائلٍ من الانتقادات.

ثم جاء الفيلسوف الألماني "كانْط (*Kant*)" فأعاد صياغة هذه النظرية بشكل أكثر منهجية، فعلى حسب ما قاله "كانْط"، لم يصطدم أي مذنَّب بالشمس، بل إنه بينما كانت الشمس كومة هائلة من الغازات تدور في مدارها، إذا بها تزداد سرعتها، وكلما زادت سرعة دورانها، بدأت هذه الكتلة الغازية تبرُد بسرعة كبيرة، ونتيجةً لهذه البرودة انفلتت بعض القِطع من الشمس، وهذه القِطع

المنفلتة منها بدأت تدور حولها في إطار قانوني الطرد والجذب المركزي، وهكذا تشكلت المنظومة الشمسية، ومع أن "كانط" لم يكن من علماء الرياضيات إلا أن آراءه هذه لاقت قبولًا واسعًا في الأوساط العلمية.

ثم جاء بعد "كانط" عالمُ الرياضيات الفرنسي "لابلاس (*Laplace*)"، فتناول الموضوع بطريقة أكثر إحكامًا، وطوَّر نظريته، حيث إنه أثبت نظرية "كانط" بالرياضيات، وحقَّق لها الشهرة بين الناس، إلا أن هذه النظرية تقادمت بعد فترة زمنية معينة بعامل الزمن، فتلقت نصيبها من انتقادات "ماكسويل (*Maxwell*)" الذي جاء بعده، حيث إنه ادّعى أن كلًّا من "كانط" و"لابلاس" وقعا في الخطإ، معتبِرًا أن الساحة التي تضمّ الشمس والكواكب واسعة شاسعة جدًّا، وأن هناك كثيرًا من المنظومات هي من البعد بحيث تخرجُ عن نطاق جاذبية الشمس، وليس من الممكن أن تدخل تلك المنظومات في مجال جاذبية الشمس، فعلى حسب ما قاله "ماكسويل" ليس لجاذبية الشمس أن تجذب تلك الكواكب البعيدة ولا أن تديرها حولها.

ولكن أفضل من انتقد نظرية "كانط" و"لابلاس" بطريقة علمية هو الفلكي الكبير السير "جيمس جينز (*Sir James Jeans*)"، فإنه قدَّم أفكاره مدعومة بالأدلة العلمية، وظلت نظريته تشغل الأوساط العلمية إلى أن برز على الساحة "نيلس بور (*Niels Bohr*)" المتخصصُ في علم نشأة الكون، الدنماركي الأصل والعضو في الأكاديمية الفرنسية للعلوم والذي

لا تزال نظريته سائدة حتى في أيامنا هذه.

يقول "بور": في البداية كانت جميع الأطراف على شكل الدخان كالغاز والبخار، ثم تجمّعت الجُسيمات الذرية شيئًا فشيئًا وشكّلت الكُتل، فكل كتلة بما فيها من قوة الجذب المركزي جذبت ما حولها، فأخذتْ هذه الكتل تَكبُر شيئًا فشيئًا، ثم تواصلت الانشطارات والتكتّلات بشكل مستمرّ كما كانت في البداية، ولم تزل هذه الانشطارات والانحلالات تتعاقب في الكون على الدوام، وستظلّ فيما بعد أيضًا، بمعنى أن الذرّات تتجمّع فيما بينها فتحصل منها تركيباتٌ وكتل جديدة، وهناك شموس أكملت عمرَها نوعًا ما، فهي تتفكّك وتنحو صوب الانشطار من جانب، بينما في

الجانب الآخر تتجمّع الجسيماتُ دون الذَّرِّية، ومعها الذرّاتُ، إلى أن تتجمّع الجزيئاتُ، فتتشكّل في نهاية المطاف كتلٌ كبيرةٌ مرة أخرى.. وستستمرُّ هذه الحالة متكرِّرة إلى ما شاء الله تعالى.. ويتحدث "آينشتاين" أيضًا عن نشوءِ كائنات جديدة في أمكنة مجهولة بالنسبة لنا، وقد يكون ما قاله تعبيرًا عن هذه النظرية الأخيرة.

وإذا أردنا أن نضع قاسمًا مشتركًا بين جميع هذه النظريات، فإننا نستطيع القولَ بأن الأقدمين والذين جاؤوا من بعدهم من العلماء ينظرون إلى الكون ككلّ، وعلى حسب ما قالوه فإن الكون كان كومةً من الغازات، ثم تواصلت رحلتها على هيئةِ تَصادُم الجزيئاتِ والجسيمات الذرّية وتجمُّعِها وتشكيلها فيما بينها قوة الجاذبية، إلى أن تكوّنت منها كتلٌ جسيمة كبيرة، ويمكن أن نشبِّه هذا النمو -في الجملة- بنمو الجنين في الرحم؛ حيث إن الجنين في بداية أمره يكون عبارة عن بويضة، ثم يتغذّى شيئًا فشيئًا إلى أن يتطوّر وينموَ ويصلَ إلى حد معين من الجسامة، وعلى الشبه من ذلك، فإن جزيئات الذرة تتجمّع، فتتفاعل فيما بينها فتُشكِّل الكتلَ إلى أن تنمو هذه الكتلُ فتشكّل في نهاية المطاف تلك الأجرامَ الفضائية العملاقة.

فكلّ ما سردناه هنا إنما هو نظريّات طُرحت منذ فترة طويلة على بساط البحث حول خلق الكون، والفارق فيما قلناه هو تبسيط الأسلوب ليفهمه العوام، وإلا فإن معظم الآراء تتركّز حول ما ذكرنا، ولْنلخصِ الموضوع ثم ننتقلْ إلى ما ذكره القرآن في هذا السياق:

إن الفرضيات التي طرحها كل من: بوفون وكانط ولابلاس وماكسويل والسير جيمس جينز حول نشوء الكون هي نظريات تأثرت ببعضها البعض إلى أن وصلت إلى يومنا هذا، أما القرآن المعجز البيانِ فهو يستخدم في هذا الباب أسلوبًا مختلفًا، فلا يدخل في التفاصيل ولا يتطرّق للقضايا الجزئية، بل يربط كل شيء بالمشيئة والإرادة الإلهية، ويُغلق الأبواب أمام إسناد الأمور إلى الطبيعة أو الأسباب أو الصدفة فيقول: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: 30/21)، فالآية الكريمة تصرّح بأن جميع الأنظمة كانت "رَتْقًا" أي متصلة ثم انفصلت عن بعضها البعض، ففي هذه السورة عبر عن هذا الوضع بـ"الرتق"، وفي سورة الدخان بـ"الدخان" أي شيء يشبه الدخان-السحاب، وكلا المعنيين

يعني أنها كتلة واحدة، وليس لأحد أن يعترض على هذا الإجمال الرائع، ومن الطريف أن هذه الآية فهمها العلماء المسلمون منذ القرون الأولى بهذا المعنى بفوارق طفيفة.

فبالنسبة لقوله تعالى: "رتقًا" هناك بعض التفسيرات نوجزها فيما يلي:

1- يروى عن ابن عمر وابن عباس أنه لم تكن بين السماوات وأجزائها وبين الأرض أية علاقة وتبادل، فكانت الأرض يابسة والسماء بدون سحاب.

2- وهناك رأي آخر رُوي عن تلاميذهما وهم مجاهد وعكرمة والحسن البصري، وهو أن السماوات والأرض كانتا متلاصقتين عديمتي النفعِ.. ثم فتح الله بينهما وفكهما على شكل منظوماتٍ.

3- روي عن أكثر الصحابة والتابعين أنهم فسروا الآية بأن السماوات والأرض كانتا موجودتين ولكنهما لم تكونا مرئيتين (كانتا ركامًا غازيًّا)، فجعلهما الله بحيث تنفتحان وتتفككان وتُريان بالعين.

وهذا الوجه رواه مجاهد ﵁ وهو من مشاهير تلامذة ابن عباس ، ورواه كذلك كبير الأولياء الحسن البصري ﵁.. وهما إماما من أئمة التابعين، وقد أورده ابن جرير الطبري وابن كثير في تفسيريهما بالتفصيل.

ويتلخص من هذه الآراء أنه لم تكن في البداية أية علاقة بين السماوات والأرض؛ لأن الأرض والسماء في ذلك الحين كانتا عبارة عن قطعة نار أو دخان، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ**﴾ (سورة فُصِّلَتْ: 11/41)، حيث تَذكر الآية بوجه صريح أنه لما توجهت إرادة الله إلى السماء كانت عبارة عن دخان.

ثم بعد ذلك انتهت هذه القطيعة بين السماء والأرض فبدأت بينهما مناسبة، ولما أوجد الله بإرادته وقدرته هذه المناسبة بين السماوات والأرض، بدأ بينهما التبادل، فأرسلت السماء أطياف النور، فخلق الماء على وجه الأرض بأمر إلهي، فأعقب ذلك تبخُّرُ الماء، فالغلافُ الجويُّ، فالسحبُ، فالمطرُ، وفي نهاية المطاف تمت مرحلة المواءمة بين الأرض والسماء، وبذلك تكوّنت

بيئة ملائمة للحياة، فنلاحظ أن الله تعالى يسند كل ذلك إلى ذاته وينوطها بمشيئته قائلًا: "ففتقنا.. وجعلنا..".

أجل، إن الله تعالى هو الذي أنشأ كل هذه التكوّنات في تناغم مذهل؛ لأنه ليس من الممكن شرح هذه الأحداث بالمصادفة، ولن يكون ذلك الادعاء مما يقبله العقل، وإذا لاحظْنا التعبير القرآني فإننا سنفهم ما يلي: إن السماوات كانت على هيئة "دخان-غاز"، فأردنا أن نمنحها ماهية مختلفة، ففصلنا هذا الركام الغازيَّ إلى قِطع فخلقنا منها منظومات شمسية، ونظمنا تلك القطع الصغيرة والكبيرة على شكل توابع وأقمار في نظام معين؛ والكرة الأرضية التي نعيش عليها هي من ضمن أفراد تلك المنظومة، وتظلّ تدور حول الشمس.

إن أسلوب الآية الكريمة في منتهى الرصانة والوضوح والشمول، وغيرُ قابل للنقاش، ولن تجد فيه ما تلاحظه في أسلوب البشر من أمثال: "يا ترى" أو سائر الكلمات الموحية بالتردّد أو التخمين.

أجل، إن الآيات الكريمة تُورِد القضايا بأسلوب محكم للغاية وعلى شكلِ قوانينَ مقررة؛ حيث إن الآية -من جانبٍ- تحثُّ رجال العلم والباحثين على إجراء البحوث من دون تردد، ومن جانب آخر تفسح المجال لمن يريد أن يدلي بتفسيره في حذر.

ولعل هذه القضايا التي ذكرها القرآن حول الشمس والسماء والأرض وكأنها قوانين، إذا تم تحليلها بشكل جاد من منظور الفيزياء الفلكية فسيتبين أنه قد سبق كل العصور، وسيَظهر مرة أخرى مدى إحكام هذه القوانين التي أتى بها القرآن، خصوصًا ونحن في عصر يتيح لنا هذا الكمُّ الهائل من الأدوات التكنولوجية والتلسكوبات فرصةَ رؤيةِ الأجسام التي تَبعد عنا بمسافةِ ملياراتٍ من السنوات الضوئية، ومهما أورد الباحثون من نظريات فإن التعبيرات المعجزة للقرآن الكريم ستبقى في آفاق تفكيرنا وبحوثنا مشرقةً متلألئة، فأسلوب القرآن جامع شامل لما في كل العصور من العلوم والمعارف، وستظل الألسنُ تذكره بهذا الجانب باعتباره رمزًا للتفرّد.

والحاصلُ أن كلّ شيء قبل أن تتجلّى فيه إرادة الله مرة ثانية كان في حالة "رتق" و"دخان"، ففتقه الله تعالى وفرّقه وشكّله، وكانت الكرة الأرضية أيضًا جزءًا من هذا الرتق، ولكنها بمرور الزمن

تحولت إلى وحدة مهمة من وحدات الفتق، فهي أيضا كانت في البداية كتلة غازية، ثم بردت فأصبحت فِراشًا دافئًا ومهدًا وعشًّا وحديقة وبستانًا يستفيد منه بنو الإنسان.

وأما الشمس فإنها بحكم مهمتها ظلت في موقعها وواصلت حالتها السابقة بتغير طفيف بصفتها فرنًا يتحول فيه الهيدروجين إلى هليوم ومصدرًا للضياء باعتبارها أهم حلقة من حلقات السلسلة التي تُمِد بالحياة، ومصداقًا لقوله تعالى: ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**﴾ (سورة التَّكْوِيرِ: 1/81)، فإن الشمس التي خلقت من العدم وأنشئت من الأثير والدخان وكانت مصدرًا للضوء والحرارة بالنسبة لكثير من الأجرام السماوية، إذا انتهت مهمتها في هذا العالم فإنها ستُكوَّر في العالم الآخر، وستُواصل هناك طريقَ التغير حسب تقديرِ الله.

لم يلتق الإنسان بالكرة الأرضية إلا بعد أن أصبحت مهيَّأةً للحياة وكأنها مهد، وليس من الممكن إسناد أي كائن حي في الكون إلى المصادفة أو التطور أو الطبيعة، فإن كل شيء ينمُّ بوضوحٍ عما وراءه من القصد والإرادة، ولعل السبب الأساس لوقوع أنصار نظرية التطور في مأزق هو أنهم لا يرون -أو لا يريدون أن يروا- ما في الكون من الإرادة والشعور والقدرة والحكمة، وهذا مأزقٌ ليس لهم أن يتخلصوا منه إلا إذا أراد الله لهم ذلك بقدرته وإرادته، وبدلًا من أن يكون هذا الوضع الرائع في الكون دليلًا لهم على حقيقة خلق الكائنات الحية ومِن أدلّ الدلائل على وجود الله ووحدانيته إذا بنا نُفاجَأُ بهم وقد عكسوا القضية وقلبوا الحقيقة رأسًا على عقب، ولم يروا يدَ القدرة، فأسندوا هذا النظام الكوني الهائل، ونسبوا قضية الحياة -التي هي من الظواهر المهمة- إلى الطبيعة والمصادفات.

يقول الله تعالى في حديثه عن خلق الإنسان: ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ**﴾ (سورة السَّجْدَةِ: 7/32).

وهذا الخليط من الطين أو الصلصال أو مما على وجه الأرض من المعادن هو المكوّن الأساسي للإنسان، فمُعظَمُ ما في جسمِ الإنسانِ موجودٌ في التراب أيضًا؛ فقد خلق الله تعالى الإنسان من مزيج من العناصر التي تشكِّل الأرض مثل النيتروجين والكربون والهيدروجين والأوكسجين

والكبريت وغيرها كعناصر أساسية للكائنات الحية، فهو تعالى جعل هذا الخليط شيئًا وكأنه حساء من البروتين، ثم شكَّل ذلك المزيج وصوَّره وخَلق منه بني الإنسان.

ويتحدث الله تعالى في آية أخرى عن مرحلة أكثر تقدُّمًا لخلق الإنسان فيقول: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ**﴾ (سورة الْحِجْرِ: 26/15)، أي من طين مطبوخ بالنار، وتراب مُبتَلّ مُنْتِن.. أو من طين جاف مطبوخ، ومن طين أسود مشكَّل.

ويقول تعالى منوِّهًا بشأن الماء وأهميته بالنسبة للحياة: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: 30/21).

ويقول: ﴿**وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (سورة النُّورِ: 45/24).. فكل من هذه الآيات تدل بأسلوب مختلف على هذه الحقيقة.

والمبدأ الأصلي للإنسان في معظمه هو الماء، فالماء الذي تحتويه ماهيةُ أي كائن حيّ بدءًا من الخلية الصغيرة وانتهاءً بشجرات الصنوبر العملاقة بكاليفورنيا، هو أكثر بكثير مما تحتوي عليه من الجزيئات الأساسية بأضعاف الأضعاف، ويشكِّل الماء قرابة ثلاثة أرباع جسم الإنسان أيضًا، وجميعُ ما في داخل الخلية من العضيات والكربوهيدرات وجزيئات الدهون والأحماض الأمينية إنما تعوم وتتحرك في وسط مائع، فالماء هو القسم الحاكم في الكائن الحي.

والماء له موقع أساسي في سائر الكون أيضًا، فأُولى الكائنات الحية قد خلقت في شواطئ المياه، ولذا نلاحظ أن القرآن الكريم يصرح بأن الماء هو أساس الحياة، ولم يفهم العلمُ الحديث هذه الحقيقةَ على هذا الوجه إلا بعد قرون طويلة، في حين أن القرآن الكريم قد أشار قبل أربعة عشر قرنًا إلى هذه الحقيقة بأسلوب واضح جليّ كما نفهمه من الآيات التي مرّت بنا آنفًا.

وحاصل القول: إننا إذا تناولنا أيّ مرحلة من مراحل الحياة، بدءًا من ذوات الخلية الواحدة وانتهاءً بالكائناتِ بالغةِ التعقيد فإننا نرى أن الماء هو العنصر المهيمن فيها، ولكننا سنلاحظ أن القرآن الكريم عبَّر عن هذه الحقيقة العظمى في جملة قصيرة، وذلك مثير للاهتمام وفي الوقت

ذاته ذو مغزى كبير، فإن إنسانَ ما قبل (1400) سنة لم تكن لديه أية معلومة لا عن كيفية الخلية ولا عن نسبة الماء في تكوين الحياة.

فبالآيات الآنفة الذكر، يلفت القرآنُ الكريم الأنظارَ إلى جميع العناصر الأساسية في خلق الكائنات الحية، فيقوم بدور المرشد للعلوم بشكل إجمالي، ويترك أمر الدخول في تفاصيلها وفروعِها لرجال العلم في مستقبل الزمان، فمن لا يراه ﷻ من وراء هذا الإجمال فهو أعمى، كما أن من يخوض في حقه تعالى في التفاصيل فهو عديم البصيرة.

ك. القرآن الكريم وحياتنا العلمية

إن القرآن المعجز البيانِ قد اهتم بكل ما يهم الإنسان من القضايا، لأنه نزل منبعًا للهداية والسعادة لبني البشر، ولقد ظل العلم والتكنولوجيا يتطوران مرتبطَين ارتباطًا وثيقًا مع حياة البشر، وبالتالي فإنه من الطبيعي جدًّا أن توجد في القرآن ألفاظ مجملة متعلقة بمثل هذه التطورات، ومع أن المبادئ التي جاء بها القرآن مبادئُ تنظِّم الحياة الدينية والأخلاقية والروحية والاجتماعية، إلا أن فيه أيضًا إشاراتٍ علميةً في آياتٍ تشوِّق إلى العلم والتكنولوجيا صراحةً أو ضمنًا.

إن النظام الذي جاء به القرآن هو في حد ذاته من الكمال بحيث لا يدع مجالًا للفراغ لا في الجوانب الأنفسية ولا الآفاقية، وكما سبق أن قلنا: إن القرآن يتحدّث عن كل شيء بدءًا من قلب الإنسان وانتهاءً بأعماق السماوات، فيُجمِل في بعضها ويفصِّل في البعض الآخر، فأسلوبه يتمتع دائمًا بالأكملية، ولقد أدرك المسلمون في العصور الأولى هذه الأكملية فتعمقوا، إلى جانب العلوم الدينية، في العلوم الكونية، فأسسوا على وجه المعمورة مَراصد ومراكز طبية وقاموا بأبحاث جادة.

فكانوا في البداية يُجْرون بحوثهم بالعين المجردة، ثم طوروا في المراحل التالية أدوات تُسهِّل عليهم عملية البحث وتُوصِلهم إلى نتائجَ أقرب إلى الصحة، فمِن خلالهم سَمِع الأوروبيون معلومات حول كسوف الشمس وحركات النجوم وكروية الأرض ودورانها حول الشمس وغيرها من الظواهر الفلكية.

فهذه الجهود منهم إنما هي مثالٌ على مدى امتثالهم للأوامر القرآنية المتعلقة بالكون، فقد تَناوَل القرآن قضايا الشريعة الدينية مع الشريعة الفطرية وقدمهما لأهله معًا وكأنهما وجهان لحقيقة واحدة، فكما أنه أمر بالصلاة والزكاة فقد حثّ على رصد الكون بكل جوانبه، والبحثِ والتدقيق حول آثار الله التي خلقها في الأرض والسماء، وفي ظننا أن هذا هو التقوى بالمعنى الحقيقي.

أجل، إن إهمال أية واحدة من الشريعة الدينية أو الفطرية يعني ممارسة الحياة في بُعد واحد، ولعل هذا هو السبب الرئيس وراء الانقراضات التي ظلّ العالم الإسلامي يعاني منها منذ قرنين أو ثلاثة قرون.

ومع أن القرآن شجّع على العلم والتكنولوجيا والتفكرِ في الوجود والكون، فقد ظهر من بينِ أظهُر المسلمين جَهَلةٌ ليس لهم نصيب من القرآن يتحاشَون التفكر فيما أوجده الله من المخلوقات، وقد وصلت بهم التعاسة إلى أن يقولوا: ماذا يجدي التفكر وإجراءُ البحوث حول الأجسام الموجودة في الأرض والسماء؟ ففي حين أن الله ﷻ أمر المؤمنين بتدبر ومشاهدة آياته في الأرض والسماء، فقد نشأ من بينهم عديد من المحرومين فسروا هذه الأوامر على حسب فكرهم، ومع أن المسلمين الأوائل كانت قلوبهم وعقولهم متنورة بالعلوم والفنون والتقنيات، وبذلك تعمقوا في العالم الداخلي الأنفسي والعالم الخارجي الآفاقي؛فقد ظل الذين قطعوا الصلة بين الشريعة الفطرية والأوامر الدينية يتخبطون في مآزق حلقتهم المفرغة ودائرتهم الفاسدة، فتقهقروا بالعالم الإسلامي إلى ما وراء الوراء كما هو عليه حالنا اليوم.

أما القرآن الكريم فقد ظلَّ يلقي بآياته النورانية الضوءَ على الحقائق العلمية التي ستُكتَشف في المستقبل، ويدأَبَ على الحديث عما ينير العصور من ضياء القلوب ونور العقول، والعارفون بكنه الأمور هم على وعيٍ بأن العلم والتقنيات مهما قطعت من الأشواط وبلغت من المستوى فإنها ستظل محتاجة إلى نور القرآن وضيائه، وكلما شاخ الزمانُ فسيزداد القرآن شبابًا وطراوة، وإن بياناته الطرية لهي بمثابة مفاتيح سحرية من شأنها أن تُنَوِّر رجال العلم والفكر في كل عصر، وتعيدَ فتح الآفاق المُنْسَدّة، ولكن للأسف لا تزال الجهود المبذولة في فهم هذا الجانب منه ضئيلة على الرغم من وجود توجه جديد نحو القرآن، وإننا لعلى قناعة تامة بأنه إذا أتى يوم يُجرِي فيه رجالُ العلم

والفكر بحوثهم في محور القرآن، فإن القرآن أيضًا سينفتح عليهم بكل وارداته، وكما أنه أَخذ بيدِ إنسانِ عصرِ السعادة -أعني العصر النبوي والراشدي- فسيأخذ بيد إنسانِ القرن الواحد والعشرين أيضًا، وسيرتقي بالبشرية إلى أرقى مستوى.

إن نظرتنا ههنا إلى القرآن، وتحليلنا للآيات التي لها علاقة بالعلوم والتكنولوجيا، إنما هو من باب تحفيز همم أرباب الاختصاص والأهليةِ في هذه المجالات، فإن الحديث في المجالات التقنية إنما هو شأن أرباب العقولِ النيّرة من أصحاب التخصّص في تلك الميادين، وما نريد أن نفعله هنا هو أننا في سياق بيان أن القرآن معجز من هذه الناحية سنركز على بعض الآيات مُحاوِلين جلب أنظار المشتغلين بهذه المجالات من أهل الاختصاص ولفْتَها إلى هذه الآيات.

ولقد حُرِّر في هذا الموضوع العديد من الكتب، إلا أن المؤلِّفين حاوَلوا في معظم ما كتبوه أن يبينوا أوجه التوافق والتطابق بين الحقائق العلمية وبين الآيات التي تُلْقي الضوء عليها، مما يعني أنهم أرادوا أن يُرَكِّزوا في معظم أعمالهم على إثبات جوانبِ الموافقة بين القرآن وبين التطوّرات الحاصلة في الوقت الحالي.

وهناك أسئلة حاول الكثير منهم الإجابة عليها، منها:

إلى أين سيتوجه العلم في المستقبل؟ وماذا سيمتلك الناس بالنسبة للتقنية والتكنولوجيا؟ هل سيكون للقرآن وعود بأمور خاصة في باب العلوم التقنية؟ وإن كان هناك أشياءُ من هذا القبيل فعلًا فهل من الممكن التنبُّؤ بها من الآن؟ ما الغاية من التطورات الحديثة؟ هل الغاية المُثلَى من الحياة هي التطور في المجال التقني؟ ما هي أوامر القرآن وتوصياته

في هذا الباب؟

ومنذ القرن الثامن عشر تحولت أيام المسلمين من إقبال إلى إدبار وأصبح المثقفون منهم يعيشون تزعزعات في القيم، ولكنهم لم يزالوا في أثناء غفواتهم هذه يدندنون بين النوم واليقظة بمثل هذه الأمور.

ونأمل من الباحثين المسلمين في أيامنا هذه أن يتوجهوا مرة أخرى بكل ما يملكون من جهد وطاقة إلى القرآن ويتخذوه أساس بحوثهم العلمية حتى يحرزوا ما وعد الله به في القرآن من شرفِ وراثة الأرض الحقيقية في مجال العلم والتقنيات والثقافة والحضارة.

وأرى لزامًا عليَّ أن أبادر بالقول بأن عصرنا قد صار مسرحًا لتطورات علمية كثيرة، وذلك يحفِّز فينا الأمل في المستقبل، ولكن الحقيقة هي أنه كلما بلغت التقنيات والحضارة الذروة فسيعني ذلك أن هناك في الوقت ذاته أنواعًا من التهديدات والمَخاطر، ولا يمكن تخطيها والحدُّ من أخطارها إلا بالأسس التي جاء بها القرآن، فقد أثبتت الأزمات الاجتماعية والروحية والثقافية التي يعيشها الإنسان في الأعوام الأخيرة أن العالم البَشَري بحاجة إلى نظام معنوي جديد يسد الفراغ المادي الذي تردى فيه، وسيوجههم هذا الإحساس بالنقصِ إلى الإسلام عاجلًا أو آجلًا، ومن هذا المنطلق يجب على المفكرين والباحثين المسلمين القيام بمهام ووظائف كبيرة في هذا المجال.

إن المسلمين في القرون الأربعة الأولى توجهوا إلى القرآن بمنظور كلي ولذلك تقدموا في العلوم المادية والمعنوية حسب موازين عصرهم، فالقرآن أخذ بيد هذه العقول المتوجهة إليه بصدق وإخلاص، وجَعَلَ أصحابها من أكثر الأمم تحضّرًا.

أجل، إنهم من جانب توجهوا إلى فهم الآيات القرآنية التي تحفِّز التفكر، وبنوا مراصد لاكتشاف الأجرام السماوية خاصة، فأصبحوا بذلك رُوَّادًا في فتح الطريق لمن أتى بعدهم من الباحثين الأوائل في علم الفَلك الحديث، وجاشت ضمائرهم وتحفَّزت هممهم بقوله تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ (سورة فُصِّلَتْ: 53/41) فوجّهوا جهودهم نحو الإنسان، ودققوا في كل جزئية من جزئيات بنيته المادية والمعنوية، وفتحوا الطريق إلى ما نسميه اليوم الطب الحديث، حيث إن الطب الحديث اليوم مَدين فيما وصل إليه من هذا المستوى الرفيع لتلك البنية التحتية التي أسسها علماء المسلمين في ذلك العهد، ومن جانب آخر اعتَبر هؤلاء العلماءُ الآياتِ المتعلقةَ بالفضاء والسماوات على أنها أمر إشاري من الله فسخروا كل إمكانياتهم لفتح آفاق السماوات.

فقبل كل شيء نلاحظ أن مسلمي ذلك العهد كانوا يقفون عند كل آية، ويتساءلون: ماذا يريد ربنا أن يقوله لنا؟ وكانوا يعتبرون هذه الفكرة هي الغاية الوحيدة لهم في حياتهم، فيحاولون فهمها من خلال مختلف التفسيرات، وبذلك كانوا يتناولون كل قضية من القضايا التي تَطرَّق إليها القرآن، كل قضية على حدة، ويدققون في كل ما يتناوله القرآن، بل إن أُولى الاجتماعات والمذاكرات العلمية كانت هي أيضًا من هداياهم إلى الإنسانية، حيث إن كثيرًا من القضايا التي كانت تُنَاقَش في هذه المجالس لا تزال تحافظ على صحّتها وجدَّتها، ولن يكون من الصحيح مقارنة ما وصل إليه العلم اليوم من التطورات بما كان عليه من الحالة البدائية في عهوده الأولى، فمن المعلوم أن المستوى العلمي حينذاك كان بسيطًا جدًّا، ولكن إذا قيَّمْنا المسألة في حدود الظروف والفُرَص والإمكانات المتاحة في ذلك الحين، فسنلاحِظ أن الباحثين المسلمين في تلك الحقبة قد أدوا ما وقع على عاتقهم حق الأداء، وبالأخص إذا أخذنا بالاعتبار مبادرتهم لهذا الأمر وكونهم بادئين من نقطة المركز؛ فإن ذلك سيزيد من قيمة نجاحهم أضعافًا مضاعفة، بل تُعتبر نجاحاتهم أكبر من نجاحات عصرنا؛ اعتمادًا على القاعدة التي تقول: إن نقطةً في وسط الدائرة تتحوّل إلى زاوية كبيرة في محيط الدائرة.

ومما لا مرية فيه أن الأمر الذي يجب علينا الوقوف عنده مليًّا هو قضية الجمود الذي خيم علينا منذ ثلاثة أو أربعة قرون، فعلينا أن نحاسب أنفسنا ونراجع موقفنا تجاه هذه القضية. أجل، إن العالم الإسلامي يعيش منذ قرون انقراضاتٍ خطيرةً؛ حيث إن الحياة العلمية قد توقفت في هذه المرحلة توقفًا تامًّا، ولم يبق في التكايا والزوايا ولا في المدارس الشرعية حيويةٌ ولا تحرُّكٌ جاد؛ بمعنى أن الحياة الروحية والقلبية كانت قد أَفَلَتْ شمسُها، كما أن الساحة العلمية أصبحت عرضةً للإهمال، وتَرَكَ الناس محاولةَ فهمِ المقاصد الإلهية في القرآن المعجز البيان، وأصبح المسلمون ينجرفون إلى دائرة فاسدة وحلقة مفرغة من دوّامات التخلف والانحطاط.

والأدهى والأمرّ هو قيام بعض المفكرين والكُتاب المقلدين للغرب المتجاوزين لحدهم بالتصدي لقطع فاتورة هذا الإهمال على حساب الإسلام ذاته، فكما أن الأصدقاء لم يُوَفُّوا حقّ الصداقة بل ظلوا في سبات عميق، فالأعداء كذلك حافظوا على مواقفهم العدائية المخاصِمة،

وهكذا لم يكن للإسلام فرصة الدفاع عن نفسه، وخصوصًا أنه شبَّ في العهود الأخيرة نزاع بين المدارس الشرعية القديمة والمدارس العصرية، فأخذ كل فريق يجتهد لهدم الآخر، وفي نهاية المطاف حاول كل منهما أن يلقي بذنبِ التخلف الحضاري على عاتق الطرف الآخر.. فكان أحدهما يهتف دائمًا باسم "الغرب" ويغيّر

كل حين قبلته ووجهته، بينما كان الطرف الآخر يعتبر التفكر في آيات الله الآفاقية والأنفسية من باب العبث، فقضى بذلك على نفسه.

وإننا لا نريد أن نفتح الباب أمام إذكاء جذوة تلك النزاعات، إلا أن هناك واقعًا وهو أن هذا الذنب الذي ارتكبه الفريقان ليس من النوع الذي يُغتفر. أجل، إن الذين ارتكبوا هذا الأمر كان لا بد أن يَلقَوا جزاء إساءتهم الأدب مع الله صاحبِ الكون، ومع القرآن الذي هو كلامه المعجز، وقد لقُوا بالفعل هذا الجزاء.

ومع أن الله تعالى أمرنا -بشتى الوسائل- بالتفكر، وحضَّ المؤمنين على أن يتعمقوا في البحث والتنقيب في الأرض والسماء، إلا أن أهل التكايا والزوايا التي أصبحت مأوى لآلاف الناس اللاهين عن الحياة القلبية والروحية كانوا يتصرفون بشكل أحادي ويعملون في وجهة واحدة، يلهج لسانهم بترديد الحديث عن "القلب" ولا يتجاوزون منه إلى غيره، ليتهم كانوا يعرفون أمور القلب حقًّا، ولكن هيهات لهم ذلك، وأما المدارس العصرية فقد كانت بكل أفرادها مستلقية على قفاها، تُدنْدِن حول الحديث عن الغرب والفكر الغربي لِتُغَطِّي جهلَها بأحاديث لا تتجاوز أن تكون من باب الديماغوجية، فكانت تبدو وكأنها حصرت همتها في الدنيا، ولكن كل حملة منها كانت إما ردّةَ فعلٍ تجاه المدرسة الشرعية، أو تقليدًا أعمى للغرب.. ومصداقًا لقوله تعالى: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (سورة البَقَرَةِ: 134/2) كان العالم الإسلامي كله يعيش حالةً مزريةً من الإهمال وعدمِ الإدراك وفقدِ الشعور والإحساس تجاه القرآن الكريم، ولا شك أن نتيجة كل ذلك فاجعة كبرى.

وكم نرى في واقعنا أنه إذا قام أحد رجال السياسة بتصريح في بضع كلمات، فإذا بأناس من مختلف الفئات العمرية ينشغل بالُهم على مدى أيام بل شهور ويتعمقون في فهم مغزى هذا التصريح، في حين أنهم لا يهتمون بالقرآن الكريم حتى بمقدار كلام هذا الرجل على الأقل، فكنا على مستوى الأمة، نقترف ذنبًا عظيمًا، والله يعلم ماذا نفعل الآن، ولذلك أقول: إذا لم نتخط بشكل سريع هذه الغفلةَ وهذا الإهمال الذي نعيشه وإذا

لم نتوجه بكليتنا، شِيبًا وشبّانًا، رجالًا ونساءً إلى القرآن، ولم نكثّف انتباهنا وكلَّ جهودِنا حوله، فإنه سيكون من الصعب خروجنا من هذه الهاوية السحيقة.

فالله ﷻ يوجه في القرآن أنظارَ بني الإنسان وانتباههم نحو الكون ونحو أنفسهم، فلا يفرق بين أصناف العلوم، بل يحثّنا على إجراء البحوث في الأوامر التشريعية والتكوينية معًا، ويطلب من الناس أن يكونوا عشاقًا للحقيقة وعشاقًا للعلم وعشاقًا للبحث. أجل، إن القرآن والإسلام يدعوان دائمًا منتسبِيهما إلى إجراء البحوث والتنقيب، وتاريخُنا زاخرٌ بالأمثلة الحية من فحول العلماء الذين لبَّوْا هذه الدعوة واستجابوا لهذا النداء.

لقد استجاب أصحاب العقول الكبيرة لهذا الأمر الإلهي على حسب وسعهم، فجعلوا الإسلام روحًا للحياة، ونحن أيضًا مخاطَبون بهذا الأمر الإلهي على قدر ما أُمِرنا به، بالإضافة إلى أن مسلمي هذا العصر هم أوفرُ حظًّا من أسلافهم من حيث توفر الإمكانات التي أتت بها التقنيات والتكنولوجيا الحديثة، فنحن نمتلك أدوات البحث في القرآن في ضوء التطورات العلمية والتقنية، وليس علينا الآن إلا أن نتجه إلى المستقبل تحت رعاية القرآن بهمة عالية وأملٍ حيٍّ في أن نتدارك ما أهملناه وغفلنا عنه على مدى قرنين

أو ثلاثة قرون.

ل. شكل الكرة الأرضية

إن الله تعالى بعد أن ربط السماوات بقانون ونظام، وجَّه إرادته وقدرته نحو الأرض، ووضع لها أيضًا نظامًا وجعلها كروية الشكل.

ويَذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿**وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**﴾ (سورة النَّازِعَاتِ: 79/29-30)، فيفهم من الآية أن السماء قد تم ترتيبها وانتهى تنظيمها وقُدر ليلُها ونهارها، ثم جُعلت الدنيا على شكل "أَدْحِيَة".

وقبل الانتقال إلى شرح بعض التعبيرات في الآية أودّ أن ألفت النظر إلى نقطة، وهي أن أحدنا إذا أراد أن يصف أيّ جسم دائري مثلًا فإنه يبدأ بتعريفه على أنه "دائري الشكل"، فإذا أراد أن يزيد الأمر وضوحًا قال: إنه يشبه التفاح أو البرتقال أو غير ذلك من الأمور المعروفة بدائريتها، فبذلك يكون قد أشار إلى دائرية ذلك الشيء بالإضافة إلى ما في تلك الدائرية من مميزات إضافية.

وهكذا القرآن، حينما يريد أن يبيّن حقيقةَ أمرٍ ما فإنه بما يستخدمه من التشبيهات يَلفت الانتباهَ إلى خاصية أخرى لتلك الحقيقة، فهذه الآية الكريمة استَخدمت كلمة "دَحَا" بشكل خاص؛ لأن هذا الفعل مشتق من الدحو أو الدحي أي البسط، ونفهم من كلمة "دَحَا" أن الله تعالى بعدما نظَّم ورتب السماء تَوجه إلى الأرض وجعلها بيضاويةَ الشكل على شكل بيض النعامة.

صحيح أن المفسرين منذ القديم قالوا بكروية الأرض، ولكن هذا الأمر لم ينكشف على حقيقته إلا في عصور متأخرة.. ومع أن هناك من يرى في هذا التفسير نوعًا من التكلف إلا أن العديد من العلماء من أمثال الكندي والغزالي وفخر الدين الرازي وغيرهم من المفسرين المعاصرين استنبطوا من هذه الآية وأمثالها كرويةَ الأرض.

والقرآن الكريم بتعبيراته الخاصة وأسلوبه الخاص به يتناول المواضيع بدقة فائقة بحيث إن العلوم الطبيعية على الرغم مما أتيح لها من الإمكانات الواسعة، ومع توصُّلها إلى المعلومات بشكل غاية في الوضوح، لا تستطيع أن تعبر عن هذه الأمور بمستوى العمق القرآني وبأسلوب منفتح على جميع الاحتمالات.

إن عقلية عصرنا الماديةَ العوراء التي تنظر إلى كل شيء من الجانب المادي فقط تتغاضى عما ينشره القرآن من الحقائق، حتى إنها لا ترى -على الأقل- مسايرته لروح العصر، إلا أنها مهما فعلتْ

فلن تستطيع الحيلولة دون وُلوجه إلى الضمائر، بل ستعجز عن ذلك؛ لأن تطور العلوم يجعل الناس يتعمقون في فهم القرآن، ويستوعبونه بشكلٍ أفضل.

وربما سيأتي يوم تُعلِن فيه كلُّ فروع العلوم الطبيعية بلسان حالها بأن القرآن كلام الله، وسيودي ذلك إلى حقبة قرآنية جديدة؛ لأن موقع البحث العلمي إنما هو كتاب الله "المنظور" الذي هو معرض لآثار الله الفنية المذهلة، والحاوي لما أودع فيه من الأسرار.

ذلك الله صاحب القدرة المطلقة الذي أوجد الأرض بشكلها البيضاوي، وأودع الشمس في السماء وكأنها شمعة عملاقة، وأدار السُّدم والمنظومات الكبيرة وكأنها خرزات مِسبحة، وهو ﷻ الذي ينظر في الوقت نفسه إلى أعماق الإنسان وقلبه ومشاعره، وينظم عالمه الداخلي بكيفية عجيبة.

م. القرآن الكريم والغلاف الجوي

1- الغلاف الجوي، نعمة نحن عنها غافلون

إن الإنسان كثيرًا ما يغفل عما حباه الله به من النعم، وحتى لو كان مُدركًا لها في بعض الأحيان فإنه لا يؤدي شكرها على الوجه اللائق، فأحيانًا تَأسرُه مخالب الألفة والتعوّد، فيرى هذه النعم أمورًا عادية ولا يستطيع تقييمها، فتراه لاهيًا عن آلاف النعم التي تشمله وتحيط به من كل الجهات.

وعلى الرغم من تسخير كل شيء له في الكون، نراه مصابًا بالعمى والغفلة عن إدراك هذا التسخير الإلهي ولاهيًا عنه، وحتى لو كان مدركًا للنعم لكنه لا يقوم بمقابلتها بواجب الحمد والشكر عليه حق القيام، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ (سورة سَبَإٍ: 13/34).

وفي آية أخرى يبين الله تعالى أن العبد عاجز عن تعداد النعم ناهيك عن شكرها، قائلًا: ﴿**وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾ (سورة إِبْرَاهِيمَ: 34/14).

أجل، إن الله هو المنعم الحقيقي وهو الذي يعطي كل شيء، ولكن الإنسان، للأسف! كَفور يَنسى المانح لهذه النعم، بل ويَنسى النعمةَ نفسها، فيَسقط في مهاوي الكفران رغم جوَلانه في آفاق الشكران، فالنعم تنهمر عليه من كل جانب وهو لاهٍ عن كل ذلك.

والحقيقة أن تعداد نعم الله يفوق حدود طاقتنا، ولكننا نوجِّه أنظارنا إلى واحدة منها فقط، فنحاول أن نبدد -ولو قليلًا- ما تَلَبَّدَ عليها وغطَّاها من غيوم الألفة والاعتياد.

إن القرآن الكريم يتحدّث، بين الفينة والأخرى، عن النعم المتعلقة بالعلوم والتقنيات، ولكنه كثيرًا ما يتطرّق إليها على وجه الإجمال، وبالتالي فإن الإنسان إذا لم ينظر إليها بدقة فلن يفهم ما فيها من الأسرار، ومن النعم الإلهية العظيمة التي لسنا على دراية بها على الوجه اللائق الغلافُ الجوي الذي لا يزال يحمينا من فوقنا من كل المضارّ مثل الصوبة الزراعية والخيام البلاستيكيّة، ويلبي حاجتنا من الهواء، وينقل أصواتنا.

وسواء سميناه الفقاعة الهوائية، أو الكتلة الغازيَّة، أو "الغلاف الحيوي (*Biosphere*)" (باعتباره يشكِّل بيئة ملائمة لمواصلة الكائنات الحية لحياتها)، أو سميناه بأسماء أخرى، فلا شكّ في أنه من أعظم النعم التي دامت منذ بداية الحياة على وجه الأرض حتى يومنا هذا، وستستمر بعد الآن أيضًا طالما شاء الله ذلك وقدَّر.

وللغلاف الجوي وظائف لا تُعَدُّ ولا تحصى، ولو كان الناس يعلمون كيف أن الله تعالى قد أوجده لأمور عظيمة مُهمّة لأخذَتْهم الروعة والدهشة من ذلك، وبفضل تقدُّم العلم والبحث العلمي في زماننا هذا استطعنا أن نتعرّف نوعًا ما على مدى ما تُقدمه ركاماتُ الغاز البسيطة هذه للإنسان من الخدمات.

إن الغلاف الجوي يقدم للبشر -بإذن الله- كلَّ حين المقدارَ اللازم من الهواء الذي يحتاجه البشر أكثر من احتياجهم إلى الخبز والماء، ونزداد كل يوم شعورًا بمدى خطورة هذا الأمر بالنسبة لنا، خصوصًا في هذه الأيام التي نعاني فيها من التلوّث جراء اختلال النظام العام في الطبقات الجوية.

وتنهمر كل يوم إلى سماء الدنيا عشراتُ الآلاف من النيازك، لكن الغلاف الجوي بما يملكه من قوة الدفاع الطبيعي يؤدّي وظيفة السقف الواقي تجاه هذه النيازك.

وأيضًا فللغلاف الجوي دورٌ مهمٌّ في تهيئة المناخ المناسب لتشكُّل الرياح، علمًا بأن الرياح على اختلاف أسمائها وأوصافها وشدتها وخفّتها أحيانًا تكون بمثابة نسيم تُربِّت على رؤوسِنا، وأحيانًا تَهُب بشدّة لتحملَ البذور وتلقّح النبات، وأحيانًا أخرى تكون عواصف تُلبِّد الغيومَ وتصبح وسائل لنزول الأمطار، كما أن الرياح تهبُّ أحيانًا من القطبين باتجاه خطِّ الاستواء، وأحيانًا تهبُّ من خط الاستواء إلى القطبين، وفي كل مراحلها تتخذ أسماء مختلفة وتؤدي وظائف متعددة، وإذ تقوم بذلك كله تَكشف لنا بأنها مسخّرة بمشيئة الله لخدمة الإنسان.

وإذ يسرحُ الإنسان ويمرّ في ربوع الأرض، قد لا يَشعر بهذه النعمة، لكن صاحب النعمة جوادٌ والنعمة وفيّةٌ، ولذلك لا يعيش الإنسان حرمانًا أصلًا، وكم ينتظر الإنسان بشوقٍ هبوبَ نعمة النسيم، حينما يعمل تحت الشمس في الصيف القائظ الخانق ويتصبّب عرقًا، فإذا جاء النسيم وتهادى على جسمه شعر بعِظَم نعمة النسيم، وهذا بالطبع إذا كان يعرف مُولي النعمة.

وما يسمع الناسُ أصوات بعضهم البعض إلا من خلال الغلاف الجوي، فمن خرج إلى خارج الغلاف الجوي لن يستطيع أن يُسمِعَ صوته حتى لمن هو بمقربة منه على مسافة متر واحد؛ لأن الغلاف الجوي هو الذي يحمل الصوت.

وإنما يدرك الإنسانُ قيمة الهواء إذا لاحظ ما يفعله في الأرض من تَرْبِيتِهِ للنباتات وتبريده لها وسوقِه للسحاب وربطِه بين أجزائه وتلقيحِه للنبات، فحينذاك يدرك مدى عظمة هذه النعمة، وأنَّ نعمة جسيمة مثلها لا تحصل بفعل المصادفات.

إن الإنسان إذا آمن بالله وأسند إليه كلّ شيء، وخلّصَ الأشياءَ من جو المصادفات الضبابي وسلَّمها لصاحبها الحقيقي فسيَشعر ويُحس بكل شيء بشكل أفضل، وإنْ عانَدَ وجَنَحَ إلى كفران النعم، فإن الأرض والجو سيكفهرّ وجههما تجاهه كما هو الحال بالنسبة لعالمه الداخلي، وسينظر إلى هذه الأمور على أنها مصائب ومتاعب ويعتبر كلّ الظواهر أعاصير وعواصف.

أجل، إن النظر إلى كل شيء من وجهة نظر الإيمان، وتناوُلَ كلِّ ظاهرة وتفسيرَها من منظور القرآن أمرٌ مهم للغاية.

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَاتُحْصُوهَا﴾ (سورة إِبْرَاهِيمَ: 34/14)، كيف تحصونها في حين أن الله تعالى يقلّب نعمة واحدة فيخلق منها آلافًا من النِّعَم، بحيث إن الإنسان إذا تناول أيَّ نعمة فإنه يكتشف في داخلها نعمة أخرى، ويحسّ بنفسه وكأنه يتقلّب بين نعمٍ متداخلة، وبفضل هذا الإيمان فإنه حينما ينظر إلى هبوب الريح وإحداثِه موجاتٍ صغيرةً على وجه البحر، وتمايُلِ الماء وكأن هناك تبادلًا بين عاشق ومعشوق، وحينما يتفكرُ في تلقيح الريح للبذور، ومروره على شعر الرؤوس برحمة ولمسة أمومية، فإنه يشعر بأنه أمام عدد من النعم ويطفحُ بمشاعر الشكر والامتنان، فهذه في حقيقتها نعمة واحدة إلا أنها تظهر في كل مرة بزيٍّ نعمة مختلفة، ولكن من مظاهر عظمة الله تعالى أنه يحوِّل الواحد إلى ألف، فيُبرز في الإنسان النعمةَ الواحدة وكأنها ألف نعمة.

إن الغلاف الجوي من نعم الله العظيمة، فلنتناوله من مختلف جوانبه حتى نشاهد كيف أن ما وصل إليه العلم الحديث يتوافق مع بيان القرآن الذي أنار العصور، وأعترف أنه من الصعب علينا أن نعكس ما في القرآن بخصوصياته وروحه من دون أن نبقى تحت تأثير المستوى العلمي والثقافي لعصرنا.

ومن هذا المنطلق نقول: مهما كانت الفرضيات العلمية المطروحة على الساحة ذات بريق إلا أنها ستَخمد وتَذبل في العصور اللاحقة، وإذا كان هناك شيء واحد لن يتعرض للذبول والخمود فهو الكلام الإلهي.

نعم، ستتعرض الفرضيات العلمية للتقادم وستَتعب الوسائل التقنية والأدوات التكنولوجية، ومن يدري لعله سيأتي يوم تلجأ فيه كل هذه الأدوات في نهاية المطاف إلى القواعد الأساسية القرآنية الراسخة التي لا تتزعزع.

2- تحليق الطيور في جوّ السماء

إن القرآن الكريم يتحدث عن كيفية تحليق الطيور في الجو وإلى أي طبقة ترتفع الطيور، وفي هذا السياق يستخدم تعبير: ﴿جَوِّ السَّمَاءِ﴾ (سورة النَّحْلِ: 79/16)، والمقصود بهذا هي الطبقة التي يتجوّل فيها الأحياء، وهو ما يسمى "الغلاف الحيوي (*Biosphere*)".. والقرآن الكريم يستخدم أحيانًا تعبير:

﴿**جَوِّ السَّمَاءِ**﴾، وأحيانًا أخرى يستعمل تعبير "السماء" فقط، فالأول هو الطبقة الهوائية المناسبة لعيشِ الكائنات الحيّة، بينما الثاني هو الطبقة التي لا يوجد فيها المقدار الكافي من الأوكسجين على الرغم من وجود بعض الغازات الأخرى، وبالتالي لا تلائم الكائنات الحية.

إن لكل كائن حي يعيش في الماء وأعماق الماء وفي التراب وأعماق التراب وفي الجو وأعماق الجو حدودًا ومجالاتٍ معينة ليس له أن يتخطّاها، فالساحة التي يمكن للطائر أن يحلّق فيها هي المجال الذي عبر عنه القرآن بـ"جو السماء".. ولا بد أن لله حكمة وغاية تهمّ الناس من وراء تناوُله هذا الموضوعَ في القرآن الكريم ولفتِه أنظارَ المؤمنين إلى هذه النقطة، وإلا فليس المقصود مجرد سرد معلومات حول الحياة في مجال الغلاف الجوي، أو الإدلاء بمعلومات حول ما يعيش على الأرض من الحيوانات.

إن من طبيعة الإنسان أنه يألف كثيرًا من الأمور التي تدهشه في أول وهلة، ولذلك نراه يتأقلم مع كل ما كان في البداية في عداد المفاجآت، ويأنس به ويعتاده، فتخيِّم عليه غيوم الألفة والاعتياد، وتصبح كثير من المعلومات المهمة وكأنها أمور اعتياديّة، كما هو موقفه تجاه كل ما يلاقيه في حياته اليومية، فيكتفي بما لديه من المعلومات حولها ولا يتجاوزها ظنًّا منه أن هذه المعلومات كافية.

فالله تعالى في بعض الآيات القرآنية يلفت أنظارهم إلى هذه الأمور لتبديد ما تَلبَّد من غيوم الإلف هذه وسوقِ الناس إلى التفكُّر فيها مرة أخرى.. فحينما يأمرنا الله في القرآن بالنظر في أمر من الأمور فإنه يريد منا التركيزَ على تصرُّفاته الحاوية على عشرات من الحِكم، وبهذه الطريقة يُنقذنا من براثن الألفة، ويجعلنا متيقّظين ومرهَفي الحسّ تجاه روعة الصنعة الإلهية، مدقِّقين بجدٍّ فيما يتعلق بذلك من البيان القرآني الخالد، حتى ينمو وتتكشف فينا الحياة القلبية والروحية، بالإضافة إلى تحقيق عدد من الأهداف والغايات النبيلة أكثر فأكثر، ومن هذا المنظور نقول: إن الوقوف عند كل بيان قرآنيّ ومطالعتَه بدقة فائقة لهو في منتهى الأهمية.. فمثلًا عندما نتأمل في قوله تعالى: ﴿**فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ**﴾ (سورة الْمُلْك: 3/67) نلاحظ أن هذا الأمر الإلهي يأمرنا

بفهم الحكمة والمقصد الإلهي، وأننا لن نستفيد من الكلام الإلهي حقّ الاستفادة إلا بهذا المستوى من الدقّة والتأمل.

وكأن هذه الآية الكريمة تدعو الإنسان إلى أن يتأمل مرة واحدة في أمور متداخلة: من دوران النجوم في الفضاء إلى جولان الكواكب، ومن كيفية المنظومة الشمسية إلى دوران الأرض حولها وكأنها تابعٌ دَوَّار، ومن العديد من خصائص وكيفيات الغلاف الجوي إلى علاقته بكل شيء من الكائنات الحية وغير الحية، ولذلك نرى الحق سبحانه يُردف قولَه: ﴿**هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ**﴾، بقوله: ﴿**ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ**﴾ (سورة المُلكِ: 4/67)، وبذلك يأمر بتكرار هذا التأمّل في الفضاء مراتٍ ومرات.

وكأنه بهذه التعبيرات يقول للإنسان: إن شئت فانظر -مرة أخرى- إلى هذه السماء العظيمة من خلال قوانين علم الفلك، ومن خلال نظريات علم الفيزياء والرياضيات، وإن شئتَ فقيّم الموضوع من جانب آخر في المختبرات، ثم حاولْ أن تنظرَ مرة أخرى، فإذا فعلتَ هذا فلن ترى في نهاية المطاف أيَّ تنافرٍ يُخلّ بالنظام العام، ولن تشاهد أيَّ أمر يتناقض مع العلوم الطبيعية، وقد كان مَن قبلَكم يحاولون أن يفعلوا هذا بالعين المجردة، فلم يكن لديهم مثل ما لديكم من تلسكوب ومقراب ومجهر إلكتروني، ولكنها متاحة لكم، فما عليكم إلا أن تراقبوا ما في تلك العوالم العُلوية من نعم الله وتصرفاته وآثار صنعته، حتى تزدادوا إيمانًا وإذعانًا ومعرفةً، وتُعاينوا ما بين الملايين من الأنظمة من ذلك التناغم المذهل، لتنتقلوا منه إلى ما في ذلك التناغم من الوحدة، حتى تروا في تلك الوحدة موجوديةَ الله بكل وضوح وجلاء، فالقرآن الكريم بهذه التعبيرات يحث الإنسان على مشاهدة الفضاء الواسع، كما يحثه على إجراء البحوث فيه.

أجل، إن الله تعالى يَلفت أنظارنا إلى تحليق الطير في طبقة معينة من السماء قائلًا:

﴿**أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (سورة النَّحْلِ: 79/16).

ومن الجالب للانتباه ما في قوله تعالى: "فِي جَوِّ السَّمَاءِ" -كما سبق أن أشرنا إليه- من الإخبار بشكل غيبي بأن الطيور لها مجال معين تطير فيه، ولا أظن كثيرًا من المسلمين يتأملون في هذه

الآية بعمق وعلى الوجه اللائق، ومن المحتمل أننا لم نزل نظن أن ما يحيط بنا من الغلاف الجوي والغلاف الحيوي من الأسفل إلى الأعلى عبارة عن طبقة واحدة، ولكن حينما ندرس الموضوع بشكل دقيق وبعمق نلاحظ أن للغلاف الجوي طبقاتٍ تختلف عن بعضها البعض ولكل طبقة خصوصياتُها ومميزاتُها، وهي بحسب توزيع الحرار ة فيما بينها كما يلي:

1- طبقة التروبوسفير (*Troposphere*)

2- الستراتوسفير (*Stratosphere*)

3- الأيونوسفير (*Ionosphere*)

4- الإكسوسفير (*Exosphere*)

ويَرِد في الآية الآنفة الذكر تعبيرُ: "مَا يُمْسِكُهُنَّ" والإمساك من باب الإفعال، وفيه إشارة إلى أن جو السماء قد هُيئ من قبلُ ليكون مناسِبًا لتحليق الطير، وبالتالي فإن النظام والقانون الإلهي هو الذي أتاح لها إمكانية الطيران ضمن مجال معين ومحدود لتحليق الطير وجولانه وليس له أن يتجاوزه ويصطدمَ بالنظام الموضوع هناك.

وكذلك الوضع بالنسبة إلى الكائنات الحية الأخرى، ولكن الآية تشير إلى ما سيتم اكتشافه من حقيقةِ أن الإنسان سيصعد إلى هنالك بما سيمتلكه من الأدوات، وأن تلك المنطقة صعبة بالنسبة لعيش الأحياء فيها، ومن البدهي أن هذا الصعود لن يتم مرة واحدة، بل ستكون هناك محاولات عديدة للتغلب على الموانع، فإذا تخطى الإنسان مشكلة الجاذبية والاحتكاك وظروف الغلاف الجوي فإن هذا الحُلم سيتحقق.

فهاك قول الله تعالى: ﴿**فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (سورة الأنعام: 125/6).

إن الموضوع في الآية يدور حول المقارنة بين وضع المؤمن والكافر، أي بين من فتح قلبه للهداية ومن قسا قلبه تجاهها، بين من يلمع نور الإيمان والمعرفة في داخله فشرح صدره وبين من غرق في انحرافات الكفر والضلال فضاق صدره.

فإذا استخدم الإنسان إرادتَه استخدامًا صحيحًا واستغلّها في سبيل تحصيل المعرفة الإلهية، وأراد الله أيضًا هدايته، فَتَح قلبه للإسلام ومَنح فؤاده سعة ورحابة.

ونحن إذ فسرنا هذه الآية، أضفنا أمرًا لم تتطرّق إليه الآية: وهو "دور الإرادة الإنسانية"، لأن السلف﷾ في مثل هذه القضايا لم يزالوا يجلبون النظر إلى دور الإرادة البشرية، بمعنى أنهم يرون أنه لن يكون للمشيئة الإلهية تعلُّقٌ من دون أن تكون هناك إرادة للإنسان.. صحيح أن الإرادة والمشئية الإلهية ليستا منوطتين بالإرادة الإنسانية، لأن الله مالك الملك، يتصرف في ملكه كيف يشاء، إلا أن العدالة الإلهية والحكمة الربانية والسنن الكونية جرت بأن الله جعل تعلُّقَ الإرادة البشرية شرطًا عاديًّا لضلالتهم أو هدايتهم.. فنحن أيضًا حينما نتحدث عن إرادة العبد فإنما نذكرها انطلاقًا من هذه الفكرة.

أجل، ينبغي للإنسان أن يجتهد في سبيل ما يريد تحقيقه حتى يشرح الله صدره حينما يريد الله هدايته، فإذا طَلب الإنسانُ الهداية فإن الله سيشرح صدره، وسيجد هذا الشخص لذة الإيمان ويعيش حياته في الدنيا وكأنه من سكان الجنة.

ولنركز على جانب آخر من الآية له علاقة بما نحن بصدد الحديث عنه وهو أن الله إذا أراد أن يُضل من استَعمل إرادتَه استعمالًا خاطئًا ضيَّق صدره، فإنَّ عدم الإيمان وتَرْكَ العبادات التي هي من مقتضيات الإيمان، يُحدث في قلب مثل هذا الإنسان ضِيقًا وحرجًا شديدًا، فالكافر إذا لم يستعمل إرادته في الوجهة الصحيحة فالله أيضًا لا يريد دخوله الجنة، ولكن الذي أدى إلى هذه النتيجة إنما هو الكافر نفسه الذي لم يُرِد الإيمانَ، ولم يضع جبينه على الأرض ساجدًا مبتهلًا قائلًا: "اللهم لا تضلني".. فهذا الشخص قد استَعمل بإرادته لسانَه وقلبه ودماغَه في سبيل الكفر، ولم يأبه بأي تحذير إلهي، ولم يلتفت إلى مغزَى ما يجري حوله من الأحداث ولا إلى ما تَحْمله من المعاني، ولم يتنبه لها، ولذا أراد الله تعالى إضلاله.

فمن قُدِّر له مثلُ هذا فسيضيق صدره، ويصبح كأن هناك من يشد خناقه، فالآية الكريمة في هذا السياق تُصوِّر لنا إنسانًا يكاد يختنق من قلّة الهواء، أو ترسُم حالةَ مَن قَبع في قعرِ سجنٍ لا يجد فيه ما يكفي من الهواء، أو مَن يختنق بحبل في عنقه.

وقد أوردت الآيةُ الكريمة أثناء تصويرها ورسمِها لهذه الحالة الحرجة فِعْلَ "يَصَّعَّدُ" بدلًا من "يصْعد" أو "يعلو"، وفي ذلك نكتة لطيفة، حيث إن السامع لهذه الكلمة يَلمس مِن جرسها وكأنه يسمع صرير صوتِ الآلات التي يستخدمها في الصعود.. هذا بالإضافة إلى أن صيغة "يَصَّعَّدُ" ترسُم بصيغتها أيضًا تلك الحالةَ، حيث إنها من باب التفعُّل الذي يدلّ على التكلف، وذلك يؤكد ما تدل عليه الآية من الصعوبة والشعور بالحرج.

فقد دلت هذه الآيةُ هنا بصيغة هذه الكلمة على ما يعانيه الكافر من الضيق والعنت بشتى أبعاده، كما أكدت على ذلك من خلال جرس الكلمة وموسيقاها.

وهكذا يوضح القرآن ما وقع فيه إنسان عصرنا من الأزمات، ويَلفت أنظارنا إلى الضلال الذي أحدثه الحرمان من الإيمان، وإلى ما جلبَه هذا الحرمانُ من ضيق وعنت في القلوب، وبالتالي فالمخاطب لهذه الآية هو إنسانُ هذا القرنِ من بعض الوجوه؛ لأنه قد تَعرَّض لأنواع من القلق والاكتئاب بشكل لم يعشه الإنسان فيما مضى من العصور، فالضيق الناشئ مما في عصرنا من الكفر والضلال، يُشْبه ما يعانيه من يصَّعَّد في السماء، حيث إنه كما صعد إلى الأعلى يكون كمن تختنق حنجرته.

إن الإنسان الذي لم يصعد إلى السماء ليس له أن يدرك ما يعانيه الصاعد من قلة الهواء وضيق الصدر، ولستُ أدري ماذا كان يفهمه الناس في العصر النبوي حينما كانوا يتلون هذه الآية، إلا أن التطورات الحديثة في علم الفلك قد ساعدت على تجلية جُلّ ما في الآية من دقائق المعاني ولطائفها، فكما تَبين لنا ما يؤدي إليه الكفر من ضيق وعنت، فقد انكشف لنا أيضًا في عصرنا هذا أنه كلما صعد الإنسان إلى الأعالي وجد صعوبة

في التنفس وعلمنا أن تلك المناطق ليست ملائمة لعيش الأحياء.

ومعلوم أن التشبيه يُستخدم في الكلام لإضفاء المبالغة على أمر ما، أو لإبراز المقاصد الخفية والمكنية، وبتعبير آخر: لبيان أمرٍ مجهولٍ عن طريق أمر معلوم بالنسبة للمخاطب.

فمثلًا: إننا نجهل كيفية نفاذ قوة الله وقدرته في كل شيء وفي كل مكان، وبالمقابل كلنا يعرف كيف أن الشمس تصل بأشعتها إلى كل المناطق فتشمل الجميع بدفئها، فإذا ما شبهنا اطلاع الله على كل مكان وعلمه بكل شيء بأشعة الشمس التي تنساب إلى كل مكان فسيمكننا حينذاك أن نفهم هذا الوضع.

فالآية الكريمة أيضًا تُبيّن حال الكافر من خلال أمر معلوم لنا، فإنه لا يمكن بيان حالٍ من الأحوال من خلال أمر مجهول الماهية؛ لأنه من غير الممكن أن يفهم المؤمن حال الكافر الذي يضيق صدره، فإذا حاولنا تشبيه هذا المجهول بمجهول آخر يتحول الأمر إلى معادَلة ذات مجهولَين، ولكن بيان القرآن في غاية الوضوح ومنتهى الفصاحة: ﴿**وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾ (سورة الأَنْعَام: 125/6).

وفي سياق الحديث عن تحليق الطير استخدم القرآن تعبير: "جَوِّ السَّمَاءِ"، أي المجال الجوي الذي يلائم عيشَ الأحياء، ولكنه استَخدم هنا تعبير: "فِي السَّمَاءِ"، بمعنى أنكم حينما تكونون على الأرض لن تَشعروا بهذا الضيق، ولكنكم إذا تجاوزتم منطقة "جو السماء" ودخلتم "في السماء" فستشعرون بذلك، ولم يكن الإنسان يعلم بأنه كلما صعد إلى الأعلى ضاق صدره من قلة الهواء إلا بعد أن عاش هذه الحالة أثناء صعوده بالطائرات أو المناطيد، وبالتالي فإنما ظهر المراد من هذه الآية في هذه المرحلة، حتى إنك لَتسمع في الطائرات إعلانًا صوتيًّا مفاده: "ضيوفَنا الأعزاء! إن مستوى الضغط الجوي في الكابينة في حدوده المقبولة، فإذا حدث هبوط في مستوى الهواء فستتدلى أقنعة الأوكسجين تلقائيًّا من فوق رؤوسكم، فالرجاء وضعها على أفواهكم وعدمُ خلعها إلى إشعار آخر".

ومن هنا نعلم أن الضغط الجوي هناك مختلفٌ عن الضغط الجوي على الأرض، فالله تعالى جعل الضغط الخارجي للهواء على الأرض متوازنًا مع الضغط الداخلي للجسم، ولكن الإنسان

كلما صعد إلى الأعالي يقلّ ضغط الهواء، ويزداد ضغط الدم في الشرايين، فإذا اختل التوازن يشعر وكأن شيئًا يريد أن يتدفق من داخل الجسم إلى خارجه، وهذا هو السبب من وراء ما نراه من الرعاف لدى بعض الناس حينما يكونون في المرتفعات.

وبعد عامٍ (1920م) وبفضل التكنولوجيا المتطوّرة سنحت الفرصة للحصول على المزيد من المعلومات الشاملة حول الستراتوسفير[85]، وتفيد التقريرات أن الهواء في ساحل البحر يضغط على كل سنتيمتر مربع من أي سطح بنسبة كيلوجرام، ويسمى هذا المقدار من الضغط "أتموسفير" (وحدة ضغط جوّيّ)، وإذا اعتبرنا متوسط سطح الجلد البشري بـ1.5 متر مربع، فإن هذا يعني أن ضغط الهواء على كل واحد منا هو بمعدل خمسة عشر طنًّا من القوة، ولكن ما بداخلنا من الموازي لهذا الضغط الخارجي هو الذي يَحُول دون أن نُسحق تحت هذا الضغط الكبير، فكلما زاد الارتفاع عن سطح الأرض قلَّ الضغط الجوي وضعُفت كثافة الأكسجين.. وإذا ارتفع الإنسان لمسافة 10 كم فعليه أن يتنفس الأكسجين الخالص، وإذا صعد إلى 12 كم لم يعُد الأكسجين النقي كافيًا ويبدأ في مرحلة فقدان الوعي، فإذا وصل إلى 13 كم ارتفع الضغط الداخلي لما في الرئتين من بخار الماء وغاز ثاني أوكسيد الكربون، ولا يتمكن الأكسجين من الدخول إلى الرئتين وعند مستوى 18 كم ينخفض الضغط الجوي جدًّا إلى درجةٍ أن الدمَ وجميعَ الخلايا المائعة في الجسم تبدأ بالغليان.. وفي مستوى 19 كم يتعرض الجسم لقصف الإشعاع الفضائي.. وفي مستوى 23 كم تكون السيادة لطبقة الأوزون.

فالقرآن الكريم يشير هنا بكلمة "يَصَّعَّدُ" إلى حقيقية علمية، كما أن صيغتها تدل على التكلّف والصعوبة، وذلك يدلّ على حقيقة ثابتة، وهي أن هذه العملية صعبة وأن الصعود إلى السماء لن يكون من الأمور السهلة، وأنه لا بد لتحقيق ذلك مِن تخطِّي العقبات في كل مرحلة، والاستعانةِ بالأدوات التكنولوجية التي ستتطور عبر العصور المتلاحقة. أجل، إن البشرية ستتقدم في هذا المجال خطوة فخطوة، إلى أن تنفتح طُرقُ السماء أمامها

---

[85] **الستراتوسفير**: طبقةٌ من طبقات الغلاف الجوي متوسطُ طوله يمتد من 12-40 كم.

في نهاية المطاف.

ومن الواضح البين أن الآية تهُمُّ إنسانَ القرنِ الحالي أكثرَ من الذين مضوا قبله؛ لأن الآية تضع بشكل علمي أقصى حدود الطبقات العليا التي يمكن للأحياء أن يواصلوا فيها الحياة، كما تُبين حدود الطبقة التي يضيق بها صدر الإنسان ولا يُمْكنه العيشُ فيها، ومن المعلوم أن هذه الحقيقة لم تتضح إلا بعد أن انفتحت أبواب السماء أمام البشر في القرن العشرين، فبفضل هذه النكتة اللطيفة فَهِمَ الإنسان أن هناك فرقًا بين ما يشعر به من الضغط الجوي حينما يكون على وجه الأرض وبين ما يشعر به وهو صاعد إلى الأعالي.

وقد كانت هذه الظواهر قبل أن تنكشف هذه الحقائق العلمية من قبيل المجهولات، وبعده أصبحت من الأمور المعلومة البديهية لدى البشر، وإلى جانب هذه الحقيقة ترسم الآية حال الكافر وأطواره وحياته القلبية، وهذا من الأدلة الواضحة على مدى جامعية القرآن.

3- اهتزاز الكرة الأرضية

إن تعبيرات القرآن المعجزِ البيانِ متعددةُ الألوان وذاتُ أبعاد كثيرة، فحينما يوجه الأنظارَ إلى حقيقةٍ ما إذا بنا نراه يذكر في ثنايا السطور حقائقَ أخرى نسميها: "مستتبعات التراكيب"، فكلُّ مَن يَتْلوه لا بدّ وأنه يفهم ويستفيدُ من هذه الحقائق أمورًا على حسب مستواه وعلى قدر تعمّقه الفكري.

فمن أساليب القرآن أنه حينما يتحدث عن قضية ما، فإنه يتطرق في العبارات نفسها لحادثة كونية، وإن لم يتنبه الإنسان لذلك مع إدراكه لبعض الأمور فسيفوته أمر آخر، فمثلًا حينما يتناول القرآن الحديث عن القيامة يسرد الأحداث التي ستجري حينها واحدة تلو الأخرى؛ فحين يذكر تكوير الشمس أي لفَّها والاحتفاظَ بها، يشير في الوقت ذاته إلى المراحل التي مرت بها الشمس، وهذا الأسلوب يعكس جامعية القرآن وكونَه متعدد الأبعاد.

ويتمتع القرآن أيضًا بأسلوب في التعبير يكاد الناس في كل العصور يفهمون منه حقائق عديدة تتعلّق بهم، من دون أدنى تكلُّف أو تصنُّع؛ بمعنى أن الإنسان الذي عاش قبل ألف عام اكتشف منه حقائق تهمه هو ونوّر بها عصره، وكذلك إنسان هذا القرن أيضًا يستطيع أن يستنبط من العبارات

ذاتها حقائق علمية تتعلق بعصره الذي يعيشه، فمِن المحتمل أن الناس في القرون الماضية حينما كانوا يسمعون قول الله تعالى: ﴿**فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (سورة الأَنْعَامِ: 125/6)، كانوا يفهمونه على أنه مجرد مقارنة بين المؤمن والكافر، أي مقايسة بين إيمان المؤمن وكفر الكافر.. وليس من الوارد أن نقول: إنهم قد فهموا من هذا البيان الإلهي أن الإنسان كلّما صعد في الجوّ ضاق صدره، وأن الكائنات الحية ليس لهم أن يعيشوا إلا في طبقة معينة من الجو، وأنهم إذا تجاوزوا هذه الطبقة فلن يستطيعوا التنفس وبالتالي يموتون؛ لأن المستوى العلمي في تلك المرحلة لم يكن يتيح لهم فَهْمَ هذه الأمور، ولكن إنسان هذا القرن إلى جانب فهمه من الآية المقارنةَ بين الكفر والضلال وبين الإيمان والهداية، يمكنه أن يستنبط من الآية حقيقةً متعلقة بالغلاف الجوي؛ لأنه يمتلك من الأدوات الكافية ما يمكن أن يوصله إلى هذا الأفق.

ولكن لا بد للمرء أن يكون ذا أفق واسع حتى يدرك هذه الجامعية القرآنية، وكلما تقدم بنا الزمان وزادت معلوماتنا بفضل الأدوات التقنية والتكنولوجية، فستنجلي لنا الآيات القرآنية بشكل أفضل، وسنرى كيف يزداد القرآن طراوة وشبابًا في حين أن الزمان يزيد شيخوخة وشيبة.

ومن الآيات القرآنية التي تتمتع بالجامعية من حيث التعبير تلك الآية التي تتحدث عن رجفة الأرض وعن القيامة، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۞ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ**﴾ (سورة النَّازِعَاتِ: 6/79-7)، فكلمة "الرَّاجِفَةُ" بمعنى أنها ترتجف على الدوام وهذه هي صفتها الدائمة، فمجيء هذه الكلمة بصيغة اسم الفاعل تدل على أن الأرض تظل ترتجف من تحت أرجلنا، وأنها ليس ثابتة في حد ذاتها، فكأن الآية تعبّر من خلال كلمة "الراجفة" عن هذا الملمح اللطيف:

لا ينبغي لك أيها الإنسان أن تعتمد على مكان غير مستقر ودائم، فسيأتي يوم ستزداد فيه رجفة الأرض، وترمي بما تحمله على ظهرها وتُبَعثِره، وأنتم أيضًا ستأخذكم الرجفةُ حينما ترون رجفتها، وستزيغ أبصاركم، حتى لتكاد قلوبكم تنخلع من مكانها، فعليكم أن تعتمدوا منذ الآن وتتّكلوا على الدائم القوي الذي لا ينهدم ولا يتزلزل أبدًا، بل هو الذي خلق الزلزال وسخَّره لأمره، سلطانُ الأزل والأبد، الحقُّ ﷻ، حتى يوصلكم

إلى دار الأمان.

﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ و"الرادفة" في اللغة تأتي بمعنى: ما على ظهر الدابة خلف الراكب من شخص أو حمل.

فبالقيامة ترتجف الأرض ارتجافًا شديدًا، ولكن تعقُب هذه الرجفةَ رجفةٌ أشد منها، فتبلغ بها القلوبُ الحناجر، ثم تقوم القيامة.

وهذه الآية تتحدث عن القيامة وأهوالها، وفي الوقت نفسه تَلفت النظر إلى ما سيحدث في الكرة الأرضية من الزلازل، وهناك إشارة إلى إحدى الخصائص العلمية للكرة الأرضية، وهي أنها راجفة ومتحركة على الدوام، صحيح أن من يعيش على ظهرها لا يشعر بأي حركة لها، ولكنها في الحقيقة دائمة التنقل من منزلٍ لآخر، فسيأتي يوم تزداد فيه تحرُّكًا أشد مما كانت عليه ويشتد هذا التحرك والتزلزل، فترمي الأرض كل ما على ظهرها وتُبعثِره، وستَهيج بحارها وتتدفق، وتُسيَّر جبالها وتتفرق، ويحترق كل شيء فيصبح رمادًا. أجل، إن كلمة "الراجفة" تحمل كل هذه المعاني، وتشير بالأخص إلى أن الأرض تتّصف بصفة الرجفة الدائمة.

إن المفسرين في القرون الأولى ﷺ نظروا أثناء تفسيرهم لهذه الآية إلى القضية من حيث النتيجة، ففهموا من الآية أنه "سترتجف الكرة الأرضية ارتجافًا شديدًا جراء واقعة القيامة، وفي نهاية المطاف سيختل نظامها".. وهذا المقترب في حدّ ذاته صحيح، إلا أنه لما انكشف لرجال العلم حقيقةُ أن الأرض تتحرك وتدور، تَبيّن لهم من خلال تعبير "الراجفة" معنى آخر وهو أن الأرض في حركة مستمرة، ولما انكشف من خلال البحوث الجيوفيزيائية في القرن العشرين أن الأرض تهتز بالفعل زادت الإشارة القرآنية وضوحًا؛ حيث كَشفت هذه البحوثُ أن الكرة الأرضية تهتز باستمرار، فتتسبّب بتغيُّراتٍ مرتبطةٍ بالشمس والقمر، منها ما يُسمّى بعمليات المدّ والجزر، فكأن هذه الأحداث تقوم بدور التعديل لما يعتري الأرض من الاهتزازات، وكما أن الله تعالى يدوِّر الأرض بقانون الجاذبية حول الشمس وكأنها حجر مقلاع، فكذلك يَجذب بحار الأرض بتأثير الشمس

والقمر، وفي النهاية تقع أحداثُ المد والجزر التي يرتفع بها منسوب المياه وينخفض، وهذه الحادثة من تأثيرات الشمس والقمر على الكرة الأرضية.

ولم يزل الباحثون في العلوم والتكنولوجيا يَلفتون الأنظار إلى حركات الأرض، ويحاولون أن يُثبتوا مدى تأثير هذه الحركات والاهتزازات على عامل الزمان، ويشيرون في كتبهم المتعلقة بذلك إلى أنهم قد لاحظوا تباطؤًا مطّردًا في حركات الكرة الأرضية وهزاتها، فعلى سبيل المثال: من المعلوم أنه في ديسمبر (1989م) تم إعادة عقارب الساعات على مستوى العالم بمقدار ثانية واحدة إلى الوراء، وعلى حسب هذا فإن سنةَ (1989م) أصبحت أطول من سنةِ (1988م) بثانية واحدة.. وهذا ما وقع فعلًا، حيث عدَّل الناس ساعاتهم وفقًا لذلك.. وأيضًا في 30 يونيو/حزيران عام (1992م) تم الإعلان في الصحف العالمية عن تمديد ذلك العام بمقدار ثانية واحدة.. وتَذكر المصادر أنه منذ عام (1972م) تم إضافة ست عشرة ثانية لكل سنة.

وبناء على هذه المعلومات قيل: إن اليوم الواحد على الكرة الأرضية كان قبل آلاف أو ملايين السنين ثماني عشرة ساعةً، وهو الآن أربعٌ وعشرون ساعة، وربما يصل في المستقبل إلى ثلاثين ساعة.. ومن المحتمل أنه إذا وصلت القطعة الزمنية إلى خمسين ساعة فستطول الأيام بحيث يحترق الناس تحت أشعة الشمس الحارقة.

فالله تعالى يهدِّئ سرعة دوران الأرض ويحدّ من سرعتها بشكل تدريجي، وسيدوم هذا التباطؤ إلى أن يُحال الناس إلى المحكمة الكبرى، ويطبقَ الله حكمه الذي أصدره في حق الكرة الأرضية، ثم إن الله سيقيم محكمة جديدة وعالَمًا جديدًا فيَجمع الناس وسائر المخلوقات هناك، فحادثة الحشر التي نسميها: الانبعاث الثاني إنما تقع بعد أن تتعرض الكرة الأرضية والسماء لمثل هذه الهزات والزلازل.

4- تلقيح الرياح

من الوظائف المهمة للرياح في الغلاف الجوي هي تلقيحها للسحب، ومن المعلوم أن السحب منها ما هو ذو قطب سالب (-) ومنها ما هو ذو قطب موجب (+)، وتكوُّن المطر منوط بتلاقي

هذين القطبين، ولكن هذا لا يتحقق دائمًا، فالسحب المتعاكسة الأقطاب لا تلتقي، لأن شدة الهواء وكهرباءه تَحُولان دون ذلك، حيث إن كون الهواء مشحونًا بالكهرباء يَمنع مِن تخطِّي الغيوم لهذه الكهرباء ويعرقل تلاقيها، وحبات المطر في الهواء تَحمل الشحنة الكهربائية نفسَها، وحسبَ القانون الإلهي فإن الأقطاب المحملة بنفس الشحنة تتنافر فيما بينها.

وقبل كل شيء لا بدّ لتجمّع الغيوم من تبديد هذه الشحنات الكهربائية المتضادة، وهذا الأمر يتطلّب وسيلة خارجية، فهذه الوسيلة هي الرياح، وهذا نوع من عملية التلقيح، وفي ذلك يقول **الله** تعالى: ﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**﴾ (سورة الْحِجْرِ: 22/15) بمعنى أن الرياح تلقح السحب.

وقضية التلقيح بين الكائنات الحية بما في ذلك الإنسان أيضًا من الأمور المعروفة منذ القِدَم، ونتيجةً لهذا التلقيح يُخلق كائن حي جديد، والأمر نفسه كان واردًا بالنسبة للنباتات أيضًا، فقد كان من المعروف لدى الناس منذ العصور القديمة أنه لا بد في تكاثر النباتات من التلاقح بين إناث البذور وذكورها، وأن ذلك يتحقق عن طريق الرياح، فالقرآن الكريم في الآية الآنفة الذكر، بالإضافة إلى التذكير بهذه الحادثة العامة المعروفة لدى الناس، يَلفت الأنظار على وجه الخصوص إلى تلقيح السحب، وهذا أمر جديد بالنسبة للناس، فسياق هذه الآية يدل على أن المراد باللقاح هنا هو -بالأخص- لقاح السحاب، ليس إلا.

أجل، إن الرياح تلقِّح السحب، وهو "شرطٌ عاديٌّ" لنزول المطر، بمعنى أن مِن عادة **الله** أن يُنزل المطرَ نتيجة لذلك، فبفضل هذه العملية أمكن تَخَطِّي الخطِّ الكهربائي وتداخَلت السحبُ المشحونة بالتيارات السالبة والموجبة، وحصل التزاوج المطلوب، وأثناء هذا التزاوج تأتي الرسائل المبشِّرة بهطول الأمطار عبر أصوات الرعد ولمعان البرق، فهذا التزاوج بين الغيوم ذواتِ الأقطاب السالبة والموجبة لهو مصدرُ أملٍ

في نفوس كل الكائنات الحية، وهذا كله يتحقق حسب التعبير القرآني نتيجة اللقاح.

ومسألة التلقيح ليست من الأمور التي انكشفت في العهود الأخيرة، بل هناك من المفسرين القدامى من فسروا الآية في نفس الاتجاه؛ لأن التعبير القرآني في هذا الباب يجلِّي الموضوع بكل بساطة، لقد أدرك هؤلاء المفسرون مسألة التلقيح منذ وقت مبكّرٍ، بل إن أكثرهم فهموا الموضوع وتطرقوا له، وإن لم تكن تعبيراتهم في المستوى والأسلوبِ العلميَّين لعصرنا.

أجل، إن قضية تلقيح البذور أمر واقع لا نقاش فيه، ولكن الواضح هنا هو

أن المقصود باللقاح في هذه الآية هو لقاح السحب.

وكما سبق أن أشرنا فهناك من المفسرين القدامى من فسر الآية بهذا المعنى، فابن جرير الطبري -مثلًا- الذي ألف تفسيره قبل أحد عشر قرنًا من الزمن قد فسر "اللواقح" الواردة في الآية النازلة قبل أربعة عشر قرنًا، بمعنى أن الرياح تلقح النبات في الأرض والسحبَ في جوّ السماء، فهو بذلك قد فسر القرآن بشكل يقارب ما يفهمه إنسانُ عصرنا، متخطيًا بذلك المستوى الثقافيَّ والإدراكيَّ لعصره، وهذا يعكس مدى فهمه الصافي النقيّ للقرآن.

أجل، إن بيان القرآن الصافيَ والواضحَ لهو من الثراء والغنى بحيث يفوق -بكثير- مستوى كل علم وتقنية وكلِّ حضارة ومدنية لكل عصر، ولكن الأمر يتطلّب من يستشعر تلك الإشارات اللطيفة، ومن المحتمل أنه كلما اقترب رجال العلم من الحقيقة، واستطاعوا أن ينظروا إلى القضايا بنظرة محايدة وموضوعية، فإنهم سيدركون الحقائق القرآنية الصائبة، وسيواصلون تنوير عصورهم بما استلهموه من القرآن، وكما تَحقق لهم هذا في الماضي فهذا الأمر وارد بالنسبة لعصرنا الحالي، بل بالنسبة للمستقبل أيضًا.

5- سَوق السحاب والتأليف بينه

يتحدّث القرآن عن خاصية أخرى من خاصيات السحب والرياح، فالمطر لا يحصل فور سَوق الرياح للسحاب، بل إن هناك أحداثًا تتعاقب بفعل الرياح، ثم يتشكل المطر، وهناك عملية أخرى هي تكاثُف السحب وتراكمها، فلا مطرَ من دون هذا التكاثف والتراكم.

فالقرآن الكريم في معرض الإشارة إلى كل ذلك يقول: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ** [أي يجعله يتداخل فيما بينه بحيث لا يبقى هناك فراغ] **ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا** [أي بعضه فوق بعضٍ متراكمًا إلى الأعلى] **فَتَرَى الْوَدْقَ** [أي المطر] **يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ** [قِطَع ضخمة متراكمة متكاثفة كقِطَع الجبال] **فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ** [فيضره] **وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ**﴾ (سورة النُّور: 43/24).

فتعبير "التأليف" يُستخدم عادةً في الجمع بين الأشخاص الذين تختلف أمزجتهم وطبائعهم، ورفعِ الخصومة عن الذين وقعت بينهم مشاحنة وهجران وخصام، ومنه: "المؤلَّفة قلوبهم" ويراد بها مَن تطفح قلوبهم بالكراهية والحقد تجاه الإسلام، فيتمُّ الإحسان إليهم حتى تَطيب قلوبهم وتلينَ تجاه الإسلام، فكلمة "يُؤَلِّفُ" توحي بأن هناك تنافرًا دائمًا بين السحب، إلا أن الله تعالى يزيل هذا التنافر بواسطة الريح، فيؤلف بينها، ثم يجعلها أجسامًا متراكمة.

و"الركام" هو ما تراكَبَ واجتمع بعضه فوق بعض حتى تضخَّم مثل الجبال، فالرياح تؤلِّف بين السحب إلى أن تبدأ بالتراكم فتتكاثف وتكبُر وتصبح على هيئة كائنات ضخمة تحاكي الجبال.

ويُفهم من قوله تعالى: ﴿**فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ**﴾ أن العملية لا تتم بمجرد فعل الرياح، بل لا بد بعد ذلك لتشكُّل المطر مِن تداخُلِ أجزاء السحب وتكاثفِها جراء هذا الإزجاء المنتجِ لتراكم السحب على هيئة الجبال.

وقد لخص القرآن كل هذه الأحداث على حسب وقوعها مستخدِمًا الفاء الدالة على التعقيب، ورتَّبها بطريقة لا تتعارض مع الكشوفات العلمية الحديثة، فلو تصدى أحدنا لشرح هذه الأمور التي ذكرها القرآن بأسلوب علمي لتبين له أن هذا البيان لا يختلف كثيرًا عما تقرّر في علوم الأرصاد الجوية، كما علينا أن لا ننسى أن القرآن يراعي فيما يتناوله من القضايا أسلوبًا يستطيع الجميع أن ينهل منه، بينما يخاطِب الأسلوبُ العلميُّ الشريحةَ المتعلمةَ من الناس فقط.

وتُواصِل الآيةُ الكريمة: ﴿**وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ**﴾ (سورة النُّور: 43/24)، أي يُنزّل مِن قِطَع السحب الضخمة مثل الجبال، وهذه تُعتبَر معلومات مقنعة حول تشكُّل البرَد؛ حيث يفهم من

هذا أنه لا بد لتشكُّل البرَد أوّلًا من تراكم السحب التي تماثل الجبال في وطأتها وشدتها ثم لا بد بعد ذلك من كهربة قوية في قطرات المطر بدرجة تؤدّي

إلى صدمة.

وكإشارة إلى هذا تُواصِل الآيةُ الكريمةُ قائلةً: ﴿**يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ**﴾ حيث تومئ إلى أنه تَحدُث هناك كهربة شديدة من شأنها أن تُعمي الأبصار، ويشير القرآن الكريم بهذه العبارات في الوقت ذاته إلى المجال الذي تَحدُث فيه الكهربة في السحب؛ حيث يفيد أن الضغط الشديد والتضييق من جانب، والكهربةَ والتراكمَ من جانب آخر يؤدي إلى تجمد حبات الماء.

وإذا اعتبرنا أن "مِنْ" في قوله تعالى: ﴿**مِنْ بَرَدٍ**﴾ للتبعيض، فتكون دالة على أن بعض السحب تتجمد فتصبح بَرَدًا، فإن الطيارين يتجنبون اختراق السحب الرعدية والسبب في ذلك أن هذه السحب تكون فيها حبات كبيرة من البرد، فيخشون من حدوث شروخ

في جدار الطائرة مما يؤدي إلى سقوطها، لا سمح الله.

فإذا تنبه الباحثون ورجال العلم للكلمات التي يستخدمها القرآن المعجز البيان أثناء حديثه عن القضايا العلمية، فإنهم سيعترفون من دون تردد أن هذه تعبيراتٌ حكيمةٌ صادرةٌ من عِلمٍ محيط.

6- الرياح

إن الرياح تقوم بالعديد من الوظائف في مساحة واسعة بأمر إلهي وإرادة إلهية تحت إشراف الملائكة، ومن تلك الوظائف: التربيت على وجه الأرض وتلقيح النباتات، وإحداث العواصف الشديدة في الجو، ولقاح الزهور والسحبِ.

إن الرياح لتعبّر دائمًا عن تجل من تجليات الرحمة الإلهية، ولكن على الرغم من ذلك فإنها تُؤدي أحيانًا إلى تغير التيارات الهوائية، وقد تتسبب في حدوث عواصف وأعاصير وزوابع شديدة، وفي الآيات الأولى من سورة المرسلات يشير الله تعالى بطرائق مختلفة إلى الرياح المرسلة من قِبل الله تعالى، أو الملائكة الذين يُشْرفون عليها، ولم يزل متقدمو المفسرين والمعاصرون منهم

يفسرون هذه الآيات على أن المراد بها الملائكة أو الرياح أو أنواع الوحي أو الإلهامات أو عِباد الله الموظفون المتشبعون بالحقيقة.

وسواء فسرناها بالوحي النازل على الأنبياء أو بالإلهام أو الرياح التي تَهُبُّ على وجه الأرض أو العواصف، فإننا نستطيع القول بأن كل هذه المعاني لها نوعُ مناسبةٍ مع ما يهبُّ من النسمات الإلهية بالمعنى الشامل.

إن الريح كتلة هوائية متحركة، وهذا التحرك يكون نحو جهة معينة، وفي معظمه قريب من الاتجاه الأفقي، وإذا كانت هناك منطقتان متجاورتان وكان الضغط الجوي في إحداهما مرتفعًا وفي الأخرى منخفضًا، فإن الهواء سيتدفق من منطقة الضغط الجوي المرتفعِ صوبَ منطقة الضغط الجوي المنخفض، ويسمى جريان الهواء بهذا الشكل "ريحًا".. وتختلف شدة الهبوب على حسب ارتفاع الضغط وانخفاضه، فإذا اشتد الهبوب سمي "عاصفة".

إن الناس قد أَلِفوا هبوب الريح واعتادوا عليها حتى أصبحت هذه الظاهرة وكأنها من الأمور المعروفة المعلومة، بل إن موقفهم منها يكاد يوحي بأنهم نسوا أنها من عند الله، وكأن الله تعالى يلمح إلى هذا في قوله ﷻ: ﴿**وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا**﴾ (سورة المرسلات: 1/77)، بمعنى أن الرياح تهُبّ بشكل معروف ومعهود لدى الناس.

إن معظم المصادر الجغرافية تقسِّم هذه الرياح إلى ثلاث مجموعات:

1- الرياح الدائمة

2- والرياح الموسمية

3- والرياح المحلية

أولًا: الرياح الدائمة:

وهي أنواع:

أ. الرياح التجارية: وتهب هذه الرياح التجارية نحو خط الاستواء قادمة من خطوط العرض الموازية لخط الاستواء وتحديدًا من خط عرض 30° شمالًا أو جنوبًا.

ب. الرياح الغربية: وتهبُّ هذه الرياح فوق نصفَي الكرة الأرضية الشمالي والجنوبي بالقرب من خط عرض 30° من نطاق الضغط العالي فوق المداري باتجاه الدائرتين القطبيتين 60° خط عرض، وهي رياح غربية تأتي من العُروض الوسطى والتي تهبّ من منطقة الضغط شبه المداري المرتفع باتجاه منطقتي الضغط المنخفضتين.

ج. الرياح القطبية: وهي الرياح الباردة التي تهب من منطقة الضغط العالي في القطبين باتجاه منطقة الضغط المنخفض عند 60° خط العرض.

ثانيًا: الرياح الموسمية:

وهي منظومة رياح واسعة النطاق، يختلف هبوبها حسب موسم الصيف والشتاء، وينقسم إلى قسمين حسب الصيف والشتاء.

ثالثًا: الرياح المحلية:

وبعض هذه الرياح عبارة عن الرياح المرتبطة بالدوران العام للرياح ولكنها خضعت لبعض التغييرات المحلية، في حين أن بعضها الآخر لا يتكون إلا من فروق الضغط المحلية.. وهي أنواعٌ ثلاثة؛ النسائم، والرياح المحلّية الباردة، والرياح المحلّية الحارّة.. وهي على النحو التالي:

أ. النسائم: وهي نوعان:

النوع الأول: نسائم البحر الأسود: وهذه الرياح شأنها شأن الرياح الموسمية تنشأ بفعل الاختلاف في الحرارة والضغط، وفي المناطق الساحلية كهذه تكون اليابسة بالليل أكثر برودة من البحر، في حين أن البحر يكون دافئًا، ونتيجةً لذلك تهُب الريح ليلًا من اليابسة باتجاه البحر، وهذا يسمى "نسيم البر"، وأما بالنهار فينعكس الأمر؛ حيث ترتفع الحرارة في اليابسة أسرع من البحر، ويؤدي ذلك إلى هبوب ريح من جهة البحر (نسيم البحر) صوبَ اليابسة.

والنوع الثاني: نسيم الجبل ونسيم الوادي: ففي أثناء النهار يَسخن الهواء في الأودية فيتمدد ويصعد إلى أعلى، وهذا الهواء الدافئ المتصاعد يسمّى نسيم الوادي، وبعد غروب الشمس يبدأ الهواء على المرتفعات في البرودة فيزداد وزنه وينزلق إلى أسفل ليجتمع في بطون الأودية ويسمى هذا الهواء البارد "نسيم الجبل".

ب. الرياح المحلية الباردة: وهذه الرياح تنشأ من مختلف أشكال الضغط، وتهب من جهة الهِضاب الباردة والمناطق الجبلية إلى الشواطئ الدافئة. وأهم أنواعها:

1- "البُورا (*Bora*)": وهي رياح باردة تهب من الجبال الخلفية وتمر عبر الساحل الدلماسي باتجاه البحر الأبيض المتوسط.

2- "المِسترال (*Mistral*)": وهي رياح باردة تهب من ساحل فرنسا على البحر الأبيض المتوسط على طول وادي الرون.

3- "النكيباء أو الأَيِّر (*Poyraz*)": وهي الرياح الباردة التي تهب في تركيا من الجهة الشرقية الشمالية.

ج. الرياح المحلية الحارة: وهذه رياح حارة تختلف حسب مصادرها، ومن أهمها:

1- "الفُهن (*Fohn*)": وتتكون هذه الرياح حينما ترتفع الكتلة الهوائية فتتخطى جبلًا وتبدأ بالانحدار في السفح المقابل.

2- السيروكو: وهي رياح صحراوية تهب في الجزائر وتونس من الصحراء الكبرى باتجاه البحر الأبيض المتوسط.

3- الخَماسين: وهي رياح صحراوية حارة تهب في المناطق الصحراوية بمصر.

4- "الدَّبُور (*Lodos*)": الرياح الساخنة تهبّ من الجنوب الغربي بتركيا.

نعود فنتابع العرض الإلهي عن الرياح في سورة المرسلات:

﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ (سورة الْمُرْسَلَاتِ: 2/77)، بمعنى أن هذه الرياح التي تهب بأشكال معينة، تتعرض أحيانًا للتبدلات فتعصف بكل ما تمر به وتثير الدهشة في الأطراف فتأخذ شكل الأعاصير وغيرها.

﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ (سورة الْمُرْسَلَاتِ: 3/77)، أي الرياح الموسمية التي تنشر السحاب في السماء والبذور على وجه الأرض.

﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ (سورة الْمُرْسَلَاتِ: 4/77)، ووراء كل ما ذكرنا من أنواع الرياح هناك ملائكة كرام يُشْرفون عليها ويطبقون الأوامر الإلهية، كما أن فوق الملائكة ربًّا يدبر كل ذلك بأمره تعالى.

إن الأسباب ما هي إلا ستارات أمام الأعين، وإنما الذي يتصرف في الأمور هي يد القدرة الإلهية، ومن هذا المنطلق نقول:

إن سورة المرسلات تتحدّث عن تصرّفات القدرة الإلهية التي تجري أمام أنظار الملائكة، وإذ تقوم بذلك تشير -والله أعلم- بشكل وجيزٍ إلى سبعة طرائق للرياح،

التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (سورة الْمُؤْمِنُونَ: 17/23) بمعنى أننا خلقنا في الغلاف الجوي المحيط بكم سبعة طرق فيها مسارب للذهاب والإياب والجريان.

والذي يحافظ على توازن تركيبة الجو وطبيعتها المتجانسة هي الرياح التي تجري من هذه الطرق؛ فلو لم يُجرِ الله الرياحَ لتكثفت الغازات التي في الجو في منطقة معينة ولفسدت الحالة المتجانسة للهواء، مع العلم بأنه إذا لم يحافَظ على تركيبة هذه الغازات لن يبقى الهواء صالحًا للتنفُّس.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾، أي إن الله يعلم حاجات مَن خَلَقهم، فيرسل الرياح مِن سبع طرائق وفقًا لحاجتهم، فالله تعالى ببعض هذه الرياح ينبههم وينذرهم، وببعضها يبثّ الانشراح في صدورهم، وببعضها يربت على رؤوسهم ويلاطفهم، وببعضها يرسل إليهم الوحي والإلهام، وببعضها يجازيهم ويدمرهم تدميرًا.

ن. حركةُ الجبال

لقد فسر العلماء مرور الجبال كَمَرِّ السحاب بتفسيرات مختلفة، يقول تعالى: ﴿**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ**﴾ (سورة النَّمل: 27/88).

فههنا نكتة مهمّة، إن لم نأخذها بعين الاعتبار فقد نخطئ في فهم الآية، فأوّلًا: يمكن أن تكون في الآية إشارة إلى حقيقة مهمة لم تدرَك إلا في القرن الحالي، هي أن القارات كانت من قبلُ متصلة ببعضها البعض، ولكنها على مدى ملايين السنين أخذت تبتعد تدريجيًّا إلى أن وصلت إلى وضعها الحالي، حيث إنه من المعلوم أن الصفائح القارِّيّة تَسبح على طبقة الماغما (الصهارة)، فبينما تذوب هذه الصفائح في الماغما، تتصاعد مادةٌ جديدة من باطن الأرض المنصهر إلى السطح فتبردُ وتتصلب وتضافُ إلى القارات، وبذلك تكون قد تحركت كل سنة وزادت في كل مرة بمقدار سنتيمتر.

وهناك تفسير آخر، وهو "أن الجبال التي هي بمنزلة أمهات التراب تذوب بمرور الأيام وتصبح ترابًا، ويمكن التعبير عن حالتها هذه بأنها "تمرّ"، وبناء على هذا التوجيه فإن الجبال بمرور الأيام ستضمحل بالكلية، وبذلك سيظهر أنها غير جامدة".. فهذا توجيه آخر قابل للنقاش.

وهناك توجيه آخرُ ظلَّ إلى يومنا هذا، وهو أنه من باب ذكر الجزء وإرادة الكل، أو أنه قد ذكر حال المتبوع وأريد التأكيد على التابع، [أي إن المقصود به الكرة الأرضية]، إلا أنه لا يمكن هذا الوضع بالنسبة للكرة الأرضية إلا إذا كان الناظر من خارج الأرض، فالذي ينظر إلى الأرض وهو على وجهها يبدو له الأمر وكأنها لا تتحرك، ومع أن الجبال حالها مثل حال الأرض؛ تبدو وكأنها لا تتحرك، ولكنها حسب التعبير القرآني "تمرُّ مرَّ السحاب".

فقد تَحدَّثت الآية هنا عن وضع الجبال، فذَكرت الجزءَ وأرادت الكلَّ، بمعنى أنها ذَكرت الجبالَ وقَصدت الكرةَ الأرضية التي تَحمل على ظهرها تلك الجبالَ، لأن الكرة الأرضية ليست في حقيقتها شيئًا غير الجبال، لأن الجبال من الداخل تضرب بجذورها إلى أعماق الأرض، ومن الخارج تشكّل الذرى وتمثل أساس الكرة الأرضية؛ فلذا

من الممكن أن نفهم مِن تحرُّكِ الجبال في التعبير القرآني تحرُّكَ الأرض.

وهناك توجيه آخر، وهو أنك حينما تنظر إلى السفينة القادمة فإن أول ما تقع عيناك عليه هو شراعها، فكذلك الكرة الأرضية إذا نظر إليها الناظر من بعيد فإن أول ما ستقع عليه عينه هو الجبال التي هي بمثابة أشرعة للأرض، فلو ركب الإنسان صاروخًا وجال معه في نفس الخط الذي تدور عليه الأرض، فسيشاهد أنها تدور مثل المولويّ حول نفسها وحول الشمس، ولكن في هذه الحالة أيضًا سيكون أكثر ما يلفت نظره هو الجبال، وأظن أن هذا توجيه آخر لا يتصادم مع الواقع بل يتطابق معه بالكامل.. وتناوُل القرآن لهذه الظاهرة بالحديث يجعلها خليقة بالوقوف عندها بكامل الحساسية والدقة.

وفوق ذلك كله، كما أن السفينة تَثبت وترسو بالمرساة[86]، فكذلك الجبال، بالإضافة إلى غير ذلك من الفوائد الداخلية والخارجية، تؤدي هذه المهمة من دون قصور.. فالجبال تتعمق إلى باطن الأرض، وأحيانًا تعلو من البحار، فتحتضن الأرضَ وكلَّ ما على وجه الأرض وكأنها سارية راسخة، فتتخلّص الأرض من الهزات، وتَثبُت.. وبذلك يجد كلُّ شيء من الحيوانات والجمادات الراحةَ والسلامة وكأنها تقوم بالسياحة على متن سفينة آمنة.

فحينما تضرب الجبال بثقلها في باطن الأرض وتضغط عليها، فإنها تُوازِن الطبقةَ الخارجية إلى حد كبير، وبذلك تُحقق التوازن للكرة الأرضية، ولكنه بمرور الأيام وبالتوازي مع عمر الكرة الأرضية يدخل هذا التوازن مرحلةَ الاختلال ليبدأ نشوءُ توازن جديد، فتبدأُ القشرة الأرضية باتخاذ شكل جديد، فتتعاقب الأدوار، وتتآكل القمم وتترك مكانَها للبحار، وأما قيعان البحار فإنها تفسح الطريق للمواد التي تأتي للجبال وتغذيها وكأنها رحمٌ تحتضن بداية مرحلة تكوينية جديدة.

وكما أن المجتمعات تتعاقب عليها مراحل الولادة والنمو والوفاة، فكذلك حال الكرة الأرضية تعاقبت عليه على مر الزمان حالاتٌ من المد والجزر، ومن المحتمل أن هذه التحولات تتحقق في

[86] المِرْساة: ثقل يُلقى في الماء مرتبطًا بالسفينة فيمسكها عن الجريان.

السير نحو الكمال، إلى أن تأتي مرحلةٌ تتطلب القفز نحو كمال فوق الكمال، وعندها تتوقف هذه القفزات الصغيرة من المد والجزر والترميمات والتعديلات، ويرتجف هذا النظام الفاني بكل مقوماته وعناصره فتتعاقب الهزات والرجفات، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً**﴾ (سورة الْمُزَّمِّلِ: 14/73)، ﴿**وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۞ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ**﴾ (سورة الانْشِقَاقِ: 3/84-4).. وحينذاك يتأسّس عالم جديد، وتتوقف حالات المد والجزر، ويأخذ كل شيء شكله على أكمل وجه وأروعِه وأنسبِه.

فإذا اعتبرنا تبادُل الجبال مكانَها مع البحار على مرّ الزمان سيرًا نحو نقطة، فإن هذا سيكون دائمًا سيرًا للوصول إلى الأفضل والأكمل، بمعنى أن كل هذه التقلبات إن كانت حركاتٍ منتظمة للمسير نحو الآخرة التي هي الحياة الحقيقية وهي كذلك بلا ريب

فإن تحركات الجبال تكون جارية نحو الأفضل والأكمل، وذلك من الصنع الإلهي الذي يستحق كل تقدير.. فقوله تعالى: ﴿**صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ (سورة النَّمْلِ: 88/27)، **يُستفاد منه أن الله** تعالى بما خلقه من هذه الأمور يُحضِّر العقول ويهيِّئُها لإدراك إعادة الخلق

من جديد على أكمل وجه وأحسنِه بحيث يذهل العقولَ ويأخذ بالألباب.

ومن المفيد لفتُ النظر إلى أمر آخر وهو أن قضية الخروج من حدود الكرة الأرضية والتعرف على تحركاتها لم تكن في العهد النبوي من الأمور المعروفة لدى الناس، ولست أدري كيف فَهِم الناس هذا الأمر بمستوى فهم ذلك العصر، ولكننا نحن أبناءَ هذا العصر بإمكاننا أن نستعين بالعلوم حتى نفهم أمورًا مختلفة، بل إن فهم الآية ليس محدّدًا بمستوى فهم إنسان هذا العصر أيضًا؛ فمن الواضح أنه بمرور الأيام ستكون هناك تطورات في العلوم والتكنولوجيا، وحينذاك ستضاف إلى هذه التفسيرات تفسيرات جديدة، والمهمّ في ذلك أن يتوجه الناس إلى القرآن، ويَصرفوا كل طاقاتهم في سبيل فهمه، فإذا جعل الناس فهم القرآن غاية المنى في حياتهم فلا شك أنهم سيخوضون

في أعماقه التي لم يتم اكتشافها بعدُ.

س. التحولات الأرضية

وهناك أمر آخر يتعلق بالكرة الأرضية، وهو التحولات التي تعتريها، فقوله تعالى:

﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ (سورة الرَّعْدِ: 41/13) يفاجئنا مرة أخرى بالإشارة إلى هذه الظاهرة بأسلوب علمي، وبشكل مجمل، وعلى صورة الإخبار، وبأسلوب هادف إلى ترسيخ عقيدة التوحيد.

فالآية تؤكِّد على وجه صريح أن حالة الكرة الأرضية الآن تختلف عما كانت عليه في بدايتها، وإذ تذكر ذلك تستخدم أسلوبًا يجلب الانتباه قائلة: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا**﴾.

أجل، إن بني الإنسان إذا استخدموا الأدوات التكنولوجية في بحوث الأرض فإنهم سيرون بأعينهم ما اعتراها من التبدلات.. و"مِن" في قوله تعالى: ﴿**مِنْ أَطْرَافِهَا**﴾ للتبعيض، وفي ذلك إشارة إلى أن هذا النقص لا يحصل من كل أطرافها بل من بعضها.

وقد لاحظ مختلف الباحثين منذ القرن الثامن عشر في معظم القياسات التي أَجْروها على الكرة الأرضية، أن الأرض قد تعرضت لتغيرات دائمة، حيث إنها مُفَلْطَحَة عند القطبين بينما هي مُنْبَعِجَة عند خط الاستواء فصارت بيضاوية، فالذي فعل هذا هو الله الحكيم وصاحبُ الحُكم، وأما ما نقوم به نحن وسائرُ علماءِ هذا الشأن فليس إلا من باب الحديث عن الأمر الواقع، صحيحٌ أن علماء التفسير قد جاؤوا بتفسيرات توصلوا إليها في ضوء المعلومات التي خوَّلها لهم المستوى العلمي في عصورهم، فمثلًا هناك رواية تُسنَد إلى ابن عباس تدل على أنه فَهِمَ من الآية أن الأرض تتآكل وتتعرى من الأطراف، وعلى هذا الفهم والتأويل يكون المعنى: "أن بعض أطراف الأرض تتآكل، ويتغير شكلها"، وهذا يدل على أن ترجمان القرآن قد فهم من الآية معنى قريبًا جدًّا مما نفهمه في عصرنا من أن الأرض تتآكل من بعض الجوانب.

وقد فهم بعضُ المفسّرين نقص الأرض من الأطراف على أنه نقص الأفراد وقَطْعُ بركة الأرزاق، فيمكن أن يكون في هذا التوجيه أيضًا إشارة إلى انكماش قطر الأرض وتقلُّصه، وهذا يعني أن الأرض تنكمش الآن، وحسبَ تاريخ الكرة الأرضية، قد حصل في آخر 250 مليون سنة في كل

26-30 مليون سنة منها فتراتٌ شبيهة بالقيامة، فانقرضَ نسلُ بعض الحيوانات التي كانت تعيش في تلك الفترات بنسبة تصل أحيانًا إلى 90%.. فإذا أخذنا هذا الطرح بعين الاعتبار، فيمكن أن نستنبط من نقص الأرض من الأطراف

ما يحصل في هذه المراحل من النقص في أعداد أجناس الحيوانات والنباتات.

ومع أن الآية تشمل في عمومها كلَّ هذه التوجيهات، إلا أننا إذا تنبهنا إلى ما فيها من التعبيرات وأخذناها على وجهها المتبادر فسنلاحظ أن أنسب التفسيرات هو ما يوافق تفسيرات عصرنا الحالي، صحيحٌ أنه قد وردت تصويرات صائبة في حق شكل الكرة الأرضية، إلا أن إدراك هذا الأمر في ضوء التطوّرات العلمية والتقنيّة يكون أسهل وأوضح، ويبدو أنه في المستقبل سيكون أسهل وبشكل أفضل.

وقوله تعالى: ﴿**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**﴾ (سورة الزُّمَر: 5/39) وقوله: ﴿**وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ**﴾ (سورة يس: 37/36) ثم قوله تعالى: ﴿**وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**﴾ (سورة النَّازِعَاتِ: 30/79) يعطينا أطراف بعض الخيوط، ومن المفسرين من ركَّز في قضية كروية الأرض على هذه الآية، كما أن هناك عددًا غير قليل منهم فَهِم منها أن الأرض مع كرويتها قابلة للعيش عليها وكأنها مسطحة، كما أن منهم من استخرج مِن "دَحَاهَا" أن الآية تشير إلى أن شكل الأرض على هيئة بيض النعامة، حيث إن المكان الذي تَضع فيه بيضَها يسمى "المدحى" لأنه يدحوه برجله ويبسطه ويوسعه ثم يبيض فيه[87]، مما يعني أن فيها إشارة إلى ما اعترى الكرة الأرضية من التفلطح في المناطق القطبية فأصبحت بيضاوية الشكل.

ومع أن في هذه التوجيهات كلها جانبًا من الحقيقة، غير أننا نقول في ذلك كله: الله وحده هو من يعلم حقيقة الأمر، إلا أن اللازم هنا هو أن لا يكون ما يقال في هذا الباب من الشروح

---

[87] انظر: بنت الشاطئ: **التفسير البياني للقرآن الكريم**، 151/1.

والتفسيرات يُناقض القرآنَ ويعارضه، بل يكون هذا الاكتشاف الجديد من الأمور التي تقرِّب إلى الأوامر التكوينية وإلى ما أتت به من الأحكام على وجه الإجمال.

ع. نظرة القرآن الكريم إلى العوالم الصغرى

1- حقيقة كتاب الكون

إن القرآن المعجز البيانِ يلفت أنظارنا بين الحين والآخر إلى كتاب الكون، ويجلب انتباهنا إلى ما حقّقه قلم القَدر والقُدرة والعلمِ والإرادة، فيسوق المؤمنين إلى التفكّر والبحث والتأمّل، وسنحاول في هذا القسم أن نرى بنظرة عامة حركاتِ الذرات والجزيئات التي تُعتبر الرؤوس الدقيقة لقلم القدر، والإشاراتِ القرآنية حول هذه الأمور، وأن نرى -على الأقل- مدى تطابق هذه الإشارات مع ما وصلت إليه العلوم في عصرنا.

إن الذرّات وكل ما هو أصغر أو أكبر منها من الجزيئات والذرات والإلكترونات والبروتونات والجسيمات وما ضاهاها من الأجسام الصغيرة هي بمثابة الحجر الأساس للكون، وإنما شاهدنا أُولَى التعيُّنات في عالم الشهادة بعالم الإلكترونات والإشعاعات الكيماوية، كما أننا بفضل الجزَيْئات الأصغر من الذَّرية التي تُعتبر أصغر أجزاء المادة استطعنا أن ندرك ونكتشف قوانين الضوء والحركة، والقوانينَ الجاذبة والدافعة.

إن كل الأجسام والحركات لها أطوالُ موجاتٍ تخصّها، وهي تُسجَّل بكل خصوصياتها في المكان بقلم القدر، فلا تُبطِل كتابةُ أيِّ واحد منها الآخرَ، وتُواصِل الموجوداتُ وجودها في طاعة ولطف جبري، فهناك يدٌ واحدة للقدر تتصرف في آلافٍ بل ملايين من الأحداث وتعالجُها بدقة فائقة من خلال فرجار القدر، بحيث لا تختلط أيَّةُ حادثة بالأخرى، ولا تُخِلُّ أصلًا بالنظام العام والخاص.

وإذا نظرنا من هذا المنظور فإننا سنرى مِن وراء كل هذا النظام المذهل يدَ القدرة التي تعطي كل الأشياء شكلَها، وسنلاحظ البرنامج القدري الذي هو لُحمة كل شيء وسَداه، ونعرف خالقَ هذا البرنامج ونُرجع الأمر كله إليه، وسندرك أن الله تعالى قبل أن يَعرض المخلوقات لمشاهدة الأنظار أعدّها ووضعها حسبَ علمه؛ لأننا نشاهد دائمًا ما في الكون من مَظاهر القدرة والعلم

والإرادة والتدبير والتدوير والتصوير، فهذه القدرة قد عَينت الأشياءَ أوَّلًا في ضوء القَدر والبرامجِ النابعة من العلم الإلهي، ثم لما حان أوان ظهورها لأداء دورها وُجهت إليها الدعوةُ فأَخذتْ مكانَها في موقعها من الكون والوجود.

وقد يبدو للناظر في أول وهلة وكأن هناك في الكون نوعًا من الفوضى والاضطراب، لكن الحقيقة أن الكون يسُوده نظام وتناغم مذهل، ولْنفكرْ هنيهة فيما نشاهده كل يوم من شمعة أو مدفأة أو مصباح، ولننظرْ في المقابل إلى الشمس التي تنير عالمنا وتُدفئها، فكل واحد منها له ضوء وحرارة، ولكن لا يختلط أي واحد منها بالآخر، فنحن نميز بينها بسهولة بطول الموجات، فالاختلاف بطول الموجات قانونٌ سارٍ في الكون.

وبهذه الخصوصية والقانونِ يتبين لنا كيف أن كل شيء يتحرك في الكون في نظام معين وأن الله تعالى يرى كل شيء ويهيمن عليه، وفي عالم الخلقة تتم كتابة الكتب التي سبق أنْ قُدِّر لها الظهور، وتتحقق ضمن قدَر ونظام، بمعنى أن صاحب مطلق القدرة والإرادة ﷻ قد عَيَّن كل شيء وقدَّره تقديرًا.

فكتاب الكون قد تمت كتابته وفقًا لهذا التقدير الإلهي، وأما الذرات فهي بمثابة حروفِ هذا الكتاب وألفبائها، والجزيئاتُ كلماتُها، والكائناتُ الحية وغير الحية هي بمثابة جُمَل هذا الكتاب، فحينما يأمر الله بقوله: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ (سورة العَلَق: 1/96)، بالقراءة يلفت أنظارنا إلى ساحة الخلقة، ويربط قضية القراءة بالخلقة، فيدعو الناس إلى قراءة كتاب الكون والخلقة، وبقوله تعالى: ﴿**خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ**﴾ (سورة العَلَق: 2/96)، يَلفت الأنظار إلى الإنسان للتذكير بالعالَم الأكبر، والانسجامِ الموجود بين خلق الكون وخلق الإنسان.

وهذا هو السبب في أننا ما زلنا ننظر إلى الكون على أنه "كتاب" كُتب بقلم القدرة والإرادة؛ لأنه كما أن القرآن الكريم هو كتاب الله الصادرُ من صفة "الإرادة"، فالكون بالمقابل كتابٌ نابع من صفتَي القدرة والإرادة، فالقرآن الكريم يتطرق في مواضع عديدة لهذه العلاقة بين الإنسان والكون،

ونحن أيضًا بناءً على ذلك نعتبر الإنسان "الكون الصغير" ونظر إلى الكون على أنه "الإنسان الكبير".

إن القرآن الكريم كثيرًا ما يجلب الأنظار إلى تركيبة الإنسان والكونِ، ويَكشف أسرار الخلقة على المستوى الكلي والجزئي ويركز على العناصر المكوِّنة للوجود، ونتيجةً لذلك نلاحظ أن هناك وحدة مهمة بين عين العلم وعين القرآن؛ أي تطابقًا وتوافقًا جادًّا في وجهات النظر بين العلم والقرآن؛ فالعلم يحاول أن يَنفُذ إلى داخل المادة فيتعمقَ فيها ويصلَ إلى الأعماق التي لا يمكن رؤيتها إلا بالمجهر الإلكتروني، وهناك يشاهَد

أن القرآن الكريم قد أشار إلى الحقائق نفسها من خلال آياته وبيانه.

وهذا يدل على أن كتاب الكون والقرآنَ المعجز البيان يتحدثان في الأساس عن الحقيقة نفسها، والقرآنُ من هذه الحيثية يُعتبَر الترجمان الأزلي والأبدي للكائنات، وبدونه لا يمكن قراءة الكون بشكل مفهوم، كما أنه ليس للعلوم أن تتطوّر من دون انحراف

عن المسار الصحيح إلا إذا استرشدت ببياناته المعجزة.

2- العالَم الذي كتبه قلم القدرة والإرادة: عالم الذرات *(Micro)*

الذرة جزء صغير للمادة، وقد قام العلماء حتى بتشريح هذا الجزء الصغير للمادة، فتوصّلوا إلى أن مكوناتِ الذرة هي:

أ. جُزَيئات تسمى النيوترون والبروتون.

ب. إلكترونات تدور بسرعة حول هذه النواة.

وهذه الجُسيمات الصغيرة هي الحجر الأساس لكل الكائنات التي خلقها الله

في الكون بدءًا من أصغر عالم وانتهاءً بأكبره.

وهذه الجسيمات هي اللبنات الأساسية لكل ما في الكون من أصغره إلى أكبره؛ بدءًا من الخلايا التي تشكل جسم الإنسان إلى الخلايا التي في فاكهة الأشجار، ومن المجرات إلى السدم وكلِّ

النُّظم الكبيرة، فقد جعل الله هذه الجسيمات في مجموعات مختلفة وشكَّل منها تراكيب لا نهاية لها؛ بحيث حرَّك الذرّات نفسها ولكن في تراكيب مختلفة، فخَلق من هذه الجزيئات المحدودة المعينة مئات بل ألوفًا بل عشرات الآلاف من التكوينات.

أجل، إن الحق ﷻ يُنشئ من شيء واحد ألفَ شيء، ويُحمِّل كلًّا من هذه الأشياء عديدًا من الوظائف؛ فالذرات التي تَنفُذ إلى داخل الأشجار عن طريق أشعة الشمس تَأخذ هناك ماهياتٍ مختلفةً، في حين أنها تشكِّل تراكيب مختلفة إذا دخلت في كائنات أخرى.

فالله تعالى قد وضع في كل شيء نفسَ الجزيئات بدءًا من الكائنات الدقيقة والحيوانات والنباتات وانتهاءً بعالم المجرات والأنظمة البعيدة عنا بمليارات من السنوات الضوئية والتي تذهل العقول بعظمة أحجامها، كما أنه بنفس اللبنات أَوجد شتى المناسبات بين هذه الأنظمة المختلفة عن بعضها البعض؛ فبين الإنسان والكون علاقةٌ رائعة، وكل هذه الأمور تتحقق عن طريق هذه الذرات الصغيرة التي هي بمثابة رؤوس قلم القدر الإلهي، فكما أن الإنسان يواصل حياته عن طريق الذرات، فكذلك الأشجار بكيفياتها المتلونة والتي تلامس القلوب بأزهارها وثمارها، هي أيضًا تتكون وتواصل وجودها بالذرات نفسها.

وكل أنواع اللباس الموجودة في الكون والتي تُناسب ملبوساتِها في قاماتها وطبائعها وأشكالها ما هي إلا تَشَكُّلٌ لهذه العناصر بأشكال مختلفة، إن مَعرض الكون يعمل وكأنه متجر الملابس؛ بحيث إن كل موجود يجد بكل سهولة ما يناسب قامته وحجمَه من اللباس فيرتديه، بالإضافة إلى أن كل ذلك يتحقق بتكلفة قليلة ليس من الممكن تحقيقه بطريقة أخرى بهذا المستوى من الرّخص والسرعة والوفرة.

فمثلًا، إذا غرس أحدُنا فسيلة في التراب فإنها تمتص الماء قطرة قطرة، وتأخذ ثاني أوكسيد الكربون من الجو، وتجمعها بالأشعة القادمة من الشمس، وتصنع تركيبًا سُكَّريًّا، ولكن هذا كله يتحقق بمنتهى السهولة والرخْص، ولكن الإنسان لم يستطع بعدُ

أن يؤسّسَ مصنعًا ينتج السكّر بهذه السهولة.

ففي هذا المصنع الذي أوجده الله، تَمسح الشمسُ بأشعّتها رؤوسَ الأغصان التي تلتقط المواد من الهواء، وتمتصها من التراب، فتصنع التركيب السكري بمهارة فائقة تحيِّر الإنسان؛ حيث إن البشرية رغم كل ما تمتلكه من الأدوات التقنية لم تستطع أن تحقق عُشر تلك المهارة التي تُحقِّقها أغصانُ الأشجار، وهكذا وبهذه السهولة يُنتج كل شيء في مصنع الله.

إن كل الذرات المنتسبة إلى سلطان الكون، وكلَّ التموجات الجوية، وأنواع الغازات الموجودة في الهواء، والأشعة القادمة من الشمس، وكل الرشحات المائية تمتصها الأشجار من التراب فتصعد عبر الجذور والأغصان.. كل واحد من هؤلاء يتصرف وكأنه مأمور إلهيّ، في تناغم تام، حتى تُقدِّمَ للإنسان العديدَ من النعم، وتلبيَ حاجاته الضرورية في أبهى حلتها وألطفِها وأكثرِها جاذبية، وبذلك تُجيش فينا مشاعرَ الشكر والامتنان.

3- أصغر أجزاء الكون في القرآن الكريم

سبق أنْ تناولنا آنفا في ضوء الآيات القرآنية قضيةَ الذرة التي تُعتبر هي ومكوناتُها أصغرَ أجزاء الكون، ولكنْ بدلًا من الحديث حول ماهيتها الأساسية تَحَدَّثْنا هناك حول كيفياتها المتنوعة وكيف أن الموجودات تتشكل وفقًا للبرنامج القدري، وأن لها خطة سابقة، وأن القدر والإرادة الإلهيتين تحيطان بكل شيء وتهيمنان عليه، بدءًا من الذرات وانتهاءً بالأنظمة الكونية الكبرى، وسنفصل الموضوع أكثر بأن نشرح هذه الآية الكريمة التي تتحدث عن إحاطة علم الله وإرادته وقدرته: ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾ (سورة يُونُس: 61/10).

وفي هذا السياق قد يتساءل الإنسان: هل المواد المستخدَمة في الكون من أصغر دائرة إلى أكبرها، ومن الذرات إلى المجرات، هي نفسُ المواد الأساسية؟ وهل البنية المادية هي نفسها في كل أطراف الكون؟

لقد ذكرنا سابقًا أن اللبنات الأساسية في الكون هي نفس الأجزاء؛ حيث إن قول الله تعالى: ﴿**مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ**﴾ يشير إلى هذه الحقيقة، وأن الله تعالى قد خلق كل ما في الأرض والسماء من نفس اللبنات الأساسية ومن نفس الذرات-الجزيئات أو الجسيمات.

﴿**وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾، يقول أهل التحقيق: إن "الإمام المبين" هو اللوح المحفوظ والكتاب المبين هو الذرات التي تملأ كل الأنحاء وتحتوي على قصةِ حياةِ الشخص وكأنها شريطُ محوٍ وإثبات، وتشتمل على كل ما يتعلق بالإنسان وكأنها شريط سينمائي، وتسجيل الذرات لنشاطات معينة، وتعلُّقُ تصرفات الإنسان بشريط الزمان هما من الأمور التي توضح لنا مفهوم "الكتاب المبين".. فهو اسم للكتاب الذي كتبه الله بقلم القدرة، وقدّره منذ الأزل.

وتعبير "الكتاب المبين" هنا له مغزى مهمّ، حيث تقول الآية: إن كل شيء سواء أكان أكبر من الذرة كالجزيئات مثلًا أم أصغر كالإلكترونات والكواركات -مع اعتبار الخلاف في النظريات- يتحرّك بقدرة الله ويُسجَّل في كتاب مبين.

و"المثقال" هو وحدة القياس المستخدَمةُ لقياس وزن الذهب، وحينما يطلق "مثقال ذرة" فلا يقصد منه سوى المعنى المصطلح عليه في قياس الذرة (*Atom*).. وقد تم قياس نصف قطر الذرة على أنه ثمانية في عشرة أُسّ ناقص ثمانية (0.8^{-8}) وهذا المقدار يحتل مساحة صغيرة جدًّا؛ بحيث إنه لو تم إضافة 75 مليونًا من ذرات الهيدروجين إلى بعضها البعض بشكل متسلسل لَمَا شغل إلا سنتيمترًا واحدًا.. وبتعبير آخر: يوجد في 56 جرامًا من الحديد:

(6.02×1023) = (602.000.000.000.000.000.000) من الذرات

والشخص الواحد أكبر من الذرة من ناحية الحجم بمقدار (1028) ضعفًا، كما أن الشمس هي أكبر من الإنسان بمقدار (1028) ضعفًا، فحجم الإنسان هو في نقطة وسط بين حجم الذرة وحجم الشمس، وحجم الشمس من السعة والعظمة بحيث تَسَعُ

ما يعدل مليونًا ومائتين وسبعةً وتسعين ألفَ كرةٍ أرضية من طراز كرتنا الأرضية التي نعيش عليها، ومن هذه المقارنة ندرك مدى صغر حجم الذرة.

وتعبير "مثقال ذرة" في الآية الكريمة يَلفت النظر إلى ما هو أكبر من الذرة وما هو أصغر منها مثل: البروتونات والنيوترونات والإلكترونات والميزونات والنيترينتو والكواركات، وفيها إشارة إلى أننا مهما دخلنا في ساحات ومهما تعمقنا ومهما اكتشفنا فإننا لن نتخطى حدود ماهية الذرة، ولن نخرج خارج حدود نطاقها، ولا بد من تناول القضية على إطلاقها، ويبدو أنه ليس هناك من تناقض بين قوانين الذرة المطروحة على بساط البحث والتي لا تزال قيد التطور، وبين تعبيرات القرآن المعجز البيان، ولا شك أنه ليس من الصحيح أن نحاول تكييف القرآن الكريم مع نظريات لا تزال في طريقها نحو النمو والتطور، ولكن إذا كان الكون الذي هو أساس العلوم هو الكتاب المنظور للذات الإلهية التي تتكلم بالقرآن -ولا نشك في ذلك- فليس هناك مجال لتناقض التفكير العلمي الصافي مع القرآن الكريم.

ففي وسط الذرة نواة تدور حولها إلكتروناتٌ بسرعة، وفي كل الذرات باستثناء الهيدروجين يوجد في نواة الذرة النيترون بجانب البروتون؛ لأنه إذا وجد في النواة أكثر من نيوترون واحد فإنها ستتدافع فيما بينها لكونها محملة بنفس القطب الكهربائي؛ حيث إن شحنتها موجبة؛ فالنيوترونات الموجودة في النواة تَحُول دون تدافُع البروتونات فيما بينها وتقوم بدور الرابط بينها، وهذا يعني أنه لا يمكن للبروتونات أن تتعايش فيما بينها من دون النيوترونات.

والعكس صحيح؛ حيث إن النيوترونات هي بحاجة دائمة إلى البروتونات، فإذا خُلِّي بينها فإنها سرعان ما تَفسُد نصفُها وتتحول إلى بروتونات وإلكترونات، ولكن كلما كبرت النواة فإن أعداد البروتونات والنيوترونات هي أيضًا تتكاثر ولكن ليس بالتوازي بل إن عدد النيوترونات يكون أكثر، صحيح أن لهذا التكاثر أيضًا حدودًا ومَوازين معينة، فإذا اختلت هذه الموازين وتم تجاوُز الحدود فستبدأ حالةٌ من عدم الاستقرار في النواة، وأما الرجوع إلى حالة الاستقرار فإنما يتحقق بما يحصل داخل النواة من النشاط النووي.

ولا ينحصر اختلال النشاط النووي في التوازن بين النيوترون والبروتون؛ فقد يؤدي مجرّد الارتفاع في أعداد البروتون إلى ذلك؛ فالعناصر التي تحتوي نواتها على أكثر من أربعة وثمانين بروتونًا فإنها ستكون غير مستقرة مهما زاد عدد نيوتروناتها، فلا يمكن الاحتفاظ بهذه الكمية من الشحنة الموجبة

في نواة الذرة، فالنواة بدروها تتقلّص إلى أن تصل إلى وضـع الاستقرار، وأكثرُ الذرات استقرارًا هو الهيدروجين، وأكثرُها اضطرابًا هو اليورانيوم، فبروتونات اليورانيوم تثير الضجيج المستمر مع محيطها وتؤدي دائمًا إلى الانفجارات، ولهذا فإن اليورانيوم من العناصر الأساسية المستخدَمة في تصنيع القنبلة الذرية.

وتنبعث من اليورانيوم 238 نوعًا من جسيماتُ "أَلْفَا" فينزل عدد البروتونات من (92) إلى (90) وعددُ النيوترونات من (146) إلى (144).. ولكن (90) بروتونًا ثقيلٌ على (144) نيوترونا! ففي هذه المرة تنبعث من اليورانيوم جُسيماتُ "بِيتَا" فيزيد من عدد البروتونات، فيأخذ مكانه في الرقم (91) كعنصر جديد، وتتواصل هذه العملية، وفي النهاية يبقى اليورانيوم في مكانه في الرقم (82).

ويدَّعي "لورنتز" أن المسافة والمناسبة بين نواة الذرة والإلكترون تبدو وكأنها مثال مصغر للمنظومة الشمسية؛ فكما أن هناك نجومًا توابع تدور حول الشمس باستمرار، فكذلك الإلكترونات تتحرك وتدور حول نواة الذرة، وتختلف حركة الإلكترونات على حسب المسافة بينها وبين النواة، وتكون المسافة بين الإلكترونات والنواة بمقدار واحد بالمليون من المليمتر، فتتراوح سرعتها في الثانية الواحدة بين (1000) إلى (15000) كيلومتر، فتدور في الثانية الواحدة في ذلك الطريق القصير حول النواة قاطعةً مليارات الجولات.. والفرق بينها وبين الكواكب الدائرة حول الشمس هي أن منظرها يحاكي منظر السحاب، فتكون هي كل حين في منطقة من ذلك السحاب.

وتقوم الإلكترونات بهذا الدوران السريع حول النواة بحمايتها، ولو كان هناك قطار يتحرك بسرعة الإلكترون لَقَطَعَ المسافةَ بين صنعاء إلى حضرموت ذهابًا وإيابًا في ثانية واحدة.. فبسبب هذه السرعة الفائقة للإلكترونات يبدو داخلُ الذرات وكأنه مليءٌ، وأولُ من اكتشف أن داخل المادة فارغ وسجَّله في كتابه هو العالِم المسلم الكبير الإمام الرباني السرهندي، وفي أثناء دوران الإلكترونات حول النواة تحدُث داخلَ الذرة عواصفُ وأعاصير تجتاح الأطراف، ولكن الناس لا يشعرون بكل هذا الذي يحدُث.

أجل، إن الإلكترونات رغم صغر حجمها تُقيم القيامة فيما حول النواة.

ولننظر كيف تُلقي كلمة "الذرة" بمختلف معانيها الضوءَ على ما نحن فيه:

﴿**وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا** [أي أُقسم بالرياح التي ترفع السحب وتثير الغبار، وبالقوانين الطبيعية التي تثير الحمم البركانية، وبالذراتِ] ۞ **فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا** [أي السحب المحملة بالمطر] ۞ **فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا** [أي السفن والكواكب التي تَجري بيُسر وسهولة]﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: 51/1-3).

ففي الآية الكريمة يَتم القَسَمُ بالله الذي يُحرّك الذرات والأجسامَ ويقلبها كيف يشاء.

وكلمة "الذر" تأتي في العربية بالمعاني التالية أيضًا:

أ. عندما يصنع الإنسان طعامًا لزِجًا قريبًا من الجاف، فيبدأ بخلطه، يحصل من وراء الآلة الخالطة تَتابعٌ ومطاردة من الطعام للآلة فهذا يسمى ذرًّا.

ب. يرى أكثر المفسرين أن الذاريات بمعنى الرياح، بمعنى أن الرياح تَذْرُو وتُبدِّد، وتُثير الغبار، فتؤدي إلى الأعاصير.

ج. ويرى بعضهم أن المراد بها الملائكة الموكَّلون بهبوب الرياح، ويمكن العثور على هذه الآراء في كثير من التفاسير القديمة والمعاصرة.

ويفهم من هذه المعاني أن الله تعالى لا يُحدث التغييرات في عالم الذرات فقط، بل يجري بعض التغييرات عن طريق الرياح أيضًا، وتحريكُ الله تعالى للأشياء بالرياح والعواصف هو شبه قانون عام جارٍ في الكون بدءًا من أكبر العوالم وانتهاءً بأصغرها، فهناك مليارات من المجموعات النجمية تدور حول مركزِ مجرةِ درب التبانة بسرعة (250) كم في الثانية أي (15000) كم في الدقيقة الواحدة، فالله الذي يدير الإلكترون حول نواة الذرة ضِمنَ قانون معين، يدير الكرة الأرضية ويجري الرياح بالقانون نفسه، كما أن هناك أجرامًا سماوية في الفضاء الفسيح هي أكبر من الشمس بملايين الأضعاف يُجريها الله بالقانون نفسه إلى نقطة معينة، وتتراءى للناظر وكأنها غيوم تشكلت من الغبار.

فنحن إذ نتأمل في قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: 1/51) [أي الرياح التي تَرفع السحبَ وتثير الغبار] ننظر نظرة شاملة إلى كل العواصف والأعاصير التي تهُبُّ في الكون بدءًا من أصغر العوالم وانتهاءً بأكبرها، ونحاول مشاهدة عظمة الله في كل شيء.

أجل، إن أعظم النُّظم في العالم الأكبر الواقعِ في دائرة القدرة الإلهية تتحرك مثل أصغر جزيئات الذرة، والعواصف التي تهبُّ على وجه الأرض تحت إشراف الملائكة، تحصل -بالقانون نفسِه- في عالم الذرات عن طريق الإلكترونات، وأينما تذهب فلن تجد لسنة الله تبديلًا، فلو تغيرَتْ أمثال هذه القوانين ولم تَطَّرد لما تبينتْ لنا العلوم، ولَمَا أتيح لنا الحديث عن الثوابت جرَّاء عدم اطّراد القوانين في الكون؛ لأن العلوم إنما تتشكّل بفضل هذه القوانين المطّردة.

وتوجد في نواة الذرة بروتونات ذات شحنة موجبة، بينما توجد حواليها إلكترونات سالبة الشحنة، فهاتان القيمتان المتضادتان تتجاذبان فيما بينهما، ولا بد لمادة النواة أن تكون ثقيلة جدًّا حتى تستطيع جذب ما حولها من الإلكترونات وتديرَها فيما حولها، ولهذا فإن البروتونات هي أثقلُ بمئات المرات من الإلكترونات؛ فمثلًا: إذا كان وزن الإلكترون وحدةً واحدة، فإن البروتون أثقل منه بـ(1836) مرة، فالإلكترونات الخفيفة تدور حول البروتون الثقيل وفقًا للقانون الذي وضعه الله.

ولزيادة الأمر تصويرًا نستطيع القول: إن للبروتون مهمةَ التحركِ في الأطراف بسرعة فائقة، وأما النواة فعليها حملُ الأثقال، فهي مركز الثقل وعليها الحِمل، ومن يدري لعل قوله تعالى: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: 2/51) يشير إلى هذه الحقيقة.

فالله تعالى يُقْسِم في هذه الآية بالحاملات الأحمال الثقيلة، ونلاحظ أن الله تعالى يلفت الأنظار إلى ما على وجه الأرض من الغبار والتراب، في الوقت الذي يجلب الانتباه إلى الأشياء العملاقة التي تدور حول الأنظمة السماوية، كما يشير إلى الإلكترونات التي تدور حول نواة الذرة؛ فالآية تتحدّث عن دوران الكرة الأرضية بثقلها وترابها وغبارها حول محورها، كما تتحدث عن دوران الإلكترونات حول الإلكترونات، بالإضافة إلى الإشارة إلى الأنظمة السماوية الكبيرة وما ترتبط

هي بها من النَّوَيات العظيمة، وفي الآية إشارة أيضًا إلى قانونِ: "ثقل المركز" في الأنظمة بدءًا من أصغر الأنظمة وانتهاءً بأكبرها؛ حيث يقول الله تعالى في سياق القسم: ﴿**فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا**﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: 2/51) مشيرًا إلى أهمية النواة أو هذا الثقلِ الموجود في المركز؛ فإنه لولا هذا الثقل لتبعثرت الإلكترونات ولأدى ذلك إلى انفجارات مُدَوِّيَة في الأطراف.

وتوجد أيضًا في النواة نيوترونات غير مشحونة من حيث الطاقة الكهربائية، وتكون سرعة دوران هذه الأجزاء الثقيلة على حسب وزنها، فتتراوح سرعتها في الثانية الواحدة بين سرعة الضوء وبين عدة كيلومترات، ومن حيث إنها غير محملة فإنها تستطيع أن تَقطع مسافات طويلة في المادة، وهي بهذه السرعة تستطيع أن تخترق الحديد والرصاص بسمكِ (30) سم، ولكنها تَفقد طاقاتِها أثناء تصادمها مع النويات الذرية، ومع أن بعضها ثقيلٌ للغاية لكنها من شدة سرعتها تستطيع أن تخترق أشد المواد كثافة وتثقبَها بكل سهولة، وهي بفضل هذه السرعة الفائقة تتحرك بكل سهولة كما يحلق الطير في الهواء ويعوم السمك في الماء بكل راحة، تُرى! هل هناك إشارة إلى هذا في قول الله تعالى:

﴿**فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا**﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: 3/51).

فالله تعالى يُقْسم في الآية على أشياءَ تَجرِي بيسر وسهولة؛ أي الرياح والسحب والكواكب السيارة والأنظمة السماوية التي تجري في الفضاء بسهولة، بالإضافة إلى النيوترونات والإلكترونات في العالم الأصغر.

4- كل ما في الكون خاضعٌ لنظامٍ وميزان

إن كل ما في الكون تابعٌ لنظام وميزان في الإطار الذي وضعه الله، فلو لم يخلّ الناس بمحض إرادتهم بهذه القوانين ولم يشوّهوا ظروف حياتهم لبقي هذا الكون وهذا القَصر وهذا المعرض الرائع نظيفًا هادئًا وفي منتهى الانسجام والتناغم. أجل، إن كل ما في الكون؛ من الأحياء وغير الأحياء العاقلة وغير العاقلة، من الذرات إلى الأنظمة الكبرى، كلها تقوم بما نيط بها من المهامّ

الخارقة، فالذرات تُجرِي أنشطتها في سرعة معينة وفي تناغم خارق، وتُواصِل كلَّ حركاتها وفعالياتِها في إطار القوانين التي وضعها لها الله تعالى.

ولنتصور أننا وضعنا في أفواهنا فاكهة، فسنشاهد أن بين هذه الفاكهة وبين ما أُودع في أفواهنا من الخلايا الذائقة تواؤمًا فائقًا يفوق التصور، فقد وَضَعَتْ يدُ القدرة بعلمه المحيط في فم الإنسان شبكة من العلاقات ورَبَطت نشاطَ عامةِ أجهزة الجسم من الأعضاء كالغدد اللعابية والمعدة والأمعاء والكلى والكبد وغيرها بهذه الشبكة؛ فإن الذرات التي تؤدي وظائف في تركيبة خلايا فم الإنسان هي الذراتُ نفسها التي تؤدي دورها في تركيبة الفاكهة.

فالله تعالى بقدرته اللانهائية ينيط بهذه الجسيمات الصغيرة في كل كائن في الكون وظائفَ على حِدَة، بحيث إنها حينما تكون في فم الإنسان تتحمل وظيفةَ تشغيلِ الغدد اللعابية وتحفيزِ الشعور بالتذوّق والتفكّه، وحينما تكون بداخل الفاكهة فإنها تَحْمِل خصوصياتِ الفاكهة؛ بمعنى أنها في كل كائن تقوم بوظائفَ تُناسِب بنيته، وتتكيفُ

على حسب ما تكون عليه من الأوضاع؛ فالكون له ميزان ونظام بهذا الشكل، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ**﴾ (سورة الْحِجْرِ: 19/15).

أجل، إن كل ذرة تؤدّي وظائفها، وكأنها كلمة سَطَرها قلمُ القدرة الإلهية، فتبدع لكل شيء لباسًا حسب قامته، وتُعطي كلَّ فطرة ما يناسبها من الشكل، والبرنامجُ القدريُّ هو الذي يُنيط بالذرة كلَّ هذه المهامِّ، فهي لن تتحرك خارج نطاق هذا البرنامج، ولن تستطيع انتهاك حدود الموازين التي عُينت وقُدّرت لها، فلو تمرّدت الذراتُ داخل الجسم البشري وأخلَّتْ بالبرنامج لتشكّلت في جميع أنحاء الجسم أورام سرطانية، ولكن الواقع غير هذا، فهي تقوم بوظائفها داخل الجسم بوصفها عضوًا مخلصًا لهذه المهمة، وبفضل ذلك لا نلاحظ في الجسم أيَّة تراكمات زائدة عن الحاجة، فلو حصلت تراكمات مؤقتة في خلايا الدماغ لما أفلح الإنسان، ولَبدأ يهرع من طبيب إلى آخر للبحث عن دواء يريحه عما في دماغه من الأورام، ولكن الأمر بالعكس تمامًا؛ حيث إن

كل شيء في مكانه المناسب، وتقوم كل ذرة بنشاطها داخل الجسم في نظام وبرنامج معين، وبالتالي فلن ترى في الجسم أيه تراكمات زائدة إلا في بعض الحالات الطارئة الاستثنائية.

وكلُّ الخلل إنما يحصل عادةً جراء التدخّل الخاطئ والمعالجةِ غير الرشيدة. أجل، فكثيرًا ما يضرّ الإنسانُ نفسَه بنفسه من خلال القيام بأعمال مخلّة بالنظام العام في جسمه، فإذا كان في بعض مناطق الجسم عصيانٌ وتمرُّدٌ فهذا يعني أن هناك تدخّلا لإرادة الإنسان فيها، لأن ذرات جسم الإنسان لا حياة ولا شعور فيها، ولا تؤدِّي أنشطتَها إلا في إطار القوانين والموازين التي حددها الله لها، وليس لها أن تعصي هذه القوانين الإلهية قطعًا، فالمبدأ الأساسي لديها الطاعةُ والانقياد، وهذا الانقياد وهذه الطاعة العفوية منها هما اللذان يوهِمان الإنسانَ في كثير من الأحيان وكأن كل شيء يحصل من تلقاء نفسه.

إن القوانين والنواميس الجارية في الكون تعمل بشكل منظّم ومطّرد بحيث إن الناظر يلاحِظ حتى من وراء الأمور الصغيرة وكأن هناك خططًا تتّسم بالعبقرية والدهاء، وبالفعل إن الله ﷻ هو صاحب القدرة اللامتناهية الذي يدبّر كل شيء وكلَّ قانون، وهو الذي يدير الكائنات وينظمها، وليس لأحد غيره أن يتصرّف في ملكه تعالى، وإن الذرات وما تخضع له من القوانين تستند إليه تعالى، ولذلك نراها تؤدي مهامها بدءًا من أكبر العوالم وانتهاءً بأصغرها من دون أي تَلَكُّؤٍ أو فتور متجهةً نحو الغاية من خلقها، بالإضافة إلى أنه عندما يُحدِث الإنسانُ أيَّ خلل في النظام الكوني، فهناك نظام يتدارك الأمر فيزيل الخلل بفضل ما يشتمل عليه من قوانين الحماية وأنظمة المناعة.

إن التوازن الفطري لديه آلية تحميه تجاه الأيدي الجاهلة التي تفسد النظام البيئي، وتحافظ عليه ضد القوى الخارجية التي تحاول إفساد النظام العام السائد في الكون؛ بمعنى أنه يوجد بين الأشياء والأحداث خارجَ سير الحركة الطبيعية قوةٌ حامية ورادعة تعمل بواسطةٍ أو بدون واسطة، ولولا هذه الحماية لأدى أيُّ تدخُّل خارجيٍ جارٍ في جهة من الكون إلى فسادٍ يسري بشكل متسلسل في كل ما في النظام الكوني من الأشياء والحركات، ولكن ذلك لا يحصل.. بل إن تلك الذرات الجامدة تتحرك بشكل معين ومقدر، وهذه الحقيقة يعبر عنها بشكل وجيز قولُه تعالى: ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾ (سورة الرَّعْدِ: 8/13).

أجل، إن كل شيء يجري بقدر وميزان إلهي، وليس لأية ذرة أن تتحرك عفويًّا وأن تتخذ لها طريقًا تسلكه كما تشاء، فحجر الأساس لهذا النظام والتنظيمِ الذي وضعه الله في الكون هي الذرة التي ما زلنا نحاول أن نوضحها ونتعرفَ عليها بشتى كيفياتها، فالله تعالى ينسج كل شيء في الكون بدءًا من أصغر العوالم وانتهاء بأكبرها من هذه المادة الأساسية، وينشئ بها مفردات كتاب الكون، فلو قام بنو الإنسان بتشطير الذرة إلى أجزاء أصغر وسمَّوها بأسماء مختلفة لَمَا تغيرت النتيجة، ولرأوا عيانًا أن قلم القدرة يُجري حكمه في كل شيء رغمَ أيّ شيء.

ونستنتج من كل ما سبق أن الله تعالى وضع لكل كائنٍ حدودًا تتناسب مع خصوصياته، ووضع له نظامًا وتوازنًا وقانونًا، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ**﴾ (سورة الرَّحْمَنِ: 7/55)، ففسِّر الميزان إن شئت بـ"قوانين التوازن العام" الذي يقال بوجوده بين جميع الأشياء، وإن شئت فسمِّه: "الجاذبية" (*gravitation*) باعتبارها منفتحة على أفكار أخرى، ولك أن تُضيِّق إطار الموضوع وتختزله وتربطه في قضايا اجتماعية كالحق والعدل والمساواة والأخوة بين الناس، فما يراد التأكيد عليه في الآية هو ما يهم جميع الكون من التقدير والتعيين الإلهي الذي يعمّ النظام العام والتناغم العام والنظام البيئي العام (النظام الإيكولوجي)، كما أن قوله تعالى ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾ (سورة الرَّعْدِ: 8/13) يؤكّد أن كل شيء، من الذرات إلى أكبر المجرات، خُلق خاضعًا لمقياس وميزان ومربوطًا بقوالب قدرية.

5- زوجية الأجناس

ومن الحقائق العلمية التي أخبر بها القرآن الكريم متخطّيًا بذلك حدود الزمان هو جعل كل الأجناس زوجين؛ يقول الله تعالى ﴿**وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ**[ذكر-أنثى]**لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: 49/51).. وتسليط الضوء على هذه القضية مهمّ للغاية، حيث إنه من الممكن مشاهدة هذه الحقيقة في كل مكان في الكون بدءًا من الذرة وانتهاءً بالأنظمة والمجرات السماوية.

فقد خُلق الإنسان والحيوانات أزواجًا، وكذلك الحالُ بالنسبة للنباتات، وقضيةُ التلقيح والتلقح هي هي في كل الأمور تقريبًا؛ فحتى في النبات لو لم تلتقِ بذورُ اللقاح الذكورُ بالإناث لما أمكن للنباتات مواصلةُ حياتها والحفاظُ على أجيالها، وإذا نظرنا إلى جسم الإنسان فسنرى أن القانون

نفسَه جار فيه أيضًا، فإن اللبنة الأساسية لخلايا الجسم هي الذرات المحملة بشحنةٍ: زائد (+) أو ناقص (−).

فقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة البدهية بقوله: ﴿**فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى**﴾ (سورة القِيامَةِ: 39/75). كما أن قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ**﴾ (سورة الرَّعْدِ: 3/13) يذكّر بهذه الزوجية في الثمار.

ولفظةُ "كل" في قوله تعالى ﴿**وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون**﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: 49/51) مضافٌ إلى شيء وهو نكرة، وقد تقرّر أن لفظة "كل" إذا أضيفت إلى معرفة أفادت عمومَ الأجزاء وإذا أضيفت إلى نكرة أفادت عموم الأفراد، بمعنى أن كلّ فرد من أفراد المضاف إليه يدخل تحت الحكم، فـ"شيء" في هذه الآية تعمّ كل الموجودات، وذلك يدل على أن كل ما يدخل تحت عموم "شيء" فقد خُلق زوجين.

وقال تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (سورة يس: 36/36)، ففصَّل في هذه الآية ما أجمله في الآيات الأخرى؛ حيث ذَكر أولًا أن كل شيء خُلق زوجين ثم أكد أن ما تُنبته الأرضُ من أمثال العشب والزهور والأشجار هي أيضًا داخلةٌ في هذا القانون العام.

﴿**وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾ أي ما في أنفسكم هو أيضًا أزواج، فكما أنكم خُلقتم أزواجًا، ذكرًا وأنثى، فأجسامكم هي أيضًا ليست خارجة عن هذا القانون، فهناك مقادير موجبة وسالبة.

وأظن أن قوله تعالى: ﴿**وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ**﴾ يذكّر المخاطبين بما يلي:

كما أن الإنسان والحيوان والنباتات خلقوا أزواجًا لا يمكن تكاثرهم إلا بالتلقيح، فكذلك هناك أزواج كثيرة لا تعلمونها وسترونها في المستقبل، وقد لا تكفي آفاقكم العلمية وإمكاناتكم البحثية الحالية لذلك، ولكن ستنكشف العلوم والفنون في المستقبل وسترون حينها أن هناك عددًا كبيرًا من الموجودات قد خُلقت أزواجًا، فقد خلقنا كل شيء سواء ما في العوالم العُلوية الكبيرة من الأنظمة السماوية والمجرات حتى ما بين النجوم والشمس من القوة الجاذبة والدافعة، أو ما في

العوالم الصغرى من الإنسان والحيوان والنبات والبذور والذرات وما فيها من العناصر الأساسية، كل ذلك خلقناه زوجين.

ولقد أسس "موريس ديراك (*Maurice Dirac*)" لقانون الزوجية في الأشياء بعدما تم اكتشاف البوزيترون، فالإلكترون هو من العناصر الأساسية المكوِّنة للذرة، وهو محمَّل بأصغرِ شُحنة كهربائية سالبة، وأما البوزيترون فمع أنه ذو كتلة يوازي كتلة الإلكترون،

إلا أنه بعكس الإلكترون جُسَيم محمَّل بشحنة موجبة.

وحسب هذا القانون الفيزيائي الأساسي القائل بخلق كل شيء زوجين، فإنه حينما يُخلَق جُزَيْءٌ في أي نقطة من الكون فإن توأمه المعاكس له في الشحنة الكهربائية يُخلق معه، ويمكن سرد أشهرها كما يلي:

1- البوزيترون التوأم المعاكس للإلكترون

2- مضاد البروتون التوأم المعاكس للبروتون

3- مضاد النيوترون التوأم المعاكس للنيوترون

4- مضاد النيوترينو التوأم المعاكس للنيوترينو

فإذا تعمّقنا في المادة أكثر فأكثر فسنلتقي هناك أيضًا بالأزواج، ومن المعروف أن كل مادّة تنشأ من الذرّات، والذراتُ تتشكل من البروتونات والنيوتروناتِ والإلكتروناتِ، والبروتوناتُ والنيوتروناتُ تتشكل من جُزيئات تسمى: "الكواركات".. وكل هذه عبارة عن الأزواج.

وهناك ستّ كواركات (ثلاثة أزواج) هي:

فوق (*Up*) / تحت (*Down*)

جذاب (*Charm*) / غريب (*Strange*)

عُلوي (*Top*)/ سفلي (*Bottom*)

وكان الكوارك العلوي يعرف له وجود على المستوى النظري فقط، وعلى حسب النموذج القياسي كان لا بد أن تكون الجُزيئات على هيئة أزواج، فكان لا بد من كوارك حتى يصل عدد الكواركات الخمس إلى ست، فأجرى أربعمائة وأربعون من الباحثين بحثًا حثيثًا دام سبعة عشر عامًا إلى أن عثروا عام (1995م) على الكوارك العلوي، مما كان تطوُّرًا مهمًّا في حقل الكشف عن أسرار المادة.

والشحنة الموجبة للذرة هي في نواتها، وأما الشحنة السالبة فهي في الأجزاء الأخرى منها، وهذا يدفعنا إلى التساؤل: ما المانع من أن يكون هناك ذرات نواتها محملة بالشحنة السالبة وإلكتروناتها محملة بالشحنة الموجبة، بمعنى أن يكون للذرة توأم معاكس؟! إن المتخصّصين في هذا المجال يعترفون بوجود المادة المضادة في مجرّتنا المتشكلة من النجوم والشمسِ والغازاتِ والغبارِ، ومن المحتمل أن بعض ما رآه بعض الفلكيين بالتلسكوبات من أنظمة النجوم هي من المادة المضادة تمامًا.

ولأول مرة في عام (1733م) تمّ اكتشاف جنسين (موجب-سالب) من الكهرباء التي لها دور أساسي في خلق الكون وفعاليته، فأنواع الكهرباء ذات القطب الواحد من الشحنة الكهربائية تتدافع، في حين أن ذوات الشحنة المتضادة تتجاذب.

كما أنه من المعلوم أن المغناطيس له طرفا النقيضِ كالشمال والجنوب، بحيث إنك مهما قسَّمت المغناطيس إلى أجزاء فستكون له أجزاءٌ ذاتُ قطبين متعاكسين، بمعنى أنه لا يمكن إيجاد مغناطيس ذي قطب واحد، وإن الوضع هنا كالوضع في الكهرباء؛ تتدافع الأقطاب المتوافقة، بينما تتجاذب الأقطاب المتضادة، وكرتنا الأرضية هي أيضًا تعتبر بمثابة مغناطيس عملاق، لها قطبان متضادان: الشمال والجنوب.

وقد رأينا أعلاه كيف أن القرآن تَحدَّث عن هذا كله قبل قرون، وليس ما يقوله العلم شيئًا مختلفًا عنه، وعلى الرغم من مرّ العصور وانكشافِ العلوم بشكل مذهل لم يحصل هناك شيء مختلف عما قاله القرآن؛ فكما أن ما قاله القرآن كان متوافقًا مع الحقائق العلمية في عصرِ نزوله، فكذلك

الحال بالنسبة للعقلية العلمية اليوم، وكلُّ ذلك يدل بجلاء على أن القرآن هو الكلام المعجز لله الذي هو سلطان الأزل والأبد.

6- منشأ الإنسان في القرآن الكريم

ما زال أولئك الذين لا يؤمنون بالله والقرآن والرسولﷺ ينتقدون البيانات القرآنية المتعلقة بالحقائق العلمية، كما كانوا يطعنون في جوانبه الاجتماعية والتربوية، فلو أن هؤلاء تأملوا في آيات القرآن بدقّة ودرسوها بعنايةٍ لَتبيَّن لهم أن ما ينتقدونه لا يتناقض بتاتًا مع العلم، بل لانبهروا أمام ما ينجلي لهم فيه من الدلالات والإشارات الإجمالية إلى الحقائق العلمية.

ولزيادة الأمر وضوحا فلْنربط الموضوع بقضيةِ خلق الإنسان؛ فالله تعالى يجلب الأنظار في آية كريمة إلى خلق الإنسان، وينبِّه إلى أن منشأه ماء يخرج من بين الصلب وعظام الصدر:

﴿**فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ** [أي عظامه] **وَالتَّرَائِبِ**﴾ (سورة الطَّارِق: 86/5-7).

ومن المثير للانتباه أن هذه الآية من الآيات التي تعرضت لانتقادات بعض التعساء الذين تصدّوا لطعن القرآن الكريم.

أجل، إن القرآن الكريم يقول: إن هذا الماء ﴿**يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ**﴾ أي يخرج من بين عظام الظهر وعظام الصدر، وهم يقولون بـ"أن الحيوان المنوي الذي يدخل رحم المرأة إنما يخرج من خصيتي الرجل، فهناك تناقض بين الحقائق العلمية وبين بيان القرآن الكريم، وهذا من أخطاء القرآن الكريم، فلو كان الخالق موجودًا -سبحانه- وكان القرآن كلامَه لما كان هناك تناقض بين هذا البيان وبين ما كشفه العلم".

فهذا النقد منهم يدلّ بوضوح على عدم فهمهم للتعبيرات القرآنية فهمًا صحيحًا، وأنهم لم يَدرسوه دراسة جيدة؛ لأن كلمة "الصلب" اسم للعظام الخلفية التي تبدأ من العنق إلى العَجُزِ.

بالإضافة إلى أن هناك من القواميس الحديثة من يفسره بـ"الكربون"، "الكربوهيدرات" و"المغنسيوم"، وعلى هذا فاختيار كلمة "الصلب" في الآية التي تتحدث عن منشإ الإنسان له مغزى

كبير، حيث إن المخلوقات الصغيرة التي نسميها: الحيوان المنوي، والبويضةَ هي من الخلايا المحتوية على هذه المواد.

وأيضًا يمكن أن يُفهم من الناحية التشريحية من تعبير "الصلب" منطقةُ الحوض التي تتلاحم فيها عظام العمود الفقري بشكل قوي، ويفهمَ من كلمة "الترائب" الفقرات الصدرية.

وقوله تعالى: ﴿**يَخْرُجُ** [أي الماء الدافق] **مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ**﴾ لافتٌ للنظرِ جدًّا؛ حيث يشير إلى أن هذا الأمر ينشأ عن تنبيهات تبدأ من المركز الذي يحتوي على أعصابٍ تخرج من بين الفقرات القَطَنِيَّة التي تقع بين العجز والفقرات الصدرية؛ حيث إن النتائج التشريحية الحديثة تدل على أن الأعصاب المتعلقة بمركز تدفق المني تقع في منطقة النخاع الشوكي (*T10-L2*) التي هي بين فقرة الظهر العاشرة وبين الفقرة القطنية الثانية.

ومع أن الخصيتين والغدد التي تُنتج المني هي في الأسفل ولكن المركز العصبي اللازم لإثارة المني وقذفِه هو -كما تشير إليه الآية بهذه العبارات الوجيزة- بين الصلب والترائب.

وهناك مَن فَهِم من الآية بناءً على المعطيات العلمية القديمة أن المني ينشأ من الدم الذي ينتجه ما في داخل الفقرات من المخ، ولكن هناك حقيقة وهي أن إنتاج الدم لا ينحصر في العمود الفقري فقط، بل إنه يَنتُج من غيرها من العظام، كما أن الدم لا تقتصر مهمته على إنتاج الحيوانات المنوية، بل يتعدى ذلك إلى تأمين الغذاء لسائر خلايا الجسم أيضًا، ولذلك فإن تفسيرَ ما يخرج من بين الصلب والترائب بالأعصاب المخصَّصة لهذه المهمة قد يكون أليق بالوجه الإعجازي للقرآن الكريم من تفسيره بالدم.

وعند تحقيق القضية بهذا الشكل، يظهر جليًّا مدى استعجال الذين يحاولون مناقشة الآيات القرآنية على نحو سلبي، كما ينجلي مدى انحيازهم لأفكار مغلوطة مسبقة.

7- تشكُّل الجنين في الرحم

لقد فطر الله وحدة بين الخلايا، كما فطرها بين الجُزيئات التي تحتوي عليها الخلايات مثل الحمض النووي (*DNA*) والحمض النووي (*RNA*)، وإذا اختلَّت الوحدة في الخلية بين هذه الأنظمة

اختلّ التناغم بين الخلايا وفي داخل الخلايا، وتدمرت الأنسجة والأعضاء، وبالإضافة إلى الأحماض النووية هناك في الخلية سلاسل من الأحماض الأمينية لم تتوفر إلى الآن معلومات كافية حول معظمها، وغاية ما نعلمه حول هذه المواد أنها تعمل فيما بينها في وئام تام، وكأنها جهاز حكومي منظَّم.

أجل، إن كل الخلايا قد اجتمعت فيما بينها لِتُشكِّل جسم الإنسان، فالإنسان في حد ذاته يُعتبر وكأنه خلية واحدة تَشكَّلت من بلايين الخلايا، فإن بين الخلايا التي تُشكِّله ارتباطًا وانسجامًا بحيث لا يشعر الإنسانُ ولو مرة واحدة بأنه متشكِّلٌ من كائناتٍ منقطعة العلاقة فيما بينها، صحيح أن ثمة انقطاعًا بين الخلايا، ولكن ما بينها من الوحدة يَجعل الإنسانَ يستطيع أن يرى كائنًا ما في الوقت الذي يستطيع أن يَسمع صوتَ ذلك الكائن أو غيرِه من الأشياء، ويشمَّ غيرها، وفي الوقت نفسه يستطيع أن يمشي ويتكلم، والحال أن الخلايا التي تتحكم في كل هذه الأنشطة هي خلايا مستقلة ومختلفة، ولكن هذا لا يؤدي إلى التشتت بل إنها تعمل بروح الأُسرة الواحدة التي يتعاون أفرادها في وحدة ومحبة قوية.

إن كل أعضاء جسم الإنسان تعمل في وحدة وارتباط وتَضامُن، ومن هذه الأعضاء ما نسميه: "الرحم" الذي يشير إليه ويعدد خصائصَه قولُه تعالى: ﴿**أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۞ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۞ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ۞ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ**﴾ (سورة الْمُرْسَلَاتِ: 20/77-23).

إن رحم الأم يستعدُّ بشكل جاد لاستقبال الحيوان المنوي الذي سيَنزل به ضيفًا لمدة تسعة أشهر بعد لقاحه بالبويضة والذي سيكون وسيلة لتكوُّن كائن حيّ، فقبْل أن يَنزل المنيُّ فيه تَحصُل في الرحم تحولاتٌ كيميائية فتتحول خلايا بطانةِ الرحم إلى طبقة من الخلايا السميكة لاحتضان الجنين وتكوينِ المَشِيمة ثم تُواصل بطانة الرحم سماكتها، ويعلوها الدم، وتتجهز بالفيتامينات، وتأخذ الخلايا بازديادٍ مطرد ومضاعف، وتتجهز فجوات الخلايا بالمواد الغذائية اللازمة للطفل الذي سينزل بهذا المكان، فهذه العملية تتكرر في الرحم كل شهر، ويفرز الرحم سائلًا لزجًا في الطريق الذي سيمر به الحيوان المنوي باتجاه داخل الرحم حتى يسهُل مرورُه وينزلقَ، ولكن إذا لم

يتحقق لقاحٌ رغمَ كل هذه الاستعدادات؛ فإن كل هذه المواد الزائدة المجلوبة إلى الرحم ستُطرح خارجه بعملية "الحيض"، فهي إذا بقيت في الرحم فستؤدي إلى حدوثِ أمراضٍ فيه.

وأما إذا حصل اللقاح ولم تطرح هذه المواد، فإن البويضة الملقحة (الزيجوت) التي دخلت الرحم وتلقحت بالحيوان المنوي ستتعلق بجدار الرحم وتنغرس فيه، وتبدأ بالتغذي مِن هناك، ثم إن هذه الخلية الواحدة تبدأ بالتكاثر السريع في وقت قصير فتتحول في غضون أسبوع تقريبًا إلى آلاف من الخلايا المنقسمة.

فهذه الآلية في رحم الأم تعمل بشكل رائع جدًّا بحيث إنها توظِّف الخلايا التي تتكاثر كل يوم في مهامَّ خاصة، فتجتمع فيما بينها وتأخذ مواقعَها في الأنسجة التي ستشكِّلُ أعضاءَ الجنين.

وهذه الأنسجة تُشكِّل طبقات، وتَكُون في الطبقة العُلوية منها نتوءات مثل أصابع القفاز، ويكون ما يقابلها من جدار الرحم كذلك ذا نتوءات متناسبة مع هذه النتوءات بحيث تنطبق على بعضها البعض وتتغلغل الأوعية الدموية للجنين مع الأوعية الدموية للأم، ولكن لا يختلط دمهما بل يكون بينهما تبادلٌ للغذاء والفضلات، وهذا ما يسمى: "المشيمة".

وفي الفترة التي يُواصل فيها الجنينُ نموَّه لمدة تسعة أشهر دون توقف، يكون أداءُ مهمة الكبد والرئة والكلى والجهاز الهضمي موكولةً إلى المشيمة، فأحد أطراف الحبل السُرِّيّ مربوط بالجنين بينما الطرف الآخر مربوط بالمشيمة التي نراها تَنزل من الرحم مع كل مولود من بني الإنسان وسائرِ الثدييات؛ حيث لا يبقى لها دور في الرحم، وليس لها شكل سوى أنها تُشْبِه الكيس، والحبل السُّرّيّ له تركيبة تشبه اللولب، وهو مرن لا ينكسر مهما تثنّى، وهو يحتوى على شريانين ووريد واحد، فالشريانان يُوصِلان مخلفاتِ الأَيْض من الجنين إلى المشيمة، ويقوم الوريد بجلب المواد المفيدة مثل البروتينات والفيتامينات من جسم الأم إلى الرحم لتغذية الجنين.. فالله الذي يحقق بأشياءَ صغيرةٍ أعمالًا كبيرة يحقق بهذا الحبل البسيط وظائف تذهل العقول.

وقد هُيِّئَ رحمُ الأمّ بشكل آمن ومريح بحيث يلبي كل ما يحتاجه الجنين، وبعد أن يتغذى الجنين هناك لمدة تسعة أشهر يُخرجه الرحم إلى الخارج، وهكذا يولَد الطفلُ، ومن بعد ذلك ينظِّف

الرحمُ نفسَه مرة أخرى فيَطرح ما تَراكم فيه خلال تسعة أشهر من بقايا الأنسجة، ويستمر هذا الوضع قرابة أربعين يومًا، وهذا ما نسميه: حالة "النفاس".

وليس من الممكن إحالة كل هذه الأحداث المذهلة إلى المصادفة أو الأسباب، لأنها إن لم تُسنَد إلى الله بل إلى المصادفة أو الأسباب فستختلط الأمور وتشتبك.. والحال أن هناك وحدةً وانسجامًا في كل هذه الأحداث المختلفة، وذلك يدل بكل وضوح على أن هذه الأمور تُدَبَّر من قِبل الله الواحد الذي ليس له شريك أو نظير.

ولنحاولْ أن نقدم من القرآن الكريم ما يشير إلى الموضوع بشكل ملخص وقابلٍ للتفسير يتوافق مع ما سردناه من تفاصيل الموضوع:

فقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ** [بويضة ملقَّحة] **ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا**﴾ (سورة الحَجِّ: 5/22)، يبين المراحل الجنينية التي يمرّ بها الطفل، وفي آية أخرى يذكر الموضوع بشكل أكثر وضوحًا قائلًا: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ** [الرحم] **۞ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا** [الهيكل العظمي] **فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ (سورة الْمُؤْمِنُونَ: 12/23-14).

﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ**﴾ وكلمة "سلالة" مأخوذة من "السَّلّ": وهو انتزاع الشيء وإخراجُه في رفق، وسُلالةُ الشيء: ما اسْتُلَّ منه من خلاصته، وهذا يعني أن الإنسان قد خلق من سلالة خاصة مستلة من طين كهذا، وهذا يشير إلى المرحلة الأولى التي خُلق فيها الإنسان الأول سيدنا آدم، وهي المرحلة التي خلق فيها جسم النوع الإنساني وأعضاؤه.

﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ**﴾ أي جعلنا هذه السلالة (الخلاصة) نطفة في الرحم الذي هو مَقَرٌّ مكين؛ حيث إن الرحم مكان دافئٌ وأمينٌ يتوفر فيه كل ما يحتاجه الجنين من الغذاء والطمأنينة والراحة.

﴿**ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً**﴾ وهذه الآية تفيد أن النطفة التي كانت خلية واحدة تتحول بعد مدة إلى مجموعة من الخلايا تحاكي في صورتها الدم المُتَجَلِّط، وأنها تتعلق بجدار الرحم فتتغذى منه، فلفظ "العلقة" يشير إلى هذه الأمور.

﴿**فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً**﴾ وبعد مدة قصيرة تتحول هذه العلقة التي هي في صورة دم متجلط، إلى شكل قطعة لحم ممضوغ.

أجل، إنك إذا نظرت إلى المضغة بالعين المجردة من دون استخدام المجهر فستبدو لك كأنها قطعة لحم ممضوغ لا شكل له.

﴿**فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا**﴾ فالخلايا الأولى لهذا المخلوق الحي الصغير الذي هو المضغة، تتحول، بعد مدة، إلى عظام وغضاريف.

والحقيقة أن كل هذه الأمور لا يمكن رؤيتها إلا من خلال وسائل التصوير الحديثة، ومن غير الممكن للعين المجردة أن تُميِّز في هذه المرحلة بين خلايا العظام وخلايا العضلات، فأوَّلًا تُخلق العظام على هيئة غَضاريف شفافة، ثم تُخلق بعدها خلايا العضلات.

فقوله تعالى: ﴿**فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا**﴾ يشير بتعبيره المعجز الوجيز إلى أمور في غاية الأهمية؛ حيث يفيد أن العظام تُخلق أولًا ثم تُكسى بالخلايا العضلية وكأنها لباس، وهذا من الأمور التي ينبغي التوقف عندها.

فهذه الحقيقة إنما هي من الأمور التي لا يمكن الاطلاع عليها إلا في هذا العصر الذي تَطوَّرت فيه العلوم والتكنولوجيا فأتيح مراقبة المراحل التي يمر بها الجنين من حالة البويضة الملقحة إلى مرحلة الولادة، وتفيد المعطيات الطبيّة لعِلم الأجنة أنه ليس هناك فرق إلى الأسبوع السابع بين الجنين البشري وجنينِ أيِّ مخلوق آخر من ناحية النموّ.. ولعل هذا التشابه هو الذي خدع داروين والداروينيين الجدد فأداهم إلى القول بما يلي:

"إن الإنسان في المراحل التي يمر بها في الرحم يشبه أسلافه الأقدمين؛ لأن جنينه ينمو في الرحم إلى مرحلة معينة متطابقًا تمامًا مع سائر الحيوانات، وهذا يدل على أن منشأ الإنسان وأصله

مرتبط بسائر الحيوانات؛ حيث إن الوحدة في المنشإ مُلاحَظة في بداية النمو في المرحلة الجنينية، ويُستنتج من هذا أن منشأ الإنسان ليس بشريًّا بل حيوانيًّا".

وهذا الاستنتاج منهم الذي وصلوا إليه انطلاقًا من أوجه التشابه بين الجنين البشري وبين سائر الأجنة، لهو خطأ فيه نوع من الابتلاء الإلهي؛ فإن هذا التشابه بين الأجنة لا يستمر إلا إلى نقطة معينة، وأما بعد هذه النقطة فإن الأجنة البشرية سرعان ما تفترق عن تلك الأجنة التي ليس لها استعداد لأن تصبح بشرًا، وذلك على حسب ما في برامج جِينُومِها من الفروق.

أجل، إن الإنسان ينمو ويتطور على حسب ما أُودع فيه من الكفاءات والاستعدادات، بينما تَبقى الأجنة الأخرى محصورة في حدود فطرتها الضيقة، ولعل هذا ما تشير إليه الآية بقولها: ﴿**ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾، فتعبير "الخلق الآخَر" تدل على أن الجنين البشري على خلاف الأجنة الأخرى يُواصل طريقه بعد هذه النقطة

في مسار مختلف.

﴿**فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ إن هذه الآيات بما في تعبيراتها من الموسيقى والانسجام واللهجة تجعل الإنسان يقول: "ما أحسن هذا الخالق العظيم الذي خَلَق الإنسان من ماء مستهان ومستحقَر فسَوَّاه على أكمل وجه ثم بيَّن لنا قصة خلقه!!".

أجل، إنه يَخلق وينشئ مِن أصغر شيء أكملَ الأشياء، ويُحسِن كل شيء خَلَقه، ويَعرِض لنظر الإنسان القضايا المتعلقةَ بعالَم الخلق حتى يرشدهم، وإذ يذكر هذه الأمور يفتح النوافذ على حقائقَ لم تَخطر على بال الإنسان.

لقد طُرح العديدُ من الأفكار في القرن العشرين حول إعجاز القرآن الكريم، ولا يزال هذا الأمر مستمرًّا، ومن المحتمل أن يكشف لنا المستقبلُ أسرارًا عديدة لم يَصل إليها إنسانُ هذا العصر مما نستطيع أن نسميها: "الحقائق المتعلقة بالآفاق القرآنية"، وحينذاك سيتم تقويم البحوث العلمية بالآيات القرآنية، فتَنتبهُ ضمائرُنا ووجداننا لـ"عصر قرآني جديد".. إن الآيات القرآنية بمثابة إحدى العينين، والآيات التكوينية في الكون هي بمثابة العين الأخرى.

فإذا نظر الإنسان بهاتين العينين إلى الأشياء والأحداث فسيَرى كلَّ شيء -بما فيها نفسه- على وجه كامل، وسيَعرف نفسه، وفي ضوء ذلك سيصل إلى المعرفة الإلهية، ومن أفضل ما يعبِّر عن هذه الحقيقة ما قاله أحد الأولياء -ويُروى أن سقراط كتبه على باب مدرسته-: "من عرف نفسه فقد عرف ربه".

8- خلقُ الإنسان

﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ**﴾ (سورة الْحِجْرِ: 26/15)، هذا الكائن الذي تَعرَّض لتحوّلات وتغيرات إلى أن تَشكَّل في صورة إنسان، وتَوازَن بالعناصر الداخلية والخارجية، وأخيرًا تَشرَّف بالنفخة الإلهية، لهو كائن متموقع في نقطةٍ تتلاقى فيها المادة والمعنى، فالله تعالى يبين كيف فَطره، وأوجد ما بداخله من الانسجام العمومي، ووَضَعَ التوازن بينه وبين محيطه، والعلاقةَ بينه وبين سائر الكائنات، قائلًا: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا** [أيها المخاطبون بهذا الخطاب في عالم الملكوت] **لَهُ سَاجِدِينَ** [سجدةَ امتحانٍ وانقياد]﴾ (سورة ص: 72/38).

فإلى ذلك الحين لم يكن معروفًا باسمه وميزاته، بل كان في عالم الملكوت مغمورًا، وفي عالم الملك لم يكن مذكورًا كما يقول تعالى: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا**﴾ (سورة الإِنْسَانِ: 1/76)، فلم يكن لأسلاف هذا الكائن الجديد في عالم الملكوت أن يدركوا كنهه ولا أن يستمرئوا تفوُّقه عليهم إلا أن يأخذوا بعين الاعتبار أن الله فيه حكمة تَدِقُّ عن مَداركهم، فيطيعوه؛ فمنهم من أطاع ففاز، وهناك من عصى فخاب وخسر.

ويتحدث القرآن الكريم في آيات أخرى عن الإنسان بكل مراحله؛ بدءًا من مرحلة التخطيط القدري وانتهاءً بشتى مراحلِ خلقه، بأسلوب يكاد الناظر إليه ببصيرة يشاهد مراحله الجنينية التي قضاها في بطن أمه. أجل، إن القرآن يركِّز بحساسية بالغة على كل هذه المراحل التي مرّ بها الإنسان.

ففي هذه الوتيرة التي مر بها الإنسان هناك مراحل معينة ومختلفة عن سابقتها؛ فالمرحلة الأولى هي "التراب"، والثانية هي كونه من "طين"، إشارة إلى طين مخصوص، والثالثة هي مرحلة "الحمأ"

وهو الوحل الأسود على شكل هيكل بشري، والرابعة هي مرحلة "الصلصال" وهو الطين المجفف المشويُّ مثل الخزف؛ فقد تكون كل من هذه التعبيرات إشارة إلى وتيرة معينة، كما يمكن أن تكون إشاراتٍ إلى مراحل النشأة، كما نرى أمثال هذه المراحل بالنسبة للجنين في الرحم، ولا يختلف الأمر من كون هذه المراحل أربعة أو ستة، فقد يمكن إلحاق بعضها بالبعض الآخر، وإنما المهم هنا بيان أن أساس نشأة الإنسان هو هذه العجينة الترابية المحتوية على شتى المعادن المتحولة في شتى مراحلها إلى إنسان.

ولا شك في أن الماء عنصر مهم في تهيئةِ حساء من المعادن أو البروتينات، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ** [أي وحل، أو خلاصة] **مِنْ طِينٍ**﴾ (سورة الْمُؤْمِنُونَ: 12/23)؛ حيث يؤكد أن أصل الإنسان هو الوحل، كما يشير إلى أهمية الماء في الخلق بقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: 30/21)، ويبدو أن تَزاوُج كلٍّ من الماء والتراب بما تحتويان عليه من العناصر هو مرحلة مستقلّة، وبعد هذه المرحلة تأتي مرحلة التشكُّل بصورة معينة، يشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ**﴾ (سورة الْحِجْرِ: 26/15) [والمَسْنون المُصَوَّرُ، والمَصْبوب على صورةٍ[88]]، وتأتي بعد هذه المرحلة مرحلةُ التسوية ووضْعِ التوازن بين الداخل والخارج، يشير إليها القرآن الكريم بقوله: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾ (سورة الْحِجْرِ: 29/15)، فيذكِّر بأن الإنسان بَوْصَلَة أو محراب للقبلة

فبهذه المرحلة الأخيرة يكُون الأمر قد وصل إلى أن في الكون مخلوقًا يتمتع بالجانب المادّي بالإضافة إلى جانبه المعنوي، وله روحٌ امتزجت ببدنه، وله أعماق ماورائية تُوازي كمالَه المادي، فهذه هي المراحل التي أشارت إليها الآيات القرآنية بالتفصيل، وإن كنا لا ندرك ماهيتها الحقيقية، وقد مر بها الإنسان إلى أن وصل إلى وضعه الحالي؛ كان ترابًا فطينًا فمعادنَ مسلولة، فطينًا لازبًا

---

[88] ابن منظور: **لسان العرب**، مادة سنن.

فحماً مسنونًا، وكان خليطًا مركّبًا من شتى المعادن أو البروتينات إلى أن حباه الله بالروح الإلهي، وجعله خليفة في الأرض، وأشرفَ المخلوقات.

إن قضية حياة الإنسان التي بدأت بآدم وحواء وخلقِهما بشكل معجز ستستمرّ تحت ستار الأسباب وكأنها من الأمور العادية، وستستمر وتتمادى هذه الحياة الإنسانية بطلب وإرادة من الإنسان وخلقٍ من الله تعالى، والغايةُ المتوخاة والهدفُ الأصلي هو أن يَعرف اللهَ ويعبده.. وعلى الإنسان أن يَعرف أن الله تعالى إنما منحه الإرادة والشعور والحسّ والفؤاد وقدَّمه على سائر الموجودات، وجعَلَه –بإراته ومشيئته– في شخص آدم محرابًا، ليعلمَ أنه موظف بمهمةِ معرفته تعالى وتعريفِ الناس به، ومحبتِه وتحبيبِ الناس إليه، ويؤدي حقّ الحصول على نعمةِ "أحسن تقويم".

9- تشكُّل الحليب في الكائنات الحية (الثدييات)

إن من يَدرس القرآن الكريم ويتأمل فيه بدقة سيلاحظ أنه ليس فيه سورة أو آية تُناقِض الحقائقَ العلمية، بل سيرى أنه قد أَخبَر قبل عصور –ولو بشكل مجمل– عن الحقائق التي اكتشفها الإنسان بعد ذلك بزمن بعيد، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ**﴾ (سورة النَّحْلِ: 66/16).

فالآية تبدأ بقوله: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً**﴾ فتُنبّهُنا إلى أن لنا في عالم الحيونات إشاراتٍ ودلائل على وجود الله ووحدانيته، وهذه الأدلة من الوضوح والبداهة بحيث يمكن للجميع إدراكُها واستيعابها، فتَذكُر الأدلةَ بأسلوبٍ يفهمه العوام وأهل الاختصاص.

أجل، هناك العديد من أنواع الحيوانات التي تتغذى على الأعشاب والأعلاف والتبن والماء وغيرها، فتُقدم للبشر نعمة اللحم واللبن والبيض وما شابهها من مصادر البروتين.

ثم أَردفت الآيةُ قائلةً: ﴿**نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ**﴾ مذكِّرةً بأن اللبن يَخرج في المرحلة الأولى من الفرث، ثم في المرحلة الثانية ينفصل من الدم إلى أن يصبح خالصًا نقيًّا لا يؤذي الحلق بل يكون له مصدرًا مهمًّا للغذاء.

ولا بد هنا من التذكير بنقطة استطرادية وهي: من أجل أن يكون الحليب غذاءً فطريًّا مناسبًا للأطفال فلا بد أن يُرضعوا من الثدي مباشرة، وإلا فلو حُلب هذا اللبن إلى مكان آخر، ثم سُقي الطفل بعد تسخينه مثلًا فإن هذا يكون تدخّلًا في حالته الفطرية؛ فكون اللبن خالصًا هو أن يكون غير فاسد ولا متعرّض للميكروبات، فالآية الكريمة تُنيط كون اللبن "خالصًا" و"سائغًا" أي كونه سليمًا من مخاوف المرض وسهلَ المرور في الحلق بالحالة التي ينزل فيها اللبن من الضرع، فإن اللبن ذو تركيبة مناسبة لتكاثر الجراثيم بسرعة.

وأودّ هنا أن أنقل ما سمعتُه من خبير زراعي بالقدر الذي استوعبته؛ حيث يقول: كنا نحلب الحليب من الحيوانات فنحتفظ به ثم نسقيه العُجولَ عند الحاجة، ثم لاحظنا أن هناك فرقًا ملحوظًا بين العجول التي كانت تَرضع من الأثداء النظيفة مباشرة، وبين التي كنا نسقيها الحليب بعد حلبه في مكان آخر؛ حيث كانت الأولى أسرع نموًّا من هذه، ولدى البحثِ عن السبب من وراء ذلك تَوَصَّلْنا إلى الآتي:

لعل العُجول التي ترضع مباشرة كانت تستقبلُ الأمر بفطرية فتستسيغ الحليب فتتشوّق إلى الرضاع وتتحمّس له أكثر من التي تشربه من دون رضاع من الثدي مباشرة، وبالتالي فكانت الرضاعةُ مناسبةً لطبيعتها في التغذي، بينما في الجانب الآخر لا يمكن إعطاء الحليب درجة الحرارة الطبيعية كالذي في الأثداء، بالإضافة إلى أن الحليب

في خارج الثدي قد يتعرّض -ولو قليلًا- للجراثيم، وهذا يؤثر سلبًا من شتى النواحي على أوصافه وقيمته الغذائية.

فقوله: ﴿**لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ**﴾ يُذكِّر بأن هذا اللبن رغم خروجه من بين الفرث والدم إنما هو نعمةٌ إلهية صافية نقية يستسيغه شاربه من دون الإحساس بأي انزعاج.

من المعلوم أن الكائنات الحية يتناولون الغذاء فيبتلعونه، وهذه الأغذية تنتقل إلى المعدة لتمرّ بعمليات مختلفة، ثم تنتقلُ من المعدة إلى الأمعاء، فهناك تقوم الزغابة المعوية بامتصاص المواد المغذية وتصفيتِها من الزوائد عن طريق شُعيراتها الدموية فترسلها إلى الدم، فهذه هي المرحلة

الأولى التي ينفصل فيها اللبن -ذلك الشراب الطيب- عن الفرث، وفي المرحلة الثانية تدور هذه المواد داخلَ الدم بدورانه، إلى أن تأتي إلى الغدد الحليبية، فيتحول هذا الحساء المكون من البروتينات والكربوهيدرات والدهونِ إلى الحليب، ثم تنتقل إلى قنواتِ الحليب.

فالتعبير عن موضوع كهذا في وضوح وجلاء ومن دون أي لبس أو تشويش لهو خاصية من خاصيات القرآن ومعجزاته، فقد أخبر القرآن عن هذه الأمور في هذه وغيرها من الآيات قبل قرون وفي عصر لم يكن أحد من الناس يعلم ماذا يجري داخل الحيوان من هذه الأمور العجيبة، وكأنه يقول:

"إنني لن أكون كلام بشر على وجه الأرض بمن فيهم محمد ﷺ، وإنما أنا كلامُ من يربط كل الكون والمكان ببعضه البعض، ويحيط بعلمه كل شيء من الأزل إلى الأبد، فهناك أمور لا تدركها عقولكم ولا تصل إليها مَداركم وقد كانت رايتي منصوبة عليها ومرفرفة فوقها منذ قرون، وستكتشفون في المستقبل بواسطة مناهجكم وإمكاناتكم التكنولوجية أمورًا بديعة للغاية، وستلتقط تلسكوباتُكم صورًا من السُّدم البعيدة منكم على مسافة بلايين الكيلومترات، فتَعرضُها أمام أنظاركم، وحين تصِلون إليها سترون رايتي هناك أيضًا خفاقة مرفرفة".

أجل، إن هذه الآية القرآنية على غرار الآيات السابقة التي مرَّت بنا، تتصدى بلسان ما أخبر به القرآن من الحقائق العلمية، لكل ما أثاره الناقدون لبعض من بياناته، فتأخذ اعتراضاتهم وتضرب بها في وجوههم، وتُفحمهم اليوم كما أفحمتهم بالأمس.

ف. الآفاق التي أشار إليها القرآنُ الكريم من خلال المعجزات

1- العلاقة بين المعجزة والأسباب

إن الأنبياء كما أرشدوا المجتمعات إلى طرق الرقيّ المعنوي؛ وجَّهوهم كذلك إلى أسباب الترقي المادي أيضًا، فكلما سارت المجتمعات على الطرق التي أرشدوا إليها فسيكونون سالكين في الطرق المؤدية إلى السعادة الدنيوية والأخروية معًا إلى أن ينالوا الفوز الحقيقيّ.

فمعجزات الأنبياء تنطوي على رسائل مهمّة متعلّقة برقي المجتمعات وأمنهم وسعادتهم، كما أن هذه الرسائل التي قدّموها والمعجزاتِ التي جاؤوا بها ليست مقصورة على عصرهم فقط؛ فكل معجزة تدل على نبوّة ذلك النبي من جانب، وتشير من جانب آخر إلى حقيقة حياتية، وتفتح آفاقًا جديدة حول أمور ستظهر في المستقبل.

فمثلًا إن الريح في قوله تعالى: ﴿**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ**﴾ (سورة سَبَإٍ: 12/34) ليس من نوع الريح المعهودة لنا، بل هي ريح مخصوصة سُخرت لسليمان، فكان يقطع في الجو بهذه المعجزة التي أعطاه الله مسافةَ شهر من دون أي وسيلة أخرى، ويذهبُ بها حينما شاء.

فالعروج إلى السماوات والتجوالُ فيها هو آخر نقطة سيترقى إليها الإنسان، فقد تخطت البشرية إلى اليوم مسألة الاحتكاك، وحَلَّت مشكلةَ الجاذبية الأرضية فنجحت في باب التحليق في الهواء، فقد فهم إسماعيل الجوهري (ت: 1010م) من هذه الآية القرآنية إمكانيةَ تحليق الإنسان في الهواء، ورَبَط محاولاتِ "هَزَارْفَنْ أحمد شلبي" (1609-1640م)، و"لاغاري حَسن" -من أبناء القرن السابع عشر- وأضرابَهم وتجاربَهم في مجال الطيران بمدى ما تثيره هذه الآية في الأرواح المؤمنة من روح العزيمة والحماس.

فهؤلاء قد نجحوا في الطيران من برجِ "غَلَطَة" إلى ساحل "أُسْكُدَارْ" (من ساحل مضيق البوسفور إلى الجانب الآخر) في تلك الأيام التي لم توضع فيها فكرة الطيران موضع التنفيذ، كما أن مِن هؤلاء مَن جرَّب الطيران بإطلاقِ صواريخَ إلى الهواء، بل إن منهم من ضحَّى بروحه في سبيل ذلك فاستُشهد، ولكن الذين جاؤوا من بعدهم أعرضوا -للأسف- عن القرآن وعن القوانين التي وضعها الله في الكون، فلم يستطيعوا السير في الطريق التي شقّها أسلافهم، ولم يطوروا هذه الفكرة إلى الأمام، حتى إنهم نظروا إليها على أنها من باب العبث فانتقدوها.

وهذه الآية تَهمس في آذاننا برسائل مستقبلية؛ حيث تشير إلى أن المؤمنين إذا راعوا القوانين الجارية في الكون، إلى جانب مراعاة الآيات القرآنية، فلن تبقى هناك ذروة إلا وسيصلون إليها؛ حيث إن المعجزات تشير إلى هذه الأهداف والذرى.

فكل معجزة من معجزات الأنبياء، حتى لو لم تكن جارية في إطار تَناسُب العِلّيَّة (المناسبة بين السبب والنتيجة)، لكنها بُنيت على بعض الأسباب، فإذا نظرنا إلى تلك الأمور الخارقة الصادرة عن النبي ﷺ كقضية نبع الماء من بين أصابعه الشريفة، نلاحظ أنه قد وضع إصبعه ضمن الأسباب العادية، بمعنى أنه وضعها في مقدار من الماء أو صب عليها الماء، وفي حالة أخرى استخدم حفنة أو حفنتين من التمر لإشباع مجموعة متشكلة من ثلاثمائة صحابي من أصحابه ﷺ، فطرح البركة فيها بمشيئةِ الله وفضله.

أجل، إن الله تعالى لا يعطل الأسباب طالما كان الإنسان في دائرة الأسباب، حتى إنه في المعجزات الصادرة عن أنبيائه ينيطها بأسباب جزئية، وبذلك يشير إلى أهمية مراعاة الأسباب، ومما يؤيد هذه الحقيقة أيضًا أن انفجار العيون من الحَجر بضرب تلك العصا الخارقة لسيدنا موسى ﷺ كان يستند إلى رشفة قليلة من الماء في الحجر، كما أن العصا أيضًا استُعملت كوسيلة لذلك، وبما أن سيدنا موسى قد اتبع أحكام الكِتاب الذي أُوحي إليه واستَسلم لأمر ربه تمامًا كاستسلام الميت بين يدي المغسل، وتَرَكَ هوى نفسِه وغرائزَه وتغلب عليها، إذا به يَرى من حيث لا يحتسب أنه قد انفجرت اثنتا عشرة عينًا من خلال تماسّ عصا جامدة في يده بشيء جامد آخر وهو الحجر، وفي ذلك يقول الله ﷻ: ﴿**وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا**﴾ (سورة البَقَرَة: 60/2).

فهذه المعجزة هي النقطةُ النهائية التي توصَّلت إليها البشريةُ في مسألة استخراجها الماء والموادَّ الحيوية الأخرى من الأرض التي تحتضن في باطنها الصخورَ الصلدة، فلن تتخطّى البشرية هذه النقطة قطعًا ولن تستطيع أن تحقق أمرًا حقّقه سيدنا موسى بما في يده من العصا، إلا أن سيدنا موسى بهذه المعجزة يكون قد أشار إلى آخرِ الآفاق التي تستطيع البشرية الوصولَ إليها في مسألة استخراج الماء؛ بحيث إن البشرية إذا راعت السننَ التي وضعها الله فإنها -ولو لم تستطع أن تُخرج الماء بضربةِ عصًا- تستطيع بما تَمتلكه من أدوات الحفر والتنقيب أن تستخرج الماء من أقسى الطبقات الأرضية الصلبة.

2- معجزات سيدنا سليمان ﷺ

أ. استخدام الطيور

قال تعالى: ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ**﴾ (سورة النَّمْلِ: 16/27)، يتحدث الله تعالى عن المعجزة التي أعطاها لسيدنا سليمان، وبهذه المناسبة يدلّنا على الآفاق التي بها نستطيع أن نَخرج إليها من دائرة عالمنا الضيق.

فأوّل ما نتعلمه من هذه الآية الكريمة هو حقيقةُ تعليم سليمان لغةَ الطير بشكل معجز، وفي العصر الذي نزل فيه القرآن لم يكن معلومًا لدى الناس أن للطير لغة خاصة بها وطرائق تتفاهم من خلالها فيما بينها، بل كان من السائد لدى الناس أنه ليس في المخلوقات ناطق، مما أدى بعلماء المنطق أن يقولوا في تعريف الإنسان: إنه حيوان ناطق، فرأوا أن النطق من الخصائص الرئيسة المميزة للإنسان عن غيره.

ولكن فريد الدين العطار الذي أدرك هذا الموضوع وألَّف كتاب "منطق الطير" قد تنبَّه لهذا قبل "لافونتن" بعصور، فذكر حديثَ الطيور فيما بينها، وفَتَح لنا بذلك عديدًا من النوافد المطلّة على موضوع لغة الحيوانات.

صحيح أن تعبير "منطق الطير" في الآية الكريمة يدل على أن للطيور لغة تخصها، وأنها تتواصل فيما بينها بهذه اللغة، ولكن هناك أمر أبعد من ذلك وهو أن الآية تشير

إلى أنه يمكن للبشر أن يتعلموا لغة الطير وأنه بإمكانهم أن يطَّلعوا من خلال بعض الأدوات على طريقةِ حياتها، وأن يحققوا عن طريقها كثيرًا من الأمور.

ب. الاستفادة من الكائنات الغيبية

يقول القرآن في معرض حديثه عن هذا الموضوع: ﴿**وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: 82/21) مشيرًا إلى أنه كان بين الشياطين من يخدم سيدنا سليمان، ويُستنبَط من هذا أنه يمكن للبشر أن يتخابروا مع أمثال الجن والشياطين والروحانيين من الكائنات الغيبية، وأن يؤسّسوا معها علاقات ويتفاهموا معها، وهناك بحوث كثيرة تُجرى حول مدى إمكانية تأسيس روابط مع هذه الكائنات والاستفادةِ منها في شتى المجالات.

وأيضًا فالآية الكريمة تتحدث عن نبيّ آتاه الله النبوّة والمُلك معًا، فتُبين لنا وضْعَ مجتمع راق مكتمل في جوانبه المعنوية ومتفوّقٍ في الوقت نفسه على سائر المجتمعات المعاصرة له، فتَخُطُّ لنا الطرق المؤدية إلى مجتمع كهذا منبهةً إلى أن التقدّم في الوسائل التقنية وحدها لا يكفي -ولن يكفي- لتلبية حاجات الإنسان، وتذكِّرُ بأن هناك قضايا عديدة لا يمكن -ولن يمكن- حلُّها في الحدود المادية الضيقة، بل لا بد لحلها من الاستفادة من الكائنات غير المادية، ومن المحتمل أن يجري الحديث في المستقبل حول الاستفادة من الجن في الاتصالات الدولية، وقضيةُ استخدام سيدنا سليمان للجن في أمور عديدة من دون حاجة إلى بعض الآلات والأدوات تُمثل الحدَّ الأقصى الذي يستطيع البشرُ الوصولَ إليه.

ج. نقلُ الأشياء بنفسها أو بصورتِها

يقول الله تعالى في معرض الحديث عن نقل الأشياء: ﴿**قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ**﴾ (سورة النَّمْلِ: 40/27)، تتحدث هذه الآية الكريمة عن قصة نقل عرش بلقيس ملكةِ سبأ، بذاته أو بصورته عبر تلك المسافة الشاسعة على يد سليمان نفسه أو على يد الخضر أو على يد وزيره آصِف بن بَرْخِيا، فإنْ كان على يد سليمان نفسِه فهو معجزة له وإن كان على يد الخضر -كما روي عن ابن مسعود- أو آصف -كما روي عن ابن عباس- فهو كرامة لهما ومعجزة لسليمان .

فبالإضافة إلى هذه الحقيقة التي تَحدَّث عنها القرآن، هناك طرفُ خيطٍ يُدْليه القرآن لنا بأنه يمكن أن يكون في المستقبل نقلٌ للأشياء إما بذاتها أو صورتها، وبذلك يحفِّز

في الناس التفكيرَ والبحثَ في سبل تحقيق ذلك.

فإذا قارَنَّا تلك الحادثةَ بما يُحققه التلفزيون مِن نقل صور الأشياء ببُعدين فقط، يكون التلفزيون دون ذلك بكثير، ولعله ستُطوَّر في المستقبل آلاتٌ تَنْقُل الصور ثلاثية الأبعاد، بل يمكن أن يُستنبَط من الآية إجراءُ البحوث حول قضية النقل هذه من دون استخدام الأدوات التقنية والتكنولوجية، وإن كان هذا الأمر يُعدّ من شبه المستحيلات حسب المستوى العلمي في عصرنا.

3- معجزات السيد المسيح

يمكن القول بأنه يوجد علاقة قوية بين أمة سيدنا محمد ﷺ وبين أخلاق السيد المسيح عليه السلام.. كما أن هناك علاقة بين نبينا ﷺ وبين السيد المسيح وهي علاقة الخَلَف بالسلف، فالرسول ﷺ يقول في معرض الحديث عن هذه العلاقة القوية بينه وبين السيد المسيح: "**أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، الأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ، وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ**"[89]، وتَضِيقُ مَداركُنا عن إدراك حجم فوائد هذه العلاقة، وأيضًا فإن السيد المسيح عليه السلام قد طلب من الله أن يكون فردًا من أفراد أمة سيدنا محمد ﷺ، وهذا أيضًا من الأمور التي ينبغي الوقوف عندها.

وإن مسألة نزوله في آخر الزمان -ومن المحتمل أن هذا النزول سيكون بشخصيته المعنوية- كأنها إجابة لهذا الدعاء، وما نراه في زماننا في بعض أوساط النصارى الذين بدأت أفكارهم تتصفى من شوائبها وتُحاوِل الاقتراب من الهدي النبوي الصافي النقي، لهو من إشاراتِ انعكاس تلك العلاقة بين السيد المسيح والأمة المحمدية، ومن المحتمل بقوة أن الأمة المحمدية التي واصلت مسيرتها المادية والمعنوية إلى هذا العصر في ظل "المحمدية"، ستُواصل مسيرتها في آخر الزمان وبمشاركةٍ من ظل السيد المسيح وستَأخذ شكلًا جديدًا، وستُفسِّر الإنسانيةُ الأمورَ المتعلقة بالعلوم والتقنية بمسيحيةِ سيدنا عيسى عليه السلام، وستَربط الخوارقَ البشرية بالمعجزات النبوية، وتؤسِّس العلومَ على قواعدَ وأسسٍ متينة جديدة، حتى تُنهي بهذه العملية تلك الازدواجيةَ التي تعاني منها البشرية منذ عصور.

ثم إن النقاط المشتركة بينها وبين الأمة المحمدية سيتم تحديدها ويتحقق الاجتماع على أدنى ما يمكن التلاقي عليه من القواسم المشتركة، وستكافح هاتان الجماعتان وتشكِّلان قوة مضادة ضد فكر الإلحاد وإنكار الألوهية؛ هذا بما تمتلكه من العلوم والتقنيات، والآخرُ بما تتمتع به من الإيمان والعملِ الصالح.. وبهذا الاعتبار يمكن القول بأن معجزات السيد المسيح عليه السلام هي بمثابة آخر نقطة للحدود التي ستصل إليها العلوم في آخر الزمان.

---

[89] صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، 47.

وللسيد المسيح ﷺ كثير من المعجزات، ولكننا نريد أن نركز على الآية التي تَنقل عنه ﷺ مباشرةً ما يقوله حول معجزاته: ﴿**وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 49/3).

فقد لفت السيدُ المسيح الأنظارَ إليه بهذه المعجزات، وسرعان ما التفّ الناس حوله، وأَصلح ما فَسد في محيطه من الفكر الديني، وأَسَّس مكانَه عقيدةَ التوحيد، وصار كأنه يمهد الطريق لسيدنا محمد ﷺ، ومِن بعد ذلك جاء الإسلام فصار مصدرَ إحياء جديد للنصرانية التي تَعرَّض بعضُ جوانبها للتحريف والتبديل، ونأمُل أن يأتي يوم تتصفى فيه النصرانية من شوائبها حتى تُساندَ الإسلامَ وتُشارِكَه في محاربة الإلحاد والكفر المطلق.

ومن المحتمل أن النصارى سيتوسعون في العلوم والتكنولوجيا، كما أن الأمة المحمدية ستتطور وتتعمق من الناحية الروحية والقلبية والأنفسية، وستلتقيان في نقطة معينة وستُشكِّلان بينهما وحدةً واتفاقًا، ولعل البشرية ستجد يومًا ما فرصةَ تحقيقِ أمور قريبة مما كان السيد المسيح يُجريه بشكل معجز، وبذلك ستؤمن بالله وأنبياءِ الله.. وقد أشار الله من خلال نبي من أنبيائه إلى آخر نقطة يمكن أن تصل إليها الساحة الطبية.

وتَلفت الآيةُ النظرَ أيضًا إلى أنه من الممكن الحصولُ على شفاء الأمراض المستعصية؛ كأمراض الجلد والعَمى وغيرهما كالسرطان والأيدز اللذَين يُعتَبَران مِن أفتكِ أوبئة العصر، بل إن الأموات سيصلون إلى مستوى من الحياة أقرب مما هم عليه اليوم، وهذا يدفع بالإنسان إلى أن لا يقع في اليأس جراء أي من الأمراض، بل يحفزه على البحث عن دواء لهذه الأمراض، مصداقًا لقوله ﷺ: "**مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً**"[90].

أجل، إن المعجزات التي وردت على أيدي الأنبياء لهي آخر نقطة تصل إليها البشرية في الترقي العلمي، والقرآنُ الكريم بذكره لهذه المعجزات يحفز البشرية على مواصلة البحث وبذلِ الجهد للوصول إلى هذه الآفاق، ولكن هناك نقطة وهي أن البشرية مهما تطورت في العلوم والتكنولوجيا

[90] صحيح البخاري، الطب، 1.

ومهما أنتجت من الأدوية التي تعالَج بها الأمراض المذكورة في الآية، ومهما سلكت طرقًا جديدة للبحث عن إحياء الموتى، فإن كل محاولاتها لن تكون إلا معالجاتٍ عابرةً ولن تصل إلى نفس المستويات التي وصلت إليها المعجزات بتاتًا.

4- موقف الإنسان من السنن الكونية

لقد حاولنا أن نركز في الفصول السابقة على الآيات القرآنية التي تحتوي على إشارات إلى الحقائق والتطوّرات التكنولوجية، وما نريد أن نذكره الآن هو قضيةُ: أن الله تعالى كتب كتاب الكون بقدرته وإرادته، ثم شَرَح القرآنُ لنا بشكل وجيز هذا النظامَ السائد في الكون حتى تنكشف وتتوسّع آفاقنا الفكرية والعرفانية، ونتجوّلَ جميعًا في التلال الزمرّدية لمعرض هذا الكون، وتنفتحَ أبصارنا وبصائرنا تجاه ذاته الجليلة والعالمِ الأخروي.

إن لكل علم أُسسًا وثوابتَ تخصه، وإنما توضع القوانين العلمية بناءً على هذه الأسس والثوابت، فكما أنه ليس من الممكن قراءةُ كتاب لا تستقر حروفه وكلماته، فكذلك لو تغيرت النواميس الكونية التي كل منها بمثابة حروفٍ لكتاب الكون لما أمكن قراءة هذا الكون أيضًا، ولأصبح من المتعذر مطالعته وفهمه، ولكون هذه القوانين والنواميس ثابتة (ونسميها: سنة الله) فإن البشر يكتشفونها، -وينسبها الناس إلى مكتشفيها، مثل: "قانون نيوتن أو أرخميدس"- ويستفيدون من تلك الأسس والأصول التي وضعها الله، فالقرآن الكريم يرفع النقاب عن وجه هذه القوانين ويدلنا على ما يكمن وراءها من الحقائق الثابتة التي هي من تجلياتِ أسماء الله وصفاته.

ويحتاج كل شيء إلى قاعدة متينة يستند إليها حتى يستطيع الثبات والصمود، وفي الكون نظام وانتظام رائع، ولا يستطيع الإنسان أن يصل إلى ما في روح الكون من بعض الحقائق إلا بواسطة هذا النظام والانتظام، ولا يمكن أن يكون هذا النظام والانتظام سائبًا ومعلّقًا، بل لا بد له من الاستناد إلى سند ثابت، وذلك هو التنظيم الإلهي.

وكلُّ تركيب في الكون إنما يكون مرتبطًا بترتيبٍ وتنظيم، وهذا الترتيبُ حقيقةٌ ثابتة، فحينما ننظر إلى تكوُّن الطفل نلاحظ أن كل مراحله تخضع لترتيبٍ رائع؛ بدءًا من كونه حيوانًا منويًّا ثم

تلقيحِه للبويضة ثم سائر التطورات الأخرى التي يمر بها في الرحم.. فهذه حقيقة ثابتة، واستنادًا إلى هذه الحقيقة الثابتة يستطيع الإنسان بعد لقاح الحيوان المنوي أن يعرف المرحلة الزمنية التي يمر بها الجنين ويعدَّ شهوره، وعلى ضوء ذلك يأخذ الترتيباتِ اللازمة، ولكن لا بد لهذه الحقيقة أيضًا من الاستناد إلى سند ثابت،

ألا وهي أسماء الله: "الخالق والرزاق والمصور".

والبذور أيضًا تبدو وكأنها جامدة لا حياة فيها، ولكنها بعد أن تُرمَى في أحضان التربة إذا بها تَظهَر أمامنا في البداية على شكل رُشَيم ثم تصبحُ برعمًا، وهذا البرعم يضرب بجذوره في الأرض من جانب، ومن جانب آخر تنتشر فروعُه وأغصانه وأوراقه في الأعالي، ولكن لا يتحقّق أيٌّ من هذه الأمور بالمصادفة، بل تستند إلى حقيقةٍ:

﴿**فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى**﴾ (سورة الأنعام: 95/6)، ونستنتج من هذا كله أن كل شيء يقول بلسان حاله:

"لا إله إلا الله" شاهدًا بالوحدانية، منبِّهًا إلى الحقيقة العظمى.

فهذا الجانب من القرآن الكريم الذي يتحدث عن وجود الله عن طريق شرح القوانين السائدة في الكون بهذه البلاغة الواضحة، لهو دليل مهمٌّ على أنه كتاب وبيان من المتكلم الأزلي ﷻ، فمهما ترقَّى الإنسانُ في علم من العلوم، ووصل إلى أي نقطة فسيرى في نهاية المطاف في كل ذروة رايةَ القرآن مرفرفةً ودالةً للإنسانية على الطريق الصحيح، وقد لا يكون هذا الأمر واضحًا بالنسبة لأيامنا هذه، ولكنه في المستقبل القريب سينجلي بكلّ وضوح.

إن الكتب السماوية وجميع الأنبياء قد أضاؤوا الطريق في كل المجالات المادية والمعنوية، وأناروا للناس كل جوانب الحياة، فكما أن البشرية بفضل الرسل وجدت الطريق المؤدي إلى رضا الله وجنته، فهي بفضل إرشاداتهم أيضًا اكتشفت سبل السير وفقًا للسنن التي وضعها الله في الكون، فحَققت النجاحَ والسعادةَ الدنيوية أيضًا.

أجل، فكما أن البشرية استفادت في العلوم الكونية من ضوء الوحي السماوي، فهي أيضًا مَدينةٌ للوحي والأنبياء في تنوير القلوب وترقِّي الأرواحِ وإيقاظِ المشاعر والإحساس بالله وتشبع القلوب

به تعالى، ومن أجلِ إعطاءِ بعض الأمثلة المشخِّصة للموضوع من القرآن الكريم ذلك الكتاب السماوي الذي لم يتعرّض ولن يتعرّض للتحريف والتبديل؛ حاولْنا في الفصول السابقة الوقوفَ على بعض الآيات التي تشير إلى العلوم الكونية مع ذكر بعضٍ ما يشير منها إلى الحقائق العلمية والتطورات التكنولوجية، وكلما تطورت التقنيات والتكنولوجيا فستظهر بشكل أكثر ثمارُ ما يتعلق بتلك الساحة من الإشارات والبشاراتِ القرآنية، وسيزداد الجميعُ فهمًا وإدراكًا بأن القرآن كلامٌ إلهيٌّ.

والهدفُ من ذكر القرآن لهذه السنن الكونية هو جلب الأنظار إليها وتحفيزُ الناس للتفكّر فيها وإجراءِ البحث حولها، كما أنه يقدّم لهم المنهج الذي ينبغي عليهم اتِّباعُه خلال عملية البحث والتفكير، فمثلًا نلاحظ أن القرآن الكريم يتحدّث عن تمدّد الأرض، وتَحرُّكِ الذرات والسحب والجبال وغيرها من الأمور، حتى يسوق الناس إلى التفكير المنهجي، فإذا راعى الإنسانُ هذا الجانب فإنه سيتخلص من الأفكار المشتتة وفُتات الأفكار العقيمة، ويجدُ إمكانيةَ الفكر المنظَّم والممنهج.

ولنزيد الأمر وضوحًا نقول: إذا كان هناك شخصان يتحدثان عن نزول المطر؛ أحد هذين الشخصين عاميٌّ، والآخر عالِمٌ عارفٌ بقوانين الله السارية في الكون، فإن الأول سيعبّر عن الموضوع قائلًا: "ظهرت الغيومُ في وجه السماء، وسينزل المطر".. في حين أن هذا العالِم سيشرح الموضوع نفسه: فيتحدث عن هبوب الرياح وجمعِه بين أجزاء السحاب ذاتِ الشحنات الكهربائية المتضادة، ويستخدم ما يمتلكه من المناهج والآلات التكنولوجية، فيقوم بتنبؤات قريبة من القطعية عن وقت نزول المطر، فيذكُر لنا سَيرَ الأمور من مرحلة إزجاء السحاب إلى مرحلة الإمطار.

فالفرق بين هذين الشخصين هو أن أحدهما ينظر إلى الحدث بعينٍ مجردة ويُعبِّر عن مقصوده من منطلق فكري بسيط، بينما الآخر يربط بين الأسباب والنتائج، ويعبر عن مقصوده من منطلق فكري منهجي، ومِن هنا نستنتج أنه لا يمكن إدراك الأشياء وفهمها مع خلفياتها إلا بنظرة علمية.

فالقرآن الكريم يؤكد أن الكون مرتبط بنظام، وبذلك يَفتح أمام الناس نوافذ التفكير المنهجي، ويخلّصهم من فتاتات التفكير المشتت ويَسوقهم إلى التفكر المنظم ومطالعةِ الكون من منظور الأسباب والنتائج، وبفضل هذه الطريقة سيَحصُلون على إمكانية إيجاد الحلول لقضاياهم الكبرى ومشاكلِهم العَوِيصَة.

إن الإنسان الذي يدرك أهمية طريقة التفكير المنهجي، يكون في الوقت ذاته مدركًا للمستوى الأخلاقي العالي وحائزًا للتربية وسالكًا للطريق المؤدي إلى الكمال الإنساني، وهذا من الجوانب الأخرى للموضوع.

أما بالنسبة للجانب الآخر، فهو أن الإنسان لديه جانب من البيان، فهو بهذا الجانب يكون متكلّمًا ومخاطَبًا في وقت واحد فهو بمثابة محطة الهاتف العجيبة؛ يتلقى الرسائل من الآفاق الغيبية، ويرسل الطلبات إلى العوالم الغيبية؛ فأحيانًا تراه يكون مخاطَبًا لصفة الله: "الكلام"، وأحيانًا أخرى تراه يبثّ نجواه أمام المتكلم الأزلي بصفته متكلِّمًا حادثًا، وفي هذا المجال أيضًا هناك مصدر ومرشد مهم يمكن أن يكون هاديًا للإنسان في سبيل ترقيه الروحي والقلبي، ألا وهو القرآن.

إن القوانين السارية في الكون هي قوانين جبرية، وهي من هذا الجانب تبدو في ظاهرها وكأنها لا تَرحم، فإذا تَصادَم الإنسان مع أحدها ولو قيد أنملة فإنها ستجازيه وتصدِمه، فمثلًا إذا أصابت رصاصة دماغَ الإنسان، فإن الله يميته، تطبيقًا لقانونه الذي أودعه في كتاب الكون.

أجل، إن هذا من مقتضيات قوانين النظام الكوني الذي قدره الله وربطه بشكل جبري، وكذا إذا رمى إنسانٌ بنفسه من مكان عال إلى فراغ فإن هذا الشخص سيصطدم بالأرض ويموت (وفقًا لقانون الجاذبية الأرضية التي هي ستار للإجراءات الإلهية)؛ فالكون تَحكمُه جبريةٌ مشروطةٌ.

إن الله تعالى تجلّى في الكون باسم ذاته -حسب رأيٍ- وباسم الرحمن -حسب رأيٍ آخر-، فأظهرَ حاكميةً مطلقةً؛ بحيث إن الإنسان قد أصبح أمام هذه الحاكمية مجبرًا مغلوبًا على أمره إلى حد معين، ولكن الله تعالى بمقتضى رحمته منح الإنسان خارطةَ طريقٍ لا تضلّ، ألا وهي القرآن،

وذلك حتى يصل الإنسانُ إلى هدفه من دون أن يتصادم مع نظام الكون الجبري الذي يظلّ في دوران دائم.

وحالُ الإنسان في مسيرته هذه يُشْبه حال الإنسان الذي يريد استخدام السلَّم المتحرك أو المرورَ عبر الأبواب الدوارة؛ حيث إنه مُجبَرٌ على أن يوافق حركاته مع حركتهما، فكذلك يجب على الإنسان في أنظمة الكون الجبريةِ أن يحافظ على نفسه من الاصطدام معها، في ظل إرشاد القرآن والالتزام بمبادئه، فهذه الأنظمة في دوران دائم طبقًا للمبادئ التي أُسِّست عليها، وليس للبشر أن يتدخّلوا فيها، وبالتالي لن يكتب التوفيق والنجاح لأي حركة بشرية إن تصادمت مع الحركة الكونية، فليس هناك نبي وجَّه رسالة إلى قومه تتصادم في مضمونها مع هذه الحركة الكونية.

ومن هنا ندرك أن من أهداف القرآن الكريم ومقاصد الأنبياء لفت الأنظار إلى الفطرة وتحقيق مواءمة الناس مع نواميس الفطرة وقوانينها، ولذلك ينبغي للإنسان أن يعيش متوافقًا مع الفطرة حتى يستطيع الصمود أمام الأحداث، وليس لأحد أن يضمن هذا إلا القرآن وصاحبُ القرآن الذي هو رسول اللهﷺ؛ حيث يقول في الحديث الشريف: "**عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ، وَالسِّوَاكُ، وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ، وَقَصُّ الْأَظْفَارِ، وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ، وَنَتْفُ الْإِبِطِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ**" قَالَ زَكَرِيَّا: قَالَ مُصْعَبٌ: وَنَسِيتُ الْعَاشِرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمَضْمَضَةَ[91].

وقد يُظن في الوهلة الأولى أن الأمر بالضدّ وأن إعفاء الشوارب والأظفارِ والإبطِ والعانةِ من مقتضى الفطرة البشرية، ولكن الرسولﷺ بهذا الحديث الشريف يبين أن الأمر على النقيض من ذلك وأن قصّها وحلقها من الفطرة، ويُستنتج من هذا:

أنه قد يتعسر على الإنسان الاطّلاع دائمًا على أبعاد قوانين الفطرة، وليس له أن يتعلم هذه الأمور إلا من القرآن الكريم أو الرسولﷺ، وفي ذلك يقول الله مخاطِبًا رسوله ومنوّهًا بهذه القضية المهمة: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**

[91] صحيح مسلم، الطهارة، 56.

لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الرُّوم: 30/30).

والواقع أن الإنسان إذا نظر إلى كل ما في الكون من الكائنات الحية فسيرى بجلاءٍ أنها تحكُمها هذه القوانين الإلهية الثابتة؛ فالشريعة الإسلامية تسمِّي هذه الأسَس التي وضعَها الله، بـ"الفطرة" أو "السنة الإلهية"، فتؤكّد بهذا أن اليد التي خَلقت الكونَ هي التي خَلقت الإنسان أيضًا. أجل، إن بين الكون والإنسان تناغُمًا يضاهي التناغم بين أبيات الشعر، والقضيةُ الأساسية هي أن يصغي الإنسان إلى القرآن فيتحركَ من خلاله

ولا يخالفَ قوانين "الشريعة الفطرية".

ولا يحظى الإنسان بالسكينة والطمأنينة ولا يحصل على أذواق خالية من الآلام والأكدار إلا بقدر إصغائه إلى القرآن الكريم وتحرُّكِه وفقَ القوانين السائدة في الكون والنظامِ الكوني، وإلا فإنْ تَصادَم مع القرآن ولم يصغِ إليه فلن يتخلص من الجنايات والاضطرابات وأنواعِ الظلم والشكاوي وشتى ألوان المعضلات، حتى لو راعى القوانين الكونية وقَطَعَ أشواطًا في العلوم والتكنولوجيا. أجل، إن المجتمعات إذا لم تتغذّ بالقرآن فلن تستطيع الحيلولة دون ممارسات الظلم والجنايات وكثير من المعضلات فيها، مهما بلغت من المستوى العلمي والمعرفي.

ص. احتمال وجود كائنات جسمانية من غير الملائكة والروحانيين في العوالم الأخرى

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (سورة الشُّورَى: 29/42)، من المعلوم أن الكائنات الجسمانية وغير الجسمانية ستُجمع وتحشر يوم القيامة، فهناك آيات كثيرة وأحاديث شريفة تؤيد الموضوع، ولكن هذه الآية تتحدث عن أنه توجد كائناتٌ معبَّر عنها بـ"دابة"، وأنه من الممكن اجتماعها في أي وقت إذا شاء الله، وهذا يضفي على الموضوع أهمية إضافية؛ حيث إن الملائكة والروحانيين لا تطلَق عليهم كلمة "دابة" وليس فيما بينهم ذكورة ولا أنوثة فلا تتكاثر بالمعنى المعروف لنا، وأما هذه الآية فيبدو أن فيها إشارة إلى كائنات جسمانية تتصف بالذكورة والأنوثة وبالتالي تتكاثر فيما بينها، وهذا أدى بأمثال الزمخشري والرازي وأبي

السعود من المفسرين إلى النظر إلى الموضوع من زاوية أوسعَ، والقولِ باحتمال أن يكون في السماء كائنات حية تدِبُّ وتتجول كما يدب الإنسان والحيوان على الأرض.

ومن البدهي أن الكائنات الحية في الأرض وفي السماء ستتلاقى في "الحشر الأكبر" وأما اجتماعها في الدنيا فقد نيط في الآية بالمشيئة الإلهية الخاصة؛ فيمكن تحقيقه بشكل خارق للعادة إذا شاء الله تعالى، وإن لم يتحقق بشكل كلي فيمكن تحققه بشكل جزئي وفي حدود معينة، وبالتالي فهذه الآية تَفتح نافذة وتحفّز العقول للبحث في الموضوع وإجراءِ الفتوحات صوب السماء، وقد يبدو تحقيق هذا الأمر بالنسبة لنا غير ممكن علميًّا نظرًا لمحدودية قابلياتنا وتجهيزاتنا، ولكن هذا الإشكال غير وارد بالنسبة لمن يعيشون في الأجرام السماوية الأخرى ممن يمتلكون مثل هذه القابليات والتجهيزات.

ولأن الكون من السعة بحيث يكاد يمكن وصفه باللامتناهي، فيمكن عقلًا أن يكون في هذا الكون الكبير كوكب آخر على شكل الكرة الأرضية، وأما عدم العثور على أيّ أثر يتعلّق بالموضوع، فإما نقول: إنه نابع من سعة حجم الكون وكونه مترامي الأطراف وكونِ الدراسات التي أجريت إلى الآن غير كافية، أو نقول: إن قابلياتنا محدودة ولذلك ما زلنا بحاجة إلى الكثير من الوقت، أو نحيل الأمر إلى غيرنا ليقوم بدلًا عنا بسدِّ الفراغ الناتج عن تقصيرنا في الأمر، وعلى كل حال فليس لنا إلا التوقف والانتظار وإحالةُ كشفِ الحقيقة المشار إليها في الآية إلى عامل الزمن.

صحيح أنه لا يمكن لنا أن نقول شيئًا في حق نوع هذه الكائنات وخصوصياتها، إلا أنه يمكن أن نستنبط من عموم بعض إيماءات التعبيرات القرآنية أنه يمكن لنا أن نتبادل معها بعض الأمور.

وأيضًا فإنه من الممكن أن تكون في ضمن منظومةِ مجرةِ درب التبانة بعضُ الكواكب التي تناسب الحياة البشرية، وقد يأتي يوم تَصِلُ إليها البشرية بشكلٍ ما، فتُحيي هناك كلَّ الخصوصيات الأرضية، وقد يبدو كل هذا عسيرًا من منظور علم الفيزياء أو الفيزياء الفلكية ولكنه سهل يسير بالنسبة لمن ﴿**هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (سورة المُلْكِ: 1/67)، فإذا شاء فسيكون الذهاب سهلًا، والتكاثرُ سهلًا، والتجمع إذا حان الأوان سهلًا.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (سورة العَنْكَبوتِ: 22/29)، بمثابة الصفعة على وجه التمرّد الإنساني، والإشارةِ إلى عجز المنكرين في الأرض وفي السماء.

وتعبير "ظلالهم" في قوله تعالى: ﴿وَلِلهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ (سورة الرَّعْدِ: 15/13)، يشير إلى أن هذه الكائنات لها "ظلال" ومعلوم أن الظل من خصائص ذوي الأجسام.

فبدلًا من الحسم في الموضوع وإغلاق الباب وسده تمامًا أمام التفكير يبدو أنه من المفيد إبقاء الباب مفتوحًا أمام الإمكان العقلي في مثل هذه المواضيع، بشرط

أن تكون التفسيراتُ غيرَ متعارضة مع محْكمات القرآن.. فالمهم في مثل هذه المواضيع الحفاظ على الإطار القرآني، وإلا فكما أنه ليس من الصحيح حصر الموضوع في جانب واحد بتطبيقه على المستوى العلمي المعاصر كما يفعله المفسرون الحَداثيون، فليس من الصحيح أيضًا التغاضي عن الاحتمالات المختلفة في المجالات التي ليس فيها محذور شرعي؛ لذلك نعتقد أن فتح الباب أمام الاحتمالات المختلفة سيكون نوعًا من العلاوة للباحثين تشوّقهم وتحفِّزهم لإجراء البحوث، كما أن هذه الاحتمالات ستكون منطلقاتٍ لهم في باب البحث والتقدم العلمي، ونظن أن هذا لن يكون متناقضًا مع التفكير القرآني في الأساس.

ق. الصعود في السماء وصعوباتُه

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأَنْعَامِ: 125/6)، إن الإنسان منذ أن خُلق لم يزل لديه فضول نحو السماء، وبهذا الفضول بدأت فكرةُ علم الفلك ورَصْد الفضاء، وبعد أن ألقينا نظراتنا إلى تلك العوالم العلوية، كنا نرى أحيانًا نجومًا تتلألأ وكأنها تغمز بعينيها نحونا بغمزات دافئة ناعمة فتثير فينا مشاعر الرجاء والأمل، وأحيانًا أخرى كانت تثير الظواهرُ السماوية فينا الرعبَ بانفجاراتها وسقوطِ نجومها وأصواتِ رعدها.

وخلال نظراتنا هذه انعكست بعض الرسوم عبر عيوننا على خيالنا وانفتحْنا -بفضل ذلك- أحيانًا على تخيّلاتٍ وتصورات العوالم التي تتخطّى حدود الزمان والمكان، فبحثْنا خارجَ عالم الشهادة عن أجوبة على أسئلتنا النابعة ممّا فينا من فكر الخلود واللانهائية، وهناك أناس اعتَبروا هذه الأمكنةَ السماوية وكأنها عوالم سرية سحرية بل إنها ربوع ضَربتْ عليها الآلهةُ خيامها، وتوجهوا نحو النجوم والقمر والشمس، واتخذوها آلهة، كما ربط آخرون طالعَهم بهذه الأجرام ورأوا كل ما في تلك العوالم أدواتٍ للفأل والتطيُّر.

وإذا كان المؤمنون اليوم لم يتعلقوا بتلك الأفكار المشوهة فإنما ذلك بفضل الأنبياء، ومن هنا بدأ سيدنا إبراهيم، فصحّح ما في الأذهان من تلك التشوّهات الفكرية، وكشف للناس ماهيةَ النجوم والقمر والشمس، ومدى ما تبلغ إليه، ثم توَّج ما حققه من الظفر في عالم الأفكار، فحطَّم الأصنام، وفي ذلك يقول القرآن الكريم بكل وضوح وجلاء:

﴿**وَكَذَٰلِكَ** [أي كما أريناه بشاعة الكفر] **نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** [أي أسرارهما الملكوتية] **وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ** [الواصلين في الإيمان إلى مرتبة القطعية واليقين]﴾ (سورة الأنعام: 75/6).

ومن المحتمل أن من إحدى دوافع بناء فرعون صروحًا عالية ومحاولته رصدَ السماوات، هو ما في الإنسان من الفضول نحو مراقبة السماوات، كما أن لهذا الفضول تأثيرًا في التخطيط لبناء برج بابل، وينبغي أن لا يُغفَل وجود هذا الدافع وراء المشاريع المطوَّرة لغزو الفضاء، إلى جانب دوافعَ أخرى مثل العوامل الاقتصادية ومثل الهيمنة على الفضاء، واكتشافِ كواكب أخرى ملائمةٍ للحياة البشرية، ومراقبةِ العالم من خلال مختلف الأقمار الصناعية، وغيرِها من الأسباب. فهذه الأسباب كلها تُبيّن لنا أن الفضاء سيظل في هذا العصر وفي العصور اللاحقة مطمحَ الأنظار لكل الأمم، بل إنه بمرور الأيام سيزداد الإقبال والتركيز عليه بحرص شديد، ولكن تُرى، هل ستسهّل كلُّ هذه الجهود الصعودَ إلى السماء الدنيا وسائرِ المجرات البعيدة؟ يقول الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**﴾ (سورة الأنعام: 125/6).

ومع أن قضية ضيق صدر المرء كلما ارتفع في الجو جاء في عُرْض الكلام لبيان حال من ضاق صدره عن الإيمان وانغلق تجاه العقيدة، لكنها ذاتُ مغزًى كبير؛ لأن أحدهما يبين التضايق من جراء انعدام الهواء المعنوي كما أن الآخر يبين الاختناق بسبب انعدام الهواء المادي، فالآية وإن كانت تُجْمِل الموضوعَ بوصف الحالة ورسمها فقط، إلا أنها تشير إلى أكبر مشكلة سيلاقيها الإنسان الذي يرتفع في الجو بالإضافة إلى مشاكل أخرى سيلاقيها؛ مثل الجاذبية الأرضية والاحتكاك وظروف الغلاف الجوي.

وفي القرآن إشاراتٌ تُحفِّز الإنسان إلى الارتفاع في الجو مهما كان هذا الهدف بعيدًا وصعبًا، وذلك برعايته الأوامر التكوينية مع الالتجاء إلى الله، وفي سورة الرحمن ما يدل بتعبير قريب من التصريح على إمكان هذا الأمر إذا تحققت التجهيزات اللازمة؛

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (سورة الرَّحْمَنِ: 33/55).

صحيح أن سياق الآية هو في ذكرِ أنه لا مفر من عذاب الله، إلا أن التعبيرات في الآية تتّسع لهذا المعنى أيضًا، حتى إنه من الممكن لعشاق العلم ومحبي البحث العلمي أن يستلهموا من هذه الآية دعوةً إلهية لهم إلى أن يتخطوا حدود الكرة الأرضية، ويعبُروا إلى ما وراء الأُسرة الشمسية، وينطلقوا من منظومة إلى أخرى، ويكتشفوا كل يوم عوالم جديدة.

وإذا كانت الآية تتحدث عن النفاذ من أقطار السماوات والأرض -بقطع النظر عن كونه ممكنًا أوْ لا- فهذا يدل بوضوح على أن الآية تؤيّد وجود هذا الشعور الموجود أساسًا في روح الإنسان، وأيضًا فهي تؤكد أن النفوذ إلى أعماق الأرض والسماء ممكن بـ"سلطان"، وأظن أن في هذا إشارة إلى أمر يختلف عما عهدته البشرية إلى الآن.

وهذه الأمور التي سردناها وإن كانت في حد ذاتها من قبيل الإشارة، أو القطرات التي نَبعَت من الأسلوب، أو بعض المضامين التي تناثرت من مستتبعات التراكيب، لكن من الواضح أن القرآن حَسَمَ الأمرَ في بعض القضايا.. ولكنَّ نهجنا هذا مختلف تمامًا

عن منظور بعض المفسرين "العِلْمِيّين" المُفْرطين في هذا الباب.

هدانا الله وإياكم إلى صراط مستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الكرام البررة أجمعين.

الفصل الثامن

التربية في القرآن الكريم

أ. خطاب القرآن الكريم للفطرة الإنسانية

إن السعادة الدنيوية والأخروية- وكما سبق أن قلنا في الفصول السابقة- إنما تحصل باتباع أوامر الله المقدسة وتطبيقِ تعليمات نبيّه اللتَين نتعلم منهما قوانين الفطرة.

وكتاب الكون الكبيرُ بنظامه وتناغمه المذهل يتحدث لنا عن الله تعالى، فإذا اعتبرنا هذا الكون من هذا الجانب "صوتًا"، فإن الفوتوغراف -إن صحّ التعبير- الذي نسمع منه هذا الصوت والنغمَ هو القرآن الكريم، فإذا أَصْغَت البشريةُ إلى القرآن الكريم فإنها ستسمع منه الأحداثَ الجارية في الكون، وما تنطوي عليه من الروح والمعنى، وما تثيره هذه المعاني في القلوب من المشاعر الجياشة، وبالتالي فرقيُّ الإنسان إلى مستوى فكري ناضج، وترشحه لبلوغ الكمالات الإنسانية منوط باطلاعه على روح الكون وما فيه من الأحداث؛ كما أن كماله القلبي والروحي مرتبطٌ بانقياده المطلق لآيات القرآن المعجزِ البيانِ، وللبيانات النورانية لسيدنا محمد المصطفى ﷺ الذي هو المرشد الأكملُ وقدوة الجميع.

ويمكن تلخيص ما قلناه سابقًا في مادّتين:

1- الإحساس التام بالتأثير السحريّ للقرآن الكريم في الرقي القلبي والروحي للإنسان. أجل، لم يمكن إلى يومنا هذا تنشئةُ فردٍ كامل، وأسرة متماسكة، ومجتمع منضبط إلا في ظل إرشاد القرآن الكريم، ولذلك فليس من الممكن بتاتًا أن تكون كلمات هذا القرآن الكريم المعجزِ البيانِ الذي أرشد إلى تربية الفرد الكامل والأسرة والمجتمع المنضبطين، صادرةً من قريحةِ شخص نشأ في مجتمع أمي؛ فليس القرآن إلا كلام الله فقط.

2- إن القرآن يتمتّع بقوّة فريدة، صارت منبعًا لتربية مجتمعات مثالية مَثَّلت الأخلاق والقيم الإنسانية السامية في مناطق مختلفة وفي أزمنة مختلفة؛ فهو سماويّ رباني المصدر.

أجل، إن القرآن الكريم أنار الطريق للمؤمنين وأرشدهم في حل جميع قضاياهم الصغيرة والكبيرة، ووَضْعِ المبادئ الأساسية؛ بحيث إن من ساروا في ضوء إرشاده لم يسقطوا في التشوّهات القلبية والروحية بتاتًا، ولم يعيشوا بؤسًا متماديًا؛ فقد أمر في العديد من آياته بطاعة الوالدين ورعاية حقوق الجار، وذكَّر بواجبات الفرد تجاه المجتمع، وأكّد بإصرارٍ أن الظلم والغيبة والنميمة والتفتيش عن عيوب الآخرين والسخريةَ من الناس وغيرَ ذلك من أفعال قبيحة كثيرةٍ أمراضٌ اجتماعية، ودعا الأرواح المؤمنة إلى الانتباه وتوخّي الحذر تجاهها، كما أنه ذكَّر بالعواقب الوخيمة للكِبْر والغطرسة والكذب والفحشاء وأمثالِها من نقاط الضعف البشري، ودعانا إلى اتخاذ موقف إيماني تجاهها.

وبالإضافة إلى ذلك، تناوَلَ القرآن الكريم أشخاصًا من ذوي المروءة وعلو الجانب وأصحاب الأرواح السامية، فتحدَّث عن صبرهم وعفوهم وتسامُحهم وكرمهم وشجاعتهم، فلفتَ أنظارَنا إلى نماذج إنسانية مثالية.

وإلى جانب المشاعر الطيبة يوجد في الإنسان من حيث الخلقة مشاعرُ سيئة أيضًا؛ إذ إنه بحاجة إلى هذه المشاعر السلبية حتى يكون في نشاط دائم، ويجددَ ذاته ويطورَها.

فماهية الإنسان التي هي عبارة عن خليط من الأضداد لا بد أن تكون في حراك دائم، حتى يسموَ بفضل ذلك إلى أرقى ما يمكن للإنسان الوصولُ إليه من جانب، وحتى يؤدي به هذا الوضعُ إلى اليقظة الدائمة فلا يهمل نفسه -من الجانب الآخر- حتى لا ينحطَّ إلى أسفلِ سافلين ولا يكونَ مع الشياطين؛ فالقرآن الكريم يتناول جميع هذه المشاعر المغروزةِ في الإنسان والتي تكون إما سببًا لترقيه أو انحطاطِه، فيوجهُها إلى الوجهة الصحيحة ويقدمُها لخدمة الإنسان، وبهذا نعلم أن الإنسان لن يسبر أغوار الفطرة الحقيقية ولن يطَّلع عليها إلا بإرشاد القرآن.

ب. تربية الإنسان في القرآن الكريم

إن الله تعالى يذكِّر في سورة الفاتحة بأمر يتعلق بالتربية في غاية الأهمية قائلًا:

﴿**الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (سورةُ الفَاتِحَةِ: 2/1)، فكما أن الله تعالى يجعل ما في الكون من الأشياء والمواد نفسها وسائلَ لتكون ستائر لقدرته، فكذلك يجعل القوانين والمبادئ نفسها ستائر لإجراءاته السبحانية؛ فهو ﷻ ربُّ بني الإنسان والحيوانات والنباتات والذرات والمجرات والملائكة، وباختصار: هو رب العالمين، ومن المفسرين من عبَّر عن عدد العالمين بقوله: هو رب العوالم الثمانية عشر ألفًا، وهذا الرقم كناية عن الكثرة، وإلا فهذا العدد قليل أمام العوالم التي ربُّها اللهُ، لأن الذي يربي عوالم لا حصر لها، ويَسُوقُ كل شيء نحو الكمال هو الله رب العالمين، والحمد مخصوص به تعالى.

وأرى من المفيد أن أشير هنا إلى مسألة مختلفة: وهي أن قوله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (سورةُ الفَاتِحَةِ: 2/1) ينطوي في مضمونه على سعةٍ وشمول، فلكل شيء نصيب من هذه الربوبية الشاملة، بدءًا من وضعه سبحانه لقوانين الفيزياء والفلك، وانتهاءً بتنظيمه للعلاقات بين خلايا جسم الإنسان. أجل، إن الله تعالى بنفس القانون الذي ينظم به العلاقات بين الخلايا أو بين ما في الخلايا من جزيئاتِ (*DNA*) و(*RNA*)، ينظم العلاقات بين الأنظمة السماوية والمجرات. صحيح أن هناك فرقًا في التجليات حسب المواهب والقدرات والقابليات المُودَعة في كل كائن، إلا أن القوانين هي هي، فالقانون الساري في تحول البذرة إلى فسيلة ثم إلى شجرة سامقة، هو القانون نفسه الجاري في مسيرة الحيوان المنوي والبويضةِ في كل مراحلهما إلى أن يولَد الطفلُ.

ولذلك فإن الإنسان إذا استطاع أن يتأمّل القرآن آخذًا بعين الاعتبار الإنسانَ وروحه وجميعَ الكون كُلًّا متكاملًا فإنه سيستطيع أن يَسمع منه صوتَ ونفَسَ الأشياء والحوادثِ برمتها، ولكن من الصعب جدًّا شرحُ هذا لمن تقوقعوا في دهاليز أفكارٍ عفا عليها الزمن، وانشغلوا بأوهامهم وأمانيهم، ودخلوا في تَشتُّتٍ بين العقل والقلب، كما سيصعب شرحُ ذلك لمن تسلوا بمجرد القوانين العلمية الجافة التي لا روح لها، وغُلبوا أمام عقولهم.

فنرى في عصرنا أشخاصًا يسُوقون الناس إلى الابتعاد عن الحياة، والعيشِ على نمط فقراء الهند، وبالمقابل نرى آخرين يقطعون أنفاس الناس عن طريق حبسهم في الحدود الضيقة للمادة، فإذا استطاعت الإنسانية، على الرغم من كل هذه السلبيات، أن تتعمق -بتوفيق الله وعنايته- في

دواخلها وتتناولَ التربية الفكرية والروحية والقلبية معًا، فإنها ستنجح في التحليق مثل الفراشات في سماء الحقيقة.

أجل، إن الله تعالى يتناول الإنسانَ والكون معًا ويقيِّمهما في القرآن الكريم جنبًا إلى جنب، فانطلاقًا من هذا الأساس وامتثالًا للأثر القائل: "تخلقوا بأخلاق الله"، علينا أن نلتزم في هذا الموضوع أيضًا بأخلاق الله ونتحرك وفقًا لإجراءات الله في الكون، ونحدِّدَ موقعنا جيِّدًا، فإذا ما حدث ذلك سنكون أرواحًا راقية وسنصِلُ بسهولة إلى الذرى التي نطمح إليها، وسنحرز الموقع الذي يجب أن نحرزه.

إن القرآن يريد أن يتناول كلَّ فرد باعتبار أنه "فرد مثالي"؛ إذ لا يمكن تصور أسرة سليمة ومجتمع سليم من دون وجود الفرد المثالي؛ فالقرآن يوجه الفرد ويشكِّله ويوجهه نحو الفطرة، فيجعله مُدركًا لنواميس الكون، فإذا نضج هذا الفرد واستوى ووصل إلى قوام معين تشكَّلت من أمثاله أُسَرٌ ومجتمعات مثالية.

فلكل من الأبوين حسبَ القرآن الكريم موقع فوق موقعِ الأبوة والأمومة؛ ألا وهو موقع المعلم والمرشد؛ فلذلك نلاحظ أنه يركز في مواضع كثيرة على نصائح الآباء إلى الأولاد، ويؤكد هذا الأمر بين الفينة والأخرى، ففي معرض الحديث عن وعظ لقمان لابنه يقول: ﴿**يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ (سورة لُقْمَانَ: 13/31).

أجل، إن أعظم ما يُرتكب في الكون من الظلم هو اتخاذ الشريك لله، وإن من يكون قلبه يقظًا منفتحًا على نسمات العوالم الغيبية لَيَرْتعدُ أمام مثل هذا الظلم، فكما أن الشرك ظلم تجاه الله، فهو كذلك تطاوُل على الحقوق الإلهية؛ فإن الله تعالى قد أعد الكائنات على هيئة كتاب ومَعرض، وزينه بشتى أنواع صنعته الرائعة وقدمه لاستفادة بني الإنسان، فإذا تعامى الإنسان عن هذه الآثار البديعة المعروضة أمام عينيه، أو أحال أمرها إلى المصادفات وقوى الطبيعة، فإنه يكون مشركًا ومرتكبًا لظلمٍ عظيم.

ج. تربية الفرد والأسرة في القرآن الكريم

ذكرنا آنفًا أن القرآن يرقى بالفرد حتى يصل به إلى قوام معين، وخَتَمْنا الموضوع بآية تتضمن نصيحةَ والدٍ لولده.

والآن نريد أن نرجع إلى القرآن لنركز من زاوية أخرى على كيفية نصيحة الوالد لولده: ﴿**يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾ (سورة لُقْمَانَ: 17/31).

فالقرآن الكريم ينقل حديث والد لولده في أهم الأمور، فيذكِّر بأهم المسؤوليات أمام الله، ويؤكد في البداية على لسان نبي من أنبيائه أهمية الصلاة: ﴿**يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ**﴾ أي قم بأدائها وأنت تشعر بأنك ماثل أمام عظمة الله، في تكامل داخلي وخارجي

﴿**وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾ أي عليك أن تبين، بأسلوب مقبول للناس الخيرَ وما هو مستحسَن ومطلوب دينًا، واحرص على إبعادهم عن الخصال السيئة، واعلم أن سلوك مثل هذا الطريق له مخاطره ومشاقه، فتَحَمَّلْ ﴿**وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ**﴾ والتزِمْ سبيل الصبر؛ لأنك إذا تتبّعتَ أخطاء الناس، وتدخَّلتَ في نظرتهم إلى الأمور من حيث تحسينها أو تقبيحها، فكن مستعدًّا لما عسى أن تتلقى منهم من ردود الأفعال، وما قد تأتيك من الهجمات، ﴿**إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾ أي من الأمور الجليلة التي تتطلب المثابرة والعزم، ولا يتصدى لها إلا أرباب المستوى من عظماء الرجال، فالقرآن حينما يقص علينا كلام نبي من أنبيائه، يذكّرنا بمسؤوليات والدٍ أمام أولاده.

وفي آية أخرى يتبادل الوالد والولد هذا الموقع، حيث إن الولد قد انفتحت عينه على الحقيقة، فينبري لإنقاذ والده، ويمد إليه يديه بأسلوب راقٍ: ﴿**إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا**﴾ (سورة مَرْيَمَ: 42/19). أجل، إن الأصنام ليست بالمستوى الذي تستطيع أن تقضي لك شيئًا من حاجاتك، بل إنها عاجزة وضعيفة مثلك، فليس من الممكن أن تقوم بمساعدتك في أي أمر من الأمور.

فالابن المحظوظ هنا هو سيدنا إبراهيم، والأب الذي يعبد الأصنام هو آزر، فههنا ينذر الابن أباه وينصحه، فبمثل هذه الأمور يصور لنا القرآن الكريم النماذج المثالية من العائلات، ويلفت أنظارنا إليهم حتى نستنبط منها الأمور الضرورية التي لا بد منها في تربية أفراد مثاليين في الأسرة.

فإذا نظرنا إلى مؤسسة العائلة بعدسة القرآن، فسنلاحظ أن كل فرد في العائلة له دور وعليه ومسؤولية، فنراه تارة ينصح الولد على لسان الوالد، وتارة أخرى ينصح الوالد على لسان الولد، فيذكّر كلًّا منهما بمسؤولياته.

﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا**﴾ (سورة مَرْيَم: 45/19)، أي إنني أخاف أن تتعرض لعذاب الله جراء انحرافك هذا، وبالتالي تنقطع صلتك بالله فتكون من أولياء الشيطان، فإنك إذا لم تتول الله فإن السبيل الذي تسلكه سيجعلك أنيسًا للشيطان.

فيلاحَظ هنا أن الخطاب يتوجه من الولد الذي يحاول أن يرشد والده بعبارات نابعة من صميم القلب، فهذه الآية -كما ذكرنا آنفًا- تُبين أن كل واحد من أفراد الأسرة له مسؤولية في باب الخير وعليه أن يسدي النصح في جو تَسُودُه المحبة والاحترام.

وبعد أن يؤكد الله تعالى في آية أخرى على ضرورة القيام بالعبودية لله تعالى وحده يُرْدِفه بالتذكير بالمسؤولية المهمة تجاه الوالدين بقوله: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا**﴾ (سورة الإِسْرَاءِ: 23/17).

فالقرآن الكريم بهذه الآيات وأمثالها يرسم صورة للأسرة المثالية، فكل أفراد هذه الأسرة نَشِطُون، وكل فرد منهم يتحرك في إطار القوانين التربوية التي وضعها الله بصفته "رب العالمين" صوب الأهداف المقدرة له في سبيل الوصول إلى عرش كمالاته، كما أن من يلاقي هذه العائلة فسينشرح قلبه بما يسُودها من روح الإخلاص والسكينة.

والفرد الذي ينشأ في مثل هذا الجو العائلي ويؤدي وظائفه وأدواره بحقها يذكِّره القرآن الكريم بمهامه التي تترتب عليه في إطار الدولة والأمة اللتين تُعتَبَران أسرته الكبيرة قائلًا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾ (سورة النِّسَاءِ: 59/4)، فيوسِّع دائرة علاقاته ويفتح أمامه

الباب على مسؤوليات جديدة، فيقول لنا جميعًا: أيها المؤمنون عليكم بطاعة الله الذي هو حاكمكم المطلق وطاعة رسول الله الذي هو راعيكم المطلق، وطاعة حكامكم الذين خرجوا من بين أظهركم ويقاسمونكم نفس المشاعر والأفكار.

وهكذا فإن "شعور الوظيفة والمسؤولية" الذي يبدأ بالفرد وينمو فيه تتسع دائرته إلى أن يشمل الأمة ويستوعبَها فتصبحَ مجتمعًا فردوسيًّا يتوجه نحو الآفاق السامية.

أجل، إذا انتسب الفرد إلى أسرة الدولة والأمة التي يحدد إطارَها القرآن، وأطاع جميعُ أفرادِها حكامَها المنسجِمين معهم في المشاعر والأفكار، وأصبحت العلاقة بينهم بمستوى علاقة "الأب-الأخ-الابن" فإن الشَّذى سيفوح في كل أرجاء البلاد وستهبُّ

في أطرافها نسائمُ سفوحِ الجنان عبقًا عبقًا.

لقد أَولى القرآنُ الكريم عنايةً كبيرةً بتنشئة أناس أقوياء في الروح والشخصية على كل المستويات بدءًا من أصغر آلية إدارية على مستوى الأسرة وانتهاء بالتكوينات المعقدة جدًّا كالأمة والدولة التي تنطوي على دائرة واسعة من المسؤوليات، كما أنه دل على الطريق الخارق الذي يتخلق فيه الناس بأخلاق القرآن ويظلون في نشاط دائم وعلى تربية روحية وقلبية، ويتقربون إلى الله سبحانه وتعالى.

﴿**وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ**﴾ (سورة المَائِدَةِ: 49/5)، وأول المخاطَبين للقرآن هو النبيﷺ، فكأن القرآن يقول له: "أيها النبي الكريم، عليك أن تتصرف فيما بينهم بما أنزل الله عليك من أحكام القرآن الكريم، وإياك أن تتبع أهواءهم فتنتهكَ نواهيه، ومِن المحتمل أنهم قد يريدون أن يفتنوك عن بعض الأمور التي نزلت إليك بوحي من الله فيوقعوك في اتخاذ قرارات خاطئة، فتَثَبَّتْ في خطواتك، وكن ذا عزيمة في كل الأحوال، وتصرفْ على حسب مقتضى أخلاقك السامية، فليس من المتوقع ممن هو في مستواك من النبوّة واستقبال الوحي وسموّ الروحِ أن يتَّبع أهواءهم، فعليك أن تعيد النظر مرة أخرى في موقعك وموقفك اللائق بذلك الموقع، وبما أنك واسطة بينهم وبين الحق تعالى.. فعليك أن تجعل احترام أحكامه مسيطرًا

على القلوب وأن تجعلها متوجهة نحوه ﷺ حتى تتأسّس بفضل ذلك بينهم السكينة والهدوء، ويحصلوا على فرصة مواصلة حياتهم حياة إنسانية سعيدة".

وفي آية أخرى ينبه القرآن إلى أنه يجب على المؤمنين إذا شبَّ بينهم أيُّ شكل من أشكال النزاع أن يتحاكموا إلى النبيﷺ، وأن لا يجدوا في قلوبهم أيَّ ضيق مما يبديه من الأحكام بل عليهم أن يرضوا بها باعتباره خليفة الله، فيقولُ: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ (سورة النِّسَاءِ: 65/4).

فهذه الآية تؤكد أن من شروط الإيمان إبداءَ الرضا التام تجاه الأحكام الصادرة من الرسولﷺ، ولذلك نلاحظ أنها صُدِّرت بالقَسَم إشارةً إلى ما تحظى به القضية من بالغ الأهمية.

أجل، إن هذه الأمور كلها تضع لنا الإطار للمجتمع المثالي وتُعِدُّنا لأن نكون "مجتمع السكينة".

د. وظائف الحكام تجاه الرعية

لقد تطرّقنا آنفًا بعض الشيء لما يذكره القرآن الكريم من التزامات الشعوب تجاه حكّامهم؛ فالقرآن يؤسس المبادئ في هذا الباب على الأمور التالية: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (سورة النَّحْلِ: 90/16).

فالله تعالى يأمر الناس -وبخاصة الحكام- بأن يتحروا في مراعاة حقوق الآخرين، ويواسوهم في قضايا الطعام والشراب والمسكن ونحوها، ويعطُوهم الأولوية فيما يجلب لهم السعادة والرفاهية، وإذ يأمر الله الحكام بالإحسان فكأنه يقول لهم: "إن الله تعالى يراكم ويراقبكم ويطلع على كل أحوالكم، بل إن هناك آلافًا من الأحداث يُنبهكم الله من خلالها ويُشعِر وجدانَكم أنه يراكم، ويجعلكم تُحسون بوجوده، فعليكم أن تكونوا أثناء أدائكم لمسؤولياتكم وواجباتكم تجاهه واعين بأنه عالم بكم ويراقبكم"، ويمكن هنا استحضار تعريف الإحسان الوارد في الحديث الشريف[92].

[92] انظر: صحيح البخاري، الإيمان، 37؛ صحيح مسلم، الإيمان، 1.

كما أن الله تعالى يأمر في هذه الآية بإنفاق كل الثروات في سبيل سعادة الناس وطمأنينتهم، ويحثّ على بذلِ الجهود في جعل الفكر الإسلامي النابع من الإيمان جزءًا من طبيعة الناس وبُعدًا من أبعاده، وأن تبدأ عملية الإنفاق من أقرب دائرة إلى أبعدها، ثم تُواصلُ الآيةُ بتكليفهم بالتصدي حتمًا للفحشاء والمنكر والبغي والعصيان والطغيان، وبالتالي يحمِّلهم مسؤولية توظيف وسائل الإعلام كالتلفزيون والسينما والصحافة والمجلات ونحوها واستخدامِها في ترسيخ روح الأمة وخدمةِ جذورها المعنوية، ومنعِ استخدامها في إفساد أخلاق الأجيال وبثِّ روح الشقاق.

إن القرآن لا يتناول القضية على أساس أن يقول: "يجب على الناس أن يكونوا ذوي أخلاق فاضلة" ولا يكتفي بمجرد "التوصية"، بل يؤكد أنه لا بد لتحقيق ذلك من إصلاح أوكار الفحشاء والعصيان والطغيان؛ فهو حين ينهى الناس عن الفحشاء والمنكر يدعوهم بالمقابل إلى أن يكونوا أناسًا منضبطين ويعيشون في سمو روحي، إلا أن أداء هذه المهمة يختلف على حسب اختلاف طبقات المجتمع.

إن القرآن الكريم حينما يخاطب المجرم أو المتمرد الذي يرتكب الخطايا جهارًا، يتَّبع أسلوبًا خاصًّا تجاهه، وبهذا يَفتح له المجالَ ليراجع نفسَه ويعودَ إلى صوابه؛ لذلك يوصي بمعاملة مرتكبي الخطايا بمنتهى التسامح ويحثّ على التعامل معهم بالعفو والصفح، سواء ارتُكبت الخطيئة في الأسرة أو المجتمع أو في بيئة أوسع من ذلك، ويوصي تلاميذه بالوقار والجدية والتغاضي قائلًا: ﴿**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا**﴾ (سورة الفُرْقَانِ: 72/25).

أجل، إن المؤمن يتخذ موقفه من الفسق والفجور حيث يأمره الله به ويكون في هذا صامدًا تجاه الوقوع في ذلك، ولكن إذا حَدَا به الطريق من حيث لا يشعر إلى مكان يُرتكب فيه الفحشاء والمنكر ففي هذه الحالة يكون عالي الجناب قويّ المروءة، يقول: "سلامًا" ويواصل طريقَه ويَعتَبر ما يرتكبه أولئك المجرمون من باب "الخطإ"، فلا يفضحهم حتى لا يتسبب في مزيدِ نفورهم وابتعادِهم عن الدين والتدين.

ويصف القرآن الكريم أبطالَ التسامح من هؤلاء الذين اتخذوا هذه المبادئ السامية دستورًا لهم بقوله: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**﴾ (سورة الفُرْقَانِ: 63/25).

فهؤلاء من خاصة عباد الرحمن الذين يشكّلون بوقارهم وجِدّهم النموذجَ الحَسن للمؤمنين، ويَعكسون بتصرفاتهم روح القرآن، فإذا مشوا ذكّروا بالله، وإذا قاموا أو قعدوا تمثلوا بأخلاق الله، ويمكن أن يرى الرائي في كل أطوارهم وحركاتهم وأعمالهم انعكاسًا من الأخلاق الإلهية والنبوية، كما أن إيمانهم بالله يَظهر مِن خلال وقارهم وجِدّهم واحترامِهم وأدبِهم، وعبادُ الله هؤلاء هم رموز التسامح، وإذا مروا بمكان يرتاده الغافلون ألقوا عليهم السلام ولم يحْرموهم مِن أمن الله وأمانه.

وبهذه التعبيرات يبين القرآن بوضوح كيف يتصرف المؤمن تجاه العصاة الذين ليس لهم نصيب من الأدب والعلم، ويعرض أمام الأنظار مساحة واسعة تتمحور حول الأمل والصفح بأسلوب لا تكاد تجده في أي دين أو كتاب آخر.

هـ. التوجيه القرآني نحو الكمال الإنساني

إن هذه الدنيا دار امتحان وتدريب وتربيةٍ أُرسل إليها الإنسان ليترقّى فيها معنويًّا ويصبحَ أهلًا للجنة، فإذا ترقى الإنسان في الدنيا بكل مشاعره وأحاسيسه فسيحظى بمقام القرب من الله والرقي إلى مستوى التأهّل لمشاهدة جمال الله، وإذا تعرضت بعضُ مشاعره ولطائفه للتفسّخ أو الفساد ترتعد فرائصه من خوف سوء العاقبة، وسرعان ما يجدّد العهد ويؤوب إلى صوابه، فمهمة الإنسان الذي هو "إنسان" في الحقيقة هي أن يسلك طريقًا يؤدّي به إلى فطرته السليمة التي تنكشف فيها كلُّ مشاعره نحو تحقيق الهدف مِن خلقِها وغرزِها في الإنسان؛ فإنه إذا طوَّر قلبَه وعقله ووجدانه ولطيفته الربانية وسرَّه وخفيَّه وأخفاه وسائرَ أحاسيسه باتجاه استخدامها لتحقيق الحكمة والغاية مِن خلقِها فإنه سيُعتبر مؤدّيًا ومحترِمًا لِحقّ هذه الودائع الإلهية التي أودعها الله فيه.

أجل، إن التصرف بهذه الطريقة هو من مقتضى القيام بواجب الاحترام تجاه نفسه وتجاه ربه.. صحيحٌ أن الإنسان إذا لاقى ربه ولو بمجرد الإيمان به فإنه سيحظى بتكرّم من الله وسيَدخُل الجنة

إن شاء الله، ولكن إيداع الله هذه الأجهزة الإنسانيةَ في الإنسان تُلقي على عاتقه حقوقًا خاصة ينبغي عليه احترامها.

وانكشاف كل المشاعر الإنسانية وتطوّرُها بحيث يصبح الشخص إنسانًا كاملًا منوطٌ بتأسيسه رابطةً قوية بينه وبين خالقه، ولن يتسنى هذا إلا بأن يقرأ الإنسان ذاتَه وماهيتَه من المنظور القرآني قراءةً جيدةً ويتبينَ موقعه ومكانته في الكون ويتابعَ ما يجري حوله

من الأحداث ويقوِّمَها بالقدْر الذي يهمه.

وقبل أن أختم هذا الموضوع الذي يتمحورُ حول اسم الله "الرب"، أريد أن ألفت النظر إلى بعض القضايا كما يلي:

1- إن الشخص الذي يستنفد كل طاقاته للوصول إلى الكمال ضمن نظام معين يتوجب عليه أن يخضع للتوجيهات التي يُؤَطِّرها الخالق العلي في القرآن الكريم.

2- وعلى هذا الفرد أن يصرف كل طاقاته القلبية والروحية والفكرية والوجدانية في سبيل إدراك ماهية الإنسان والأشياء والكون إدراكًا جيّدًا وتفسيرِها في إطار نسبتها إلى الله، ولعل هذا هو الهدف من الخلق، ونسمي هذا: "استنطاق الأخلاق الإلهية بلسان الكون"، وأما الجانب الذي ينعكس على الواقع من هذا الأمر فهو الأخلاق السامية التي يوصي بها القرآن الكريم والتي تكون ثمارُها ونتائجُها هي الفوز بالدار الآخرة، فإذا عاش الإنسان بهذه الأخلاق فإنه سيفوز بالآخرة وبرضا الله الذي حباه كلَّ شيء وبشفاعة رسوله الكريمﷺ.

إن الله تعالى بتجلي ربوبيته العامة يُظهر لبني الإنسان في ضمن قوانينه الجبرية نظامًا أخلاقيًّا، وعلى الإنسان أن يقابل ذلك النظام الأخلاقي بمراعاته وتطبيقه بلسان العلوم الكونية؛ فالله تعالى يعلمنا تلك العلوم بلسان القرآن الكريم، ويربط تطوّرنا في حياتنا الشخصية وعالمِنا الروحي والقلبي واللدني بفهمنا للقرآن؛ فنحن إذ نقول فيما لا يقلُّ عن أربعين مرة كل يوم في صلواتنا: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ (سورةُ الفَاتِحَةِ: 1/1) نستحضر هذه النقاط التي تَطَرَّقْنا إليها آنفًا، ونعلن مرةً تلو الأخرى بأننا سنظل مخلصين لعهدنا.

و. التخلق بأخلاق الله

إن الله تعالى يحرّك كل ما في الكون بدءًا من كبرى المجرات العملاقة وانتهاء بأصغر جزيئات خلايا جسم الإنسان ويجعل بين الإنسان وبين هذه العوالم علاقة دائمة.

ويمكن أن نستنبط من هذه التصرفات الإلهية التي تَسُوق كلَّ شيء إلى الكمال، ونستخرجَ من هذه السنن الإلهية ما يلي:

أن نتخلق بأخلاق الله، وأن نفهم الأمور التي يريد منا أن نفهمها في العالم الخارجي (الآفاق) والداخلي (الأنفس) وكأنهما وجهان لحقيقة واحدة، يكمل بعضهما البعض الآخر، وأن نستشعرها ونقوّمها من هذا المنظور، وأن نحاول رَبْطَ كلِّ ما نحس به في هذا المجال بالقرآن الكريم ونشعرَ بها من خلاله. أجل، إننا إذا طبقنا بشكل كامل في حياتنا العملية ما وُضع في القرآن الكريم على أنه نظام حياة فإن حياتنا العامة أيضًا ستنتظم إلى حد معين، بتوفيق من الله وعنايته، وحينذاك سنتخلص من الازدواجية المقيتة.

وإننا نعتقد أن كل الاختلالات التي نعيشها في حياتنا يَكمُن وراءها انعدامُ مثل هذه النظرة الشمولية والتقويمِ الكلي، وأعزو مُراوحتنا في مكاننا على الدوام إلى مثل هذه الازدواجية، ولا ينخدعنَّ أحد بما حقَّقَتْه الدولُ المتقدمة الراهنة من التطورات التقنية والتكنولوجية؛ فإن حالتهم هذه ما هي إلا كالبرق الخاطف الذي يلمع فيغيب، وسيَظهر مغزى كلامي هذا بشكل أوضح بعد سنوات قليلة عندما نسمع أصوات التصدعات والانشقاقات التي ستتعرض لها بعض الأنظمة الشمولية[93].

ومن غير الممكن أن يُعمّر أيُّ نظام غير فطري وغير متوافقٍ مع القوانين السارية في الكون، فما يُلاحظ في الأمور المناقِضة للفطرة من بعض أمارات الخير فيها ليس شأنها إلا كشأن معالجة

[93] هذه الكلمات قالها المؤلف سنة (1976-1977م) على كرسي الوعظ بجامع في بلدة "مانيسا". (الناشر)

الجسم ببعض العقاقير التي تضغط على بنيته فتُنتج في الأمد القصير نوعًا من الحالة الصحّيّة المؤقتة، ولكن هذا التأثير لن يدوم طويلًا.

بل هي -بالأحرى- تُشْبه حالةَ ذلك المريض الذي يَفتح عينيه لمدة خمس دقائق فيبعث الفرحَ والمسرةَ في نفوس ذويه، ولكنه فور ذلك يرتحل إلى العالم الأخروي، فمثل هذه الأنظمة تبدو براقة وجذابة ولكنها أسست على أسس غير طبيعية ومناقضةٍ للفطرة، لذا فهي لن تُعمَّرَ طويلًا ولن تأتي للإنسانية بالسعادة.

وعلى النقيض من هذا، هناك دول ما زالت قائمة لأنها تأسست على مراعاة القوانين الجارية في الكون، وهذه هي الدول التي تتمتع بمستقبل واعد.

ومنذ زمن معين أصبح المسلمون ينكرون السنن الكونية والشريعة الفطرية إلى جانب تركهم العملَ بالدساتير القرآنية، فصاروا عرضة للذلة والهوان ومن أحطِّ المتخلفين، ولن يتخلصوا من هذا الوضع المزري الذي وقعوا فيه إلا بأن يتركوا الكسل والخمول ويجمعوا بين قراءة الآيات القرآنية والآياتِ الكونية قراءة جيدة؛ لأن كُلًّا من الكتاب المسطور والمنظور يحملان حقيقة واحدة، فكل كتاب يُكتب حول عالمنا الداخلي أو الخارجي، أو حول الوجه الآخر للكون أو حول ظاهر الكون فهو تفسير للقرآن من هذه الناحية، فإذا اعتصم بنو الإنسان بالقرآن واستمسكوا به فسيحوِّلون دنياهم إلى فردوس ويجعلونها مَعْبَرًا مؤدّيًا إلى الجنان.

ز. النظام التربوي القرآني

إن من يَدْرُس النظام التربوي القرآني فسيلاحظ أنه يفوق بكثيرٍ سائرَ النُّظُم التربوية الأخرى بشكل لا يقبل المقارنة بينه وبينها؛ لذلك ينبغي إرجاع هذا الأمر إلى كونه "كلام الله"، فإذا لم تتغذّ الأنظمة الأخلاقية والتربوية بالقرآن ولم ترتبط بأسلوب القرآن فلن تكتب لها الديمومة مهما بدت نيِّرة.

فهناك تيارات وأيديولوجيات بدت للناظر مشرقة ناصعة ولكنها سرعان ما بَهتت وخفتَتْ وانطفأت، وأما ما بقي منها فقد خضعت لعمليات الإصلاح والتطوير وأعيد النظرُ فيها مرات عديدة، وهذا خير شاهد على أنها غير كافية لحل مشاكل البشرية وغير قادرة عليها.

وبالتالي فإنه ما إن يولد نظام فكري جديد إلا ويموت في وقت قريب، وقد يكون بعضها رائجًا بين الناس اليومَ ولكنه عما قريب سيَكسُد ويعفو عليها الزمن، وأما المبادئ والدساتير النابعة من علم الله الشامل، التي لخصها القرآن الكريم؛ فإنها ما زالت تحافظ على قيمتها وطراوتها، وستستمرّ كذلك إلى الأبد.

إن المجتمعات التي تتعرض فيها الأخلاق الفردية والعائلية للإهمال لن تُكتب لها الديمومة ولن تكون مجتمعاتٍ سليمة وقابلةً للتقدم والتطور؛ لذلك فإننا نريد هنا أن نركز بشكل خاص على كيفية تناول القرآن الكريم للفرد من الناحية الأخلاقية، فإن صلاح الأسرة والمجتمع منوط باستقامة الفرد وحُسنِ أخلاقه، وإن الطغاة الذين يجنحون إلى الدكتاتورية والذين ينظرون إلى جموع الناس وكأنهم قُطعان، لا يرتاحون لوجود أفراد متعلمين متمتعين بحرية الإرادة، بل يفضِّلون أشخاصًا طيِّعين تسهل إدارتهم كالخدم والعبيد، ولا يهمهم ما يعتري الناسَ من الانحلال الأخلاقي، بل غاية همهم أن يُطِيعَهم الناسُ وينقادوا لأفكارهم المتعفنة.

إن امتلاك الفرد إرادةً قوية لذو أهمية قصوى لرُقيّه إلى مستوى حياة منتظمة، وهذا منوط قبل كل شيء بابتعاده عن الشرك وعن الأمراض التي تفوح منها رائحة الشرك، وتَغَلُّبِه على خوف الموت ولقمةِ العيش، ووصولِه إلى مستوى الإحساس بوصاية الله، وشعوره بأن وجوده ما هو إلا ظلٌّ لِظلِّ وجوده تعالى، وحفاظه على هذا الشعور والإحساس الراقي.

ولا بدّ لتحقيق هذا العمل الضخم من أن يكون هناك مرشدون مستوعبون لروح القرآن؛ فإن هذه المهمة ما أُنجزت إلى يومنا هذا إلا بأناسٍ بهذا الحجم من أرباب المستوى، وخيرُ من قاموا بها على وجه كامل والممثلون المثاليون لهذا الأمر -بطبيعة الحال- هم الأنبياء والمرسلون وعلى رأسهم سيد الرسل محمدﷺ، وسارَ أبطالُ الإصلاح مِن بعده على نهجه في إصلاح المجتمعات.

وما لم يتم التغلب كليًّا على الأمراض التي تفوح منها رائحة الشرك، ولو لم يكن هناك استقلال كامل واستغناء تام عما سوى الله فلن يمكن إصلاح الإنسانية بتاتًا؛ فإنه ليس هناك موجود ينبغي محبته لذاته أو مخافتُه أو إطاعته أو الالتجاء والاحتماء به غيره ﷻ، ولن يتسنى الخلاص من جميع أنواع الشرك إلا بقبولٍ وإذعانٍ من هذا القبيل، وإذا كان الإنسان يَحمل في قلبه بعضَ المخاوف تجاه الناس، أو يعيش خائفًا على رزقه، أو يتوجس من الموت ودخولِ القبر فإن هذا يدل على أنه لم يتغلب بعدُ على كثير

من المسائل في قضية الشرك.

ح. الدعوة إلى التوحيد

إن الطريق الوحيد إلى التخلص من كل أنواع الشرك وشوائبِه هو أن يتوجه الإنسان موحِّدًا خالصًا إلى التوحيد في الفكر والعمل، ويُفْرِدَ الله تعالى في كل الأمور، ولندع المشركين ونتساءل: ما مدى فهم المؤمنين لهذه الحقيقة وتبنّيهم لها؟

لقد بيّن الله هذه الحقيقة التوحيدية العظمى على أكمل وجهٍ وأشملِه في قوله: ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ۞ اللهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ (سورة الإِخْلَاصِ: 112/1-4).

أجل، إن الله أحدٌ، وأحديته ليست نسبيّة، بل هي ذاتية وحقيقية؛ أما واحديةُ "الواحد" فواحدية إضافية بالنسبة إلى الاثنين، وأما "الأحد" فهو فرد لا يُتصور في مقابله "الاثنان"؛ بمعنى أنه لا يُتصوَّر له ندٌّ أو مثيل، فهو "أحد" ليس قبله ولا بعده شيء، ولا يَستند إلى شيء، بل إليه يَستند ويرجع كلُّ ما يُطلق عليه: واحد، أو اثنان، أو ثلاثة.

﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ۞ اللهُ الصَّمَدُ**﴾؛ أي الله هو الوحيد الذي يحتاج إليه كل شيء، ويرفع إليه الجميعُ أكفَّ الضراعة، وهو الذي يطرق بابه كل سائل بلسان الحال والوجدان والمشاعر، فمهما اعتمد الإنسان على شيء سوى الله وخضع له فسيرى أنه قاصر في هذا المجال؛ لأن قوله تعالى: ﴿**اللهُ الصَّمَدُ**﴾ يفيد هذا المعنى، أي إنه لا يحتاج إلى شيء، بل هو الذي يقضي الحوائج كلها، وهو الوحيد الذي يسمع ويستجيب ويلبي نداءَ مَن يتوسل إليه ومن لا يتوسل.

أجل، إنه ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ**﴾ وعلاقته بالأسباب عبارةٌ عن ستارات بينه وبين تصرفاته تعالى، وليس وراء ذلك تأثير حقيقي لها.. فهو سبحانه موجود وراء ما وراء الوراءات، لم يلد ولم يولد، وليس له أبوان ولا أولاد، وهو منزّهٌ ومبرّأٌ من كل هذا القبيل مما يوصف به المخلوقات ويُعدّ نقصًا بالنسبة له ﷻ عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وهذه الآيات تُبيِّن مدى قيمة الأسباب والطبيعةِ والمادةِ والطاقةِ، كما أنها تضيف التأثير الحقيقي إلى الله وحده وتُذكِّر بلزوم اتخاذ الموقف تجاه الشرك وكل ما ينبعث منه رائحة الشرك، وأنه إنما ينبغي مراعاة الأسباب؛ لأن الله أمر بها، وتُنبِّه في ضمن ذلك إلى أنه لا بد من ربطِ كلِّ ما يَجري في الكون من الأحداث بذاته تعالى في كل الأحوال والأوضاع.

أجل، يجب على المؤمنين أن يُصغوا ويستمعوا إلى هذه السورة التي تعبر عن هذه الحقيقة العظمى فتطهر قلوبهم وضمائرهم من جميع أنواع الشرك وشوائبه، وتجعلها طاهرة نقية.

إنه من المُتَحَتِّم على المؤمنين خصوصًا في هذا الزمان الذي سهُلت فيه طرائق الحصول على العلم وأصحبت وسائل النشر المكتوبة والمرئية التي تَنشر الحقائق القرآنية متاحةً سهلةَ الوصول؛ أن لا يتساهلوا في قضية حقيقة التوحيد، وأن يستغلوا هذه الإمكانات التي أتاحها الله تعالى في سبيل الإيمان بالله ومعرفته ومحبته.

فالقرآن الكريم يوجه مثل هذه الدعوة السامية إلى اليهود والنصارى -وإن لم يستوعب المشركون ذلك- فيلفت أنظارهم وأنظار أهل العلم من بينهم فيقول: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: 64/3).

"أيها النصارى واليهود وخاصة العلماء منكم، تعالوا نتّفق فيما بيننا على كلمة مشتركة بيننا؛ أي على توحيد الله، فإن الاتفاق في حقّ الله الذي يحتاج إليه كل شيء هو من القضايا الحيوية بالنسبة لنا ولكم، فهلمَّ إلى ترك عبادة غير الله، وعدم إشراك غيره به"؛ بمعنى ألّا نكون عبيدًا لغيره تعالى، ولا نبحثَ عن ندٍّ أو شريك لمن ليس له في ذاته ندٌّ أو شريك؛ لأنه هو وحده الذي يمسك بالكون

ويديره في قبضة تصرفه، وكل الأنظمة والكائنات بمثابة الذرة تجاه عظمته وألوهيّته، وبالتالي فإذا كان -سبحانه- ليس له ند أو شريك وإذا كنّا -كباقي عمومِ الكون- محتاجين ومدينين له سبحانه، فتعالوا لا نسرف على أنفسنا بأن نتخذ له في خيالنا ندًّا أو شريكًا، وعلينا ألّا ننحرف عن طريق الحق بأن نتخلى عن الله ويتخذ بعضُنا بعضًا أربابًا؛ فإننا إذا عبدنا غيره، وأعرضنا عنه باحثين عن الفوز والفلاح في وديان أخرى فإنه لن تقوم لنا قائمة، فتعالوا نتوجه بكلّيتنا إلى الله".

وإذا أعرض هؤلاء رغم كل هذا التحذير والتنوير، فقولوا لهم: "اشهدوا بأنا مسلمون"، وعليكم بعد كل هذه التحذيرات والتنبيهات والتنويرات وإشهاد العقل، أن تُشهِدوا وجدانهم وضمائرهم على أنكم أدّيتم المهمة، ثم انسحبوا إلى الوراء قليلًا.

إن الله تعالى في هذه الآية الكريمة كما يوجِّه النداء إلى جميع أهل الكتاب، ينادي كل أهل العلم والذين يجادلون في سبيل الكتاب ويبنون مؤسّسات في إطار الكتاب من الأجيال القادمة إلى يوم القيامة قائلًا:

"يا أهل العلم، تعالوا نتّفق في أمر قد تشاركنا فيه وأدركناه بقلوبنا وتقبلَتْه ضمائرُنا وصدَّقت به، وهو حقيقةُ أنه ليس هناك معبود مطلق سوى الله، فإننا مهما اشتغلْنا بفرعٍ من فروع العلوم، فإن هذه العلوم إذا لم تستند في نهاية المطاف إلى الله الذي هو الواحد الحقيقي والواجبُ الوجودِ، فلا مفرّ أننا سنلاحظ أنها بدون أصول وجذور.

والحال أن أصحاب القلوب المؤمنة والقرآنية حينما يتناولون القضايا التي تتناولها العلوم فإن أرواحهم ووجدانهم وضمائرهم تستشعر بها بشكل مختلف تمامًا، فإذا حُلت المشاكل في هذا المجال وتم تخطيها، فستنجلي تلقائيًّا تلك القضايا الروحية والفكرية والعلمية التي كانت متأزّمة.

أجل، إن تخلُّص العلوم من الانحراف منوطٌ بتعرفها بالقرآن ضمن نظرة توحيدية من هذا القبيل.

ط. تربية الأفراد في القرآن الكريم

وكما يفهم من الآيات التي أوردناها[94] في الفصول السابقة فإن القرآن الكريم يربي الفردَ وينقِّي قلبه ووجدانه من الشرك وشوائبه، فيَفتح له الطريقَ المؤدي إلى الإنسانية الحقة.

أجل، إن الذين تلقّوا التربية في ظلّ القرآن يتخلصون من جميع أحوالهم السابقة وتصبحُ كل مشاعرهم وأحاسيسهم متوجهة إلى الله ومنصبة في تحقيقِ مرادِه ورضاه.

ولن يصل الإنسان إلى التوحيد الخالص إلا بتركه الكلي للشرك وما تنبعث منه رائحة الشرك، فمن الصعب جدًّا أن تتحدّث عن الحقيقة لمن لم يتغلب على الأفكار الشركية الظاهرة أو الخفية.

أجل، إن هناك حاجة ماسة إلى تنقية الضمائر وتخلُّص الأدمغة من الأحكام المسبقة وتنمية القلوب بحبّ الحقيقة والتوق إلى البحث العلمي.

وقد ركزنا على الحديث عن ضرورة ابتعاد الإنسان عن الشرك وما يُشم منه رائحة الشرك، ولزومِ التوجه إلى الله باعتقادٍ خالصٍ نقيّ؛ فإن أصحاب الضمائر النقيّة التي استطاعت تحقيق مثل هذا التوجه، يتعلّقون بالتوحيد من صميم قلوبهم، حتى إنهم يفرون مما فيه أدنى احتمال الشرك، كما يفر أحدنا من الحيات والعقارب الفتاكة.. وقد أدى هذا الأمر ببعض الصالحين إلى أنهم كانوا يغتسلون في بعض المواقف، وهذه العملية قد تكون من باب الأمور غير الموضوعية والتصرفات الشخصية، كما يمكن ربطها بما تعارف لدى الناس من الغُسل، ويمكن لنا أن نلخص هذا الأمر كما يلي:

إن الإنسان قد يَغفُل عن ربه أثناء تلبيته أذواقه الفانية، ولكنه حين يتدارك نفسه بصدق يؤوب إلى ربّه أوبةً صادقة لعلها تكون كفارة لِمَا بَدَرَ منه، ومع هذا يَغسل جسمه أيضًا حتى تكتمل لديه النظافة والنقاء، بل إن مِن عباد الله الصالحين مَن إذا اعترته غفلةٌ من دون إرادة منه ولو لحظة واحدة يتوجّه إلى ربه قائلًا: "اللهم إذا كان الاغتسال كفارةً عن الغفلة الإرادية، فإني أريد الأوبة إليك من

---

[94] نقصد سورةَ الإخلاص، والآية الرابعة والستين من سورة آل عمران.

هذه الغفلة التي بدرت مني من دون إرادة". أجل، إن أولياء الله يكونون حذرين ومتيقّظين دائمًا تجاه فكر الأغيار إلى هذا الحد.

وقد كان الرسولﷺ صاحب نظام ومنهج، وقد طبق القرآنَ الكريمَ في حياته العملية بتعليم من الله، وقد مورس عليه الضغط وأُخرج من مكة، ولكنه لما رجع إليها ودخل الكعبة قائدًا منتصِرًا، أحنى رأسه تواضعًا حتَّى إنَّ عُثْنُونَهُ لَيَكَادُ يَمَسُّ وَاسِطَةَ الرَّحْلِ[95].. وهذا يدل على تمثّله لانمحاء الذات وإرجاعِ كل الإنجازات والانتصارات إلى الله سبحانه وتعالى.

يحكى أن عمر بن الخطاب بينما كان يخطب الجمعة إذا به يتوقف ويقول: "أيها الناس، لقد رأيتني وأنا أرعى غنم خالات لي من بني مخزوم، نظير قبضة من تمرٍ أو من زبيب" ثم ينزل هذا الخليفة من على المنبر بين دهشة الناس واستغرابهم، فما علاقة هذا الكلام بخطبته؟ يتقدم أحد الصحابة، وهو سيدنا عبد الرحمن بن عوفرضي الله عنه، ويقول له:

"يا أمير المؤمنين، ما أردت بهذا الكلام؟ وما علاقته بالخطبة؟ وما مناسبته؟ وما سببه؟"، فيقول عمر: "ويحك يا ابن عوف، خلوت بنفسي فقالت لي: أنت أمير المؤمنين، وليس بينك وبين الله أحد، فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أعرفها قدرها".

ورُويَ عن عروة بن الزبيررضي الله عنه قال: رأيت عمر بن الخطاب على عاتقه قربة ماء فقلت: يا أمير المؤمنين، لا ينبغي لك هذا فقال: "لما أتاني الوفود سامعين مطيعين، دخلتْ نفسي نخوةٌ (شيء من العُجْب)؛ فأردت أن أكسرها".

فسيدنا عمررضي الله عنه الذي كان من المقربين كان يخشى من أدنى فكر أو إحساس يختلج قلبه أن يكون انحرافًا عن الجادة، فيُعلنُ الحرب عليه كما هو شأن المقرّبين.

---

[95] ابن هشام: **السيرة النبويّة**، 405/2.

وذات مرة كَتب عمر بن عبد العزيز رسالة بليغة وجميلة ليرسلها إلى أحد أصحابه، ثم ما لبث أن مزقها خشية أن يقع في نفسه شيءٌ من الغرور أو الإعجاب بجمالِ ما كتبَ، فلما سئل عن ذلك قال: "وجدت في نفسي شيئًا من الغرور فمزقتها".

أجل، إن هذا الدين من القوّة بحيث استطاع أن ينقّي مشاعر من هو على رأس قمة الدولة ويخلّصها من شوائب الشرك، كما أن الرعية لم تكن مختلفة عنه في صفاء الأفكار ونقاء المشاعر.

لقد مرت بهذه الأمة حقبة مباركة كان فيها المجتمع يستمدّ طاقته في تنمية مواهبه ممن يرأسونه من الحكام، فوصل إلى مستوى يستحيل تصويره حتى في أدبيات المدينة الفاضلة.

فما أسمى تلك المجتمعات التي أصبح أفرادها أنقياء خالصين من الشرك وشوائبه، وما ألذ العيش بين ظهراني مثل تلك المجتمعات!

لقد اهتم القرآن الكريم اهتمامًا بالغًا بتنشئة أفراد أصحاء حتى تتكون منهم أُسَر ومجتمعات سليمة، وفي هذا السياق أتى بأوامر وتوصيات عديدة، حتى لكأنه رَبَط كلَّ شيء بإصلاح الفرد لنفسه ومراقبتِه لها، وقولُه تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: 105/5) يُذكِّر بهذه الحقيقة ويوجِّه المؤمنَ إلى وظائفه ومسؤولياته.

إن الإنسان بدلًا من انشغاله بما في الآخرين من الضلال والكفر والكفران، عليه أن يركِّز على مراجعة نفسه متسائلًا: هل هو على هدى من الله أو لا؟ وأن يضع نفسه على المحك: هل هو على الاستقامة أو لا؟ ولعل هذا هو الطريق الأقصر إلى أن يكون من الفائزين لدى الله.

أجل، إنك ما دمت على الحق فلن يضرّك ضلال الآخرين وكفرُهم وعنادهم، والقرآن الكريم ينبه بمثل هذه الآيات إلى الأمور التالية:

1- إذا كان الآخرون على الكفر والكفران فلا ينبغي للمسلم أن يقبع في زاويته منشغلًا بعباداته الشخصية ومكتفيًا بأوراده وأذكاره، بل عليه أن يكون له طريق ومنهج مرتبط بالمبادئ الأساسية بدلًا عن سبل الضلالة السلبية، حتى يواصلَ نشاطاته في هذا الإطار.

2- إن واجب المسلم أن ينشر القيم الكونية المرتبطة بجذوره الروحية والمعنوية، ويوصلها إلى القلوب المحتاجة إليها، وبهذه الطريقة سيكون منقذًا للأرواح البائسة والمكتوية بنار الفراغ الروحي، وسيهيئُ لها بيئة مناسبة تمنحهم التنفّس المعنوي.

3- على المسلم أن يحمل عزيمة التغلب -بإذن الله وعنايته- على كل ما يعترض طريقه، ويصممَ على المسير في الطريق الذي يراه صحيحًا من دون أية زعزعة.

ويُفهم من هذا كله أن القرآن الكريم يركز قبل كل شيء على سلامة طبيعة الفرد وحسن أخلاقه، وكأنه يَبني كلَّ ما سوى ذلك على هذا الأساس، كما يدل على أنه ليس من الوارد أن تتكون أمة أو مجتمع من أفراد لا يتمتعون بالاستقامة في حياتهم الشخصية، فإذا كان الشخص غير مخلص في صلاته وعباداته وتوجهه إلى الله وتعامله مع الناس فلن يأتي بخير للمجتمع الذي ينتسب إليه.

والرسول ﷺ يلقي الضوء على هذا الموضوع من هذه الناحية فيقول: "**مَنْ صَلَّى صَلاَتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ**"[96]، والمفهوم المخالف لهذا الحديث هو أنه إذا كان الشخص لا يصلي صلاتنا ولا يستقبل قبلتنا ولا يأكل ذبيحتنا فليس له ذمة عند الله ورسوله، ففي أيامنا هذه هناك كثير من الذين نعرفهم قد دخلوا ضمن هذه الفئة واسودّ عالمهم القلبي من ناحية الاعتقاد، وواجب هؤلاء علينا أن نقيم معهم حوارًا أكثر حميمية وننقل إليهم مشاعرنا القلبية.

إننا نعتقد بأن الإنسان مهما كان على مستوى من الرفاهية فقد لا تجلب حالته هذه له السعادة، إذ لا يمكن أن ينال الإنسان السكينة والاطمئنان ما لم يستنِر قلبه ووجدانه بالقرآن وبالإيمان بخالقه. أجل، إن أكبر غاياتنا هو أن نجعل الجميع يتعرّف على جوٍّ إيماني يبعث فيهم الحياة، وأن نكون وسائل لتحقيق السكينة لهم في الدنيا، وإيصالهم إلى رضا الله تعالى في الآخرة.

---

[96] صحيح البخاري، الصلاة، 28.

وحينما يراد تحقيق أي مشروع فلا بد له من بنية تحتية مناسبة له، فمثلًا إذا كنا نفكّر في جعل كل الناس يستفيدون مما حبانا الله به من نعمة الإيمان والقرآن، فعلينا أن نمزج بين العلوم الدينية والعلوم الكونية، ونُثبتَ جدارتنا في العلوم والتكنولوجيا، حتى نمحو من أذهان مخاطبينا ما عَلِقَ بها من أننا أمة متخلفة تحتاج إلى من يأخذ بيدها حتى تقف على قدميها، وبذلك نكون قد أَفَقْنَا من غفوتنا ورجعنا إلى صوابنا.

أجل، إن هيمنة ما يأتي به الإسلام من الأمن والسعادة على القلوب يعتمد -إلى حد ما- على ما يحقّقه المسلمون من التطور المادي والعمق الروحي، فأهم ثمار هذا العمق والتطور هي السعادة الأخروية، وإلى هذه الحقيقة يشير قول الله تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَـهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى**﴾ (سورة النازعات: 40/79)؛ بمعنى أنه إذا كان الشخص يحمل في قلبه كل لحظة مخافةَ المثول بين يدي ربه للحساب، ويعيش في حياته الدنيا وهو يفكر ويشعر بأن الله يراه ويراقبه، فهذا في طريقه إلى الجنة، وسيحظى بالجنة في آخرته، وهذا في الواقع يعني أنه في مأمن من أمره في دنياه وآخرته.

فأمثال هذه الآيات تدل الإنسانَ على طريق الفوز بالجنة فتثيرُ في قلبه الشعورَ بالسعادة، كما أنها تَحُدُّ من رغباتِه النفسانية والشيطانية فترُقِّيه إلى مستوى الإنسان القدوة، فهناك الكثير من هذا القبيل تطمئن أرواحهم وتسعد للغاية حينما يجري الحديث عن البعث في الآخرة ولقاءِ الله فيه ورؤية جمال الله ذي الكمال، وأما من كان فاقدًا لمثل هذا الفكر والشعور فإنه سيُحرم من السعادة الأخروية ولن يحظى بالسكينة والسعادة الدنيوية أيضًا.

أجل، إن الإنسان إذا استقرت مخافة الله في قلبه وتعمق عنده الشعورُ بالمحاسبة والإحساسُ بالمسؤولية، فإنه سيضبط نفسه، وسيُولِي الأهمية القصوى لئلا يكون عنصرًا مضرًّا في الحياة الاجتماعية، وسيحاول ألا يخطئ تجاه الآخرين؛ لأنه سيتحرك دائمًا وهو واعٍ بأنه تحت المراقبة الإلهية، وأما المجتمع الذي لم يَصِلْ أفراده إلى هذا المستوى فمن الصعب إيقاظ الشعور بالسعادة الأخروية لديه كما يصعب تحفيزه إلى الطمأنينة الدنيوية، ولعل أقصر الطرق الواقعية لحل هذه القضية هو تنشئة أجيال مرتبطِين بمشاعرِ مخافة الله ومهابته، فالمجتمعات التي لم تتم ترقية أفرادها

إلى هذا القوام ستَبقَى كلُّ المشاريع التي تُخطَّط لها في المستوى النظري ولن تتحول إلى واقعٍ عملي بتاتًا.

وليس الأمر منحصرًا في الشباب، فإن الشيوخ أيضًا لن يَسعدوا إلا بفكر الحظوة بلقاء الله ومشاهدة جماله، فإذا كان الشيخ يحمل مثل هذه العقيدة فمهما كبُرَ سنُّه وتقوّس ظهرُه وشابَ رأسُه، فإنه يستطيع أن يظلّ صامدًا مثل شاب قوي، ينتظر عاقبته السعيدة بقلب مفعم بالسكينة والطمأنينة.

أجل، إنه سيقول: "لقد دخلت هذا الطريق ليؤدّي بي إلى لقاء الله، وها قد اقترب موعد اللقاء به ﷻ"، فيعيش بأفكاره ومشاعره سعادةَ معيةِ الله، ويتخيلُ أنه في الجنة قبل أن يدخلها، وأما إذا لم يتعرّف مثل هذا الشيخ الكبير على الجو الإيماني الفسيح، فإنه سيظل قلقًا متوجّسًا من الموت، وستتحول حياته كل يوم إلى كابوس مؤلم.

فالذي يقع على عاتقنا هو أن نجعل كلّ واحد من الشبان والشِّيب يُحسّ في داخله بنشوة الإيمان بالله واليوم الآخر، وأن نَغمر قلوبَهم المحتاجةَ إلى السكينة بالمسرة والحبور، فإذا تناولنا الفرد بهذه الطريقة وذكَّرناه بإنسانيته وجعلناه يواصل حياته -بتوفيق الله وعنايته- واعيًا بثقل هذه المسؤولية الكبيرة فستعود الأمور إلى سيرها الطبيعي، وسيجد الفردُ والمجتمع أنفسهم في جو غامر من السكينة والهدوء.

وقد ذكرنا مرارًا وتكرارًا أن القرآن الكريم والرسول الكريمﷺ قد أسسا معظم إرشادهما وتبليغهما على الفرد، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ**﴾ (سورة الْمُدَّثِّر: 38/74-39).

أي إن كل إنسان مرهون بأعماله، وكأن ما اكتسبه من أعماله السلبية تجعله مكتوف اليدين والرجلين، باستثناء أصحاب اليمين الذين يتَّسمون باليمن والسعد، ويأخذون صحائف أعمالهم بأيمانهم؛ فإن هؤلاء وإن كانت أنفسهم رهينة إلا أنهم قد حرروها

من هذا الرهن بالإيمان والعمل الصالح.

أجل، إن النفس مرهونة بما تعمل، ولا سبيل لأحد إلى الخلاص من هذا الأمر؛ ولن ينتفع الإنسان بما كان لدى الأجداد من الصيت والشهرة وما يملكه من المال، ولا بانتسابه إلى كبار عباد الله الصالحين من دون رابطة قلبية أو روحية معهم، وإلى هذا أشار الرسول ﷺ حينما خاطب قبيلته وقومه -وبالأحرى أمته في شخص قبيلته- قائلًا: "**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ** -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- **اشْتَرُوا أَنْفُسَكُم، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**..." إلى آخر الحديث[97].

إن كل أحد سيَلقَى ربه بما عمل في الدنيا، وسيُعامَل على حسب عمله، ومن هذه الناحية فإن الصحة القلبية والسلامة الروحية تَحظيان بالأهمية القصوى، ولذلك نرى الرسول ﷺ ضيَّقَ الدائرةَ شيئًا فشيئًا في الحديث السابق إلى أن قال: "**وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**"، ثم توجَّه بخطابه إلى من هو أقرب إليه ألا وهي فلذة كبده وثمرة فؤاده سيدتنا فاطمة رضي الله عنها قائلًا: "**وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**"، وهكذا وضَّح الأمر بأنصع أشكاله ليُذكِّر كلَّ أحد بمدى أهمية المسؤولية الفردية.

أجل، يجب على كل إنسان أن يقوم بمراجعة نفسه والبحثِ عن التخلص من هذا الرهن على أملِ أن يأخذ مكانه في الصفّ خلف سيدنا محمد ﷺ ضمن المنعتقين؛ لأنه ﷺ هو الذي طبق المشاريع والخطط المتعلقة بهذه القضية، ونبَّه الناسَ إلى مسألة "فك الرهان"، وحَقَّق لها القبول الحسن لدى القلوب، فكلنا مدينون له، كما قال الشاعر محمد عاكف:

وكُلُّ ما يَملكه العَالَمُ هبة منه وعطاء
والمجتمع كله مدين له وكذلك الأفراد سواء
والبشرية برمتها مدينة لهذا المعصوم ذي الأنوارِ
اللهمَّ فاحشرنا يوم العرض معه بهذا الإقرار

---

[97] صحيح البخاري، الوصايا، 11؛ صحيح مسلم، الإيمان، 351.

فالشاعر المرحوم إذ يؤكد في شعره هذه الحقيقة يذكِّر بأنه ﷺ وسيلة النجاة، ولكن إلى جانب هذا لا بد من التذكير بأن كل فرد سيقدِّم حسابه بنفسِه منفردًا، فهذا أمرٌ مهمٌّ في باب فهم روح الدين.

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (سورة الأَنْعَام: 164/6) يدل على أنه لا يُدان أحد بما اقترفه غيره، وأن كل شخصٍ مسؤولٌ عن نفسه، ولا يدخل أحد النارَ بذنوب الآخرين كما أنه لا يدخل أحد الجنة بحسنات غيره، وكل فرد يقع على عاتقه مسؤولياتٌ، ولا يصبح الشخص إنسانًا فاضلًا إلا بأداء هذه المسؤوليات، كما يدل عليه قوله تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (سورة الْمُدَّثِّر: 38/74).

وهذا المضمون يتطابق تمامًا مع قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۞ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۞ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ (سورة النَّجْم: 39/53-41).

ي. تربية الأسرة في الإسلام

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (سورة الزُّمَر: 41/39).

في هذه الآية الكريمة يخاطب الله تعالى رسوله قائلًا: أيها الحبيب ذو الشأن، من حازَ الهداية فقد سلك طريقًا ينفعه، ومن خرج من هذا الطريق الصحيح وحاد عنه فقد سلك طريقًا سيكون في نهاية المطاف مضرًّا به.

أجل، إنَّ مَن توجَّه إلى الهداية فسيكون مستخدِمًا لإرادته في الخير، وفي المقابل سيُشعل الله تعالى في قلبه نور الإيمان ويوصله إلى الهداية، وأما الذين يُصرّون على السلوك في طريق الضلال والانحراف فيقول الله لرسوله فيهم: "أيها الحبيب، إنك لست وكيلًا عليهم"، وبهذا يحدد الإطار لحدود صلاحيات الرسول ومسؤولياته، كما أنه يبعث السلوان في القلب النقي لرسوله ﷺ، وقولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (سورة التَّحْرِيم: 6/66)، يربط بين هذين الموضوعين.

يعني -والله أعلم- لا تَجعلوا أنفسكم وأفراد أسرتكم وقودًا لنار جهنم، ووجِّهوهم إلى الاستقامة في الأفكار والمشاعر. أجل، إذا تحقق هذا فإن كل فرد من أفراد الأسرة سيواجه ذاته ويراجعُ نفسه فيحظى بالاستقامة.

إن الأسرةَ مهمّةٌ جدًّا لتكوُّنِ مجتمعٍ سليم، فلن تجدَ أمةً سعيدة تعرّضت للانحلال الأُسري والتفكّك العائلي، ولن تُكتبَ الديمومة للمجتمعات التي خاض فيها الأبوان في السفاهات وأهملوا واجباتهم تجاه أولادهم وتركوهم مشردين عديمي الإحساس والشعور، ومهما عاش المجتمع مدةً بدون إحساس وشعور فلن يصمد على الدوام، وليس له أن يتقاسم مع الأمم الأخرى نِعَمَ الدنيا وإمكاناتها، فنحن من هذا المنطلق نؤمن بأنه لن تبقى الأسرة ولا المجتمع في سلامة إلا بمقدار ما تكون فيها العلاقات بين الأبوين وأولادِهما، والزوجِ مع الزوجة مبنيةً على أسسٍ سليمة ومتينة.

فمن الواضح أنه إذا لم يؤدِّ الوالدان واجباتهما تجاه أولادهما، أو قصَّر الأولاد في الوفاء بواجباتهم تجاه الوالدين، فلا مفرّ من أنه ستحدث بينهم مشاكلُ جرّاء ما انحلّ من أواصر المحبة والاحترام، ولا بد لحل هذه المشكلة من أن يؤدّي كلُّ فرد ما يقع على عاتقه حقّ الأداء، وأن يحاول تنشيط ما بينه وبين ذويه من روابط المحبة والاحترام، وأن يقوم بما يَكْفَل الحفاظ على هذه الروابط.

ولم يتعرض الآباء والأمهات في عصر من العصور لإهانةٍ من قِبَلِ أبنائهم وأحفادهم مثلما يتعرضون له في عصرنا، فقد أصبح الآباء والأمهات يُعتبرون في البيوت وكأنهم من العناصر الزائدة، فيُودَعون في "دُور رعاية المسنين" في مرحلة هم فيها بأمس الحاجة إلى الرعاية والمودة من أولادهم وأحفادهم، ولا يعني إيداعُ الوالدَين في هذه المراكز والدُّور إلا التخلصَ منهما عن طريق وضعهما في سجون لها أبواب ونوافذ ولا ينقُصها سوى القضبان الحديدية.

وقد يبدو من هذه المعاملة وكأن الأولاد يؤدّون واجبهم تجاه أبويهم باحترام، ولكن الحقيقة هي أن الأولاد يقولون لهما بلسان الحال: "اذهبا ودبِّرا أمركما، ولا تكونا عائقَين أمام أخذِنا حظنا من ملذات الحياة".

ومهما سمَّينا هذه المراكز بأسماء زاهية حتى نبعث الراحة النفسية في قلبيهما فلن يغير هذا من الواقع شيئًا؛ فإن هذه المعاملة في حدّ ذاتها من أكثر القرائن دلالةً على أن الأبوين غير مرغوب فيهما.. ومما لا يُنكَرُ أن كثيرًا من الآباء والأمّهات -باستثناء قلّة قليلة منهم- يستحقون مثل هذه المعاملة، لأنه من المحتمل أنهم لم يقوموا في السابق بما يجب عليهم القيام به تجاه الأولاد، وهذا يُصدّق المثل القائل: "لقد حصدتَ ما زرعتَ"، فهذا يعني أن الأبوين لم يزرعا في السابق خيرًا حتى يحصدا الخير، ومن هذا المنطلق نستطيع القول بأن السبب في إيصالِ الأبوين إلى "دُور رعاية المسنين" ليس الأولاد،

بل السبب هو الآباء التعساء الذين لم يرعوا أبناءهم في السابق؛ فهم الذين هيؤوا لأنفسهم هذه النتيجة.

ك. بنية الأسرة المثالية في الإسلام

ومهما كان الأمر فللوالدين مكانة سامية في البيت المسلم، وفي هذا تقول الآية الكريمة: ﴿**وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا**﴾ (سورة النِّسَاءِ: 36/4).

﴿**وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾ يعني أذعِنوا من صميم قلوبكم بأن الله منزّه عن الأنداد والشركاء، من حيث "توحيد الألوهية" و"توحيد الربوبية"، ثم اعبدوه وَحْدَه

من منظور "توحيد العبودية" ولا تشركوا به في العبادة ندًّا أو شريكًا.

فهذه الأنواع الثلاثة من التوحيد مترابطة فيما بينها ترابطًا وثيقًا؛ لأن الله تعالى واحدٌ في ربوبيّته وتصرّفاته، وعلى العباد الذين منحَهم اللهُ الإرادةَ أن يوحدوه توحيدًا نابعًا

من أعماق قلوبهم.

وعقب هذا الأمر مباشرة يثَنِّي الله بالأمر بالإحسان إلى الوالدين.. وبهذا التعبير يعطي الله للوالدين حقًّا كبيرًا ويأمر الأولاد بأن يَبَّروهما بمشاعر الإحسان التام وأن يَمُدُّوا إليهما يدَ الحماية والرعاية والاهتمام، وبعد أن يضع القرآن الكريم الأبوين في مركزِ الاهتمام يوسّع الدائرة إلى أن يشمل هذا الإحسانُ الأقاربَ واليتامى والمساكين والجارَ القريب والجارَ البعيد والصاحبَ القريب وابن السبيل والعبيدَ والخدمَ ومن شاكَلهم.

وهناك آيات عديدة في القرآن تُذكِّر بحقوق الوالدين على الأولاد، وبعد النهي عن الإشراك بالله تَذْكُر عقبه مباشرةً قضيةَ الإحسان إليهما باعتباره فرضًا على الأولاد، وإليك مثالًا من تلك الوصايا الماسية:

﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۞ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ**﴾ (سورة لُقْمَانَ: 13/31-14).

وفي آية أخرى يَذكُر الله التفاصيلَ المتعلقة بأفكارنا وتصرفاتنا تجاههم قائلًا: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا**﴾ (سورة الإِسْرَاءِ: 23/17).

فيلاحَظ أن القرآن الكريم يَلفت الانتباه دائمًا إلى الوالدين اللذَين يُعتَبَران حجر الأساس للأسرة، ويَبنِي كلَّ شيء عليهما، وإنه لذو مغزى كبير أن تتحرر مسألة التربية من إطار القبيلة والعشيرة إلى إطارٍ يتشكّل من الأبوين والأولاد.

وفي الأسرة هناك حالتان: إحداهما من المركز إلى المحيط، والآخر من المحيط إلى المركز؛ فالأبوان يشكِّلان نواة الأسرة، وبالتالي فهما أحقّ أفراد الأسرة بالاحترام والطاعة، وقد بلغت قيمتهما أفاقًا عالية حَدَتْ بالنبيِّ ﷺ إلى أن يجعل الجنةَ -التي هي رمزٌ على رضوان الله تعالى- تحت

أقدام الأمهات، قائلًا: "**الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ**"[98]، كما بيَّن في حديث آخر أن من أهم وسائل دخول الجنة طاعةَ الوالدين، فهذا موضوعٌ يستحقُّ التركيز عليه.

وبالمقابل إذا قام الوالدان بما يترتب عليهما من الواجبات تجاه الأولاد، فأثبتا جدارتهما بهذا المقام السامي، فحينئذ سترتقي تلك العائلة إلى أن تصبح عنصرًا مهمًّا في المجتمع، وسيحصل الوالدان على نتائج ذلك الاحترام المطلوب من الأولاد، وسيحصدان أضعاف ما بذراه إلى ذلك الحين، وهذا هو ما ينعكس من المحيط إلى المركز.

إن الإسلام تَناوَل مؤسسة الأسرة فحرَّرها من تأثيرات العشيرة والقبيلة، وأعطاها شكلًا جديدًا، فهناك رابطة قوية بين أفراد الأسرة التي تتشكل بالروح الإسلامية، ومن الطبيعي أن يَنتُج من جُزَيئات مثل هذه الأسرة المترابطة مجتمعٌ قويٌّ.

وأعود فأُذكِّر بأن مركز الثقل في مثل هذا المجتمع هو الأبوان؛ حيث يقول الرسولﷺ: "**إِنَّ اللهَ يُوصِيكُمْ بِأُمَّهَاتِكُمْ** -ثَلَاثًا-، **إِنَّ اللهَ يُوصِيكُمْ بِآبَائِكُمْ، إِنَّ اللهَ يُوصِيكُمْ بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ**"[99]... فهذا الحديث يؤكد هذه الحقيقة ويلقي الضوء على الخطّ الممتد من المركز إلى المحيط مذكِّرًا بلزوم رعاية كل منهم على حسب درجته، وهذا هو ما نسميه: من المركز إلى المحيط، كما أن قوله تعالى: ﴿**وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا**﴾ (سورة النِّسَاءِ: 36/4) يوسِّع دائرة الإحسان بدءًا من الوالدين ثم الأبعد فالأبعد.

وقد محا الإسلام بهذا عقليةَ القبيلة والعشيرة والمباهاة بالأجداد، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (سورة البَقَرَةِ: 134/2)، وبذلك أرسى موقع الأسرة ووضعها في موقعها الذي تليق به.

---

[98] القضاعي: مسند الشهاب، 102/1.

[99] سنن ابن ماجه، الأدب، 1.

وفي ذلك يقول الرسولﷺ: "**إن الله ﷻ قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء...**"[100]، ولكن النهي عن الفخر بالآباء لا يسوّغ مسبتهم والطعن فيهم، وإنما الذي ينبغي التركيز عليه هنا هو أن يتخلى الناسُ عن التفاخر فيما بينهم ويصبُّوا همتهم على مواقفهم ومواقعهم هم ومراجعتهم لأنفسهم.

وخلاصة القول أننا حاولْنا ولو بشكلٍ مختصرٍ أن نحدد حدود الأسرة الداخلية، وإلا فإن الأسرة المثالية التي يؤسّسها الإسلام تكون لها علاقة خارجيّة بقبيلتها وعشيرتها كما أن لها علاقات بآبائها وأجدادها، وأيضًا هي مجموعة تشكِّلُ النواة المتكوّنة من الجد والجدة، والأبوين والأولاد والأحفاد، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ (سورة التَّحْرِيم: 6/66)، فقوله "وأهليكم" يحدّد المسؤولية التي يجب على الإنسان القيام بها تجاه أسرته.

ومن الخصال المهمّة في الإسلام الإيثار، والقرآن الكريم يشير إشاراتٍ خفيةً أو واضحةً في مواضع كثيرة إلى هذه الخصلة الإنسانية ويلفت النظر إليها، وقد فُسِّر الإيثار بأنه ترجيح الإنسان غيرَه بشيء مع كونه محتاجًا إليه، فإذا أنفق على غيره وسد المؤثِرُ حاجة غيره بشيء هو أحوجَ إليه من المؤثَرِ فذاك من أسمى أنواع الإيثار.

وقوله تعالى: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ (سورة الْحَشْرِ: 9/59) وغيرها من الآيات المشابهة للتنويه بشأن أولئك المباركين المتسمين بهذه الخصلة السامية، ولا يؤثّر في الإيثار عوامل القرب والبعد، بل غاية ما فيه أن المؤمن يؤْثر أخاه المؤمن على نفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى، ولكن مهما كان هذا الأمر محمودًا فله حدودٌ لا بد من الوقوف عندها، ومن ذلك الأسرة؛ حيث إنه إذا كان للإنسان أسرةٌ يعولها فعليه أن يسدّ حاجاتها قبل الآخرين، فهذا من الأمور التي تتقدّم على الإيثار، وبالأحرى إذا كان الأمر يتعلّق بحقوق الوالدين، فإنها تحوز أهمية تجعلها تسبق خصلة الإيثار في الرتبة.. ففي الحديث: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِﷺ فَقَالَ: "مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ

[100] سنن أبي داود، الأدب، 111؛ سنن الترمذي، التفسير، 5.

صَحَابَتِي؟ قَالَ: "**أُمُّكَ**"، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "**ثُمَّ أُمُّكَ**"، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "**ثُمَّ أُمُّكَ**" قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "**ثُمَّ أَبُوكَ**"[101].

وفي هذا الصدد يأتي هذا الحديث الذي يرويه سعد بن أبي وقاص، حيث يقول: عَادَنِي النَّبِيُّ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِنْ مَرَضٍ أَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ بَلَغَ بِي مِنَ الْوَجَعِ مَا تَرَى، وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ لِي وَاحِدَةٌ أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: "**لَا**"، قَالَ: فَأَتَصَدَّقُ بِشَطْرِهِ؟ قَالَ: "**الثُّلُثُ يَا سَعْدُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ ذُرِّيَّتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَلَسْتَ بِنَافِقٍ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا آجَرَكَ اللهُ بِهَا، حَتَّى اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ**"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أُخَلَّفُ بَعْدَ أَصْحَابِي؟ قَالَ: "**إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ إِلَّا ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً، وَلَعَلَّكَ تُخَلَّفُ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ، اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ، وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ**"[102].

فهذا الحديث يدل على أنه تدخَّل في الأمر مباشرة ووَضَعَ الحدَّ في الإنفاق بكل وضوح حينما رأى أن هناك حقوقًا للأسرة وأنّ هناك أبوين أو أولادًا يستحقّون الميراث.

وقريبٌ من هذا ما جرى لسيدنا كعب بن مالك، فقد تخلّف عن غزوة تبوك من دون أيّ معذرة، ولكنه لم يَلجأ إلى المعاذير الكاذبة، بل إنه ظلّ يستغفرُ الله إلى أن نزل فيه قرآنٌ يبشره بِقبولِ توبتِه، وحين ذلك أرادَ كعب أن يُنفق كلَّ أمواله في سبيل الله تعالى شكرًا لله تعالى وتصديقًا لتوبته؛ حيث جاء في سياق ما قاله في القصة المشهورة: "يا رسول الله، إنَّ من توبتي أن أنخلِعَ من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله، فقال رسول الله: "**أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**"[103].

---

[101] صحيح البخاري، الأدب، 2؛ صحيح مسلم، البرّ، 1.

[102] صحيح البخاري، المغازي، 78.

[103] صحيح البخاري، الوصية، 16؛ صحيح مسلم، التوبة، 53.

والمقام يضيق عن سرد الأمثلة العديدة، فهناك نماذج أخرى من العهد النبوي السعيد تدل على أنه حينما يتعلق الأمر بحقوق الأسرة فإن نطاق التصرفات يضيق على حسبها.

إن الإرشاد والتبليغ من الأمور الإلهية السامية في الإسلام ومن فروض الكفاية على المسلم في الظروف العادية، ولكن هناك ظروفًا خاصة (كالنفير العام) تحوّلهما إلى فرض عين، ولامتثال هذا الأمر المهمّ جاء صحابي إلى الرسولﷺ فقال له: إِنِّي أُرِيدُ الْجِهَادَ، قَالَ: "**أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟**" قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: "**فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ**"[104].

فإذا كان الرسولﷺ يوجِّه نظر الأولاد إلى الأبوين حتى في مسألة معدودة في عداد الفروض العينية؛ فهذا يعني أنه لا بد من الوقوف مليًّا عند مسؤوليات الأولاد تجاه والديهم.

الْحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا الله، وَمَا تَوْفِيقِي وَلَا اعْتِصَامِي إِلَّا بالله، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.

وَصَلِّ اللهمّ وَسَلِّمْ عَلٰى سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْاٰخِرِينَ.. وَعَلٰى اٰلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ بِعَدَدِ عِلْمِكَ وَبِعَدَدِ مَعْلُومَاتِكَ، اٰمِينْ.

المصادر

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: 275هـ)؛ **سنن أبي داود** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-3)؛ دار السلام، الرياض.

أبو السعود، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: 982هـ)؛ **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت: 235هـ)؛ **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**؛ تحقيق: كمال يوسف الحوت؛ مكتبة الرشد، الرياض، 1-7، ط 1، (1409هـ/1989م).

[104] صحيح البخاري، الجهاد، 138.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين (ت: 630هـ)؛ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**؛ تحقيق: علي محمد البجاوي؛ دار الكتب العلمية، بيروت، 1-8، ط 1، (1415هـ/1994م).

ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت: 213هـ)؛ **السيرة النبوية**؛ تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي؛ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي، 1-2، ط 2، (1375هـ/1955م).

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: 774هـ)؛ **البداية والنهاية**؛ دار الفكر، 1-15، (1407هـ/1986م).

ـــــــ، **تفسير القرآن العظيم**؛ تحقيق: سامي بن محمد سلامة؛ دار طيبة للنشر والتوزيع، 1-8، ط 8، (1420هـ/1999م).

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت: 273هـ)؛ **سنن ابن ماجه** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-6)؛ دار السلام، الرياض.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت: 711هـ)؛ **لسان العرب**؛ دار صادر، بيروت، 1-15، ط 3، (1414هـ/1994م).

ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت: 463هـ)؛ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**؛ تحقيق: علي محمد البجاوي؛ دار الجيل، بيروت، 1-4، ط 1، (1412هـ/1992م).

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت: 808هـ)؛ **مقدمة ابن خلدون**؛ موقع الوراق *http://www.alwarraq.com.*

أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: 241هـ)؛ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**؛ مؤسسة قرطبة، القاهرة ، 1-6.

البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي (ت: 292هـ)؛ **مسند البزار**؛ تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله (من 1 إلى 9) وعادل بن سعد (من 10 إلى 17) وصبري عبد الخالق الشافعي (18)؛ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، 1-18، ط 1، (2009م).

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: 458هـ)؛ **دلائل النبوة**؛ تحقيق: الدكتور عبد المعطي قلعجي؛ دار الكتب العملية، دار الريان للتراث، 1-7، ط 1، (1408هـ/1988م).

بنت الشاطئ، عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (ت: 1419هـ)؛ **التفسير البياني للقرآن الكريم**؛ دار المعارف، القاهرة، 1-2، ط 7.

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (ت: 256هـ/870م)؛ **صحيح البخاري** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-1)؛ دار السلام، الرياض.

الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (ت: 255هـ)؛ **مسند الدارمي** (سنن الدارمي)؛ تحقيق: حسين سليم أسد الداراني؛ دار المغني للنشر والتوزيـع، المملكة العربية السعودية، 1-4، ط 1، (1412هـ/1992م).

وَهْبَة الزُّحَيْلِيّ، أستاذ ورئيس قسم الفقه الإسلاميّ وأصوله بجامعة دمشق، كلّيَّة الشَّريعة؛ **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**؛ دار الفكر المعاصر، دمشق، 1-30، ط-2، (1418هـ-1998م).

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: 538هـ)؛ **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**؛ دار الكتاب العربي، بيروت، 1-4، ط 3، (1407هـ).

الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (ت: 794هـ)؛ **البرهان في علوم القرآن**؛ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم؛ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، 1-4، ط 1، (1376هـ/1957م).

الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (ت: 405هـ)؛ **المستدرك على الصحيحين**؛ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، 1-4، ط 1، (1411هـ/1990م).

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت: 360هـ)؛ **المعجم الأوسط**؛ تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني؛ دار الحرمين، القاهرة.

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: 369هـ)؛ **جامع البيان في تأويل القرآن**؛ تحقيق: أحمد محمد شاكر؛ مؤسسة الرسالة، 1-24، ط 1، (1420هـ/2000م).

محمد فتح الله كُولن، خواطر من وحي سورة الفاتحة؛ دار النيل، القاهرة، ط 1، (1436هـ-2015م).

ـــــــ، **جيلنا وإشكالاته العصرية**؛ دار النيل، القاهرة، ط 1، (1437هـ-2016م).

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: 261هـ)؛ **صحيح مسلم** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-2)؛ دار السلام، الرياض.

النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت: 850هـ)؛ **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**؛ تحقيق: الشيخ زكريا عميرات؛ دار الكتب العلميه، بيروت، ط 1، (1416هـ/1995م).

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت : 303هـ)؛ **سنن النسائي** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-2)؛ دار السلام، الرياض.

السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي (ت: 902هـ)؛ **المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة**؛ تحقيق: محمد عثمان الخشت؛ دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، (1405هـ/1985م).

سعيد النُّورْسِي، بديع الزمان (ت: 1960م)؛ من كليات رسائل النور: **الكلمات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط 2، (1432هـ/2011م).

ـــــــ، من كليات رسائل النور: **اللمعات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط 2، (1432هـ/2011م).

الفِرْيابِي، أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المُسْتَفاض الفِرْيابِي (ت: 301هـ)؛ **فضائل القرآن**؛ تحقيق: يوسف عثمان فضل الله جبريل؛ مكتبة الرشد، الرياض، ط 1، (1409هـ/1989م).

فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي (ت: 606هـ)؛ **مفاتيح الغيب**؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1-32، ط 3، (1420هـ).

القاسم بن سلّام، أبو عُبيد القاسم بن سلّام بن عبد الله الهروي البغدادي (ت: 224هـ)؛ **فضائل القرآن**؛ تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين؛ دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط 1، (1415هـ/1995م).

القاضي عياض، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي (ت: 544هـ)؛ **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**؛ دار الفيحاء، عمان، 1-2، ط 2، (1407هـ).

القضاعي، أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري (ت: 454هـ)؛ **مسند الشهاب**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مؤسسة الرسالة، بيروت، 1-2، ط 1، (1407هـ/1986م).

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت: 502هـ)؛ **تفسير الراغب الأصفهاني**؛ تحقيق: د. عادل بن علي الشِّدِي؛ دار الوطن، الرياض، جزء: 2-3، ط 1، (1424هـ/2003م).

الشامي، محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت: 942هـ)؛ **سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد**؛ تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض؛ دار الكتب العلمية، بيروت، 1-12، ط 1، (1414هـ/1993م).

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت: 279هـ)؛ **سنن الترمذي**؛ (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-4)؛ دار السلام، الرياض.

ـــــــ، **الشمائل المحمدية**؛ تحقيق: سيد بن عباس الجليمي؛ المكتبة التجارية، مكة المكرمة، ط 1، (1413هـ/1993م).

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت: 505هـ)؛ **إحياء علوم الدين**؛ دار المعرفة، بيروت، 1-4، بدون تاريخ.